المكتبة الأهلية . بمصر

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب

تاليف

السيّد محمود شكرى الآلوسى
البغدادى

عنى بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجت الاثرى

الطبعة الثانية

الجزء الثالث — من ثلاثة أجزاء

المطبعة الرحمانية — بمصر
١٣٤٣ — ١٩٢٥

المكتبة الأهلية . بمصر

بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الآلوسي
البغدادي

عني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجت الأثري

الطبعة الثانية

الجزء الثالث — من ثلاثة أجزاء

المطبعة الرحمانية — بمصر
١٣٤٣ — ١٩٢٥

بلوغ الأرب

في

معرفة أحوال العرب

عنى بنشره — محمد جمال — صاحب المكتبة الأهلية
في مصر

بلوغ الأرب
في
معرفة احوال العرب

تأليف

السيد محمود شكري الآلوسي
البغدادي

عني بشرحه وتصحيحه وضبطه

محمد بهجة الأثري

الطبعة الثانية

الجزء الثالث — من ثلاثة أجزاء

المطبعة الرحمانية — بمصر
١٣٤٣ — ١٩٢٥

بسم الله الرحمن الرحيم

قد سبق في أواخر الجزء الثاني من هذا الكتاب نبذة مما كان يعتقده بعض العرب من النكت المتمة ولم نستوف ذكرها هناك ملاحظة أن يخرج حجم الجزء عن مشاكلة أمثاله فاقتضى ايراد تتمة ذلك البحث في هذا المقام حرصاً على ما انطوى عليه من الادب فنقول متمسكين بحبل التوفيق :

ما ثبت عنهم فى الغائب اذا لم يقفوا على خبره

كانوا اذا غُمَّ [1] عليهم أمر الغائب ولم يعْرِفوا له خبراً جاؤا الى بئر عادية (أى مظلمة بعيدة القعر وبالتشديد منسوبة الى عاد كناية عن قدمها) أو جاؤا الى حفر قديم ونادوا فيه : يافلان ، أويا أبا فلان ثلاث مرات ويزعمون أنه إن كان ميتاً لم يسمعوا صوتا وان كان حياً سمعوا صوتاً ربما توهموه وهماً أو سمعوه من الصدى فبنوا عليه عقيدتهم . قال بعضهم :

دعوت أبا المغوار فى الحفر دعوةً فما آضَ صوتى بالذى كنتُ داعيا
أظنُّ أبا المغوار فى قعر مظلم تجر عليه الذارياتُ السوافيا [2]

ومعنى آض : رجع . وقعر مظلم : كناية عن القبر . وقال آخر :

وكم ناديته والليل ساجٍ [3] بعاديِّ البِئار فما أجابا

وقال آخر :

ألم تعلمى أنى دعوت مجاشماً من الحفر والظلماء باد كسورُها
فجاوبنى حتى ظننت بأنه سيطلع من جَوْفاه صعب حدورُها .

(١) بالبناء للمفعول أى خفي . (٢) الذاريات: الرياح الهائجة والسوافى جمع سافية وهى هنا التراب .
(٣) يقال سجا الليل يسجو سجواً : أى سكن . ومنه قوله تعالى : والليل إذا سجا . قال الزجاج وابن الاعرابى : أى سكن . وقال الفراء : سجا الليل ركد واظلم ومعنى ركد سكن . وفى المصباح : سجا الليل ستر بظلمته .

لقد سكنت نفسي وأَيقنت أنه　　سيقدم والدنيا عُجابٌ امورها

والكسور : الارض ذات صعود ونزول . والجوفاء : شجرة ذات جوف وأراد بها البئر التي صاح ونادى فيها . ومعنى حدورها : الانحدار اليها . وقال آخر :

دعوناه من عادية نَضْبَ ماؤها　　وهدم جاليها اختلافُ عصورِ

فرد جواباً ما شككْتُ بأنه　　قريبٌ إلينا بالإِياب بصيرُ [1]

أقوى [2] فى البيت الثانى وسكن (نضْب) ضرورة كما قال « لو عُصْر منه البانُ والمسك انعصَرْ » [3] ومعنى جاليها : جوانبها . وقال آخر

غاب فلم ارج له إيابا　　والحفر لا يرجع لى جوابا

وما قرأت مذنأى كتابا　　حتى متى استنشد الركابا

عنه وكل يمنع الخطابا

(ومن مذاهب العرب وأعاجيبها) انهم كانوا فى الحرب ربما اخرجوا النساء فبلْنَ بين الصفّين يرون أن ذلك يطفىء نار الحرب ويقودهم الى السلم . قال بعضهم :

لقونا بأبوال النساء جهالةً　　ونحن نلاقيهم ببيضٍ قواضبِ

والبيض : السيوف . والقواضب : القاطعات . وقال آخر :

---

(١) نضب الماء نضوباً من باب قعد : غار فى الارض ، وينضب بالكسر لغة . وسكن الضاد للضرورة ومن هذا القبيل الشاهد الذى أورده الاستاذ . والاياب : الرجوع . (٢) أقوى : أى خالف قوافيه برفع بيت وجر آخر . والاقواء من عيوب القافية ، مأخوذ من قولهم حبل قو بمعنى مختلف القوى أى الطاقات من عدم احكام فتله بأن تفتل إحدى الطاقتين على اليمين والاخرى على اليسار ثم اذا جمعت بينهما لا ينفتل هذا الحبل للمخالفة بل ينفك . سمى العيب المذكور بذلك لما فيه من المخالفة بين القافيتين . أو مأخوذ من قولهم : أقوى الربع اذا تغير وخلا عن سكانه لان الروى تغير وخلا عن حركته الاولى .. وقلت قصيدة لشعراء الجاهلية ينشدونها بلا اقواء ثم لا يستنكرونه لانه لا يكسر الشعر وأيضاً فان كل بيت منها كأنه شعر على حياله ، كذا فى التاج . ولنا هنا بحث لا يسعه مثل هذا المقام وتجده فى كتابنا (العروض والقوافى) . (٣) هذا الشطر لابى النجم العجلى وقبله :

كأنما فى نشرها اذا نشر　　فغمة روضات تردين الزهر

هيجها نفح من الطل سحر　　وهزت الريح الندى حتى قطر

قال البطليوسي : ويروى (لو عصر منها) فمن انث الضمير أعاده على المرأة التى تغزل بها . ومن ذكر الضمير أعاده على الفرع المذكور قبل هذا البيت فى قوله :

بيضاء لا يشبع منها من نظر　　خود يغطى الفرع منها المؤتزر

بالت نساء بني خراشة خيفة   منّا وأدبرتِ الرجالُ شلالا (١)

وقال آخر :

بالت نساؤهم والبيض قد أخذت   منهم مآخذ يستشفى بها الكلب (٢)

وهذان البيتان يمكن أن يراد بهما أن النساء بلن خيفة وذعراً لا على المعنى الذي نحن في ذكره فحينئذ لا يكون فيهما دلالة على المراد .

وقال الآخر :

هيهاتَ رد الخيل بالأبوال   اذا غدت في صور السعالى (٣)

وقال آخر :

جعلوا السيوف المشْرَفيَّة منهم   بول النساء وقل ذاك غناءَ (٤)

فأما مذهبهم في الخرزات والاحجار والرقي والعزائم فشهور

فمن خرزاتهم (السُلوانة) ويقال لها السَّلْوَة وهي خرزة يسقى العاشق منها فيسلو في زعمهم وهي بيضاء شفافة . قال الراجز :

لو اشرب السلوان ماسَليتُ   ما بي غنى عنكم وان غَنِيتُ

السلوان جمع سلوانة . وقال اللحياني : السلوانة تراب من قبر يسقى منه العاشق فيسلو . وقال عُروة بن حِزام (٥) :

(١) قال الزبيدي : ذهب القوم شلالا أى انشلوا مطرودين وجاؤا شلالا اذا جاء يطردون الابل والشلال القوم المتفرقون . قال ابن الدمينة :

أما والذى حجت قريش قطينه   شلالا ومولى كل باق وهالك

(٢) الكلب : داء يعرض للانسان من عض الكلب فيصيبه شبه الجنون فلا يعض أحداً الا كلب وتعرض له أعراض رديئة ويمتنع من شرب الماء حتى يموت عطشا . وزعمت العرب أن دواءه قطرة من دم ملك يخلط بماء فيسقاه ، ومنه يقال كلب الرجل اذا أصابه ذلك . (٣) هيهات : بعد . والسعالى جمع سعلاة وهي أخبث الغيلان وقيل نوع من المتشيطنة مغايرة للغول . وقد ذكرها العرب في شعرهم كثيراً . وقال بعضهم : لم تصف العرب بالسعلاة الا المجائز والخيل . (٤) المشرفية بفتح الميم المنسوبة الى مشارف وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف . وقيل هذا خطأ بل هي نسبة الى موضع من اليمن . (٥) هو أحد المتيمين الذين قتلهم الهوى . قيل : لا يعرف له شعر الا في (عفراء) ابنة عمه عقال بن مهاصر . وفي الاغاني طرف من أخباره مع عفراء . وابياته هذه من قصيدة له رنانة ، ذكرها أبو علي القالي البغدادي في نوادره . (راجع ذيل الامالي والنوادر ص ١٥٩ من طبعة المطبعة الكبرى الاميرية سنة ١٣٢٤) .

جعلتُ لعرّاف اليمامة حُكمه ... وعراف نجد ان هما شفيانى [1]
فقالا : نعم نشفى من الداء كله ... وقاما مع العُوّادِ يبتدران
فما تركا من رُقيةٍ يعرفانها ... ولا سلوةٍ إلا وقد سقيانى

وقال آخر :

سقونى سلوةً فسلوت عنها ... سقى الله المنيةَ من سقانى

أى سلوت عن السلوة واشتدبى العشق ودام . وقال الشمردلُ :

ولقد سُقيتُ بسلوة فكأنما ... قال المداوى للخيال بها ازدد

ومن خرزاتهم (الهنّمة) وهى خرزة يجتلب بها الرجال ويستعطف بها قلوبهم فيما يزعمون . ورقيتها : أخذته [2] بالهنّمة ، بالليل زوج وبالنهار أمة ، ومنها (الفطْسة والقبَلة . والدرديس) وكلها لاستجلاب قلوب الرجال . قال الشاعر :

جمَّعنَ من قَبَلٍ لهن وفَطْسةٍ ... والدرديس تماماً فى المنظم [3]
فانقاد كل مُشذَّب مَرِس القوى ... لحبالهنَّ وكل جلد شيْظَم [4]

وقيل : الدرديس خرزة سوداء يتحبب بها النساء الى بعولتهن توجد فى القبور العادية ورقيتها : أخَّذْته بالدرديس ، تدرُّ العرق اليبيس وتَذَرُ الجديد كالدريس [5] . وأنشد :

قطعت القيد والخرزات عنى ... فمن لى من علاج الدرديس

وأصل الدرديس فى اللغة الداهية ونقلت الى هذه الخرزة لقوة تأثيرها بزعمهم .

ومن خرزاتهم (القِرْزَحلَة) أنشد ابن الاعرابى :

لا تنفع القِرْزَحلَةُ العجائزا ... اذا قطعنا دونها المفاوزا [6]

(١) قال ابن خلدون : عراف اليمامة هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد الابلق الاسدى . والعرافة : سيأتى الكلام عنها فى هذا الجزء . (٢) أى رقيته . (٣) القبل . جمع قبلة والقبلة والفطسة خرزتان . والمنظم : الخيط ينظم الخرز فيه ، وقوله « تماما » يروى أيضاً « مقابلا »
(٤) المشذب : الشارد ، والمشذب الطويل الحسن الخلق . والمرس : الشديد المراس . والشيظم : الطويل الجسيم الفتى من الناس (٥) الدريس : القديم البالى من الثياب (٦) المفاوز جمع مفازة وهى الموضع المهلك مأخوذ من فوّز ـ بالتشديد ـ اذا مات لانها مظنة الموت وقيل من فاز اذا نجا وسلم وسميت به تفاؤلا بالسلامة

وهى من خرز الضرائر ، إذا لبستها المرأة مال اليها بعلها دون ضرتها .

ومنها خرزة (العُقرة) تشدها المرأة على حَقْوَيْها [١] فتمنع الحبل ذكر ذلك ابن السكيت فى (اصلاح المنطق) . ومنها (اليَنْجَلِبُ) ورُقيتها : أَخذته باليَنجلب فلا يَرِمْ ولا يَغِبْ ، ولا يَزَل عند الطُنُب . ومعنى لا يرم لا يبرح من مكانه وذكر الأزهرى هذه الخرزة فى الرباعى قال : ومن خرزات الاعراب الينجلب وهو الرجوع بعد الفرار والعطف بعد البغض . ومنها (كَرَار) مبنية على الكسر . ورقيتها : يا كَرَار كُرِّيه ، إن أقبل فسُرِّيه ، وإن أَدبر فضُرِّيه ، من فرجه الى فيه . ومنها (الهَمرة)[٢] ورقيتها : ياهمرةُ اهمريه ، من استه الى فيه ، وماله وبنيه ومنها (الخَصْمة) وهى خرزة الدخول على السلطان والخصومة تجعل تحت فص الخاتم أو فى زرّ القميص أو فى حمائل السيف . قال بعضهم :

يعلّق غيرى (خصمة) فى لقائهم   ومالى عليكم خصمة غير منطق

ومنها (الوجيهة) وهى كالخصمة حمراء كالعقيق . ومنها (العَطْفة) وهى خرزة العطف ، والكَحْلة خرزة سوداء تجعل على الصبيان لدفع العين عنهم . والقبلة خرزة بيضاء تجعل فى عنق الفرس من العين . والفطسة خرزة يعرض بها العدو ويقتل . ورقيتها : أخذته بالفطسة ، بالثُوبا [٣] والعطسة ، فلا يزل فى تَعسه ، من أمره ونكسه ، حتى يزور رمسه .. (ومن رقاهم للحب) هوا به هوابه [٤] ، البرق والسحابة ، أخذته بمرْكَن [٥] ، فحبه تمكن ، أخذته بابره ، فلا يزل فى عَبْره ، جلبته بإشْفَى [٦] فقلبه لا يهدا ، جلبته ببرد ، فقلبه لا يبرد .. وترقى الفارك [٧] زوجها اذا سافر عنها فتقول : بافول القمر ، وظل الشجر ،

(١) الحقو : موضع شد الازار وهو الخاصرة . ثم توسعوا حتى سموا الازار الذى يشد على العورة حقواً والجمع أحق وحقي مثل فلس وأفلس وفلوس (٢) قال فى اللسان : الهمرة خرزة الحب يستعطف بها الرجال . يقال : ياهمرة اهمريه ، وياغمرة اغمريه ، ان اقبل فسريه ، وان ادبر فضريه . (٣) الثؤباء بالمد فترة تعترى الشخص فينفتح عندها فمه . وهى هنا بالقصر مراعاة لوزن المنهوك (التاج) . (٤) الهوابة : النار الملتهبة والشمس المتوهجة . « عن كتاب المرأة العربية للمغيني » (٥) المركن : اجانة تغسل فيها الثياب ونحوها . (٦) الاشفى : بالكسر والقصر ، المثقب يكون للاساكفة . (٧) الفارك : المرأة التى تبغض زوجها .

شَمال تشمله [١] ، ودَبُور تدبره [٢] ونكباء [٣] تنكبه ، شيكَ فلا انتقش [٤] . ثم ترمى فى أثره بحصاة ونواة وروثةوبعرة . وتقول : حصاة حصت أثره ، ونواة نأت داره ، وروثة راثت خبره ،لفعته [٥] ببعره . . وقالت فارك فى زوجها — والفارك هى المبغضة لزوجها :

أتبعته اذ رحل العيس ضحى   بعد النواة روثة حيث انتوى
الروث للريث وللنأى النوى [٦]

وقال آخر :

رمت خلفه لما رأت وشك بينه   نواةً تلتْهـا روثة وحصاةُ
وقالت : نأت منك الديار فلا دنت   وراثت بك الأخبار والرجعات [٧]
وحصت لك الآثار بعد ظهورها   ولا فارق الترحالَ منك شتاتُ

وقال آخر يخاطب امرأته :

لا تقذفى خلفى اذا الركب اغتدى   روثة عير وحصاة ونوى
لن يدفعَ المقدار أسباب الرقى   ولا التهاويل على جنّ الفلا [٨]

هذا الرجز أورده الخالع فى هذا المعرض وهو بان يدل على عكس هذا المعنى أولى لأن قوله :

لن يدفع المقدار أسباب الرقى   ولا التهـاويل على جنّ الفلا

كلام يشعر بأن قذف الحصاة والنواة خلفه كالعوذة له لا كما تفعله الفارك

(١) الشمال : الريح تقابل الجنوب . (٢) الدبور : وزان رسول ريح تهب من جهة المغرب تقابل الصبا ، ويقال تقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق . وفى الحديث : نصرت بالرعب واهلكت عاد بالدبور . (٣) هى ريح انحرفت ووقعت بين ريحين أو بين الصبا والشمال . (٤) الانتقاش : استخراج الشوك من الرجل ومنه حديث أبى هريرة (رض) : واذا شيك فلاانتقش أى دخلت فيه الشوكة فلا خرجت وهو دعاء عليه . (٥) كذا ويظهر ان فى العبارة سقطا . (٦) انتوى : قصد ، والريث : الابطاء ، والنأى : البعد . (٧) راثت : ابطأت (٨) التهاويل جمع تهويل وهو ماهول به الانسان . والفلا : جمع فلاة وهى الارض التى لاماء فيها ؛ والعير : الحمار وغلب على الوحشى .

التى تتمنى الفراق . وقد أبطل الشرع ذلك كله والأحجار لا تنفع ولا تضر فى مثل ما سبق من الأمور . ومثل ذلك النشر والتمائم ، فى سنن أبى داود عن جابر بن عبد الله رضى الله تعالى عنه قال سألنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن النُشرة فقال : هى من عمل الشيطان . والنشرة ضرب من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن ان به مسَّ الجن . وقيل سميت نشرة لأنه ينشر بها عنه أى يحل عنه ما خامره من الداء . وعن الأصمعى قال : النشرة من السحر . وأنشد من قول جرير :

أدعوكَ دعوةَ ملهوفٍ كأنَّ به مسًّا من الجنّ أو ريحاً من النُّشَرِ

وعن عبد الله بن عمر قال : سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : ما أبالى ما أتيت ان أنا شربت ترياقاً أو تعلقت تميمة أو قلت الشعر من قبل نفسى . قال الخطابى : ليس شرب الترياق مكروهاً من أجل ان التداوى محظور ، وقد أباح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم التداوى والعلاج فى عدة أحاديث ولكن من أجل ما يقع فيه من لحوم الأفاعى وهى محرمة . والترياق أنواع فاذا لم يكن فيه لحوم الافاعى فلا بأس بتناوله والله أعلم . والتميمة يقال إنها خرزة كانوا يعلقونها يرون انها تدفع عنهم الآفات ، واعتقاد هذا الرأى جهل وضلال اذ لا مانع ولا دافع غير الله سبحانه ، ولا يدخل فى هذا التعوذ بالقرآن والتبرك والاستشفاء به لانه كلام الله سبحانه ، والاستعاذة به ترجع الى الاستعاذة بالله سبحانه . . ويقال بل التميمة قلادة تعلق فيها العوذ . قال أبو ذُؤَيْب :

واذا المنيةُ أنشبتْ أظفارَها ألفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تنفع (١)

(١) البيت من شواهد التلخيص ، والشاهد فيه الاستعارة بالكناية والاستعارة التخييلية فهو هنا شبه فى نفسه المنية بالسبع فى اغتياله النفوس بالقهر والغلبة من غير تفرقة بين نفاع وضرار ولا رقة لمرحوم فأثبت لها الاظفار التى لا يكمل الاغتيال فى السبع بدونها تحقيقاً للمبالغة فى التشبيه فتشبيه المنية بالسبع استعارة بالكناية واثبات الاظفار لها استعارة تخييلية . والبيت من قصيدة لابى ذؤيب — واسمه خويلد بن خالد بن محرث بن ربيد (بالراء المهملة) بن مخزوم ، ينتهى

وقال آخر :

بلادٌ بها عقّ الشباب تميمتى (١)　　وأول أرض مسّ جلدى ترابها

وقد قيل إن المكروه من العوذ هو ما كان بغير لسان العرب فلا يفهم معناه ولعله قد يكون فيه سحر ونحوه من المحظور وتمام الكلام فى الرقى والتعاويذ يطلب من كتب العقائد ونحوها والله أعلم .

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الوشم

وهو على ما ذكره أهل اللغة أن يغرز فى العضو إبرة (٢) ونحوها حتى يسيل الدم ثم يحشَى بنورة (٣) أو نحوها فيخضر وكانوا يقصدون بذلك التزين فينقشون به غالب أبدانهم أنواعاً من النقوش من صور حيوانات وغيرها وكذلك الشفاه

نسبه انزار — قالها وقد هلك له خمس بنين فى عام واحد وكانوا فيمن هاجر الى مصر فرثاهم بهذه القصيدة وأولها : —

أمن المنون وريبها تتوجع　　والدهر ليس بمعتب من يجزع
قالت أمامة مالجسمك شاحبا　　منذ ابتذلت ومثل مالك ينفع
أم مالجسمك لايلائم مضجعا　　الا اقض عليك ذاك المضجع
فأجبتها أرثى لجسمى انه　　أودى بنىّ من البلاد فودعوا
أودى بنى وأعقبونى حسرة　　عند الرقاد وعبرة لاتقلع
فالعين بعدهم كأن حداقها　　كحلت بشوك فهى عورى تدمع
فغبرت بعدهم بعيش ناصب　　واخال انى لاحق مستتبع
سبقوا هوىّ وأعنقوا لهواهم　　فتخرموا ولكل جنب مصرع
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم　　فاذا المنية أقبلت لاتدفع
واذا المنية انشبت اظفارها　　ألفيت كل تميمة لاتنفع
وتجلدى للشامتين اريهم　　انى لريب الدهر لا أتضعضع
حتى كأنى للحوادث مروة　　بصفا المشرق كل يوم تقرع
والدهر لايبقى على حدثانه　　جون السحاب له جدائد أربع

(١) يقال للصبي إذا نشأ مع حى حتى شب وقوى فيهم عقت تميمته فى بنى فلان . والاصل فى ذلك ان الصبي مادام طفلا تعلق أمه عليه التمائم تعوذه من العين فاذا كبر قطعت عنه . ووقع فى خطبة المطول للسعد (بلاد بها نيطت على تمائمى) وما ذكره الاستاذ هو الاصح . راجع تاج العروس ج٧ ص١٨ . (٢) الصواب ان يقال: (ان يغرز (أى ينخس) العضو بابرة أو نحوها الخ) . (٣) كذا والصواب « ثم يحشى بنؤور أو نحوه » والنؤور كصبور النيلج ودخان الشحم وحصاة كالاثمد تدق فتسفها اللثة .

فترى شفاه غالب نسائهم زرقاً . وأما الرجال منهم فكانوا يستعملون الوشم فى بعض المواضع من الجسد بزعم انه يقوى المفصل الذى وشم عليه . والأطفال منهم يوشمون فى بعض المحال من وجوههم لقصد الزينة ، وهو مذهب باطل وعادة مستقبحة جداً فلذلك أبطلته الشريعة المحمدية لما فيه من تغيير خلق الله . ففى الحديث : لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن المغيرات خلق الله . والمتنمصات جمع متنمصة . وحكى ابن الجوزى : متنمصة وهى التى تطلب النماص والنامصة هى التى تفعله والنماص ازالة شعر الوجه بالمنقاش ويسمى المنقاش نماصاً لذلك وهى حديدة يؤخذ بها الشعر ويقال إن النماص مختص بازالة الشعر من الحاجبين لترققهما أو ليسويهما . والمتفلجات جمع متفلجة والفلج تباعد ما بين الثنايا والرباعيات بمبرد ونحوه والحاصل ان كل ما فيه تغيير خلق الله حرام

ومن مذاهبهم النياحة على الهالك منهم والندب ونحو ذلك

كان العرب فى الجاهلية يوصون أهليهم بالبكاء والنوح عليهم اذا ماتوا وكان ذلك مشهوراً من مذاهبهم وهو موجود فى شعرهم كقول طَرَفة بن العبد :

فإنْ مُتُّ فانعِيني بما أنا أهلُهُ ... وشُقّى علىَّ الجيبَ يا ابنةَ مَعْبَدِ (١)

وقال لبيد لابنتيه لما حضرته الوفاة :

تمنّى ابنتايَ أن يعيشَ أبوهما ... وهلْ أنا إلا من ربيعةَ أو مُضَرْ (٢)

فقوما وقولا بالذى تعلمانه ... ولا تَخْمِشا وجهاً ولا تحلقا شعر

وقولا : هو المرء الذى لا صديقَهُ ... أضاعَ ولا خان الأمين ولا غدر

(١) النعى : اشاعة خبر الموت . والجيب من القميص هو الذى يدخل منه الرأس . وابنة معبد : ابنة أخيه معبد . (٢) قال السيد المرتضى فى أماليه : أراد هل انا الا من أحد هذين الحيين فسبيلى أن أفنى كما فنيا وانما حسن ذلك لان قصده الذى أجرى اليه وغرضه الذي نحاه هو ان يخبر بكونه ممن يموت ويفنى ولا يخل به اجمال ما أجمل من كلامه فأضرب عن التفصيل لانه لا فائدة فيه ولانه سواء كان من ربيعة أو مضر فموته واجب ...

الى الحول ثم اسم السلام عليكما ومن يبكِ حَوْلاً كاملاً فقد اعتذر (١)

وبعد وفاته كانتا تلبسان ثيابهما فى كل يوم وتأتيان مجلس جعفر بن كلاب قبيلته فترثيانه ولا تعولان فأقامتا على ذلك حولاً كاملاً ثم انصرفتا . ومعنى قوله : وهل أنا الخ ان جميع آبائى من ربيعة أو مضر قد ماتوا ولم يسلم أحد منهم من الموت فكذلك أنا لا بدّ لى من الموت . وانما قال الى الحول لأن الزمان ساعات وأيام وجمع وشهور وسنون والسنون هى النهاية فالحول والسنة مدة هى نهاية الزمان فى التقسيم الى أجزائه ويمكن أن يكون ذلك لما روى فى بعض الآثار أن أرواح الموتى لا تنقطع من التردد الى منازلهم فى الدنيا الى سنة كاملة فكأنه إنما أمرهما بما ذكر من الذكر والدعاء وغير ذلك ليشاهد ذلك منهما . ولذلك قال ومن يبك حولا الخ . وقال بعضهم إنما وقت بالحول لأنه مدة عزاء الجاهلية وهذا لا يصح هنا لأن قائله صحابى ومثل هذا كثير فى أشعارهم وقد أبطلت ذلك الشريعة . وفى الحديث : إن الميت ليعذب ببكاء أهله . قال أهل الحديث : الميت انما تلزمه العقوبة فى ذلك بما تقدم من أمره اياهم بذلك وقت حياته وان لم يأمرهم لا يلحقه عقوبة (ولا تَزِرُ وازرةٌ وزرَ أُخرى) والوزر انما هو على من ناح وأظهر الجزع من تلقاء نفسه . وفى الحديث : ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية . وفى الصحيحين عن أبى موسى الاشعرى ان رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم برىء من الصالقة والحالقة والشاقة . والصالقة : هى التى ترفع صوتها بالنياحة . والحالقة : هى التى تحلق شعرها عند المصيبة . وفى الصحيحين أيضاً عن أم عطية قالت : أخذ علينا رسول الله صلى الله تعالى عليه

(١) هذا البيت يورده بعض النحاة على ان لفظ (اسم) مقحم . قال ابن جنى : هذا قول أبى عبيدة ، وكذلك قال فى بسم الله . ونحن نحمل الكلام على ان فيه محذوفاً ، قال أبو على : وانما هو حد حذف المضاف أى ثم اسم معنى السلام عليكما واسم معنى السلام هو السلام وكانه قال ثم السلام عليكما فالمعنى لعمري ماقاله أبو عبيدة لكنه من غير الطريق التى أتاه هو منها ! الا تراه هو اعتقد زيادة شىء واعتقدنا نحن نقصان شىء ؟

وسلم فى البيعة أن لا ننوح وفى صحيح مسلم عن أبى هريرة يرفعه : اثنتان فى الناس هما بهم كفر الطعن فى النسب والنياحة على الميت . والنياحة : رفع الصوت بالندب . والندب : تعديد النادبة بأعلى صوتها محاسن الميت وقيل هو البكاء مع تعديدها وأما البكاء على الميت لرقة ورحمة خالياً عما ذكر فلا محذور فيه فان الله تعالى أودع الرحمة فى قلوب عباده وانما يرحم الله من عباده الرحماء .

(ومن عوائدهم فى هذا الباب) ما حكاه الأصمعى قال : كانت العرب اذا مات فيهم ميت له قدر ركب راكب فرساً وجعل يسير فى الناس ويقول : نعاء فلاناً أى انعه واظهر خبر وفاته وهى مبنية على الكسر مثل نزال وعلى ذلك قول المتنخل الهذلى :

أقول لمـا أتانى الناعيان به : لا يبعد الرمح ذو النصلين والرجلُ
رمح لنا كان لم يفللْ ننوء به توقى به الحرب والضراء والجللُ
رَبّاء شمّاء لا يأوى لقُلَّتِها الا السحابُ وإلا الأوْبُ والسَبَلُ (١)

أى هو رباء لأصحابه بالهمز اذا صار ربيئة لهم أى طليعة فوق شرف وموضع مرتفع والشماء مؤنث أشم من الشمم وهو الارتفاع أراد هضبة شماء فحذف الموصوف بدليل القلة وهى رأس الجبل . والهضبة الجبل المنبسط على وجه الأرض . ومن المعلوم أيضاً ان التى لا يأوى الى قلتها الا السحاب والمطر لا تكون الا هضبة . والأوب قال الخوارزمى : هو المطر لأنه بخار ارتفع من الأرض ثم آب اليها أى رجع ولذلك سمى رجعاً فسموه أوباً ورجعاً تفاؤلا ليرجع ويؤب . وقيل لأن الله تعالى يرجعه وقتاً فوقتاً واليه ذهب صاحب الكشاف عند قوله تعالى (والسماء ذات الرجع) وأنشد هذا البيت على ان المطر يسمى رجعاً كما فى الآية وأوباً

(١) هذا الشعر من قصيدة طويلة يرثى بها ابنه أثيلة (مصغراً) قتلته بنو سعد بن فهم بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر . راجع الاغانى ج ٢٠ ص ١٤٥ من طبعة الساسى .. وقوله : ذو النصلين ، النصل حديدة السهم والنصلان مثنى عبارة عن النصل والزج . ومعنى تنوء : تنهض . والجلل حركة الامر العظيم والصغير ضد والمراد هنا الاول .

كما فى البيت تسمية بمصدرى رَجَع وآبَ ، وذلك أن العرب كانت تزعم أن السحاب يحمل الماء من البحر ثم يرجعه اليه . والسبل بفتحتين المطر المنسبل أى النازل .

(ومن مذاهبهم) انهم يقولون للميت اذا مات لا تبعد . قالت الخِرْنِق [1] :

لا يَبْعَدَنْ قومى الذين هُمُ   سُمُّ العُداةِ وآفةُ الجُزْرِ
النازلينَ بكلّ مُعْتَرَكٍ   والطيبونَ مَعَاقِدَ الأُزْرِ

وفى كتاب اللب : ان العرب قد جرت عادتهم باستعمال هذه اللفظة فى الدعاء للميت ولهم فى ذلك غرضان . أحدهما : انهم يريدون به استعظام موت الرجل الجليل وكأنهم لا يصدقون بموته وقد بين هذا المعنى زهير بن أبى سُلْمى بقوله :

يقولون حصن ثم تأبى نفوسهم   وكيف بحصن والجبال جنوح
ولم تلفظ الموتى القبور ولم تزلْ   نجوم السماء والأديم صحيح

يريد انهم يقولون مات حصن ثم يستعظمون أن ينطقوا بذلك ويقولون كيف يجوز أن يموت والجبال لم تنسف والنجوم لم تنكدر والقبور لم تخرج موتاها وجرم العالم صحيح لم يحدث فيه حادث . والغرض الثانى : انهم يريدون الدعاء له بأن يبقى ذكره ولا يذهب لأن بقاء ذكر الانسان بعد موته بمنزلة حياته ألا ترى الى قول الشاعر :

فاثنوا علينا (لا أبا لابيكم)   بأفعالنا إن الثناء هو الخلد

وقال آخر يرثى يزيد بن يزيد الشيبانى :

فان تك أفنته الليالى فأوشكت   فان له ذكراً سيفنى اللياليا

(١) هى بنت بدر بن هنان بن مالك وهى أخت طرفة لامه .. وهذان البيتان أوردهما سيبويه فى باب الصفة المشبهة : قال الاعلم ، الشاهد فيه (أى البيت الثانى) نصب معاقد الازر بقولها الطيبون تشبيهاً بالمفعول به لانه معرفة باضافته الى الازر فهو كقولك الحسنون أوجه الاخ . وصفت قومها بالظهور على العدو ونحر الجزر للاضياف والملازمة للحرب والعفة عن الفواحش فجعلت قومها سما لاعدائهم يقضى عليهم ، وآفة للجزر لكثرة ماينحرون منها . والمعترك : موضع ازدحام فى الحرب . ويقال فلان طيب معقد الازار اذا كان عفيفاً لا يحله لفاحشة .

وقال المتنبي وأحسنَ :

ذكر الفتى عمره الثانى وحاجته   ما فاتَهُ وفضول العيش اشغال (١)

وقد بين مالك بن الريب المزنى ما فى هذا المحال من قصيدة تقدمت على غيرها :

يقولون لا تبعدْ وهم يدفنوننى   وأين مكان البعد الا مكانيا (٢)

وقال الفرار السلمى (٣) :

ما كان ينفعنى مقالُ نسائهم   وقُتِلتُ دونَ رجالهم لا تبعدِ (٤)

ومن مذاهبهم جز النواصى

كانت العرب اذا أنعمت على الرجل الشريف بعد أسره جزّوا ناصيته وأطلقوه فتكون الناصية عند الرجل يفخر بها والنواصى جمع ناصية وهى الشعر فى مقدم الرأس فوق الجبهة . قال بشر بن أبي خازم الاسدى :

واذ جزت نواصى آل بدر   فأدوها وأسرى فى الوثاق

والا فاعلموا أنا وأنتم   بغاةٌ ما بقينا فى شقاق (٥)

وسبب هذا الشعر أن قوماً من آل بدر الفزاريين جاوروا بنى لأم من طيء فعمد بنو لأم الى الفزاريين فجزوا نواصيهم وقالوا : قد مننّا عليكم ولم نقتلكم

(١) قال ابن القطاع : صحف الرواة هذا البيت فرووه (فاته) بالفاء والصواب بالقاف وعليه فسر الواحدي فقال : اذا ذكر الانسان بعد موته كان ذلك حياة ثانية له وما يحتاج اليه فى دنياه قدر القوت وما فضل من القوت فهو شغل كقول سالم بن وابصة :

غنى النفس ما يكفيك من سد حاجة   فان زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا

(٢) البيت من قصيدة له قالها وهو مريض يذكر مرضه وغربته . وقد أوردها القالى فى أماليه (ج٣ص١٣٧) . (٣) اسمه حيان بن الحكم : حيان فعلان من الحياء . والسلمى منسوب الى سليم بالتصغير (٤) وقتلت دون رجالها جملة وقعت حالا وجملة لاتبعد وقعت مقول القول . يقول : ماينفعنى ان يندبننى ويقلن لاتبعد وقد بعدت . (٥) البغاة جمع باغ وهو الظالم من البغي وهو الطلب لانه يطلب ما ليس له بحق . والشقاق المعاداة لان كل واحد من المتعاديين يفعل مايشق على الآخر ، أو من الشق بمعنى الجانب لان كل واحد يكون فى طرف غير طرف الثانى . وفى البيت شاهد العطف على محل اسم ان بعد مضى الخبر تقديراً .

وبنو فَزارة حلفاء بنى أسد فغضب بنو فزارة لأجل ما صنع بالبدريين فقال بشر هذين البيتين من قصيدة يذكر فيهما ما صنع ببنى بدر ويقول للطائيين فاذ قد جززتم نواصيهم فاحملوها الينا واطلقوا من قد أسرتم منهم وان لم تفعلوا فاعلموا انا نبغيكم ونطلبكم فان أصبنا أحداً منكم طلبتمونا به فصار كل واحد منا يبغى صاحبه فنبقى فى شقاق وعداوة أبداً . وربما جزت ناصية مطلق الأسير شريفاً كان أم لا ، وأخذ للافتخار والعرب متفاوتون فى المذاهب . وقال زهير من قصيدة مدح بها هرم بن سنان المرى أحد الأجواد فى الجاهلية :

حَدِبٌ على المولى الضَّريكِ اذا　　نابتْ عليه نوائبُ الدهْرِ
عظمت دسيعته وفضله　　جزّ النواصى من بنى بدر
أيام ذبيان مراغمة　　فى حربها ودماؤها تجرى
ومُرَهَّق النيران يطعم فى　　اللأواء غير مُلَعَّنِ القِدْرْ

الحدب : المشفق . والمولى : ابن العم . والضريك : الفقير المحتاج . والدسيعة : العطية الجزيلة . وجز النواصى تقدم معناه . وراغمهم : نابذهم وهجرهم وعاداهم . ومرهق النيران : أى تغشى ناره يقال رهقت الرجل اذا غشيته وأحطت به والمشدد للتكثير : يصف أنه يوقد النار بالليل للطبخ واطعام الناس وليعشو اليها الضيف والغريب . وكثرة النيران للاخبار عن سعة معروفة . واللأواء شدة الزمان والقحط . وقوله : غير ملعن القدر أى لا يؤكل مافيها دون الضيف والجار واليتيم والمسكين فهو محمود القدر لا مذمومها واوقع اللعن على القدر مجازاً ، وهو يريد صاحبها . وما أحسن قول الخنساء فى هذا الباب مفتخرة بقومهم على الاصحاب :

جَزَزْنا نواصى فُرْسَانهم　　وكانوا يَظُنُّون ان لا تُجزا
ومن ظنّ ممن يلاقى الحروب　　بان لا يصاب فقد ظنّ عجزا (١)

(١) تقول : ان من دخل الحرب وقارع الابطال ، وظن انه لا يصاب بشىء فقد ظن ظنا باطلا وسمته عجزاً تجوزا

نضيف ونعرف حق القرى ونتخذ الحمدَ ذُخراً وكنزا
ونلبس في الحرب سرد الحديد وفي السلْم خزاً وعَصْباً وقزا (١)

ومن مذاهب العرب شدّ اللسان

كان من مذاهب العرب انهم اذا أسروا أسيراً وكان شاعراً ربطوا لسانه بنِسعة وعلى ذلك قول عبد يغوث القحطاني الحارثي اليمني من قصيدة :

أقول وقد شدّوا لساني بنسعةٍ : أمعشر تَيْمٍ أطلقوا عن لسانيا
أمعشر تَيْمٍ قد ملكتم فأسجحوا فانَّ أخاكم لم يكن من بوائيا
فان تقتلوني تقتلوا بي سـيداً وان تطلقوني تحربوني بماليا

النِسعة بكسر النون : سير منسوج . واسجحوا بتقديم الجيم على الحاء المهملة بمعنى سهلوا ويسروا . والبواء : السواء أي لم يكن أخاكم نظيراً لي فأكون بواء له وتحربوني تسلبوني وتغلبوني . وبما ذكرنا من المذهب فسر البيتَ جمعٌ وقالوا : انهم شدوا لسانه بنسعة حقيقة واليه ذهب الجاحظ في البيان والتبيين والاصفهاني في الأغاني وحكاه أيضاً ابن الانباري بأنهم ربطوه بنسعة مخافة أن يهجوهم وكانوا سمعوه ينشد شعراً فقال: اطلقوا لي عن لساني أذم أصحابي وأنوح على نفسي . فقالوا : إنك شاعر ونحذر أن تهجونا فعاهدهم أن لا يهجوهم فأطلقوا له عن لسانه .

قال الجاحظ : وبلغ من خوفهم من الهجاء أن يبقى ذِكَرهم في الأعقاب ويسب به الأحياء والأموات انهم اذا أسروا الشاعر أخذوا عليه المواثيق وربما شدوا لسانه بنسعة كما صنعوا بعبد يغوث بن وقاص الحارثي حين أسرته تيم يوم

(١) السرد : نسج الدرع واسم جامع للدروع وسائر الحلق . والخز : قال الفيومي ، اسم دابة ثم اطلق على الثوب المتخذ من وبرها . والقز معرب قال الليث هو مايعمل منه الابريسم ولهذا قال بعضهم القز والابريسم مثل الحنطة والدقيق . والعصب : مثل فلس برد يصبغ غزله ثم ينسج .

الكلاب . وفى تفسير شد اللسان قول آخر وهو : ان هذا مثل وذهب اليه شراح أبيات الشعراء والقالى فى أماليه ، وحكاه ابن الانبارى فى شرح المفضليات وقال : لأن اللسان لا يشد بنسعة وإنما أراد افعلوا بى خيراً لينطلق لسانى بشكركم وانكم مالم تفعلوا فلسانى مشدود لا أقدر على مدحكم . والوجه ما تقدم فان الحقيقة هى الاصل !

ومن مذاهبهم خضاب النحر

كانت العرب فى الجاهلية تعيش فى الغالب بلحوم الصيد وكانت خيلهم لجودتها وعراقتها تسهل عليهم ما يراه غيرهم من الصعوبة فى ذلك وتعينهم على نيل مقاصدهم فكانت عندهم من أعز الاموال ، تلحظ لديهم كما يلحظ العيال ، وكان السابق منها يرفع له فى الفخر رايات ، وتوضع عليه لأجل المباهاة علامات ، ولذلك كان من ديدنهم وعوائدهم أنهم اذا ساقوا الخيل على الصيد وأغاروها نحوه فالسابق على غيره فى الوصول اليه يخضبون نحره بدم ما يمسكونه من الصيد علامة على كونه لا يدرك فى الغارات ، وانه سبّاق غايات . وقد بطلت بعد ظهور الاسلام هذه العادة ولم يعرفها سكان البوادى من العرب اليوم ، غير أن لاعراب الحجاز عادةً قريبة من ذلك وهى أنهم اذا نزل بهم ضيف يعتنى بشأنه ذبحوا له أو نحروا فاذا سافر منهم وترحل عنهم لطخوا طرفَيْ سنام بعيره بدم ما ذبحوه على شكل المثلث إيذاناً بأنه من الرجال المعتنى بشأنهم بين قبائل العرب ومن الاماجد الأعزة الحرى بأن يعز .

ومن مذاهبهم التعقية

قال أبو العباس ثعلب : التعقية سهم الاعتذار . وقال ابن الاعرابى : أصل هذا أن يقتل الرجل رجلاً من قبيلته فيطلب القاتل بدمه فيجتمع جماعة من الرؤساء الى أولياء المقتول بدية مكملة ويسألونهم العفو وقبول الدية فان كان أولياؤه ذوى قوة أَبَوْا ذلك والا قالوا لهم : بيننا وبين خالقنا علامة للأمر والنهى .

فيقول الآخرون : ما علامتكم ؟ فيقولون : أن نأخذ سهماً فنرمي به نحو السماء فان رجع الينا مضرجاً بالدم فقد نهينا عن أخذ الدية وان رجع كما صعِدَ فقد أمرنا بأخذها وحينئذ مسحوا لحاهم وصالحوا على الدية وكان مسح اللحية علامة للصلح . قال الاشعر (١) الجُعفى :

عَقّوا بسهم ثم قالوا : سالموا   ياليتني فى القوم إذ مسحوا اللحى!

قال ابن الاعرابى : مارجع ذلك السهم قط الا نقياً ولكنهم يعتذرون به عند الجهال . ومن شعر الهذلى ما أنشده أبو عبيد البكرى فى شرح نوادر القالى :

لا ينسئ الله منا معشراً شهدوا   يوم الاميلح لاعاشوا ولا مرحوا (٢)

عقوا بسهم فلم يشعر به أحد   ثم استفاؤا وقالوا حبذا الوَضَحُ (٣)

قال البكرى : هذا من شعر يهجو به ناساً من قومه كانوا مع أبيه حجاجاً (٤) يوم قتل وقوله لا ينسئ الله أى لا يؤخر الله موتهم من الإنساء وهو التأخير . وعقوا بضم القاف وفتحها لأنه جاء من بابين فانه يقال عق بالسهم اذا رمى به نحو السماء وذلك السهم يسمى عقيقة بقافين ويقال له أيضاً سهم الاعتذار فعقوا بضم القاف . ويقال عقى بسهمه تعقية اذا رماه فى الهواء فعقوا بفتح القاف . وكانت العرب تعيب على من يأخذ الدية ويرضى بها من درك ثأره وشفاء غيظه كقول قائلهم يهجو من أخذ الدية من الابل :

وان الذى أصبحتمُ تحلبونه   دمٌ غير أن اللون ليس بأشقرا

(١) هكذا بالشين المعجمة ومثله في التاج (مادة عق) وصوابه « الاسعر » بالسين المهملة كما ورد فى كتب الائمة ، ومنهم الاصمعى فى مختاراته (الاصمعيات) المطبوعة فى (ليبسك) . وقد ورد صحيحاً فى موضع آخر من التاج (مادة سعر) قال : والاسعر لقب مرثد بن أبى حمران الجعفى الشاعر ، سمى بذلك لقوله :

فلا تدعنى الاقوام من آل مالك   اذا أنا لم أسعر عليهم وأثقب

(٢) الاميلح ، موضع فى بلاد هذيل كانت به وقعة . ومعنى لامرحوا لا جرحوا . يقول — لم يغيبوا فتسكن أن يؤسروا أو يقتلوا ولا جرحوا اى ولا قاتلوا اذ كانوا معنا . عن اللسان

(٣) اخبر أنهم آثروا ابل الدية والبانها على دم قاتل صاحبهم . والوضح ههنا اللبن .

(٤) فى بعض الكتب (كانوا مع ابنه « حجاج ») . ولا أعلم ان كان له ابن يعرف بهذا الاسم .

وقال جرير يعير من أخذ الدية فاشترى بها نخلا :

الا أبلغ بنى حجر بن وهب بأن التمر حلو فى الشتاء

وقال آخر :

خليلان مختلف شكلنا أريد العلاء وتبغى السمن

أريد دماء بنى مالك ورأى المعلى بياض اللبن

ولهذا كان يأبى أولياء المقتول عن قبول الدية اذا كانوا أقوياء . وهذا وان كانت الشريعة قد أبطلته وجاءت بما هو خير منه وأصلح فى المعاش والمعاد من تخيير الاولياء بين إدراك الثأر ونيل التشفي وبين أخذ الدية فان القصد به أن العرب لم تكن تعير من أخذ بدل ماله ولم تعده ضعفاً ولا عجزاً البتة بخلاف من أخذ بدل دم وليه .

ومن مذاهبهم حمل الملوك على الاعناق اذا مرضوا

قال أبو عبيدة : وكانت ملوك العرب اذا مرض أحدهم حملته الرجال على أكتافها يتعاقبونه لأنه عندهم أوطأ له من الارض [1]

قال النابغة الذبيانى :

ألم أقسِمْ عليك لتُخْبِرَنّى أمحمولٌ على النعش الهُمامُ ؟ [2]

فأنى لا ألومُك فى دخولٍ ولكن ماوراءك ياعِصَامُ ؟ [3]

(١) معنى أوطأله من الارض : أن ذلك أسهل له وأكثر راحة ممالو وضع على الارض .
(٢) المراد بالنعش هنا مركب شبه الهودج . والهمام : الملك العظيم الهمة ويطلق أيضاً على السيد الشجاع السخى . (٣) قوله : ماوراءك ياعصام مثل يضرب فى استعلام الخبر . قيل : أول من قاله الحرث بن عمرو ملك كندة وذلك أنه لما بلغه جمال ابنة عوف بن محلم الشيبانى وكمالها وقوة عقلها دعا امرأة من كندة يقال لها (عصام) ذات عقل ولسان ، وأدب وبيان ، وقال لها اذهبي حتى تعلمى لي علم ابنة عوف فمضت فدخلت اليها فنظرت الى مالم تر قط مثله فخرجت وهى تقول : ترك الخداع ، من كشف القناع ، فأرسلتها مثلا ثم انطلقت الى الحرث فلما رآها مقبلة قال لها . ما وراءك يا عصام ...؟ الخ . وقيل ان المثل على التذكير وقائله النابغة الذبيانى قاله (لعصام ابن شهبر) حاجب النعمان .. ويجوز أن يكون أصل المثل ما ذكر أولا ثم اتفق الاسمان فخوطب كل بما استحق من التذكير والتانيث . ومعنى البيت : لست الومك بمنعك اياى من الدخول ولكن اعلمنى حقيقة خبره .

فإن يَهلِكْ أبو قابوسَ يهلكْ ربيعُ الناسِ والشهرُ الحرامُ ؟(١)
ونأخذْ بعدَهُ بذِنابِ عيش أجَبِّ الظهرِ ليس له سَنَامُ (٢)

ومن حديث هذه الابيات أن النابغة كان عند النعمان ملك العرب بالحيرة كبيراً عنده خاصاً به وكان من ندمائه وأهل أنسه فحسد على منزلته منه فاتهموه بأمر فغضب عليه النعمان وأراد البطش به وكان للنعمان بواب يقال له عِصام ابن شَهْبَر الجرمي قال للنابغة أن النعمان موقع بك فانطلق فهرب النابغة الى ملوك غسان ملوك الشام فكان يمدحهم وترك النعمان فاشتد ذلك عليه وعرف أن الذى بلغه كذب فبعث اليه : انك لم تعتذر من سخطة ان كانت بلغتك ولكننا تغيرنا لك عن شيء مما كنا لك عليه ولقد كان فى قومك ممتنع وحصن فتركته ثم انطلقت الى قوم قتلوا جدى وبينى وبينهم ما قد علمت وكان النعمان وأبوه وجده

(١) أبو قابوس كنية النعمان بن المنذر . وقابوس ممنوع من الصرف للعلمية والعجمة لانه معرب كاووس كذا في القاموس وغيره . ونرى أنه عربى مأخوذ من القبس وهو النار أو الشعلة من النار ، والقابوس لغة ، الرجل الجميل الوجه الحسن اللون ، ومنعه من الصرف يجوز أن يكون للعلمية وشبه العجمة . وقوله « ربيع الناس والشهر الحرام » يريد أنه كالربيع فى الخصب لمجتديه وكالشهر الحرام لجاره لا يوصل الى من أجاره كما لا يوصل فى الشهر الحرام الى أحد .

(٢) قوله (نأخذ) قال النحويون : (روي بالجزم عطفاً على جواب الشرط ، والرفع استئنافاً ، والنصب بان مضمرة وجوباً) . والذناب بالكسر خيط يشد به ذنب البعير لئلا يخطر بذنبه فيلطخ راكبه ، ومن كل شيء عقبه ومؤخره . والأجب المقطوع ، وقد شبه العيش بجمل أجب الظهر أي مقطوعه بمعنى أنه لا سنام له . فهو يقول انا بعده سنكون فى ضيق من العيش كمن يمسك بذناب بعير لا سنام له وذلك ان البعير اذا قطع سنامه أو أكله الرحل لا ينمو فكأنه كان لعيشهم بمنزلة السنام للبعير فاذا ذهب سنامه لم يرج منه خير . والظهر يروى بالرفع والنصب والجر . قال الامام ابن مالك فى (الكافية) فى باب الصفة المشبهة باسم الفاعل :

والرفع والنصب حكوا والجرا فى قول من قال : أجب الظهرا

قال فى شرحها — قال النابغة :

ونأخذ بعده بذناب عيش أجب الظهر ليس له سنام

يروى أجب الظهر بالرفع وهو نظير قولنا جميل الوجه . ويروى اجب الظهر بالنصب وهو نظير قولنا جميل الوجه . ويروي أجب الظهر على الاضافة وهو نظير قولنا جميل الوجه انتهى . وفى حاشية الصبان على شرح الاشمونى على الفية ابن مالك : وروى فى اجب الجر صفة لعيش وجره بالكسرة ان اضيف الى ما بعده والا فبالفتحة نيابة عن الكسر لانه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل والرفع خبراً لمحذوف والنصب حالا .

قد أكرموا النابغة وشرفوه وأعطوه مالاً عظيماً وبلغ النابغة أن النعمان ثقيل من مرض أصابه حتى أشفق عليه منه فأتاه النابغة فألفاه محمولاً على رجلين ينقل مابين الغمر وقصوره التي بين الحيرة فقال لبوابه عصام « ألم أقسم عليك لتخبرني » الابيات المذكورة ، فعافاه الله وعفا عن النابغة . قال حسان بن ثابت : وفدت الى النعمان فحسدت النابغة على ثلاث لا أدري على أيتهن كنت أشد حسداً : أعلى إدناء النعمان له بعد المباعدة ومسامرته له واصغائه اليه ؟ أم على جودة شعره ؟ أم على مائة بعير من عصافيره[1] أمر له بها ؟ قال أبو عبيدة : قيل لأبي عمرو : أمن مخافته امتدحه وأتاه بعد هربه منه أم لغير ذلك ؟ قال : لا لعمر الله ما لمخافته فعل . إنْ كان الا آمناً من أن يوجه اليه النعمان جيشاً . وما كان النابغة يأكل ويشرب الا في آنية الذهب والفضة من عطايا النعمان وأبيه وجده ولا يستعمل غير ذلك .

ومن مذاهبهم في دية الملوك وغيرهم

كان عامة العرب يأخذون في دية النفس مائة من الابل وكان هذا الحكم جارياً بين قبائلهم . وقد ذكرنا سابقاً أول من سن لهم ذلك ولما كان الملوك ممتازين عندهم في كثير من الاحكام جعلوا دية أحدهم اذا قتل ألف بعير . قال قراد بن حنش الصاردي[2] :

(١) في الصحاح : عصافير المنذر ابل كانت للملوك نجائب . وفي التهذيب : روي ان النعمان أمر للنابغة بمائة ناقة من عصافيره ، قال ابن سيده : أظنه أراد من فتايا نوقه . وقال الازهري : كان للنعمان بن المنذر نجائب يقال لها عصافير النعمان قال حسان بن ثابت : فاحسدت أحداً حسدي للنابغة حين أمر له النعمان بن المنذر بمائة ناقة بريشها من عصافيره وحسام وآنية من فضة . قوله بريشها : كان عليها ريش ليعلم انها من عطايا الملوك . كذا في اللسان . (٢) هو قراد بن حنش بن عمرو بن عبد الله بن عبد العزى بن صبيح بن سلامة . من بني صاردة بتقديم الراء على الدال . قال في التاج : (وبنو الصاردة حي من بني مرة بن عوف بن غطفان وهو لقب واسمه سلامة . قال ابن دريد : هو من قولهم صرد السهم أو من صرد الرجل من البرد) .

ونحنُ رَهَنَّا القوس ثمت فوديتْ ... بألفٍ على ظهر الفَزَارى أقرعا (١)

بعشر مئين للملوك سَعَى بها ... ليوفى سيار بن عمرو فأسرعا

قال ابن عبد ربه فى العقد الفريد : ان سيار بن عمرو بن جابر الفَزَارى احتمل للاسود بن المنذر دية ابنه الذى قتله الحرث بن ظالم ألف بعير وهى دية الملوك ورهنه بها قوسه فوفى . وكان هذا قبل قوس حاجب بن زرارة . وقال أبو عبيدة فى مقاتل الفرسان : ان أخا سيار لامه الحرث بن سفيان الصاردىّ تكفلها للاسود فقام منها بثمانمائة ثم مات فرهن سيار قوسه على المائتين الباقيتين لا غير فلما مدح قراد بن حنش بنى فَزَارة جعل الحَمَالَة (٢) كلها لسيار . ومثل هذا ما قاله الفرزدق من قصيدة طويلة :

فدى لسيوفٍ من تميم وفَى بها ... ردائى وجلّت عن وجوه الاهاتم (٣)

شفين حزازات الصدور ولم تدع ... علينا مقالاً فى وفاء للائم (٤)

أبأنا بهم قتلى وما فى دمائهم ... وفاء وهنّ الشافيات الحوائم (٥)

جزى الله قومى اذ أراد خفارتى ... قتيبة سعى الافضلين الاكارم

هم سمعوا يوم المحصّب من مِنى ... ندائى اذا التفت رقاق المواسم (٦)

(١) ألف أقرع أى تام . يقال : سقت اليك ألفاً أقرع من الخيل وغيرها أي تاما وهو لكل ألف كما ان هنيدة اسم لكل مائة كما فى الصحاح قال الشاعر :

قتلنا لو ان القتل يشفى صدورنا ... بتدمر الفاً من قضاعة أقرعا

وقال آخر :

ولو طلبونى بالعقوق أتيتهم ... بالف اؤديه الى القوم اقرعا

والالف مذكر ولذلك قالوا الف اقرع ولم يقولوا قرعاء . وقيل : لو أنث باعتبار الدراهم لجاز بمعنى هذه الدراهم ألف . (٢) الحمالة : كسحابة ، الدية يحملها قوم عن قوم . (٣) قال البغدادى فى الخزانة : قال العينى — الرداء فى البيت بمعنى السيف وانشد عليه بيتاً ... وجلت بالتشديد بمعنى جلت بالتخفيف من جل القوم عن البلد يجلون بالضم اذا جلوا وخرجوا ، والمعنى كشفت ردائى حين وفت بدية الملوك الثلاثة هم ذلك وتمادى الحروب عن أعيان الاهاتم وكبرائهم فافهم ، هذا كلامه وهو كلام من لم يصل الى العنقود . اه (٤) حزازات الصدور : غيظ الصدور .

(٥) قوله : أبأنا بهم ، يقال أبأت فلاناً بفلان فباء به اذا قتله به ولا يكاد يستعمل هذا الا والثانى كفء للاول . والحوائم من الابل العطاش التى تحوم حول الماء (٦) المحصب : موضع رمى الجمار بمكة ، ومنى : قال ياقوت بالكسر والتنوين في درج — الوادى الذى ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار من الحرام سمى بذلك لما يمنى به من الدماء أى يراق

وقصة رداء الفرزدق رواها أبو عبيدة قال : كان الفرزدق بالمدينة حين جاءت وقعة وكيع ، وحج سليمان بن عبدالملك فبلغه بمكة وقعة وكيع بقتيبة فخطب الناس بمسجد عرفات فذكر غدر بني تميم ووثوبهم على سلطانهم واسراعهم الى الفتن وانهم أصحاب فتن وأهل غدر وقلة شكر فقام اليه الفرزدق فقال وفتح رداءه : يا أمير المؤمنين هذا ردائي رهن لك بوفاء بنى تميم والذى بلغك كذب. فقال الفرزدق فى ذلك حيث جاءت بيعة وكيع لسليمان تلك الأبيات . يعنى بالاهاتم الاهتم بن سنان بن خالد بن منقر بن عبيد بن الحرث بن عمرو بن كعب ابن سعد بن زيد مناة بن تميم فعرف ان الاهتم ليس لقباً لسنان بن خالد . والحوائم: العطاش التى تحوم حول الماء .

ومن مذاهبهم تحريم الخمر على نفوسهم الى أن يأخذوا بثأرهم

كانت العرب تحرم الخمر على أنفسهم فى مدة طلبهم لأنها مشغلة لهم عن كريم الأخلاق والاقبال على الشهوة . قال الشنفرى يرثى خاله تأبط شرًّا ويذكر إدراكه ثأره من قصيدة له :(١)

(١) نسبة القصيدة التى منها هذان البيتان الى الشنفرى وانه رثى بها خاله تأبط شراً غير صحيحة لان الشنفرى مات قبل تأبط شراً ورثاه تأبط شراً بأبيات مشهورة وممن رواها أبو الفرج الاصبهانى وابن الانبارى وأولها :

على الشنفرى صوب الغمام ورائح غزير الكلى وصيب الماء باكر

— ولأن تأبط شراً ليس بخال للشنفرى . والصحيح ان هذا الشعر مولد . قال أبو زكريا الخطيب في شرح ديوان الحماسة : « وذكر انه لخلف الاحمر وهو الصحيح وقيل : قال ابن أخت تأبط شراً . قال النمرى : ومما يدل على انها لخلف الاحمر قوله فيها (جل حتى دق فيه الاجل) فان الاعرابى لا يكاد يتغلغل الى مثل هذا . قال أبو محمد الاعرابى : هذا موضع المثل : ليس هذا بعشك فادرجى ليس هذا كما ذكره بل الاعرابى قد يتغلغل الى أرق من هذا لفظاً ومعنى وليس من هذه الجهة عرف ان الشعر مصنوع لكن من الوجه الذي ذكره لنا أبو الندى قال : مما يدل ان هذا الشعر مولد انه ذكر فيه سلعاً وهو بالمدينة وأين تأبط شراً من سلع . وانما قتل فى بلاد هذيل ورمى به في غار يقال له رخمان وفيه تقول أخته ترثيه :

نعم الفتى غادرتم برخمان بثابت بن جابر بن سفيان

من يقتل القرن ويروى الندمان » .

فأدركنا الثأر منهم ولما ينج من لحيان إلا الأقل (١)
حلتِ الخمر وكانت حراماً وبلأيٍ ما ألمّتْ تحلّ (٢)

وفى كتاب (مساوئ الخمر) غزا امرؤ القيس بنى أسد ثائراً بأبيه وقد جمع جموعاً من حمير وغيرهم من ذؤبان العرب وصعاليكها (٣) وهرب بنو أسد من بين يديه حتى أنضوا (٤) الأبلَ وحسروا (٥) الخيل ولحقهم فظفر بهم وقتل بهم مقتلة عظيمة وأبار (٦) حلمة بن أسد ومثل فى عمرو وكاهل ابنىْ أسد . وذكر الكلبىّ عن شيوخ كندة انه جعل يسمل (٧) أعينهم ويحمى الدروع فيلبسهم إياها . وروى أبو سعيد السكرى مثل ذلك وانه ذبحهم على الجبل ومزج الماء بدمائهم الى أن بلغ الحضيضَ (٨) وأصاب قوماً من جُذام كانوا من بنى أسد . وفى ظفره ببنى أسد يقول :

قولا لدُودانَ عبيد العصا : ماغرّكم بالأسد الباسلِ ؟

إلى أنْ قال :

لا تسقينى الخمرَ ان لم يروا قتلى فِئاماً بأبى الفاضل
حتى أبيرَ الحىّ من مالك قتلاً ومن يشرف من كاهل
ومن بنى غنم بن دُودان اذ نقذِف أعلاهم على السافل
نعلوهُمُ بالبيض مسنونةً حتى يروا كالخشب الشائل
حلت لى الخمرُ وكنت امرءاً عن شربها فى شُغُلٍ شاغلِ

(١) ادركنا : أخذنا . ومن لحيان صوابه ملحيين أى من الحيين (٢) قوله : ما الت يجوز أن تكون (ما) صلة ويجوز أن تكون مع الفعل بعده فى تقدير المصدرية ، يريد : بلاى — أى ببطء — الت حلالا أو المامها حلالا . والالمام : الزيارة الخفيفة وتوسع فيه فاجرى مجرى حصلت (٣) ذؤبان العرب : لصوصها . والصعاليك جمع صعلوك وهو الفقير
(٤) يقال : أنضى الرجل بعيره اذا هزله بالسير فذهب لحمه (٥) حسرت الدابة : اتعبتها .
(٦) أي أهلك (٧) سمل عينه سملا من باب قتل : فقأها بحديدة محماة (٨) هو القرار فى الارض :

فاليومَ أشربْ غيرَ مُستحقِبٍ إثماً من اللهِ ولا واغلِ (١)

قوله قولا لدودان الخ دودان بالضم هو ابن أسد بن خزيمة ، وأراد القبيلة وكان أبو امرىء القيس اذا غضب على أحد منهم ضَرَبَه بالعصا فسموا عبيد العصا أى يعطون على الضرب والهوان . وأراد بالأسد الباسل أباه . والفئام بكسر الفاء بعدها همزة ممدودة : الجماعة . وابير : افنى . ومالك : هو ابن أسد وأراد بمن يشرف من كاهل علباء بن الحرث من بنى كاهل بن أسد . وقوله نقذف : أى نرمى بعضهم على بعض اذا قتلوا . والمسنونة المحدودة . والشائل الساقط . وقوله (حلت لى الخمر الخ) قال السعدىّ فى مساوئ الخمر : إنما قال هذا لانه لم يكن حضر قتل أبيه وكان أبوه أقصاه لأنه كره منه قول الشعر وانما جاءه الأعور العجلى بخبره وهو يشرب فقال : ضيعنى صغيراً ، وحملنى ثقل الثأر كبيراً ، اليوم خمر ، وغداً أمر (٢) ، لا صحو اليوم ولا سكر غداً ، ثم شرب سبعاً ، ثم لما صحا حلف أن لا يغسل رأسه ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره فذلك قوله : حلت لى الخمر . وهذا معنى مازالت العرب تطرقه . قال اسماعيل بن هبة الله الموصلىّ فى كتاب الأوائل : أول من اخترع هذا المعنى امرؤ القيس فى هذا الشعر . وقوله فاليوم أشرب الخ المستحقب المكتسب وأصله من

(١) يستشهد النحويون بهذا البيت على تقدير رفع الحرف الصحيح كما فى — أشرب — فالباء حرف صحيح وظاهر كلام السيوطى فى الهمع أن ذلك لغة وهو الصحيح لثبوت القراآت التى أشار اليها . وقال سيبويه : انه ضرورة ، وانكر المبرد هذه الرواية وزعم ان الرواية : — فاليوم فاشرب — وتبعه السيد المرتضى وبعض المعاصرين .. قال ابن جنى : اعتراض أبى العباس المبرد هنا على الكتاب انما هو على العرب لا على صاحب (الكتاب) لانه حكاه كما سمعه ولا يمكن فى الوزن أيضاً غيره ، وقول أبى العباس « إنما الرواية : فاليوم فاشرب » فكأنه قال لسيبويه : كذبت على العرب ولم تسمع ما حكيته عنهم ، واذا بلغ الامر هذا الحد من السرف فقد سقطت كلفة القول معه . وكذلك انكاره عليه قول الشاعر (وقد بدا هنك من المئزر) فقال : انما الرواية (وقد بدا ذاك من المئزر) وما أطيب العروس لولا النفقة ، ولو كان الى الناس تخير ما يحتمله الموضع لكان الرجل اقوم من الجماعة به وأوصل الى المراد منه . (٢) قال الميدانى : « أى يشغلنا اليوم خمر وغداً يشغلنا أمر الحرب ومعناه اليوم خفض ودعة وغداً جداً واجتهاد وهو يضرب للدول الجائية للمحبوب والمكروه .

استحقب أي وضع في الحقيبة وهي خرج يربط بالسرج خلف الراكب . واثماً مفعول مستحقب كأن شربها بعد وفاء النذر لا اثم فيه بزعمه ، والواغل : الذي يأتي شراب القوم من غير أنْ يدعى اليه وهو مأخوذ من الوغول وهو الدخول ومعناه انه وغل في القوم وليس منهم ، والله أعلم بحقائق الأمور .

ومن مذاهبهم في الخليع والرجل اللعين

كانت العرب في الجاهلية اذا قال قائل منهم : هذا ابني قد خلعته كان لا يؤخذ بجريرته وذنبه . وقال الفاضل الزوزني في شرح معلقة امرئ القيس عند الكلام على قوله :

وَوادٍ كَجَوْفِ العيْرِ قَفْرٍ قطعتُهُ ... بهِ الذئبُ يَعْوِي كالخليع المُعَيَّلِ (١)

الخليع الذي قد خلعه أهله لخبثه ، وكان الرجل منهم يأتي بابنه الى الموسم ويقول : ألا إني قد خلعت ابني هذا فان جَرّ لم أضمن وان جُرَّ عليه لم أطلب فلا يؤخذ بجرائره انتهى . وفي كتاب فتح الباري : الخليع فعيل بمعنى مفعول يقال تخالع القوم اذا نقضوا الحلف فاذا فعلوا ذلك لم يطالبوا بجنايته فكأنهم خلعوا اليمين التي كانوا لبسوها معه ومنه سمي الأمير اذا عزل خليعاً ومخلوعاً . وقال أبو موسى في اللعين خلعه قومه أي حكموا بأنه مفسد فتبرأوا منه ولم يكن ذلك في الجاهلية يختص بالحليف بل كانوا ربما خلعوا الواحد من القبيلة ولو كان من

(١) الجوف : باطن الشيء . والعير : الحمار . والقفر : المكان الخالي . والمعيل : الكثير العيال . وقد عيل تعييلا فهو معيل والعواء صوت الذئب وما أشبهه :زعم صنف من الائمة انه شبه الوادي في خلائه عن الانس ببطن العير وهو الحمار الوحشي اذا خلا من العلف . وقيل : بل شبهه في قلة الانتفاع به بجوف العير لانه لا يركب ولا يكون له در . وزعم صنف منهم انه أراد كجوف الحمارفغير اللفظ الى ماوافقه في المعنى لاقامة الوزن . والخليع زعم الائمة انه في هذا البيت المقامر . والمعنى : ورب واد يشبه وادي الحمار في الخلاء من النبات والانس أو يشبه بطن الحمار فيما ذكرنا طويته سيراً وقطعة وكان الذئب يعوي فيه من فرط الجوع كالمقامر الذي كثر عياله ويطالبه عياله بالنفقة وهو يصيح بهم ويخاصمهم اذ لا يجد مايرضيهم به . انتهى ملخصاً من شرح الزوزني

صميمها اذا صدرت منـه جناية تقتضى ذلك وهذا مما أبطله الاسلام من حكم الجاهلية . وفى البخارى : وقد كانت هذيل خلعوا خليعاً لهم فى الجاهلية فطرق أهل بيت من اليمن بالبطحاء فانتبه له رجل منهم فحذفه بالسيف فقتله فجاءت هذيل فأخذوا اليماني فرفعوه الى عمر بالموسم وقالوا : قتل صاحبنا . فقال : انهم قد خلعوه فقال يقسم خمسون من هذيل ما خلعوا ، قال : فأقسم منهم تسعة وأربعون رجلاً وقدم رجل منهم من الشام فسألوه أن يقسم فافتدى يمينه منهم بألف درهم فأدخلوا مكانه رجلا آخر فدفعه الى أخى المقتول فقرنت يده بيده . قال : قالوا ؛ فانطلقنا والخمسون الذين أقسموا حتى اذا كانوا (بنخلة) أخذتهم السماء فدخلوا فى غار فى الجبل فانهجم الغار على الخمسين الذين أقسموا فماتوا جميعاً وأفلت القرينان واتبعهما حجر فكسر رجل أخى المقتول فعاش حولاً ثم مات . وحاصل القصة : ان القاتل ادعى ان المقتول لص وان قومه خلعوه فأنكروا هم ذلك وحلفوا كاذبين فأهلكهم الله بحنث القسامة وخلص المظلوم وحده . وهذيل : القبيلة المشهورة وهم ينتسبون الى هذيل بن مدركة بن الياس بن مضر . ويسمى الخليع الرجل اللعين أيضا . قال أبو عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى : كان الرجل فى الجاهلية اذا غدر وأخفر الذمة جعل له مثال من طين ونصبه ؛ وقيل ألا ان فلانا قد غدر فالعنوه كما قال الشاعر :

فلنقتلن بخالد سرواتكم ولنجعلن لظالم تمثالا

فالرجل اللعين هو هذا التمثال . وبعضهم يقول الرجل اللعين هو نفس الخليع . وقد اختلف أهل اللغة فى المراد بقول الشماخ بن ضرار فى مدح عَرَابة بن أوس من قصيدة :

وماء قد وردت لوصل أروى عليه الطير كالورق اللجين (١)

(١) اللجين : الخبط الملجون . قال الليث هو ورق الشجر يخبط بدقيق أو شعير فيعلف الابل وكل ورق أو نحوه فهو ملجون أو لجين وفى الصحاح : اللجين الخبط وهو ما سقط من الورق عند الخبط .

ذعرت به القطا ونفيت عنه مقام الذئب كالرجل اللعين

فقالوا : يريد بقوله ذعرت به القطا الخ أنه جاء الى الماء متنكراً وذعرت خوفت ونفرت ونفيت طردت وخص الذئب والقطا لأن القطا اهدى الطير والذئب اهدى السباع وهما السابقان الى الماء قال شارح الديوان : أى ذعرت القطا بذلك الماء ونفيت عن ذلك الماء مقام الذئب أى وردت الماء فوجدت الذئب عليه فنحيته عنه أراد . قام الذئب كالرجل اللعين المنفى المقصى انتهى . فاللعين على هذا بمعنى الطريد وهو وصف الرجل . وهو ما ذهب اليه ابن قتيبة فى أبيات المعانى : قال اللعين المطرود وهو الذى خلعه أهله لكثرة جناياته . وقال بعض شراح أبيات المفصل : اللعين المطرود الذى يلعنه كل أحد ولا يؤويه أى هذا الذئب خليع لا مأوى له كالرجل اللعين وقال صاحب الصحاح : الرجل اللعين شئ ينصب فى وسط الزرع يستطرد به الوحوش وأنشد هذا البيت . وقد سبق قول أبى عبيد البكرى فى شرح أمالى القالى فى ذلك وقد أغرب فانه لم يظهر للبيت معنى على قوله . وعلى كل حال فهذا المذهب للعرب يدل على أنهم قد بلغوا فى الجاهلية الى غاية الغايات ، فى ميلهم لمحاسن الاخلاق وجميل الصفات ، حتى أنهم تجاوزوا الحد فى ذلك فبلغوا الى درجة العقوق ، وعدم المبالاة بما يجب للأقارب والبنين من الحقوق ، حثاً على اجتناب كل ما يشين من الاخلاق الذميمة ، وزجراً عن تعاطى سفاسف الامور والجرائم العظيمة ، والخلعاء كانوا قد خلعوا عنهم لباس المروءة والانصاف ، وتردوا بأردية الجور والظلم والاعتساف ، فلذلك عوملوا بهاتيك المعاملة ، ولم تراع فيهم عهود الموافقة والمسالمة ، ولما كان كل أمر تجاوز الحد ، انقلب بما يستنتج من المفاسد الى الضد ، نهى الشرع عن كل ما يستوجب المفاسد ، وأمر — والحمد لله تعالى — بما يستحق المحامد من المقاصد .

ومن مذاهب العرب : المعاقرة

وهو أنْ يتبارى الرجلان كل واحد منهما يجادل صاحبه فيعقر هذا عدداً من إبله ويعقر صاحبه فأيهما كان أكثر عقراً غلب صاحبه ونفره . وفى شرح سنن أبى داود للخطابىّ عند الكلام على قوله نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن معاقرة الاعراب وكره أكل لحومها لئلا يكون مما أهل لغير الله ، ثم قال: وفى معناه مما جرت به عادة الناس من ذبح الحيوان بحضرة الملوك والرؤساء عند قدومهم البلدان وأوان حدوث نعمة تتجدد لهم ونحو ذلك من الأمور انتهى . وقد وقعت معاقرة عظيمة فى صدر الاسلام من غالب أبى الفرزدق الشاعر الشهير وذلك فى خلافة الامام على كرم الله تعالى وجهه ، واليها الاشارة بقول جرير من قصيدة يهجو بها الفرزدق :

تعدون عَقْرَ النيبِ أفضلَ مجدكم بنى ضَوْطَرَى لولا الكمىَّ المقنَّعا (١)

يعنى انكم تعدون عقر الابل المسنة التى لاينتفع بها ولا يرجى نسلها أفضل مجدكم هلا تعدون قتل الشجعان ، ومنازلة الأقران .. وقضية عقر الابل هذه مشهورة فى التواريخ محصلها : انه أصاب أهل الكوفة مجاعة فخرج أكثر الناس الى البوادى وكان غالب أبو الفرزدق رئيس قومه فاجتمعوا فى أطراف السماوة(٢) من بلاد كلب على مسيرة يوم من الكوفة فعقر غالب لأهله ناقة صنع منها طعاماً وأهدى إلى قوم من تميم جفاناً وأهدى إلى سحيم جفنة فكفأها وضرب الذى أتى بها وقال أنا مفتقر إلى طعام غالب : ونحر سحيم لأهله ناقة ، فلما كان من الغد نحر غالب لأهله ناقتين ونحر سحيم ناقتين ، وفى اليوم الثالث نحر غالب

(١) معنى تعدون : تجعلون وتحسبون ولهذا عداه الى مفعولين . والنيب جمع ناب وهى الناقة المسنة . وعقر الناقة اذا ضرب قوائمها بالسيف ، وربما قيل عقر الناقة بمعنى نحرها . ويقال للقوم الذين لايغنون غناء بنوضوطرى . وقوله : لولا الكمى يريد هلا الكمى — وهو الشجاع أو لابس السلاح . والمقنع : الذى على رأسه البيضة والمغفر . وقد زعم ابن الشجرى ان البيت للاشهب ابن زميلة وليس ذلك بصواب . (٢) يقال لهذا المحل الذى اجتمعوا فيه (صوأر) .

ثلاثاً فنحر سحيم ثلاثاً ، فلما كان اليوم الرابع نحر غالب مائة ناقة ولم يكن لسحيم هذا القدر فلم يعقر شيئاً . فلما انقضت المجاعة ودخل الناس الكوفة قال بنو رياح لسحيم : جررتَ علينا عار الدهر ! هلاَّ نحرت مثل ما نحر غالب ! وكنا نعطيك مكان كل ناقة ناقتين : فاعتذر ان ابله كانت غائبة ونحر نحو ثلثمائة ناقة . وكان فى خلافة على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه فمنع الناس من أكلها . وقال : انها مما أهل لغير الله به ولم يكن الغرض منه إلا المفاخرة والمباهاة فجمعت لحومها على كناسة الكوفة فأكلها الكلاب والعقبان والرخم[1] . وقد أورد القالى هذه الحكاية فى ذيل أماليه[2] . بأبسط مما ذكرناه وأورد ماقيل فيها من أشعار مامدح به غالب وهجى به سحيم والله أعلم .

ومن مذاهبهم تفرد العزيز منهم بالحمى[3]

كان من عوائد العرب فى الجاهلية أن ينفرد العزيز منهم بالحمى لنفسه كالذى كان يفعله كليب بن وائل فانه كان يوافى بكلاب على نشاز من الأرض —

(١) العقبان بكسر العين المهملة جمع عقاب بالضم طائر . والرخم كقصب جمع رخمة كقصبة طائر يأكل العذرة وهو من الخبائث وليس من الصيد . (٢) — ص٥٣ طبعة بولاق .

(٣) الحمى بالكسر والقصر وأصله فى اللغة الموضع فيه كلأ يحمى من الناس أن يرعوه أي يمنعونهم يقال حميت الموضع اذا منعت منه واحميته اذا جعلته حمى لا يقرب . قال الاصمعى : الحمى حميان ، حمى ضرية وحمى الربذة . قال ياقوت الحموى البغدادى (٣ — ٣٤٦) : ووجدت أنا حمى فيد وحمى النير وحمى ذى الشرى وحمى النقيع — فاما حمى ضرية فهو أشهرها وأسيرها ذكراً وهو كان حمى كليب بن وائل فيما زعم لى بعض أهل بادية طيىء قال : ذلك مشهور عندنا بالبادية يرويه كابر عن كابر . قال : وفى ناحية منه قبر كليب معروف أيضا الى اليوم وهو سهل الموطىء كثير الخلة وأرضه صلبة ونباته مسمنة وبه كانت ترعى ابل الملوك .. وحمى الربذة أيضاً اراده رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله : لنعم المنزل الحمى لولا كثرة حياته .. وحمى فيد ، قال ثعلب : الحمى حمى فيد اذا كان فى أشعار أسد وطيىء .. فاما فى أشعار كلب فهو حمى بلادهم قريب من المدينة بينها وبين عرب .. وحمى النير بكسر النون . قال ياقوت : وفيه قبر كليب بن وائل على ما خبرنا بعض طيىء على الجبلين قال وهو قرب ضرية (٨ — ٣٥٦) .. وحمى الشرى : كانوا قد حموه لذى الشرى وهو صنم كان لدوس (٥ — ٢٤٦) ... وحمى النقيع : حماه عمر بن الخطاب رضى الله عنه لخيل المسلمين وهو من أودية الحجاز يدفع سيله الى المدينة يسلكه العرب الى مكة منه وهو على عشرين فرسخاً أو نحو ذلك من المدينة (٨ — ٣١٢) وللعرب فى الحمى أشعار كثيرة أما يعنون بها حمى ضرية . انتهى ملخصاً من معجم البلدان .

وهو المكان المرتفع — ثم يستعويه ويحمى ما انتهى اليه عُواؤه من كل الجهات ويشارك الناس فيما عداه حتى كان ذلك سبب قتله . وفيه يقول العباس بن مرداس من قصيدة :

كما كان يبغيها كُلَيْبٌ بظلمِهِ   من العزّ حتى طاحَ وهُوَ قتيلها
على وآئل اذ يترك الكلب نابحاً   واذ يمنع الافناء منها حلولها[1]

« قال الميدانى » فى تفسير المثل الدائر على ألسنة العرب (أعزُّ من كليب وائل) : هو كليب بن ربيعة بن الحرث بن زهير وكان سيد ربيعة فى زمانه وقد بلغ من عزه أنه كان يحمى الكَلأْ[2] ، فلا يُقْرب حماه ويجير الصيد فلا يُهاج وكان إذا مرّ بروضةٍ أعجبته أو غدير ارتضاه كنع[3] كليباً ثم رمى به هناك فحيث بلغ عُوآؤه كان حمى لا يُرعى . وكان اسم كليب بن ربيعة وائلا فلما حمى كليبه المرمى الا كلاء قيل : أعز من كليبِ وائلٍ ثم غلب هذا الاسم عليه حتى ظنوه اسمه . وكان من عزه (أنه لا توقد نار مع ناره ولا يستبق أحد إلى الورْد الا بأمره) ولا يتكلم أحد فى مجلسه ولا يحتبى[4] أحد عنده . ولذلك قال أخوه مهلهل بعد موته :

نُبئْتُ أن النارَ بعدكَ أُوقِدَت   واستبّ بعدكَ يا كليبُ المجلِسُ[5]
وتكلموا فى أمرِ كل عظيمةٍ   لو كنتَ شاهِدَهُم بها لم يَنْبِسُوا[6]

(١) طاح : سقط . والافناء من الناس الاخلاط (٢) الكلأْ مهموز العشب رطباً كان أو يابساً (٣) أى شد وطرح (٤) احتبى بالثوب: اشتمل أو جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها وقد يكون الاحتباء باليدين عوض العمامة أو الثوب . ومنه : الاحتباء حيطان العرب أى ليس فى البرارى حيطان فاذا أراد أن يستند احتبى لان الاحتباء يمنعهم من السقوط ويصير لهم كالجدار « التاج » .

(٥) قال التبريزى : كان كليب وائل لا توقد مع ناره للضيفان نار فى احيائه وفيما يقرب من منازله وأوطانه وكان اذا حضر مجلسه الناس لا يجسر احد ان يفاخر غيره او يسابه اعظاماً لقدره فلما فقد تجرأوا على الكلام (٦) لم ينبسوا : لم يتكلموا ، وهذا نحو قول صفية ابنة عبد المطلب ويروى لغيرها :

قد كان بعدك أنباء وهنبثة   لو كنت شاهدها لم تكثر الخطب

الهنابث : الامور الشداد . راجع شرح ديوان الحماسة لابى زكريا الخطيب التبريزى ج ٢ ص ١٩٧

وفيه أيضاً يقول معبد بن سَعْنَةَ التميمى : (١)

كفعل كليب كنت خبرت أنه ... يخطّطُ أكلاء المياه ويمنع

يجير على أفناء بكر بن وائل ... أرانب ضاحٍ والظباء فترتع (٢)

وكليب هذا هو الذى قتله جساس بن مرة الشيبانى انتهى . وقال الامام الخطابى فى شرح سنن أبى داود عند الكلام على قوله صلى الله تعالى عليه وسلم لا حمى إلا لله ولرسوله : قال ابن شهاب بلغنى أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم حمى النقيع . قال الخطابى : قوله لاحمى إلا لله ولرسوله يريد لا حمى إلا على معنى ما أباحه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وعلى الوجه الذى حماه . وفيه إبطال ما كان أهل الجاهلية يفعلونه من ذلك ، وكان الرجل العزيز منهم اذا انتجع (٣) بلداً مخصباً أوفى بكلب على جبل أو على نَشَز (٤) من الارض ثم استعوى الكلب ووقف له من يسمع منتهى صوته بالعُوَاء فحيث انتهى صوته حماه من كل ناحية لنفسه ومنع الناس منه . فأما ما حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لمهازيل الصدقة واضعفى الخيل كالنقيع وهو مكان معروف مستنقع المياه ينبت فيه الكلأ . وقد يقال انه مكان ليس بحد واسع يضيق بمثله على المسلمين المرعى ، فهو مباح . وللأئمة أن يفعلوا ذلك على النظر مالم تضق منه على العامة المراعى والله أعلم ، وهذا الكلام الذى سقته معنى كلام الشافعىّ فى كتبه انتهى كلام الخطابى . وقد علم منه أن الشريعة أبطلت هذا المذهب الذى كان عليه أهل الجاهلية وأن المشروع ما كان على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام

(١) فى القاموس وشرحه : ابن سعنة شاعر جاهلى واسمه معبد بن ضبة انتهى وورد فى (تهذيب الالفاظ — ص ٢١٦ — طبعة المطبعة الكاثوليكية فى بيروت) « معبد بن شعبة » بالشين المعجمة والباء الموحدة وهو تصحيف فاحذره (٢) الخط الارض التى تنزلها ولم ينزلها نازل قبلك وقد خطها واختطها أي اتخذها لنفسه واعلم عليها علامة بالخط ليعلم انه قد احتازها ليبنيها داراً . والافناء : مر تفسيره قريباً . وضاح : موضع غربىّ سلمى فيه ماءة يقل لها مخربة . وقيل رملة . وقيل واد في ديار كلاب . (٣) انتجع : طلب الكلا فى موضعه . (٤) النشز : المكان المرتفع

وفى كتاب (الاحكام السلطانية) للامام الماوردى أتم تفصيل لهذه المسئلة . فقد قال [١] : قد حمى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بالمدينة وصعد جبلا بالنقيع ـ قال أبو عبيد النقيع بالنون ـ وقال هذا حماى وأشار بيده الى القاع وهو قدر ميل فى ستة أميال حماه لخيل المسلمين (فاما حمى الأئمة من بعده فان حموا به جميع الموات أو أكثره لم يجز وان حموا أقله لخاص من الناس أو لأغنيائهم لم يجز وان حموه لكافة المسلمين) أو للفقراء والمساكين ففى جوازه قولان « أحدهما » لايجوز ويكون الحمى خاصاً لرسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم (لرواية صعب بن جثامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم)حين حمى النقيع قال : لاحمى الا لله ولرسوله . « والقول الثانى » أن حمى الأئمة بعده جائز كجوازه له صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه كان يفعل ذلك لصلاح المسلمين لا لنفسه فكذلك من قام مقامه فى مصالحهم . قد حمى أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالرَبَذة لأهل الصدقة واستعمل عليه مولاه أبا سلامة . وحمى عمر رضى الله تعالى عنه من السَرِف [٢] مثل ما حماه أبو بكر من الرَبَذَة وولى عليه مولى له يقال له هنى . وقال : ياهنى ضم جناحك عن الناس واتق دعوةَ المظلوم فان دعوةَ المظلوم مجابةٌ وأدخل ربّ الصُرَيمة [٣] ورب الغُنَيْمة ، وإياك ونعم

(١) — ص ١٦٤ . (٢) السرف : بفتح أوله وكسر ثانيه : موضع على عشرة أميال من مكة وقيل أقل أو أكثر قرب التنعيم تزوّج به رسول الله صلى الله عليه وسلم ميمونة بنت الحرث وبنى بها بسرف وكانت وفاتها أيضاً بسرف ودفنت هنالك .. قال القاضى عياض : وأما الذى حمى فيه عمر (رض) فجاء فيه انه « حمى السرف والربذة » كذا عند البخارى بالسين المهملة ، وفى موطأ ابن وهب « الشرف » بالشين المعجمة وفتح الراء وكذا رواه بعض رواة البخارى وأصلحه وهذا الصواب وأما سرف فلا يدخله الالف واللام . (انظر معجم البلدان : ج ٥ ص٧١ ، وفتح البارى بشرح صحيح البخارى ج ٥ ص ٣٥) (٣) تصغير الصرمة وهي بالكسر القطعة من الابل واختلف فى تحديدها فقيل هى نحو الثلاثين كما فى الصحاح وقيل هى ما بين العشرين الى الثلاثين أو ما بين الثلاثين الى الخمسين والاربعين فاذا بلغت الستين فهى الصدعة ، أو ما بين العشرة الى الاربعين أو ما بين عشرة الى بضع عشرة كأنها اذا بلغت هذا القدر تستقل بنفسها فيقطعها صاحبها عن معظم ابله .

ابن عفان وابن عوف فانهما ان تهلك ماشيتهما يرجعان الى نخل وزرع وان رب الصريمة ورب الغنيمة يأتيانى بعيالهما فيقولان : يا أمير المؤمنين أفتاركهم أنا لا أبالك فالكلأ أهون علىّ من الدينار والدرهم ، والذى نفسى بيده لولا المال الذى أحمل عليه فى سبيل الله ما حميت عليهم من بلادهم شبراً . فأما قول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : لا حمى الا لله ولرسوله : فمعناه لا حمى الا على مثل ما حماه الله تعالى ورسوله للفقراء والمساكين ، ولمصالح كافة المسلمين ، لا على مثل ما كانوا عليه فى الجاهلية ثم قال : وإذا جرى على الأرض حكم الحمى استبقاء لمواتها سابلا ومنعا من احيائها ملكا روعى حكم المحمى فان كان للكافة تساوى فيه جميعهم من غنى وفقير ومسلم وذمى فى رعى كلئه بخيلهم وماشيتهم . فان خص به المسلمون اشترك فيه اغنياؤهم وفقراؤهم ومنع منه أهل الذمة ، وان خص به الفقراء والمساكين منع منه الاغنياء وأهل الذمة ولا يجوز أن يخص به الاغنياء دون الفقراء ولا أهل الذمة دون المسلمين ، وان خص به نعم الصدقة أو خيل المجاهدين لم يشركهم فيه غيرهم ، ثم يكون الحمى جارياً على ما استقر عليه من عموم وخصوص فلو اتسع الحمى المخصوص لعموم الناس جاز أن يشتركوا فيه لارتفاع الضرر عمن خص به ، ولو ضاق الحمى العام عن جميع الناس لم يجز أن يختص به اغنياؤهم وفى جواز اختصاص فقرائهم به وجهان . واذا استقر حكم الحمى على الارض فاقدم عليها من أحياها ونقض حماها روعى الحمى ، فان كان مما حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كان الحمى ثابتاً والاحياء باطلاً والمتعرض لاحيائه مردوعاً مزجوراً لا سيما اذا كان سبب الحمى باقياً لأنه لا يجوز أن يعارض حكم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بنقض ولا ابطال . وان كان من حمى الأئمة بعده ففى اقرار احيائه قولان « احدهما » لا يقر ويجرى عليه حكم الحمى كالذى حماه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لأنه حكم نفذ بحق « والقول الثانى » يقر الاحياء ويكون حكمه أثبت من الحمى لتصريح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله من احيا أرضاً مواتاً فهى له . ولا يجوز

لأحد من الولاة أن يأخذ من أرباب المواشى عوضاً عن مراعى موات أو حمى لقول رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : المسلمون شركاء فى ثلاث فى الماء والنار والكلأ . انتهى . والمقصود من هذه النقول أن ما كان عليه أعزاء العرب وأقوياؤهم من التفرد بالحمى على الوجه الذى ذكرنا مما أبطله الشرع وهدمه .

مذهب العرب فى البحيرة والسائبة أيام الجاهلية

اعلم أن هذا المذهب من مبتدعات عمرو بن لحى الخزاعى أيضاً ، حمل العرب على التدين به فى جملة ما أحدث من المنكرات التى لم يكونوا يعلمونها من شريعة ابراهيم واسمعيل عليهما السلام وقد أبطلته الشريعة الاسلامية . قال تعالى (ماجعل الله من بحيرةٍ ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون) أما البحيرة فهى فعيلة بمعنى مفعولة من البحر وهو الشق والتاء للنقل الى الاسمية أو لحذف الموصوف . قال الزجاج : كان أهل الجاهلية اذا نتجت الناقة خمسة ابطن آخرها ذكر بحروا أذنها وشقوها وامتنعوا من نحرها وركوبها ولا تطرد من ماء ولا تمنع عن مرعى وهى البحيرة . وعن قتادة أنها اذا نتجت خمسة أبطن نظر فى الخامس فان كان ذكراً ذبحوه وأكلوه وان كان انثى شقوا أذنها وتركوها ترعى ولا يستعملها أحد فى حلب وركوب ونحو ذلك . وقيل البحيرة هى الأنثى التى تكون خامس بطن وكانوا لا يحلون لحمها ولبنها للنساء ، فان ماتت اشترك الرجال والنساء فى أكلها . وعن محمد ابن اسحق ومجاهد أنها بنت السائبة وستأتى ان شاء تعالى قريباً وكانت تهمل أيضاً . وقيل هى التى ولدت خمساً أو سبعاً وقيل عشرة أبطن وتترك هملا واذا ماتت حل لحمها للرجال خاصة . وعن ابن المسيب انها التى منع لبنها للطواغيت فلا تحلب . وقيل هى التى ولدت خمس اناث فشقوا أذنها وتركوها هملا . وجعلها فى القاموس على هذا القول من الشاء خاصة وكما تسمى بالبحيرة تسمى بالغزيرة

أيضاً . وقيل هي السقب الذى اذا ولد شقوا أذنه وقالوا : اللهم ان عاش فعيّ وان مات فذكيّ فاذا مات أكلوه . وقيل هي التى تترك فى المرعى بلا راع ولما كان مذهب العرب مختلفاً فيها اختلف أئمة اللغة فى تفسيرها . وكل قول يرجع الى مذهب وبذلك يجمع بين الاقوال

(وأما السائبة) فهى فاعلة من سيبته أى تركته وأهملته فهو سائب وهى سائبة أو بمعنى مفعول كعيشة راضية . واختلف فيها فقيل هي الناقة تبطن عشرة أبطن اناث فتهمل ولا تركب ولايجز وبرها ولا يشرب لبنها إلا ضيف ونسب الى محمد بن اسحق . وقيل هي التى تسيب للأصنام فتعطى للسدنة ولا يطعم من لبنها الا ابناء السبيل ونحوهم . وروى ذلك عن ابن عباس وابن مسعود رضى الله تعالى عنهم . وقيل هي البعير يدرك نتاج نتاجه فيترك ولا يركب . وقيل كان الرجل اذا قدم من سفر بعيد أو نجت دابته من مشقة أو حرب قال هي سائبة أو كان ينزع من ظهرها فقارة أو عظماً وكانت لا تمنع عن ماء ولا كلأ ولا تركب وكأنه كان هذا نذراً من نذورهم اذا قدم الرجل منهم من سفر أو شفى من مرض وهذا الوجه مروى عن أبى عبيدة . وقيل هي ما ترك ليحج عليه . وقيل هي التى تركت لآلهتهم فقد كان الرجل يجيء بماشية فيتركها عندها ويسبل لبنها . وقيل هي العبد يعتق على أن لا يكون عليه ولاء ولا عقل [1] ولا ميراث وهو وجه غريب

(وأما الوصيلة) فهى فعيلة بمعنى فاعلة وقيل مفعولة والأول أظهر كما ينبئ عن ذلك بيان المراد بها واختلف فيه فقال الفراء هي الشاة تنتج سبعة أبطن عناقين عناقين واذا ولدت فى آخرها عناقا وجدياً قيل وصلت أخاها فلا يشرب لبن الأم الا الرجال دون النساء وتجرى مجرى السائبة وقال الزجاج : هي الشاة اذا ولدت ذكراً كان لآلهتهم واذا ولدت انثى كانت لهم وان ولدت ذكراً وانثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم . وقيل هي الشاة تَلِدُ ذكراً ثم انثى فتصل أخاها

(١) العقل : دية المقتول .

فلا يذبحون أخاها من أجلها واذا ولدت ذكراً قالوا هذا قربان لآلهتنا . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما هى الشاة تنتج سبعة أبطن فان كان السابع انثى لم ينتفع النساء منها بشئ الا أن تموت فيأكلها الرجال والنساء وكذا ان كان ذكراً وانثى قالوا وصلت أخاها فتترك معه ولا ينتفع بها الا الرجال دون النساء فان ماتت اشتركوا فيها . وقال ابن قتيبة : ان كان السابع ذكراً ذبح وأكلوا منه دون النساء وقالوا خالصة لذكورنا محرمة على أزواجنا وان كانت أنثى تركت فى الغنم وان كان ذكراً وأنثى فكقول ابن عباس رضى الله تعالى عنه . وقال محمد بن اسحق : هى الشاة تنتج عشر اناث متواليات فى خمسة أبطن فما ولدت بعده للذكور دون الاناث فاذا ولدت ذكراً وأنثى معاً قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوه لمكانها . وقيل هى الشاة تنتج خمسة أبطن أو ثلاثة فان كان جديا ذبحوه وان كان أنثى أبقوها وان كان ذكراً وأنثى قالوا وصلت أخاها وقال بعضهم الوصيلة من الابل وهى الناقة تبكر فتلد أنثى ثم تثنى بولادة أنثى أخرى ليس بينهما ذكر فيتركونها لآلهتهم ويقولون قد وصلت أنثى بأنثى ليس بينهما ذكر . وقيل هى الناقة التى وصلت بين عشرة أبطن لا ذكر بينها

(وأما الحامى) فهو فاعل من الحمى بمعنى المنع واختلف فيه أيضاً فقال الفراء : هو الفحل اذا لقح ولد ولده فيقولون قد حمى ظهره فيهمل ولا يطرد عن ماء ولا مرعى . وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنه وابن مسعود وهو قول أبى عبيدة والزجاج : انه الفحل يولد من ظهره عشرة ابطن فيقولون حمى ظهره فلا يحمل عليه ولا يمنع من ماء ومرعى . وعن الشافعىّ انه الفحل يضرب فى مال صاحبه عشر سنين . وقيل هو الفحل ينتج له سبع أناث متواليات فيحمى ظهره . والجمع بين الاقوال المتقدمة فى كل من تلك الانواع بان العرب كانت تختلف أفعالهم فيها كما سبق (ومعنى الآية السابقة) ماجعل الله من بحيرة الخ ماشرع . ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب حيث يفعلون ما يفعلون ويقولون الله

سبحانه وتعالى أمرنا بهذا وامامهم عمرو بن لحي فانه في المشهور أول من فعل تلك الأفاعيل الشنيعة . أخرج ابن جرير وغيره عن أبي هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول لأكثم بن الجون : يا أكثم عرضت عليّ النار فرأيت فيها عمرو بن لحي بن قمعة بن خِنْدِف يجر [1] قصبه في النار فما رأيت رجلا أشبه برجل منك به ولا به منك فقال أكثم أخشى أن يضرني شبهه يارسول الله فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم لا انك مؤمن وهو كافر انه أول من غير دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام وبحر البحيرة وسيب السائبة وحمى الحامي وجاء في خبر آخر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنه ووصل الوصيلة . وأخرج عبد الرزاق وغيره عن زيد بن أسلم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إني لأعرف أول من سيب السوائب ونصب النصب وأول من غير دين ابراهيم عليه الصلاة والسلام قالوا : من هو يارسول الله ؟ قال عمرو بن لحي أخو بني كعب لقد رأيته يجر قصبه في النار يؤذي أهل النار ريح قصبه واني لأعرف أول من بحر البحائر . قالوا: من هو يارسول الله ؟ قال عليه الصلاة والسلام : رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع اذانهما وحرم البانهما وظهورهما وقال هاتان لله ثم احتاج اليهما فشرب البانهما وركب ظهورهما فلقد رأيته في النار وهما تقضمانه بأفواههما : واستدل بالآية على تحريم هذه الأمور وهو ظاهر ، واستنبط منه تحريم جميع تعطيل المنافع . واستدل ابن الماجشون بها على منع أن يقول الرجل لعبده أنت سائبة وقال لا يعتق بذلك . وجعل بعض العلماء من صور السائبة ارسال الطير ونحوه وصرح بعض العلماء أنه لا ثواب في ذلك ولعل الجاعل لا يكتفي بهذا القدر ويدعي الاثم فيه والناس عن ذلك غافلون وأكثرهم لا يعقلون ان ذلك افتراء باطل فما تقدم فعل الرؤساء وهذا شأن الاتباع وهم المراد بالأكثر وظاهر سياق النظم الكريم انهم المقلدون لاسلافهم المفترين من معاصري رسول

(١) القصب بالضم : المعي

الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهذا بيان لقصور عقولهم وعجزهم عن الاهتداء بأنفسهم . والحاصل أن المراد بالآية رد ماابتدعه أهل الجاهلية وابطاله .

مذهبهم فى الفَرَع والعتيرة

(أما الفرع) فهو أول النتاج وهو بفتح الفاء والراء بعدها مهملة . وفى المحكم الفرع أول نتاج الابل والغنم كان أهل الجاهلية يذبحونه لاصنامهم ثم يأكلونه ويلقى جلده على الشجر ويقال ان الفرع ذبح كانوا اذا بلغت الابل ما تمناه صاحبها ذبحوه وكذلك اذا بلغت مائة يعتر منها بعيراً كل عام ولا يأكل منه هو ولا أهل بيته ويطلق أيضاً على الطعام الذى يصنع لنتاج الابل كالخرس للولادة . وفى كتاب ضروب الامثال للميدانى عند الكلام على قولهم (أول الصيد فرع) مانصه : الفرع أول ولد تنتجه الناقة كانوا يذبحونه لآلهتهم يتبركون بذلك وكان الرجل يقول اذا أتمت ابلى كذا نحرت أول نتيج منها وكانوا اذا أرادوا نحره زينوه والبسوه ولذلك قال أوس يذكر أزمة فى شدة برد :

وشُبِّهَ الهَيْدَبُ العَبَامُ من ال ... أقوام سَقْباً مجللاً فَرَعا [1]

الهيدب العبام : العى الثقيل. والسقب : الذكر من ولد الناقة . قال أبو عمرو: ويضرب عند أول مايرى من خير فى زرع أو ضرع وفى جميع المنافع . ويروى أول الصيد فرع ونصاب . وذلك أنهم يرسلون أول شئ يصيدونه يتيمنون به ويروى أول صيدفَرَعَه أى اراق دمه يضرب لمن يرى [2] منه خيرقبل فعلته هذه انتهى . ولعل هذا الاختلاف مبنى أيضاً على اختلاف مذاهب العرب فيه فانهم قلما يتوافقون فى العوائد والاعمال .

(١) أى مجللا جلد فرع فاختصر الكلام · والبيت من قصيدة يمدح بها فضالة بن كلدة فى حياته ويرثيه بعد وفاته قال الاصمعى : لم يبتدىء أحد من الشعراء مرثية احسن من ابتداء مرثية اوس بن حجر وهو : (ايتها النفس اجملى جزعا ﴿ ان الذى تحذرين قد وقعا) وقد ساق القالى القصيدة في ذيل النوادر ص ٣٢ فراجعها · (٢) فى فرائد اللآل (ج١ ص٢٥) يضرب لمن لم ير منه خير الخ

وأما (العتيرة) فهي بفتح المهملة وكسر المثناة بوزن عظيمة ذبيحة كانوا يذبحونها فى الجاهلية فى رجب يتقربون بها لاصنامهم وهى الرجبية قاله أبو عبيد . وقال غيره : العتيرة نذر كانوا ينذرونه من بلغ ماله كذا أن يذبح من كل عشرة منها رأساً فى رجب . وفى الصحاح : العتيرة هى أن الرجل كان يقول فى الجاهلية ان بلغ ابلى مائة عترت منها عتيرة فى رجب . ونقل أبو داود تقييدها بالعشر الاول من رجب

وروى الحميدى انها الشاة التى تذبح عن أهل بيت فى رجب وسميت بذلك لذبحها وهو العتر فهى فعيلة بمعنى مفعولة . واعلم أن الشريعة الاسلامية قد أبطلت كلاً من الفرع والعتيرة ، ففى الحديث الصحيح : لا فرع ولا عتيرة . وهذا النهى محمول على ما اذا كان الذبح لغير الله تعالى كصنيع الجاهلية فانهم كانوا يذبحونه لطواغيتهم . وأما اذا كان الذبح لله تعالى فهو جائز جمعاً بين هذا الحديث وبين حديث « الفرع حق » روى الحاكم انه سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن الفرع فقال : الفرع حق وان تتركه حتى يكون بنت مخاض أو ابن لبون[1] فتحمل عليه فى سبيل الله أو تعطيه أرملة خير من أن تذبحه يلصق لحمه بوبره وتوله ناقتك . وفى حديث آخر : نادى رجل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انا كنا نعتر عتيرة فى الجاهلية فما تأمرنا ؟ قال : اذبحوا لله فى أى شهر كان . قال: انا كنا نفرع فى الجاهلية . قال : فى كل سائمة فرع تغذوه ما شيتك حتى اذا استحمل ذبحته فتصدقت بلحمه فان ذلك خير . ففى هذا الحديث انه صلى الله تعالى عليه وسلم لم يبطل الفرع والعتيرة من أصلهما وانما أبطل صفة من كل منهما فمن الفرع كونه يذبح أول ما يولد . ومن العتيرة خصوص الذبح فى شهر رجب وكون الذبح فى كل منهما لغير الله تعالى .

(١) بنت مخاض : الناقة التى دخلت فى السنة الثانية سميت بذلك لأن أمها فى الغالب تصير ذات مخاض أى حامل بأخرى . وابن اللبون : ولد الناقة يدخل فى السنة الثالثة سمي بذلك لان امه ولدت غيره فصار لها لبن

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الوأد

يقال وأد الموءودة يئدها دفنها حية والموءودة اسم كان يقع على من كانت العرب تدفنها حية من بناتها وهو وائد وهى وئيد ووئيدة وموءودة . أنشد ابن الاعرابى :

وما لقى الموءود من ظلم أمّهٍ　　كما لقيت ذهل جميعاً وعامر

وبعضهم يقول المؤودة من الوأد وهو الثقل كأنها سميت بذلك لأنها تثقل بالتراب حتى تموت . وقيل الوأد مقلوب الأود وحكاه المرتضى فى درره عن بعض أهل اللغة وهو غير مرضى عند أبى حيان لأنه لم ينقل عن أحد من أئمة اللغة ذكر الهيثم بن عدىّ على ما حكاه عنه الميدانى أن الوأد كان مستعملاً فى قبائل العرب قاطبة فكان يستعمله واحد ويتركه عشرة فجاء الاسلام . وقد قل ذلك فيها إلا من بنى تميم فانهم تزايد فيهم ذلك قبل الاسلام وكانت مذاهب العرب مختلفة فى الوأد وقتل الاولاد (فمنهم) من كان يئد البنات لمزيد الغيرة ومخافة لحوق العار بهم من أجلهن وهم بنو تميم وكندة وقبائل آخرون . قال الميدانى : وكان السبب فى ذلك أن بنى تميم منعوا الملك ضريبة الإتاوة التى كانت عليهم فجرد اليهم النعمان أخاه الريان مع دَوْسر « ودوسر أحدى كتائبه » وكان أكثر رجالها من بكر بن وائل فاستاق نعمهم وسبى ذراريهم . وفى ذلك يقول أبو المُشَمْرَج اليشكرى :

لمـا رأوا رايةَ النعمان مُقبِلة　　قالوا : ألاليتَ أدنى دارِ نا عدَنُ
ياليتَ أمَّ تميمٍ لم تكن عرَفتْ　　مُرّاً وكانت كمن أودى به الزمن
ان تقتلونا فاعيارٌ مُجَدَّعَةٌ　　أو تُنعموا فقديماً منكم المِنَنُ

فوفدت وفود بنى تميم على النعمان بن المنذر وكلموه فى الذرارى فحكم النعمان بأن يجعل الخيار فى ذلك الى النساء فاية امرأة اختارت زوجها ردت عليه فاختلفْنَ

فى الخيار وكانت فيهن بنت لقيس بن عاصم فاختارت سابيها على زوجها فنذر قيس ابن عاصم أن يدس كل بنت تولد له فى التراب فوأد بضع عشرة بنتاً . وبصنيع قيس بن عاصم واحيائه هذه السنة نزل القرآن فى ذم وأد البنات . وروى أن أول قبيلة وأدت من العرب ربيعة وذلك أنهم أغير عليهم فنهبت بنت لأمير لهم فاستردها بعد الصلح فخيرت رضى منه بين أبيها ومن هى عنده فاختارت من هى عنده وآثرته على أبيها فغضب وسن لقومه الوأد ففعلوه غيرة منهم ومخافة أن يقع لهم بعد مثل ما وقع وشاع فى العرب غيرهم والله تعالى اعلم بصحة ذلك . وغالب قبائل العرب كان غرضهم من الوأد ماذكر .

وكيفية الوأد كما ذكر غير واحد ان الرجل منهم كان اذا ولدت له بنت فأراد أن يستحييها ألبسها جبة من صوف أو شعر ترعى له الابل والغنم فى البادية وان أراد قتلها تركها حتى اذا كانت سداسية فيقول لأمها طيبيها وزينيها حتى اذهب بها الى احمائها وقد حفر لها بئراً فى الصحراء فيبلغ بها البئر فيقول لها انظرى فيها ثم يدفعها من خلفها ويهيل عليها التراب حتى تستوى البئر بالارض . وروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه انه قال : كانت الحامل اذا قربت ولادتها حفرت حفرة فمخضت على رأس تلك الحفرة فاذا ولدت بنتاً رمت بها فى الحفرة واذا ولدت ولداً حبسته

(ومنهم) من كان يئد من البنات من كانت زرقاء أو شيماء أو برشاء أو كسحاء [1] تشاؤماً منهم بهذه الصفات . ومن هذا حديث سودة بنت زهرة ابن كلاب وذلك انها لما ولدت على بعض هذه الصفات ورآها أبوها كذلك أمر بوأدها فأرسلها الى الحجُون لتدفن هناك فلما حفرلها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول : لاتئد الصبية . وخلها البرية . فالتفت فلم ير شيئاً فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسجع بسجع آخر فى المعنى فرجع الى أبيها فأخبره بما سمع فقال : ان لها لشأناً

(١) الشيماء : السوداء . والبرشاء : من البرش وهو بياض يظهر فى الجسد مثل البرص . والكسحاء : العرجاء

وأركها فكانت كاهنة قريش فقالت يوماً لبني زهرة ان فيكم نذيرة أو تلد نذيراً فاعرضوا علىّ بناتكم فعرضن عليها فقالت فى كل واحدة منهن قولاً ظهر بعد حين حتى عرض عليها آمنة بنت وهب فقالت هذه النذيرة أو ستلد نذيراً فى خبر طويل ذكره أبو بكر النقاش وفيه ذكر جهنم ولم يكن اسمها مسموعاً عندهم يومئذ فقالوا لها : وما جهنم؟ فقالت : سيخبركم عنها النذير . وفى السيرة الحلبية : الذى دعا عبد المطلب لاختيار آمنة من بنى زهرة لولده عبد الله ان سودة بنت زهرة الكاهنة وهى عمة وهب والد آمنة كان من أمرها انها لما ولدت رآها أبوها زرقاء شيماء أى سوداء وكانوا يئدون من البنات من كانت على هذه الصفة أى يدفنونها حية ويمسكون من لم تكن على هذه الصفة مع ذل وكآبة ، وذكر الخبر السابق . وهذا المذهب كان عليه قليل من قبائل العرب ولم يأخذ به جمهورهم

(ومنهم) من كان يقتل أولاده خشية الانفاق وخوف الفقر وهم الفقراء من بعض قبائل العرب وفيهم نزل قوله تعالى (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرزقهم وإياكم ان قتلهم كان خطأً كبيراً) وظاهر لفظ الآية النهى عن جميع أنواع قتل الأولاد ذكوراً كانوا أو أناثاً مخافة الفقر والفاقة . لكن روى أن من أهل الجاهلية من كان يئد البنات مخافة العجز عن النفقة عليهن فنهى فى الآية عن ذلك فيكون المراد بالاولاد البنات وبالقتل الوأد والخشية فى الاصل خوف يشوبه تعظيم . قال الراغب : أكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه . والاملاق الفقر كما روى عن ابن عباس وأنشد له قول الشاعر :

وانى على الاملاق يا قوم ماجدٌ   أعد لأضيافى الشِّوَاءَ المُضَهَّبا (١)

(١) الاملاق : الافتقار وفى حديث فاطمة بنت قيس : أما معاوية فرجل أملق من المال. أى قد نفد ماله . واصل الاملاق الانفاق . يقال أملق ما معه املاقاً وملقه ملقاً اذا اخرجه من يده ولم يحبسه والفقر تابع لذلك فاستعملوا لفظ السبب فى موضع المسبب حتى صار به اشهر . والمضهب كمعظم اللحم الذى شوي على حجارة محماة أو الذى شوى ولم يبالغ فى نضجه . قال امرؤ القيس :

نمشى بأعراف الجياد اكفنا   اذا نحن قمنا عن شواء مضهب

وقوله سبحانه (نحن نرزقهم وإياكم) ضمان لرزقهم وتعليل للنهي المذكور بإبطال موجبه فى زعمهم أى نحن نرزقهم لا أنتم فلا تخافوا الفقر بناء على علمكم بعجزهم عن تحصيل رزقهم . وقوله سبحانه (إن قتلهم كان خطأً كبيراً) تعليل آخر ببيان ان المنهيّ عنه فى نفسه منكر عظيم لما فيه من قطع التناسل وقطع النوع والخطء كالأثم لفظاً ومعنى . وكان كثير من عقلاء العرب لا يرتضى هذا الفعل ، وكان جمع منهم يفتدون هذا النوع من الموءودة من أهلها . وفى صحيح البخارى أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يحيي الموءودة يقول للرجل اذا أراد أن يقتل ابنته لا تقتلها أنا أكفيك مؤنتها فيأخذها فاذا ترعرعت (1) قال لأبيها : أن شئت دفعتها اليك وان شئت كفيتك مؤنتها والاحياء هنا مجاز والمراد باحيائها إبقاءها وكان صعصعة بن ناجية يشترى البنت ممن يريد وأدها خشية الاملاق فأحيا ستاً وتسعين موءودة الى زمن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم . وفى ذلك يقول الفرزدق مفتخراً :

ومنا الذى اختير الرجال سماحةً ... وخيراً اذا هبّ الرياحُ الزعازع (٢)

ومنا الذى قاد الجيادَ على الوَجى ... لنجرانَ حتى صبحتها النزائع (٣)

ومنا الذى أعطى الرسول عطيةً ... اسارى تميم والعيون دوامع (٤)

ومنا خطيب لا يعاب وحامل ... أغرّ اذا التفت عليه المجامع (٥)

(١) ترعرع الصبي : تحرك ونشأ . (٢) الخير بكسر المعجمة الكرم وروى بدله (وجوداً) والزعازع جمع زعزع وهى الريح التى تهب بشدة وعنى بذلك الشتاء وفيه تقل الالبان وتعدم الازواد ويبخل الجواد فيقول هو جواد فى مثل هذا الوقت الذى يقل فيه الجود . (٣) الذى قاد الجياد هو الاقرع بن حابس وعمرو بن كلثوم ، وكلاهما غزوا نجران . والوجى : الحفا أو أشد منه وهو ان يرق القدم او الحافر . والنزائع من الخيل التى نزعت الى اعراق من اللحاح وفى الاساس : ومن المجاز خيل نزائع غرائب نزعت عن قوم آخرين وعنده نزيع ونزيعة نجيب ونجيبة من غير بلاده . (٤) قوله ومنا الذى اعطى الرسول الخ هذا يوم بنى عمرو بن جندب حين رد رسول الله صلى الله عليه وسلم سبيهم . وقال ابو عبيدة : كلم الاقرع رسول الله (ص) فى اصحاب الحجرات وهم بنو عمرو بن جندب فرد سبيهم . (٥) الخطيب : هو عطارد ابن حاجب بن زرارة حين وفد الى النبي (ص) فى وفد بنى تميم . والحامل . عبد الله بن حكيم الذى حمل الحمالات يوم المربد يوم قتل مسعود بن عمرو العتكى .

ومنا الذى أحيا الوئيدَ وغالبُ   وعمروٌ ومنّا حاجبٌ والأقارع[1]

أولئـك آبائى فجئنى بمثلهم   اذا جمعتْنا يا جرير المجـامع

ورأيت فى بعض كتب السير : أن صعصعة بن ناجية بن عقال كان يفدى الموءودة من القتل ولما أتى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يا رسول الله إنى كنت أعمل عملا فى الجاهلية أفينفعنى ذلك اليوم ؟ قال : وما عملك ؟ فأخبره بخبر طويل فيه انه حضر ولادة امرأة من العرب بنتاً فأراد أبوها أن يئدها . قال فقلت له أتبيعها ؟ قال : وهل تبيع العرب أولادها . قال : قلت : انما اشترى حياتها ولا اشترى رقها فاشتراها منه بناقتين عشراوين وجمل وقد صارت لى سنّة فى العرب على أن اشترى مايئدونه بذلك فعندى الى هذه الغاية ثمانون ومائتا موءودة وقد أنقذتها : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لا ينفعك ذلك لأنك لم تبتغ به وجه الله وأن تعمل فى اسلامك عملا صالحاً تثب عليه . وأخرج الطبرانى عن صعصعه بن ناجية المجاشعىّ قال : قلت يا رسـول الله انى عملت أعمالا فى الجاهلية فهل فيها من أجر ؟ أحييت ثلثمائة وستين من الموءودة اشترى كل واحدة منهن بناقتين عشراوين وجمل فهل لى من ذلك من أجر ؟ فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : لك أجره إذ منّ الله تعالى عليك بالاسلام وهذه الرواية أصح من الرواية الاولى وقد ذكر الفرزدق أحياء جده الموءودة فى كثير من شعره : كما قال :

ومنا الذى منع الوائداتِ   وأحيا الوئيد فلم يوأدِ

« ومنهم » من كان ينذر اذا بلغ بنوه عشرة نحر واحداً منهم كما فعله عبد المطلب فى قصته المشهورة واليها أشار النبى صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله (أنا ابن الذبيحين) يعنى أباه عبدَالله وجده اسماعيل عليه الصلاة والسلام . قال الامام

(١) الذى احيا الوئيد هو جده صعصعة بن ناجية .

الماوردىّ فى كتاب اعلام النبوة : (١) حكى الزهرى ويزيد بن رومان وصالح ابن كيسان أن عبد المطلب بن هاشم نذر أنه متى رزق عشرة أولاد ذكوراً ورآهم بين يديه رجالاً أن ينحر أحدهم للكعبة شكراً لربه حين علم أن ابراهيم عليه الصلاة والسلام أمر بذبح ولده نصوراً أنه من أفضل قربة ، فلما استكمل ولده العدد وصاروا له من أظهر العدد قال لهم : يابنى كنت نذرت نذراً علمتموه قبل اليوم فما تقولون ؟ قالوا : الامر لك واليك . ونحن بين يديك . فقال : لينطلق كل واحد منكم الى قدحه وليكتب عليه اسمه ففعلوا ثم أتوه بالقداح فأخذها وجعل يرتجز ويقول :

عاهدته وأنا موفٍ عهده والله لا يحمد شئ حمده
اذ كان مولاى وكنت عبده نذرت نذراً لا أحب رده
ولا أحب أن أعيش بعده

ثم دعا بالامين الذى يضرب بالقداح فدفع اليه قداحهم وقال حرك ولا تعجل وكان أحب ولد عبد المطلب اليه عبد الله فضرب صاحب القداح السهم على عبد الله فأخذ عبد المطلب الشفرة وأتى بعبد الله وأضجعه بين اساف ونائلة وأنشأ مرتجزاً يقول :

عاهدته وأنا موف نذره والله لا يقدر شئ قدره
هذا بنىّ قد أريد نحره وان يؤخره يقبل عذره

وهمّ بذبحه فوثب اليه ابنه أبو طالب وكان أخا عبد الله لأبيه وأمه وأمسك يد عبد المطلب عن أخيه وأنشأ مرتجزاً يقول :

كلا وربّ البيت ذى الانصاب ماذبح عبد الله بالتلعاب
ياشيب ان الريح ذو عقاب ان لنا مرة فى الخطاب
أخوال صدق كأسود الغاب

(١) — ص ١٢٦

فلما سمعت بنو مخزوم هذا من أبى طالب وكانوا أخواله قالوا : صدق ابن أختنا ووثبوا الى عبد المطلب فقالوا يا أبا الحرث انا لا نسلم ابن أختنا للذبح فاذبح من شئت من ولدك غيره . فقال : انى نذرت نذراً وقد خرج القدح ولا بد من ذبحه قالوا : كلا لا يكون ذلك أبداً وفينا ذو روح وانا لنفديه بجميع أموالنا من طارف وتالد وأنشأ المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم مرتجزاً يقول :

يا عجباً من فعل عبد المطلب   وذبحه ابناً كتمثال الذهب
كلا وبيت الله مستور الحجب   ما ذبح عبد الله فينا باللعب
فدون ما يبغى خطوب تضطرب

ثم وثب السادات من قريش الى عبد المطلب فقالوا : يا أبا الحرث ان هذا الذى عزمت عليه لعظيم وانك ان ذبحت ابنك لم تتهنَّ بالعيش من بعده ولكن لا عليك أنت على رأس أمرك تثبت حتى نصير معك الى كاهنة بنى سعد فما أمرتك من شىء فامتثله . فقال عبد المطلب : لكم ذلك وكانوا يرون الكهانة حقاً . ثم خرج فى جماعة من بنى مخزوم نحو الشام الى الكاهنة فلما دخلوا عليها أخبرها عبد المطلب بما عزم عليه من ذبح ولده وارتجز يقول :

يا ربّ انى فاعل لما ترد   ان شئت ألهمت الصواب والرشد
يا سائق الخير الى كل بلد   قد زدت فى المال وأكثرت العدد

فقالت الكاهنة : انصرفوا عنى اليوم فانصرفوا . وعادوا من الغد فقالت : كم دية الرجل عندكم ؟ قالوا : عشرة من الابل . قالت : فارجعوا الى بلدكم وقدموا هذا الغلام الذى عزمتم على ذبحه وقدموا معه عشرة من الابل ثم اضربوا عليه وعلى الابل القداح فان خرج القدح على الابل فانحروها وان خرج على صاحبكم فزيدوا على الابل عشرة عشرة حتى يرضى ربكم فانصرف القوم الى مكة وأقبلوا عليه يقولون يا أبا الحرث ان لك فى ابراهيم أسوةً فقد علمت ما كان من عزمه فى ذبح ابنه اسماعيل وأنت سيد ولد اسماعيل فقدّم مالك دون ولدك . فلما أصبح

عبد المطلب غدا بابنه عبدالله الى الذبح وقرب معه عشرة من الابل ثم دعا بأمين القداح وجعل لابنه قدحاً وقال اضرب ولا تعجل نخرج القدح على عبدالله فجعلها عشرين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها ثلاثين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها أربعين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها خمسين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها ستين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها سبعين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها ثمانين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها تسعين فضرب نخرج القدح على عبد الله فجعلها مائة وضرب نخرج القدح على الابل فكبر عبد الله وكبرت قريش وقالت يا أبا الحرث انه قد أنهى رضاء ربك وقد نجا ابنك من الذبح . فقال : لا والله حتى اضرب عليه ثلاثاً فضرب الثانية نخرج على الابل فضرب الثالثة نخرج على الابل فعلم عبد المطلب انه قد أنهي رضاء ربه فى فداء ابنه فارتجز يقول :

دعوت ربى مخلصاً وجهرا   يارب لاتنحر بنىّ نحرا
وفاد بالمال تجد لى وفرا   أعطيك من كل سوام عشرا
عفواً ولا تشمت عيوناً خزرا   بالواضح الوجه المغشى بدرا
فالحمد لله الاجل شكرا   فلست والبيت المغطى سترا
مبدلاً نعمةَ ربى كفرا   مادمت حيا أو أزور القبرا

ثم قربت الأبل وهى مائة من جلة إبل عبد المطلب فنحرت كلها فداء لعبد الله وتركت فى مواضعها لا يصد عنها أحد ينتابها من دب ودرج فجرت السنة فى الدية بمائة من الابل الى يومنا هذا وانصرف عبد المطلب بابنه عبد الله فرحاً فكان عبد الله يعرف بالذبيح . ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : أنا ابن الذبيحين يعنى اسماعيل بن ابراهيم عليهما الصلاة والسلام وأباه عبد الله بن عبد المطلب

(ومنهم) من يقول : الملائكة بنات الله سبحانه عما يقولون فالحقوا البنات به تعالى فهو عز وجل أحق بهن . والى هؤلآء القوم وردهم يشير قوله تعالى (ويَجْعَلُونَ لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهونَ وإذا بُشِّرَ أحدُهم بالأنثى ظل وجهُهُ مسوداً وهو كظيم يتوارَى من القوم من سوء ما بشر بهِ أيمسكه على هون أم يدسّه فى التراب ألا سآء ما يحكمون) ولله درّ التنزيل ما أعلى شأنه ، وأظهر برهانه ، فقد أبطل هذا المذهب الفاسد ، والاعتقاد الكاسد ، بلفظ موجزاىّ إيجاز ، ودليل واضح أقعد أهل الالحاد على الأعجاز ، ففى التفسير [1] (ويجعلون لله البنات) هم خزاعة وكنانة كانوا يقولون الملائكة بنات الله تعالى . وكأنهم لجهلهم زعموا تأنيثها وبنوتها . وقال الامام : أظن أنهم أطلقوا عليها البنات لاستتارها عن العيون كالنساء ولهذا لما كان قرص الشمس يجرى مجرى المستتر عن العيون بسبب ضوئه الباهر ، ونوره القاهر ، أطلقوا عليه لفظ التأنيث . ولا يرد على ذلك أن الجن كذلك لأنه لايلزم فى مثله الاطراد . وقيل اطلقوا عليها ذلك للاستتار مع كونها فى محل لاتصل اليه الأغيار فهى كبنات الرجل اللاتى يغار عليهن فيسكنهن فى محل أمين ، ومكان مكين ، والجن وان كانوا مستترين لكن لاعلى هذه الصورة ، وهذا أولى مما ذكره الامام . وأماعدم التوالد فلا يناسب ذلك (سبحانه) تنزيه وتقديس له تعالى شأنه عن مضمون قولهم ذلك أو تعجيب من جراهم على التفوه بمثل تلك العظيمة وهو فى المعنى الأول حقيقة وفى الثانى مجاز (ولهم مايشتهون) يعنى البنين (واذا بشر أحدهم بالانثى) أى أخبر بولادتها (ظل وجهه مسوداً) من الكآبة والحياء من الناس واسوداد الوجه كناية عن العبوس والغم والفكرة والنفرة التى لحقته بولادة الانثى . قيل : اذا قوى الفرح انبسط روح القلب من داخله ووصل الى الاطراف لاسيما الى

(١) راجع ج ٤ ص ٣٩٣ من تفسير روح المعانى للامام الكبير شيخ مشايخنا السيد محمود شهاب الدين الالوسي جد المؤلف

الوجه لما بين القلب والدماغ من التعلق الشديد فيرى الوجه مشرقاً متلألئاً واذا قوى الغم انحصر الروح الى باطن القلب ولم يبق له أثر قويّ فى ظاهر الوجه فيربد ويتغير ويصفر ويسود ويظهر فيه أثر الأرضية فمن لوازم الفرح استنارة الوجه واشراقه ومن لوازم الغم والحزن اربداده واسوداده فلذلك كنى عن الفرح بالاستنارة وعن الغم بالاسوداد ولو قيل بالمجاز لم يبعد . (وهو كظيم) أي مملوء غيظاً وأصل الكظم مخرج النفس يقال أخذ بكظمه اذا أخذ بمخرج نفسه ومنه كظم الغيظ لاخفائه وحبسه عن الوصول الى مخرجه . والظاهر ان ذلك الغيظ على المرأة حيث ولدت أنثى ولم تلد ذكراً . ويؤيده ما روى الاصمعيّ ان امرأة ولدت بنتاً سمتها الذلفاء فهجرها زوجها فأنشدت :

ما لأبى الذلفاء لا يأتينا يَظَلُّ فى البيت الذى يلينا
يحرد أن لا نلد البنينا وإنما نأخذ ما يعطينا (١)

(يتوارى من القوم) يستخفى من قومه (من سوء ما بشر به) عرفاً وهو الانثى والتعبير عنها بما لاسقاطها بزعمهم عن درجة العقلاء . ويروى ان بعض الجاهلية يتوارى فى حال الطلق فان أخبر بذكر ابتهج أو بأنثى حزن وبقي متوارياً أياماً يدبر فيها ما يصنع (أيمسكه) أيتركه ويربيه (على هون) أى ذل (أم يدسه) أى يخفيه (فى التراب) والمراد يئده ويدفنه حياً حتى يموت والى هذا ذهب

(١) الذلفاء من أسماء نساء العرب . وأهل الذلف محركة صغر الانف واستواء الارنبة، أو صغره في دقة أو غلظ واستواء فى طرفه ليس بحد غليظ . وحرد يحرد حروداً اذا تنحى واعتزل عن قومه ونزل منفرداً لم يخالطهم، وحرد : غضب فهو حارد وحرود .. وورد فى البيان والتبيين للجاحظ (ج ١ ص ١٠٤) ما نصه : « ولبغض البنات هجر ابو حمزة الضبى خيمة امرأته ، وكان يقيل ويبيت عند جيران له حين ولدت امرأته بنتاً فمر يوماً بخبائها واذا هى ترقصها وتقول : —

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل فى البيت الذي يلينا
غضبان أن لا نلد البنينا تالله ما ذلك فى أيدينا
وانما نأخذ ما أعطينا ونحن كالارض لزارعينا
ننبت ما قد زرعوه فينا

قال : « فغدا الشيخ حتى ولج البيت فقبل رأس امرأته وابنتها » .

السدىّ وقتادة وابن جريج وغيرهم . وقيل المراد اهلاكه سواء كان بالدفن حياً أم بأمر آخر فقد كان بعضهم يلقى الأنثى من شاهق . روى أن رجلا قال : يا رسولَ اللهِ والذى بعثك بالحق ما أجد حلاوة الاسلام منذ أسلمت وقد كانت لى فى الجاهلية بنت وأمرت امرأتى أن تزينها وأخرجتها فلما انتهيت الى وادٍ بعيد القعر ألقيتها فقالت : يا أبتِ قتلتنى فكلما ذكرت قولها لم ينفعنى شىء : فقال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما فى الجاهلية فقد هدمه الاسلام وما فى الاسلام يهدمه الاستغفار . وكان بعضهم يغرقها وبعضهم يذبحها الى غير ذلك ولما كان الكل اماتة تفضى الى الدفن فى التراب قيل أم يدسه فى التراب . وقيل : المراد اخفاؤه عن الناس حتى لا يعرف كالمدسوس فى التراب . (ألا ساء ما يحكمون) حيث يجعلون لمن تنزه عن الصاحبة والولد ما هذا شأنه عندهم والحال انهم يتحاشون عنه ويختارون لأنفسهم البنين فمدار الخطأ جعلهم ذلك لله تعالى شأنه مع ابائهم اياه لا جعلهم البنين لأنفسهم ولا عدم جعلهم له سبحانه وجوز أن يكون مداره التعكيس كقوله تعالى (تلكَ إذاً قِسْمَةٌ ضِيزَى) وقال ابن عطية : هذا استقباح منه تعالى شأنه لسوء فعلهم وحكمهم فى بناتهم بالامساك على هون أو الوأد مع أن رزق الجميع على الله تعالى فكأنه قيل ألا ساء ما يحكمون فى بناتهم وهو خلاف الظاهر جداً . وروى الأول عن السدىّ وعليه الجمهور والآية ظاهرة فى ذم من يحزن اذا بشر بالأنثى حيث أخبرت أن ذلك فعل الكفرة . وقد أخرج ابن جرير وغيره عن قتادة انه قال فى قوله سبحانه (واذا بُشِّرَ أحدُهُمْ بالأنثى ظَلَّ وجهُهُ مُسْوَدًّا وهوَ كَظِيم) : هذا صنيع مشركى العرب أخبركم الله تعالى بخبثه فأما المؤمن فهو حقيق أن يرضى بما قسم الله تعالى له وقضاء الله تعالى خير من قضاء المرء لنفسه . ولعمرى ما ندرى أىّ خير ! لربَّ جاريةٍ خيرٌ لأهلها من غلام وانما أخبركم الله عز وجل بصنيعهم لتجتنبوه ولتنتهوا عنه .

(والحاصل) ان هذا الفعل الشنيع على اختلاف أنواعه قد أبطلته الآيات

القرآنية ، والأحاديث النبوية ، وأبلغ النصوص الواردة فى ذلك قوله سبحانه (واذا المَوْؤُدَةُ سُئِلَتْ بأيّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ) حيث دل على أن السؤال إنما توجه اليها لإظهار كمال الغيظ على قاتلها حتى كأنه لا يستحق أنْ يخاطبَ ويسأل عن ذلك وفيه تبكيت لقاتلها وتوبيخ له شديد بصرف الخطاب عنه واسقاطه عن درجة الاعتبار فان المجنى عليه اذا سئل بمحضر الجانى ونسبت اليه الجناية دون الجانى كان ذلك بعثاً للجانى على التفكر فى حال نفسه وحال المجنى عليه فيرى براءة ساحته وانه هو المستحق للعتاب والعقاب وهذا نوع من الاستدراج واقع على طريق التعريض كما فى قوله تعالى (أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى الهين من دون الله) وهذه الطريقة أفظع فى ظهور جناية القاتل والزام الحجة عليه . وعدّ من الوأد العزل . فقد أخرج الامام احمد ومسلم وأبو داود وغيرهم أنه سئل رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عن العزل فقال : ذلك (الوأد الخفى) وفى حديث آخر (تلك الموؤدة الصغرى) وفيه تفصيل محله كتب الفقه والتفسير . ومن الآيات الواردة فى هذا الباب قوله تعالى (وكذلك زيّنَ لكثيرٍ من المشركينَ قتلَ أولادهم شركاؤهم لِيُرْدُوهُمْ وليَلْبِسُوا عليهم دينَهم ولو شاءَ اللهُ ما فعلوه فَذَرْهُمْ وما يفترون) ومنها قوله عزوجل (قد خَسِرَ الذينَ قتَلُوا أولادَهُمْ سَفَهاً بغيرِ علمٍ وحرّموا مارَزَقَهُم اللهُ افتراءً على الله قد ضَلُّوا وَمَا كانوا مُهْتَدِينَ) الى غير ذلك مما يطول ذكره وهكذا الأحاديث الصحيحة الواردة فى ابطال هذا العمل وشهرتها تغنى عن ذكرها وإيرادها فى هذا المحل .

ومن مذاهب العرب فى الجاهلية الميسر

الميسر القمار وهو مصدر ميمى كالمَوْعد والمرجع من يسر ييسر يقال يسرتُه اذا قمرتهُ . واشتقاقه اما من اليُسْر لأنه أخذ مال الرجل بيسر وسهولة من غير كد ولا تعب . أو من اليَسَار لأنه سلب يساره . وعن ابن عباس رضى الله

تعالى عنه كان الرجل فى الجاهلية يخاطر على أهله وماله . قال الشاعر :

أقول لهم بالشعب إِذْ ييسروننى   أَلم تعلموا أَنى ابن فارس زَهْدَمِ [(١)]

أى يفعلون بى ما يفعل الياسرون بالميسور . وقيل من يسروا الشئ اذا اقتسموه وسمى المقامر ياسراً لأنه بسبب ذلك الفعل يجزئ لحم الجزور . وقال الواحدى : من يَسَرَ الشئ اذا وجب والياسر الواجب بسبب القِدْح . وكان الميسر من مفاخر العرب لأنهم كانوا يفعلونه فى أيام الشدة وعدم اللبن وأيام الشتاء . قال شاعرهم :

واذا تعذَّرت السواعد والتوت   جال المُفَدّى وسطها المضبوح
اغلى به رخو الازار مُعَذَّل   فغدا يُمَار له دمٌ مسفوح

السواعد مجارى اللبن فى الضرع يقول اذا تعذر اللبن جال المفدى يعنى القدْح والمضبوح الذى ضبح وهو أثر النار لأنه يقوّم بالنار . واغلى به من الغلاء أى أخذ به أى بالقدح سهاماً كثيرة لكثرة فوزه ولذلك سمى المفدى لما يتكرر له من الفوز . ومعذل أى يعذل كثيراً على الانفاق فغدا يعنى القدح يمار له دم الناقة التى قامر عليها . وقال لبيد بن ربيعة فى معلقته الشهيرة يفتخر بلعب الميسر ونجاحه فيه على غيره وكرمه [(٢)]

وجزور ايسارٍ دعوت لحتْفِهَا   بمغالقٍ متشابهٍ أجسامُها
أدعو بهنَّ لعاقر أو مطْفِل   بُذِلَتْ لجيران الجميع لحامُها

(١) البيت لسحيم بن وثيل اليربوعى الرياحى . وقيل لابنه جابر بن سحيم . و ييسروننى هو من الميسر أى يجزوننى ويقتسموننى ، ويروى يأسروننى من الاسر . وقوله الم تعلموا يروى بدله : ألم تيأسوا والمعنى واحد . وقوله انى ابن فارس زهدم يروى ، انى ابن قاتل زهدم وهو رجل من عبس — وزهدم اسم فرس بشر بن عمرو أخى عوف بن عمرو وعوف جد سحيم بن وثيل قاله أبو محمد الاعرابى — فعلى رواية انى ابن قاتل زهدم يصح أن يكون الشعر لسحيم . قال الزبيدى : ويروى هذا البيت أيضاً فى قصيدة أخرى على هذا الروى :

اقول لاهل الشعب اذ ييسروننى   الم تيأسوا انى ابن فارس لازم
وصاحب أصحاب الكنيف كأنما   سقاهم بكفيه سهام الاراقم

قال : وعلى هذه الرواية أيضاً يكون الشعر له دون ولده لعدم ذكر زهدم في البيت .

(٢) راجع الجزء الاول ص ٧١

فالضيفُ والجارُ الجنيب كأنما ... هبطَا تبالةَ مُخْصِباً أهضامُها

الايسار جمع يسر وهو صاحب الميسر والمغالق سهام الميسر سميت بها لانها بها يغلق الخطر وهو السبق الذى يراهن عليه من قولهم غلق الرهن يغلق غلقاً إذا لم يوجد له تخلص وفكاك . يقول : ورب جزور أصحاب ميسر دعوت ندمائى لنحرها وعقرها بأزلام متشابهة الاجرام وسهام الميسر يشبه بعضها بعضاً حيث جعلت على قدر واحد . وتحرير المعنى : رب جزور أصحاب ميسر كانت تصلح لتقامر الأيسار عليها دعوت ندمائى لهلا كها أى لنحرها بسهام متشابهة . قال الأئمة : يفتخر بنحره اياها من صلب ماله لامن كسب قماره والابيات التى بعده تدل عليه وانما أراد السهام ليقرع بها بين ابله أيها ينحر لندمائه . ومعنى البيت الثانى : انه يقول : ادعو بالقداح لنحر ناقة عاقر أو ناقة مطفل تبذل لحومها لجميع الجيران أى انما أطلب القداح لانحر مثل هاتين وذكر العاقر لانها أسمن وذكر المطفل لأنها أنفس .. ومعنى البيت الثالث : أن الأضياف والجيران الغرباء عندى كأنهم نازلون وادى (تبالة) وهو من أخصب أودية اليمن فى حال كثرة أما كنه المطمئنة شبه ضيفه وجاره فى الخِصْب والسعة بنازل هذا الوادى فى أيام الربيع ، وقال عمرو بنُ قَمِيئَةَ صاحب امرئ القيس :

يودل[1] ماقومى على أن تركتهم ... سليمى إذا هبت شمال وريحُها
اذا النجم أمسى مغرب الشمس رائبا ... ولم يك برق فى السماء يليحُها
وغاب شعاع الشمس فى غير جلبة ... ولا هبوة الا وشيكا مصوحُها
وهاج غَمَام مُقْشَعِرّ كأنه ... نقيلةُ نعلٍ بان منها سريحُها
إذا عدم المحلوب عادت عليهم ... قدور كثير فى القدور قديحُها
يثور اليها كل ضيف وجانب ... كما رد دهداه القلاص نضيحُها

(١) قوله : « يؤول » كذا هو في الاصل ولعل صوابه « بودك » كما جاء فى بيت المرقش :
بودك ما قومى على ان هجرتهم ... اذا هب فى المشتاة ريح اطائف
انظر كتاب الميسر والقداح للامام ابن قتيبة (ص٥٦) ومعجم البلدان (ج ١ ص٢٨٢)

بأيديهم مقرومة ومَغالق يعود بأرزاق العباد منيحُها

قوله يودل الخ يريد يودل ياسليمى وما زائدة على أنك تركتهم وفارقتهم وسليمى امرأته وكانت أرادت منه فراق قومه ورائباً أى مرتفعاً والنجم الثريا وأشد البرد عند طلوع الثريا أول الليل ويليحها يظهرها ويضيئها والجلبة السحابة وكذلك الجلب والوشيك السريع والمصوح الذهاب والهبوة الغبرة ومقشعر لاماء فيه والنقيلة النعل البالية من النعال التى ينعل بها الابل إذا حفيت وجمعها نقائل والسريح السيور التى تشد بها النعل الواحد سريحة والقديح مايبقى فى أسفل القدر فيغرف بجهد والدهداه صغار الابل سميت بذلك لان الابل اذا وردت الماء دهدهتها ودحرجتها والنضيح الحوض والمقرومة يعنى القداح بها علامات وليس المنيح ههنا القدح الذى لاسهم له على ما سيجئ وانما المنيح ههنا الممنوح منهـا المعطى وهو القدح الفائز ويجوز أن يعود الهاء فى منيحها على العباد ويكون المنيح بمعنى الفاعل أى تمنحهم هذه القداح ما أصابوه من قمرها . وقال شاعر آخر وهو ابن مقبل [1] :

يابيت آل هشام هل علمت اذا امشى المراضيع فى أعناقها خضع
اِنى اتمم أيسارى بذى أود من فرع شوحط ضاح ليطه قرع

(١) هو تميم بن أبى (بالتصغير والتشديد) بن مقبل بن عوف: شاعر مخضرم ادرك الجاهلية والاسلام ، وكان يبكي أهل الجاهلية وبلغ (١٢٠) سنة . وكان يهاجى النجاشي الشاعر فهجاه لنجاشى فاستعدى عليه أمير المؤمنين عمر (رض) في قصة ذكرها البغدادى فى الخزانة (ج ١ ص ١١٣) ، والعسقلانى في الاصابة (ج ١ ص ١٩٥) ويضرب بقدح ابنْ مقبل المثل فى حسن الاثر . قال الثعالبي فى المضاف والمنسوب (ص ١٧٣) : ويروى ان عبدالملك بن مروان كتب الى الحجاج : ما اعرف ان ارى مثلا الاقدح ا بن مقبل . فلم يعرف معناه واغتم لذلك حتى دخل عليه قتيبة بن مسلم — وكان راوية للشعر حافظاً عالماً به — فسأله عنه . فقال : أبشر ايها الامير فانه قد مدحك اما سمعت قول ابن مقبل وهو يصف قدحاً له :

غـدا وهـو مجـدول وراح كأنه من الصك والتقليب بالـكف افطح
خـروج من الغمى اذا صـك صكة بدا والعيـون المستـكفـة تلمـح

انتهى المراد منـه . وقد ورد البيتان مشروحين فى (كنز الحفاظ فى تهـذيب الالفاظ) ص ٥١ و ٥٢ .

يحدو قتائله بيضٌ غطارفة شم الانوف مغاليق الضحى خلع
أولو الوفاء ولو أدّوا قداحَهمُ ولا يزال لهم من لحمها قنـع

قوله بذى أود يعنى القدح واذا كان ذا أود كان أسرع لخروجه وشوحط شجر تتخذ منه القسى أو ضرب من النبع وضاح ليطه ظاهر جلده وما ضحى منه للشمس أى برز والقتائل الاشباه وهذا قتل هذا أى شبهه والجمع اقتال . ويقال أيضاً فلان قتل فلان أي عدوه فقول ابن مقبل يحدو قتائله أى قتائل قدحي ومغاليق الضحى أى يغلقون الرهن والخطر وخلع معناه يسلبون الرجال بالقمار ويخلعونها . وأولو الوفاء أى يؤدون ما يلزمهم وفاؤه ولو لم يبق الا قداحهم لادوها والقنع الزيادة والـكثرة ويقال هو ذو قنع أى كثير المال جواد . وقال آخر وقد مدح قوما بأبيات منها قوله :

اعداء كوم الذرى ترغو أجنتها عند المجازر بين الحى والحجر
لا يفرحون اذا ما فاز فائزهم ولا يضيق عليهم أزبة العسر (١)
هم الخضارم والايسار ان ندبوا اذ لا تحيل قداحاً راحتا يسر

الـكوم جمع كوماء وهى الناقة العظيمة السنام وهم اعداؤها لأنهم ينحرونها يعنى انها تنحر وهى حوامل فيخرج الجنين حياً يرغو . وقوله لا يفرحون الخ . يقول اذا فازوا لم يفرحوا بذلك ولا يبطرهم الفوز ومنه قول الله عز وجل (ان الله لا يحب الفَرِحين) والازبة الشدة أى لا يبالون بالغرم وان كانوا معسرين والخضارم الاسخياء والواحد خضرم وأصل الخضرم البحر . وقال الأعشى :

وجزور ايسار دعوت الى الندى ونياط مقفرة أخاف ضلالها

والشعر الذى فيه تفاخرهم بالميسر وتمدحهم لا يمكن استيعابه فى مثل هذا المقام (وصفة الميسر) أن يجتمع الفتيان منهم وذوو اليسار ويشترون جزوراً بما

(١) اورده ابن قتيبة هكذا : (ولا ترد عليهم اربة اليسر) وعزاه الى ابن مقبل راجع ص ١٤٨ و١٤٩ .

بلغت ويدعون الجزّار ويسمونه (القُدار) على وزن همام فينحرها ويجعلها عشرة أجزاء فاذا قسمت الجزور على ما تقدم حضر الايسار (وهم القوم المجتمعون على الميسر وواحدهم يسر) وجئ بالقداح وهى عيدان من نبع قد نحتت وملست وجعلت سواء فى الطول والنبع شجر للقسىّ وللسهام ينبت فى قلة الجبل والنابت منه فى السفح أى أصل الجبل يقال له الشرْيان وفى الحضيض أى القرار فى الارض وهو المطمئن منها يقال له الشوحط وقولهم : لو اقتدح بالنبع لاورى ناراً مثل فى جودة الرأى . وكما يقال لها القداح يقال لها الازلام والاقلام . وهى عشرة : الفَذّ والتَوْأم والرَقيب والحِلْسُ والنافِسُ والمُسبِل والمُعَلَّى والمنيح والسفيح والوَغد . وقد نظم اسماءها جمع من اعيان أئمة أهل الأدب منهم الامام أبو الحسن علىّ بن محمد الهمدانىّ فقال :

يلى الفَذّ منها تَوأمٌ ثم بعده   رقيب وحِلْس بعده ثم نافس
ومسْبِلها ثم المعلى فهذه اﻟ   سهام التى دارت عليها المجالس

وقد نظمها الشيخ ابن الحاجب على ترتيب انصبائها أيضاً فقال :

هى فَذّ وتوأم ورقيب   ثم حلس ونافس ثم مُسبِل
والمعلّى والوغد ثم منيح   وسَفيح هذى الثلاثة تهمل
ولكلّ مما سواها نصيب   ضعفه ان عددت أول أول

ونظمها بعضهم أيضاً فقال :

كل سهام الياسرين عشره   فأودعوها صحفاً منتشره
لها فروض ولها نصيب   الفذّ والتوأم والرقيب
والحِلْس يتلوهنّ ثم النافس   وبعده مسبِلهن السادس
ثم المعلّى كاسمه المعلى   صاحبه فى الياسرين الأعلى
والوغد والسفيح والمنيح   غُفْلٌ فما فيها (١) يرى ربيح

(١) فى الاصل « منها »

فللأول وهو الفذ سهم ان فاز وفوزه خروجه وعليه غرم سهم ان خاب أى لم يخرج وكذلك باقيها على الترتيب فيما له وعليه الى المعلى وهو السابع له سبعة وعليه سبعة يفرض فى كل سهم منها بحسب ماله وعليه حز وتكثر هذه السهام بثلاثة اخر اغفال ليس فيها حزوز ولا لها علامات ليكون ذلك أنفى للتهمة وأبعد من المحاباة وهى المنيح والسفيح والوغد . فاذا حضرت القداح وحضر الايسار أخذ كل منهم من القداح على قدره وقدرته وطاقته ورياسته فمنهم من لا يبلغ حاله أكثر من الفذ فأخذه له فان خاب غرم سهماً ورأى ذلك سهلا . وان فاز أخذ سهماً ورأى ذلك كافياً ، ومنهم من يأخذ المعلى ولا يبالى بالغرم ان خاب وينال النصيب الاوفر ان فاز . ومنهم من يأخذ المعلى وسهماً إن لم يحضر من يتمم السهام فيأخذ مافضل من القداح ويقول الأيسار قد تممتكم . وفى ذلك يقول متمم ابن نويرة فى أخيه مالك :

اذا ابتدر القوم القِداحَ وأُوقِدَتْ   لهم نار أيسارٍ كفى مَنْ تَضَجَّعا

يقول : من تضجع من الفتيان ولم يأخذ ما بقى أخذ هو ما بقى حتى يتممهم والتضجع التكاسل والإِعراض عن العمل . وقال الغنوى :

اذا شهد الايسار أو غاب بعضهم   كفى الحىَّ وضاح الجبين أريب

وتسمى القداح مغالق لأنها تغلق الرهن اذا ضربوا بها على ما سبق . (والتجزئة) التى يقسمها القُدار هى أن يجعل الكتفين جزءين كل واحد منهما جزءاً والصدر جزءاً وهو الزور . وقال فى القاموس : الزور وسط الصدر أو ما ارتفع منه الى الكتفين أو ملتقى أطراف عظام الصدر . والعضدان : جزءان ويقال لهما ابنا ملاط والكاهل جزء وهو ابن مخدش . وفى القاموس : هو كمنبر ومحدث كاهل البعير . والملحاء وهو ما بين السنام الى العجز جزء والعجز جزء . والفخذان كل واحد منهما جزء ويزاد على الفخذين خرزات العنق والطفاطف وهى جمع طفطفة ويكسر الخاصرة أو أطراف الجنب المتصلة بالأضلاع أو كل لحم مضطرب أو الرخص من مراق البطن وهو الشىء الناعم . ثم يقسم على الاجزاء العشرة

ما فضل من الجنبين والسنام والكبد ومن قطع اللحم حتى تستوى فاذا استوت الاجزاء العشرة كلها بقى العظم الذى لا يصلح أن يكون على واحد من الاجزاء فان شاء الجزار أخذه وإلا كان لأهل الفاقة والفقر من العشيرة ولا يأخذ أحد من الايسار ، لأن ذلك عندهم عيب وعار ، ويسمى ذلك العظم الريم . قال فى الصحاح : الريم عظم يبقى بعد مايقسم الجزور . وأنشد ابن السكيت .

وكنتم كعظم الريم لم يدر جازر   على أى بدأىْ مقسم اللحم يوضع (١)

البدء والبدأة النصيب من الجزور والجمع أبداء وبدوء مثل جفن وأجفان وجفون . قال طرَفَةَ بن العبد :

وهُمُ أيسارُ لُقمانَ إذا   أغْلَتِ الشَّتْوَةُ أبْداءَ الجُزُوْر (٢)

وغير يعقوب يروى بدل يوضع يجعل . وقال ابن الاعرابى الريم القبر وقال :

إذا مت فاعتادى القبور وسلمى   على الريم أسقيت الغمام الغواديا (٣)

وأبو العلاء أيضاً فسر الريم فى هذا البيت بالقبر . وأظن أنه أراد الشاعر العظم الباقى من الجسد مجازاً ، وبه قال أبو الحسن على بن احمد السخاوى . ثم يبقى الرأس والقوائم يأخذها الجزار فى أجرته وتسمى الثُنيا وتسمى الجزارة أيضا ثم اتسعوا فى ذلك فسموا الرأس والقوائم جزارة قال ذو الرُمّة من قصيدة تسمى (المذهبة) فى وصف نعامة :

(١) قوله (وكنتم) يروى بدله (وانت) . وقوله (يوضع) قال ابن سيده : المعروف يجعل — وهى رواية اللحيانى — ولم يرد يوضع أحد غير ابن السكيت .. والبيت لشاعر من حضرموت . وقال ابن برى : لأوس بن حجر من قصيدة عينية وهو للطرماح الآجى من قصيدة لامية . وقيل لابى شمر بن حجر ، قال : وصوابه يجعل وهكذا انشده ابن الاعرابى وغيره . (٢) البيت من قصيدة لطرفة يصف بها أحواله فى أسفاره وتنقله في البلاد ولهوه وقوله « ايسار لقمان » قال الميدانى : هو نعمان بن عاد كان من العمالقة وهو اضرب الناس بالقداح فضرب به المثل فى ذلك وكان له ايسار يضربون معه فى ذلك وهم ثمانية : بيض وحممة وطفيل وزفافة ومالك وفرعه وثميل وعمار فضربت العرب بهؤلاء الايسار المثل كما ضربوه بلقمان فيقولون للايسار اذا شرفوهم كايسار لقمان وواحد الايسار يسر . انتهى . (٣) عزاه الجوهرى فى الصحاح والقالى فى الامالى الى مالك بن الريب المازنى .

شَخْتُ الجزَارة مثل البيت سائره   من المسوح خِدَبٌّ شوقبٌ خَشِبُ

وقد ذكر كثير من أبيات هذه القصيدة فى كتاب (مناهج الفكر . ومباهج العبر) وهو على أقسام قسم منه فى الطبائع الحيوانية . والابيات فى مبحث النعامة (أى أن الظليم المذكور هو دقيق القوائم وجسمه كثير الشعر كبيت الاعراب وهو أسود كالمسح وهو البلاس . والخدب : الضخم . والشوقب : الطويل . والخشب : الجافى) فاذا أخذ كل واحد من الايسار قدحه دفعوا جميعها إلى رجل ويسمونه « الحُرْضة » قال فى الصحاح : وهو الذى يضرب للأيسار بالقداح ولا يكون الا ساقطا برماً . وفسر فى القاموس انه أمين المقامرين ، ومن شأنه المعروف له انه لم يأكل لحماً قط بثمن انما يأكله عند غيره أو يهدى له الايسار . وكانوا أكثر ما يجتمعون على الميسر بالليل ويوقدون ناراً لذلك ثم يؤخذ ثوب شديد البياض فيلف على يد الحرضة ويسمى ذلك الثوب « المِجْوَل » وانما يجعل ذلك الثوب على يده ليغشى بصره فلا يعرف قدح زيد دون عمرٍو هذا بعد أن يلف كفه بقطعة من جراب لئلا يجد مس قدح يكون له مع صاحبه محاباة فاذا أخذ القداح لم ينظر اليها وبعضهم يقول يجعلها فى الربابة وهى خريطة ويجلس خلفه آخر ويسمى الرقيب ويسمى أيضاً رابىء الضرباء يقعد خلف ضارب قداح الميسر يرتبى لهم فيما يخرج من القداح فيخبرهم به ويعتمدون على قوله فيه (وهو مأخوذ من ربيئة القوم وهو طليعتهم . والضرباء جمع ضريب ككريم وكرماء وهو الذى يضرب بالقداح وهو الموكل بها ويقال له الضارب أيضاً) ثم يجلس الايسار حوله دائرين به . ثم يفيض بالقداح فاذا نشز — أى ارتفع — منها قدح استسله الحُرْضة من غير أن ينظر اليه ثم ناوله الرقيب فينظر الرقيب لمن هو فيدفعه الى صاحبه فيأخذ من أجزاء الجزور على قدر نصيب القدح منها وذلك هو الفوز . فان شاء بعد ذلك أمسك . وان شاء أعاد السهم على خِطار آخر وهو جمع خطر وجمع الجمع خطر

وهو السبق يراهن عليه وهو ما يوضع بين أهل السباق جمعه اسباق واعادة السهم تسمى التثنية وهو مراد النابغة فى قوله:

إنى أُتَمِّمُ أيسارى وأمنَحُهم مَثْنَى الأيادى وأكسو الجفنةَ الأُدُما

قال أبو عبيد : مثنى الأيادى هى الأنصباء التى كانت تفضل من الجزور فى الميسر فكان الرجل الجواد يشتريها فيعطيها . وقال أبو عمرو : مثنى الأيادى أن يأخذ القسم مرة بعد مرة ، وأنشد بيت النابغة وهذا هو المعول عليه . فان خرج الفذ أخذ صاحبه نصيبه وله جزء واحد كما تقدم ثم ضربوا بالقداح الباقية على التسعة الأجزاء الباقية . وان خرج التوأم أخذ صاحبه جزءين وقعد ان شاء وضربوا بباقى القداح على السبعة الأجزاء الباقية فان خرج المعلّى أخذ صاحبه الأجزاء السبعة التى بقيت . ووقع الغرم أعنى ثمن الجزور على من لم يخرج سهمه وهم أربعة أصحاب الرقيب والحلس والنافس والمسبل . وجملة هذه القداح ثمانية عشر سهما فيجزأ الثمن على ثمانية عشر جزءاً ويلزم كل صاحب قدح من هذه القداح مثل ما كان نصيبه من اللحم لو فاز قدحه ، فان لم يخرج الفذ ولا التوأم وخرج الرقيب أخذ صاحبه ثلاثة أجزاء ، ثم ضربوا ثانية فخرج المعلى أخذ صاحبه السبعة الاجزاء الباقية وهى تتمة الجزور وكانت الغرامة على من لم يخرج قدحه وهم أصحاب القداح الخمسة التى خابت وهى الفذ والتوأم والحلس والنافس والمسبل ومجموع سهامها ثمانية عشر فان خرج المعلى أخذ صاحبه سبعة أجزاء الجزور واحتاجوا الى نحر جزور أخرى لأن فى القداح التى خيبت المسبل وله ستة أجزاء . ولم يبق من اللحم إلا ثلاثة أجزاء ومن خاب قدحه فى الجزور الاولى لم يأكل منها شيئاً وذلك عندهم قبيح يعاب . فاذا نحروا الجزور الثانية وضربوا عليها بالقداح فخرج المسبل أخذ صاحبه ستة أجزاء منها الثلاثة التى بقيت من الجزور الاولى ولزمه الغرم فى الجزور الاولى ولم يلزمه فى الثانية شىء لان قدحه قد فاز فيها وصار غرم الجزور الثانية على من لم يخرج قدحه على ماسبق من

الحساب . وبقى من الجزور الثانية سبعة أجزاء يضرب عليها القداح من بقى فان خرج النافس أخذ صاحبه خمسة أجزاء ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئاً ولزمه الغرم فى الاولى وبقى جزآن من اللحم وقد بقى من القداح الحلس وله أربعة أجزاء فاحتاجوا إلى نحر أخرى لتتمة الاجزاء الأربعة ولا يأكل من خاب فى الجزور الثانية منها شيئاً فان نحروا الجزور الثالثة وفاز الحلس أخذ صاحبه أربعة أجزاء منها جزآن من الثانية وجزآن من الثالثة ولم يغرم من ثمن الجزور الثانية شيئا لانه قد فاز وكان ثمنها على من خاب قدحه وبقى من الجزور الثالثة ثمانية أجزاء فيضرب عليها بالقداح من بقى حتى تخرج قداحهم موافقة لاجزاء الجزور ، فان كانت اجزاء اللحم موافقة لاجزاء القداح لم يحتاجوا الى نحر شئ فان أعاد من فاز قدحه مرة ثانية فخاب غرم من ثمن الجزور التى خاب قدحه فيها على هذا الحساب ، فان فضل من اجزاء اللحم شئ وقد خرجت القداح كلها كانت تلك الفاضلة لأهل الوبد من العشيرة ، وهم أهل الضعف وسوء الحال وشدة العيش ، ويقال رجل وبد أى سيء الحال ويستوى فى الوصف به الواحد والجمع كما تقول رجل عدل ويجمع على أوباد كما يقال عدل وعدول . ومنه قول عمرو بن عداء الكلبى :

سعى عقالاً فلم يترك لنا سَبَدا ... فكيفَ لو قد سعى عمرو عقالَيْن
لأصبحَ الحيُّ أَوباداً ولم يجدوا ... عندالتفرق فى الهيجا جمالَيْن (١)

انشدهما أبو عبيد القاسم بن سلام البغدادىّ فى امثاله وقال : استعمل معاوية

(١) قوله : أوباداً يروى بدله (أوقاصاً) وهو جمع وقص وهو مابين الفريضتين من نصب الزكاة مما لايجب فيه شيء . والمعنى لاصبح مال الحي أوقاصا لايجب فيه شيء فى الزكاة . وجمالين انما ثناها لانه جعلها صنفين صنف يحملون عليه أثقالهم وصنف يقاتلون عليه ويوضحه رواية الاغانى . يوم الترحل والهيجا . ويستشهد النحويون بهذا البيت على جواز تثنية الجمع على تأويل فرقتين . ومثله قول شعبة بن قمير شاعر مخضرم :

لنا ابلان فيهما ماعلمتم ... فعن اية ما شئتم فتنكبوا

وقول أبى النجم العجلى :

تبقلت من أول التبقل ... بين رماحى مالك ونهشل

وقولهم : لقاحان سوداوان . وفى الحديث الشريف « مثل المنافق كالشاة العائرة بين الغنمين » إلى غير ذلك ، ولكن القياس يأباه لان الغرض من الجمع الدلالة على الكثرة والتثنية تدل على القلة

ابن أبي سفيان ابن أخيه عمرو بن عتبة ابن ابى سفيان على صدقات كلب فاعتدى عليهم . فقال عمرو بن العداء هذا الشعر . وسعى فى الموضعين من سعى الرجل على الصدقة أى الزكاة يسعى سعياً عمل فى أربابها . وعقالا وعقالين منصوبان على الظرف أراد مدة عقال ومدة عقالين والعقال صدقة عام . والسبد بفتحتين الشعر والوبر قال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب : اذا قيل ما له سبد ولا لبد فمعناه ما له ذو سبد وهى الابل والمعز ولا ذو لبد وهى الغنم . ثم كثر ذلك حتى صار مثلا مضروباً للفقر فقيل لكل من لا مال له أى شيء كان . يقول : تولى هذا الرجل علينا سنة فى أخذ الزكاة منا فلم يترك لنا شيئاً اظلمه إيانا فلو تولى سنتين علينا على أى حال كنا نكون . وقوله : لاصبح الحى الخ الحى القبيلة . والأوباد : جمع وبَدَ بفتحتين ، قال الجوهرى : الوبد بالتحريك شدة العيش وسوء الحال مصدر يوصف به فيستوى فيه الواحد والجمع ثم يجمع فيقال أوباد كما يقال عدل وعدول على توهم النعت الصحيح وأنشد البيت . وقال ابن برى : الوجه أن يكون جمع وبد وهو السيء الحال كفخذ وأفخاذ ونيّ الجمال لأنه جعلها صنفين صنفاً لترحلهم يحملون عليها أثقالهم وصنفا لحربهم يركبونه اذا جنبوا خيلهم : وقد أفرد ابن قتيبة [1] للميسر كتاباً بيّن فيه مذاهب العرب بياناً شافياً

فهما معنيان متدافعان ولولا هذا التأويل لم يسغ ذلك بحال . ومعنى بيتى عمرو : ان هذا الرجل سعى فى صدقاتنا سنة فلم يترك لنا ذات شعر ولا ذات وبر فكيف لو تولى علينا سنتين اذن لاصبح رجال الحى على اسوأ حال ولم يجدوا من صنى الجمال شيئاً يستعينون به فى ارتحالهم وقتالهم .

(١) أقول : وقد صنف كثير من العلماء فى الميسر وأحسن ما وقفت عليه كتاب (المسفر عن الميسر) لشيخنا المؤلف . وكتب الامام برهان الدين البقاعي فى تفسيره (نظم الدرر فى تناسب الآى والسور) بحثاً ممتعاً فى الميسر ، وللزبيدى شارح القاموس كتاب فيه أيضاً اسمه (نشوة الارتياح فى بيان حقيقة الميسر والقداح) وقد ضمنه شرح عبارات البقاعي مع ايضاح ما اغفله ، وكانت هذه الرسالة بخط مؤلفها محفوظة فى احدى « مكتبات » برلين ثم طبعت هناك . وصنف فيه بعض الالمانيين أيضاً كتابا مستقلا جمع فيه اقوال الأئمة ... هذا ما كتبناه هنا منذ ثلاثة أعوام تقريباً ، وقد اطلعنا اليوم على كتاب ابن قتيبة المسمى (الميسر والقداح) مطبوعاً أحسن طبع بعناية صديقنا الاديب الجليل الاستاذ محب الدين الخطيب منشىء مجلة الزهراء بمصر ، فراقنا أسلوبه ودقة نظره وحسن استخراجه ولا بدع فان الامام ابن قتيبة هو أبو عذرة أمثال هذا البحث

ولم تكن نسخته عندى وما ذكرته كاف فى المقصود وقد خلا عن مثله كثير من الكتب ولله تعالى الحمد على ذلك (وقد حرمته الشريعة الاسلامية وأبطلته) وفى حكم ذلك جميع أنواع القمار من النرد والشطرنج وغيرهما حتى أدخلوا فيه لعب الصبيان بالجوز والكعاب والقرعة فى غير القسمة وجميع أنواع المخاطرة والرهان وعن ابن سيرين كل شئ فيه خطر فهو من الميسر . وفى ذلك ورد قوله تعالى (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس واثمهما أكبر من نفعهما) فمنافع الميسر ان أهل الثروة والاجواد من العرب كانوا فى شدة البرد وكلب الزمان ييسرون أى يتقامرون بالقداح فاذا قمر أحدهم جعل اجزاء الجزور لذوى الحاجة وأهل المسكنة واستراش الناس وعاشوا . وكانت العرب تمدح من يأخذ القداح وتعيب من لا ييسر وتسميه البَرَم . قال متمم بن نويرة يرثى أخاه مالكا :

ولا بَرَماً تهدى النساء لعرسه   اذا القَشْع من برد الشتاء تقعقعا (١)

(وأما مفاسده) فكثيرة منها أن فيه أكل الأموال بالباطل وأنه يدعو كثيراً من المقامرين الى السرقة وتلف النفس واضاعة العيال وارتكاب الأمور القبيحة والرذائل الشنيعة والعداوة الكامنة والظاهرة وهذا أمر مشاهد لا ينكره الا من اعماه الله تعالى واصمه . وفى كتاب فتح البارى : والحكمة فى تحريم الميسر ما فيه من المخاطرة بالمال والتعرض للفقر واستجلاب العداوات المفضية الى سفك الدماء وهتك الحرم وغير ذلك من المفاسد التى لا يقابلها ما يترتب على الميسر من المنفعة كصير الشئ الى الانسان من غير تعب ولا كد وما يحصل من السرور والأريحية عند أن يصير له منها سهم صالح ، وقد ذكر الله سبحانه فى آية أخرى

العويص واليه المرجع فى معرفة تاريخ العرب واطوارهم وعاداتهم . ومن مزايا هذا الكتاب ان مؤلفه رحمه الله نهج فى تأليفه منهجا علميا حيث جمع أبيات شعراء العرب فى الميسر وجعل يتدبرها ويستدل على كيفيته باعتبارها ثم أودع كتابه ما أدى اليه النظر ودل عليه الاستخراج .

(١) راجع الجزء الاول ص٧١

ما فيه من المفاسد الدنيوية والدينية ، أما الدنيوية فما يوقعه الشيطان فى البين من العداوة والبغضاء فقد يقامر الرجل حتى لا يبقى له شئ وتنتهى به المقامرة الى أن يقامر بولده وأهله على ما سبق فيؤدى به ذلك الى أن يصير اعدى الاعداء لمن قمره وغلبه . وأما المفاسد الدينية فهى الصد عن ذكر الله وعن الصلاة وغير ذلك من افعال الخير . فان الميسر إن كان اللاعب به غالباً انشرحت نفسه ومنعه حب الغلب والقهر والكسب عما ذكر ، وان كان مغلوباً حصل له من الإنقباض والقهر ما يحثه على الاحتيال لأن يصير غالباً فلا يكاد يخطر بقلبه غير ذلك ، وقد شاهدنا كثيراً ممن يلعب بالنرد والشطرنج ونحوهما يجرى بينهم من اللجاج والحلف الكاذب والغفلة عن الله تعالى وغير ذلك من الأمور المنكرة ما يخل بالمروءة ويزرى بذوى العقول السليمة ومن عوفى من ذلك فليحمد مولاه ، ومن ابتلى به فليسأل من الطافه سبحانه أن ينجيه من بلواه .

ومن مذاهبهم المشهورة الاستقسام بالأزلام

كانت العرب فى الجاهلية اذا أرادوا سفراً أو تجارةً أو نكاحاً أو اختلفوا فى نسب أو امر قتيل أو تحمل عقل (1) أو غير ذلك من الأمور العظيمة جاؤا الى هُبَل وهو أعظم صنم لقريش بمكة وكان فى الكعبة ومعهم مائة درهم فأعطوها صاحب القداح حتى يجيلها لهم وكانت أزلامهم سبعة قداح محفوظة عند سادن الكعبة وخادمها وهى مستوية فى المقدار عليها اعلام وكتابة قد كتب على واحد منها (أمرنى ربى) وعلى واحد منها (نهانى ربى) وعلى واحد (منكم) وعلى واحد (من غيركم) وعلى واحد (ملصق) وعلى واحد (العقل) وواحد غُفْل أى ليس عليه شئ فاذا أرادوا الوقوف على مستقبل الامر الذى قصدوا له ومعرفة عاقبته أخير هو أم شر استقسم لهم أمين القداح بقِدْحَى الامر والنهى فان خرج

(1) العقل دية المقتول .

قدح الامر ائتمروا وباشروا فيما قصدوا له من حرب أو سفر أو زواج أو ختان أو بناء أو نحو ذلك مما يتفق لهم وان خرج قدح النهي أخروا ذلك العمل الى سنة فاذا انقضت أعادوا الاستقسام مرة أخرى . ويروى ان هذين القدحين قد كتب على احدهما (نعم) وعلى الآخر (لا) فاذا ظهر للمجيل قدح (نعم) مضوا فيما قصدوه من العمل واذا ظهر قدح (لا) توقفوا سنة على ما سبق من البيان ، والمقصود من الروايتين واحد . واذا وقعت منازعة فى نسب أحد منهم استقسم لهم أمين القداح بالأزلام الموسومة (بمنكم . ومن غيركم . وملصق) فان ظهر (منكم) أعزّوا ذلك الرجل الذى اشتبهوا فى نسبه وتنازعوا فى أمره واحترموه غاية الاحترام وان ظهر (من غيركم) نفروا عنه وتجنبوه وان ظهر (ملصق) بقى ذلك الرجل مجهول النسب عندهم على ما كان عليه قبل فما ظهر من هذه الأزلام وجب العمل بموجب ما ظهر فيه واعتمدوا عليه كل الاعتماد . واذا تنازعوا فى العقل — وهى دية المقتول — بأن اشتبه عليهم القاتل احضروا من اتهم بالقتل بالقدحين الموسومين (بالعقل . والغفل) واستقسم لهم الأمين فمن خرج عليه العقل تحمل الدية وان خرج الغفل أجالوا ثانياً حتى يخرج المكتوب عليه . وحكى أبو الفرج الاصبهانى : انهم كانوا يستقسمون عند (ذى الخلصة) أيضاً وأن امرأ القيس لما خرج يطلب بثأر أبيه استقسم عنده فخرج له ما يكره فسب الصنم ورماه بالحجارة ، وأنشد :

لو كنتَ ياذا الخلص الموتورا   لم تنهَ عن قتل العداة زورا [1]

قال : فلم يستقسم عنده أحد بعد حتى جاء الاسلام . والذى تحصل من كلام أهل النقل الثقات ان الأزلام كانت عند العرب على ثلاثة أنحاء : أحدها : قداح الميسر العشرة وقد سبق تفصيلها على الوجه الأكمل . وثانيها : لكل أحد وهى ثلاثة على أحدها مكتوب (افعل) وعلى الثانى (لا تفعل) وعلى الثالث (غفل) وقال الفراء : كان على أحدها (أمرنى ربى) وعلى الثانى (نهانى ربى) وعلى الثالث

(١) راجع ص ٢٠٧ من الجزء الثانى

(غفل) فاذا أراد أحدهم الأمر جعلها فى خريطة وهى الربابة وادخل يده فيها واخرج واحداً فان طلع الآمر فعل أو الناهى ترك أو الغفل أعاد . وثالثها : اللاحكام وهى التى عند الكعبة . ذكر ابن اسحق أن اعظم أصنام قريش كان هبل وكان فى جوف الكعبة يتحاكمون عنده فيما اشكل عليهم فما خرج منها رجعوا اليه ، وكان عند كل كاهن وحاكم للعرب مثل ذلك وكانت سبعة مكتوب عليها ما سبق ومعنى الاستقسام طلب معرفة ما قسم لهم دون مالم يقسم بالأزلام ، وقد حرمه الله تعالى فى جملة ما حرم فقال عز اسمه (حرمتْ عليكم الميتةُ والدمُ ولحمُ الخِنزير وما أهلَّ لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردِّية والنطيحة وما أكل السَبُعُ الا ماذكيتم وما ذبح على النصب وأنْ تستقسموا بالازلام ذلكم فسق) واستشكل تحريم ما ذكر بأنه من جملة التفاؤل وقد كان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم يحب الفأل . وأجيب : بأنه كان استشارة مع الاصنام واستعانة منهم كما يشير الى ذلك ماروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنه انهم اذا أرادوا ذلك أتوا بيت اصنامهم وفعلوا ما فعلوا فلهذا صار حراماً . وبعض العلماء يقول : إن سبب تحريم الاستقسام بالأزلام أنه دخول فى علم الغيب وضلال باعتقاد ان ذلك طريق اليه وافتراء على الله تعالى ان أريد (بربى) فى قولهم (أمرنى ربى) الله وجهالة وشرك ان أريد به الصنم .

قال (الجد) فى تفسيره [1] ناقلاً عن كتاب الأحكام للجصاص : إن الآية تدل على بطلان القرعة فى عتق العبيد لأنها فى معنى ذلك بعينه إذ كان فيها اثبات ما اخرجته القرعة من غير استحقاق كما اذا اعتق أحد عبيده عند موته على ما بين فى الفقه ، ولا يرد أن القرعة قد جازت فى قسمة الغنائم مثلاً وفى إخراج النساء ؛ لأنا نقول إنها فيما ذكر لتطييب النفوس والبراءة من التهمة فى إيثار البعض ولو اصطلحوا على ذلك جاز من غير قرعة . وأما الحرية الواقعة على واحد من العبيد فيما نحن فيه فغير جائز نقلها عنه الى غيره وفى استعمال القرعة

(١) ج ٢ ص ٢٤٧

النقل وخالف الشافعي في ذلك فجوز القرعة في العتق كما جوزها في غيره وظواهر الأدلة معه وتحقيق ذلك في موضعه . قال : والحق عندي ان الاستقسام الذي كان يفعله أهل الجاهلية حرام بلا شبهة كما هو نص الكتاب وان حرمته ناشئة من سوء الاعتقاد وانه لا يخلو عن تشاؤم وليس بتفاؤل محض وان مثل ذلك ليس من الدخول في علم الغيب أصلا بل هو من باب الدخول في الظن . انتهى ماهو المقصود من كلامه . ولابن القيم كتاب سماه (الطرق الحكمية [1]) ذكر فيه القرعة وجعلها أحد طرق الاحكام الشرعية واستدل على ذلك بقوله تعالى (ذلك من انباء الغيب نوحيه اليك وما كنت لديهم إذ يُلقُون اقلامهم أيُّهم يَكفُل مريمَ وما كنتَ لديهم إذ يختصِمون) قال [2] : روى عن قتادة كانت مريم عليها السلام ابنة إمامهم وسيدهم فتشاحَّ عليها بنو اسرائيل فاقترعوا عليها بسهامهم أيهم يكفلها فقرع زكريا وكان زوج أختها فضمها اليه . وعن ابن عباس: لما وضعت مريم في المسجد اقترع عليها أهل المصلى وهم يكتبون الوحي فاقترعوا بأقلامهم أيهم يكفلها . وبقوله تعالى (وان يونس لَمِنَ المرسلين إذ ابق الى الفلك المشحون فساهَمَ فكانَ من المُدْحَضِين) أي فقارع فكان من المغلوبين . قال: وقد احتج الأئمة الأربعة بشرع من قبلنا ان صح ذلك عنهم . وبعد أن أورد عده أحاديث صحيحة قال : فهذه السنة كما ترى قد جاءت بالقرعة كما جاء بها الكتاب وفعلها أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعده . قال البخاري في صحيحه : ويذكر ان قوماً اختلفوا في الاذان فاقرع بينهم سعد . وقد صنف (أبو بكر الخلال) مصنفاً في القرعة وهو في جامعه . قال احمد في رواية الفضل ابن عبد الصمد : القرعة في كتاب الله والذين يقولون القرعة قمار قوم جهال .

وقداطال ابن القيم في الاستدلال على كون القرعة من الطرق الحكمية والدلائل الشرعية مما لا يسعه المقام .. ثم بين كيفية القرعة في فصل مستقل فقال :

(١) طبع بمطبعة الاداب والمؤيد بمصر سنة ١٣١٧ هـ (٢) ص ٢٦٥

انه يجب من القرعة ما نقل عن سعيد بن المسيّب انه كان يأخذ خواتيمهم فيضعها في كمه فمن اخرج أولاً فهو القارع . وقال أبو داود : قلت لأبي عبد الله في القرعة يكتبون رقاعاً ، قال : ان شاؤا رقاعاً وان شاؤا خواتيمهم . وقال أبو منصور : قلت لأحمد كيف يقرع ؟ قال: بالخاتم وبالشيء . وقال اسحق بن راهويه: في القرعة يؤخذ عود شبيه بالقدح فيكتب عليه (عبد) وعلى الآخر (حرّ) . وقال بكير بن محمد عن أبيه : سألت أبا عبد الله ! كيف تكون القرعة ؟ قال: يلقى خاتم . وعن الاثرم قلت لأبي عبد الله كيف القرعة ؟ فقال سعيد بن جبير يقول بالخواتيم اقرع بين اثنين في ثوب فاخرج خاتم هذا وخاتم هذا ، قال : ثم يخرجون الخواتيم ثم ترفع الى رجل فيخرج منها واحداً . قلت لأبي عبد الله : فان مالكاً يقول تكتب رقاعاً وتجعل في طين ، قال : وهذا أيضاً . وقيل لأبي عبد الله : ان الناس يقولون القرعة هكذا يضم الرجل أصابعه الثلاث ثم يفتحها فأنكرها وقال : ليست هكذا انتهى .. ومن أحب الوقوف على تفصيل هذا البحث ومعرفة مواضع القرعة فعليه بهذا الكتاب فان فيه الكفاية . وعند الحكومة اليوم للقرعة طريق آخر فانهم يستعملونها في بعض الامور لاحاجة لنا الى بيانها ، والله مدبّر الامور .

ومن مذاهب العرب المشهورة النسيء

اعلم أن سني العرب كانت موافقة لسني الفرس في الدخول والانسلاخ فحدث في أحوالهم انتقالات فسد عليهم بها الكَبْس [1] الى أوان السنة السادسة

(١) قال الشيخ سحنون الميدوي في كتابه (مفيد المحتاج في شرح السراج) للعلامة الاخضري (ص ١٦) : الكبس في اللغة هو الطي يقال انكبس فلان أي انطوى واجتمع بعضه ببعض وكبست الخرقة اذا طويتها . وفي الاصطلاح : ضم فضلات السنين بعضها لبعض حتى يجتمع منها يوم كامل أما في العجمي فيجتمع في أربع سنين يوم فيزاد في آخر دجنبر وفي السنة الكبيسة فيكون من اثنين وثلاثين يوماً وكذلك كبس العربي . انتهى المقصود منه وفي التاج : ... الكبيس في حسابهم في كل أربع سنين يزيدون في شهر شباط يوماً فيجعلونه تسعة وعشرين يوماً وفي ثلاث

من ملك أغسطس[1] ، وذلك بعد ذى القرنين بمائتين وثمانين سنة وأربعين يوماً فسنوا كبس الربع من اليوم فى كل سنة فصارت سنوهم بعد ذلك الوقت محفوظة المواقيت . ويقال إن العرب كانت فى جاهليتها على رسم ابراهيم واسماعيل عليهما السلام لاتكبس سنيها الى أن جاورتهم اليهود فى يثرب فأراد العرب أن يكون حجهم فى أخصب وقت من السنة وأسهلها للتردد فى التجارة ولا يزول عن مكانه فتعلموا الكبس من اليهود . ويقال إن عمرو بن لحى الخزاعى أول من نسأ الشهور وبَحَر البحيرة وسيب السائبة ووصل الوصيلة وحمى الحامى وأول من دعا الناس الى عبادة الاصنام وقد سبق تفصيل ذلك على أتم وجه . ومعنى النسيء تأخير حرمة شهر الى آخر . وأصله من نسأت الشىء إذا أخرته فانهم يعتقدون ان من الدين تعظيم الاشهر الحرم وهى أربعة: المحرم ورجب وذو القعدة وذو الحجة فكانوا يتحرجون[2] فيها من القتال ، وكانت قبائل منهم يستبيحونها فاذا قاتلوا فى شهر حرام حرموا مكانه شهراً آخر من أشهر الحل ويقولون نسيء الشهر فيستحلون المحرم ويحرمون صفراً فان احتاجوا أيضاً أحلوه وحرموا ربيعاً الاول ، وهكذا كانوا يفعلون حتى استدار التحريم على شهور السنة كلها وكانوا يعتبرون فى التحريم مجرد العدد لا خصوصية الاشهر المعلومة ، وربما زادوا فى عدد الشهور بأن يجعلوها ثلاثة عشر أو أربعة عشر ليتسع لهم الوقت ويجعلوا أربعة أشهر من سنين يعدونه ثمانية وعشرين يوماً يقيمون بذلك كسور حساب السنة ويسمون العام الذى يزيدون فيه عام الكبيس .

(١) فى صبح الاعشى (ج ٢ ص ٣٨٧) : « أغيطش » وفي موضع آخر منه «أغشطش»

(٢) أى يكفون أنفسهم من حرج القتال أى أثمه . وفى الحديث : كنا نتحرج أن نطوف بالصفا والمروة ؛ وهذا مما ورد لفظه مخالفاً لمعناه ومنه : تحنث اذا فعل مايخرج به عن الحنث وتأثم أى جانب الاثم وتحوب أى ألقى الحوب — وهو الاثم — عن نفسه ، وتلوم اذا تربص بالامر يريد القاء الملامة عن نفسه . قال المرقش :

يا صاحبي تلوّما لاتعجلا ان النجاح رهين ان لاتعجلا

الى غير ذلك مما يطول ايراده . وقد ألف فى هذا المتقدمون ولكن لم يصلنا — ووا اسفاه — شىء منه .

السنة حراماً أيضاً . ولذلك نص على العدد المعين فى الكتاب والسنة وكان يختلف وقت حجهم لذلك ، وكان فى السنة التاسعة من الهجرة التى حج بها أبو بكر رضى الله تعالى عنه بالناس فى ذى القعدة ، وفى حجة الوداع فى ذى الحجة وهو الذى كان على عهد ابراهيم عليه السلام ومن قبله من الانبياء عليهم السلام ولذا قال صلى الله عليه وسلم : الا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض ، السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان .. زعم يوسف بن عبد الملك فى كتابه (تفضيل الازمنة) أن هذه المقالة صدرت من النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فى شهر مارس وهو آذار وهو برمهات بالقبطية وفيه يستوى الليل والنهار عند حلول الشمس برج الحمل والمراد بالزمان السنة . ومعنى كهيئته أى استدار استدارة مثل حالته الاولى . والمراد باستدارته وقوع تاسع ذى الحجة فى الوقت الذى حلت فيه الشمس برج الحمل حيث يستوى الليل والنهار . وأضاف رجب الى مضر لأنهم كانوا متمسكين بتعظيمه بخلاف غيرهم فيقال إن ربيعة كانوا يجعلون بدله رمضان وكان من العرب من يجعل فى رجب وشعبان ما ذكر فى المحرم وصفر فيحلون رجباً ويحرمون شعبان ، ووصفه بكونه بين جمادى وشعبان تأكيداً . وفى رواية أنهم كانوا يحجون فى كل شهر عامين فحجوا فى ذى الحجة عامين وفى المحرم عامين وهكذا . ووافقت حجة الصديق فى ذى القعدة من سنتهم الثانية ، وكانت حجة رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فى الوقت الذى كان من قبل ولذا قال ما قال .

وحكى ابن اسحق صاحب السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ان أول من نسأ الشهور على العرب وأحل منها ما أحل وحرم ماحرم القَلَمَّسُ وهو حذيفة بن فقيم بن عامر بن الحرث بن مالك بن كنانة بن خزيمة ثم قام على ذلك بعده ولده عباد ثم قام بعد عباد ابنه قلع ثم قام بعد قلع ابنه أمية ثم قام بعد أمية

ابنه عوف ثم قام بعد عوف ابنه أبو ثمامة جنادة وعليه قام الاسلام فكانت العرب اذا فرغت من حجها اجتمعت عليه بنى فقام فيها على جبل عند جَمْرَةِ العَقَبَةِ ، وقال بأعلى صوته : اللهم إنى لا أُعابُ ولا أُخابُ (١) ولا مرد لما قضيت اللهم إنى احللت شهر كذا ويذكر شهراً من الأشهر الحرم وقع اتفاقهم على شن الغارة فيه وانسأته الى العام القابل أى أخرت تحريمه وحرمت مكانه شهر كذا من الأشهر البواقى فكانوا يحلون ما أحل ويحرمون ما حرم . وفى رواية عن الكلبى : أول من فعل ذلك رجل من كنانة يقال له فقيم بن ثعلبة وكان اذا همّ الناس بالصدور من الموسم يقوم فيخطب ويقول لا مرد لما قضيت أنا الذى لا أعاب ولا أخاب فيقول له المشركون لبيك ثم يسألونه ان ينسئهم شهراً يغزون فيه فيقول إن صفر العام حرام فاذا قال ذلك حلوا الأوتار ونزعوا الأسنة والأزجة (٢) وان قال حلال عقدوا الأوتار وركبوا الأزجة وأغاروا . وعن الضحاك انه جنادة بن عوف الكنانىّ وكان مطاعاً فى الجاهلية وكان يقوم على جمل فى الموسم فينادى بأعلى صوته : ان آلهتكم قد أحلت لكم المحرم فأحلوه . ثم يقوم فى العام القابل فيقول : إن آلهتكم قد حرمت عليكم المحرم فحرموه . واخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما قال كانت النسأة حياً من بنى مالك بن كنانة وكان آخرهم رجلا يقال له القَلَمّس وهو الذى انسأ المحرم وكان ملكا فى قومه . وأنشد شاعرهم(ومنا ناسيءُ الشهر القَلَمَّس) وقال عمير بن قيس أحد بنى فراس ابن غنم بن مالك بن كنانة يفخر بالنسأة على العرب . ويروى ان القائل الكميت :

لقد علمت معدّ أن قومى ... كرام الناس ان لهم كراما

(١) كذا (بالخاء المعجمة) هنا وفى كل موضع وردت فى هذا الكتاب . وفى القاموس (مادة القلمس) أجاب بالجيم ومثله فى شرحه تاج العروس وعليهما اعتمدنا فى تصحيح هذه الكلمة فى (ج ١ ص ٣٣٥) وقد تبين لنا الان ان صوابها (أحاب) بالحاء المهملة من الحوب وهو الاثم فمعنى لاحاب : لاأتهم باثم . فتدبر ! (٢) الازجة جمع زج وهو الحديدة التى تركب فى أسفل الرمح وانكر الجوهري ورود هذا الجمع . راجع التاج ج ٢ ص ٥١

فأيّ الناس فأتونا بوتر وأيّ الناس لم نعلك لجاما
ألسنا الناسئين على معدّ شهور الحل نجعلها حراما ؟

(وقال آخر)

اتزعم انى من فقيم بن مالك * لعمرى لقد غيرت ما كنت أعلم
لهم ناسيء يمشون تحت لوائهِ * يحلّ اذا شاء الشهورَ ويحرم

وفى القاموس : ان الناسيء كان يقول اللهم انى ناسيء الشهور وواضعها مواضِعها ولا أعاب ولا أخاب اللهم انى قد أحللت أحد الصفرين وحرمت صفر المؤخر وكذلك فى الرجبين يعنى رجب وشعبان انفروا على اسم الله. وذلك قوله تعالى (انما النسيء زيادة فى الكفر) وحكى السهيليّ فى الروض الانف ان نسيء العرب كان على ضربين . أحدها : تأخير شهر المحرم الى صفر لحاجتهم الى شن الغارات وطلب الثارات والثانى تأخير الحج عن وقته تحريا منهم للسنة الشمسية فكانوا يؤخرونه فى كل عام أحد عشر يوماً حتى يدور الدور فيه الى ثلاث وثلاثين سنة فيعود الى وقته . فلما كانت السنة التاسعة من الهجرة حج بالناس أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فوافق حجه فى ذى القعدة ثم حج رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العام القابل فوافق عود الحج الى وقته فى ذى الحجة كما وضع أولا فلما قضى حجه خطب فكان مما قال فى خطبته : إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض الحديث . يعنى أن الحج قد عاد فى ذى الحجة . وقال العسقلانى فى فتح البارى : كانت العرب فى الجاهلية على انحاء : منهم من يسمى المحرم صفراً فيحل فيه القتال ويحرم القتال فى صفر ويسميه المحرم . ومنهم من كان يجعل ذلك سنة هكذا وسنة هكذا . ومنهم من يجعله سنتين هكذا وسنتين هكذا . ومنهم من يؤخر صفر الى ربيع الاول وربيعاً الى ما يليه . وهكذا الى أن يصير شوال ذا القعدة وذو القعدة ذا الحجة . ثم يعود فيعيد العدد على الاصل انتهى . وقد استنبط بعض العلماء دليلا على ان

مواقيت الحج لا يجرى على حساب السنة الشمسية الذى كانت الجاهلية تعتمده من قوله سبحانه (يسألونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج) فانه جل شأنه خص الحج بالذكر دون غيره من العبادات الموقتة بالاوقات تأكيداً لاعتباره بالأهلة . وما أحسن ما فصل أبو اسحق الصابى بين السنة الشمسية والقمرية بما يختص به كل واحدة منهما دون الاخرى . فقال : وأما العرب فان الله تعالى فضلها على الأمم الماضية ، وورثها ثمرات مساعيها المتعبة . وأجرى شهر صيامها . ومواقيت أعيادها ، وزكاة أهل ملتها ، وجزية أهل ذمتها ، على السنة الهلالية وتعبدها فيها برؤية الهلال ارادة منه أن تكون مناهجها واضحة ، وأعلامها لائحة ، فيتكافأ فى معرفة الفرض ودخول الوقت الخاص والعام ، والناقص الفطنة والتام ، والذكر والانثى وذو الصغر والكبر ، فحينئذ يجبون فى سنى الشمس حاصل الغلات المقسومة وخراج الاراضى الممسوحة ويحسبون فى سنة الهلال الجوالى [1] والصدقات ، والارحاء والمقاطعات ، وسائر ما يجرى على المشاهرات انتهى .

ومن النصوص الواردة فى ابطال النسيء قوله عز اسمه (انَّ عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حُرُم ذلك الدينُ القيم فلا تظلموا فيهنَّ أنفسكم وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة واعلموا ان الله مع المتقين ، انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطؤا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله زين لهم سوء أعمالهم والله لا يهدى القوم الكافرين) وما سبق من الكلام يوضح معنى الآية والدين القيم المستقيم . وهو دين ابراهيم واسماعيل عليهما السلام وكانت العرب قد تمسكت به وراثة منهما . وكانوا يعظمون الاشهر الحرم حتى

(١) قال الخفاجى فى شفاء الغليل : قال فى الزاهر . الجوالى هم أهل الذمة وانما قيل لهم جوالى لانهم جلوا عن مواضعهم . اهـ . والناس الآن يتجوزون به عن الخراج وعن الوظائف المرتبة منه وهو ليس بعربى .

ان الرجل يلقى فيهـا قاتل أبيه وأخيه فلا يهيجه ويسمون رجب الاصم ومنصل الاسنة حتى أحدثوا النسيء فغيروا . والمراد بظلم الانفس فيهن هتك حرمتهن وارتكاب ما حرم فيهن . ومعنى كون النسيء زيادة فى الـكفر الذى هم عليـه لأنه تحريم ما أحل الله تعالى وقد استحلوه واتخذوه شريعة وذلك كفر ضموه الى كفرهم . وقيل لانه تحريم ما أحله الله وتحليل ما حرمه . وقيل انه معصية ضمت الى الـكفر وكما يزداد الايمان بالطاعة يزداد الـكفر بالمعصية . ومعنى ليواطؤا عدة ما حرم الله ليوافقوا عدة ما حرم الله من الاشهر الاربعة أى فعلوا ما فعلوا لاجل موافقة ذلك فيحلوا ما حرم الله بخصوصه من الاشهر المعينة . والحاصل انه كان الواجب عليهم العدة والتخصيص فحيث تركوا التخصيص فقد استحلوا ما حرم الله كل ذلك اتباعاً لشهوات أنفسهم ، وطلباً لمزيد راحتهم وأنسهم .

الشهور العربية ومآخذ أسمائها

الشهور العربية قسمان : قسم غير مستعمل وهو الذى وضعته العرب العاربة . وقسم مستعمل وهو الذى وضعته العرب منها بالاسم الذى وضع له عند استهلال هلاله . فاما القسم الغير المستعمل فاسماء شهور كانت العرب العاربة اصطلحوا عليها [١] وهى : مؤتمر وناجر وحوّان (بالحاء المهملة والخاء المعجمة) وصوان ويقال فيه وَبْصان ورُنّى وأيّدة والاصم وعادل وناطل وواغل وَوَرْنة وبُرَك . وفى هذه الاسماء خلاف عند أهل اللغة . فان منهم من يقول هى ناتق ونقيل وطليق واسنح وانخ وحلك وكسح وزاهر ونوط وحرف وبغش . فناتق هو المحرم ونقيل هو صفر وهكذا ما بعـده على سرد الشهور . وكانت ثمود تسميها موجب وموجر ومور [٢] وملزم ومصدر وهوبر وهوبل وموها وذيمر [٣] ودابر وحيقل ومسبل

(١) اعتمدت فى تصحيح هذه الاسماء على صبح الاعشى (ج ٢ ص ٣٦٨) والقاموس وتاج العروس ، ولقطة العجلان . وقد رأيت الاستاذ نقل هذا البحث عن اللقطة بالحرف الواحد تقريباً ...

(٢) فى لقطة العجلان « مورد » . (٣) كذا بالذال المعجمة وسيأتى قريبا بالمهملة وفى اللقطة : دمير وديمر أيضا .

فموجب هو المحرم وموجر صفر الا انهم كانوا يبدأون بالشهور من ديمر وهو شهر رمضان فيكون أول شهور السنة عندهم . وبعض اولئك العرب يسميها بالاسماء الاول مع مغايرة يسيرة . ويقول هي : مؤتمر وناجر وخوان وصوان وحنتم وزبا [1] والاصم وعادل وناتق [2] وواغل وهواع وبرك .. ومعنى المؤتمر انه يأتمر بكل شيء مما تأتى به السنة من أقضيتها . وناجر من النجر وهو شدة الحر . وخوان على وزن فعال من الخيانة . وصوان بكسر الصاد وضمها فعال من الصيانة والزبا الداهية العظيمة المتكاثفة سمى بذلك لكثرة القتال فيه . ومنهم من يقول بعد صوان الزبا وبعد الزبا بائدة وبعد بائدة الاصم ثم واغل وناطل وعادل ووَرْنة وبُرَك . فالبائد من القتال إذ كان يبيد فيه كثير من الناس . وجرى المثل بذلك فقالوا « العجب كل العجب بين جمادى ورجب » وكانوا يستعجلون فيه ويتوخون بلوغ الثأر والغارات قبل رجب فانه شهر حرام . ويقولون له الاصم لأنهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا يسمع فيه صوت سلاح . والواغل الداخل على شرب ولم يدعوه . وذلك لانه يهجم على شهر رمضان وكان يكثر فى شهر رمضان شربهم الخمر لأن الذى يتلوه هى شهور الحج . وناطل هو مكيال الخمر سمى به لافراطهم فيه بالشرب وكثرة استعمالهم لذلك المكيال . وأما العادل [3] فهو من العدل لانه من أشهر الحج وكانوا يشتغلون فيه عن الباطل . واما الزبا فلان الانعام كانت تزب فيه لقرب النحر . وأما برك فهو لبروك الابل اذا حضرت المنحر . وقد روى انهم كانوا يسمون المحرم مؤتمر وصفر ناجر وربيع الاول وبصان [4] وربيع الآخر خوان وجمادى الاولى حنتن وجمادى الاخرى ورنة [5] ورجب الاصم وهو شهر مضر وكانت العرب تصومه فى الجاهلية وكانت تمتار فيه وتمير أهلها وكان يأمن بعضهم بعضاً فيه ويخرجون الى الاسفار ولا يخافون وشعبان عادل

(١) كذا والمشهور (ربى) كما صححناها فى أول البحث من التاج والصبح (٢) فى الاصل « بايق »
(٣) فى القاموس وشرحه : « العاذل » بالذال المعجمة (٤) فى الاصل : « نصار »
(٥) فى الاصل : « الرنة » .

ورمضان ناتق وشوال واغل وذو القعدة هواع وذو الحجة برك ويقال فيه أيضاً ابروك وكانوا يسمونه الميمون

(واما القسم المستعمل) فالمحرم وصفر وربيعان وجماديان ورجب وشعبان ورمضان وشوال وذو القعدة وذو الحجة وهذه الاسماء وضعت على هذه الشهور باتفاق حال وقعت فى كل شهر منها فسمى ذلك الشهر بها عند ابتداء الوضع فسموا المحرم محرماً لانهم كانوا يغيرون فاتفق انأغاروا فى هذا الشهر فلم ينجحوا فحرموا القتال فيه فسموه محرماً وسموا صفراً لصفر بيوتهم فيه منهم عند خروجهم الى الغارات . وقيل لانهم كانوا يغيرون الصفرية وهى بلاد . وشهرا ربيع لانهم كانوا يخصبون فيها بما أصابوا فى صفر والربيع الخِصْبُ ، وقيل غير ذلك والذى ذكر اليق بالتعليل حكاه ابن النحاس فى كتاب (صناعة الكتاب)وجماديان من جمد الماء لأن الوقت الذى سميا فيه بهذه التسمية كان الماء جامداً . ورجب لتعظيمهم له والترجيب التعظيم وقيل رجب لانه وسط السنة مشتق من الرواجب وهى أنامل الاصبع الوسطى ، وقيل أن العود رجب النبات فيه أى أخرجه فسمى بذلك ، وكذلك تشعب العود فى الشهر الذى يليه فسمى شعبان ، وقيل سمى بذلك لتشعبهم فيه للغارات ، وسمى رمضان أى شهر الحرّ مشتق من الرمضاء وقد صادف ذلك وقت التسمية ، وشوال من شالت الابل أذنابها اذا حالت أو من شال يشول اذا ارتفع وذو القعدة لقعودهم فيه عن القتال اذ هو من الاشهر الحرم وذو الحجة لأن الحج اتفق فيه فسمى به .

ويقال : أن أول من سماها بهذه الاسماء كلاب بن مرة ، ومن مجموع هذه الاشهر أربعة حرم : ثلاثة سرد وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب مضر على الاضافة لأن ربيعة كانت تحرم رمضان وهذا الترتيب رواه الاصمعى عن العرب ، واختار غيره أن يبدأ فى العدد بالمحرم ثم رجب وذى القعدة وذى الحجة لتكون الاربع كلها معدودة فى سنة واحدة . وروى عن ابن عباس

رضى الله تعالى عنه ، وأبدى بعضهم لترتيب الاشهر الحرم على هذا الوجه مناسبة لطيفة حاصلها أن للأشهر الحرم مزية على ما عداها فناسب أن يبدأ بها العام وأن تتوسطه وأن تختم به ، وانما كان الختم بشهرين لوقوع الحج ختام الاركان الاربعة لانها تشتمل على عمل مال محض وهو الزكاة وعمل بدن محض وذلك تارة يكون بالجوارح وهو الصلاة . وتارة بالقلب وهو الصوم لأنه كف عن المفطرات ، وتارة عمل مركب من مال وبدن وهو الحج فلما جمعهما ناسب أن يكون له ضعف ما لواحدٍ منها فكان له من الاربعة الحرم شهران . وكانوا يعظمون هذه الاشهر ويحرمون القتال فيها حتى ان الرجل منهم لو لقى قاتل أبيه أو قاتل أخيه لم يكلمه وهم يعظمون أول يوم من رجب أوفر تعظيم حسبما يخطر بالبال ، ومن سنتهم فيه أن يصالح بين من كان بينه وبين غيره موجدة .. ومن هذه الاشهر أربعة لا تكاد العرب تنطق بها إلا مضافة وهى شهرا ربيعٍ وشهر رجب وشهر رمضان والاشهر المتفقة أوائلها (١) المحرم مثله شوال . صفر مثله رجب . ربيع الاول مثله

(١) ههنا ضابط لاينجلى معنى هذا الكلام الا بايراده . وهو : انهم وضعوا لكل شهر من شهور السنة حرفاً وذلك لمن يريد أن يعرف اليوم الذى يدخل به الشهر العربى فى عامه ويجمع تلك الحروف قوله (أجه وزب جهر أبد) فللمحرم الالف ولصفر الجيم وهكذا ... وكيفيتها : معرفة أول أى شهر أردت انك تأخذ حرف شهرك المجهولة رؤيته وتبدأ بالعدد من اليوم الذى دخل به عامك العربى وهو المحرم فحيث انتهى لك العدد فذلك اليوم الذى يدخل به شهرك المطلوب .

مثال ذلك : ان أول المحرم من هذا العام — ١٣٤٠ — كان (الاحد) فاذا أردت أن تعرف اليوم الذى يبتدئ به ذو القعدة مثلا فخذ حرفه وهو (الباء) وعدده بحساب الجمل (اثنان) فتقول : الاحد الاثنين فتقف على الاثنين فانه أول ذى القعدة وهلم جرا .. فاذا عرفت هذا الضابط الذى هو مناط الثريا على كثير من الناس تبين لك معنى قوله . والاشهر المتفقة أوائلها المحرم مثله شوال الخ .. واعلم انك اذا ضل عنك الشهر العربى ولم تعلم فى أى شهر أنت فيه من شهور العام تعد من يناير الى الشهر العجمى الذى أنت فيه واحمل على العدد سبعة أبداً فما اجتمع بدأت به من جمادى الاولى متمادياً على الشهور فعلى أى شهر وقف حسابك ففيه أنت ان شاء الله . وأيضاً اذا لم تعلم بأى يوم دخل المحرم فانظر بأى يوم أهل الهلال فى الشهر الذى أنت فيه ثم خذ علامة ذلك الشهر وعدها الى وراء من اليوم الذى هل به الشهر الذى أنت فيه فحيثما انتهى حسابك فيما قبل فهو اليوم الذي يدخل به المحرم . وهناك ضوابط كثيرة مهمة من هذا القبيل تجدها فى كتب الفلك والله ولى التوفيق م؟

ذو الحجة . ربيع الآخر مثله رمضان ، جمادى الآخرة مثله ذو القعدة ، والشهور الغير المتفقة جمادى الاولى وشعبان . والله ولى التوفيق وهو المستعان ، وقد أوردنا من أفعالهم وأعمالهم التى جبّها الاسلام وأبطلها الشرع المحمدى ما فيه الكفاية فى هذا المقام ، وأما استيعابها فيحتاج الى كتب مفصلة ويكفى من القلادة ما أحاط بالجيد ، ومن تتبع كتب المتقدمين ، وشروح دواوين الجاهليين ، أمكنه أن يقف على أكثر مما ذكرنا .

ذكر ما كان للعرب فى الجاهلية من العلوم والمعارف

قد أسلفنا فى أوائل الكتاب أن العرب كانوا على أقسام مختلفة ، وأصناف متغايرة ، وأن البائدة منهم كعاد وثمود وطسم وجديس الى غير ذلك من الأمم قد انقرضوا وانقطعت عنا اخبارهم وتفاصيل احوالهم . وان غير البائدة (وهم موضوع الكتاب) قد تفرعوا من عدنان وقحطان : أما قحطان وهم عرب اليمن فقد كانوا على أحسن ما يكون من التمدن والغالب منهم سكن البلاد المعمورة ، وبنوا القصور المشهورة ، وشيدوا الحصون المذكورة . وكانت لهم مدن عظيمة قد شرح حالها أهل الأخبار على أتم وجه . هذه (سبأ) قد ذكرها الله تعالى فى كتابه الكريم فقال عزّ اسمه (لَقَدْ كَانَ لِسَبَأٍ فى مسكنهم آيةٌ جنتانِ عن يمينٍ وشمال كُلُوا من رِزْقِ ربّكم واشكروا له بلدةٌ طيبة وَرَبٌّ غَفُور) وكان لهم ملوك وأقيال دوّخوا البلاد واستولوا على كثير من أقطار الارض ؛ كل ذلك يدل على كمال وقوفهم على العلوم التى لا بدّ منها فى حفظ النظام وعليها مدارُ المعاش والانتعاش وسياسة المدن وتدبير المنزل والجيوش وتأسيس المدن واجراء المياه وغير ذلك مما لا يمكن وجوده مع الجهل وعدم المعرفة وكانت لهم أديان مختلفة وقد أرسل الله تعالى لهم من بلغهم ما أراد من الأوامر

والأحكام فآمن مَنْ آمن وكذب من كذب كحال غيرهم من الأمم وكانت لهم اليد الطولى فى كثير من الصناعات وكان للتبابعة والجبابرة منهم مذاهب فى احكام النجوم وغيرها : كل ذلك من المسلمات التى لا يمكن لأحد التوقف فى قبولها ولا التردد فى الإذعان لها وقد نطق متواتر الأخبار الصحيحة بها .. وأما بنو عدنان ومن جاورهم من عرب اليمن بعد أن فرقتهم حادثة سيل العَرِم ، فكانوا على شريعة موروثة وعلم منزل من السماء وهو ما جاء به إبراهيم واسمعيل عليهما السلام الى أن اختلّ أمرهم ، وتغير حالهم ، بمرور العصور ، وتطاول الدهور ، فأهملوا ما كانوا عليه من الدين ، وتركوا سديد القوانين ، ودانوا بما وضع لهم الخزاعى [1] وابتدعه لإغوائهم من الأحكام الباطلة واقتدوا بأقواله وأفعاله ، فمن ذلك اليوم فشا الجهل بينهم وقلّ العلم فيهم وأضاعوا اصنائعهم وتشتتوا فى الأطراف والأكناف ، ووقع التنازع والتشاجر بين القبائل وتكاثرت البغضاء بينهم ، فلم يبق عندهم علم منزل ولا شريعة موروثة من نبى ولا هم أيضاً مشتغلون ببعض العلوم العقلية المحضة كالطبّ والحساب ونحوها إنما علمهم ماسمحت به قرائحهم من الشعر والخطب أو ما حفظوه من أنسابهم وأيامهم أو ما احتاجوا اليه فى دنياهم من الأنواء والنجوم أو من الحروب ونحو ذلك . وكانوا يقال لهم الأمة الأمية . قال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولاً منهم يَتْلُو عليهم آياتِهِ ويزكّيهم ويعلّمهم الكتابَ والحكمةَ وإن كانوا من قبل لفى ضلال مُبين) فان المراد من الأميين العرب والأمى منسوب الى أمة العرب ولما كانت علومهم الفطرية ومعارفهم الطبيعية مما تدل على حدة أذهانهم ، وقوة فطنتهم ، وكمال استعدادهم وانما تدل على انهم فاقوا على [2] غيرهم ، أحببت

(١) هو عمرو بن لحى (٢) الصواب : فاقوا غيرهم لأن فاق يتعدى بنفسه . قال المجد: فاق أصحابه فوقاً وفواقاً علاهم بالشرف. انتهى . وفى الحديث : حبب الىّ الجمال حتى ما أحب أن يفوقنى أحد بشراك نعل . وقال الشاعر :ـ

فما كان حصن ولاحابس ☆ يفوقان مرداس في مجمع

أن أذكر نبذة منها مع تعريفها وتوضيحها وبيان ما يناسب من الاخبار التى صحت بها الرواية ، وثبتت عن الثقات من أهل الدراية . فمن علومهم :

علم الشعر والقريض

إعلم أن الشعرَ أكثر علم العرب ، وأوفر حظوظ الأدب ، وأحرى أن تقبل شهادته ، وتمتثل إرادته ، قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : إن من الشعر لحكمة . وقال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه : نعم ما تعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته فيستنزل بها الكريم ، ويستعطف بها اللئيم ؛ مع ما للشعر من عظم المزية ، وشرف الأبية ، وعزّ الأنفة ، وسلطان القدرة . وفى عمدة ابن رشيق (١) : العرب أفضل الأمم ، وحكمتها أشرف الحكم كفضل اللسان على اليد ، والبعد من امتهان الجسد ، إذ خروج الحكمة عن الذات ، بمشاركة الآلات ، فإنه لابد للانسان من أن يتولى ذلك بنفسه ، أو يحتاج فيه الى آلة أو معين من جنسه ، وكلام العرب نوعان : منظوم ، ومنثور ولكل نوع منهما ثلاث طبقات : جيدة ، ومتوسطة ، ورديئة ، فاذا اتفق الطبقتان فى القدر وتساوتا فى القيمة ولم يكن لأحدهما فضل على الأخرى كان الحكم للشعر ظاهراً فى التسمية لأن كلّ منظوم أحسن من كل منثور من جنسه فى معترف العادة . ألا ترى أن الدرّ وهو أخو اللفظ ونسيبه واليه يقاس وبه يشبه إذا كان منثوراً لم يؤمن عليه ولم ينتفع به فى الباب الذى له كسب ، ومن أجله انتخب ، وإنْ كان أعلى قدراً ، وأغلى ثمناً ، فاذا نظم كان أصون له من الابتذال ، وأظهر لحسنه مع كثرة الاستعمال ، وكذلك اللفظ إذا كان منثوراً تبدد فى الاسماء ، وتدحرج عن الطباع ، ولم يستقرّ منه إلا المفرطة فى اللفظ وإن كانت أجمله ،

(١) ص ٤

والواحدة من الالف وعسى أن لا تكون أفضله ، فان كانت هي اليتيمة [1] المعروفة والفريدة الموصوفة ، فكم في سقط الشعر من أمثالها ونظائرها لا يعبأ به ولا ينظر اليه ، فاذا أخذ سلك الوزن وعقدة القافية تألفت أشتاته ، وازدوجت فرائده وبناته ، واتخذه اللابس جمالاً ، والمدخر مالاً ، فصار قرطة [2] الآذان ، وقلائد الأعناق ، واما فى النفوس ، وأكاليل الرؤوس ، يقلب بالألسن ، ويخبأ فى القلوب مصوناً باللب ، ممنوعاً من السرقة والغصب . وقد اجتمع الناس على أن المنثور فى كلامهم أكثر وأقل جيداً محفوظاً ، وأن الشعر أقل وأكثر جيداً محفوظاً لأن فى ادناه من زينة الوزن والقافية ما يقارب جيد المنثور . وكان الكلام كله منثوراً ، فاحتاجت العرب الى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها ، وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة ، وفرسانها الأنجاد ، وسمحائها الأجواد ، لتهز أنفسها الى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم ، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلما تم لهم وزنه سموه شعراً لأنهم قد شعروا به أى فطنوا .

وزعم [3] الرواة أن الشعر كله إنما كان رجزاً أوقطعاً وأنه إنما قصد على عهد هاشم ابن عبد مناف. وكان أول من قصده مهلهل وامرؤ القيس، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة ذكر ذلك الجمحى وغيره .. وأول من طول الرجز وجعله كالقصيد الأغلب العجلى شيئاً يسيراً وكان على عهد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أتى العجاج فافتن فيه ، فالاغلب العجلى والعجاج فى الرجز كامرىء القيس ومهلهل فى القصيد . وسئل أبو عمرو بن العلاء [4] : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل : هل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها . ويستحب عندهم الاطالة عند الإعذار والإنذار والترغيب والترهيب والاصلاح بين القبائل كما فعل زهير والحرث بن حلزة ومن شابههما ، وإلا فالقطع أطير فى بعض المواضع والطوال للمواقف المشهورة .

(١) أى الدرة التى لا نظير لها . (٢) قرطة : على وزن عنبة جمع قرط وهو ما يعلق فى شحمة الاذن . (٣) العمدة : ج ١ ص ١٢٦ (٤) العمدة : ج ١ ص ١٢٤

احتماء القبائل بشعرائها

ومن مذاهب العرب أن القبيلة منهم كانت اذا نبغ فيها شاعر أتت القبائل فهنأتها بذلك وصنعت الاطعمة واجتمعت النساء يلعبن بالمزاهر [١] كما يصنعن بالأعراس ، وتباشروا به لأنه حماية لأعراضهم ، وذبٌّ عن أحسابهم وتخليد لمآثرهم ، وإشادة بذكرهم ، وكانوا لايهنئون الا بغلام يُولَد أوفرس تُنْتَج أو شاعر ينبغ فيهم . فممن حمى قبيلته زياد الأعجم : وذلك أن الفرزدق همّ بهجاء عبد القيس فبلغ ذلك زياداً — وهو منهم — فبعث اليه : لاتعجل فانى مهدٍ اليك هدية فانتظر الفرزدق الهدية فجاءه من عنده هجو وهو هذا :

وما تركَ الهاجونَ لى إن هجوته ... مصحاً أراد فى أديم الفرزدقِ
ولا تركوا عظماً يرى تحت لحمه ... لكاسره أبقوه للمتعرق [٢]
سأكسر ما أبقوا له من عظامه ... وأنكت مخّ الساق منه وأنتقى [٣]
فانا وما تهدى لنا إن هجوتنا ... لكالبحر مهما يلق فى البحر يغرق

فلما بلغته الابيات كف عما أراد ، وقال : لاسبيل الى هجاء هؤلاء ما عاش (العبد) هذا فيهم . وهجا (عبد الله) بن الزبعرى السهمى بنى قصىّ فدفعوه برمته الى عتبة بن ربيعة خوفاً من هجاء الزبير بن عبد المطلب وكان شاعراً مُفْلقاً شديد المعارضة قذع الهجاء ، فلما وصل عبد الله بن الزبعرى اليهم أطلقه حمزة ابن عبد المطلب وكساه . فقال عبد الله :

لعمرك ماجاءت بنكرٍ عشيرتى ... وإن صالحتْ اخوانَها لا ألومُها

(١) جمع مزهر كمنبر وهو العود يضرب به . (٢) عرق العظم وتعرقه : أكل ماعليه من اللحم نهشاً بأسنانه (٣) نكت العظم : أخرج مخه . ونقوت العظم وانتقيته : استخرجت مخه . قال الشاعر :

ولا يسرق الكلب السروق نعالنا ... ولا ننتقى المخ الذى فى الجماجم

وفى حديث عمرو بن العاص يصف سيدنا عمر (رض) : ونقت له مختها ، يعنى الدنيا يصف مافتح له منها .

فودَّ جناةُ الشر أنْ سيوفَنا ... بأيمانِنا مسلولةٌ لا نشيمُها (١)
فانَّ قُصَيّاً أهلُ عزٍ ونجدةٍ ... وأهلُ فَعال لا يُرامُ قديمُها
هُمُ منعوا يَوْمَيْ عُكاظ نساءنا ... كمنعِ الشولَ الهجانَ قرومُها (٢)

وكان الزبير غائباً بالطائف فلما وصل الى مكة وبلغه الخبر قال :

فلولا نحن لم يلبس رجالٌ ... ثيابَ أعزةٍ حتى يموتوا
ثيابُهُمُ سِمالٌ أو طِمارٌ ... بها دسم كما دسم الحَميتُ (٣)
ولكنا خلقنا إذْ خلقنا ... لنا الحبرات والمسكُ الفَتيتُ (٤)

والأخبار في هذا الباب ، لا يحيط بها الإستقصاء والحساب ، وقد عمل بهذا المذهب الى صدر الإسلام ، ولولا خوف التطويل لأوردنا شيئاً من ذلك في هذا المقام .

تنقل الشعر في القبائل

ذكر أبو عبد الله محمد بن سلام الجمحيّ في كتاب الطبقات وغيره من المؤلفين أن الشعر كان في الجاهلية في ربيعة . وكان منهم مهلهل بن ربيعة واسمه عديّ . وقيل امرؤ القيس وسمي مهلهلاً لهلهلة شعره أي رقته وخفته ، وقيل لاختلافه ، وقيل بل سمي بذلك لقوله :

(١) شام سيفه يشيمه : غمده واستله ضد . (٢) يوما عكاظ : هما من أيام العرب الشهيرة ، وعكاظ سوق بصحراء بين نخلة والطائف . راجع الجزء الاول (ص٢٦٧) ، والشول جمع شائلة على غير قياس والشائلة من الابل ما أتى عليها من حملها أو وضعها سبعة أشهر فجف لبنها ، والشائل بغير هاء التي تشول — ترفع — بذنبها اللقاح ولا لبن لها أصلا والجمع شول كركع جمع راكع . والهجان : من الابل الخالصة اللون والعتق وهي أكرم الابل . والقروم : جمع القرم — بالفتح — وهو الفحل
(٣) قوله : سمال . يقال سمل الثوب سمولا وسمولة ، أخلق كأسمل وسمل ككرم فهو ثوب أسمال كما يقال رمح أقصاد وبرمة أعشار ، والطمار : الثياب البالية . والدسم : الودك من لحم وشحم . والحميت : وعاء السمن كالعكة ، وقيل وعاء السمن الذي متن بالربّ ، وقيل لزق الصغير أو الزق بلا شعر . (٤) الحبرة وزان عنبة ثوب يماني من قطن أو كتان مخطط يقال برد حبرة على الوصف وبرد حبرة على الاضافة والجمع حبر وحبرات مثل عنب وعنبات . قال الازهري : ليس حبرة موضعاً أو شيئاً معلوماً انما هو وشي معلوم أضيف الثوب اليه كما قيل ثوب قرمز بالاضافة والقرمز صبغه فأضيف الثوب الى الوشي والصبغ للتوضيح (المصباح).

لما توقل فى الكراع شريدهم * هلهلت أثأر جابراً أو صِنْبلا (١)

ويروى (لما توعر (٢) فى الكلاب هجينهم) قال أبو سعيد الحسن بن الحسين السكرى : يعنى بقوله امرأ القيس بن حمام الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره حيث يقول :

عُوجا على الطَّلَلِ المُحيلِ لأَنَّنا * نبكى الديارَ كما بكى ابنُ حُمامِ (٣)

(١) صنبل : قال المجد « صنبل كخندف علم رجل من تغلب » والهجين : قال الزبيدى « هو امرؤ القيس بن الحمام، وجابر وصنبل من بنى تغلب » . وروى الجوهري « مالكاً » بدل « جابراً » وهو غير صواب . (٢) أى أخذ فى مكان وعر . (٣) البيت هو من قصيدة لامرئ القيس استشهد به صاحب الكشاف عند قوله تعالى (وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون) بفتح الهمزة فى قراءة أهل المدينة بمعنى (لعل) كأن (لأننا) فى البيت بمعنى (لعلنا) . قال ابن رشيق فى العمدة (ج ١ ص ٥٤) : (يروى فى البيت — لأننا بمعنى لعلنا وهى لغة امرئ القيس فيما زعم بعض المؤلفين والذى كنت أعرف (لعننا) (بالعين و نونين) . والمحيل : الذى أتى عليه الحول . وعوجا : أمر من عجت البعير أعوجه عوجاً ومعاجاً اذا عطفت رأسه بالزمام . وابن حمام : شاعر قديم ، وليس هو ابن حذيم الطبيب المشهور الذى يضرب به المثل فى الطب فيقال (أطب بالكى من ابن حذيم) كما وهم ابن الأثير فى المرصع . قال العلامة الشيخ عبد القادر البغدادى فى خزانة الأدب (ج ٢ ص ٢٣٤) : (جميع من ذكر ابن حذام الشاعر لم يقل إنه هو ابن حذيم الطبيب ، وقد اختلف فى ضبط اسمه فالذى رواه الآمدى — ابن خذام — بمعجمتين . قال : من يقال له ابن خذام منهم ابن خذام الذى ذكره امرؤ القيس فى شعره وهو أحد من بكى الديار قبل امرئ القيس ودرس شعره قال امرؤ القيس :

عوجا على الطلل المحيل لأننا * نبكى الديار كما بكى ابن خذام

قوله (لأننا) يريد (لعلنا) ذكر ذلك أبو عبيدة وقال : قال لنا أبو الوثيق : ممن ابن خذام ؟ فقلنا ما نعرفه . فقال : رجوت أن يكون علمه بالأمصار . فقلنا : ما سمعنا به . فقال : بلى قد ذكره امرؤ القيس وبكى على الديار قبله فقال (كأنى غداة البين يوم تحملوا) البيت انتهى . وقال ابن رشيق فى العمدة : الذى أعرف أن (ابن حذام) بذال معجمة وحاء غير معجمة كما روى الجاحظ وغيره . انتهى . وضبطه بعضهم (ابن حمام) بحاء مهملة مضمومة بعدها ميم غير مشددة واسمه امرؤ القيس . قال الآمدى عند ذكر المسمين بامرئ القيس : ومنهم امرؤ القيس بن حمام . ثم ذكر نسبه ، وقال : والذى أدركه الرواة من شعره قليل جدا وكان امرؤ القيس هارباً فقال مهلهل :

لما توغل فى الكراع هجينهم * هلهلت أثأر جابراً أو صنبلا

فى قصة مذكورة فى أخبار زهير بن جناب وبهذا البيت قيل لمهلهل (مهلهل) وبعض الرواة يروى بيت امرئ القيس بن حجر :

عوجا على الطلل المحيل لعلنا * نبكى الديار كما بكى ابن حمام

وكان مهلهل تبعه يوم الكلاب ففاته ابن الحمام بعد أن تناوله بالرمح وقد كان ابن الحمام أغار على بنى تغلب مع زهير بن جَناب فقتل جابراً وصنبلا . وروى لأننا بمعنى لعلنا وهى لغة فيما زعم بعض المؤلفين ، وكان مهلهل أول من قصد القصائد . قال الفرزدق (ومهلهل الشعراء ذاك الأول) وهو خال امرئ القيس ابن حجر وجدّ عمرو بن كلثوم لأمه . ومنهم المرقشان والأكبر منهما عم الأصغر والأصغر عم طَرَفة بن العبد واسم الأكبر عوف بن سعد وعمرو ابن قَمِيئَةَ ابن اخته [1] ، ويقال إنه أخوه ، واسم الأصغر حرملة ، وقيل ربيعة ابن سفيان وهذا أعرف . . ومنهم سعد بن مالك الذى يقول :

يابُؤسَ للحربِ التى وضعتْ أراهطَ فاستراحُوا [2]

وطَرَفة بن العبد بن سفيان وعمرو بن قَمِيئَةَ والحرث بن حِلِّزة والمتلمس

يعنى امرأ القيس هذا ويروى ابن خذام . انتهى . ومثله للعسكرى فى كتاب التصحيف قال : ومنهم امرؤ القيس بن حمام بن عبيدة بن هبل ابن أخى زهير بن جناب بن هبل ويزعم بعضهم أنه الذى عنى امرؤ القيس بقوله (نبكى الديار كما بكى ابن خذام) وكان يغزو مع مهلهل وإياه أراد مهلهل بقوله (لما توغل فى الكلاب هجينهم) البيت فالهجين هو امرؤ القيس ابن حمام وجابر وصنبل رجلان من بنى تغلب . انتهى . . .) .

(١) فى العمدة : (ابن أخيه) فليحقق ، (٢) هذا البيت من قصيدة له قالها فى حرب البسوس حين هاجت بين بكر وتغلب لقتل كليب ، واعتزل الحرث بن عباد وقال هذا أمر لا ناقة لى فيه ولا جمل فعرض سعد فى هذا الشعر بقعوده وقد أوردنا القصيدة فى الجزء الثانى (ص ١٤٩) فلتراجع . وقوله يابؤس للحرب اللام فيه لتأكيد الاضافة وهى اضافة لا تخصص ولا تعرف وهذه اللام على هذا الحد لا تجىء إلا فى بابين احدهما فى باب النفى بلا وذلك نحو لا غلامى لك ولا أبالك وما أشبههما ، والثانى فى باب النداء فى مثل قوله يابؤس للحرب وانما المعنى يابؤس الحرب ألا ترى أنه لولم يرد الاضافة لنون يابؤس فى النصب لكونه نكرة او كان يجعله معرفة فيبنيه على الضم وقد أتى الشاعر به فى باب النفى على أصله فى الاضافة فقال :

أبا لموت الذى لابد أنى ملاق لا أباك تخوفينى

والذى يدل على أن هذه الاضافة لا تخصص أن (لا) قد عمل معها وهو انما يعمل فى النكرات . وأراهط جمع أرهط جمع رهط وهو النفر من ثلاثة الى عشرة ، فاذا نصبت أراهط جعلت الحرب الفاعلة . وليس الوضع ههنا ضد الرفع وانما المراد انها تركتهم فلم تكلفهم القتال وانما يعنى الحرث ابن عباد ومن كان مثله فى اعتزال الحرب . ومن رفع أراهط فالمعنى يابؤس للحرب التى وضعها أراهط وهذا اللفظ هو الأصل لان قولك ترك بنو فلان الحرب هو واجب الكلام ، وقولك تركت الحرب بنى فلان مجاز واتساع . انتهى بتصرف من شرح ديوان الحماسة .

وهو خال طَرَفة ، واسمه جرير بن عبد المسيح . والأعشى واسمه ميمون بن قيس ابن جندل . وخاله المسيب بن عَلَس واسم المسيب زهير.. ثم تحول الشعر فى قيس فمنهم النابغتان ، وزهير بن أبى سُلمى ، وابنه كعب لأنهم ينسبون فى بنى عبد الله ابن غطفان . واسم أبى سُلمى : ربيعة ، ولَبيد ، والحطيئة ، والشماخ واسمه معقل ابن ضرار ، وأخوه مزرد واسمه جزء بن ضرار . وقيل يزيد وجزء (أخوهما) وكان مزرد [1] شريراً يهجو ضيوفه وهجا قومه عند رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال :

تعلم رسولَ اللهِ أنا كأنما أفأنا بأنمار ثعالب ذى ضحل
تعلم رسول الله لم أر مثلهم أجرَّ على الأدنى وأحرم للفضل

الضحل : الماء القليل فى الارض لا عمق له جمعه أضحال . ومنهم خداش ابن زهير وكان له السبق فى الشعر فى وقته . ثم استقر الشعر فى تميم ومنهم أوس ابن حَجَر شاعر مُضَر فى الجاهلية ولم يتقدمه أحد منهم حتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وبقى شاعر تميم فى الجاهلية غير مدافع . وكان الأصمعى يقول : أوس أشعر من زهير ولكن النابغة طأطأ منه وكان زهير راوية أوس ، وكان أوس زوج أمّ زهير . وسئل حسان بن ثابت : من أشعر الناس ؟ فقال : أرجلاً أم حياً ؟ قال : حياً فقال : أشعر الناس حياً هذيل . وقال ابن سلام الجمحىّ : وأشعر هذيل أبو ذؤيب غير مدافع . وقال الأصمعى : قال أبو عمرو بن العلاء ؛ أفصح الناس لساناً وأعربهم [2] أهل السروات وهن ثلاث وهى الجبال المطلة على تهامة مما يلى اليمن فأولها هذيل وهى تلى السهل من تهامة ثم بَجيلة السراة الوسطى . وقد شركتهم ثقيف فى ناحية أخرى منها ثم سراة الأزد أزد شنوءة وهم بنو الحرث بن كعب بن الحرث ابن نصر بن الأزد وقال أبو عمرو : أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس . وقال أبو زيد : أفصح الناس سافلة العالية وعالية السافلة يعنى عجز هوازن . قال : ولست أقول ؛

(١) ترجمته فى الاصابة للعسقلانى ج ٥ ص ٨٥ . (٢) فى العمدة (وأعذ بهم)

قلت العرب إلا ما سمعت منهم ، وإلا لم أقل قالت العرب . . وأهل العالية أهل المدينة ومَنْ حولها ومن يليها ومن دنا منهم ولغتهم ليست بتلك عندهم [١] . وقوم يرون تقدمة الشعر لليمن فى الجاهلية بامرئ القيس وفى الاسلام بحسان بن ثابت ، وفى المولدين بأبى نواس وأصحابه مسلم بن الوليد وأبى الشيص ودعبل كلهم من اليمن . وفى الطبقة التى تليهم بالطائيين أبو تمام والبحترى ويختمون الشعر بأبى الطيب وهو خاتم الشعراء لا محالة . وكان ينتسب [٢] فى كندة وهى رواية ضعيفة وإنما ولد فى كندة بالكوفة فيما حكاه ابن جنى . وإلا فكان غامض النسب فيقولون بدئ الشعر بكندة يعنون امْرَأ القيس — وختم بكندة — يعنون أبا الطيب . . . وزعم بعض المتأخرين أنه جعفى ، وقوم منهم الصاحب بن عباد يقولون : بدئ الشعر بملك وختم بملك . يعنون امْرَأ القيس وأبا فراس الحرث ابن سعيد بن حمدان . وقال آخرون : بل رجع الشعر الى ربيعة فختم بها كما بدئ بها يريدون مهلهلاً وأبا فراس . وأشعر أهل المدر بإجماع من الناس واتفاق حسان ابن ثابت . وقال أبو عمرو بن العلاء : ختم الشعر بذى الرُّمَّة والرجز برؤبة ابن العجاج . وزعم يونس أن العجاج أشعر أهل الرجز والقصيد . قال : وإنما هو كلام وأجودهم كلاماً أشعرهم ، والعجاج ليس فى شعره شئ يستطيع أحد أن يقول : لو كان مكانه غيره كان أجود ، وذكر أنه صنع أرجوزته (قد جبر الدين الإله فجبر [٣]) فيها نحو مائتى بيت وهى موقوفة مقيدة . قال : ولو أطلقت قوافيها

(١) ق — ع — (عنده) (٢) ق — ع — (ينسب) (٣) هذا الشطر مطلع أرجوزة طويلة له ، وهى — كما قال — نحو مائتى بيت مدح بها عمر بن عبيد الله بن معمر ، وكان عبد الملك بن مروان قد وجهه لقتال أبى فديك الحرورى فأوقع به وبأصحابه . . وبعده:

وعور الرحمن من ولى العور

فالحمد لله الذى أعطى الشبر موالى الحق ان المولى شكر

إلى أن قال : —

واختار فى الدين الحرورى البطر فى بئر لا حور سرى وما شعر

والقصة فى نهاية الارب للنويرى ، وخزانة الأدب للشيخ عبد القادر البغدادى (ج٢ ص٩٧)

وتباعد فيها الوزن لكانت منصوبة كلها . وقال أبو عبيدة : إنما كان الشاعر يقول من الرجز البيتين والثلاثة ونحو ذلك إذا حارب أو شاتم أو فاخر حتى كان العجاج أول من أطاله ، وقصّده ، ونسب فيه ، وذكر الديار ، واستوقف الركاب عليها ، ووصف ما فيها ، وبكى على الشباب ، ووصف الراحلة ، كما فعل الشعراء بالقصيد ، فكان فى الرجّاز كامرئ القيس فى الشعراء . وقال غيره : أول من طول الرجز الأغلب العجلى وهو قديم . وزعم الجمحى وغيره أنه أول من رجز ، وما أظن ذلك صحيحاً إلا أنه إنما كان على عهد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ونحن نجد الرجز أقدم من ذلك . وكان أبو عبيدة يقول : افتتح الشعر بامرئ القيس وختم بابن هرمة ولم أر أنقد من الذى قال : أشعر الناس من أنت فى شعره .

أنفة شعراء العرب من التكسب بالشعر

كانت العرب لا تتكسب بالشعر وإنما يصنع أحدهم ما يصنع فكاهة أو مكافأة عن يدٍ لا يستطيع على أداء حقها إلا بالشكر إعظاماً لها . قال امرؤ القيس بن حُجْر يمدح بنى تيم رهط المعلى :

أقرَّ حشى امرئِ القيس بن حُجْرٍ (١) بَنُو تيمٍ مَصابيحُ الظّلام

لأن المعلى أجاره حين طلبه المنذر بن ماء السماء فقيل لبنى تيم مصابيح الظلام ببيت امرئ القيس . وقال أيضاً لسعد بن الضباب :

سأَجْزِيك الذى دافعت عنّى وما يَجْزِيك عنّى غير شكرى

فأخبره أن شكره هو الغاية فى مجازاته ، حتى نشأ النابغة الذُبْيانى فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان بن المنذر ، وكان قادراً على الإمتناع منه بمن حوله من عشيرته أو سار اليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته

(١) أى سكن روعه .

وكسب مالاً جزيلاً حتى كان أكله وشربه فى صحاف الذهب والفضة وأوانيهما من عطايا الملوك . وتكسب زهير بن أبى سُلْمى يسيراً مع هَرِم بن سنان ، فلما جاء الأعشى جعل الشعر متجراً يتجر به نحو البلاد ، وقصد حتى ملك العجم فأثابَهُ ، وأجزل عطيته ، لعلمه بقدر مايقول عند العرب ، واقتداءً بهم فيه ، على أن شعره لم يحسن عنده حين فسر له بل استخف به واستهجنه لكنه حَذَا حَذْوَ ملوك العرب ، . وأكثر العلماء يقولون انه أول من سألَ بشعره وقد علمنا أن النابغة أسنّ منه وأقدم شعراً وقد ذكر عنه من التكسب بالشعر مع النعمان بن المنذر مع مافيه قبح من مجاعلة[1] الحاجب ، ودسّ الندماء على ذكره بين يديه ، وما أشبه ذلك . وذكر أن أبا عمرو بن العلاء سئل : لم خضع للنعمان النابغةُ ؟ قال : رغب فى عطاياه وعصافيره[2] وأما زهير بن أبى سُلْمى فما بلغ الطائى قطّ معرفة باجتداء من يمدحه ويدلك على ذلك ماقاله عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه لابنة زهير حين سألها : مافعلت حلل هرم بن سنان التى كساها ابوك ؟ قالت : أبلاها الدهر . قال : لكن ما كسا أبوك هرماً لم يبله الدهر . وقال لبعض ولد هرم بن سنان : أنشدنى ماقال فيكم زهير ! فأنشده . فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن . قال : ياأمير المؤمنين إنا كنا نعطيه فنجزل . قال : ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم . . ثم إن الحطيئة أكثر من السؤال بالشعر وانحطاط الهمة فيه حتى مقت وذل أهله ، وهلم جرا إلى أن حرم السائل وعدم المسؤل . وأما أكثر من تقدم فالغالب على طباعهم الأنفة من السؤال بالشعر وقلة التعرض به لما فى أيدى الناس إلا فيما لايزرى بقدر ولا مروءة مثل الفلتة النادرة ، والمهمة العظيمة ، ولهذا قال عمر رضى الله تعالى عنه : نعم ماتعلمته العرب الأبيات من الشعر يقدمها الرجل أمام حاجته . ألا ترى أن لبيد بن ربيعة لما

(١) جاعله مجاعلة وجعالا : رشاه . وفي الأساس هو يجاعله أى يصانعه برشوة .
(٢) راجع صفحة ٢٢ من هذا الجزء

بعث اليه الوليد بن عقبة مائة من الإبل ينحرها لعادته عند هبوب الصّبا وقد أسنّ وأقلّ ، وكان يطعم الناس ماهبت الصبا ، قال لابنته : اشكرى هذا الرجل فانى لا أجد نفسى تجيبنى ولقد أرانى لا أعيا بجواب شاعر فقالت :

اذا هبّتْ رياحُ أبى عقيل ... دَعَوْنا عند هبتها الوَليدَا[1]
أغرَّ الوجهِ أبيضَ عَبْشَميًّا ... أعان على مروءته لَبيدا[2]
بأمثالِ الهضابِ كأنَّ ركباً ... عليها من بنى حامٍ قعودا[3]
أبا وهْبٍ جزاكَ اللهُ خيراً ... نحرناها وأطْعَمْنا الثَّريدا
فَعُدْ ان الكريمَ لهُ مَعَادٌ ... وظَنّى بابنِ أرْوَى أن يَعُودا

وعرضتها عليه فقال : أجدت لولا أنك استعدتِ ! كراهيةً فى قولها (فعد إن الكريم له معاد) ويروى : لولا أنك استزدْتِ .. وقالوا : كان الشاعر فى مبتدأ الامر أرفع منزلة من الخطيب لحاجتهم إلى الشعر فى تخليد المآثر ، وشدة المعارضة ، وحماية العشيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته ، فلما تكسبوا به وجعلوه طعمةً وتولوا به الاعراض وتناولوها صارت الخَطابة فوقه . وعلى هذا المنهاج كانوا حتى فشت فيهم الضراعة وتطعموا أموالَ الناس وجشعوا تخشعوا واطمأنت بهم دار الذلة إلا من وقر نفسه وقارها ، وعرف لها مقدارها ، حتى قبض نقيَّ العرض مصون الوجه مالم يكن به اضطرار يحل الميتة . فأما من وجد الكفاف والبلغة فلا وجه لسؤاله بالشعر

(١) هبوب الصبا : كناية عن القحط (٢) عبشمياً : منسوباً الى بنى عبد شمس . ويروى أشم الانف أروع عبشمياً (٣) بأمثال : متعلق بأعان . والهضاب جمع هضبة وهى ماارتفع من الارض أو هى كل جبل منبسط . والمعنى : أعان بجمال ضخام امثال الهضاب لضخامتها . وقد شبهت أسنمتها بقوم سود قاعدين عليها ، وضربت لسواد أسنمتها مثلا وهم بنو حام أى السودان .

ذكر نبذة من مآثر شعراء العرب وغرر شعرهم

قد كتبت فى هذا المقام عند تأليف هذا الكتاب من أخبار شعراء الجاهلية وأحوالهم ، ما كفانا عنه كتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة وغيره من الكتب المؤلفة فى هذا الشأن فأسقطته عند الطبع ، وتعوضت عنه بذكر ما انتقاه بعض الأئمة من عيون الأشعار ، وأحاسنها ، وفصوصها ، وفرائدها ، والمختص من الأمثال السائرة ، والمعانى النادرة ، والألفاظ الفاخرة ، فى الفنون المتغايرة ، لسحرة الشعراء ، وأمراء الكلام الحرّ ، مِنْ لدن امرئ القيس ، ومَنْ يليه مِنْ فحول الجاهليين ، ومَنْ يتلوهم مِنْ مُفلقى المخضرمين وهلم جرّا الى أعيان الاسلاميين ، وما أورده لكل من المذكورين ، على اختلاف طبقاتهم ، وتباين درجاتهم من أمير شعره ، وواسطة عقده ، ودرة تاجه ، وغرة كلامه ، وبيت قصيده ، وفريدة قلادته ، ليعلم الناظر فى كتابنا هذا ما كان عليه القوم من المنزلة الرفيعة فيما امتاز به النوع الانسانى عن غيره ، وما أوتوه من الحكمة وفصل الخطاب ، وما توفيق إلا بالله .

امرؤ القيس بن حجر الكندى

هو أمير الشعراء ، بشهادة خير الأنبياء ، وسيد الفصحاء ، صلوات الله وسلامه عليه . وذلك أنه ذكر عنده يوماً فقال صلى الله تعالى عليه وسلم (ذلك رجلٌ مذكورٌ فى الدنيا منسىٌّ فى الآخرة يجىء يوم القيامة وبيده لواء الشعراء يقودهم إلى النار) فيروى أن كلاً من لبيد وحسان بن ثابت قال : ليت هذه المقالة فىَّ وأنا المدهدى فيها فيقال إن أمير شعر أمير الشعراء قوله من قصيدة :

البرّ أنجح ما طلبت به ‌ ‌ ‌ ‌ والبرُّ خيرُ حقيبة الرجل

ومن أمثاله السائرة قوله فى القناعة والرضى باليسير عند تعذر الكثير:

إذا ما لم تكن إبلٌ فمِعزَى ... كأنّ قُرونَ جِلّتِها العِصِيُّ (١)

فتملأُ بيتنا أقطاً وسَمْناً ... وحسبكَ من غِنى شِبَعٌ ورِيُّ (٢)

ومما يضاد هذه الحالة من بعد الهمة والسموّ الى معالى الأمور قوله :

فلو أنَّ ما أسعى لأدنى معيشةٍ ... كفاني ولم أطلبْ قليلٌ من المالِ (٣)

ولكنّما أسعى لمجدٍ مؤثَّلٍ ... وقد يُدرِكُ المجدَ المؤثَّلَ أمثالي (٤)

ومن أمثاله السائرة

وقاهم جَدُّهم ببنى أبيهم ... وبالأشقَيْنِ ماحلّ العِقابُ (٥)

وقوله

أراهنَّ لا يحبِبن مَنْ قلَّ مالُه ... ولا مَنْ رأَيْنَ الشيبَ فيه وقوّسا

ألا إنَّ بعد العُدْمِ للمرء قِنْوةً ... وبعد المشيب طول عمرٍ ومَلْبَسَا (٦)

(١) المعزى : ذوات الشعور من الغنم : قال الامام سيبويه : معزى منون مصروف لان الالف للالحاق لا للتأنيث وهو ملحق بدرهم على فعال لان الالف الملحقة تجرى مجرى ماهو من نفس الكلم ، يدل على ذلك قولهم معيز وأريط فى تصغير معزى وأرطى فى قول من نوّن فكسروا مابعد ياء التصغير كما قالوا دريهم ولو كانت للتأنيث لم يقلبوا الالف ياء كما لم يقلبوها فى تصغير حبلى وأخرى . وقال الفراء : المعزى مؤنثة وبعضهم ذكرها . وقال ابن الاعرابي : معزى يصرف اذا شبهت بمفعل وهى فعلى ولا تصرف اذا حملت على فعلى . وهو الوجه عنده .. و « جلتها » بكسر الجيم وتشديد اللام جمع جليل أى عظيم وهو فى الأصل المسن من الابل فاستعمله الشاعر فى المسن من الغنم مجازاً . ويورد العروضيون البيت (شاهداً فى البحر الوافر) بهذا اللفظ : لنا غنم نسوّقها غزار * كأن ... الخ (راجع المختصر الشافى ص١٧ من طبعة المطبعة الازهرية والحاشية الكبرى الدمنهورى ص ٤٦) . (٢) قوله « فتملأ بيتنا » فى رواية أخرى « فتوسع أهلها » . والأقط : بفتح الهمزة وكسر القاف شىء يتخذ من المخيض الغنمى

(٣) اختلف النحويون فى هذا البيت فمنهم من جعله من باب التنازع ومنهم من لم يجعله ولهم فى توجيهه كلام طويل . وفى كتاب سيبويه : ولا يكون الفعل بغير فاعل وأما قول امرىء القيس : فلو أن ما أسعى الخ فانما رفع لانه لم يجعل القليل مطلوبا وانما كان المطلوب عنده الملك وجعل القليل كافياً ولو لم يرد ذلك ونصب فسد المعنى . قال الاعلم : أراد كفانى قليل من المال ولم أطلب الملك وعليه معنى الشعر ولو أعمل الثانى ونصب به القليل فسد المعنى . وصف بعد همته ، يقول : لو كان سعيي فى الدنيا لادنى حظ منها كفتنى البلغة من العيش ولم أتجشم ما أتجشم . انتهى (٤) المؤثل : المؤصل . (٥) يروى (كان) بدل (حل) ، و (ما) مقحمة

(٦) القنوة : بالكسر والضم : الكسبة .

وقوله

وقد طَوَّفتُ في الآفاق حتّى رَضيتُ من الغنيمةِ بالإيابِ

وقوله

إذا المرءُ لم يخزُنْ عليه لسانَهُ فليس على شيءٍ سواه بخزّانِ (١)

وقوله

فانك لم يفخَرْ عليك كفاخرٍ ضعيفٍ ولم يغلبك مثلُ مُغلَّبِ

وقوله (وجُرْحُ اللسان كجرح اليَدِ) وقوله : (إن الشقاء على الأشقين مصبوب) ومن قلائده الفاخرة قوله في وصف الفرس ولم يسبق اليه ، ولم يلحق فيه :

مِكَرٍّ مِفَرٍّ مُقبِلٍ مُدْبِرٍ مَعاً كجُلْمُودِ صَخرٍ حطَّهُ السيلُ من عَلِ (٢)

له أيْطَلا ظَبْيٍ وساقا نَعامَةٍ وإرخاءُ سِرْحانٍ وتَقْرِيبُ تَتفُلِ (٣)

وقوله في طول الليل واستعارة أوصافه من الجمل الناهض بالحمل الثقيل :

وَلَيْلٍ كَمَوْجِ البَحْرِ أرخَى سُدُولَهُ عَلَيَّ بأنواعِ الهُمومِ ليَبْتَلِي (٤)

(١) يقول : اذا لم يخزن المرء لسانه على نفسه ولم يحفظه مما يعود ضرره اليه فلا يخزنه على غيره ولا يحفظه مما لا ضرر له فيه . (٢) قال أبو عبد الله الزوزني : الكر العطف يقال كر فرسه على عدوه أي عطفه عليه والكر والكرور جميعاً الرجوع يقال كر على قرنه يكر كراً وكروراً والمكر مفعل من كر يكر ومفعل يتضمن مبالغة كقولهم فلان مسعر حرب وفلان مقول ومصقع وانما جعلوه متضمناً مبالغة لان مفعلا قد يكون من أسماء الأدوات نحو المعول والمكتل والمخرز فجعل كأنه أداة للكرور وآلة لسعر الحرب وغير ذلك . ومفر : مفعل من فر يفر فراراً والكلام فيه نحو الكلام في مكر . والجلمود : الصخر العظيم . والحط : القاء الشيء من علو الى سفل . ومن عل : من فوق ، وفيه سبع لغات . وقوله : كجلمود صخر من اضافة بعض الشيء الى كله مثل باب حديد وجبة خز ، أي كجلمود من صخر . انتهى باختصار . (٣) الأيطل : الخاصرة . والارخاء : ضرب من عدو الذئب يشبه خبب الدواب . والسرحان : الذئب . والتقريب : وضع الرجلين موضع اليدين في العدو . والتتفل ولد الثعلب .. شبه خاصرتي هذا الفرس بخاصرتي الظبي في الضمر ، وساقيه بساقي النعامة في الانتصاب والطول ، وعدوه بارخاء الذئب . وتقريبه بتقريب ولد الثعلب فجمع أربعة تشبيهات في هذا البيت .

(٤) شبه ظلام الليل في هوله وصعوبته ونكارة أمرة بأمواج البحر . والسدول : الستور الواحد منها سدل ، والارخاء : ارسال الستر وغيره . والابتلاء : الاختبار . والباء في قوله « بأنواع » بمعنى مع .

فقلت له لمّا تمطّى بِصُلْبِهِ   وأردفَ أعجازاً وناءَ بِكَلْكَلِ (١)
ألا أيُّها الليلُ الطويلُ ألا انجلي   بصبحٍ وما الإصْباحُ منكَ بأمْثَلِ (٢)
أفاطمَ مَهْلاً بعضَ هذا التدلُّلِ   وإنْ كنتِ قد أزْمَعْتِ صَرْمي فأجملي (٣)
وإن كنتُ قد ساءَتْكِ منى خليقةٌ   فسُلّي ثيابي من ثيابكِ تنسلِ (٤)
وما ذَرَفَتْ عيناكِ إلاّ لتضربي   بسهميكِ في أعشار قلبٍ مقتَّلِ (٥)

لو قاله محدث فى الزمان الرقيق لا ستظرف ذلك منه فكيف فى مثل

(١) تمطى : تمدد . والارداف : الاتباع . والاعجاز : المآخير . وناء : مقلوب نأى بمعنى بعد ، كما قالوا : راء بمعنى رأي ، وشاء بمعنى شأى . والكلكل : الصدر . . استعار لليل صلباً ، واستعار لطوله لفظ التمطى ليلائم الصلب ، واستعار لأوائله لفظ الكلكل ولمآخيره لفظ الاعجاز . (٢) الانجلاء : الانكشاف ، يقال : جلوته فانجلى أى كشفته فانكشف ، والأمثل : الافضل . ومنك . متعلق بأمثل والاصل « بأمثل منك » . وروى : (وما الاصباح فيك) وعليها اقتصر الاعلم . وبعد هذا البيت قوله :

فيالك من ليل كأن نجومه   بكل مغار الفتل شدت بيذبل
كأن الثريا علقت فى مصامها   بأمراس كتان الى صم جندل . . .

(٣) هذا البيت لا مناسبة له بما قبله . بل قد ذكر هو وما بعده فى المعلقة قبل نحو (٢٥) بيتاً ! . . ومعنى مهلا : رفقاً . والادلال والتدلل : أن يثق الانسان بحب غيره اياه فيؤذيه على حسب ثقته به . وأزمعت الامر وأزمعت عليه : وطنت نفسى عليه . والصرم : يقال صرمت الرجل أصرمه صرماً اذا قطعت كلامه والصرم الاسم . (٤) الخليقة : الطبيعة . والثياب : من الناس من جعلها فى هـذا البيت بمعنى القلب كما حملت الثياب على القلب فى قول عنترة :

فشككت بالرمح الاصم ثيابه   ليس الكريم على القنا بمحرم

فالمعنى على هذا القول : ان ساءك خلق من أخلاقى وكرهت خصلة من خصالى فردى على قلبي أفارقك . ومن الناس من حملها على الثياب الملبوسة وقال : كنى بتباين الثياب وتباعدها عن تباعدهما . . . والنسول : سقوط الريش والوبر ، والصوف والشعر ، يقال : نسل ريش الطائر ينسل وينسل نسولا واسم ما سقط النسيل والنسال ومنهم من رواه تنسلى وجعل الانسلاء بمعنى التسلى . والرواية الاولى أولاها بالصواب — كما في شرح المعلقات الزوزنى ، وبعد البيت : ومنهم من يرويه قبله

أغرك منى أن حبك قاتلى   وانك مهما تأمرى القلب يفعل

(٥) ذرفت : دمعت . وروى « لتقدحى » موضع « لتضربى » وهو بمعناه . وسهميك : تثنية سهم والمراد بهما عيناها . ومعنى فى أعشار قلب : أي لتجعليه عشر قطع كما تخرق أعشار البرمة الا أن القلب لا ينجبر والبرمة تنجبر . وقيل المراد بسهميها المعلى والرقيب وهما من سهام الميسر فالرقيب له ثلاثة أنصباء والمعلى له سبعة أى لتستولى على قلبى كله . والمقتل : المذلل غاية التذليل .

ذلك الزمان ؟ وهو أول من شبه شيئين بشيئين فى بيت واحد حيث قال فى وصف العقاب:

كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْباً ويابِساً   لَدَى وَكْرِها العُنَّابُ والحَشَفُ البالى (١)

ويستجاد من تشبيهه قوله :

كَأَنَّ عُيُونَ الوَحْشِ حَوْلَ خِبائِنا   وأَرْحُلِنا الجَزْعُ الذى لم يُثَقَّبِ (٢)

وقد سبق الى أشياء ابتدعها واستحسنتها العرب واتبعته عليها الشعراء من استيقافه صحبه فى الديار ورقة النسيب وقرب المأخذ

زهير بن أبى سلمى (٣)

هو أحد الأربعة الذين وقع عليهم الإتفاق على أنهم أشعر العرب . وهم : أمرؤ القيس ، وزهير ، والنابغة ، والأعشى . فأما الاختلاف فى تفضيل بعضهم

(١) البيت من شواهد التلخيص ، والشاهد فيه التشبيه المكفوف — وهو أن يؤتى على طريق العطف أو غيره بالمشبهات أولا ثم بالمشبه بها — فهنا شبه الرطب الطرى من قلوب الطير بالعناب ، واليابس العتيق منها بالحشف البالى (وهو أردأ التمر والضعيف الذى لا نوى له) اذ ليس لاجتماعهما هيئة مخصوصة يعتد بها ويقصد تشبيهها ولذا قال الشيخ الامام عبد القاهر : انه انما يتضمن الفضيلة من حيث اختصار اللفظ وحسن الترتيب فيه لا أن للجمع فائدة فى عين التشبيه . (٢) قال الاصمعى : الظبى والبقرة اذا كانا حيين فعيونهما كلها سود فاذا ماتا بدا بياضهما وانما شبههما بالجزع وفيه سواد وبياض بعد ما موتت والمراد كثرة الصيد يعنى مما اكلناه كثرت العيون عندنا . وبه يتبين بطلان ما قيل ان المراد انها قد طالت مسايرتهم حتى الفت الوحوش رحالهم واخبيتهم . والجزع : بفتح الجيم الخرز اليمانى الصينى فيه سواد وبياض تشبه به عيون الوحش لكنه اتى بقوله « لم يثقب » ايغالا وتحقيقاً للتشبيه ، لان الجزع اذا كان غير مثقوب كان اشبه بالعيون .

والبيت من قصيدته المشهورة التى عارض بها قصيدة علقمة الفحل . ومطلعها :

خليلى مرا بى على ام جندب   نقضى لبانات الفؤاد المعذب

ومطلع قصيدة علقمة :

ذهبت من الهجران فى غير مذهب   ولم يك حقاً كل هذا التجنب

وتحكيمهما لأم جندب امرأة امرئ القيس وحكمها لعلقمة وطلاق امرئ القيس اياها ، وتزويج علقمة لها كله مشهور فلا نطيل به . ومن اراده فليرجع الى الاغانى (ج ٧ ص ١٢١)

(٣) سلمى بضم السين وتسكين اللام وليس فى العرب سلمى بالضم غيره

على بعض فقائم على ساق . وكان يقال : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابغة إذا رهب . والأعشى إذا طرب . وكان زهير أجمع الناس للكثير من المعاني في القليل من الألفاظ ، وأحسنهم تصرفاً في المدح والحكمة . ويقال إن أبياته في آخر قصيدته التي أولها :

أمِنْ أمِّ أوفى دِمْنَةٌ لم تَكَلَّمِ ... بحَوْمانةِ الدَّرَّاجِ فالمتثَلَّمِ (١)

تشبهُ كلام الأنبياء وهي أحكم حكم العرب . وهي :

ومَنْ لم يُصانِعْ في أمورٍ كثيرةٍ ... يُضَرَّسْ بأنيابٍ ويُوطَأْ بِمَنْسِمِ (٢)

ومَنْ يَجْعَلِ المعروفَ من دُونِ عِرْضِهِ ... يَفِرْهُ ومن لا يَتَّقِ الشتمَ يُشْتَمِ (٣)

ومن لم يَذُدْ عن حوْضِهِ بسلاحِهِ ... يُهَدَّمْ ومن لا يَظْلِمِ الناسَ يُظْلَمِ (٤)

ومن يغتربْ يَحْسِبْ عدوّاً صديقَهُ ... ومن لا يُكَرِّمْ نَفْسَهُ لا يُكَرَّمِ

ومن يكُ ذا فضْلٍ فيبخلْ بفضله ... على قومه يُستَغْنَ عنه ويُذْمَمِ (٥)

ومهما تَكُنْ عند امرئٍ من خليقةٍ ... وإنْ خالها تَخْفى على الناس تُعلَمِ (٦)

ومن أمثاله السائرة

وهل يُنْبِتُ الخَطِّيَّ إلاَّ وشيجُهُ ... وتُغْرَسُ إلاَّ في مَنَابِتِها النَّخْلُ (٧)

(١) أم أوفى : اسم عشيقته . والدمنة : ماسود من آثار الدار بالبعر والرماد وغيرهما . وحومانة الدراج والمتثلم : موضعان (٢) المصانعة : الترفق والمداراة . والضرس : العض على الشيء بالضرس والتضريس مبالغة والمنسم : خف البعير . (٣) وفرت الشيء أفره وفراً كثرته (٤) الذود : المنع . وأراد بالحوض الحريم . (٥) يقول : من كان صاحب فضل ومال فيبخل به ويحرص عليه استغنى عنه وذم ، فأظهر التضعيف على لغة أهل الحجاز لأن لغتهم إظهار التضعيف في محل الجزم ، والبناء على الوقف . (٦) الخليقة الطبيعة . يقول : ومهما كان للانسان خلق وظن أنه يخفى على الناس علم ولم يخف ، يعني أن الاخلاق لا تخفى ، والتخلق لا يبقى . . قيل : أنشد سيدنا عثمان رضي الله عنه هذا البيت فقال : أحسن زهير وصدق فلو أن الرجل دخل بيتاً في جوف بيت لتحدث به الناس (٧) الخطى : الرمح نسبة الى الخط وهي جزيرة في البحرين ترفأ اليها السفن . والوشيج شجر الرماح واحدته وشيجة . أي لا تنبت القناة الا القناة ، ولا تغرس النخل الا بحيث تنبت وتصلح ، والمراد انه لا يلد الكرام الا الكرام .

وقوله

وَاسْتُرْ دونَ الفاحشاتِ ولا يَلْقاكَ دونَ الخيرِ من سِتْرِ

وما وقع الاتفاق على أنه أمدح بيت للجاهلية قوله :

تراه إذا ما جئتَهُ مُتهلِّلاً كأنكَ تُعطيه الذي أنتَ سائلُهْ (١)

قال ثعلب وهو ممن قدم زهيراً : كان أحسنهم شعراً ، وأبعدهم من سخف ، وأجمعهم لكثير من المعنى فى قليل من المنطق ، وأشدهم مبالغة فى المدح ، وأكثرهم أمثالاً فى شعره . وقال ابن الاعرابى : لزهير فى الشعر مالم يكن لغيره ، كان أبوه شاعراً وخاله شاعراً وأخته سلمى شاعرة وأخته الخنساء شاعرة وابناه كعب وبجير شاعرين وابن ابنه المضرب بن كعب شاعراً . وهو الذى يقول :

إنّى لأحبسُ نفسى وَهْىَ صابرةٌ (٢) عن مُصْعبٍ ولقد بانتْ لى الطُرُقُ

رعوا عليه كما أرعى على هَرِمٍ جدى زهير وفينا ذلكَ الخُلُقُ

مدح الملوكِ وسعى فى مسرتهم ثم الغنى ويد المَمْدُوحِ تَنْطَلِقُ

وكعب هو ناظم قصيدة (بانت سعاد) فى مدح الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم . قال ابن قتيبة : وكان زهير يتألّه ويتعفف فى شعره ، ويدل على إيمانه بالبعث ، وذلك قوله :

يُؤخَّرْ فيُودَعْ فى كتابٍ فيُدَّخرْ ليوم الحساب أو يُعجَّلْ فيُنقَمِ (٣)

وقد شبه زهير امرأة بثلاثة أوصاف فى بيت واحد فقال :

(١) المتهلل : الطلق الوجه المستبشر . يقول : هو مسرور بمن يسأله مستبشر به كما يستبشر الانسان بأن يوصل ويعطى . ولم يرد أنه حريص على الأخذ مستبشر به ولكنه قال هذا على ما جرت به العادة من محبة النفس للأخذ وكراهيتها للاعطاء .

(٢) فى الأغانى ج ٩ ص ١٥١ : « صادية » . (٣) جميع الأفعال بالبناء للمفعول ماعدا الأخير . يقال : نقم منه (من باب ضرب) بمعنى عاقبه وانتقم منه . وقد أخطأ من بناه للمفعول . ويؤخر بدل من (يعلم) فى البيت قبله :

فلا تكتمن الله مافى صدوركم ليخفى ومهما يكتم الله يعلم

وقيل جزم فى جواب النهى . وهو الصواب .

تنازَعَها المَها شَبَهاً ودُرُّ الـ ... نُّحور وشاكَهَتْ فيها الظِّباء (١)

« ففسر ثم قال »

فأمّا ما فُوَيْقَ العِقْدِ منها ... فمن أدماءَ مرتَعُها الخلاءُ (٢)

وأما المُقْلَتانِ فمن مَهَاةٍ ... وللدُّرِّ الملاحَةُ والصَّفاء (٣)

وقال بعض الرُّواة : لو أن زهيراً نظر الى رسالة عمر بن الخطاب الى أبى موسى الاشعرى رضى الله تعالى عنهما ما زاد على ماقال :

فإنَّ الحقَّ مقطَعُهُ ثلاثٌ ... يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ (٤)

يعنى يميناً ، أومنافرةالىحاكم يقطع بالبينات ، أوجلاء . وهوبيانوبرهان — يجلو به الحق وتتضح الدعوى — وروى أن عمر رضى الله تعالى عنه قال لابن زهير (٥) : ما فعلت الحلل التى كساها هَرِم أباك ؟ قال : أبلاها الدهر ! قال : لكن الحلل التى كساها أبوك هَرِماً لم يبلها الدهر ! ويستجاد قوله فى هرم :

قد جَعَلَ المبتغونَ الخيرَ فى هَرِمٍ ... والسائلونَ الى أبوابِهِ طُرُقا (٦)

مَنْ يَلْقَ يوماً على عِلاّتِهِ هَرِماً ... يلْقَ السماحَةَ منه والنَّدَى خُلُقا (٧)

(١) المها : بقر الوحش . وشاكهت : شاكلت وشابهت . ومعنى : تنازعها المها شبهاً أى فيها من المها شبه وهو حسن العينين ، وفيها من الدر شبه وذلك صفاؤه وملاحته ، واشبهتها الظباء في طول العنق . وأصل المنازعة مجاذبة الدلو فضربت مثلا لكل ماأخذ فيه وتشبث به ، ومنه التنازع فى الحديث . وخص در النحور لانه أملح ما يكون اذا قلت ، ويروى در البحور بالباء . (٢) قوله : فأما ما فويق العقد منها ، يعنى عنقها لأن موضع العقد النحر وفوقه العنق وصغر فوق لتقارب ما بين العنق والعقد . والأدماء : الظبية البيضاء ، والخلاء الموضع الخالى ، وانما خص الظبية لأنه أراد أنها اذا نفرت تجزع فتتشوف وتمد عنقها وذلك أحسن لها . (٣) المقلتان : العينان ، شبه عينيها بعينى المهاة فى شدة ابيضاض بياضهما واسوداد سوادهما . وشبه ملاحتها وصفاءها بملاحة الدرة وصفائها . (٤) كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يعجب من حسن تقسيم هذاالبيت ويردد انشاده من التعجب . ورووا عنه أنه قال : لو أدركته لوليته القضاء لمعرفته بما تثبت به الحقوق . انظر شرح بانت سعاد ص ١٦ والعمدة ١ : ٣٠ والصناعتين ٢٦٨ والبيان والتبيين ١ : ١٣٥ وغيرها . (٥) راجع الجزء الاول ص ٨٦ . (٦) المبتغون : الطالبون . وقوله (فى هرم) أى عند هرم أو من هرم . وترجمة هرم فى الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٨٤ . (٧) قوله (على علاته) يقول : ان تلقه على قلة مال أو عدم تجده سمحاً كريماً فكيف به وهو على غير تلك

وروى أن زهيراً كان ينظم القصيدةَ فى شهر ، وينقحها ويهذبها فى سنة ، وكانت تسمى قصائده (حوليات زهير) . وقد أشار الى هذا البهازهير فى قوله من قصيدة :

هذا زهيرُكَ لازهير مُزينةٍ وافاكَ لا هَرِماً على عِلاَّتِهِ
دَعْهُ وحولياتِهِ ثم استمعْ لزهيرِ عَصْرِكَ حسنَ ليلياتِهِ

وكان رأى زهير فى منامه فى أواخر عمره أن آتياً أتاه فحمله الى السماء حتى كاد يَمَسُّها بيده ثم تركه فهوى الى الارض ، فلما احتضر قصّ رؤياه على ولده كعب . ثم قال : إنى لا أشك أنه كائن من خبر السماء بعدى فان كان فتمسكوا به وسارعوا اليه . ثم توفى قبل المبعث بسنة . فلما بعث صلى الله تعالى عليه وسلم خرج اليه ولده كعب بقصيدة (بانت سعاد) وأسلم . وروى أيضاً أن زهيراً رأى فى منامه أن سبباً تدلَّى من السماء الى الأرض كأن الناس يمسكونه وكلما أراد أن يمسكه تقلص عنه فأوله بنبيّ آخر الزمان فانه واسطة بين الله تعالى وبين الناس وان مدته لاتصل الى زمن مبعثه ، وأوصى بنيه أن يؤمنوا به عند ظهوره .

النابغة الذبيانى

واسمه زياد بن معاوية : إتفقت الآراء على أنه أحسن الشعراء ديباجة شعر ، وأكثر رونق كلام ، وكان كلامه كلام الكتاب ليس فيه تكلّف ولا تعسف . ويقال إن أجود شعره ما اعتذر به الى النعمان بن المنذر . وأمير ذلك قوله :

فانَّكَ كالليلِ الذى هُوَ مُدْرِكى وإنْ خِلْتُ أنَّ المُنْتَأى عنكَ واسِعُ (١)

الحال ؟ وورد فى الجزء الاول ص ٨٥ هذا البيت :

متى تلاقِ على علاته هرماً تلق السماحة فى خلق وفى خلق

ولعله من قصيدة له أخرى فليحقق . (١) المنتأى : اسم موضع من انتأى عنه أى بعد . وشبهه بالليل لأنه وصفه فى حال سخطه وهوله . والمعنى أنه لا يفوت الممدوح وأن أبعد فى الهرب وصار الى أقصى الارض ؛ لسعة ملكه ؛ وطول يده ؛ ولأن له فى جميع الآفاق مطيعاً لأوامره يرد الهارب اليه . قال أبوبكر : اعترض على هذا البيت فقيل لامعنى

« ومن أمثاله المشهورة قوله »

نُبِّئْتُ أنَّ أبا قابُوسَ أوْعدَني ولا مقامَ على زَأْرٍ من الأسَدِ (١)

ويروى أن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه قال يوماً لجلسائه من القائل ؟

حلفتُ فلم أتْرُكْ لنفسك ريبةً وليس وراءَ الله للمرء مَذْهَبُ (٢)
لئن كُنْتَ قد بُلِّغْتَ عنى جنايةً لَمُبْلِغُكَ الواشى أغشُّ وأكْذَبُ (٣)

قالوا : النابغة ياأمير المؤمنين ! قال : فهذا أشعر شعرائكم . وفى هذه القصيدة بيته السائر :

فلَسْتَ بِمُسْتَبْقٍ أخاً لا تلُمُّهُ على شَعَثٍ أىُّ الرّجالِ المُهذَّبُ (٤)

« وبيته الفاخر »

فانك شمسٌ والملوك كواكبٌ اذا طلعتْ لم يَبْدُ منهنَّ كوكبُ (٥)

لتخصيص الليل لأن النهار يدركه كما يدركه الليل . قال أبو جعفر : الليل يغشى كل شئ بظلمته فيصير له كالغشاء والوعاء فيمنع التصرف لسرعة انطباقه على الأرض فى الأرض القريبة من خط الاستواء والنهار وان ألبس كل شئ فانه لا يمنع من التصرف والانتشار . وأيضاً فان الليل يهاب لظلمته والنهار ليس كذلك . وقال بعض النحاة : انما قدم الليل لأنه أول ولأن أكثر أعمالهم كانت فيه لشدة حر بلدهم فصار عندهم ذلك متعارفاً . . وفى معنى هذا البيت قول على بن جبلة :

وما لامرئ حاولته منك مهرب ولو رفعته فى السماء المطالع
بلى هارب لا يهتدى لمكانه ظلام ولاضوء من الصبح ساطع

وأكثر الأدباء يرجحه على بيت النابغة ، وقد تناول الشعراء هذا المعنى وأكثروا من الاتيان به فى قصائد المديح . انظر معاهد التنصيص لعبد الرحيم العباسى (ج ١ ص ١١٢) .

(١) أبو قابوس : كنية النعمان بن المنذر . وأوعدنى : هددنى . وزأر الاسد وزئيره واحد وهو صوته . أى لا يستقر أحد بلغه أن النعمان أوعده كما لا يستقر من يسمع زئير الاسد .

(٢) الريبة : الشك . يقول : حلفت بالله وليس بعد اليمين بالله يمين ولا مذهب فى يمين أخرى فينبغى أن تصدقنى ولا تذهب الى ما كنت تذهب اليه من ظنك بعد أن حلفت لك بالله تعالى (٣) الواشى : الذى يزين الكذب ، ويروى (خيانة) موضع (جناية)

(٤) استبقيت فلاناً فى معنى أن تعفو عن زلله فتستبقى مودته . والشعث : التفرق والفساد . وتلمه : تجمعه وتصلحه . والمعنى : لا تقدر على استبقاء مودة أخ حال كونك ممن لا تلمه ولا تصلحه على تفرق وذميم خصال ثم فسر فقال أى الرجال المهذب ! أى انك لا تجد مهذباً لا عيب فيه ! (٥) قال الوزير أبو بكر : وهذا مثل أى اذا ظهرت غمرت الملوك كما يغمر ضوء الشمس النجوم

« ومن قلائده قوله »

فانْ يَكُ عامرٌ قد قالَ جَهْلاً   فانَّ مظِنَّةَ الجهلِ الشبابُ (١)

وله فى الهجاء

وكنتَ أمينَهُ لو لم تَخُنْهُ   ولـكن لاأمانةَ لليمانى (٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

الرفقُ يُمْنٌ والأناةُ سـعادةٌ   فاستأنِ فى أمرٍ تلاقِ نجاحا (٣)

واليأس عمَّا فاتَ يعقبُ راحةً   ولَرُبَّ مَطْمعةٍ تعودُ ذُباحَا (٤)

فاستبقِ وُدَّكَ للصديقِ ولا تكنْ   قَتَباً يعضُّ بِغارِبٍ مِلْحاحَا (٥)

وسمى النابغة لقوله (فقد نبغت لنا منهم شؤون) وقيل لأنه لم يقل الشعر حتى صار رجلا . وقيل هو مشتق من نبغت الحمامة اذا تغنت . وحكى (ابن ولاّد) أنه يقال نبغ الماء ونبغ بالشعر فكأنه أراد أن له مادةً من الشعر لا تنقطع كمادة الماء النابغ .

(١) المظنة: الموضع الذى لا تكاد تطلب الشئ الا وجدته فيه . ويروى : مطية الجهل الشباب . يقول : ان كان عامر قد قال جهلا فهو أهل أن يقول الجهل وأن ينطق به لأنه شاب والغرارة والجهل مقترنان بالشباب . قال الوزير أبو بكر : ومن رواه بالطاء (أى مطية) أراد أن الجهل يمتطى الشباب أى يركبه ويصرفه حيث يشاء . (٢) البيت فى هجاء يزيد بن عمرو . وقوله : ولكن ... الخ قال أبو الحسن : انما قال ذلك لأن منازل بعض بنى عامر مما يلى اليمن وكل ما كان يلى اليمن فهو يمانى . ويقال : ان يزيد بن عمرو هذا المهجو كان هو وقومه منازلهم قريب من محال بنى الحرث بن كعب وهم من اليمن ، فلما سمع هذا البيت قال لقومه : أجيبوه فأجابه يزيد بأبيات لا محل لذكرها . (٣) الرفق : خلاف العنف . واليمن : البركة والأناة كقناة الحلم والوقار . (٤) قوله (عما) فى رواية (مما) و (مطمعة) فى رواية (مطمعة) والذباح كغراب نبت من السموم يقتل آكله ، كذا فى أساس البلاغة والقاموس وشرحه التاج . (٥) القتب : الاكاف على قدر سنام البعير ، والغارب : الكاهل أو ما بين السنام والعنق . ويقولون للملح: هو قتب يعض بالغارب ، يعنى اذا يعلق بخصم لا ينفصل منه حتى يؤثر كما يؤثر القتب بظهر الدابة ، وقتب ملحاح يلزق بظهر البعير فيعقره وكذلك هو من الرحال والسروج وهو مجاز .

أوس بن حجر (١) الاسدى

قال أبو عمرو بن العلاء: كان أوس فحلَ مُضَرَحتى نشأ النابغة وزهير فأخملاه وكان زهير راوية أوس . ومن احسان أوس المشهور قوله فى المرثية التى أولها :

أيتها النفسُ أجْملى جزَعا إن الذى تحذرين قد وقَعا

وليس للعرب مطلع قصيدة فى المرثية أحسن من هـذا البيت . وبيت القصيدة قوله :

الألمعيُّ الذى يَظُنُّ بكَ الظنَّ كأنْ قدْ رأى وقد سَمِعا (٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

فانكما يا ابنَىْ جناب وجدتُما كمن دَبَّ يستخفى وفى الحلْق جلْجلُ

وقوله

ولست بخابئ لِغَدٍ طَعاماً حِذَارَ غدٍ لكلِّ غَدٍ طعامُ

بشر بن أبى خازم الاسدى (٣)

من أمثاله السائرة قوله :

ألم ترَ أنّ طُولَ العهد يُسلى وينسى مثلما نسيت جُذَام (٤)

(١) حجر : بفتحتين ، وليس فى أسماء الأشخاص على هذا البناء غير هذا .
(٢) الالمعى واليلمعى : الذكى المتوقد الذكاء . وقد تداول الشعراء معنى هذا البيت كثيراً قال أبو تمام :

ولذاك قيل من الظنون جبلة علم وفى بعض القلوب عيون

وقال المتنبي :

ذكى تظنيه طليعة عينه يرى قلبه فى يومه مايرى غدا

(٣) خازم : بالخاء المعجمة والزاى . وكان في الاصل (هنا وفى غير ما موضع) بالحاء المهملة فصححناه (٤) يروى « طول الدهر » موضع « طول العهد » وجذام : كغراب قبيلة بجبال حسمى من معد . قال أبو عمرو بن العلاء : فحلان من فحول الجاهلية كانا يقويان : بشر بن أبى خازم . والنابغة الذبيانى . فأما النابغة فدخل يثرب فغنى بشعره فلم يعد . وأما بشر فقال له أخوه سوادة إنك لتقوى . قال : وما الاقواء ؟ قال قولك :

وقوله

يكن لك فى قومى يد يشكرونها   وأيدى النَّدَى فى الصالحين فروضُ

ومنه أخذ الناس قولهم « الأيادى فروض » وقوله عند موته من أبيات :

تُسائلُ عن أبيها كلَّ ركبٍ   ولم تَعلمْ بأنّ السهمَ صابا

فرَجِّى الخيرَ وانتظرى إيابى   إذا ما القارظُ العَنَزىُّ آبا (١)

وقضية القارظان مشهورة

الافوه الاودى (٢)

كان أحد الحكماء فى الجاهلية . ومن أمثاله السائرة قوله :

إنمــا نعمةُ قَوْمٍ متعة   وحياةُ المرءِ ثوبٌ مستعار (٣)

ألم ترأن طول الدهر يسلى   وينسى مثلما نسيت جذام

ثم قلت :

وكانوا قومنا فبغوا علينا   فسقناهم الى البلد الشآم

فلم يعد الاقواء . انتهى .

(١) قوله . « القارظ العنزى » قيل هما قارظان من عنزة أكبرهما يذكر بن عنزة لصلبه وأصغرهما رهم بن عامر وقيل هو عامر بن رهم ، يقال انهما خرجا فى طلب القرظ يجتنيانه فلم يرجعا فضرب بهما المثل فقالوا « لا آتيك أو يؤوب القارظان » يضرب فى انقطاع الغيبة . واياها أراد أبو ذؤيب بقوله :

وحتى يؤوب القارظان كلاهما   وينشر فى القتلى كليب ووائل

والقرظ : محركة ورق السلم يدبغ به كما فى الصحاح .. وأورد الزبيدى البيت الاول هكذا :

وان الوائلى أصاب قلبي   بسهم لم يكن نكساً لغابا

(٢) الأفوه لقب واسمه صلاءة (لا صلاة كما وهم صاحب مجموعة شعراء النصرانية ج ١ ص ٧٠) ابن عمرو بن مالك بن عوف بن الحرث بن منبه (أو ضبة) بن أود بن صعب ابن سعد العشيرة . كان من كبار الشعراء القدماء فى الجاهلية ، وكان سيد قومه وقائدهم فى حروبهم ، وكانوا يصدرون عن رأيه والعرب تعده من حكمائها . وانما قيل له الأفوه لأنه كان غليظ الشفتين ظاهر الاسنان . (٣) هذه الابيات من قصيدته التى أولها :

ان ترى رأسى فيه نزع   وشواتى خلة فيها دوار

وهذه القصيدة من جيد شعر العرب ، وهى التى نهى النبى صلى الله عليه وسلم عن إنشادها لما فيها من ذكر اسماعيل عليه السلام ، واياه عنى بقوله :

ريشت جرهم نبلا فرمى   جرهماً منهن فوق وغرار

وليالِيه إلالٌ للقوى ومدى قد تجتليها وشفار (١)
وصروفُ الدهرِ فى أطباقه خلفةٌ فيها ارتفاع وانحدار
بينما الناسُ على عليائها إذ هووا فى هُوَّةٍ منها فغاروا (٢)

« وقوله وفيه حكمة بالغة »

والبيتُ لا يُبتنَى إلاَّ على عَمَدٍ ولا عمادَ إذا لم تُرْسَ أوتادُ (٣)
فانْ تجمَّعَ أوتادٌ وأعمِـدةٌ وساكنٌ بلغوا الامرَ الذى كادوا (٤)
لا يصلُحُ الناسُ فوضى لاسَرَاةَ لهم ولا سَرَاةَ اذا جُهَّالُهم سادوا (٥)
إذا تولَّى سَرَاةُ الناسِ أمرَهمُ نَمَا على ذاك أمرُ القومِ فازدادوا (٦)
تُهْدَى الأمورُ بأهل الرأى ما صلُحَتْ فان تولَّتْ فبالأشرار تنقادُ
أمارة الغَىِّ أن تلقى الجميعَ لدى الـ إبرامِ للأمرِ والأذنابُ أكتادُ (٧)
كيف الرشادُ إذا ما كنتَ فى نفرٍ لهم عن الرُّشدِ أغلالٌ وأقيادُ
أعطوا غُواتهم جهلاً مقادتهم فكلُّهم فى حبالِ الغىِّ مُنْقادُ

وهذه من أبلغ الأبيات

(١) الالال : جمع آلة مثل جفان وجفنة وهى الحربة العريضة النصـل وفرق بعضهم بين الآلة والحربة فقال الآلة كلها حديدة والحربة بعضها خشب وبعضها حديد . والمُدى : جمع مدية مثلثة وهى السكين . والشفار بالكسر جمع شـفرة بفتح فسكون وهى السكين العظيم وما عرض من الحديد وحدد (٢) الهوة كقوة ما انهبط من الارض أو الوهدة الغامضة منها .
(٣) العمد بفتحتين جمع عماد وهو ما يسند به والاوتاد جمع وتد بكسر التاء فى لغة الحجاز وهى الفصحى : وهو مارُزّ فى الارض أو الحائط من خشب . ورسا الشئ ثبت .
(٤) معنى كادوا : أرادوا . (٥) يقال قوم فوضى اذا كانوا متساوين لا رئيس لهم . والسراة بالفتح جمع سرى وهو الرئيس وهذا الجمع عزيز لا يكاد يوجد له نظير لأنه لا يجمع فعيل على فعلة وجمع السراة سروات . كذا فى المصباح
(٦) معنى نما : زاد (٧) الامارة : العلامة وزناً ومعنى ، والابرام احكام العقد . والاكتاد جمع كتد وهو مجتمع الكتفين وبعضهم يقول ما بين الكاهل الى الظهر وقيـل مغرز العنق فى الكاهل عند الحارك . ويروى « أقتاد » جمع قتد وهو خشب الرحل وقيل جميع أداته . والمعنى ظاهر

عبيد بن الأبرص (١)

هو جاهلى قديم ، وكان من فحول العرب وشعرائها المفلقين . ومن أمثاله السائرة قوله :

مَن يَسألِ الناسَ يَحرِموهُ وسائلُ اللهِ لايَخيبُ (٢)
وكلُّ ذى غَيبة يؤُوب وغائبُ المَوْتِ لايؤُوب (٣)

وقوله

الخيرُ يبقى وان طالَ الزمانُ بهِ والشرُّ أخبثُ ما أوعيتَ من زاد

وقوله

الخيرُ لايأتى على عجلٍ والشر يسبق سيله مطره

المرقش (٤)

كان من مفلقى شعراء الجاهلية . ومن أمثاله السائرة قوله (٥) :

ومَنْ يَلْقَ خيراً يَحْمَدِ الناسُ أمْرَهُ ومنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيِّ لائما

(١) عبيد بفتح العين وكسر الموحدة لا بالتصغير كما وهم فى ضبطه لويس شيخو صاحب مجوعة شعراء النصرانية فى كتاب تهذيب الالفاظ لابن السكيت ص ٢٥٨ و ٢٧٨ و ٤٥٧ . وقد ذكر العلامة احمد تيمور باشا المصرى الادلة على ذلك وفصل الكلام فيه فيما كتبه على مادة (ق ر ح) من رسالته (تصحيح لسان العرب) بالقسم الاول منها ، فارجع اليها . وعبيد من فحول شعراء الجاهلية وقد عده ابن سلام فى الطبقة الرابعة وقرنه بطرفة وعلقمة بن عبيد وعدى بن زيد العبادى . قال وعبيد بن الابرص قديم عظيم الشهرة وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له الا قوله :

أقفر من أهله ملحوب فالقطبيات فالذنوب

قال : ولا أدرى ما بعد ذلك . وقال الجاحظ : إن عبيداً وطرفة دون ما يقال عنهما ان كان شعرهما مافى أيدى الناس فقط ، وقد أشار أبو العلاء المعرى الى اختلال بائيته بقوله :

وقد يخطىء الرأى امرؤ وهو حازم كما اختل فى نظم القريض عبيد

(٢) قال ابن الاعرابى : هذا البيت ليزيد بن ضبة الثقفى (٣) يؤوب : يرجع

(٤) هو المرقش الأصغر . واسمه عمرو بن حرملة وقيل ربيعة بن سفيان . والمرقش الاكبر عمه وهو (أى الاصغر) عم طرفة بن العبد ، قال أبو عمرو : والمرقش الاصغر أشعر المرقشين وأطولهما عمرا (٥) هذه الأبيات من قصيدة يقولها فى قصة جرت له مع معشوقته

أخوكَ الذي إنْ أحرجَتْكَ مُلِمَّةٌ ... من الدَهْرِ لم يَبْرَحْ لها الدهر واجما (١)
وليسَ أخوكَ بالذي إنْ تَشَعَّبَتْ ... عليك أمور ظلَّ يلحاكَ دائما (٢)

مهلهل واسمه ربيعة (٣)

وهو أول من رقق الشعر فسمى مهلهلاً . ومن أمثاله السائرة قوله . وقد خطبت اليه بنته وهي في دار غربة :

لو بِأبَانَيْنِ جاء يخطبها ... ضُرِّجَ ما أنفُ خاطبٍ بِدَمِ (٤)

فاطمة بنت المنذر ووليدتها بنت العجلان . ومطلعها :

ألا يا اسلمي لاصبر لي عنك فاطما ... ولا أبدا ما دام وصلك دائما

وقد ساق أبو الفرج الاصبهاني القصيدة في أغانيه بيدأنه لم يذكر البيتين الآخيرين

(١) الملمة : النازلة . وأحرجتك : أوقعتك في الحرج . ويروى « أجرضتك » والواجم : العابس المطرق لشدة الحزن أو الساكت على غيظ (٢) يلحاك : يلومك (٣) اسمه — على ما هو المشهور في كتب الادب — عدى بن ربيعة التغلبي ولكن ورد في القاموس مانصه « ومهلل الشاعر واسمه عدي او ربيعة ، لقب لانه أول من أرق الشعر أو بقوله :

«لما توغل في الكراع هجينهم ... هلهلت أثأر مالكاً أو صنبلا» فتدبر!

(٤) قوله (بأبانين) أبان جبل وهما أبانان أبان الاسود وأبان الابيض . وضرج : لطخ . يعني رد عنها . وزيدت (ما) بين الفعل ومرفوعه للضرورة . . والبيت من أبيات له سببها أنه نزل في آخر حرب البسوس في جنب بن عمرو بن جلد بن مالك وهو مذحج وجنب حي من احيائهم وضيع فخطبوا بنته ومهرت أدما فلم يقدر على الامتناع فزوجها فقال :

أنكحها فقدها الاراقم في ... جنب وكان من الحباء من أدم
لو بأبانين جاء يخطبها ... ضرج ما أنف خاطب بدم
أصبحت لامنفساً أصبت ولا ... ابت كريماً حراً من الندم
هان على تغلب الذى لقيت ... أخت بني المالكين من جشم
ليسوا بأكفائنا الكرام ولا ... يغنون من عيلة ولا عدم

وقد أشار أبو نواس الى هذه القصة في قصيدته التي هجا بها بني نزار فقال :

وتغلب تندب الطلول ولم ... تثأر قتيلا على ذنائبها
نيكت بأدنى المهور أختهم ... قسراً ولم تدم أنف خاطبها

وقوله

قَرِّبا مَرْبَطَ النَّعامةِ مِنِّى   لَقِحَتْ حَرْبُ وائلٍ عن حِيالِ (١)
لم أكُنْ من جُناتِها شَهِدَ اللهُ   وإنِّى بحَرِّها اليومَ صالى

وقوله فى مرثية أخيه كليب بن وائل

نُبِّئْتُ أنَّ النارَ بعدكَ أُوقِدَتْ   واستَبَّ بعدكَ يا كُلَيْبُ المجلسُ
وتكلَّموا فى أمر كلِّ عظيمةٍ   لو كنتَ شاهدهم بها لم يَنْبِسُوا (٢)

الاسود بن يعفر

غرة شعره قصيدته التى أولها :

نامَ الخليُّ وما أُحِسُّ رقادى   والهمُّ مُحْتَضِرٌ لديَّ وسادى

وفيها أبيات سائرة يتمثل بها فى فناء السادة ومسا كنهم الخاوية بعدهم (وهى :)

ماذا أُؤَمِّلُ بعد آلِ مُحَرِّقٍ   تركوا منازلهمْ وبَعْدَ إيادِ (٣)
أهلِ الخَوَرْنَقِ والسَّديرِ وبارقٍ   والقصرِ ذى الشُّرُفاتِ من سِنْدادِ (٤)

(١) النعامة : اسم فرس · ولقحت : حملت · والحيال ان يضرب الفحل الناقة فلا تحمل وهذا مثل ضربه لان الناقة اذا حالت وضربها الفحل كان اسرع للقاحها وانما يعرض امر الحرب لما تولد منها من الامور التى لم تكن تحتسب ·· وقد تقدم هذا البيت فى الجزء الثانى (ص ١١٨) منسوباً الي الحرث بن عباد فتدبر ! (٢) راجع ص ١٤٩ من الجزء الثانى ·

(٣) محرق : لقب امرىء القيس بن عمرو بن عدى اللخمى وهو المحرق الأكبر وهو المراد هنا لاغيره · واياد حى من معد · قال الزبيدى : وهم اليوم باليمن · وقال ابن دريد : هما ايادان : اياد بن نزار واياد بن سود بن الحجر بن عمار بن عمرو · (٤) الخورنق كفدوكس قصر بالعراق للنعمان بن المنذر · والسدير كأمير نهر بناحية الحيرة وقيل قصر قريب من الخورنق · وبارق : ماء بالعراق بين البصرة والقادسية · وسنداد ، بالكسر على الأصل والفتح فتكون النون حينئذ زائدة اذ ليس فى كلام العرب فعلال بالفتح نهر معروف · وفى سفر السعادة : انه موضع وقيل اسم قصر بالعذيب وبه صدر فى المراصد · وقيل هى منازل لاياد أسفل سواد الكوفة وكان عليه قصر تحج العرب اليه ·

نزلوا بأنقرة يسيل عليهم ماء الفرات يجيء من أطواد (١)
أرض تخيرها لطيب مقيلها كعب بن مامة وابن أم دؤاد (٢)
جرت الرياح على محل ديارهم فكأنهم كانوا على ميعاد (٣)
ولقد غنوا فيها بأنعم عيشة في ظل ملك ثابت الأوتاد
فاذا النعيم وكل ما يلهى به يوماً يصير إلى بلى ونفاد (٤)

طرفة بن العبد

هو أجود الشعراء قصيدة وله بعد المعلقة شعر حسن وليس عند الرواة من شعره وشعر عبيد إلا القليل (٥) . وقتل وهو ابن ست وعشرين سنة . وقاتله عمرو بن هند أحد ملوك الحيرة وقد ذكر القصة ابن قتيبة فى كتاب (الشعر والشعراء) وذكرها يعقوب بن السكيت فى شرح ديوانه بأبسط من ذلك . ويقال إن أول شعر قاله طرفة انه خرج مع عمه فى سفر فنصب فخاً فلما أراد الرحيل قال :

يالك من قبرة بمعمر (٦) خلالك الجو (٧) فبيضي واصفري!

(١) أنقرة : بالفتح ثم السكون وكسر القاف ، موضع بنواحي الحيرة وقيل : بل المراد هنا أنقرة التي ببلاد الروم نزلتها إياد لما نفاهم كسرى عن بلاده. وحسنه الحموي والله أعلم . والفرات نهر مشهور . والاطواد : الجبال (٢) أراد كعب بن مامة بن عمرو بن ثعلبة بن سلولة بن شبابة الايادي الذي يضرب المثل بجوده . وكان أبوه مامة ملك إياد . وابن أم دؤاد : هو أبو دؤاد الايادي الشاعر المشهور . وهذا دليل على أن سنداد كانت منازل إياد (٣) قوله « محل » يروى بدله « عراص » ويروى أيضاً « مكان » والمعنى : كأنهم كانوا من الفناء على وعد محقق وأجل مصدق فلما دعوا أجابوا ولما روسلوا استجابوا . (٤) النفاد : الفناء

(٥) جمعت أشعار طرفة في ديوان طبع بشالون بفرنسا سنة ١٩٠٠ م بعناية سلكسن

(٦) معمر : موضع بعينه . وقيل المعمر المنزل الذي يقال فيه . قال ساجعهم (يبغيك فى الارض معمرا) . (٧) قال أبو عمرو : هذا مثل والجو هنا ما اتسع من الأودية ويروى عن ابن عباس أنه قال لابن الزبير حين خرج الحسين الى العراق خلالك الجو فبيضي واصفري .

ونقّرى ماشئت أن تنقّرى(١) قد رُفِعَ الفخّ فماذا تحذرى(٢)؟
لابدّ يوماً أن تُصادِى فاصبرى(٣) :

ومن أمثاله السائرة على وجه الدهر :

ستُبْدى لك الايامُ ما كنتَ جاهلاً ويأتيكَ بالأخبار مَنْ لم تزَوّدِ(٤)

ومن أمثاله فى ذم الأخلاء

كلُّ خليلٍ كنتُ خاللتُهُ لاتركَ اللهُ له واضحهْ(٥)
كلهمُ أروغُ من ثعلبٍ ما أشْبهَ الليلةَ بالبارحهْ(٦)

ومن أمثاله السائرة لعمرو بن هند

أبا منْذرٍ أفنيْتَ فاستَبقِ بعضَنا حنانَيْكَ بعضُ الشرِّ أهونُ من بعضِ(٧)

وقوله

قد يَبعثُ الأمرَ العظيمَ صغيره حتى تظلَّ له الدماء تَصبَّبُ

(١) التنقير : البحث والطلب ، وقيل التنقير تسوية الطائر لعشه .

(٢) الفخ : المصيدة . وقوله فماذا تحذرى أى فماذا تحذرين بحذف النون للضرورة . ويروى « فلا تحذرى . وماتحذرى » . (٣) فى بعض الكتب (لابد من أخذك يوماً فاحذرى) . وقد روى أن هذا الرجز لكليب وائل (راجع الاقتضاب ص ٣٨٢) لعل طرفة استشهد به (٤) يقول : ستطلعك الايام على ما تغفل عنه . وسينقل اليك الاخبار من لم تزوده أى الذى لم تعطه متاع سفره (٥) الخليل : الصديق . وخاللته : صادقته وعاشرته . والواضحة : الاسنان التى تبدو عند الضحك (٦) الثعلب : حيوان معروف . وراغ الثعلب روغا : ذهب يمنة ويسرة فى سرعة خديعة فهو لا يستقر فى جهة . وقوله ماأشبه الليلة بالبارحة أى ماأشبه بعض القوم ببعض وهو مثل يضرب فى تساوى الناس فى الشر والخديعة

(٧) أبو منذر : كنية عمرو بن هند الملك . ونصب حنانيك على المصدر الموضوع موضع الفعل والتقدير : تحنن عليه تحنناً وثنى مبالغة وتكثيراً أى تحنن تحنناً بعد تحنن ولم يقصد بهذا مقصد التثنية خاصة وانما يراد به التكثير فجعلت التثنية علماً لذلك لانها اول تضعيف وتكثير . وكذلك ما جاء من نحوه فى الباب . والبيت من قصيدة لطرفة خاطب بها عمرو بن هند حين امر بقتله وذكر قتله لمن قتل من قومه تحريضاً لهم على طلب ثأره ، وقصته معه ومع المتلمس مشهورة

وقوله

وأعلمْ علماً ليس بالظنّ أنهُ إذا ذَلّ مولى المرءِ فَهْوَ ذليل (١)
وإن لسانَ المرءِ مالم تكن لهُ حصَاةٌ على عَوْراته لَدليلُ (٢)

جرير بن عبد المسيح الشهير بالمتلمس

هو شاعر مشهور وبليغ مذكور ومن أمثاله السائرة قوله فى الاحتياط:

قليل المـال تصلحهُ فيبقى ولا يبقى الـكثيرُ على الفساد
وحفظُ المالِ خيرٌ من بُغاةٍ (٣) وجولٍ (٤) فى البلاد بغير زادِ

وقوله فى الاغضاء عن ذنوب الأقرباء

ولو غيرُ أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فَوْق العَرانين ميسَما (٥)
وما كنتُ إلاّ مثلَ قاطعِ كفّهِ بكفٍّ له أخرى فأصبحَ أجذَما (٦)

وقوله فى الامتناع عن الذل

ولا يُقيمُ على ذلٍّ يُرادُ بهِ إلاّ الأذَلاّنِ: عيْرُ الحيّ، والوتِد (٧)

(١) لفظة العـلم قدتطلق على الظن الغالب لقيامه مقام ما هو علم فى الحقيقة وأكدقوله (واعـلم علماً) بقوله(ليس بالظن)وليس بالظن صفة العلم ، لانه لايكون العلم على التحقيق الا علم اليقين . وسمى علم الظن علماً على المجاز . والضمير من قوله(انه) للأمر والشان .
(٢) الحصاة : العقل ويقال للرجل ذى العـقل إنه لذو حصاة وأصاة وهو ذو حصاة اذا كان يكتم على نفسه ويحفظ سره . والمعنى ظاهر . (٣) ويروى : بغاة وفناء
(٤) وفى رواية : وضرب . (٥) العرانين : جمع عرنين وهو من كل شئ أوله ، ومنه عرنين الانف وهو ما تحت مجتمع الحاجبين وهو موضع الشمم وقد يطلق العرنين على الانف . يقول : أهجوهم هجاء يلزمهم لزوم الميسم فى الانف (٦) الاجذم : المقطوع اليد . يقول لوهجوت قومى كنت كمن قطع يده بيده الاخرى (٧) قوله « ذل » يروى مكانه (خسف) والخسف النقيصة . والعير : بفتح المهملة الحمار وغلب على الوحشى والمناسب هنا الاهلى . والاستثناء فى (الا الاذلان) استثناء مفرغ وقد أسند اليه فعل الاقامة فى الظاهر وان كان مسنداً فى الحقيقة الى العام المحذوف .

هذا على الخسف مربوط برمته ... وذا يشج فلا يرثى له أحد (١)

علقمة بن عبدة (٢)

من غرر شعره قوله :

فإن تسألوني بالنساء فإنني ... بصير بأدواء النساء طبيب (٣)
إذا شاب رأس المرء أو قل ماله ... فليس له في ودهن نصيب
يردن ثراء المال حيث علمنه ... وشرخ الشباب عندهن عجيب (٤)

وقوله من قصيدة أخرى

وكل حصن وإن دامت سلامته ... على دعائمه لا بد مهدوم (٥)
ومن تعرض للغربان يزجرها ... على سلامته لا بد مشؤوم (٦)
ومطعم الغنم يوم الغنم مطعمه ... أنى توجه والمحروم محروم
وكل قوم وإن عزوا وإن كثروا ... عريفهم بأثافي الشر مرجوم (٧)

(١) الرمة : القطعة من الحبل البالي . والضمير يعود الى العير . ويشج : يدق رأسه بالفهر
(٢) عبدة مفتوح الباء . قال ابن السيد فى الاقتضاب : ومن سكنها فقد أخطأ هذا بقوله :

اعتقت عبدى فى القريض معاً ... عبدة والفحل من بنى عبده

قال : وأما عبدة بن الطبيب فساكن الباء وقد قيد ابن الرومى هذا أيضاً بقوله :

يتباشرون بأن عبدة مقبل ... كلا وما جمع الحجيج الى منى

(٣) البصير : العالم . والطبيب : الحاذق . والأدواء : جمع داء (٤) شرخ الشباب أوله
(٥) الحصن : المكان الذى لا يقدر عليه لارتفاعه . والدعائم جمع دعامة بالكسر وهى ما يستند به الحائط اذا مال يمنعه السقوط (٦) قال الضبى : هذا لايمانه بالطيرة . يقول من يزجر الطير وان سلم فلا بد أن يصيبه شؤم . وأنشد :

امام كان لقمان بن عاد ... أشار له بحكمته مشير
تعلم انه لا طير الا ... على متطير وهو الثبور
بلى شئ يوافق بعض شئ ... أحايينا وباطله كثير

قال الرستمى : يقول ، الغربان يتشاءم بها فمن تعرض لها يزجرها ويطردها خوفاً أن يصيبه الشؤم فلا بد أن يقع بما خاف ويحذر (٧) العريف كامير : من يعرف أصحابه ، والعريف رئيس القوم سمى به لأنه عرف بذلك ، أو النقيب وهو دون الرئيس . والأثافى : جمع أثفية بالضم ويكسر الحجر الذى يوضع عليه القدر

أبو دؤاد الايادى

قيل للحطيئة : مَنْ أشعر الناس؟ قال : الذى يقول :

لا أعدّ الإقتار عدماً ولكنْ ... فقدُ مَنْ قد رُزِئْتُهُ الاعدام (١)

من رجالٍ من الأقاربِ بَادُوا ... من حذاقٍ هم الرؤوس الكرامُ (٢)

فعلى إثْرِهِمْ تُساقِط نفسى ... حسرات وذكرهم لى سقامُ

ومن وسائط قلائده

اذا كنْتَ مرتادَ الرجال لنفعهم ... فَرِشْ واصطنعْ عند الذين بهم ترمى (٣)

لقيط بن معبر الايادى

أمير شعرهِ قصيدته التى كتبها الى قومه يحذرهم جند كِسْرى ويحرضهم على الجد للممانعة والمقارعة . فمنها قوله :

قُومُوا قياماً على أمْشاطِ أرجلكم ... ثم افْزَعُوا قد ينال الأمْنَ من فَزِعا (٤)

هيهاتَ مازالت الأموالُ مُذْ أبد ... لأهلها انْ أصيبُوا مرةً تبعا

ومنها فى اختيار الرئيس المضطلع بقيادة الجيش وتدبير الحرب وهو أحسن ما قيل فى معناه :

وقلّدوا أمْرَكم للهِ دَرُّكُمُ ... رَحْبَ الذراع بأمر الحرب مُضْطَلِعا (٥)

لا مُتْرَفاً إنْ رَخاء العيشِ ساعَدَهُ ... ولا اذا عَضَّ مكروهٌ به جَزِعا (٦)

(١) الاقتار : الضيق فى النفقة • ورزئته : أصبت به وفقدته (٢) بادوا : هلكوا • وحذاق : يؤخذ من كلام الزبيدى في التاج أنه حذاقة جد لأبى دؤاد أبو بطن من اياد حذف أبو دؤاد منه الهاء • وبه يتبين فساد قول من قال (الشعر والشعراء ص ٣٨) : ان «حذاقاً — هنا — جمع حذاقي الفصيح اللسان البين اللهجة » (٣) راش الصديق يريشه ريشاً أطعمه وسقاه وكساه • والاصطناع : المبالغة فى اصلاح الشىء (٤) الامشاط جمع مشط وهو سلاميات ظهر القدم وهى العظام الرقاق المفترشة على القدم دون الاصابع . يقال انكسر مشط قدمه وقاموا على أمشاط أرجلهم وهو مجاز (٥) مضطلع : مفتعل من الضليع وهو الشديد يريد أنه قوى على أمر الحرب مستقل بها • ورحب الذراع : واسع القوة عند الشدائد

(٦) المترف كمكرم : المتروك يصنع ما يشاء لا يمنع منه والمتنعم المتوسع فى ملاذ الدنيا وشهواتها لا يمنع من تنعمه ، والجبار • وقوله : اذا عض مكروه كناية عن نزول المكر وه واشتداده

ما زال يحلُبُ هذا الدهر أشْطُره   يكون مُتبِعا طَوْراً ومُتَّبَعا [١]
حتى استمرت على شَزْرٍ مَريرته   مُسْتَحكِمَ السنّ لا قَحْماً ولا ضَرَعا [٢]

أي لا شيخاً خرفاً ولا شاباً حدثاً .

حاتم الطائى

قد سبق له ذكر فى الاجواد [٣] واقتضى المقام إعادة ذكره فمن أمثاله السائرة قوله :

اذا لزم الناسُ البيوتَ رأيتهُمْ   عماةً عن الأخبار خرق المكاسبِ

وقوله يخاطب امرأته ماوية

أماوىّ إن المــالَ غادٍ ورائحٌ   ويبقى من المال الأحاديثُ والذكرُ
وقد عَلِمَ الأقوامُ لو أنَّ حاتماً   أراد ثَرَاءَ المالِ كان له وَفْرُ

وقوله أيضاً

وأنتَ إذا أعطَيْتَ بطنَكَ سؤلَهُ   وفرجَكَ نالا منتهى الذمّ اجمعا [٤]

وقوله أيضاً

أماوىّ ما يُغْنى الثراءُ عن الفتى   اذا حَشْرَجَتْ يوماً وضاق بها الصَّدْرُ [٥]

عمرو بن كلثوم

هو من شعراء الجاهلية وقد حاز قصب السبق فى شعره وتقدمت له ترجمة مفصلة فى فرسان العرب [٦] فانه كما كان متقدماً فى الشعر كان من أشجع الفرسان

(١) حلب الدهر أشطره : اختبر خيرالدهر وشره . وقوله : يكون متبعاً الخ أى قد اتبع الناس فعلم ما يصلح به أمر الناس ، واتبع فعلم ما يصلح الرئيس كما قال أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه : قد ألنا وإيل علينا أى قد أصلحنا أمور الناس وأصلحت أمورنا (٢) قوله على شزر مريرته : مثل . يقال شزرت الحبل اذا كررت فتله بعد استحكامه راجعاً عليه . والمريرة : الحبل . والضرع : الضمير الضعيف . والقحم آخر سن الشيخ (٣) ج ١ ص ٧٢ الى ٨١
(٤) السؤل : المسؤول وأراد به ما يشتهيه . والمعنى ان الشخص اذا أعطى بطنه وفرجه ما يشتهى واتبع هواه بقضاء ما تزينه له نفسه من شهواتها أصابه من الناس منتهى الذم والشتم
(٥) ج ١ ص ٧٨ (٦) ج ٢ ص ١٤١ — ١٤٣

وأجرأهم وهو قاتل عمرو بن هند الملك بسبب ما كان منه من الفخر والتطاول على العرب وتقدمت القصة فى ترجمته . وبالجملة أنه كان من الطراز الأول من فحول الشعراء ، ولم يخالف فى ذلك أحد من الأدباء ، وهو صاحب المعلقة المشهورة :

ومن أمثاله السائرة قوله

وانَّ غَداً وانَّ اليومَ رَهْنٌ　　وبَعْدَ غَدٍ بمالا تَعْلَمينا (١)

وفى هذه القصيدة بيتان ينسبان اليه . ويقال إنهما لعمرو بن عدى كما ذكره الامام الثعالبى فى كتابه (لباب الأدب) وهما :

صَدَدْتِ الكأسَ عنّا أمَّ عَمْروٍ　　وكان الكأسُ مَجْراها اليَمينا (٢)

وما شرُّ الثلاثةِ أمَّ عمْروٍ　　بِصاحبك الذى لا تَصبِحينا (٣)

ويروى أن عاملاً للامام علىّ كرم الله تعالى وجهه ورضى عنه قدم من عمله فأهدى الى الحسنين الأحسنين رضى الله تعالى عنهما ولم يهد شيئاً الى محمد ابن الحنفية فضرب على كتفه وتمثل بقول عمرو :

وما شرّ الثلاثة أم عمرو　　بصاحبك الذى لا تصبحينا

فأهدى من الغد الى ابن الحنفية كما أهدى الى أخويه صلوات الله وسلامه على جدهم وعليهم .

عنترة بن شداد العبسى

كان من مشاهير شعراء الجاهلية كما كان من الفرسان المذكورين وله وقائع كثيرة وتقدمت نبذة من أخباره فى الكلام على الفرسان (٤) . وحذاق الشعراء يرجحون شعر عمرو بن كلثوم على شعره على منزلته الرفيعة فى البلاغة . وقد أنشد بين يدى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أبياته التى يقول فيها :

(١) أى بما لا تعلمين من الحوادث . يقول فان الايام رهن بمالا يحيط علمك به أى ملازمة له .
(٢) يروى « صبنت » موضع « صددت » أى صرفت (٣) يقول : ليس بصاحبك الذى لا تسقينه الصبوح شر هؤلاء الثلاثة الذين تسقينهم أي لست شر أصحابى فكيف أخرتني وتركت سقيي الصبوح ! (٤) ج ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧

بَكَرَتْ تُخَوِّفُنِى المَنُونَ كأننى أصبحتُ عن غرض المَنُون بمَعْزِلِ (١)
فأجَبْتُهَا : إنَّ المنيـةَ مَنْهَلٌ لابُدَّ أنْ أُسْقَى بكأس المنهـلِ
فاقْنَىْ حَيَاءَكِ (لا أبالَكِ) واعلَمى أنى امْرُؤٌ سأموتُ إنْ لم أُقْتَلِ (٢)

ولما أنشد قوله

ولقد أَبيتُ على الطَّوَى وأَظَلُّهُ حتى أنالَ بهِ كَريمَ المـأْكلِ (٣)

قال صلى الله تعالى عليه وسلم : ما وصف لى اعرابىٌّ قطُّ فأحببت أن أراه إلاّ عنترة .

ومن أمثاله السائرة قوله

نُبِّئْتُ عَمْرًا غيرَ شاكِرِ نعمتى والـكُفْرُ مَخْبَثَةٌ لنفسِ المُنْعِمِ (٤)

وبيته الذى ينسب اليه

إن العدوَّ على العدوِّ لَقَائِلٌ ما كان لى علمٌ وما لم يعلم

طفيل الغنوى

كان يقال له فى الجاهلية المحبّر أى المحسن لحسن شعره . ويروى أن أبا بكر رضى الله تعالى عنه قال يوماً للأنصار : زادكم الله عنا يا معشر الأنصار خيراً فما مثلنا ومثلكم إلا كما قال طفيل الغنوى :

جَزَى اللهُ عنّا جَعْفَرًا حين أزْلقَتْ بنا نعلُنا فى الواطئـين فزَلّتِ
أبوْا أن يملّونا ولو أنّ أمّنـا تلاقى الذى يلقونَ منا لَمَلّتِ

(١) بكرت : أسرعت ولم يرد بكور الغدو . والمنون : الموت . والمنهل بفتح الميم والهاء المورد (٢) قنى الحياء : لزمه وحفظه . وقنانى الحياء أن أفعل كذا : ردّنى ووعظنى وهو يقنينى . قال الشاعر :

وانى ليقنينى حياؤك كلما لقيتك يوماً أن أبثك ما بيا

(٣) الطوى : الجوع . ويروى « كريم المطعم » موضع « كريم المأكل »

(٤) التنبئة والتنبي مثل الانباء وهذه من سبعة أفعال تتعدى الى ثلاثة مفاعيل . والكفر : تغطية نعم المنعم بالجحود

ومن غرر شعره قوله

إنَّ النساءَ كأشجارٍ نَبَتْنَ لنا ... منهنَّ مرٌّ وبعضُ المرِّ مأكولُ
إنَّ النساءَ متى يَنْهينَ عن خُلُقٍ ... فانهُ واجبٌ لا بُدَّ مفعولُ

الاضبط بن قريع السعدى

روى ابن الانبارى باسناده قال : عاش الأضبط بن قريع مائة وخمسين سنة ثم مات فى آخر الزمان وأمير شعره قوله :

لكلِّ همٍّ من الهُمُوم سَعَهْ ... والصُّبْحُ والمُسْىُ لا بقاءَ مَعَهْ (١)
قد يَجْمَعُ المالَ غيرُ آكلِهِ ... ويأكلُ المالَ غيرُ مَنْ جَمَعَهْ
لا تحقرنَ الفقيرَ علَّكَ أنْ ... تركعَ يوماً والدهرُ قد رفَعَهْ (٢)
وصِلْ حبالَ البعيدِ إنْ وَصَلَ الـ ... ـحَبْلَ وأقصِ القريبَ إن قطَعَهْ (٣)
واقْبَلْ من الدهر ما أتاك به ... مَنْ قَرَّ عيناً بعيشه نفَعَهْ
ما بالُ مَنْ سَرَّهُ مصابُكَ لا ... يملك شيئاً من أمره وزَعَهْ (٤)
أذُودُ عن حوضه ويدفعنى ... ياقومِ مَنْ عاذرى من الخُدَعَهْ (٥) ؟

(١) ويروى « والمسى والصبح لا فلاح معه » . والمسى بضم الميم وكسرها وسكون السين اسم من الامساء . والصبح : اسم من الاصباح . والفلاح : البقاء

(٢) قوله « لا تحقرن الفقير » هو رواية الجاحظ فى البيان والتبيين ، ورواه غيره « ولا تعاد الفقير » والرواية المشهورة عند النحاة « لا تهين الفقير » وهم يوردون البيت شاهداً على حذف نون التوكيد الخفيفة من « تهين » لالتقاء الساكنين والاصل « لا تهين الفقير » فحذفت النون وبقيت الفتحة دليلا عليها . وله نظائر كثيرة فى كلام العرب . وعل : لغة فى لعل . والركوع : الانحناء والميل وأراد به الانحطاط من المرتبة والسقوط من المنزلة . (تنبيه) زعم العينى وتبعه أناس أن هذا البيت من الخفيف وهو وهم كبير والصواب أنه من المنسرح — ويدل له القصيدة — لكن دخل فى أوله الخرم (بالراء) بعد خبنه فصار على وزن فاعلن وهذا جائز عند بعضهم وممتنع عند الخليل . انتهى باختصار من شرحنا لكتاب الضرائر تأليف الاستاذ الالوسى المؤلف ص ٩٩ و١٠٠ من طبعة المطبعة السلفية بمصر (٣) يعنى : تقرب الى البعيد من النسب اذا طلب قربك واهجر القريب من نسبك اذا هجرك (٤) المصاب بالضم : المصيبة . وروى « ما بال من غيه مصيبك » . ووزعه يزعه وزعاً : كفه ومنعه . وكان فى الأصل « ودعه » بالدال . يقول : ما بال من تتألم لمصيبته وفقره اذا وجد شيئاً من الخير كفه عنك (٥) قوله « أذود عن حوضه » هذا مثل للحماية ودفع المكروه عنه . و « الخدعة »

حتى إذا ما انجلت عَمايته أقبلَ يَلْحَى وغَيَّهُ فَجَمَه (١)

عدى بن زيد العبادى

لا يخرج من شعر شاعر من الجاهلية من محكم الشعر وحكمه وما يصلح للمثل به من حسن الديباجة وصفاء الزجاجة مايخرج من شعر عدى ، وكان يسكن الحيرة ويجاور الريف فرقَّ شعره وعذب منطقه ، وكان يونس النحوى اذا أنشد قوله فى الاعتبار بذهاب القرون وذهاب الملوك يقول : لو تمنيت أن أقول شعراً ما تمنيت إلاَّ هذا :

أيُّها الشامتُ المعيِّرُ بالدهر م أأنْتَ المبرَّأ الموفورُ (٢) ؟
أمْ لديك العهدُ الوثيقُ من الأ يَّام ؟ بل أنتَ جاهلٌ مغرور !
أين كسرى كسرى الملوك أنوشر وان أمْ أينَ قبلهُ سابور ؟ (٣)
وأخو (الحضْر) إذْ بناه وإذْ دجـ لة تجبى اليه و (الخابور) (٤)
شَادَهُ مَرْمَرًا وجـلَّله كِـ ساً فللطير فى ذُراه وُكورُ (٥)
وبنو الأصفر الـكرامُ ملوكُ الـ روم لم يَبْقَ منهمُ مذكور (٦)

بضم الخاء المعجمة وفتح الدال المهملة بطن من بنى سعد بن زيد مناة بن تميم وهم قومه . قاله صاحب الأغانى وغيره . وقال بعضهم : الخدعة فى هذا البيت اسم للدهر لتلونه ويقال دهر خادع وخدعة وهو مجاز (١) العماية بفتح العين المهملة : الشدة التى تلتبس منها الامور . يقال : عمى عليه الامر اذا التبس . وأقبل : شرع . ويلحى : يلوم . والغى : الضلال . وفجمه : أصابه بمكروه (٢) شمت العدو : كفرح وزناً ومعنى (٣) كسرى أنوشروان : ملك الفرس . وسابور : ذو الاكتاف ملك العجم معرب شاه بور ، معناه : ابن السلطان

(٤) أخو الحضر : صاحب الحضر وهو بالفتح ثم السكون اسم مدينة بازاء تكريت فى البرية بينها وبين الموصل والفرات . بناها الساطرون بن اسطيرون الجرمقي ... ودجلة : اسم للنهر الذى يمر ببغداد ولا تنصرف ولا يدخلها الالف واللام . وغلط صاحب (المنجد ـ المعجم المدرسى) فأدخلهما عليها كما غلط فى مسائل كثيرة فيه فليحذر منه ! وتجبى : تجمع . والخابور : نهر بين رأس العين والفرات مشهور . وآخر شرق دجلة الموصل بينه وبين الرقة عليه قرى كثيرة وبليدات (٥) شاده : بناه . والمرمر : وزان جعفر نوع من الرخام الا أنه أصلب وأشد صفاء . وجلله : غطاه . والكلس : بالكسر الصاروج وهو النورة . وذرى الشيء : أعلاه (٦) بنو الاصفر : الروم وقيل ملوك الروم أولاد الاصفر بن روم بن يعصو بن اسحق . وقيل الاصفر لقب روم لا ابنه . وقال ابن الاثير : انما سموا بذلك لان أباهم الاول كان

وتفكر ربّ (الخورنق) إذ أشـ ... رف يوماً وللهدى تفكير (١)
سرّه ملكه وكثرة ما يحـ ... ويه والبحر معرضاً و(السدير)
فارعوى قلبه فقال وما ... غبطة حيّ الى الممات يصير؟ (٢)
ثم أضحوا كأنهم ورق جفّـ ... فألوت به الصّبا والدّبور (٣)
ثم بعد الفلاح والملك والإمّـ ... ـة وارتهم هناك القبور (٤)

ومن أمثاله السائرة

كفى واعظاً للمرء أيامُ دهرهِ ... تروحُ له بالواعظات وتغتدى (٥)
عن المرء لا تسألْ وسلْ عن قرينهِ ... فانّ القرين بالمقارن مقتدى
وظلم ذوى القربى أشدُّ مضاضةً ... على الحرّ من وقع الحسام المهنّدِ (٦)

وقوله فى حبس النعمان بن المنذر

أبلغ النعمان عنى مألكاً ... أنَّه قد طال حبسى وانتظارى (٧)
لو بغير الماء حلقى شرِقٌ ... كنت كالغصّان بالماء اعتصارى (٨)

وقوله

فهل من خالدٍ إما هلكنا ... وهل بالموت يا للناس عارُ

أصفر اللون وهو روم بن يعصو ويقال عيصون . أو لغير ذلك (١) الخورنق والسدير : مر ذكرهما فى ص ١٠٩ من هذا الجزء (٢) ارعوى : ارتدع . والغبطة : حسن الحال وهى اسم من غبطته غبطاً اذا تمنيت مثل ما ناله من غير أن تريد زواله عنه لما أعجبك منه وعظم عندك وهذا جائز فانه ليس بحسد فان تمنيت زواله فهو الحسد (٣) ألوت به : ذهبت به . والصبا : كعصى الريح التى تهب من مطلع الشمس . والدبور : كرسول الريح التى تهب من جهة المشرق تقابل الصبا . ويقال تقبل من جهة الجنوب ذاهبة نحو المشرق . كذا فى المصباح

(٤) الامة بالكسر النعمة . قال الاعشى : —

ولقد جررت الى الغنى ذا فاقة ... وأصاب غزوك إمة فأزالها

(٥) الرواح يكون بمعنى الغدوّ وبمعنى الرجوع وقد طابق بينهما فى قوله تعالى « غدوها شهر ورواحها شهر » أى ذهابها ورجوعها (٦) المضاضة : الالم . والحسام : السيف . والمهند : المطبوع من حديد الهند . ويقال سيف مهند وهندى وهندوانى اذا عمل ببلاد الهند

(٧) المألك : بضم اللام الرسالة (٨) قوله : «شرق» من شرق بالماء اذا غص . والغصان : الغاص بالطعام أو بالماء . والاعتصار : الملجأ . قال أبو عبيدة : المعنى لو شرقت بغير الماء أسغت شرقي بالماء فاذا غصصت بالماء فبما أسيغه . والبيت من شواهد النحويين

الحرث بن حلزة اليشكرى

قال أبو عبيدة : أجود الشعراء قصيدة واحدة جيدة طويلة ثلاثة نفر : عمرو بن كلثوم . والحرث بن حلّزة . وطَرَفة بن العبد . وزعم الأصمعى أن الحرث قال قصيدته المعلقة وهو ابن مائة وخمس وثلاثين سنة ارتجالاً متوكأً على قوسه فزعموا أنه اقتطم كفه (١) وهولا يشعر من الغضب . وقال ابن السيد فى شرح أدب الكاتب كان متكئاً على عَنَزَةٍ (٢) فارتزَّت (٣) فى جسده وهو لا يشعر . قال الصُّولىُّ : ما يوصف تأهّب القوم للسفر وإقبالهم على جمع الآلات للارتحال بأحسن من قول الحرث :

أجمعوا أمْرَهُمْ عِشاءً فلما ... أصبحوا أصْبَحَتْ لهم ضوضاء (٤)

منْ مُنادٍ ومن مجيبٍ ومن تَصْـ ... ـهالِ خَيْلٍ خِلالَ ذاكَ رُغاء (٥)

أمية بن أبى الصلت

له فى التوحيد والحكمة شعر كثير . وفيه يقول النبى صلى الله تعالى عليه وسلم : آمن شعره وكفر قلبه . ويقال انه أول من تلطف للسؤال فى قوله لعبد الله ابن جُدْعان (٦) :

أأذكُرُ حاجتى أم قد كَفانى ... حياؤك : إنَّ شيمتَكَ الحياء (٧)

وعلْمُكَ بالحقوقِ (٨) وأنتَ قَرْمٌ ... لكَ الحسبُ المهذَّبُ والسَّناء (٩)

(١) اقتطم الشيء : عضه أو تناوله بأطراف أسنانه وذاقه (٢) هى رميح بين العصا والرمح فى طرفه سنان مثل سنان الرمح (٣) أى انغرزت (٤) الضوضاء : الجلبة وهي اختلاط الأصوات . واجماع الأمر : عقد القلب وتوطين النفس عليه (٥) التصهال : كالصهيل . والرغاء : بالضم صوت البعير . يقول : اختلطت أصوات الداعين والمجيبين والخيل والابل . يريد بذلك تجمعهم وتأهبهم (٦) ترجمته فى الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٨٧ (٧) الشيمة : الخلق والطبع . . يعنى أن حياءك يكفى فى قضاء حاجتى (٨) أى ويكفينى معرفتك بما يجب (٩) القرم : السيد المعظم ، ويروى « وأنت فرع » أى شريف قوم . والحسب المهذب : المنقى المخلص . والسناء : الرفعة

كريمٌ لا يغيّرهُ صَباحٌ عن الخُلُقِ الجميلِ ولا مَساءُ (١)
إذا أثنى عليكَ المرءُ يوماً كفاهُ من تعرُّضِهِ الثناءُ (٢)

ومن غرر شعره قوله

عطاؤك زينٌ لامرئٍ إنْ حبوْتَهُ بخيرٍ وما كلُّ العطاءِ يَزينُ (٣)
وليس بِشَيْنٍ لامرىءٍ بذلُ وجههِ اليكَ كما بعض السؤال يَشينُ

وقد سبق له ذكر فيمن كان على دين أيامَ الجاهلية .

قس بن ساعدة الأيادى

كان له باع طويل فى الشعر ، والخطب ، وسائر فنون الكلام ، مع اشتماله على الحكم البالغة ، والفوائد البديعة ، فمن غرر شعره :

فى الذاهبينَ الأوّليـــن من القُرون لنا بصائرْ (٤)
لمّا رأيتُ مواردًا للموت ليسَ لها مَصادرْ (٥)
ورأيتُ قومى نحوَها تمضى الأصاغرُ والأكابرْ
لا يَرْجعُ الماضى إلـــيَّ ولا من الباقينَ غابرْ (٦)
أيقنْتُ أنّى لا محا لَةَ حيثُ صارَ القومُ صائرْ (٧)

وأُنشِدَ النبى صلى الله تعالى عليه وسلم هذه الابيات فلما سمعها قال إنه يبعث أمة على حدة .

(١) يروى « خليل » موضع « كريم » والمعنى ظاهر . ويروى بعده هذا البيت :
وأرضك كل مكرمة بنتها بنو تيم وأنت لها سماء
(٢) يعنى أن المدح يكفى فى نيل الحاجة منك بدون التعرض لمطالبتك (٣) حبوته : أعطيته
(٤) القرون : جمع قرن وهو أصل كل مدة فيها نبي أو طبقة من أهل العلم والفضل سواء قلت السنون أو كثرت . كذا قالوا (٥) الموارد : جمع مورد ، وهو محل الورود أي الاتيان . والمصادر : جمع مصدر ، وهو موضع الصدور أي الانصراف والرجوع (٦) غابر : اسم فاعل من غبر بمعنى مكث وبقى وبمعنى مضى أيضاً فهو ضد (٧) أى أيقنت أنى منتقل حيث انتقل القوم ، فصائر خبر ان . وصار بمعنى انتقل . والقوم فاعله . ولا محالة : بفتح الميم — لا تغيير ولا تبديل . وأيقنت جواب لما فى البيت الثانى

عائذ بن محصن الشهير بالمثقب العبدى

ولقب بذلك لقوله فى قصيدة أولها :

أفاطمَ قبْلَ بينك متّعيني ومنعكِ ماسألتُ كأنْ تبيني (١)

ومنها (و ثَقّبْنَ الوصاوصَ للعيون (٢)) وأمير شعره قوله فى هذه القصيدة :

فلا تَعِدى مواعِدَ كاذبات تمرُّ بها رياحُ الصَّيْف دُونى
فلو أنّى تُعاندنى شمالى لما أتبعتها أبداً يمينى
اذاً لَقَطَعْتُها ولقلتُ بِينى كذلك أجْتَوِى مَنْ يجْتَوِينى (٣)
فإمّا أنْ تكونَ أخى بحقٍّ فَأعرِفَ منك غثّى من سمينى (٤)
وإلاَّ فاطَّرِحْنى واتّخذْنى عدوّاً أتّقِيك وتَتَّقينى (٥)
وما أدرى اذا يَمّمْتُ أرضاً أريدُ الخيرَ أيُّهما يليني (٦)
أ الخير الذى أنا أبتغيه أم الشّرّ الذى هو يبتغينى (٧) ؟

ومن أمثاله أيضاً قوله

لا تقولنَّ اذا مالم تُرِدْ أنْ تُتمَّ الوعدَ فى شئ « نَعَمْ »
حَسَنٌ قبل « نعم » قولك « لا » وقبيحٌ القول « لا » بعد « نَعَمْ »
إنَّ « لا » بعد « نعم » فاحشة (فَبِلا) فابدأ اذا خفْتَ النَدَمْ

(١) أى منعك ما سألتك كبينك عندى . والبين : الفراق . ويروى « ومنعك ما سألتك أن تبينى » والمعنى منعك ما سألتك لبينك ومن أجل بينك (٢) قبله « ظهرن بكلة وسدلن اخرى » هكذا اورده الزبيدى . وفى الصحاح والاساس « ارين محاسناً وكنن اخرى » وفي خزانة الادب للبغدادى « رددن تحية وكنن اخرى » والوصاوص جمع وصواص وهو البرقع الصغير (٣) البين : الفرقة . واجتوى : ابغض (٤) قوله « فأعرف » بالنصب معطوف على تكون . والغث : من غث اللحم يغث غثاثة وغثوثة فهو غث وغثيث اذا كان مهزولا . وكذلك غث حديث القوم وأغث اي ردؤ وفسد . والمعنى ههنا : اعرف منك ما يفسد عما يصلح . وقال الدماميني : الغث الرديء ، والسمين : الجيد ، اى اعرف منك مساويّ من محاسنى فان المؤمن مرآة اخيه او اعرف ما يضرنى منك مما ينفعنى واميز بينهما

(٥) اطرحنى : اتركنى ، وهو بتشديد الطاء افتعال من الطرح (٦) يممت : قصدت

(٧) ويروى « ام الشر الذى لا يأتلينى » اى لا يألو فى طلبى

واعلمْ أنَّ الذمَّ نقصٌ للفتى ... ومتى لا تتقِ الذمَّ تُذم
أكرِمِ الجارَ وراعِ حقَّهُ ... إنَّ عرفانَ الفتى الحقَّ كَرم
لا تراني راتعاً في مجلس ... في لحوم الناس كالسَّبُعِ الضَرِم (١)
إنَّ شرَّ الناسِ من يكشرُ لي ... حينَ يلقاني وإنْ غِبْتُ شتم
وكلامٍ سيئٍ قد وُقِرَت ... عنه أذناي َ ومابي من صمم (٢)
فتعديتُ خشاةَ أن يرى ... جاهلٌ أني كما كانَ زعم
ولبعضُ الصفحِ والإعراض عن ... ذي الخَنَى أبقى وإنْ كانَ ظلم (٣)

الممزق العبدي

واسمه شاس بن نهار بن أسود بن حريك (٤) بن حي بن غشاش (٥) وكان ابن أخت المثقب . وإنما لقب بالممزق لبيت قاله لبعض الملوك وكان أسيراً عنده :

أحقاً (أبَيْتَ اللعنَ) انّ ابن فرتني ... على غير أجرامٍ بريقي مشرقي (٦)
فان كنتُ مأكولاً فكُنْ خيْرَ آكلٍ ... وإلاّ فأدركْني ولما أمزَّقِ

قال احمد بن عبيد : انما هو ممزق بكسر الزاي . ولقب ببيته هذا :

فمن مبلغ النعمانَ أنَّ ابن أختِهِ ... على العين يعتاد الصفا ويمزّق (٧)

(١) أكل لحم أخيه : اغتابه . والضرم : الشديد النهم أخذاً من ضرم النار وهو التهابها . والسبع بضم الموحدة لكن سكنه للضرورة . (٢) وقرت أذنه بالبناء للمفعول توقر وقراً فهي موقرة من الصمم . (٣) ذو الخنى : ذو الفحش . (٤) في الاصل « جريك » بالجيم والتصحيح من التاج (٥) لم يذكر الزبيدي هذا الاسم في نسب الممزق الذي أورده في مادة (مزق) من التاج . (٦) أبيت اللعن : تحية ملوك العرب في الجاهلية — راجع الجزء الثاني من هذا الكتاب ص١٩٢ والفرتني : المرأة الزانية والأمة . وابن الفرتني : هو ابن الأمة البغي . قال الشاعر :

مهلاً بعيث فان أمك فرتني ... حمراء أنخنت العلوج رداما

وشرق بريقه : غص .

(٧) معنى يمزق يغني . قال المفضل : وهذا يقوي قول الجوهري في كسر الزاي في « الممزق » الا أن المعروف في هذا البيت « يمرق » بالراء والتمريق بالراء الغناء فلا حجة فيه على هذا لأن الزاي فيه تصحيف . . وقال الآمدي في الموازنة : الممزق بالفتح هو شاس بن نهار العبدي سمي لقوله : فان كنت مأكولاً البيت .

(والتمزيق وعين محلم موضع بالبحرين [١]) وروى له أبو عبيدة قوله :

هل للفتى من بناتِ الدهرِ من واق　　أم هَلْ له من حِمام الموت من واق [٢] ؟

ومنها قوله الذى سار مثلاً

هَوِّنْ عليك ولا تولع باشفاق　　فانما مالنا للوارث الباقى

ومن غرره قوله

ان يجمعوا أوَدى ومعرفتى　　أو يجمع السيفانِ فى غمد [٣]

عبد قيس بن خفاف

كان من البراجم [٤] . ومن غرر مواعظه ووصاياه لابنه قوله :

فالله فاتَّقِهِ وأوفِ بنـذره　　واذا حَلَفْتَ ممـارياً فتحلل [٥]

واعلم بأنَّ الضيفَ مكرم أهله　　بمبيت ليلته وإن لم يسأل

والضـيف أكرمْهُ فان مبيته　　حقٌّ ولا تكُ لعنةً للنزَّل

وَصِلِ المواصلَ ماصفا لكَ وُدُّهُ　　واحززْ حبالَ الخائن المتبذِّل [٦]

واترك محـلَّ السوءِ لا تحلل به　　واذا نَبا بك منزل فتحوَّل [٧]

دار الهوان لمنْ رآها داره　　أفراحلٌ عنها كمَنْ لم يرحل ؟

واذا هممْتَ بأمرِ شرٍّ فاتئِـدْ　　واذاهممتَ بأمر خير فاعجل [٨]

واذا أتتك من العَدُوِّ قوارصٌ　　فاقرصْ هُناك ولا تقل لم أفعل [٩]

(١) لينظر ما وجه إيراد هذه الجملة ههنا . (٢) بنات الدهر : حوادثه ومصائبه . والواقي الحافظ . وحمام الموت بالكسر قضاؤه وقدره . (٣) الأود : الاعوجاج . والغمد : قراب السيف (٤) البراجم قوم من أولاد حنظلة بن مالك . (٥) نذر على نفسه ينذر نذراً ونذوراً : أوجبه . ونذر لله سبحانه كذا . أو النذر ما كان وعداً على شرط فعليّ ان شفى الله مريضى كذا نذر وعليّ ان أتصدق بدينار ليس بنذر . وقوله (ممارياً) أى شاكا ومجادلا . وتحلل في يمينه اذا حلف ثم استثنى استثناء متصلا . (٦) احزز : اقطع . (٧) نبا به المنزل : لم يوافقه (٨) اتأد وتوأد : تأنى فى الأمر . (٩) القوارص من الكلام هى التى تنغصك وتؤلمك كالقرص فى الجسد . ولا تزل تقرصنى من فلان قارصة أى كلمة مؤذية .

الشنفرى

تقدم له ذكر أيضاً وأمير شعره قصيدته التى أولها :

الا أم عمرو أجمعت فاستقلت ... وماودعت جيرانها إذتولت

وبيت القصيدة قوله فى وصف امرأة

فدقت وجلت واسبكرت واظلمت ... فلو جن انسان من الحسن جنت

أى دقت خاصرتها وجلت [1] عجيزتها وامتد قوامها واسود شعرها فلو كان انسان يجن من فرط الحسن لجنت هذه .

عروة بن الورد

أمير شعره وغرة كلامه فى الخطاب بالنفس لطلب المال قوله :

فمن يك مثلى ذا عيال ومقتر ... من المال يطرح نفسه كل مطرح [2]

ليبلغ عذراً أو ينال رغيبة ... ومبلغ نفس عذرها مثل منجح [3]

وقوله أيضاً

اذا آدا آداك مالك فامتهنه ... لجاديه وإن قرع المراح [4]

أى اذا أعانك مالك فابذله لمن سألك إياه وان بقيت صفراً منه .

أفنون التغلبى

كان بعض الكهان أنذره بهلاكه من لدغة تصيبه ، وكان يتحرز منها بجهده ولا ينام إلا على ظهر راحلته . فبينا هو ذات ليلة على ناقة له ، وهى ترعى ، اذ التوت حية على مشفرها [5] فاضطربت فرمت بها اليه فلدغته ، فقال فى وقته :

(١) أى عظمت (٢) أى من يك مثلى معيلا مقتراً (أى صاحب عيال فقيراً) يطرح نفسه فى كل بلاء ومشقة . (٣) يصيب رغيبة : ينال مالاً . والمنجح : الغانم . وفى الاغانى (ج٢ ص ١٨٩) : (منك) بدل (مثل) . (٤) نسبه الزبيدى فى مادة (قرع) لابن أذينة . وآداه ماله : كثر عليه فغلبه . والمراح بالضم المأوى ، وقرع مأوى المال ومراحه من المال قرعاً فهو قرع : هلكت ماشيته . ويروى « صفر المراح » بدل « قرع المراح » . والجادى : السائل . (٥) المشفر للبعير كالشفة للانسان .

لَعَمْرُكَ مايَدْرى الفتى كيفَ يتَّقى ... اذا هوَ لم يجعلْ له الله واقيا

ثم خرَّ ميتاً لساعته .

قيس بن الخطيم

أمير شعره قصيدته التى أولها :

أتعرف رسماً كاطّرادِ المذاهب[١] ... لعمرةَ وحْشاً غير موقف راكبِ ؟

وبيت القصيدة قوله فى وصف امرأة

تراءتْ لنا كالشَّمْس بين غمامةٍ ... بدا حاجِبٌ منها وبانت بحاجب

ولما رأيت الحرْبَ قد جد جدها ... لبست مع البردين ثوبَ المحارب

يقول قد جمعت بين ثوب الصلح وثوب المحارب لأ كونَ على بصيرة من أمرى فى الحالين . وفيها :

اذا قصرتْ أسيافُنا كان وصلها ... خطانا الى اعدائنا بالتقارب

وفيها

لو أنَّك تلقى حنظلاً فوقَ بيضنا ... تدحرج عن ذى سامة المتقارب

أُحَيْحَة بن الجلاح

غرة شعره الذى يتمثل به قوله :

إِستَغْنِ أوْمُتْ ولا يغررك ذو نَشَبٍ ... من ابن عمٍّ ولا عم ولا خال[٢]

إنى مُقيمٌ على الزوراءِ أعمُرُها ... إنَّ الحبيبَ الى الإِخوان ذو المال

وقوله

وما يدرى الفقيرُ متى غناهُ ... ولا يدرى الغنيُّ متى يعيلُ[٣]

(١) أى كتتابع المذاهب وهى جلود مذهبة بخطوط يرى بعضها فى أثر بعض .

(٢) النشب بفتحتين المال والعقار (٣) يعيل : يفتقر

عامر بن الطفيل

هو من الشعراء المجيدين . ومن غرر شعره السائر سير الأمثال قوله :

إني وإنْ كنتُ ابنَ سيّدِ عامرٍ وفارسها المشهور في كلّ مَوْكب (١)
فما سَوّدتني عامرٌ عن وِراثةٍ (٢) أبى اللهُ أنْ أسْمُو بِأمّ ولا أبِ (٣)
ولكنني أحمي حماها وأتقي أذاها وأرمي مَنْ رماها بمنكبي

ويقع قوله هذا في كل اختيار لاشتمال الحسن والجودة على لفظه ومعناه .

أبو الطمحان القيني

واسمه الشرقي بن حنظلة (٤) . قال دعبل : إن أمدحَ بيتٍ قالته العرب في الجاهلية قول أبي الطَمَحان :

وانَّ بني أوس بن لأم أرومة علتْ فوْقَ صَعْبٍ لا ترام مَرَاقِبُهْ
أضاءت لهم أحسابُهم ووجوههم دُجى الليل حتى نظّمَ الجَزْعَ ثاقبُهْ (٥)

وكان أبو بكر الخوارزميّ يقول ربما أردت البكاءَ في بعض مواطنه فيمتنع عليّ فما هو إلاّ أن أنشد أبيات أبي الطَمَحان القيني فيما بيني وبين نفسي حتى ينحل عقد الدمع . وهي هذه : —

ألا عللاني قبلَ صدحِ النوائح وقبل ارتقاء النفسِ فوقَ الجوانح (٦)
وقبل غدٍ يالهفَ نفسي على غدٍ اذا راح أصحابي ولست برائح
اذا راح أصحابي تفيضُ دموعهم وغُودرْتُ في لحدٍ عليَّ صفائحي (٧)

(١) الموكب : كمجلس اسم للجماعة من الناس ركباناً أو مشاة ، أو ركاب الابل للزينة والتنزه (٢) أي ما جعلتني سيد قبيلة بني عامر بالارث عن آبائهم بل سدتهم بأفعالي .

(٣) قوله أبى الله الخ له معنيان أحدهما بمعنى كره وهو المراد هنا . والثاني بمعنى امتنع و (أن أسمو) مفعوله والسمو : العلو ، واستشهد النحاة بهذا البيت على أن النصب على الواو يقدر كثيراً لاجل الضرورة (٤) الصواب « حنظلة بن الشرق » كما تقدم في الجزء الاول ص ٥٥ (٥) راجع الجزء الاول ص ٥٥ و٥٦ (٦) التعليل : تطييب النفس بذكر ما تحب : والجوانح : ضلوع الصدور . وارتقاء النفس : بلوغها التراقي (٧) غودرت : تركت . والصفائح : الحجارة العريضة الرقيقة

يقولون : هل أصلحتم لأخيكم ؟ وما اللحد فى الأرض الفضاء بصالح

والشئ بالشئ يذكر . وذلك أن بعض الأدباء قال : اذا استجلبت ماء العين أيضاً فى وقته فأبى أنشدت قول بعض المحدثين فيما بينى و بين نفسى فما هو إلا أن أمره ببالى وقد جاءت العبرات ! وهو هذا : —

ولتطلعنَّ الشمسُ بعد فراقنا بيضاء لم تأسَفْ على فقداننا

كم من غداةٍ يُستطاب نسيمُها ويدُ البِلى تقضى على أبداننا

الأعشى

واسمه ميمون بن قيس . وكان يقال له (صَنَّاجة العَرَب) لكثرة ما تفنن فى شعره وهو أحد الأربعة الذين وقع الاتفاق على أنهم أشعر العرب ، وقد تقدم ذكرهم (١) . وهو على ساقة الجاهليين ، ومقدمة المخضرمين ، وكان قد أدرك المبعث ومدح النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم غير أنه لم يتوفق للاسلام . فمن أمثاله السائرة قوله فى الخمر :

وكأس شَرِبْتُ على لذّةٍ وأخرى تداويتُ منها بها

لكى يعلم الناس أنّى امْرُؤٌ أتيت المروءةَ مِنْ بابِها

وله البيت الذى وقع الاتفاق على أنه أهجى بيت فى الجاهلية . وهو قوله فى علقمة بن علاثة :

تَبِيتُونَ فى المَشْتَى مِلاءً بُطُونُكُمْ وجَارَاتكُمْ غَرْثَى يَبِتْنَ خَمائِصَا (٢)

ويروى أن علقمة لما قرع سمعه هذا البيت بكى ، وقال : اللهم اخزه واجزه عنى إن كان كاذباً ! ومن غرر شعر الأعشى وأبيات قصائده وواسطة قلائده قوله :

(١) فى ترجمة زهير بن أبى سلمى ج ٣ ص ٩٧ (٢) غرثى : جائعة والرجل غرثان . والخمائص : الضامرات البطون ومفردها خميصة . . وقد كذب الأعشى في هجوه لعلقمه ، فانه كان من أجواد العرب . وقد أسلم وحسن اسلامه .

وان القريبَ مَنْ يقرب نفسه　　لَعَمْرُ أبيكَ الخير لا مَنْ تنسَّبَا

ومَنْ يغترب عن قومه لا يزلْ يرى　　مَصَارِعَ مظلومٍ مجراً ومسحبَا

وتدفن منه الصالحات وإنْ يسئْ　　يكن ما أساء النار فى رأس كَبْكَبَا (١)

ومن أمثاله السائرة قوله

أَلَسْتَ منتهياً عن نَحْتِ أَثْلَتِنَا　　ولستَ ضَائِرَهَا ما أَطَّتِ الابلُ (٢)

كناطحٍ صخرةً يوماً ليفلقَهَا　　فلم يَضِرْهَا، وأوْهى قَرْنَهُ الوَعِلُ (٣)

وقوله

عَوَّدْتَ كِنْدَةَ عادة فاصبرْ لَهَا　　اغفرْ لجاهلها وروِّ سجالها

أو كُنْ لهـا جملاً ذَلُولاً ظهره　　واحمل فأنت معوَّد تحمالها

ومن أمثاله السائرة قوله

إذا أنتَ لم تَرْحَلْ بزادٍ من التقى　　ولاقَيْتَ بَعْدَ المَوْت مَنْ قد تَزَوَّدا

نَدِمْتَ على أن لا تكون كمثلِهِ　　فتَرصِدَ للأمر الذى كان أرصدا (٤)

لبيد بن ربيعة العامرى الانصارى

وهو من الشعراء المخضْرَمين عاش فى الجاهلية ستين سنة ، وفى الاسلام مثلها . وكان عذب المنطق ، رقيق حواشى الكلام . وفى الخبر « أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد :

(١) كبكب كجعفر اسم جبل بمكة ولم يقيده فى الصحاح بمكان وقيده غيره بأنه جبل بعرفات خلف ظهر الامام إذا وقف وقيل هى ثنية . قال الزبيدى : وقد صرفه امرؤ القيس ، والاعشى ترك صرفه (٢) قوله « عن نحت أثلتنا » أى عن ذمنا والطعن فى حسبنا . والاثلة هى الاصل وواحدة الاثل وهى شجرة الطرفاء ، ونحت الاثلة كناية عما تقدم . وضائرها : ضاراً بها . يقال ضاره الامر يضيره بمعنى ضرّبه . وأطت : حنت . يريد انك لا تضرنا أبداً مهما تنقصتنا لان الناس يعرفون حقيقتنا فلا يأبهون لذمك . (٣) قوله « كناطح صخرة » يعنى أنك بعملك هذا كوعل ينطح صخرة ليفلقها وفى رواية « ليوهنها » أي يضعفها . والوعل : حيوان شبيه بالغزال ويقال هو تيس الجبل . (٤) ترصد : أى تترصد وتترقب

الا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ   وكلّ نعيمٍ لا محالةَ زائلُ (١)
سوى جنةِ الفردَوْس إنّ نعيمَها   يدُومُ وان الموتَ لابدَّ نازِلُ »

وسئل لبيد عن أشعر الناس؟ فقال : الملك الضّليل يعنى امرأ القيس، قيل : ثم مَنْ ؟ قال : الغلام القتيل ، يعنى طَرَفة . قيل : ثم مَنْ ؟ قال : صاحب العكاز يعنى الشيخ أبا عقيل ، وهو نفسه ..وسمعَ الفرزدقُ رجلاً ينشد قول لبيد :

وجَلاَ السُّيولُ عن الطُّلولِ كأنها   زُبُرٌ تُجِدُّ مُتونَها أقلامُها(٢)

فسجد ! فقيل : ماهذا يا أبا فراس ؟ فقال : أنتم تعرفون سجدة القرآن وأنا أعرف سجدة الشعر ! وروى أنه لما أنشد قصيدته هذه فى الجاهلية وبلغ قوله :

يعلو طريقةَ مَتْنها مُتَوَاتِرٌ   فى لَيلةٍ كَفَرَ النُّجومَ غمامُها(٣)

سجد له شعراء زمانه ! وقيل لبشار بن برد : أخبرنا عن أجود بيت قالته العرب . فقال ان تفضيل بيت واحد على الشعر كله لشديدٌ ، ولكن قد أحسن كل الاحسان لَبيد فى قوله :

أَكْذِبِ النفْسَ إذا حدَّثْتَها   إنَّ صدقَ النفس يُزْرِى بالأَمَلْ(٤)
وإذا رُمْتَ رحيلاً فارتحلْ   واعْصِ مايأمر توصيم الـكسل(٥)

ومن أمثاله السائرة من قصيدة :

وما المالُ والأَهْلُونَ إلاَّ ودائعٌ   ولا بدَّ يَوْماً أنْ تُرَدَّ الودائعُ
وما المَرْء إلاَّ كالشِّهَابِ وضَوْئِهِ   يَحُورُ رَمَاداً بَعْدَ إذْ هُوَ ساطعُ(٦)

(١) قوله « لامحالة » بفتح الميم أى لاتغيير ولا تبديل . والباطل : هو فى الاصل ضد الحق ، وأراد به هنا الهالك . (٢) جلا : كشف . والطلول جمع طلل وهو الشاخص من آثار الديار . والزبر : جمع زبور وهو الـكتاب . وتجد متونها : تجددها . والمتون جمع متن وهو فى الاصل الظهر والمراد بها هنا الـكتابة التى تكون فى الزبور . ومفعول جلا محذوف والتقدير : جلت السيول التراب عن الطلول . (٣) طريقة المتن : خط من ذنبها الى عنقها والـكفر : التغطية والستر . يقول : يعلو صلبها قطر متواتر فى ليلة ستر غمامها نجومها
(٤) يزرى يقصر (٥) التوصيم : الـكسل والفترة (٦) يحور يرجع . وساطع مرتفع

ومنها

أليس ورائى ـ إن تراخَتْ منيَّتى   لزُومُ العصَا تُحْنَى عليها الأصابعُ
أخبر أخبار القرُون التى مَضَتْ   أدِبُّ كأنّى كلما قمتُ راكعُ
لَعَمْرُكَ مايدرى المسافر هل له   نجاحٌ ولا يدرى متى هو راجع
أتجْزَعُ مما أحدثَ الدهرُ بالفتى   وأىُّ كريمٍ لم تُصبهُ القوارعُ

ومن أمثاله السائرة قوله

ذهبَ الذينَ يُعاشُ فى أكنافهم   وبقيت فى خَلْف كجلد الأجربِ (١)

وقوله

فَقُومَا وقولاَ بالذى قد علمتُمَا   ولا تَخْمِشا خداًّ ولا تَحلقا شَعَرْ
إلى الحوْلِ ، ثم اسمُ السلام عليكما   ومَنْ يبكِ حولاً كاملاً فقد اعتذرْ

وحكى(٢) أنه لم يقل فى الاسلام غير بيت واحد وهو قوله :

الحمدُ للهِ إذ لم يأتنى أجَلى   حتى اكتسيت من الاسلام سربالا(٣)

وحكى ابن دريد : أن لبيداً عاش مائة وخمساً وأربعين سنة : خمساً وخمسين فى الاسلام ، وتسعين فى الجاهلية . وقد كان معاوية همَّ بأن ينقص عطاءه فأرسل إليه « إنما أنا هامة اليوم أو غد(٤) فأعرنى اسمها فلعلى أن لا أقبضها » فمات قبل أن يقبضها . وكانت ابنتاه تأتيان مجلس أبى جعفر فتؤبناه(٥) فلا تألوانِ فبقيتا على ذلك حولاً كاملاً ثم كفتا . وله أخبار طيبة ذكرها ابن قتيبة فى كتاب

(١) يقال فلان فى كنف فلان أى فى ناحيته وخيره . يقول ذهب الكرام الذين ينتفع بهم وبقيت فى قوم لاخير فيهم كجلد الاجرب وجلد الاجرب من الجمال لاينتفع به (٢) هذه الحكاية التى تناقلها المؤلفون خلفاً عن سلف لاتصح بحال . كيف وقد خاطب لبيد حين حضرته الوفاة ابنتيه بأبياته الشهيرة التى أورد منها المؤلف ههنا بيتين وهما قوله فقوما وقولا بالذى تعرفانه الخ ... ؟ (٣) السربال : مايلبس من قميص او درع وقد عزا المحققون هذا البيت الى رجل سلولى من المعمرين . (٤) يقولون هو هامة اليوم اوالغد اى يموت اليوم او غداً (٥) التأبين : الثناء على الشخص بعد موته .

الشعر والشعراء وابن عبد البر فى الاستيعاب وأبو حاتم السجستانى فى كتاب المعمرين .

كعب بن زهير بن أبى سلمى

هو من المُخَضْرَمين . وكان له عند النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ذنب وحين أوعده عليه السلام فقدم عليه وأنشده قصيدته التى يقول فيها :

نُبِّئْتُ أنَّ رسولَ اللهِ أوعدنى والعفو عند رسول الله مأمولُ
إن الرَّسُولَ لَنُورٌ يُستضاء بهِ وصارمٌ من سُيوف اللهِ مسلول

رضىَ عنه وكساه بردته التى اشتراها (معاوية) منه بستمائة دينار ، وهى البردة التى كانت عند الخلفاء يلبسونها فى العيدين . ويقال إن أمير شعره وغرة كلامه قوله ، ويقال إنه لأبيه :

إذا أنت لم تعرض عن الجهل والخنى (١) أصبتَ لئيماً أو أصابكَ جاهل

العلاء بن الحضرمى

وفد العلاء على رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال له : أتقرأ شيئاً من القرآن ؟ فقرأ سورة عبس ، ثم زاد فيها من عنده (وهو الذى أخرج من الحبلى نَسَمَةً تسعى بين شراسيف وحشى (٢)) فقال له رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : كُفَّ فان السورة كافية : ثم قال : أتقولُ شيئاً من الشعر ؟ فأنشده :

وحىّ ذوى الأضغان تسب قلوبهم تحيتك الأدْنى فقد يدبغ النعل (٣)

(١) الخنى : الفحش (٢) النسمة : بفتحتين نفس الريح ثم سميت بها النفس بالسكون . والشراسيف : جمع شرسوف وهو غضروف معلق بكل ضلع او مقط الضلع وهو الطرف المشرف على البطن . (٣) حى : امر من حياه تحية واصله الدعاء بالبقاء والحياة ومنه التحيات لله اى البقاء وقيل الملك ، ثم كثر حتى استعمل فى مطلق الدعاء ثم استعمله الشرع في دعاء مخصوص وهو سلام عليك . وحى على الصلاة ونحوها دعاء . والاضغان : الاحقاد

فان دحسوا بالكره فاعفُ تكرماً وان أخنسوا عنك الحديث فلا تسل [١]

فان الذى يؤذيك منه استماعه وان الذى قالوا وراءك لم يقل

فقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « إن من البيان لسحراً ، وان من الشعر لحكما »

النمر بن تولب العكلى [٢]

عمر فى الجاهلية وأدرك الاسلام وقد خرف ، وكان شاعراً فصيحاً شجاعاً جواداً كريماً . وكان هِجِّيرَاه [٣] فى خرفه أصبحوا الضيف أغبقوا الضيف [٤] كعاداته التى كان عليها . وكانت امرأة فى زمانه خرفت أيضاً فكان دأبها أن تقول : خضبونى كحلونى زوّجونى رجلونى . وبلغ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذلك ، فقال : لما لهج به أخو عكل أكرم مما لهجت به خرفة بنى فلان ومن أمثاله قوله :

يوَد الفتى طول السلامة جاهداً وكيف يرى طول السلامة يَفْعلُ

وقوله

خاطِرْ بنفسك كى تنالَ رغيبةً إنَّ القعودَ مَعَ العيال قَبيحُ [٥]

إنَّ المخاطِرَ مالكٌ أو هالكٌ والجدّ يجدِى مرةً فيريحُ

(١) دحسوا بالكره : دسوا بالشر . وأخنسوا : سكتوا وانقبضوا . (٢) قال المبرد فى الكامل (ج ١ ص ١٠٣ — طبعة التقدم العلمية) : « كل نمر فى العرب كالنمر بن قاسط وغيره مكسور النون مجزوم الميم الا النمر بن تولب عن ابن دريد . قال أبو حاتم يقال النمر بفتح النون وسكون الميم ولا يقال النمر » . وفى الاقتضاب (ص٣٠٣) « كان أبو حاتم يقول النمر بسكون الميم ويزعم أن العرب لاتقوله الا هكذا وهذا الذى ذكره غير معروف » (٣) أى دأبه وشأنه (٤) صبحه : سقاه صبوحاً وهو كل ما أكل اوشرب غدوة . وغبقه سقاه غبوقاً وهو مايشرب بالعشي . (٥) الرغيبة : الامر المرغوب فيه والعطاء الكثير

وقوله

ومتى تُصِبْكَ خصاصةٌ فارجُ الغنى   والى الذى يَهَبُ الرغائبَ فارغبِ (١)
لا تغضبَنَّ على امرئ فى مالهِ   وعلى كرائم أصل مالك فاغضب

حسان بن ثابت

كان شاعرَ النبيّ (صلى الله تعالى عليه وسلم) والمناضلَ عنه ، وله قال (أهج مشركى قريش ومعك روح القدس والله إنّ كلامك لأشَدُّ عليهم من وقع السهام فى غلَس الظلام) . ومن غرر شعره قصيدته التى يقول فيها :

إذا ما الأشْرِباتُ ذُكِرْنَ يوماً   فَهُنَّ لطيِّبِ الرّاحِ الفِدَاء (٢)
ونَشْرَبُهَا فتتركنا ملوكاً   وأُسْداً ما ينهْنِهُنَا اللقاء (٣)

ولما أنشدها رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وانتهى الى قوله :

هجوتَ (محمداً) فأجبتُ عنه   وعند الله فى ذاك الجزاء (٤)

قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم (جزاؤك على الله الجنة) فلما انتهى الى قوله :

فان أبى ووالدَهُ وعرضى   لِعِرْضِ (محمّدٍ) منكم وقاء (٥)

قال عليه الصلاة والسلام (وقاك الله هول المطلع) فلما انتهى الى قوله :

(١) الخصاصة : الفقر والحاجة . والرغائب جمع رغيبة وهي العطاء الكثير . (٢) الاشربات جمع اشربة وهو جمع شراب وهو مايشرب من أى نوع كان وعلى أى حال كان . والراح الخمر وكان حسان (رض) قد ابتدأ هذه القصيدة فى الجاهلية ثم أكملها فى الاسلام من قوله «عدمنا خيلنا ان لم تروها» فلا اعتراض عليه من أنه كيف يذكر فى شعره الخمر ويمدحها . فافهم !
(٣) ينهنهنا : يكفها ويزجرها . وهذا البيت آخر ماقاله رضى الله عنه من هذه القصيدة فى الجاهلية وقد عابه عليه بعض الادباء نزعم أنه فيه قصر فى الفخر فانهم اذا كانت الخمر تجعلهم ملوكا وأسداً فليس فى ذاتهم سيادة وشجاعة وانما استفادوا ذلك من الشرب ! والجواب : أن المقام مقام صفة الخمر لامقام الفخر فالمطلوب هنا انما هو توفيتها حقها واستيفاء صفتها وتعديد ماياتى له مدحها به ولكل مقام مقال ، وكما قيل ان الخمرة تظهر الشجاعة فى الشجاع ولا تحدثها فى الجبان . كذا قالوا .
(٤) يخاطب به أباسفيان بن الحرث فانه كان قبل اسلامه يهجو رسول الله صلى الله عليه وسلم والجزاء المكافاة على الشئ بالخير أو الشر . قال الله تعالى «وجزاء سيئة سيئة مثلها» (٥) الوقاء : بالفتح والكسر ماوقيت به الشئ

أَتَهْجُوهُ ولَسْتَ له بِنِدٍّ   فَشَرُّكُمَا لِخَيْرِكُمَا الفِدَاءُ (١)

قال من حضر : هذا والله أنصف بيت قالته العرب . وكان فى الجاهلية مداحاً لبنى جَفْنَةَ ملوك غسان . ويقال إن من غرر شعره قوله فيهم

أولادُ جَفْنَةَ حَوْلَ قبرِ أبيهم   قبرِ ابنِ ماريةَ الكريمِ المُفْضِلِ (٢)

بِيضُ الوجوهِ نقيةٌ أحسابُهم   شُمُّ الأُنوفِ من الطرازِ الأَوَّلِ (٣)

يُغْشَوْنَ حتَّى ما تَهِرُّ كلابُهمْ   لا يَسْأَلُونَ عن السَّوادِ المُقْبِلِ (٤)

(١) الند : بالكسر المثل ولا يكون الند مخالفاً . والاستفهام للانكار أى ما كان ينبغى لك أن تهجوه ولست من أكفائه ونظرائه فلم تنصفه . وقوله فشركما لخيركما الفداء مع علمه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير منه بلا ريب جار على أسلوب الكلام المنصف وهو أن ينصف المتكلم من نفسه او من يتكلم من جهته فيضطر السامع الى الاذعان له ولا يجد سبيلا لانكاره والمنازعة فيه نحو « وأنا وإياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين » فان من المعلوم أن المتكلم ومن معه على هدى وأن المخاطبين فى ضلال . وإنما أبهم الامر بين الفريقين ليكون أدعى للمخاطب الى الاذعان للحق وترك العناد حيث يرى المتكلم ساوى بينه وبين نفسه وأنصفه . (٢) جفنة أبو ملوك الشام وهو جفنة بن عمرو مزيقياء بن حارثة بن امرئ القيس بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة . وأراد بأولاد جفنة أولاد الحرث الاعرج بن مارية ، وهم النعمان بن المنذر والمنذر وجبلة ، وأبو شمر ، وهؤلاء كلهم ملوك وهم أعمام جبلة بن الايهم، ومارية هى بنت أرقم بن ثعلبة بن عمرو بن جفنة . هذا قول أبى عبيدة وقال ابن الكلبى مثل قوله ثم قال وقالت كندة جماء هى مارية بنت ظالم بن وهب بن الحرث بن معاوية بن ثور بن كندة وقال القعنبى بنت ظالم بن وهب بن الحرث . وقال ابن السكيت هى مارية بنت أرقم بن ثعلبة . وأراد بقوله حول قبر أبيهم أنهم فى مساكن آبائهم ورباعهم التى كانوا ورثوها عنهم (٣) الشمم ارتفاع أرنبة الانف وورودها يقال رجل أشم وامرأة شماء وقوم شم والشمم الارتفاع فى كل شئ فيحتمل أن يكون أراد بشم الانوف ماذكرناه من ورود الارنبة لأن ذلك دليل العتق والنجابة عندهم . ويجوز أن يريد بذلك الكناية عن نزاهتهم وتباعدهم عن دنايا الامور ورذائلها وخص الانوف بذلك لان الحمية والغضب والانفة تكون فيها ولم يرد طول أنفهم وهذا أشبه أن يكون مراده لانه قال بيض الوجوه ولم يرد بياض اللون فى الحقيقة ، وانما كنى بذلك عن نقاء أعراضهم . وجميل أخلاقهم وفعالهم ، كما يقول القائل جاءنى فلان بوجه أبيض وقد بيض فلان وجهه بكذا وكذا وانما يعنى ماذكرناه كما قال ذلك المرتضى . وقوله من الطراز الاول أى أفعالهم أفعال آبائهم وسلفهم وانهم لم يحدثوا أخلاقاً مذمومة لاتشبه نجادهم وأصولهم .

(٤) يغشون بالبناء للمفعول اي يتردد اليهم من غشية اذا جاءه . وهر الكلب اذا صوت وهو دون النباح يعنى أن منازلهم لاتخلو من الاضياف والفقراء فكلابهم لاتهر على من يقصد منازلهم لاعتيادها بكثرة التردد إليها من الاضياف وغيرهم وقوله لايسألون أى هم فى سعة لايسألون كم نزل بهم من الناس ولا يهولهم الجمع الكثير (وهو السواد) اذا قصدوا نحوهم

ومن أمثاله السائرة قوله

رُبَّ علمٍ أضاعَهُ عَدَمُ الما ... ل وجهلٍ غَطَّى عليه النَّعيمُ

ومنها

ما أبالى أنَبَّ بالحَزْنِ تَيْسٌ ... أمْ لحانى بِظَهْرِ غَيْبٍ لَئِيمُ (١)

وواسطة قلادة شعره قوله :

وإنّ امْرَأً يُمْسِى ويُصْبِحُ سالماً ... من النّاسِ إلا ما جَنَى لَسَعِيدُ

فأجازه ابنه (عبد الرحمن) بقوله :

وان امْرَأً نال الغنى ثم لم يَنل ... صديقاً ولا ذا حاجةٍ لَزَهِيدُ

ثم أجازها (سعيد بن عبد الرحمن) بقوله :

وانَّ امْرَأً قد عاشَ سبعينَ حجةً ... ولم يرض فيها رَبَّهُ لَطَرِيدُ

ثم أجازها (أبو الحسن الحسنى) بقوله :

وإن امرأً عادى أناساً على الغنى ... ولم يَسْألِ اللهَ الغِنى لَحَسُودُ

النابغة الجعدى

اختلف فى اسمه على أقوال أصحها أن اسمه قيس بن عبد الله بن وحوح ابن عدس بن ربيعة بن جعدة : وإنما لقب بالنابغة لأنه قال الشعر فى الجاهلية ، ثم أقام نحو ثلاثين سنة لا يقول الشعر ثم نبغ فيه فقاله فسمى النابغة . وهو أسن من النابغة الذبيانى لأن الذبيانىّ كان مع النعمان بن المنذر . وكان النعمان بن المنذر بعد المنذر بن محرِّق . وقد أدرك النابغة الجعدى المنذر بن محرق ونادمه . ذكر عمرو ابن شبة انه عمر مائة وثمانين سنة ، وأنه أنشد عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه :

لَبِستُ أناساً فأفنيتُهُمْ ... وأفنيت بعد أناسٍ أناسا

ثلاثة أهلينَ أفنيتهم ... وكانَ الالهُ هوَ المستآسا (٢)

(١) يقول : قد استوى عندى نبيب التيس بالحزن ونيل اللئيم من عرضى بظهر الغيب ونبيب التيس صوته عند هيابه للسفاد . والحزن ما غلظ من الأرض وخصه لان الجبال ثم أخصب للعز من السهول (٢) المستآس : المستعاض .

فقال له عمر : كم لبثت مع كل أهل ؟ قال : ستين سنة ؛ وقال ابن قتيبة : عمر الجعدىّ مائتين وعشرين سنة . ومات بأصبهان . ولا يدفع هذا مامر فإنه أفنى ثلاثة قرون فى مائة وثمانين سنة . ثم عمر الى زمن ابن الزبير وبعده . قال الثعالبى فى كتابه لباب الأدب : قيس بن عبد الله من المخضرمين المعمرين . وأمير شعره قصيدته التى يقول فيها للنبى صلى الله تعالى عليه وسلم :

أتيت رسولَ اللهِ إذ جاء بالهدى   ويتلو كتاباً كالمجرة نيّرا (١)

بلغنا السماءَ مَجْدنا وجدودنا   وإنّا لنرجو فَوْقَ ذلك مظْهرَا

ولا خَيْرَ فى حلم اذا لم يكن له   بوادر تحمى صفوه أن يكدرا (٢)

فقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم : الى أين يا أبا ليلى ؟ فقال : الى الجنة فقال عليه السلام : إنْ شاء الله ؛ ويروى أنه عليه السلام لما أنشده البيتين قال « لا فضّ الله فاك » فعمر وهو أحسن الناس ثغراً على كبره ولم تفض له سن . ومن غرر شعره قوله فى مرثية صديق له :

فتى كانَ فيه ما يَسُرُّ صَدِيقَهُ   على أنَّ فيه ما يَسُوءُ الأعاديا (٣)

فتى كملت أخلاقُهُ غَيْرَ أنه   جوادٌ فما يُبقى من المال باقيا (٤)

الحطيئة

واسمه جرْوَل بن مالك . كان راويةً لزهير فنجم مقبول الكلام شَرُود القافية خبيث اللسان حتى كان لسانه مقراض الأعراض حتى إنه هجا أباه وأمه وزوجه ونفسه . فمن قوله لأبيه :

(١) النير المضئ . والمجرة البياض المعترض فى السماء والنسران من جانبيها . (٢) البوادر : جمع بادرة وهى ما يبدر من حدتك في الغضب من قول أو فعل وبدأت منه بوادر غضب أى خطأ وسقطات عند ما احتد (٣) فتى منصوب على الاختصاص ولما كان قوله « فيه ما يسر صديقه » يعلم منه أن فى الناس من يجمع الخير دون الشر وخشى أنه إذا سكت على هذه الجملة ظن به القصور من التمام فلا تكون فيه النكاية في الاعداء والاساءة اليهم فتمم وصفه بأن قال على أن فيه ما يسوء الاعاديا (٤) المعنى : واذكر فتى جمع الأخلاق الفاضلة وكلها فما كان يعاب بشئ سوى أنه لم يستبق من ماله شيئاً لما فيه من كثرة الجود وهو كال على كماله الاول .

لَحَاكَ اللهُ ثم لحاك حقاً   أباً ولحاكَ من عمٍّ وخالِ (١)
فنِعْمَ الشيخُ أنت لدى المخازى   وبئسَ الشيخُ أنت لدى المعالى
جمعت اللؤمَ لا حيّاكَ ربّى   بأنواع السفاهة والضلال

وقوله لأمه

فهاهنّ اقعُدى منا بعيداً (٢)   أراحَ الله منكِ العالَمينـا
أغِرْبالاً اذا استودِعْتِ سراً   وكانوناً على المتحدّثينا (٣)

ومن قوله لامرأته

أطوّفُ ما أطوف ثم آتى   الى بيتٍ قعيدتُهُ لَكاعِ (٤)

ومن قوله لنفسه

أبَتْ شفَتاىَ اليومَ إلا تَكلُّماً   بشرٍّ فما أدرى لمن أنا قائلُهْ
أرى لىَ وَجْهاً شوَّهَ الله خلقَهُ   فقُبِّحَ من وَجْهٍ وقُبِّحَ حامِلُهُ

وصب الله به سوط عذاب على الزبرقان بن بدر فإنه أمضَّه بهجائه إياه وأبكاه وأقلقه وأحرقه وسير فيه قصيدته السائرة الطيارة التي يقول فيها :

وقد مَرَيْتُكُمُ لَوْ أنّ دِرَّتُكُمْ   يوماً يجىءُ بها مَسْحى وإبساسى (٥)
أزْمَعْتُ يأساً مريعاً من نَوالكم   ولن ترَى طارداً للحرّ كالياسِ (٦)

(١) لحاه الله : لعنه . (٢) ويروى « تنحى فاجلسى منى بعيداً » . (٣) الغربال : بالكسر ماينخل به ، يريد أنها نمامة قتاتة . والكانون : قيل هو النمام ، وقيل الثقيل : وقيل الذى إذا دخل على القوم كنوا حديثهم منه وقيل هو المصطلى وقيل إنه هو كانون النار لانه يؤذى ويحرق . (٤) أطوف : أكثر الطواف أي الدوران . وآوى مضارع آوى الى منزله اذا أقام به وانضم ولجأ اليه . وقعيدة الرجل : امرأته وهى فعيل بمعنى فاعل ولكاع : خبيثة أو سيئة الخلق أو وسخة وهذا بيت مفرد . والمصراع الاول من قول قيس بن زهير ابن جذيمة :

أطوف ما أطوف ثم آوى   إلى جار كجار أبى دؤاد

(٥) مريتكم : طلبت ما عندكم . وأصله من مريت الناقة وهو أن يمسح ضرعها لتدر . والدرة بالكسر اللبن . والابساس : صوت تسكن به الناقة عند الحلب . يقال بس بس .

(٦) الازماع : تصميم العزم . والبيت من شواهد « مغني اللبيب » أورده على أن بعضهم قال (من) متعلقة بقوله (يأسا) والصواب أن تعلقها بيئست محذوفة لأن المصدر لا يوصف قبل أن يأتى معموله .

مَنْ يفعل الخيرَ لا يعدَمْ جوازيَهُ　　لا يذهبُ العُرْفُ بين الله والناس (١)

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها　　واقعُدْ فأنت لعمرى طاعمٌ كاسى (٢)

ومن غرره فى المدح قوله

أقلّوا عليهم (لا أبا لأبيكمُ)　　من اللوم أو سُدُّوا المكان الذى سَدُّوا

أوائك قومٌ إن بَنَوْا أحسَنُوا البِنا　　وإنْ عاهدوا أوْفَوْا وإنْ عقدوا اشدُّوا (٣)

أبو ذؤيب الهذلى

كان يقال هذيل أشعر القبائل وأبو ذؤيب أشعرها . وأمير شعره قصيدته فى المرثية التى أولها :

أمن المَنُونِ وريْبِهِ تتوجَّعُ　　والدهرُ ليس بمعتبٍ مَنْ يجزعُ ؟ (٤)

وتَجَلُّدِى للشامتينَ أريهم　　أنى لِرَيْبِ الدهرِ لا أتضعضعُ ! (٥)

وبيت القصيدة (وكان الأصمعىّ يقول : هو أبرع بيتٍ قالته العرب) :

والنفس راغبة إذا رغبتها　　واذا تردّ إلى قليل تقنعُ

ومن غرر هذه القصيدة قوله

واذا المنيةُ أنشَبَتْ أظفارها　　ألْفَيْتَ كلَّ تميمةٍ لا تَنْفَعُ

أبو خراش الهذلى

هو من الشعراء المفلقين . وكان له أخ يسمى عروة فقال أبو خراش يَحْمَدُ الله على تخلص ابنه من الأسر وهو أحسن ما قيل فى التسلّى :

(١) الجوازى : جمع جازية أو جاز أو جزاء وبكل فسر قول الحطيئة كذا قال الزبيدى فى التاج
(٢) أورده الفراء فى معانى القران فى سورة هود على أن الكاسى بمعنى المكسو كما أن العاصم فى قوله تعالى « لا عاصم اليوم » بمعنى المعصوم . قال ولا تنكرن أن يخرج المفعول على فاعل ألا ترى أن قوله « من ماء دافق » بمعنى مدفوق و « عيشة راضية » بمعنى مرضية ، ويستدل على ذلك بأنك تقول رضيت هذه المعيشة ودفق الماء وكسى العريان بالبناء للمفعول ولا تقول ذلك بالبناء للفاعل والرواية المشهورة فى الشطر الثانى « واقعد فانك أنت الطاعم الكاسى »
(٣) شدوا : وثقوا (٤) المنون : المنية . وجزع ضعفت منته عن حمل ما نزل به ولم يجد صبراً
(٥) الشامت : الذى يفرح ببلية العدوّ . و تضعضع : خضع وذل وافتقر

حَمِدْتُ إلهى بعد عُرْوَةَ إذْ نَجَا   خِراشٌ وبَعْضُ الشرِّ أَهْوَنُ من بعض (١)
فواللهِ لا أَنْسى قتيلاً رُزِئْتُهُ   بجانبِ قَوْسَى ما مَشَيْتُ على الأرض (٢)
على أنها (٣) تعفو الكُلُوم وإنما   نُوَكَّلُ بالأدنى وإن جلَّ ما يَمْضى (٤)
ولم أدرِ مَنْ أَلْقَى عليه رداءَهُ   على أنه قد سُلَّ عن ماجدٍ مَحْض (٥)
ولم يَكُ مثلوجَ الفؤاد مُهَبَّجاً   أضاعَ الشبابَ فى الرَّبيلة والخفْض (٦)
ولكنَّهُ قد نازَعَتْهُ مجاوعٌ   على أنَّهُ ذو مِرَّةٍ صادقُ النَّهْضِ (٧)

وتزعم الرواة أنها لا تَعْرِف رجلاً مدح من لا يعرف غير أبى خراش وشرح هذه الأبيات مفصل فى شرح ديوان الحماسة ، وكذا فى الجزء الثانى من كتاب خزانة الأدب واب لباب لسان العرب .

المتنخل الهذلى

أمير شعره قوله :

أبو مالكٍ قاصِرٌ فقْرَهُ   على نفسه ومُشيعٌ غِناهُ (٨)

(١) عروة ، أخو الشاعر ، وخراش : ابنه ، والمعنى : أشكر الله بعد ما اتفق من قتل عروة على نجاة خراش وبعض الشر أخف من بعض وكنت أعتقد قتلهما معاً (٢) رزئته : فجعت به ، وقوسى : اسم مكان بالسراة وبه قتل عروة عروة أخوه ، (٣) هذا الكلام يجرى مجرى الاعتذار منه والاستدراك على نفسه فيما أطلقه من قوله « لا أنسى قتيلا رزئته مدة حياتى » والضمير فى (أنها) للقصة وخبر ان الجملة بعدها ، (٤) العفاء : الدروس والذهاب ، والكلوم : جمع كلم وهو الجرح وجل : عظم ، وموضع « على أنها » نصب على الحال . وأراد بهذا تقادم العهد وتطاول الزمن ، (٥) من استفهامية وعلى أنه فى موضع الحال ، والمعنى — لم أتحقق الذي اهتدى لهذه المكرمة فنزع رداءه وألقاه على أخى مع كونه مسلولا عن كريم خالص النسب (٦) مثلوج الفؤاد : بارده ، والمهبج : الذى استرخى لحمه وتغير لونه ، والربيلة : السمن يقول : إنه كان ذكى الفؤاد شهماً لم يكن ممن ضيع شبابه فى الخفض والدعة وصلاح بدنه ، (٧) المجاوع : جمع مجاعة وهى السنة التى يكون فيها الجوع ، وأراد منها هنا المخامص جمع مخمصة وهى خلو البطن من الطعام جوعاً ، وانما أثرت فيه المجاوع لانه اذا سافر آثر صحبه على نفسه بزاده فيجوع ويشبعهم ، والمرة :القوة ، وقوله صادق النهض يريد النهوض إلى المكارم والمعالى لا يكذب فيها اذا نهض اليها (٨) أبو مالك : هو أبو الشاعر واسمه عويمر لان المتنخل اسمه مالك بن عويمر والمتنخل لقبه ، ولم يصب ابن قتيبة فى (الشعر

اذا سُدْتَهُ سُدْتَ مِطْواعةً ومهما وكلتَ اليه كَفَاه (١)

أبو صخر الهذلى

يقال إن أغزل شعر العرب قوله :

أما والذى أبكى وأضحكَ والذى أمات وأحيا والذى أمْرُهُ الأمْرُ (٢)
لقد تَرَكتْنى أحسُدُ الوحشَ أنْ أرى أليفَيْنِ منها لا يَرُوعُهُما الذُّعْرُ
فياحبَّها زِدْنى جَوًى كلَّ ليلةٍ ويا سلوةَ الأيامِ مَوْعِدُكِ الحَشْرُ (٣)
عَجِبْتُ لِسَعْى الدَّهْرِ بينى وبَيْنَها فلما انْقَضَى ما بيننا سَكَنَ الدهرُ (٤)

والشعراء) فى زعمه أنه يرثى أخاه أبا مالك عويمراً . وقاصر من القصر وهو الحبس . ومشيع من الاشاعة وهى الاذاعة — يريد أنه اذا افتقر أخفى فقره واذا أثرى أذاع غناه ليقصد من كل جهة وهذا من شرف النفس .

(١) معنى سدته من المساودة التى هى المساررة والسواد هو السرار أيضاً كانه قال اذا ساررته طاوعك وساعدك ويروى سسته موضع سدته من سست الرعية سياسة . قال المرتضى : ولم أجد ذلك فى رواية ! قلت هذه الرواية أثبتها أبو تمام صاحب الحماسة فى مختار أشعار القبائل . والمطواع : الكثير الطوع أى الانقياد والتاء لتأكيد المبالغة . وقد روى هذا البيت فى مختار أشعار القبائل لذى الاصبع العدوانى ، مع بيتين آخرين وهما :

وما ان أسيد أبو مالك بوان ولا بضعيف قواه
ولكنه هين لين كعالية الرماح عرنساه
فان سسته سست مطواعة ومهما وكلت اليه كفاه

وأسيد بفتح الهمزة وكسر السين المهملة . والعرر: الشديد . والنسا : مقصور عرق يخرج من الورك فيستبطن الفخذين ثم يمر بالعرقوب حتى يبلغ الحافر فاذا سمنت الدابة انفلقت فخذاها بلحمتين عظيمتين وجرى النسا بينهما واستبان واذا هزلت الدابة اضطربت الفخذان ، وماجت الربلتان ، وخفى النسا . واذا قالوا انه لشديد النسا فانما يراد به النسا نفسه . وقال السكرى أراد غليظ موضع النسا . (٢) تكرار القسم للتفخيم ولذلك كان الجواب واحداً وقوله لقد تركتنى هو الجواب . والضمير لحبيبه . وراعه أفزعه والذعر الخوف . (٣) الجوى: حرقة البعد

(٤) عجبت لسعى الدهر : يجوز أنه يريد به سرعة تقضى الاوقات مدة الوصال بينهما فيكون المعنى انى متعجب من الدهر حيث أسرع بتقضى الاوقات مدة الوصال بيننا فلما انقضى الوصل عاد الى حالته فى السكون والبطء وهذه عادتهم فى استقصار أيام الوصل واستطالة أيام الفراق ويجوز أنه يريد بسعى الدهر سعاية أهل الدهر بالنمائم والوشايات وانه لما ارتفع مرادهم فيما طلبوه من الفساد بينهما سكنوا وكما أراد على هذا بسعى الدهر أهله كذلك أراد بسكون الدهر . وقد روى بعد هذه الابيات بيت وهو :

وما هو الا أن أراها فجاءة فأبهت لا عرف لدى ولا نكر

تميم بن مقبل (١)

هو مُخَضْرَمٌ معدود فى الفحول . ومن غرر شعره ما أنشد له دعبل :

فأخلِفْ وأتلِفْ إنمـا المال عارةٌ ... وكُلْهُ مع الدهر الذى هو آكِلُهْ
وأيْسَرُ مفقودٍ وأهونُ هالكٍ ... على الحىّ مَنْ لا يبلغُ الحىّ نائِلُهْ

وقوله

خليلىّ لا تستعجِلا وانظُرا غداً ... عَسَى أن يكونَ الرِفْقُ فى الأمر أرشدا

عبدة بن الطبيب

من مُفْلِقى المخضرمين . وأمير شعره لاميته التى أولها :

هَلْ حبلُ خولةَ بعد الهجر موصولُ ... أَمْ أنت عنها بعيدُ الدار مشغولُ ؟
والمَرْءُ ساعٍ لأمرٍ ليس يُدْرِكُهُ ... والعيش شحٌّ وإشْفاقٌ وتأميلُ

وكان عمر رضى الله تعالى عنه يتعجب من جودة هذا البيت وحسن تقسيمه .

ومن أمثاله السائرة قوله فى مرثية قيس بن عاصم :

وما كانَ قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلْكَ واحدٍ ... ولـكنَّهُ بنيانُ قومٍ تَهَدَّما (٢)

حميد بن ثور

كان من فحول المخضرمين والمعمَّرين وأمير شعره قوله :

أرى بَصَرى قد رابنى بعد صحةٍ ... وحَسْبُكَ داءً أنْ تَصِحَّ وتسلَما
ولن يَلْبَثَ العصرانِ يوماً وليلة ... اذا طلبا أنْ يُدركا ما تيمَّما (٣)
وماهاجَ هذا الشَّوْقَ إلا حمامةٌ ... دَعَتْ ساقَ حُرٍ تَرْحةً وتَرَنُّما (٤)

(١) فى كتاب الشعر والشعراء تميم بن أبى مقبل ، وهو من بنى العجلان الذين هجاهم النجاشى وكان جاهلياً اسلامياً . (٢) الهلك : الموت . (٣) أى ما قصدا .
(٤) ساق حر ذكر القمارى سمى لحكاية صوته فانه يقول ساق حر ساق حر وقد وهم من قال انه الهديل — راجع الجزء الثانى ص ٤٠٤

ومنها فى وصف القمرية

عَجِبْتُ لها أنَّى يكونُ غناؤُها ... فَصِيحاً ولم تَفْغَرْ بمنطِقِها فَمَا (١)

ومن نكت شعره قوله فى وصف الذئب

ينامُ بإحدى مقلتيهِ ويتقى الـ ... أعادى بأخرى فَهْوَ يقظانُ هاجعُ (٢)

متمم بن نويرة

غرة شعره قصيدته التى يرثى بها أخاه مالكاً . وغرتها قوله :

وقالوا أتبكى كلَّ قبرٍ رأيتَهُ ... لِقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكادِكِ (٣)

فقلتُ لهم إنَّ الأسى يبعثُ الأسى ... ذَرُونى فهذا كلُّهُ قبرُ مالكِ (٤)

وقوله فى قصيدته التى يرثى بها مالكاً أيضاً :

وكنّا كندمانَىْ جَذِيمةَ حِقْبةً ... من الدهر حتى قيلَ لَنْ يتصدَّعا

فلما تفرقْنا كأنّى ومالِكاً ... لطولِ اجتماعٍ لم نَبِتْ ليلةً معَا (٥)

دريد بن الصمة

أمير شعره قوله :

أمرتُهُمُ أمرى بِمُنعَرَجِ اللوى ... فلم يَستَبِينوا الرشدَ إلاّ ضُحَى الغَدِ (٦)

وَهلْ أنا إلا من غَزِيَّةَ إنْ غوت ... غَوَيْتُ وإنْ تَرْشُدْ غزيةُ أرشَدِ (٧)

(١) فغر فاه كمنع ونصر فغراً وفغوراً : فتحه . ويعنى بالمنطق بكاءها . (٢) أى هو حذر ، أو هاجم بين اليقظة والهجوع . وروى « يقظان نائم » لكنه يخالف أبيات القصيدة (٣) ثوى بالمكان : أقام به . واللوى والدكادك : اسما موضعين (٤) الأسى : الحزن (٥) ندمانا جذيمة هما مالك وعقيل . ويقال انهما نادماه أربعين سنة ولهما حديث مشهور وفيهما يقول أبو خراش :

ألم تعلمى أن قد تفرق قبلنا ... خليلا صفاء مالك وعقيل

والحقبة المدة من الزمان . (٦) المنعرج : المنعطف واللوى ما التوى واسترق من الرمل يقول أبديت لهم رأيى بمنعرج اللوى ليكونوا على حذر فلم يظهر لهم رشد قولى الا حين أن دهمهم العدو فى الضحى . (٧) هل للنفى وغزية قومه ، والمعنى ما أنا الا من غزية فى حالتى الغى والرشاد فغوايتى ورشادى متعلق بغوايتهم ورشادهم .

قال يونس النحوى : هذا أحزم بيت قالته العرب . وقوله :

ماإنْ رأيتُ ولا سَمِعْتُ به ‌‌ ‌ ‌ كاليوم هانئَ أينقٍ جربِ
متبذلاً تبـدو محاسنه ‌ ‌ ‌ ‌ يَضعُ الهِناءَ مواضع النقب (١)

سويد بن أبى كاهل

غرة كلامه وشعره قوله (٢) :

رُبَّ مَنْ أنضجت غيظاً قلبه ‌ ‌ ‌ ‌ قد تمنى لىَ موتاً لم يُطَعْ (٣)
ويرانى كالشَّجا فى حَلْقه ‌ ‌ ‌ ‌ عسراً مخرجه ما ينتزعْ (٤)
مُزْبِد يخطر ما لم يَرَنى ‌ ‌ ‌ ‌ فاذا أسْمعته صوتى انقمَعْ (٥)
قد كفانى اللهُ مافى نفسه ‌ ‌ ‌ ‌ ومتى ما يكف شيئاً لم يضع

(١) هانئْ اسم فاعل من هنأ الابل يهنأها ويهنئها ويهنؤها هنأً وهناء بكسر الهاء أى طلاها بالهناء وهو ضرب من القطران . وأينق جمع ناقة وجرب جمع أجرب للمذكر وجرباء الانثى والاجرب من به جرب وهو بثور تعلو أبدان الناس والابل . والمعنى ما رأيت هانئْ أينق جرب كالذى رأيته اليوم ولا سمعت به . وكان رأى الخنساء أخت صخر تهنأ ابلاها فقال فيها ذلك ، ثم خطبها من أبيها فعرض عليها ذلك فقالت ما كنت تاركة بنى عمى كأنهم عوالى الرماح ومرتثة شيخ بنى جشم هامة اليوم أو غد . (٢) هذه الابيات من قصيدة طويلة عدتها مائة بيت وثمانية أبيات له مسطورة فى المفضليات ويقال لها (اليتيمة) مطلعها : —

بسطت رابعة الحبـل لنا ‌ ‌ ‌ ‌ فوصلنا الحبل منها مااتسع

(٣) انضاج اللحم : جعله بالطبخ مستويا يمكن أكله ويحسن وهو هنا كناية عن نهاية الكمد الحاصل للقلب ، أو استعارة شبه تحسير القلب واكاده بانضاج اللحم الذى يؤكل . وغيظاً : مصدر غاظه اذا أغضبه . . والنحويون يوردون هذا البيت شاهداً على أن جملة « أنضجت » فى موضع جر على أنها صفة لمن لانها نكرة بمعنى انسان بدليل دخول (رب) عليها . وروى البيت أيضاً : —

ربما أنضجت غيظا قلب من ‌ ‌ ‌ ‌ قد تمنى لى موتا لم يطع

فلا شاهد فيه . وما حينئذ كافة مهيئة لدخول رب على الجملة ومجرور رب هنا فى محل رفع على الابتداء والخبر اما جملة قد تمنى ولم يطع خبر بعد خبر واما لم يطع وجملة قد تمنى صفة ثانية
(٤) الشجا : الغصص ونحوه مقصور يكتب بالالف . (٥) مزبد : من أزبد . وأصل الخطر فى الناس تحريك اليدين فى المشى والاختيال بهما . وانقمع : دخل بعضه فى بعض .

لم يضرني غير أن يحسدني   فهو يَزْقو مثل مايزقو الضُّوَعْ (١)

ويحييني اذا لاقيتُهُ   واذا يخلو له لحمي رتعْ (٢)

كيفَ يرجون سقاطي بعد ما   جلَّلَ الرأسَ مشيبٌ وصلَعْ (٣)

النجاشي الحرثي

هو شاعر أمير المؤمنين عليّ رضى الله تعالى عنه . وأمير شعره قوله :

إني امرؤٌ قلّما أثني على أحَدٍ   حتى أرى بعضَ مايأتي ومايَذَرُ

لا تمدحَنَّ امرَأً حتى تجرِّبَهُ   ولا تذمنَّ من لم يبله الخبرُ

وهذا من أحسن الاحسان

الشماخ بن ضرار

هو من فحول المخضْرَمين . ومن أمثاله السائرة قوله :

لمال المرء يصلحه فيغني   مفاقره أعفّ من القنوع

وغرة شعره قوله في عرابة الأوسى :

رأيتُ عَرَابةَ الأوسيَّ يسمو   الى الخيرات منقطع القرينِ

اذا ما رايةٌ رُفعتْ لمجدٍ   تلَقَّاها عَرَابةُ باليمين

عمرو بن معديكرب

من أمثاله السائرة قوله :

اذا لم تستطعْ أمراً فدَعْهُ   وجاوِزْهُ الى ما تستَطيعُ (٤)

وقوله

ليس الجمالُ بمئزَرٍ   فاعلم وان ردّيتَ بُرْدا

---

(١) الضوع : طائر من طيور الليل كالبومة اذا أحس بالصباح صدح . قال الاعشى يصف فلاة :

لايسمع المرء فيها ما يؤنسه   بالليل الا نئيم البوم والضوعا

ويزقو — يصيح . (٢) رتع : أكل . (٣) السقاط : الفترة . يقول على طريق التعجب . كيف يؤملون فترتي وسقطي وقد بلغت هذه السن ! (٤) راجع الجزء الاول ص ١٦٧ :

إنَّ الجمـالَ مآثرٌ ومناقبٌ أورثْنَ مَجْدا (١)

وقوله

ظَلِلْتُ كأنى للرماح دريَّةٌ أُقاتلُ عن أبناء جَرْمٍ وفرَّتِ (٢)
فلو أنَّ قومى أنطقَتْنى رِماحُهم نَطَقْتُ ولكنَّ الرِّماحَ أجرَّتِ (٣)

عمرو بن الأهتم

أمير شعره ، وغرة كلامه ، قوله :

لَعَمْرُكَ ماضاقتْ بلادٌ بأهلها ولكنَّ أخلاقَ الرجالِ تضيقُ

سحيم عبد بنى الحسحاس (٤)

أحسن شعره قصيدتُهُ التى أولها :

عميرة ودِّعْ انْ تَرَحَّلْتَ غادِيا كفى الشَّيْبُ والإسلامُ لِلْمرْءِ ناهيا

وقوله

أشعار عبد بني الحَسْحاس قُمْنَ له يوم الفَخار مقامَ الأصل والورق (٥)
ان كنت عبداً فنفسى حرة كرماً أو أسودَ الخَلْقِ انى أبيض الخُلُقِ

أبو محجن الثقفى

ليس له أحسن وأفخر من قوله :

لا تسألى الناسَ عن مالى وكثرتهِ وسائلى الناس عن بأسى وعن خُلُقى
هل أطعن الطعنة النجلاء عن عرض وأكتمُ السرَّ فيه ضربة العُنُقِ (٦)

(١) يقول — ليس الجمال فيما تلبسه من الثياب بل ان جمال الانسان فى أصوله الزكية ، وأفعاله الكريمة ، التى تورث الشرف والمجد . (٢) دريئة : عرضة . وفرت : هربت . وجرم : بالفتح قبيلة . (٣) أجرت من الاجرار وهو أن يشق لسان الفصيل ويجعل فيه عود لئلا يرضع أمه . يقول — لو أنهم أبلوا فى الحرب بلاء حسناً لمدحتهم وذكرت بلاءهم ، ولكنهم قصروا فأجروا لسانى فما أنطق بمدحهم والافتخار بهم . (٤) راجع الجزء الثانى ص ٣٢٢ (٥) الورق عند العرب المال من الابل والغنم ، والورق الفضة . (٦) النجلاء : الواسعة الجرح .

كعب بن سعد

أحسن شعره قوله :

وما أنا للشئ الذى ليس نافعى　　ويغضبُ منه صاحبى بِقَؤُول
ولست بمبدٍ للرجال سَرِيرَتى (١)　　ولا أنا عن أسرارهم بِسَؤُول

معن بن أوس

كان من الاسلاميين وأمير شعره قوله :

وفى الناس إن رَثَّتْ حبالُكَ واصلٌ　　وفى الأرض عن دار القِلى مُتَحَوَّلُ
اذا انصرفَتْ نفسى عن الشئ لم تكد　　اليه بوجهٍ آخِرَ الدهرِ تُقْبِلُ (٢)

ومن أمثاله السائرة قوله

أُعَلِّمُهُ الرماية كلَّ يوم　　فلما اشتدَّ ساعِدُهُ رمانى (٣)
أعلِّمه الرواية كلَّ يوم　　فلما قال قافيةً هجانى

كعب بن جعيل

من الاسلاميين المفلقين كان شاعر معاوية ، ومن غرر شعره قوله :

نَدِمْتُ على شتمى العشيرةَ بعدما　　مضَى واستتبّتْ للرواة مذاهبُهْ
فأصبحتُ لا أستطيعُ ردّاً لما مَضَى　　كما لا يرد الدَّرَّ فى الضّرع حالِبُهْ (٤)

(١) السريرة : كالسر . (٢) رثت : ضعفت . والقلى : البغض ، والمعنى واضح . والبيتان من قصيدة له قالها يستعطف بها صديقاً له آلى أن لا يكلمه أبداً وكان معن قد تزوج بأخته فاتفق أنه طلقها ! (٣) قوله « اشتد » بالشين المعجمة ليس بشئ والرواية المشهورة « استد » بالسين المهملة أى استقام . قال ابن برى : هذا البيت ينسب الى معن بن أوس قاله فى ابن أخت له . وقال ابن دريد : هو لمالك بن فهم الازدى وكان اسم ابنه سليمة رماه بسهم فقتله فقال البيت . قال ابن برى : ورأيته فى شعر عقيل بن علفة يقوله فى ابنه عميس حين رماه بسهم وبعده :

فلا ظفرت يمينك حين ترمى　　وشلت منك حاملة البنان

(قلت) — والمشهور أنه لمعن كما عزاه اليه كثير من الأئمة منهم الجاحظ فى البيان والتبيين (ج ٣ ص ١١٨ — طبعة الفتوح الأدبية بمصر) . (٤) البيتان — على ما فى كتاب الشعر والشعراء — لاخيه عمير لا له وذلك أنه هجا قومه بشعر ثم ندم فقال : ندمت على شتمى العشيرة ... الخ .

زياد بن زيد العذرى

أمير شعره قوله :

وَلستُ بمِفراحٍ إذا الدهرُ سرَّنى ... ولا جازعٍ من صَرْفهِ المتقلِّبِ
ولا أتمنَّى الشرَّ والشرُّ تاركى ... ولكن متى أُحمل على الشرِّ أَرْكَبِ!

وقوله

هل الدهرُ والأيامُ إلا كما تَرَى ... رزيةُ مالٍ أو فراقُ حبيبِ !

أبو الأسود الدؤلى

يعدّ فى التابعين والشيعة والفصحاء وأصحاب النحو وفى البخلاء وفى المفاليج
ومن غرر شعره قوله فى عبيد الله بن زياد وقد كساه جبة خزّ :

كساني ولم أستكسه فحمِدْتُهُ ... أخٌ لىَ يُعطيني الجزيلَ وناصرُ
وإنَّ أحقَّ الناسِ إنْ كنتَ مادحاً ... بمدحك من أعطاك والوجهُ وافرُ

ومن أمثاله السائرة قوله

لا تُهِنِّى بعد إذ أكرمتنى ... فشديدٌ حالةٌ منتزعَهْ
لا يكنْ برقُكَ برقاً خُلَّباً ... إنَّ خيرَ البرقِ ما الغيثُ معَهْ (١)

زفر بن الحرث

غرة شعره قوله فى انهزامه يوم مرج راهط :

أيذهَبُ يومٌ واحدٌ إن أسأته ... بصالحِ أيامى وحُسْنِ بلائيا
ولم يرَ منى زلةٌ قبلَ هذه ... فرارى وتركى صاحبى من ورائيا
وقد ينبتُ المرعى على دِمَنِ الثرىٰ ... وتبقى حزازاتُ النفوسِ كما هيا (٢)

(١) الخلب : المطمع المخلف . (٢) الدمن : ما تلبد من السرجين وفى الحديث « إياكم وخضراء الدمن » يريد المرأة الحسناء فى منبت السوء أى لا تتزوجوها . والثرى : التراب الندى . وحزازات النفوس : غيظها

عبد الله بن قيس الرقيات

أمير شعره قوله فى مصعب بن الزبير :

إنما مصعبٌ شهابٌ من الله م تجلّتْ عن وجْهِهِ الظلماء
يتقى اللهَ فى الأمور وقد أفْـــلَحَ مَنْ كانَ همّهُ الإتقاء
ملكه ملك رأفةٍ ليس فيهِ جبروتٌ منه ولا كبرياء

المتوكل الليثى

غُرَّةُ شعره الذى يتمثل بِهِ قولُهُ :

إبْدأْ بنَفْسِكَ فانْهَها عن غَيِّها فاذا انتهتْ عنـه فأنتَ حكيمُ
فهناكَ تعذرإنْ وَعَظْتَ ويقتدا بالقوْلِ منك وينْفعُ التعليمُ
لا تنْهَ عن خُلُقٍ وتأتىَ مثلَهُ عارٌ عليك اذا فعلتَ عظيمُ (١)

وقوله أيضاً

لسنا وإنْ أحسابُنا كَرُمَتْ يوماً على الأحساب نَتَّـكلُ
نبنى كما كانت أوائلُنــا تَبنِى ونَفْعَلُ مثل ما فَعـلوا

هذا آخر ما أحببت ذكره ، من مشاهير الشعراء ، ودرر قلائدهم ، وواسطة عقـد منظومهم ، معرضاً عن استيفائهم ، واستقصاء أحوالهم ، وذكر قصائدهم المنتخبة ، وأسماء مقاطيعهم المعجبة ، حيث قد قضى الأئمة منه الوطر ، واستوعبوا التقاط هاتيك الدرر ، مثنياً عنانَ القلم الى ذكر ماهم من العوائدِ فى الخطب والوصايا ، وماهم من البيان الفصيح لدى الخُطوب والرزايا ، فقد كان ذلك عندهم من أهم العلوم ، وأعظم ما يتنافس به المتنافسون بعد الشعر المنظوم ، فان فيهِ

(١) هذا المعنى من قوله تعالى « أتأمرون الناس بالبروتنسون أنفسكم ؟ » . والبيت وجد فى قصيدة للأخطل ، وفى أخرى لابى الاسود الدؤلى . ونسبه الحاتمى لسابق البربرى ، ونقل السيوطى عن تاريخ ابن عساكر انه للطرماح . قال اللخمى فى شرح أبيات الجمل : الصحيح انه لأبى الاسود ، فان صح ماذكر عن المتوكل فانما أخذه من شعر أبى الاسود والشعراء كثيراً ماتفعل ذلك ...

دقائقَ أنظارهم ، ونتائج أفكارهم ، ومنه تعلم منزلة القوم فى غَوْرِ عقولهم ، وعلوّ درجتهم فى سَعة أذهانهم ، ومن الله (عز اسمه) استمد التوفيقَ

الخطب والوصايا

وما كان من عوائد العرب فيها

من المعلوم ما كان عليه العرب أيام جاهليتهم من الأنفة ، والتفاخر بالاحساب والأنساب ، والمحافظة على شرفهم ، وعلوّ مجدهم وسؤددهم ، حتى حدث ما حدث بينهم من الوقائع والأيام ، والخطوب والمهام ، ولا شك أن كل قوم يتفق لهم مثل ذلك هم أحوج الناس الى ما يستنهض هممهم ، ويوقظ أعينهم ، ويقيم قاعدهم ، ويشجع جبانهم ، ويشدّ جَنانهم ، ويُثير أشجانهم ، ويستوقد نيرانهم ؛ صيانةً لعزهم أن يستهان ، ولشوكتهم أن تستلان ؛ وتشفياً بأخذ الثار ؛ وتحرزاً من عار الغلبة وذلّ الدمار : وكل ذلك من مقاصد الخطب والوصايا ، فكانوا أحوج اليها بعد الشعر لتخليد مآثرهم ، وتأييد مفاخرهم ، وهم أقوم الناس قيلا ، وأقواهم قبيلا ، وأفصحهم لسانا ، وأوضحهم بيانا ، وأهداهم سبيلا ، وأسطعهم برهاناً ودليلا ؛ كما أنهم أعلاهم قدرا ، وأغلاهم درا ، وأسماهم مبنى ، وأسناهم معنى ، وأدقهم فكرا ، وأرقهم سرّا ، وأعرقهم نسبا ، وأعرفهم أبا ، ولذلك كثر فيهم الخطب والخطباء حتى كان لكل قبيلة من قبائلهم خطيب ، كما كان لكل قبيلة شاعر على ما ذكره الجاحظ فى كتاب البيان والتبيين . ولهم خطب يضيق عنها نطاق الحصر ؛ وقد ألف فيها كتب كثيرة : منها كتاب (غاية الأدب [1] فى كلام حكماء العرب) وهو ثلاثة مجلدات ، وكتب أخرى لا يحصرها العد ، وذكر الجاحظ فى البيان نبذةً من خطب الجاهلية والاسلام ، وذكر ان العرب من خطبهم (العجوز) وهى خطبة لآل رقبة ، ومتى تكلموا فلا بدلهم منها أو من

(١) لعله : « الارب » .

بعضها ، و (العذراء) وهي خطبة قيس بن خارجة لأنه كان أبا عذرها [١] ؛ و (الشوهاء) وهي خطبة سحبان وآئل ، وقيل ذلك لها من حسنها ؛ وذلك أنه خطب بها عند معاوية فلم ينشد شاعر ، ولم يخطب خطيب : والخطب والوصايا متقاربان فى المفهوم بَيْدَأَنَّ الخطب إنما يقصدبها قوم لاعلى سبيل التعيين والتخصيص بخلاف الوصايا ، وان الخطب إنما تكون فى المشاهد ، والمجامع ، والأيام ، والمواسم والتفاخر ، والتشاجر ، ولدى الكبراء والأمراء ، ومن الوفود فى أمر مهم ، وخطب ملم ؛ والوصايا بخلافها فى كل ماذكر فلا تكون إلا لقوم مخصوصين فى زمن مخصوص ، على شئ منصوص ؛ وكثيراً مّا كانت تصدر من شخص لعائلته أو سيد لقبيلته عند حلول مرض مخاطر ، أومحاولة نقلة ، أوما شابه ذلك .

وكان للعرب اعتناء بالخطب فى جاهليتهم أكثر من اعتنائهم بها فى إسلامهم ، وكانت لهم فيها عوائد غريبه ، وشؤن عجيبه : فمن عوائدهم فيها أنهم كانوا يتخيرون لها أجزل المعانى ، وينتخبون لها أحسن الألفاظ ؛ تحصيلاً لغرضهم ، ونيلاً لمقصدهم ، فان الألفاظ الرائقة ، والمعانى الجزلةَ ، أوقع فى النفوس ، وأشدّ تأثيراً فى القلوب ، وأيقظ للهمم ؛ ولذلك ورد « ان من البيان لَسِحْراً » على ما سبق . والأذن للكلام البَليغ أصغى واوعى ، والطبع السليم الى كل مستحسن أميل ، والترغيب فى العاجل ، والترهيب فى الآجل ، اللذان هما من أهم مقاصد الخطَابة ومطالبها العالية اذا لم يكونا بعبارات تخلب القلوب ، وتأخذ بمجامعها ، فلا تأثير فيها ولا فائدة منها .

ومن عوائدهم فيها أن الخطيب منهم إذا خطب فى تفاخر وتنافر وتشاجر ، رفع يده ووضعها ، وأدّى كثيراً من مقاصده بحركات يده ، فذلك أعون له على غرضه ، وأرهب للسامعين له ، وأوجب لتيقظهم ، وهو التشذر المذكور فى قول لبيد :

(١) أى أول من افتضها ، وهو مجاز .

غُلْبٍ تَشَذَّرُ بِالذُّحُولِ كأنّها ... جِنُّ البدى البَدِيِّ رواسياً أقدامُها

التشذر رفع اليد ووضعها كما سبق . والذحول جمع ذَحْل بفتح الذال المعجمة وسكون الحاء المهملة وهو الحقد . يقول : هم رجال غلاظ الأعناق كالأسود ، أى خلقوا خلقة الأسود يهدد بعضهم بعضاً بسبب الأحقاد التى بينهم . ثم شبههم بجن ذلك الموضع فى ثباتهم فى الخصام والجدال : يمدح خصومه وكلما كان الخصم أقوى وأشد ، كان قاهره وغالبه أقوى وأشد .

ومن عوائدهم فيها أخذ المِخْصَرَةِ بأيديهم ، وهى ما يتوكأ عليه كالعصا ونحْوِهِ أو ما يأخذه الملك يشير به إذا خاطب ، والخطيب اذا خَطَب ، فلا يخطبون إلا بالمخاصر ؛ وكانوا يعتمدون على الأرض بالقسىّ ، ويشيرون بالعصا والقَنا ؛ ومنهم من كان يأخذ المخصرة فى خطب السلم ، والقسىّ فى الخطب عند الخطوب والحروب . واستشهد الجاحظ فى كتاب البيان ما ذكرناه بكثير من شعرهم .

واستحسن العرب فى الخطيب أن يكون جهير الصوت ، ولذلك مدحوا سَعَة الفم ، وذمّوا صغره ، حتى قيل لأعرابىّ :ما الجمال ؟ قال:طول القامة ،وضخم الهامة (١) ، ورحب الشِّدْق (٢) ، وبعد الصوت. وسئل أبو المخشن عن ابنه المخشن (٣) وكان جزع عليه جزعاً شديداً فقال : كان أشدق خُرْطُمانياً (٤) سائلاً لعابه كأنما ينظر من قلبين . كأن ترقوته بوان أو خالفة (٥) . كأن منكبه كركرة جمل ثقال (٦) ، فقأ الله عينى ان كنت رأيت قبله أو بعده مثله . وقيل لأعرابى : ما الجمال ؟ قال : غؤور العينين ، واشراف الحاجبين ، ورحب الشدقين . وقال الشاعر فى عمرو بن سعيد الأشدق :

تَشَادَقَ حتى مالَ بالقول شِدْقُهُ ... وكلُّ خطيبٍ (لا أبا لك)أشْدَقُ

(١) الرأس (٢) جانب الفم — بالفتح والكسر (٣) فى نسخة : أبو المخش عن ابنه المخش . (٤) كبير الانف (٥) الترقوة : العظم الذى بين ثغرة النحر والعاتق . والبوان : عمود الخيمة . والخالفة : عمود من أعمدة البيت فى مؤخره . (٦) المنكب : مجتمع رأس الكتف والعضد . والكركرة : رحى زور البعير . وجمل ثقال : بطىء امله لضخم جسمه .

وأنشد أبو عبيدة

وَصُلْعِ الرؤوس عِظامُ البُطُونِ ... رِحابُ الشِّدَاقِ طِوالُ القَصَرْ (١)

وقال العجير السلولىّ فى شدة الصوت

ومنهنّ قَرْعِى كلَّ بابٍ كأنما ... به القومُ يَرْجُونَ الأَذِينَ نشورُ (٢)
لجئتُ وخَصْمِى يَصْرِفُونَ نُيُوبَهُمْ ... كما قُصِبَتْ بين الشِّفارِ جَزُورُ (٣)
لدى كلِّ موثوقٍ به عند مثلها ... له قَدَمٌ فى الناطقين خَطِيرُ
جَهِيرٌ وممتدُّ العِنَانِ مُناقِلٌ ... بَصِيرٌ بعورات الكلام خَبِيرُ
فظلَّ رداءُ العَصْبِ ملقى كأنَّهُ ... سَلَى فرسٍ تحتَ الرجالِ عَقِيرُ (٤)
لو أن الصخور الصُّمَّ يسمعن صَلْقَنَا ... لرُحْنَ وفى أعراضِهِنَّ فُطُورُ (٥)

وقال مهلهل

ولولا الريح أُسْمِعَ أهلَ نجدٍ ... صليلَ البيضِ تُقْرَعُ بالذُّكُورِ (٦)

وكان شبيب يصيح فى جنبات الجيش اذا أتاه فلا يلوى أحد على أحد وقال الشاعر فيه :

إنْ صاحَ يوماً حَسِبْتَ الصَّخْرَ مُنْحدراً ... والريحَ عاصفةً والمَوْجَ يَلْتَطِمُ

والشعر فى ذلك كثير . والمقصود أن جهارة الصوت مما يمدح بها الخطيب وتكون من محاسنه

(١) صلع : جمع أصلع وهو الذى انحسر شعر رأسه عن مقدمه ، والقصر : الاعناق .
(٢) يقال أذن له فى الشئ اذنا وأذينا أى أباحه له ـ يقول : كأنما القوم نشور يرجون الاذن .
(٣) النيوب : الاسنان خلف الرباعية واحدها ناب ، والصريف : صوت احتكاكها . وقصبت : قطعت . والجزور : الناقة التى تنحر . والشفار بالكسر جمع شفرة بالفتح وهى المدية .
(٤) العصب برد يصبغ ثم ينسج . والسلى : الجلدة التى يكون فيها الولد من الناس والمواشى وان انقطع فى البطن هلكت الام وهلك الولد . (٥) الصلق : شدة الصوت . والفطور : الشقوق .
(٦) قوله « أهل نجد » يروى موضعه « أهل حجر » وحجر قصبة اليمامة . والصليل : الصوت . والذكور : السيوف التى عملت من حديد غير أنيث . ويروى « نقاف البيض يقرع بالذكور » : ويقال : أول كذب سمع فى الشعر هذا . والبيت : من قصيدة للمهلهل أوردناها فى الجزء الثانى ص ١٥٤ و ١٥٥ .

ومن عوائدهم فى الخطابة أن يكون الخطيب على زى مخصوص فى العمامة واللباس تنويهاً بشأنه وأدخل فى تحصيل الغرض والمقصود. وقد أطنب الجاحظ القول فى كتاب البيان على خطب العرب، وبيان عوائدهم فيها، وما أورده من الشعر شاهداً على دعواه مما يغنى عن ذكره فى هذا المقام

ذكر نبذةٍ من خطباء العرب فى الجاهلية

خطباء العرب أيام الجاهلية كثيرون كثرة شعرائهم؛ غير أن البعض منهم كان يغلب عليه قول الشعر فيعد فى الشعراء، وينتظم فى سلكهم، وآخرين يغلب عليهم منثور الكلام، وفصيح البيان، فيعد من رجال الخطابة شأن كل من غلب عليه معرفة فن من الفنون. فمن نظم الشعر لا يعجزه إنشاء الخطب، وكذلك كثير من الخطباء يعدون من مُفلقى الشعراء. ولما كان أولئك الخطباء لا يحيط بهم نطاق العد والإحصاء؛ ذكرت بعض أفراد منهم هم كالأنموذج لمن سواهم مع ذكر شئ من مستحسن كلامهم. فمنهم:

قس بن ساعدة الأيادى

هو من أشهر الخطباء ذكراً، وأرفعهم قدراً، حيث روى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كلامه، وموقفه على جمله الأورق (١)، وموعظته، وعجب من حسن كلامه، وكفى بذلك فخراً له ولقومه على مدى الايام: فان هذا شرف تنحط دونه رؤوس الاعلام. وفى الحديث: «يرحم الله قساً! إنى لأرجو يوم القيامة أن يبعث أمة وحده». وبذلك يعلم أنه لم يكن على دين من الاديان المشهورة ومن نسبه الى يهودية أو نصرانية فقد لحن فى مقاله، وانحرف عن جادة الصواب وقد سبق له ذكر فيمن كان على التوحيد من العرب، ونقل شئ من كلامه، وكذلك مع الشعراء. ومنهم:

(١) الذى لونه كلون الرماد.

سحبان وائل الباهلي

وهو سحبان بن زُفَر بن إياس الوائلي : وائل باهلة خطيب يضرب به المثل في البيان ، فكانوا اذا أرادوا مدح إنسان بذلك قالوا « هو أخطب من سَحْبان وائل » أدرك الجاهلية ، وأسلم ، ومات سنة أربع وخمسين . وحكى الاصمعي قال كان اذا خطب يسيل عرقاً ، ولا يعيد كلمة ، ولا يتوقف ، ولا يقعدحتى يفرغ . وقدم على معاوية وفد من خراسان فيهم سعيد بن عثمان فطلب سحبان فأتى به ، فقال : تكلم ! فقال : انظروا لي عصاً تقوّم من أودى(١) : فقالوا : وماتصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه وعصاه في يده ! فضحك معاوية ، وقال : هاتوا عصاه ! فأخذها ، ثم قام فتكلم من صلاة الظهر الى أن قامت صلاة العصر ما تنحنح ، ولا سعل ، ولا توقَّف ، ولا ابتدأ في معنى فخرج منه ، وقد بقي عليه شيء فما زالت تلك حالته حتى أشار معاوية بيده فأشار إليه سحبان : أنْ لا تقطع عليَّ كلامي ! فقال معاوية : الصلاة ! فقال : هي أمامك ، ونحن في صلاة وتحميد ، ووعد ووعيد ، فقال معاوية : أنت أخطب العرب ! فقال سحبان : والعجم والإنس والجن ! ومما روى من خطبه البليغة : ان الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار ، أيها الناس فخذوا من دار ممركم ، لدار مقركم ، ولا تهتكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا الى الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حييتم ، ولغيرها خلقتم ، إن الرجل اذا هلك ، قال الناس : ما ترك ؟ وقالت الملائكة : ما قدّم ؟ قال حمزة الاصبهاني في أمثاله في قولهم « هو أبلغ من سَحْبان وائل » : كان من خطباء العرب وبلغائها ، وفي نفسه يقول :

لقد علِمَ الحيُّ اليمانونَ أنني ... اذا قلتُ أما بعدُ أني خطيبُها(٢)

(١) إعوجاجي (٢) وروي صدره « وقد علمت قيس بن عيلان أنني » وقيس : قبيلة كبيرة ولهذا أنث « علمت » له ، وهو في الاصل أبو قبائل شتى وهو لقب واسمه (الناس) بن

وهو الذى قال لطلحة الطلحات[١] الخزاعى :

ياطلح أكرم مَنْ بها حَسَبا وأعطاهم لتالدْ[٢]

منـك العطاء فأعْطنى وعلىَّ مدْحك فى المشاهدْ

فقال له طلحة : احتكمْ ! فقـال : برذونَكَ الوَرد[٣] ، وغلامَكَ الخباز ، وقصرك بِزَرَنْج (وهى مدينة بسجستان) وعشرة آلاف درهم ! فقال طلحة : أُفٍّ لك ! لم تسألنى على قدرى وانما سألتنى على قدرك ، وقدر باهـلة[٤] ، ولو سألتنى كل قصر لى ، وعبد ، ودابة لأعطيتك ! ثم أمر له بما سأل ، ولم يزده عليه شيئاً وقال : تالله ما رأيت مسألة محكم ألأم من هذا ! ومنهم :

دويد بن زيد

ابن نهد بن ليث بن أسود بن أسلم الحميرى

كان من الفصحاء ، ومشاهير الخطباء ، وأوصى بنيه وخطبهم فقال : (أوصيكم بالناس شراً لا ترحموا لهم عـبرة ، ولا تُقيلوا لهم عثرة[٥] ، قصروا الأعنّة ، وأطيلوا الأسنّة ، واطعنوا شزراً[٦] ، واضربوا هبراً[٧] ، واذا أردتم المحاجزة ، فقبل المناجزة[٨] ، والمرء يعجز لا محالة بالجد لا بالـكد[٩] ، التجلد ولا التبلد[١٠]

مضر بن نزار بن معد بن عدنان .. وقد اختلف العلماء فى أول من نطق بأما بعد اختلافا طويلا لا أرى له محلا من الاعراب ! ومن أراده فليطلبه من الشروح والحواشى القديمة ! (١) هو أحد الاجواد المشهورين فى الاسلام ، واسمه طلحة بن عبدالله بن خلف الخزاعى ، وأضيف الى الطلحات لانه فاق فى الجود خمسة أجواد اسم كل واحد منهم طلحة ، وهم : طلحة الخير ، وطلحة الفياض ، وطلحة الجود ، وطلحة الدراهم ، وطلحة الندى . وقيل : كان فى أجداده جماعة اسم كل طلحة . كذا قال ابن الحاجب فى شرح المفصل . والتفصيل فى « خزانة » الامام البغدادى ، وغرر الخصائص . (٢) التالد : كل مال قديم . (٣) البرذون : التركى من الخيل ، والورد : بين الكميت والاشقر . (٤) قبيلة من اخس قبائل العرب — راجع الجزء الثانى ص ١٠٩ (٥) يقال : أقال الله عثرته ، إذا رفعه من سقوطه . (٦) معنى الشزر أن يطعنه من احدى ناحيتيه قال الاصمعى : نظر الىّ شزراً اذا نظر من عن يمينه وشماله وطعنه شزراً كذلك . (٧) قال ابن دريد يقال هبرت اللحم أهبره هبراً اذا قطعته قطعاً كباراً ... (٨) المناجزة فى الحرب المبارزة . (٩) أى يدرك الرجل حاجته وطلبته بالجد وهو الحظ (١٠) أى تجلدوا ولا تبلدوا .

والمنية ولا الدنية [١]، ولا تأسوا على فائت وان عز فقده ، ولا تحنوا الى ظاعن وان ألف قربه ، ولا تطمعوا فتطبعوا [٢] ، ولا تهنوا فتخرعوا [٣] ، ولا يكونن لكم المثل السوء « ان الموصَّيْنَ بنو سَهْوَان [٤] » اذا مت فارحبوا اخط مضجعي [٥] ولا تضنوا [٦] عليَّ برحب الأرض ، وما ذلك بمؤد اليَّ روحاً [٧] ، ولكن حاجة نفس خامرها الإشفاق [٨] ، ثم مات . قال أبو بكر بن دريد في حديث آخر انه قال :

اليوم يُبنَى لِدُوَيدٍ بيتُهُ [٩] ……… يارُبَّ نَهْبٍ صالحٍ حَوَيْتُهُ
ورُبَّ قِرْنٍ بطلٍ أرديتُهُ ……… وربَّ غَيلٍ حسَنٍ لَوَيْتُهُ [١٠]
ومِعصَمٍ [١١] مُخضَّبٍ ثَنَيْتُهُ ……… لو كان للدهر بِلًى أبليتُهُ
أو كان قِرْني واحداً كفيتُهُ

ومن قوله :

ألقى عليَّ الدهرُ رِجلاً ويداً ……… والدهر ما أصلح يوماً أفسدا
يُصْلِحُ ما أفْسَدَهُ اليَوْمَ غَدَا

قال أبو حاتم السجستاني : عاش دويد بن زيد أربعمائة سنة وستاً وخمسين سنة . وقال ابن دريد : إن دويد بن زيد كان من المعمَّرين . قال : ولا تعد العرب معمراً إلا من عاش مائة وعشرين سنة فصاعداً . ومنهم :

---

(١) أى اختار الموت على العار . وهو مثل — قاله أوس بن حارثة — يضرب لمن يختار التلف على قبح الاحدوثة . (٢) الطبع : الدنس . (٣) الوهن الضعف . والخراع والخراعة : اللين ، ومنه سميت الشجرة الخروع للينها . (٤) صوب الميداني في معنى هذا المثل أن يقال : ان الذين يوصون بالشىء يستولي عليهم السهو حتى كانه موكل بهم ، وهو يضرب لمن يسهو عن طلب شىء أمر به . والسهوان : السهو ، ويجوز أن يكون صفة موصوف محذوف أى رجل سهوان وهو آدم عليه السلام حين عهد اليه فسها ونسى . والمعنى ان الذين يوصون لابدع أن يسهوا لانهم بنو آدم عليه السلام . كذا قالوا ولكل وجهة (٥) أرحبوا وسعوا . وخط المضجع : القبر . (٦) أي لاتبخلوا . (٧) راحة (٨) أى خالطتها المحاذرة والخوف . (٩) المراد بالبيت القبر (١٠) القرن : من يقاومك فى علم أو قتال أو غير ذلك . والغيل : بالفتح الساعد الريان الممتلىء (١١) المعصم : موضع السوار من اليد .

زهير بن جناب بن هبل الحميرى

كان سيداً مُطاعاً شريفا فى قومه عاش مائتى سنة وعشرين سنة ، وأوقع مائتى وقعة . ويقال كانت فيه عشرُ خصالٍ لم يجتمعن فى غيره من أهل زمانه : كان سيد قومه ، وشريفهم ، وخطيبهم ، وشاعرهم ، وأوفدهم الى الملوك ، وطبيبهم (والطب فى ذلك الزمان شرف) وحازى (١) قومه (والحزاة الكهان) وفارس قومه ، وله البيت فيهم والعدد منهم . وأوصى الى بنيه وخطبهم فقال : يا بنىّ إنى قد كبرت سنّى وبلغت حَرْساً (٢) من دهرى فأحكمتنى التجارب والأمور تجربة واختبار ، فاحفَظُوا عنى ما أقول وعوه : إيا كم والخور (٣) عند المصائب ، والتوا كل عند النوائب (٤) ، فإن ذلك داعيةٌ للغم ، وشماتةٌ للعدوّ (٥) ، وسوء ظن بالرب ، وإيا كم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه ما سخر قوم قطُّ إلاّ ابتلوا ولكن توقعوها . فان الانسان فى الدنيا غرضٌ (٦) تعاوره (٧) الرماة فمقصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، ثم لابدّ أن يصيبه .

وكان زهير بن جناب على عهد كليب بن وآئل ؛ ولم يكن فى العرب أنطق من زهير ولا أوجه عند الملوك منه ، وكان لسداد رأيه يسمى كاهناً ، ولم تجتمع

---

(١) فى الصحاح : الحازى الذى ينظر فى الاعضاء وفى خيلان الوجه يتكهن انتهى . وقال ابن شميل : الحازى أقل علما من الطارق والطارق يكاد يكون كاهناً والعائف العالم بالامور والعراف الذى يسم الارض فيعرف مواقع المياه ويعرف بأي بلد هو . وقال الليث : الحازى الكاهن حزا يحز ويحزى وتحزى وانشد :

ومن تحزى عاطساً أو طرقا

(٢) قال الزبيدى : الحرس بالفتح الدهر وقيل وقت الدهر دون الحقب وهو مجاز . قال الراجز : « فى نعمة عشنا بذاك حرساً » والجمع احرس بضم الراء انتهى . وقال السيد المرتضى فى اماليه (ج١ ص ١٧٣) : قوله ، حرساً من دهرى — يريد طويلا منه والحرس من الدهر الطويل . قال الراجز : « فى سنية عشنا بذاك حرسا » والسنية : المدة من الدهر (٣) الخور : الجبن والضعف . (٤) التواكل : أن يكل القوم أمرهم الى غيرهم من قولهم رجل وكل اذا كان لا يكفى نفسه ويكل امره الى غيره ويقال رجل وكلة تكلة . والنوائب : المصائب . (٥) الشماتة : اسم من شمت به كفرح يشمت : اذا فرح بمصيبة نزلت به . (٦) الغرض كل ما نصبته للرمى . (٧) أى تداوله .

قضاعةُ إلا عليه وعلى رزاح بن ربيعة . وسمع زهير بعض نسائه تتكلم بما لا ينبغي لامرأة أن تتكلَّمَ عند زوجها به فنهاها ، فقالت له : اسكتْ عني وإلاَّ ضربتك بهذا العمود ! فوالله ما كنت أراك تسمع شيئاً ولا تعقله ! فقال عند ذلك :

ألا يالَقَوْمي لا أرى النجمَ طالعاً ... ولا الشمسَ إلا حاجبي بيميني
مُعَزِّبتي عندَ القفَا بعمودِها ... تكون نكيري أنْ أقولَ ذَرِيني (١)
أميناً على سرّ النساء وربما ... أكونُ على الأسرار غيرَ أمين
فللموتُ خيرٌ من حِداجٍ مُوَطَّأٍ ... مع الظعن لا يأتي المَحَلَّ لحِينِ (٢)

وهو القائل

أبنيَّ إنْ أهلِكْ فقد ... أورثتُكُمْ مجداً بَنِيَّهْ
وتركتُكمْ أبناءَ سا ... داتٍ زِنادُكُمُ وريَّهْ (٣)
مِنْ كلِّ ما نال الفتى ... قد نِلتُهُ إلا التحيَّهْ (٤)
ولقد رَحَلْتَ البازلَ الـ ... ـكَوْماءَ ليس لها وَليَّهْ (٥)
وخطبتُ خطبةَ حازمٍ ... غيرِ الضعيفِ ولا العَيِيَّهْ

---

(١) قوله : معزبتي — يعني امرأته . يقال معزبة الرجل وحليلته وزوجته : كل ذلك امرأته . والسر : خلاف العلانية ، والسر ايضاً النكاح . قال الحطيئة :

ويحرم سر جارتهم عليهم ... ويأكل جارهم انف القصاع

وقال امرؤ القيس

الا زعمت بسباسة اليوم انني ... كبرت وألا يحسن السر امثالي

وكلام زهير يحتمل الوجهين جميعاً لانه اذا كبر وهرم لا تهيبه النساء ان تتحدث بحضرته باسرارهن تهاوناً به او تعويلاً على ثقل سمعه وكذلك هرمه وكبره يوجبان كونه اميناً على نكاح النساء لعجزه عنه .
(٢) الحداج : مركب من مراكب النساء . والظعن والاظعان : الهوادج ، والظعينة : المرأة في الهودج ولا تكون ظعينة حتى تكون في هودج والجمع ظعائن . وانما خبر عن هرمه وان موته خير من كونه مع الظعن في جملة النساء . (٣) يروى بدل ابناء (ارباب) والزناد جمع زند وزندة وهما عودان يقدح بهما النار (راجع ص١٦٧ من الجزء الثاني) وكنى بزنادكم ورية عن بلوغهم ما رامهم . تقول العرب : وريت بكم زنادي اى بلغت بكم ما احب من النجح والنجاة . ويقال للرجل الكريم واري الزناد . (٤) التحية : الملك فكأنه قال : من كل ما نال الفتى قد نلته الا الملك ، وقيل التحية ههنا الخلود والبقاء . (٥) البازل : الناقة التي بلغت تسع سنين فهي اشد ما تكون ولفظ البازل في الناقة والجمل سواء . والكوماء : العظيمة السنام . والولية : برذعة تطرح على ظهر البعير تلي جلده .

فالموتُ خيرٌ للفتى فليهلِكَنْ وبه بقيَّهْ
من أنْ يرى الشيخ البَجَالَ وقد يُهادَى بالعَشيَّهْ (١)

وهو القائل

ليتَ شعرى والدهرُ ذو حَدَثان أىَّ حينٍ منيّتى تلقانى
أسُباتٌ على الفراش خفاتٌ أم بكفَّىْ مفجَّعٍ حرَّان (٢)

وقال حين مضت له مائتا سنة من عمره :

لقد عُمِّرْتُ حتى لا أبالى أَحتفى فى صباحى أم مسائى (٣)
وحقٌّ لمنْ أتت مائتان عاماً عليهِ أن يَمَلَّ من الثَّوَاءِ (٤)

ومنهم :

مرثد الخير الحميرى

وهو مرثد الخير بن يَنْكَف بن نوف بن مَعْدِيكَرِب بن مُضْحِي . وكان قَيْلاً حَدِباً على عشيرته ، مُحِبّاً لصلاحهم . وكان من أفصح الفصحاء ، وأخطب الخطباء . قال أبو بكر بن دريد : وكان سُبَيْع بن الحرث أخو عَلَس وعَلَس هو ذو جدَن ، وميثم بن مثوب بن ذى رُعَيْن تنَازَعا الشرف حتى تشَاحنا (٥) وخيف أن يقع بين حَيَّيْهما شرٌّ فيتفانى جِذْماها (٦) فبعث اليهما مَرْثد فأحضرهما ليُصلح بينهما ! فقال لهما : إنَّ التخبُّطَ (٧) وامتطاءَ الهجَاج (٨) ، واستِحقْاب اللَّجَاج (٩) ،

(١) البجال : كسحاب ، المبجل اوهو الشيخ الكبير السيد العظيم مع جمال ونبل . ويهادى : يماشيه الرجال فيسندونه لضعفه والتهادي المشي الضعيف . (٢) السبات: سكون الحركة . والخفات : الضعيف ايضا يقال : خفت الرجل اذا اصابه ضعف من مرض اوجوع . والحران : العطشان الملتهب وهو ههنا المحزون على قتلاه . (٣) الحتف : الهلاك (٤) الاقامة

(٥) من التشاحن وهى العداوة . (٦) الجذم : الأصل (٧) قال أبو بكر : التخبط ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة . (٨) قال المجد : ركب هجاج كقطام ويفتح آخره — ركب رأسه . (٩) الاستحقاب : استفعال من الحقيبة أو من الحقاب فأما الحقيبة فما يجعل فيه الرجل متاعه من خرج أو غيره وحقيبة الجمل التى تكون وراء الرحل تحشى تبناً أو حشيشاً . وهذا مثل إما أن يكون أراد أنه احتزم باللجاج ، أو جعله فى وعائه .

سَيَقِفُكُما على شَفَاهُوَّةٍ . فى تَوَرُّدِها بَوَارَ الأَصِيلَةِ (١) ، وانقطاعُ الوَسِيلَةِ . فَتَلافَيَا أمركما قبلَ انتكاثِ العَهْد (٢) وانحلال العَقْد ، وتَشَتُّتِ الألفة ، وتباين السُّهمة (٣) ، وأنتما فى فُسْحَةٍ رافهة (٤) ، وقدم واطدة (٥) ، والمودة مُثْرِية (٦) . والبُقْيا مُعْرِضة (٧) ، فقد عرَفتم أنباءَ مَنْ كان قبلكم من العرب ممن عصَى النَّصيح ، وخالف الرشيد ، وأصغى الى التقاطُع ، ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوء سعيهم . وكيف كان صَيُّورُ (٨) أمورهم ، فَتَلافَوُا القَرْحة قبلَ تفَاقُمِ الثأى (٩) ، واستفحال الداء (١٠) ، وإعواز الدواء ، فانه اذا سُفِكَت الدماء ، استحكمت الشحناء ، واذا استحكمت الشحناء ، تَقَضَّبَتْ عرَى الإبقاء (١١) ، وشمل (١٢) البلاء . فقال سبَيْع : أيها الملك ! إن عداوة بنى العَلاَّت (١٣) ، لا تُبرئها الأساة (١٤) ، ولا تَشْفِيها الرُّقاة ، ولا تَستَقِلُّ بها الكُفَاة ، والحسد الكامِن ، هو الداء الباطن ، وقد عَلِمَ بَنُو أبينا هؤلاء أنَّا لهم رِدْءٌ (١٥) إذا رَهِبُوا ، وغيث اذا أجْدَبُوا ، وعَضُدٌ إذا حاربوا ، ومَفْزَع اذا نُكِبُوا ، وإنا وإياهم كما قال الأول وهو أوس بن حَجَر :

إذا ما عَلَوْا قالوا أبُونا وأمنا ... وليس لهم عالِينَ أمٌّ ولا أبُ

فقال ميثم : أيها الملك ! ان من نَفِس على ابن أبيه الزَّعامة ، وجَدَ بَهُ فى المَقَامة (١٦) واستكثر له قليل الكرامة ، كان قَرِفاً (١٧) بالملامة ، ومُوَنَّباً على ترك الاستقامة وإنَّا واللهِ ما نعتدّ لهم بيدٍ إلاَّ وقد نالهم منَّا كِفَاؤها ، ولا نذكرُ لهم حسنة الا وقد تَطَلَّع منا اليهم جزاؤها ، ولا يَتَفَيَّأ لهم علينا ظِلُّ نعمةٍ إلاَّ وقد قوبلوا

---

(١) شفا البئر والوادى والقبر وما أشبهها : حافته ، والهوة ما انهبط من الأرض أو الوهدة الغامضة منها . والبوار : الهلاك . والأصيلة والأصل واحد (٢) الانتكاث : الانتقاض (٣) القرابة (٤) أى ناعمة من الرفاهية (٥) ثابتة (٦) أى متصلة مأخوذة من الثرى وهو التراب الندى ، يقال : ثريت بك : أى كثرت بك (٧) أى ممكنة قد أمكنت من عرضها أى جنبها وناحيتها (٨) الصيور : الامر الذى يرجع اليه (٩) القرحة : الجرح . ويقال تفاقم الثأى بينهم اذا وقعت بينهم جراحات وقتل (١٠) اشتداد الداء (١١) تقضبت : تقطعت (١٢) عمَّ (١٣) بنو العلات : بنو أمهات شتى من رجل واحد لأن التى تزوجها على أولى قد كانت قبلها ناهل ثم عل من هذه (١٤) الأطباء واحدهم آسٍ . (١٥) عون (١٦) جدبه : عابه ، والمقامة : المجلس . والمجلس : الناس . (١٧) خليقاً

بِشَرْواها (١) ، ونحن بنو فحل مُقْرَم (٢) لم تقعدْ بنا الأمهات ولا بهم ، ولا تنزعنا أعراق السُّوء ولا إياهم ، فعلامَ مَطُّ الخدود ، وخَزْرُ العيون (٣) ، والجخيف والتَّصعُّر (٤) ، والبأوُ والتكبر : ألكثرة عَدَد ، أم لفضل جَلَد ، أم لطول مقتعد ؟ وإنَّا وإياهم لكما قال الأول (وهو ذو الأصبع العَدْوانيّ) :

لاهِ ابنُ عمِّكَ لا أفضَلْتَ فى حَسَبٍ عَنِّى ولا أنتَ دَيَّانى فتَخزُونى (٥)

ومقاطعُ الأمور ثلاثة : حربٌ مبيرة ، أو سِلْمٌ قريرة ، أو مُداجاةٌ وغَفيرة (٦) ، فقال الملك : لا تُنْشِطوا (٧) عُقُلَ الشوارد ، ولا تُلقحوا العُونَ القواعد (٨) ، ولا تُؤَرِّثوا (٩) نيران الأحقاد ، ففيها المَتْلَفَةُ المستأصِلَةُ ، والجائحة والاليلة (١٠) وعَفُّوا بالحِلْم ، أبلاد (١١) الكَلْم ، وأنيبوا الى السبيل الأرشد ، والمَنْهَج الأقصد ، فان الحرب تُقْبِلُ بِزِبْرِجِ الغُرور (١٢) وتُدْبِر بالويل والثُّبور ، ثم قال الملك :

ألا هل أتى الأقوام بَذْلى نصيحةً حَبَوْتُ بها منى سُبَيْعاً ومِيثما (١٣)
وقلت اعلَما أن التَّدابُرَ غادَرَتْ عواقبُهُ للذلِّ والقُلِّ جُرْهُما (١٤)
فلا تَقْدَحا زند العُقوق وأبقيا على العِزةِ القعساء أن تتهدما (١٥)
ولا تجنيا حرباً تَجُرُّ عليكما عواقبها يوماً من الشر أشأما

(١) بمثلها (٢) أى سيد شريف والمقرم فى الاصل البعير الذى لا يحمل عليه ولا يذال وإنما هو للفحلة (٣) الخزر : أن ينظر الرجل الى أحد عرضيه يقال إنه ليتخازر لى اذا نظر اليه بمؤخر عينه ولم يستقبله بنظره (٤) الجخيف : التكبر ومثله البأو ، والتصعر : هو أن يعرض المرء بوجهه عن الناس فى ناحية من الكبر (٥) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٣٣٨ (٦) المداجاة : المساترة ، والغفيرة : الغفران والعرب تقول ليست فيهم غفيرة أى لا يغفرون (٧) لا تحلوا (٨) هذا مثل وأصله فى الابل يقال لقحت الناقة اذا حملت وألقحها الفحل ثم ضرب ذلك مثلاً للحرب اذا ابتدأت ، والعون : جمع عوان وهى الثيب ويقال للحرب عوان اذا كان قد قوتل فيها مرة بعد مرة (٩) أى لا تذكوا (١٠) الجائحة : الاستئصال ، والأليلة : الثكل (١١) الابلاد : الآثار واحدها بلد ، والكلم : الجرح . (١٢) الزبرج بالكسر الزينة من وشى أو جوهر (١٣) حبوت : أعطيت (١٤) الذل : الذلة ، والقل : القلة (١٥) القعساء : الثابتة

فإن جُناة الحرب للحَيْن عُرْضةٌ   تفوِّقهم منها الذُّعافَ المقشَّما[1]

حَذارِ فلا تَسْتَنْبِثُوها فإنها   تغادرُ ذا الأنفِ الأشمِّ مكشَّما[2]

فقالا : لا أيها الملك ! بل نَقْبَلُ نُصْحَك ، ونطيع أمرك ، ونطفى الثائرة[3] ونَحُلُّ الضغّائن . ونثوبُ إلى السلم . ومنهم :

الحرث بن كعب المذحجى

كان الحرث هذا من أفصح خطباء زمانه ، قد سلم له طول باعه فى البلاغة وعلو شأنه . قال أبو حاتم السجستانى : جمع الحرث بن كعب بنيه لما حضرته الوفاة فقال « يابنى قد أتت علىَّ ستونَ ومائة سنة ماصافحت بيمينى يمين غادر ولا قنعت نفسى بخلة فاجر ، ولا صبوت بابنة عم ولا كنَّة[4] ولاطرحت عندى مومسة قناعها[5] ، ولا أبحت لصديق بسر ، وإنّى لعلى دين شعيب النبى (عليه السلام) وما عليه أحد من العرب غيرى وغير أسد بن خزيمة وتميم بن مر ، فاحفظوا وصيتى ، وموتوا على شريعتى . . . إلهكم فاتقوه يكفيكم المهم من أموركم ، ويصلح لكم أعمالكم . وإياكم ومعصيته لايحل بكم الدَّمار[6] ، ويوحش منكم الديار ... يابنىّ كونوا جميعاً ولاتفرقوا فتكونوا شيعاً ، وبزُّوا قبل أن تبزوا ، وان موتاً فى عزّ ، خير من حياةٍ فى ذل وعجز ، وكل ماهو كائن كائن ، وكل جمع إلى تباين ؛ والدهر ضربان : فضرب رخاء ، وضرب بلاء ، واليوم يومان: فيوم حبرة[7] ويوم عبرة ، والناس رجلان : فرجل معك ورجل عليك . . وزوجوا الا كفاء ، وليستعملن فى طيبهن الماء ، واياكم والورهاء[8] فانها أدوأ الداء ،

(١) تفوقهم : تسقيهم الفواق وهو ما بين الحلبتين كأنه يحلب حلبة ثم يسكت ثم يحلب أخرى . والذعاف بالضم السم ، والمقشم : المخلوط ، والحين : الهلاك . (٢) قوله « ولا تستنبثوها » مثل ، أى لا تخرجوا نبيثها وهو مايخرج من البئر اذا حفرت . يريد لاتثيروا الحرب ، والمكشم : المقطوع . (٣) الهائجة (٤) الصبوة : رقة القلب ، والكنة : امرأة أخى الرجل وامرأة ابن أخيه . (٥) المومسة : الفاجرة البغى وأراد أنه لم تبتذل عنده وتنبسط كما تفعل مع من يريد الفجور بها . (٦) مثل الهلاك وزناً ومعنى (٧) فرح وسرور (٨) الحمقاء

وتجنبوا الحمقاء ، فان ولدها الى أفن يكون[1] الا إنه لاراحة لقاطع القرابة ، واذا اختلف القوم أمكنوا عدوهم منهم ، وآفة العدد اختلاف الكلمة ، والتفضل بالحسنة يقى السيئة والمكافأة بالسيئة دخول فيها . وعمل السوء يزيل النعماء ، وقطيعة الرحم ، تورث الهم ، وانتهاك الحرمة ، يزيل النعمة ، وعقوق الوالدين يُعقب النكد ، ويَمْحَقُ العدد ، ويخرب البلد ، والنصيحة تجر الفضيحة ، والفضيحة[2] والحقد يمنع الرفد[3] ولزوم الخطيئة ، يعقب البلية ، وسوء الرعة[4] ، يقطع أسباب المنفعة ، والضغائن تدعو إلى التباين ، يابنى إنى قد أكلت مع أقوام وشربت ، فذهبوا وغبرت ، وكأنى بهم قد لحقت » . ثم أنشأ يقول : —

« أكلت شبابى فأفنيته وأنضيت من بعد دهرى دهورا[5]
ثلاثة أهلينَ صاحبتهُمْ فبادوا وأصبحت شيخاً كبيرا[6]
قليلَ الطعام عسيرَ القيامِ قد ترك الدهرُ خَطْوِى قصيرا
أبيتُ أراعى نجومَ السماءِ أقلِّبُ أمرى بُطوناً ظهُورا »

ومنهم :

قيس بن زهير العبسى

كان هذا أيضاً من ذوى الفصاحة والبيان ، وعذوبة المنطق وذرب اللسان[7] ومن أخباره ومستحسن كلامه ، مارواه ابنُ الكلبىّ ، قال : لما كان بعد يوم الهباءة جاور قيس بن زهير العبسى النمر بن قاسط ، فقال لهم « انى جاورتكم ، واخترتكم ، فزوجونى امرأةً قد أدبها الغنى . وأذلَّها الفقر ، فى حسب وجمال ، فزوجوه (ظبية) ابنة (الكيس النَّمَرى)[8] وقال لهم « إن فىَّ خلالاً ثلاثاً :

(١) الافن : الحمق (٢) هذا يشبه أن يكون معناه ان النصيح اذا نصح لمن لا يقبل نصيحته ، ولا يصغى الى موعظته ، فقد افتضح عنده لأنه أفضى اليه بسره ، وأباح بمكنون صدره . (٣) العطاء (٤) يقال فلان حسن الرعة والتورع أى حسن الطريقة
(٥) أنضيت أبليت (٦) بادوا : ذهبوا وانقطعوا . (٧) أى فصاحة اللسان .
(٨) يأتى ذكره فى النسابين قريباً .

إني غيور ، وإني فخور ، وإني آنف . ولست أفخر حتى أبدأ ، ولا أغار حتى أرى ولا آنف حتى أظلم » فرضوا أخلاقه. فأقام فيهم حتى ولد له . فلما أراد الرحيل عنهم قال « اني موصيكم بخصال وناهيكم عن خصال : عليكم بالأناة فان بها تدرك الحاجة وتنال الفرصة ، وتسويد من لا تعابون بتسويده ، وعليكم بالوفاء فان به يعيش الناس وباعطاء من تريدون إعطاءه قبل المسألة ، ومنع من تريدون منعه قبل الالحاح وإجارة الجار على الدهر ، وتنفيس المنازل عن بيوت اليتامى ، وخلط الضيف بالعيال ، وأنهاكم عن الغدر ، فانه عار الدهر ، وعن الرهان فانى به ثكلت مالكاً أخي ، وعن البغي فانه قتل زهيراً أبي ، وعن الإعطاء في الفضول فتعجزوا عن الحقوق ، وعن السرف في الدماء فان يوم الهباءة ألزمني العار ، ومنع الحرم إلا من الاكفاء ؛ فان لم تصيبوا لهن الأكفاء فان خير منا كحهن القبور أو خير منازلها ؛ واعلموا أني كنت ظالماً مظلوماً : ظلمني بنو بدر بقتلهم مالكاً أخي وظلمتهم بأن قتلت من لا ذنب له »

ثم رحل عنهم الى غمار فتنصر بها وعف عن المآكل حتى أكل الحنظل الى أن مات . ومنهم :

الربيع بن ضبيع (١) الفزاري

كان من الخطباء الجاهليين، وقد أدرك زمن الاسلام لأنه كان من المعمرين. ويقال إنه بقي الى أيام بني أمية . وروى أنه دخل على عبد الملك بن مروان فقال له : يا ربيع ! أخبرني عما أدركت من العمر والمدى ورأيت من الخطوب الماضية . فقال أنا الذى أقول :

هاأنا ذا آمُلُ الخلودَ وقَدْ   أدْرَكَ عقلي ومولدي حُجُرا (٢)

فقال : قد رويت هذا من شعرك وأنا صبيّ ! قال : وأنا القائل :

(١) كذا ، وفي الاصابة « طبعة السعادة » ضبع ، وفي الاقتضاب ص ٣٦٩ وأمالي المرتضى ج ١ ص ١٨٣ والدرر اللوامع ج ١ ص ٢١٠ : (ضبع) . (٢) يريد بحجر أبا امرئ القيس

إذا عاش الفَتَى مائتين عاماً ... فقد ذَهَبَ اللذاذةُ والفَتَاءُ (١)

قال : قد رويت هذا من شعرك وأنا غلام ! وأبيك يا ربيع لقد طلبك جد غير عاثر ، ففصل لى عمرك ! قال : عشت مائتى سنة فى فترة عيسى عليه السلام ، وعشرين ومائة فى الجاهلية ، وستين فى الاسلام ! قال : أخبرنى عن فتية فى قريش متواطئى الأسماء ! قال : سل عن أيهم شئت ! قال : أخبرنى عن عبد الله بن عباس . قال : فهم وعلم ، وعطاء جذم (٢) ، ومقرى ضخم (٣) . قال : فأخبرنى عن عبد الله بن عمر . قال : حلم وعلم ، وطول كظم ، وبعد من الظلم . قال : فأخبرنى عن عبد الله بن جعفر . قال : ريحانة طيب ريحها ، لينٌ مسها ، قليل على المسلمين ضرها . قال : فأخبرنى عن عبد الله بن الزبير . قال جبل وعر ، ينحدر منه الصخر ، قال : لله درك يا ربيع ما أعرفَكَ بهم ! قال : قرب جوارى ، وكثرة استخبارى . . قال السيّد المرتضى فى كتابه غرر الفوائد : ان كان هذا الخبر صحيحاً فيشبه أن يكون سؤال عبد الملك له انما كان فى أيام معاوية لافى ولايته ، لأن الربيع يقول فى الخبر عشت فى الاسلام ستين سنة وعبد الملك ولى فى سنة خمس وستين من الهجرة فان كان صحيحاً فلا بد مما ذكرناه ، فقد روى أن الربيع أدرك أيام معاوية . ويقال إن الربيع لما بلغ مائتى سنة قال :

ألا أبلغْ بنىَّ بنى رَبيعٍ ... فأشرارُ البنينَ لكم فِداءُ

بأنى قد كَبِرتُ وَدقَّ عَظْمى ... فلا تشغَلْكُمُ عنى النساءُ

فإنَّ كَنائنى لنساء صدقٍ ... وما آلى (٤) بَنِىَّ ولا أساؤا

اذا كانَ الشتاءُ فأدفئونى ... فانَّ الشيخَ يَهْدِمُهُ الشِتاءُ (٥)

---

(١) قوله « مائتين عاماً » الوجه حذف النون وخفض عام الا أنها شبهت للضرورة بالعشرين ونحوها مما يثبت نونه وينصب مابعده ، وروى أيضا « تسعين عاماً » ولا ضرورة فيه على هذا ، ولكنها رواية لا تصح . . . (٢) سريع ، وكل شئ تسرعت فيه فقد جذمته

(٣) المقرى : الاناء الذي يقرى فيه . (٤) ما قصر (٥) يستشهد النحاة بهذا البيت على مجئ (كان) فى حال تمامها بمعنى حدث . ويهدمه من هدمت البناء وروى يهرمه أى يضعفه .

وأمَّا حينَ يذهبُ كلُّ قُرٍّ ... فسِرْبالٌ خفيفٌ أو رداء[1]

اذا عاشَ الفتى مائتين عاماً ... فقد ذَهَبَ اللذاذةُ والفتاء

وقال حين بلغ مائتين وأربعين سنة :

أصبح منّى الشبابُ قد حَسِرَا ... إن كان ولّى فقد نَوَى عُصُرا

وَدَّعنَا قبلَ أنْ نُوَدِّعَهُ ... لما قَضَى من جماعنا وطَرَا

ها أنا ذا آمُلُ الخُلودَ وقد ... أدرك عقلى ومولدى حُجُرا

أبا امْرِىء القيس هل سمعت بهِ ... هيهاتَ هيهاتَ ! طالَ ذا عُمُرا[2]

أصبحتُ لا أحملُ السّلاحَ ولا ... أملكُ رأسَ البعير إن نَفَرَا

والذئبُ أخشاه إن مَرَرْتُ به ... وحدى وأخشَى الرياحَ والمَطَرا

من بعدِ ما قُوَّةٍ أُسَرُّ بها ... أصبحت شيخاً أعالج الكِبَرا

قوله عطاء جذم : أى سريع وكل شىء أسرعت فيه فقد جذمته ، وفى الحديث : اذا أذنت فترسل واذا أقمت فأجذم . والمقرى الإناء الذى يقرى فيه . وقوله : ما آلى بنىّ ولا أساؤا ، أى لم يقصروا والآلى المقصر . ومنهم :

أبو الطمحان القينى

واسمه حنظلة بن الشرقى من بنى كنانة بن القين . قال أبو حاتم : عاش أبو الطمحان القينى مائتىْ سنة فقال فى ذلك :

حَنَتْنى حانيات الدهر حتى ... كأنى خاتلٌ أدنو لِصَيْدِ

قريبُ الخطوِ يَحْسبُ من رآنى ... ولستُ مُقَيَّداً — أنى بقيدِ

قال أبو حاتم السجستانى: وحدثنى عدة من أصحابنا أنهم سمعوا يونس بن حبيب ينشد هذين البيتين ، وينشد أيضاً :

تقارَبَ خطوُ رِجْلِكَ يادريد[3] ... وقَيَّدَكَ الزمانُ بشرِّ قيد

(١) القر : البرد . والسربال بالكسر ما يلبس من قميص أو درع (٢) أى ما أطول هذا العمر
(٣) فى أمالى المرتضى (ج ١ ص١٨٦) : « ياسويد »

« وهو القائل »

وإنّى من القومِ الذينَ هُمُ هُمُ إذا ماتَ منهم سيّدٌ قامَ صاحِبُهْ
نجومُ سماءٍ كلّما غابَ كوكبٌ بَدَا كوكبٌ تأوى اليه كواكبُهْ (١)
أضاءتْ لهم أحسابُهم ووُجوهُهم دُجى الليلِ حتى نظَّمَ الجَزْعَ ثاقبُهْ (٢)
وما زال مِنْهم حيث كان مُسَوَّدا تَسيرُ المَنَايا حَيْثُ سارَتْ كتائبُهْ

ومعنى البيتين الأولين يُشبِه قول أوس بن حَجَر (٣) :

اذا مُقْرَمٌ منّا ذَرَا حدّ نابه تخمَّطَ فينا ناب آخرَ مُقْرَم (٤)

ولطفيل الغنوى مثل هذا المعنى وهو قوله :

كواكبُ دُجْنٍ كلما انقضَّ كوكبٌ بدا وانجلَتْ عنه الدُّجنّةُ كَوْكَبُ (٥)

وقد أخذ هذا المعنى الخزيمى فقال :

اذا قمرٌ مِنّا تغوّرَ أو خَبَا بدا قمر فى جانب الأفق يَلْمَعُ

ومثل ذلك

خِلافةُ أهلِ الأرض فينا وِراثةٌ اذا ماتَ منّا سيّدٌ قام صاحبُه

ومثله

اذا سَيّدٌ منا مَضَى لسبيلِهِ أقامَ عَمودَ الملكِ (٦) آخَرُ سيِّدُ

ومنهم :

ذو الاصبع العدوانى

قد ذكرنا نبذةً من أحواله فى الكلام على حكام العرب (٧) ، وكما كان من

(١) راجع ص ١٢٨ من هذا الجزء . (٢) راجع الجزء الأول ص ٥٦ (٣) بفتحتين وليس في أسماء الاشخاص على هذا البناء غير هذا (٤) المقرم : الرجل الشريف ، والتخمط : الاخذ والقهر بغلبة كذا فى التاج ، وفى الاساس : تخمط ناب البعير ظهر وارتفع . وأنشد البيت (٥) الدجن والدجنة : الظلمة . وانقض : سقط .
(٦) فى نسخة « الدين » (٧) ج ١ ص ٣٣٥

حكامهم فهو من أفصح خطبائهم ؛ فلذلك اقتضى المقام إيراد شئ من مستحسن كلامه . قال أبو الفرج الاصبهانى فى كتابه الأغانىّ : ولما احتضر ذو الاصبع دعا ابنه أسيد فقال له : « يابنىّ إن أباك قد فنى وهو حىّ ، وعاش حتى سَئِمَ العيش ؛ وإنى مُوصيك بما إن حفظته بلغت فى قومك ما بلغته فاحفَظْ عني ؛ أَلِنْ جانبك لقومك يحبُّوكَ ، وتواضَع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وَجْهَك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشئ يسوّدوك . وأكرم صغارهم كما تكرم كبارهم يكرمك كبارهم ويكبر على مودتك صغارهم ، واسمح بمالك ، واحم حريمك ، واعزز جارك ، وأَعِنْ من استعان بك ، وأكرم ضيفك ، وأسرع النهضة فى الصريخ ، فان لك أجلاً لا يعدوك . وَصُنْ وجهك عن مسألة أحدٍ شيئاً فبذلك يتم سؤددك »

ثم أنشأ يقول

أأسيدُ إنْ مالاً ملكْـ ... تَ فَسِرْ بِهِ سَيْراً جميلا
آخِ الكرامَ إن ستطعتَ ... م الى إخائِهم سبيــلا
واشْرَبْ بكأسهم وانْ ... شربوا به السّمَّ الثميلا(١)
أَهِنِ اللئامَ ولا تكُنْ ... لإخائهم جَمَلاً ذَلُولا
إنَّ الـكرامَ إذا تؤا ... خيهمْ وَجَدْتَ لهم قبولا
وَدَعِ الذى يَعِدُ العشير ... ة أنْ يسيلَ ولن يسيلا
أبنىَّ إنَّ المـالَ لا ... يبكى اذا فقد البخيلا !

ومنهم :

الاوس بن حارثة

قال أبو بكر بن دريد : حدثنى عمى عن أبيه عن هشام بن محمد بن السائب الكلبى عن عبد الرحمن بن أبى عَبْس الأنصارىّ قال . عاش الأوس بن حارثة دَهراً وليس له ولد إلا مالك وكان لأخيه الخزْرَج خمسةُ أولاد : عمرو . وعَوْف

(١) المنقع

وُجشم. والحرث . وكعب . فلما حضره الموت قال له قومه : قد كنا نأمرك بالتزويج فى شبابك فلم تَزَوَّجَ حتى حضرك الموت ! فقال الأوس : لم يهلكْ هالك ترك مثل مالك ، وان كان الخزرج ذا عَدَد ، وليس لمالك ولد ، فلعلَّ الذى استخرج العَذْقَ من الجريمة (١) ، والنار من الوَثيمة (٢) أن يجعل المالك نسلا ، ورجالاً بُسْلا (٣) ، يامالك ! المنيّة ولا الدنيّة (٤) ، والعِتاب قَبْلَ العقاب (٥) ، والتجلُّد لا التبلُّد ، واعلم أن القبْر ، خيرٌ من الفقر ، وشرُّ شاربٍ المُشْتَفُّ (٦) وأقبح طاعمٍ المُقْتَفُّ (٧) . وذهاب البصر ، خير من كثير من النظر ، ومن كرم الكريم ، الدفاعُ عن الحريم ، ومَنْ قلَّ ذَلَّ : ومن أمِرَ فَلَّ (٨) ؛ وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة والدهر يومان : فيوم لك ويوم عليك ، فاذا كان لك فلا تبطَرْ ، واذا كان عليك فاصبِرْ ، فكلاهما سينْحسِرْ ، فانما تعزّ من ترَى ويعزّك من لا ترَى . ولو كان الموت يُشْتَرَى اسلم منه أهل الدنيا ، ولكن الناس فيه مُسْتَوُون : الشريف الابلج . واللئيم المُعَلْهَجُ (٩) ، والموت المفيت ، خير من أن يقال لك : هبيت (١٠) وكيف بالسلامة ، لمن ليست له إقامة ، وشر من المصيبة سوء الخلَف ، وكل مجموع إلى تَلَف ، وحياك الهك »قال : فنشر الله من مالك بعدد بنى الخزرج أو نحوهم .

ومنهم :

(١) العذق : النخلة نفسها بلغة أهل الحجاز ، والجريمة النواة (٢) قال أبو على القالى : هى الموثومة المربوطة يريد به قدح حوافر الخيل النار من الحجارة . والعرب تقسم بهذا الكلام فتقول : لا والذى أخرج العذق من الجريمة والنار من الوثيمة لا فعلت كذا وكذا انتهى، وللعرب فى الجاهلية أيمان كثيرة ألف فيها النجيرى رسالة، نشرت مؤخراً فى المجلد الاول من مجلة (الزهراء) فى القاهرة . (٣) البسل : الشجعان (٤) راجع ص ١٥٢ من هذا الجزء (٥) مثل يضرب فى النهى عن التسرع الى الشر . (٦) المستقصى (٧) الآخذ بعجلة . (٨) يعنى : من قلّ أنصاره غلب ، ومن كثر أقرباؤه فلّ اعداءه . . يقال أمر القوم اذا كثر عددهم . (٩) هو المتناهى فى الدناءة واللؤم . (١٠) الهبيت : الأحمق الضعيف .

اكثم بن صيفى التميمى

قد ذكرت نبذة لطيفة من ملحه ، وفصيح كلامه ، عند الكلام على حكام العرب . وقد اقتضى المقام ايراد شئ من كلامه ، المزرى بعقد الدرّ ونظامه فمن ذلك قوله يخطب قومه بنى تميم ويوصيهم : يابنى تميم لايفوتنكم وعظى انفاتكم الدهر بنفسى ، ان بين حَيْزُومى(١) وصدرى لكلاماً لا أجدُله مواقع الا أسماعكم ولا مقارّ الا قلوبكم ، فتلقوه بأسماع مصغية ، وقلوب واعية ، تحمدوا مغَبّتَه(٢) الهوى يقظان ، والعقل راقد ، والشهوات مطلقة ، والحزم معقول ، والنفس مُهملة والروية مقيدة ، ومن جهة التوانى وترك الروية يتلف الحزم ؛ ولن يعدم المشاور مرشدا ؛ والمستبدُّ برأيه موقوف على مداحض الزلل ، ومن سمع سمع به ، ومصارع الرجال تحت بروق الطمع ؛ ولو اعتبرت مواقع المحن ما وجدت إلا مقاتل الكرام ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سَلَكَ الجَدَدَ أمِنَ العِثار(٣) ولن يعدمَ الحسود أن يتعب قلبه ، ويشغل فكره ، ويورث غيظه ، ولا تجاوز مضرته نفسه ، يابنى تميم! الصبر على جرع الحلم أعذب من جناء ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف(٤) للذم ؛ وكَلِمَ اللسان أنكى من كَلْم السِّنان(٥) ؛ والكلمة مرهونة مالم تنجم(٦) من الفم ، فاذا نجمت فهى أسد مِحْرَب(٧) ، أو نار تلهب ؛ ورأى الناصح اللبيب دليل لايجوز ، ونفاذ الرأى فى الحرب ، أجدى من الطعن والضرب .

وكان (يزيد بن المهلب) يسلك طريقة الاكثم بن صيفى فى خطبه ووصاياه وحكمه ونصائحه فانها أحسن مسالك البلغاء ، وارشق أساليب الفصحاء ، فمن ذلك

(١) الحيزوم : الصدر أو وسطه . (٢) أى عاقبته . (٣) مثل يضرب فى طلب العافية والجدد : الارض المستوية . (٤) أى انتصب كالغرض يرمى بالاقاويل . (٥) أنكى : أشد نكاية أى جرحاً واثخاناً ، وكلم السنان : جرحه وهو نصل الرمح . (٦) تنجم : تخرج (٧) بكسر الميم شديد الحرب

ما أوصى به ابنه مخلداً حين استخلفه على جرجان (١) ، وهو قوله : يابنى إنى قد استخلفتك على هذه البلاد ، فانظر هذا الحى من اليمن فكن لهم كما قال الشاعر

اذا كُنتَ مرتادَ الرجالِ لنفعهم فَرِش واصْطَنِع عند الذين بهم ترمي (٢)

وانظر هذا الحى من ربيعة فانهم شيعتك وأنصارك ، فاقض حقوقهم ، وانظر هذا الحى من تميم فامطرهم ولا تزه لهم ، ولا تدنهم ، فيطمعوا ، ولا تُقْصهم فيقطعوا ، وانظر هذا الحى من قيس فانهم أكفاء قومك فى الجاهلية ، ومناصفوهم المنابر فى الاسلام ، ورضاهم منك البشر . يا بنى ! إن لأبيك صنائعَ فلا تفسدها فانه كفى بالمرء نقصاً أن يهدم ما بنى أبوه ! وإياك والدماءَ فانها لا بُقْيَة معها ، وإياك وشتم الأعراض فان الحرَّ لا يرضيه عن عرضه عوض ، وإياك وضرب الابشار فانه عارٌ باقٍ ووتر مطلوب ؛ واستعمل على النجدة والفضل دون الهوى ، ولا تعزل إلا عن عجز أو خيانة ، ولا يمنعك من اصطناع الرجل أن يكون غيرك قد سبقك اليه ، فانك إنما تصطنع الرجال لفضلها ، وليكن صنيعك عند من يكافئك عنه العشائر ، احمل الناس على أحسن أدبك يكفوك أنفسهم ، واذا كتبت كتاباً فأكثر النظر فيه ، وليكن رسولك فيما بينى وبينك من يفقه عنى وعنك ، فان كتاب الرجل موضع عقله ، ورسوله موضع سره ، واستودعك الله فلا بد للمودع أن يسكت ، وللمشيع أن يرجعَ ، وماعف من المنطق وقلَّ من الخطيئة ، أحبُّ الى أبيك ! وكذلك سلك هذا المسلك المحمود

قيس بن عاصم المنقرى

فمن خطبه الرشيقة ، ووصاياه الأنيقة ، قوله يوصى بنيه : يابنىَّ خذوا عنى فلا أحد أنصح لكم منى ؛ اذا دفنتمونى فانصرفوا الى رحالكم فسوِّدوا أكبركم فان القوم اذا سوَّدوا أكبرهم خلفوا أباهم ، واذا سودوا أصغرهم ازدرى ذلك بهم

(١) مدينة مشهورة عظيمة بين طبرستان وخراسان . (٢) راجع ص ١١٤ من هذا الجزء .

فى أكفائهم ؛ وإياكم ومعصية الله وقطيعة الرحم : وتمسكوا بطاعة أمرائكم ، فانهم من رفعوا ارتفع ، ومن وضعوا اتضع ؛ وعليكم بهذا المال فأصلحوه فانه منبهة للكريم ، وجُنَّة لعرض اللئيم (١) ، وإياكم والمسألة فانها اخر كسب الرجل وأن أحداً لم يسأل إلا ترك الكسب ، وإياكم والنياحة فانى سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينهى عنها ؛ وادفنونى فى ثيابى التى كنت أصلى فيها وأصوم ، ولا يعلم بكر بن وائل بمدفنى ؛ فقد كانت بينى وبينهم مُشاحنات فى الجاهلية والاسلام ، وأخاف أن يدخلوا عليكم بى عاراً ، وخذوا عنى ثلاثَ خصال : إياكم وكلَّ عرقٍ لئيم أنْ تلابسوه فانه إن يسرركم اليوم يَسؤكم غداً ، واكظموا الغيظ ، واحذروا بنى أعداء آبائكم فانهم على منهاج آبائهم ! ثم قال :

أحْيا الضَّغائنَ آباءٌ لناسلفوا فلن تَبِيد وللآباء أبْناء (٢)

قال ابن الكلبى : فيحكى الناس هذا البيت سابقاً للزبيرى وما هو الا لقيس ابن عاصم . ومنهم:

عمرو بن كلثوم التغلبى

فانه كما كان يعد من فحول الشعراء ، كذلك كان من مصاقع الخطباء ؛ وله فى هذا الباب كلام حسن ، على أسلوب مستحسن ؛ من ذلك قوله يخاطب بنيه : يابنيَّ إنى قد بلغت من العمر ما لم يبلغ أحد من آبائى وأجدادى . ولا بد من أمر مقتبل ، وأن ينزل بى ما نزل بالآباء والأجداد . والأمهات والاولاد فاحفظوا عنى ما أوصيكم به : إنى والله ماعيرت رجلاً قطُّ أمراً إلا عير بى مثله ؛ إن حقاً فحقاً وإن باطلا فباطلا ، ومن سَبَّ سُبَّ ؛ فكفوا عن الشتم فانه أسلم لأعراضكم وصلوا ارحامكم تعمر داركم . وأكرموا جاركم يحسن ثناؤكم ، وزوجوا بنات العم بنى العم ، فان تعديتم بهن الى الغرباء ، فلاتألوا بهن الاكفاء ؛ وأبعدوا بيوت

(١) الجنة : كل ماوقى . (٢) الضغائن : الاحقاد . وتبيد : تنقطع .

النساء من بيوت الرجال فانه أغضُّ للبصر ، وأعف للذكر ، ومتى كانت المعاينة واللقاء ، ففى ذلك داء من الأدواء ، ولا خير فيمن لا يغار لغيره كما يغار لنفسه ، وقلَّ من انتهك حرمةً لغيره الا انتهكت حرمته ، وامنعوا القريب ، من ظلم الغريب ، فانك تذل على قريبك ، ولا يحمل بك ذل غريبك ، واذا تنازعتم فى الدماء ، فلا يكن حقكم للقاء ، فرب رجل خير من ألف ، وود خير من حلف ، واذا حُدِّثتم فَعُوا . واذا حدَّثتم فأوجزوا ، فان مع الإكثار يكون الإهذار ، وموت عاجل ، خير من ضنًى آجل ، وما بكيت من زمان ، الا دهانى بعده زمان ، وربما شجانى ، من لم يكن أمره عنانى ، وما عجبت من أحدوثة ، الا رأيت بعدها أعجوبة . واعلموا أن أشجع القوم العطوف ، وخير الموت تحت ظلال السيوف ، ولا خير فيمن لا روية له عند الغضب ، ولا فيمن اذا عوتب لا يعتب ، ومن لا يرجى خيره ، ولا يخاف شره . فبكؤه خير من دَرِّه [١] ، وعقوقه خير من مره ، ولا تبرحوا فى حبكم فانه من أبرح فى حب آل ذلك الى قبيح بغض . وكم زارنى إنسان وزرته ، فانقلب الدهر بنا فبرته . واعلموا أن الحليم سليم ، وأن السيف كليم ، إنى لم أمُتْ ولكن هَرِمْت ، ودخلتنى ذلة فسكت ، وضعف قلبى فاهترت [٢] ، سلمكم ربكم وحياكم ! وقد ذكرت نبذة من غرر شمائل عمرو المذكور عند ذكر شعراء العرب . ومنهم :

نعيم [٣] بن ثعلبة الكنانى

كان يخطب العرب فى الموسم ، وينقادون لأوامره ويمتثلونها وينتهون عما نهى عنه . وهو أول من نسأ الشهور . قال أبو بكر الأنبارى : كانوا إذا صدروا من (منى) قام رجل يقال له نعيم بن ثعلبة من بنى كنانة . فقال : أنا الذى لا أعاب

---

(١) يقال : بكأت الناقة بكأ وبكاءة وبكوأ وبكاء اذا قل لبنها . والدر : اللبن . (٢) اهتر : خرف وذهب عقله من كبر أو مرض أو حزن . (٣) لم أقف فيما بين يدى بين الامهات والاصول على ما يؤيد صحة هذا الاسم الا فى أمالى القالى . وورد فى بعضها نقيم بالفاء فليحقق

ولا يرد لى قضاء! فيقولون : أنسئنا شهراً أى أخّر عنا حرمة المحرم فاجعلها فى صفر. وذلك أنهم كانوا يكرهون أن تتوالى عليهم ثلاثة أشهر لا يمكنهم الإغارة فيها لأن معاشهم كان من الاغارة فيحل لهم المحرم ويحرم عليهم صفراً ، فاذا كان فى السنة المقبلة حرم عليهم المحرم وأحلّ لهم صفراً . فقال الله عز وجل « انَّما النسِيءُ زِيادةٌ فى الكُفْرِ » وقال الشاعر :

أَلَسْنَا الناسِئِينَ على معدّ ... شهور الحلّ نَجْعلها حراما؟

وقال آخر

وكُنّا الناسئِينَ على معدٍّ ... شُهُورَهُمُ الحَرامَ إلى الحَلِيل

وقال آخر

نسأوا الشهورَ بها وكانوا أهْلَها ... من قبلكم والعِزُ لم يتَحوَّلِ

وقد استوعبنا الكلام على النسىء فى الاعمال التى أبطلها الاسلام ، والمقام اقتضى ايراد شىء منه . ومنهم :

أبو سيارة العدوانى

وهو رجل من بنى عدوان اسمه عميلة بن خالد الأعزل . وكان أحد خطباء العرب المذكورين وكان له حمار أسود أجاز الناس عليه من المزدلفة الى منى أربعين سنة . وكان يقول : (١) أشرقْ ثبير ، كيما نغير (٢) ويقول : لاهمَّ إنى بائع بياعه ، إن كان إثم فعلى قضاعه . لاهم مالى فى الحمار الاسود . أصبحت بين العالمين أحسد . هلا يكاد ذو البعير الجلعد (٣) فقِ أبا سيارة المحسد من شر كل حاسد اذا حسد . ومن اذاة النافثات فى العقد . اللهم حبب بين نسائنا . وبغض بين رعائنا . واجعل المال فى سمحائنا . وفيه يقول الشاعر :

(١) راجع الجزء الاول ص٢٤٨ . (٢) أى نسرع الى النحر . (٣) الصلب الشديد

خلّوا الطريقَ عن أبى سيّارَهْ ... وعن موا ليه بنى فَزَارَهْ
حتى يجيز سالماً حماره ... مستقبل القبلة يدعو جارَهْ
فقد أجار الله من أجاره

وكان خالد بن صفوان والفضل بن عيسى الرقاشيّ يختاران ركوب الحمير على ركوب البراذين ويجعلان أبا سيارة لهما قدوة . ومنهم :

الحرث بن ذبيان بن لجا بن منهب اليمانى

كان من مشاهير خطباء العرب وفصحائهم فى عصره ؛ وله كلام مستحسن تكلم به فى المجامع والمشاهد العظيمة ، والخطوب الصعبة . روى أبو بكر بن دريد بسنده الى ابن الكلبى عن أبيه قال : اجتمع طَرِيف بن العاصى الدوسى وهو جدّ طفيل ذى النورين بن عمرو بن طريف والحرث بن ذُبيان بن لجا بن منهب وهو أحد المعمَّرين عند بعض مَقَاوِل (١) حِمْيَر فتفاخرا فقال الملك للحرث : ياحارث ألا تخبرنى بالسبب الذى أخرجكم عن قومكم حتى لحقتم بالنَّمِر بن عثمان ؟ فقال : أخبرك أيها الملك ؛ خرج هَجِينانِ منّا يرْعَيان غنماً لهما فَتَشَاولا (٢) بسيفيهما ، فأصاب صاحبهم عَقِبَ صاحبنا فعاث (٣) فيه السيف فَنُزِفَ (٤) فماتَ ، فسألونا أخذ دية صاحبنا دية الهَجِينَ (٥) وهى نصف دية الصَّرِيح (٦) ، فأبى قومى وكان لنا رِباء (٧) عليهم فأبينا إلا دية الصريح وأبوا إلاّ دية الهجين . وكان اسم هجيننا ذهين بن زَبْراء واسم صاحبهم عَنْقَش بن مُهَيْرة ، وهى سوداء أيضاً (٨) فتفاقم (٩) الأمر بين الحيَّيْن ، فقال رجل منا :

(١) المقاول والاقيال هم الذين دون الملك الاعظم (٢) تضاربا (٣) أى أفسد والعيث الفساد (٤) سال دمه حتى ضعف (٥) الذى أبوه عربى وأمه ليست عربية (٦) الخالص (٧) الرباء : الزيادة يقال أربى فلان على فلان فى السباب يربى ارباء اذا زاد عليه (٨) كذا فى الاصل ولم يتقدم الحكم على شئ بالسواد فلعله سقط من قلم الناسخ عند قوله : زبراء « وهى سوداء » أنظر أمالى القالى ج١ ص٧٣ (٩) اشتد

حُلُومَكُمُ (ياقوم) لا تُعْزِبُنَّها ولا تَقْطَعوا أَرحامَكم بالتَّدَابُرِ [١]
وأَدُّوا الى الأقوام عَقْلَ ابن عمهم ولا تُرْهِقوهم سُبَّةً فى العشائرِ [٢]
فان ابن زَبْراءَ الذى فادَ لم يكن بدون خُلَيْفٍ أو أُسيد بن جابرِ [٣]
فان لم تُعاطوا الحقَّ فالسيفُ بيننا وبينكم والسيفُ أَجْوَرُ جائرِ

فَتَضافروا علينا حسداً فأجمع ذَوُو الحجا منا أن نَلْحق بأمنع بطن من الأزد فلحقنا بالنمر بن عثمان ، فوالله ماقتَّ [٤] فى أعضادنا نأينا منهم [٥] ، ولقد أَثْأَرْنا [٦] بصاحبنا وهم راغمون . فوثب طريف بن العاصى من مجلسه فجلس بازاء الحرث، ثم قال : تاللهِ ما سَمِعْتُ كاليوم قولاً أَبعد من صواب ، ولا أقرب من خطل [٧] ولا أجلب لقَذَع [٨] من قول هذا ، واللهِ أيها الملك : ما قتلوا بهجينهم بَذَجا [٩] ولا رقوا به درجا، ولا أَنْطُوا [١٠] به عَقْلا ، ولا اجتفأوا بهخَشْلا [١١] ، ولقد أخرجهم الخوف عن أصلهم، وأجلاهم عن محلّهم ، حتى استلانوا خشونة الازعاج ، ولجأوا الى أضيق الولاج ، قُلًّا وذُلًّا [١٢] ! فقال الحرث: أتسمع ياطريف ؟ إنّى والله ما إخالك كافًّا غَرْبَ [١٣] لسانك، ولا مُنْهِنْهاً شِرَّةَ نَزَوَانك [١٤] حتى اسطُوَ بك سطوةً تكُفُّ طماحك ، [١٥] وتردُّ جماحك ، وتَكْبِتُ تَتَرُّعَكَ ، [١٦] وتَقْمَعُ تسرُّعك ! فقال طريف : مهلا ياجابر لا تَعَرَّضْ لطَحْمَة [١٧] استنانى، وذَرَب لسانى ، [١٨] وغَرْب شباتى، ومِيسم سنانى ، فتكون كالأظلّ [١٩] الموطوء ، والعَجْب المَوْجوء [٢٠] ! فقال

(١) عزب عنه حلمه وأعزب حلمه كقولك أضل بعيره ، وتدابر القوم : اختلفوا وتعادوا
(٢) العقل : الدية ، وأرهقت الرجل عسراً : كلفته ذلك . (٣) فاد يفود : مات ، وفاد يفيد : تبختر (٤) أوهن وأضعف (٥) وفى بعض النسخ « فأبنا عنهم » (٦) افتعلنا من الثأر (٧) خطأ (٨) الكلام القبيح (٩) خروفاً وهو فارسى معرب وكذلك البرق فارسى معرب وهو الحمل (١٠) لغة فى أعطوا (١١) اجتفأوا: صرعوا ، والخشل شجر المقل ـ وهذه أمثال كلها يريد أنهم لم ينالوا ثأره (١٢) القل : القلة ، والذل : الذلة (١٣) قال الفيومي: الغرب الحدة من كل شئ نحو الفأس والسكين حتى قيل اقطع غرب لسانه أى حدته . (١٤) منهنهاً : كافاً . والنزوان : الوثوب . وشرته : حدته ونشاطه (١٥) بالكسر النشوز والجماح
(١٦) تسرعك الى الشر (١٧) طحمته السيل بالضم والفتح دفعته (١٨) الذرب : الحدة
(١٩) أسفل خف البعير (٢٠) العجب : أصل الذنب ، والموجوء : المقطوع .

الحرث إيّاى تخاطب بمثل هذا القول : واللّه لو وطئتُك لأسختُك ، ولو وهصتُك لأوهطتُك ، (١) ولو نفحتُك لأفدتك : فقال طريف . متمثلاً

وإنّ كلام المرء فى غير كُنهِهِ (٢) * لكالنَّبلِ تهوى ليس فيها نصالها (٣)

أما والأصنام المحجوبة ، والأنصاب المنصوبة ! لئن لم تربَع على ظَلْعِك ، (٤) وتقِف عند قدرك ، لأدعنّ حزنك (٥) سهلاً وغَمْرك ضحلاً (٦) ، وصفاك (٧) وحلاً ! فقال الحرث : أما والله لو رمتُ ذلك لمُرِّغتَ بالحضيض (٨) وأُغصِصت بالجريض (٩) ، وضاقت عليك الرحاب (١٠) وتقطعت بك الأسباب (١١) ، ولأُلفيتَ لقى تهاداه الرّوامس (١٢) ، بالسّهب الطامس (١٣) فقال طريف : دون ما ناجتك به نفسُك مقارعة أبطال ، وحياض أهوال . وحفزة إعجال (١٤) يُمنَعُ معه تطامن الإمهال ، فقال الملك : إيهاً عنكما (١٥) فما رأيتُ كاليوم مقال رجلين لم يقْصِبا (١٦) ولم يثلبا (١٧) ، ولم يلْصُوا ولم يقْفُوا (١٨) : وشرح هذه الألفاظ يطول ، ومن أرد ذلك فليراجع كتب اللغة .

وأما خطب أهل الصدر الاول من الاسلام

فهى الغاية فى الفصاحة ، والمنتهى فى البراعة والبلاغة ؛ وفى كتب الأدب الدائرة فى الايدى شىء كثير من خطب الخلفاء الراشدين وغيرهم مما تتحير

(١) وهصتك : كسرتك ، وأوهطتك : اهلكتك وقيل صرعتك (٢) اى في غير وقته (٣) جمع نصل وهو حديدة السهم (٤) لم تربع : لم تكف وترفق . والظلع : الغمز (٥) الحزن : ماغلظ من الارض بخلاف السهل (٦) الغمر : الماء الكثير ، والضحل الماء القليل (٧) جمع صفاة وهى الصخرة (٨) القرار من الارض اذا اتصل بالجبل وفى الحديث : ان العدو بعرعرة الجبل ونحن بحضيضه فالعرعرة اعلاه والحضيض اسفله (٩) الريق : وفى المثل « حال الجريض ، دون القريض » وهو يضرب لامر يعوق دونه عائق (١٠) الاراضى الواسعة (١١) اى الوصلات ، الواحد سبب ووصلته واصل السبب الحبل يشد بالشئ فيجذب به ثم جعل كل ماجر شيئاً سبباً . (١٢) الرياح التى ترمس اى تدفن (١٣) السهب : المستوى من الارض والطامس : الدارس (١٤) الحفز : الدفع (١٥) قال ابو زيد « ايهاً » نهى ، و « ايه » امر (١٦) اى لم يشتما ، يقال قصبه يقصبه اذا وقع فيه واصل القصب القطع (١٧) اى لم يعيبا ويتنقصا (١٨) لصاه : قذفه ، وقفاه يقفوه : قذفه بأمر عظيم .

منه أولو الالباب ، وتقضى منه العجب العجاب ؛ قد اشتملت على الحكم والأسرار ، وما يستوجب خيرى الدنيا والآخرة دار القرار ، وما يقرب الى مرضاة الله تعالى ويباعد عن دار البوار . هذا كتاب نهج البلاغة [١] قد استودع من خطب الامام على بن أبي طالب سلام الله عليه ما هو قبس من نور الكلام الآلهى ، وشمس تضيء بفصاحة المنطق النبوى ، وكذلك أهل القرن الثانى فليسوا بأقلّ فصاحة من العرب العرباء . ولا من أولئك الخطباء . روى أبو بكر بسنده الى ابن الكلبي عن أبيه قال : لما قَتَلَ عبد الملك مُصْعَب بن الزبير دخل الكوفة فَصَعِدَ المنبر فَحَمِدَ الله وأثنى عليه وصلى على النبى محمد صلى الله عليه وسلم ثم قال [٢] أيها الناس إن الحرب صعبة مُرّة ، وان السِّلْمَ أَمْنٌ ومَسَرَّة ، وقد زَبَنَتْنا الحرب وزَبَنّاها [٣] فعرفناها وألفناها ، فنحن بَنُوها وهي أمنا . أيها الناس ! فاستقيموا على سُبُل الهدى ، ودعوا الاهواء المُرْدِيَة ، وتجنبوا فراق جماعات المسلمين ، ولا تكلّفونا أعمالَ المهاجرين الاولين ، وانتم لا تعلمون أعمالهم ولا أظنكم تزدادون بعد الموعظة إلا شراً ولن تزداد بعد الإعذار اليكم ، والحجة عليكم إلا عقوبة ؛ فمن شاء منكم أن يعود بعد لمثلها فليَعُدْ ، وإنما مثلى ومثلكم كما قال قيس بن رِفاعة :

مَنْ يَصْلَ نارى بلا ذَنْبٍ ولا تِرَةٍ ... يَصْلَ بنارِ كريمٍ غير غدّار [٤]
أنا النذير لكم منى مُجاهرةً ... كَيْ لا أُلامَ على نهى وإنذارى

(١) كان ابن سيرين يرى عامة ما رووه عن على رضي الله عنه كذباً لا اصل له ولا سند . قال الشيخ العلامة المقبلى فى « العلم الشامخ » : وصدق ابن سيرين رحمه الله فان كل قلب سليم ، وعقل غير زائغ عن الطريق القويم ، ولب تدرب فى مقاصد سالكى الصراط المستقيم ، يشهد بكذب كثير مما فى (نهج البلاغة) الذى صار عند الشيعة عديل كتاب الله بمجرد الهوى الذى أصاب كل عرق منهم ومفصل ، واينهم سلكوا مسلك جلاميد الناس ، واوصلوا ذلك الى على برواية تسوغ عند الناس ، وجادلوا عن رواتها ولكن لم يبلغوا بها مصنفها ... الخ (٢) اوردها القلقشندى فى صبح الاعشى (ج١ ص٢١٥) ببعض اختلاف ، وعزاها لمعاوية رضى الله عنه (٣) اى دفعتنا ودفعناها (٤) صلى بالنار وصليها صلى من باب تعب : وجد حرها ، والترة : الظلم .

فان عصيتم مقالى اليومَ فاعترفوا ... أنْ سَوْفَ تَلْقَوْنَ خزياً ظاهر العار [1]
لَتَرْجِعُنَّ أحاديثاً مُلَعَّنَةً ... لَهْوَ المُقيمُ ولهو المُدْلجِ السارى [2]
من كان فى نفسه حَوْجاءُ يطلبها ... عندى فانى له رَهْنٌ بإِصحار [3]
أُقيم عَوْجَتَهُ إن كان ذا عوَجٍ ... كما يُقَوِّمُ قِدْحَ النبعة البارى
وصاحبُ الوِتْرِ ليس الدهرَ مُدْرِكَهُ ... عندى وإنى لَدَرَّاكٌ لأوتارى [4]

وروى أبو بكر أيضاً . قال : ولَّى جعفر بن سليمان اعرابياً بعض مياههم فخطبهم يوم الجمعة فحمِدَ الله وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد فان الدنيا دار بلاغ والآخرة دار قرار ، فخذوا لمقركم من ممرّكم ، ولا تَهْتِكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ، وأخرجوا من الدنيا قلوبكم قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حَيِيتم ، ولغيرها خُلقتم ، ان الرجل اذا هلك ، قال الناس : ما ترك ، وقالت الملائكة : ما قدّم ، فلله آباؤكم . قدِّموا بعضا ، يكن لكم قَرْضا ، ولا تُخلِّفوا كُلًّا ، يكن عليكم كَلًّا ، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم . وروى أبو بكر قال حدثنا أبو عثمان عن التوزى عن أبى عبيدة قال : قعد المأمون الحارثى فى نادى قومه فنظر الى السماء والنجوم ثم فكر طويلاً ثم قال : أرعُونى أسماعكم ، وأصغوا الىَّ قلوبكم ، يَبلغ الوعظ منها حيث أريد ، طَمَحَ بالاهواء الأشر [5] ، وران [6] على قلوبكم الكَدَر ، وطَخْطَخَ [7] الجهلُ النظر ، إن فيما يرى لمُعْتَبَرًا لمن اعتبر ، أرض موضوعة ، وسماء مرفوعة ، وشمس تطلعُ وتغرُب ، ونجوم تسرى فَتَعْزُبُ وقمر تُطلعه النّحور ، وتمحقه أدبار الشهور ، وعاجز مثْبر [8] ، وقول مكدر ، وشاب محتضر ، ويَفَن قد غبَر [9] وراحلون لا يؤوبون ، وموقوفون لا يفرطون [10]

(١) الخزى : الهوان . (٢) المدلج : الذى يسير من أول الليل . والسارى : الذى يسير بالليل . (٣) الحوجاء : الحاجة . وقوله « فانى له رهن باصحار » أى بالبروز الى الصحراء فلا استتر عنه ولا امتنع فى الاماكن الحصينة . (٤) الوتر : الذحل (٥) طمح : ارتفع وعلا (٦) غلب (٧) أظلم (٨) فى بعض النسخ : « وعاجز مثر ، وحول مكد ، وشاب مختضر » والمختضر الذى يموت حدثاً مأخوذ من الخضرة كأنه حصد أخضر . (٩) اليفن : الشيخ الكبير ، وغبر : مضى . (١٠) أي لا يقدمون .

ومطرٍ يُرْسَلُ بقدر ، فيحيي البشر ، ويورق الشجر ، ويُطلع الثمر ، ويُنبت الزَّهَر ، وماء يتفجر من الصخر الأَيَرّ(١) ، فيصدع المدَر ، عن أفنان الخُضَر ، فيُحيي الأنام ، ويُشبع السَّوَام(٢) ، ويُنمي الأنعام ، إنّ فى ذلك لأوضحَ الدلائل على المدبر المقدّر ، البارىء المصوّر ، يا أيها العقول النافرة ، والقلوب النائرة(٣) أنى تؤفكون ، وعن أيّ سبيل تعمهون(٤) وفى أى حيرة تهيمون ، والى أىّ غاية توفضُون(٥) ؟ لو كُشِفَتِ الأغطية عن القلوب ، وتجلَّت الغشاوة عن العيون ، لَصَرَّح الشك عن اليقين ، وأفاق من نَشْوة الجهالة(٦) ، من استولت عليه الضلالة . وما ذكرناه من بديع الخطب ، ومستحسن كلام العرب ، وانْ كان قطرة من مستعذب بحر ، ودرة فريدة من عقد نَحْر ، فهو كافٍ فى هذا المقام ، وكافل بأداء المقصود والمرام . ومن علومهم :

علم الانساب

وهو علم يتعرف به أنساب الناس . والعرب فى الجاهلية كان لهم مزيد اعتناء بضبطه ومعرفته فانه أحد أسباب الألفة والتناصر . وهم كانوا أحوج شئ الى ذلك حيث كانوا قبائل متفرقين ، وأحزابا مختلفين ؛ لم تزل نيران الحروب متسعرة بينهم ، والغارات ثائرة فيهم ، فانهم امتنعوا عن سلطان يقهرهم ، ويكف الأذى عنهم ؛ فحفظوا أنسابهم ليكونوا متظافرين به على خصومهم ، ومتناصرين على من شاقهم وعاداهم ، لأن تعاطف الأرحام ، وحمية الأقارب ، يبعثان على التناصر والالفة . ويمنعان من التخاذل والفرقة ، أنفة من استعلاء الاباعد على الأقارب ، وتوقياً من تسلط الغرباء الاجانب ؛ وقد روى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « إنَّ الرَّحِمَ إذا تماست تعاطفت » وقد بلغت العرب بألفة الانساب

(١) على مثال الاصم الصلب (٢) بالفتح الابل الراعية . (٣) يقال نأرت نائرة أى هاجت هائجة .
(٤) تؤفكون : تصرفون عن الخير . وتعمهون : تتحيرون . (٥) تسرعون .
(٦) أى سكرة الجهالة .

تناصرها على القوى ، وتأيدت به ، واستحكمت به ركن مجدها العلى ، وقد أعفر نبي الله لوط عليه السلام نفسه حين عدم عشيرة تنصره فقال لمن بعث إليهم « لو أن لى بكم قوة أو آوى الى ركن شديد » يعنى عشيرة مانعة . وقال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « ما بعث الله تعالى من بعده نبياً الا فى ثروة من قومه » وقال وهب « لقد وردت الرسل على لوط وقالوا ان ركنك لَشَدِيدٌ » وروى عن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم انه كان لايترك المرء مفرجا حتى يضمه الى قبيلة يكون منها . وكل ذلك حث منه صلى الله تعالى عليه وسلم على الالفة وكف عن الفرقة ولذلك قال صلى الله تعالى عليه وسلم « من كثر سواد قوم فهو منهم » واذا كان النسب بهذه المنزلة من الألفة فقد تعرض له عوارض تمنع منها ، وتبعث على الفرقة المنافية لها ، فلزم أن نصف حال الأنساب ، وما يعرض لها من الاسباب فجملة الانساب انها تنقسم الى ثلاثة أقسام : قسم والدون ، وقسم مولودون ، وقسم مناسبون ، ولكل قسم منهم منزلة من البر والصلة وعارض بطرأ فيبعث على العقوق والقطيعة ، فاما الوالدون فهم الآباء والامهات والاجداد والجدات ، وهم موسومون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم بالطبع . والثانى حادث باكتساب ، فاما ما كان لازماً بالطبع فهو الحذر والإشفاق ، وذلك لا ينتقل عن الوالد بحال ؛ وقد روى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « الولد مبْخلة مجهلة مجبنة محزنة [1] فأخبر أن الحذر عليه يكسب هذه الاوصاف ، ويحدث هذه الاخلاق ، وقد كره قوم طلب الولد كراهة لهذه الحالة التى لا يقدر على دفعها عن نفسه للزومها طبعاً ، وحدوثها حتما : وقيل ليحيى بن زكريا (عليهما السلام) ما بالك تكره الولد ؟ فقال مالى وللولد ! ان عاش كدنى وإن مات هدنى ؛ وقيل

---

(١) قال المناوى : هذا الحديث متواتر فقد جاء عن بضعة وعشرين من الصحابة ورووه هكذا: « الولد ثمرة القلب وانه مجبنة مبخلة محزنة » قوله : « ثمرة القلب » أى لان الثمرة تنتجها الشجرة والولد نتيجة الاب . وقوله « مجبنة » أى يجبن أبوه عن الجهاد خوف ضيعته ، وقوله « مبخلة » أى يمتنع أبوه من الانفاق فى الطاعة خوف فقره ، وقوله « محزنة » أى يحزن أبوه لمرضه خوف موته .

لعيسى بن مريم عليه السلام : ألا تتزوج ؟ فقال: إنما يحب التكاثر فى دار البقاء !وأما ما كان حادثاً لا كتساب فهو المحبة التى تنمى مع الاوقات ، وتتغير مع تغير الحالات وروى عن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : « الولد أنوط » يعنى أن حبه يلتصق بنياط القلب[(١)] وعنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « لكل شيء ثمرة وثمرة القلب الولد » فان انصرف الوالد عن حب الولد فليس ذلك لبغض منه ولكن لسلوة حدثت عن عقوق ، أو تقصير مع بقاء الحذر والإشفاق الذى لا يزول عنه ولا ينتقل منه ، فقد قال محمد بن على رضى الله تعالى عنهما : ان الله تعالى رضى الآباء للابناء فحذرهم فتنتهم ، ولم يوصهم بهم ، ولم يرض الأبناء للآباء فأوصاهم بهم ، وان شر الأبناء من دعاه التقصير الى العقوق ، وشر الآباء من دعاه البر الى الإفراط . والامهات أكثر اشفاقاً ، وأوفر حباً ، لما باشرن من الولادة ، وعانين من التربية ، فانهن أرق قلوباً ، وألين نفوساً ، وبحسب ذلك وجب أن يكون التعطف عليهن أوفر جزاء لفعلهن وكفاء لحقهن ، وان كان الله تعالى قد أشرك بينهما فى البر ، وجمع بينهما فى الوصية ، فقال تعالى « ووصينا الانسان بوالديه حسناً » وقد روى أن رجلا أتى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فقال: « إن لى أمًّا أنا مطيعها : أقعدها على ظهرى ، ولا أصرف عنها وجهى ، وأرد اليها كسبى فهل جزيتها ؟ » قال : لا ولا بزفرة واحدة . قال : ولم ؟ قال : « لأنها كانت تخدمك وهى تحب حياتك وأنت تخدمها وتحب موتها » وقال الحسن البصرى « حق الوالد أعظم ، وبر الوالد الزم » . وروى عن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال « أنهاكم عن عقوق الامهات ، ووأد البنات ، ومنع وهات » وروى خالد بن معدان عن المقدام قال « سمعت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم يقول : إن الله يوصيكم بأمهاتكم ثم يوصيكم بالاقرب فالاقرب » . وأما المولودون فهم الاولاد ، وأولاد الاولاد ، والعرب تسمى ولد الولد الصفوة ،

---

(١) النياط بالكسر عرق متصل بالقلب من الوتين اذا قطع مات صاحبه .

وهم مختصون مع سلامة أحوالهم بخلقين : أحدهما لازم ، والآخر منتقل . فأما اللازم فهو الانفة للآباء من تهضم أو خمول ، والانفة فى الابناء فى مقابلة الإشفاق فى الآباء . وقد لحظ أبو تمام الطائىّ هذا المعنى بقوله :

فأصبحتُ يلقانى الزمانُ لاجله ... بإعظامِ مولودٍ وإشفاقِ والدِ

فأما المنتقل فهو الادلال ، وهو أول حال الولد ، والادلال فى الابناء فى مقابلة المحبة فى الآباء لان المحبة بالآباء أخص ، والادلال فى الابناء أمس . وقد روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال : قلت ؛ يارسول الله ! مابالنا نرق على أولادنا ولا يرقون علينا ؟ قال « لأنا ولدناهم ولم يلدونا » . ثم الادلال فى الابناء قد ينتقل مع الكبر الى أحد أمرين : إما البر والاعظام ، وإما الى الجفاء والعقوق ؛ فان كان الولد رشيداً أو كان الاب براً عطوفاً صار الادلال براً واعظاماً . وقد روى أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال لجرير بن عبد الله : إن حق الوالد على الولد أن يخشع له عند الغضب ، ويؤثره على نفسه عند النصب والسغب ، فان المكافئ ليس بالواصل ، ولكن الواصل من اذا قطعت رحمه وصلها ، وان كان الولد غاوياً ، أو كان الوالد جافياً ، صار الادلال قطيعةً وعقوقاً . ولذلك قال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم « رحم الله امرَأً أعان ولده على بره » . وبشر عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بمولود فقال : ريحانة أشمها ثم هو عن قريب ولد بارّ ، أوعدو ضارّ ؛ وأما المناسبون فهم من عدا الآباء والأبناء ممن يرجع بتعصيب أو رحم ، والذى يختصون به الحمية الباعثة على النصرة وهى أدنى رتبة الأنفة لان الأنفة تمنع من التهضم . وليس لها فى كراهة الخمول نصيب الا أن يقترن بها مايبعث على الألفة . وحمية المناسبين انما تدعو الى النصرة على البعداء والاجانب . وهى معرضة لحسد الادانى والاقارب ، موكولة الى منافسة الصاحب بالصاحب ، فان حرست بالتواصل والتلاطف تأكدت أسبابها ، واقترن بحمية النسب مصافاة المودة ، وذلك أوكد أسباب الألفة ، وقد قيل

لبعض قريش : أيما أحبّ إليك أخوك أوصديقك ؟ قال : أخي إذا كان صديقاً ! وقال مسلمة بن عبد الملك : العيش في ثلاثٍ : سعة المنزل ، وكثرة الخدم ، وموافقة الأهل . وقال بعض أهل العلم : البعيد قريب بمودته ، والقريب بعيد بعداوته ؛ وإن أهملت الحال بين المتناسبين ثقة بلحمة النسب ، واعتماداً على حمية القرابة ، غلب عليها مقت الحسد ، ومنازعة التنافس ، فصارت المناسبة عداوةً ، والقرابة بعداً . وقال الكنديّ في بعض رسائله : الأب ، رب ؛ والولد ، كمد ؛ والأخ ، فخّ ؛ والعم ، غم ؛ والخال ، وبال ؛ والأقارب ، عقارب . وقال ابن المعتز في معنى ذلك :

لحومهُمُ لحمَى وهُمْ يأكلونَهُ وما داهيات المَرْءِ إلا أقاربهْ

ومن أجل ذلك أمر الله تعالى بصلة الأرحام ، وأثنى على واصلها ، فقال تعالى « والذين يصلون ما أمر الله أن يوصل ويخشَوْنَ ربهم ويخافون سوء الحساب » قال المفسرون : هي الرحم التي أمر الله بوصلها ، ويخشون ربهم في قطعها ، ويخافون سوء الحساب في المعاقبة عليها . وروى عن عبد الرحمن بن عوف أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال : يقول الله عز وجل أنا الرحمن وهي الرحم اشتققت لها من اسمي اسماً فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته . وروى عنه صلى الله تعالى عليه وسلم أنه قال : صلة الرحم منماة للعدد ، مثرة للمال ، محبة في الأهل ، منسأة في الأجل . وقال الأزدي :

وحَسْبُكَ من ذلٍ وسوءِ صنيعةٍ مناواة ذي القُرْبَى وإنْ قيل قاطِعُ
ولكن أواسيه وأنسى ذُنُوبَهُ لترجعَهُ يوماً اليَّ الرواجعُ
ولا يستوي في الحكم عبدانِ واصلٌ وعبدٌ لأرحام القرابة قاطعُ

والمقصود أن اعتناء العرب بحفظ الانساب لما يترتب عليه من مقاصدهم التي ذكرناها ، والشريعة أكدت ما كانوا عليه ، وندبت بنصوصها اليه ، خلافاً لمن زعم أن علم النسب علمٌ لا ينفع وجهل لا يضر . وقد رد ابن حزم في مقدمة كتاب

النسب على من زعم ذلك بأن فى علم النسب ماهو فرض على كل أحد ، وما هو فرض على الكفاية ، وما هو مستحب ؛ قال : فمن ذلك أن يعلم أن محمداً رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم هو ابن عبد الله الهاشمى فمن زعم أنه لم يكن هاشمياً فهو كافر ؛ وأن يعلم أن الخليفة من قريش ، وأن يعرف من يلقاه بنسب فى رحم محرمة ليجتنب تزويج مايحرم عليه منهم ؛ وأن يعرف من يتصل به ممن يرثه أو يجب عليه بره من صلة أو نفقة أو معاونة ؛ وأن يعرف أمهات المؤمنين وأن نكاحهن حرام على المؤمنين ؛ وأن يعرف الصحابة وأن حبهم مطلوب ؛ وان يعرف الأنصار ليحسن اليهم لثبوت الوصية بذلك ، ولأن حبهم إيمان وبغضهم نفاق . قال : ومن الفقهاء من يفرق فى الجزية وفى الاسترقاق بين العرب والعجم فحاجته الى علم النسب آكد . وكذا من يفرق بين نصارى بنى تغلب وغيرهم فى الجزية وتضعيف الصدقة . قال : وما فرض عمر رضى الله تعالى عنه الديوان إلا على القبائل ، ولولا علم النسب ما تخلص له ذلك ؛ وقد تبعه على ذلك عثمان وعلىّ وغيرهما .

وقال ابن عبد البر فى أول كتابه النسب : ولعمرى لم ينصف من زعم أن علم النسب علم لا ينفع وجهل لا يضر ، وقال صاحب كتاب (نهاية الارب ، فى معرفة قبائل العرب » : لا خفاء أن المعرفة بعلم الانساب من الامور المطلوبة ، والمعارف المندوبة ، لما يترتب عليها من الاحكام الشرعية ، والمعالم الدينية ؛ فقد وردت الشريعة المطهرة باعتبارها فى مواضع ، منها : العلم بنسب النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأنه النبى القرشى الهاشمى الذى كان بمكة وهاجر منها الى المدينة المنورة فانه لا بد لصحة الايمان من معرفة ذلك ، ولا يعذر مسلم فى الجهل به ، وناهيك بذلك ! ومنها : التعارف بين الناس حتى لا يعتزى أحد الى غير آبائه ، ولا ينتسب الى سوى أجداده ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا » وعلى هذا يترتب

أحكام الورثة فيحجب بعضهم بعضاً ، وأحكام الاولياء فى النكاح ، فيقدم بعضهم على بعض ، وأحكام الوقف اذا خص الواقف بعض الأقارب ، أو بعض الطبقات دون بعض . وأحكام العاقلة فى الدية حتى يضرب الدية على بعض العصبات ؛ وما يجرى مجرى ذلك . فلو لا معرفة الأنساب لفات إدراك هذه الأمور وتعذر الوصول اليها ؛ ومنها : اعتبار النسب فى كفاء الزوج والزوجة فى النكاح ففى مذهب الامام الشافعى لا يكافئ الهاشمية والمطلبية غيرهما من قريش ، ولا يكافئ القرشية غيرها من العرب ممن ليس بقرشى ؛ وفى الكنانية وجهان أصحهما أن لا يكافئها غيرها ممن ليس بكنانى ولا قرشى ؛ وفى اعتبار النسب فى العجمى أيضاً وجهان أصحها الاعتبار . وفى مذهب الامام أبى حنيفة : قريش بعضهم أكفاء بعض ، وبقية العرب بعضهم أكفاء بعض ؛ وأما فى العجم فلا يعتبر النسب عندهم . فاذا لم يعرف النسب تعذرت معرفة هذه الاحكام . ومنها : مراعاة النسب الشريف فى المرأة المنكوحة فقد ثبت فى الصحيح أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « تنكح المرأة لأربع :لدينها وحسبها ومالها وجمالها » فراعى صلى الله تعالى عليه وسلم فى المرأة المنكوحة الحسب وهو الشرف فى الآباء الى غير ذلك من الأحكام الجارية هذا المجرى .

طبقات الانساب

قال الامام الماوردى فى كتاب (الاحكام السلطانية) وقد رتبت أنساب العرب ست مراتب فجملت طبقات أنسابهم وهى : شعْب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم فصيلة . فالشعب النسب الابعد مثل عدنان وقحطان . سمى شعباً لأن القبائل منه تشعبت . ثم القبيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الشعب مثل ربيعة ومُضَر سميت قبيلة لتقابل الانساب فيها . ثم العِمارة وهى ما انقسم فيه أنساب القبائل مثل قريش وكنانة . ثم البطن وهو ما انقسم فيه أنساب العمارة

مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم . ثم الفخذ وهو ما انقسم فيه أنساب البطن مثل بنى هاشم وبنى أمية . ثم الفصيلة وهى ما انقسم فيه أنساب الفخذ مثل بنى أبى طالب وبنى العباس . فالفخذ يجمع الفصائل . والبطن يجمع الأفخاذ . والعمارة تجمع البطون . والقبيلة تجمع العمائر . والشعب يجمع القبائل . واذا تباعدت الأنساب صارت القبائل شعوباً . والعمائر قبائل انتهى . وقد قسمها الزبير بن بكار فى كتاب النسب الى شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة (بكسر العين) ثم بطن ، ثم فخذ ثم فصيلة . وزاد غيره قبل الشعب الجذم ، وبعد الفصيلة العشيرة . ومنهم من زاد بعد العشيرة الأسرة ، ثم العترة . فمثال الجذم عدنان ، ومثال الشعب مُضر ، ومثال القبيلة كنانة ، ومثال العمارة قريش ، وأمثلة ما دون ذلك لا تخفى . قال : ويقع فى اعتباراتهم أشياء مرادفة لما تقدم كقولهم حىّ وبيت وعقيلة وأرومة وجرثومة ورهط وغير ذلك . ورتبها محمد بن أسعد النسّابة المعروف بالحرانى جمعها وأردفها فقال : جذم ، ثم جمهور ، ثم شعب ، ثم قبيلة ، ثم عمارة ، ثم بطن ، ثم فخذ ، ثم عشيرة ، ثم فصيلة ، ثم رهط ، ثم أسرة ، ثم عترة ، ثم ذرية . وزاد غيره فى أثنائها ثلاثة وهى : بيت وحى وجماع . فزادت على ما ذكر الزبير عشرة . وقال أبو اسحق الزجاج : القبائل للعرب كالأسباط لبنى اسرائيل ، ومعنى القبيلة الجماعة . ويقال لكل ما جمع على شىء واحد قبيلة أخذا من قبائل الشجرة وهو غصونها . أو من قبائل الرأس وهو أعضاؤها ، سميت بذلك لاجتماعها ، والمراد بالشعوب فى الآية النسب البعيد . وهو قول مجاهد أخرجه الطبرى عنه . وذكر أبو عبيدة مثال الشعب مضر وربيعة ، ومثال القبيلة من دون ذلك . وأنشد لعمرو بن أحمر :

من شعب هَمْدانَ أوسعد العشيرة أو خولان أومَذْحِجٍ هاجوا له طرَبا(١)

(١) همدان : بسكون الميم قبيلة باليمن وجميع ما فى الصحابة والرواة ومصنفات الحديث هو نسبة لهذه القبيلة . وأما همذان البلد فهى بالتحريك والذال المعجمة ولا ينسب اليها أحد من الرواة لا فى

ويقال : المراد بالشعوب فى الآية بطون العجم ، وبالقبائل بطون العرب ، والله أعلم . وترتيب الامام الماوردىّ هو الأولى بالاعتبار ، وكأن العرب رتبوا ذلك على بنية الانسان فجعلوا الشعب منها بمثابة أعلى الرأس ، والقبائل بمثابة قبائل الرأس ، وهى القطع المشعوب بعضها الى بعض يتصل بها الشئون وهى القنوات التى فى القحف لجريان الدمع . وقد ذكر الجوهرى أن قبائل العرب إنما سميت بقبائل الرأس وجعلوا العمارة تلو ذلك اقامة للشعب ، والقبيلة مقام الاساس من البناء ، وبعد الاساس تكون العمارة ، وهى بمثابة العنق والصدر من الانسان وجعلوا البطن تلو العمارة لانها الموجود من البدن بعد العنق والصدر ، وجعلوا الفخذ تلو البطن لان الفخذ من الانسان بعد البطن ، وجعلوا الفصيلة تلو الفخذ لانها النسب الأدنى الذى يفصل عنه الرجل بمثابة الساق والقدم . اذ المراد بالفصيلة العشيرة الادنون بدليل قوله تعالى (وفصيلته التى تؤويه) أى تضمه اليها ولا يضم الرجل الا أقرب عشيرته . واعلم أن أكثر ما يدور على الالسنة من الطبقات الست المتقدمة : القبيلة ثم البطن ، وقل أن تذكر العمارة ثم الفخذ والفصيلة . وربما عبر عن كل واحد من الطبقات الست بالحى . إما على العموم مثل أن يقال حىٌّ من العرب ، وإما على الخصوص مثل أن يقال حى من بنى فلان . ثم ان ترتيب العرب فى الديوان اذا أثبتوا فيه كالترتيب الذى فعله عمر رضى الله تعالى عنه حين دونهم فانهم تجمعهم أنساب وتفرق بينهم أنساب ، فترتبت قبائلهم بالقربى من رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فبدأ بالترتيب فى أصل النسب ثم بما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان فقدم عدنان على قحطان لان النبوة فيهم ، وعدنان تجمع ربيعة ومضر فقدم مضر على ربيعة لان النبوة فيهم ، ومضر تجمع قريشاً وغير قريش فقدم قريشاً لأن النبوة فيهم ، وقريش تجمع بنى هاشم

الصحيحين ولا في غيرهما من كتب الحديث الستة .. وبنو سعد العشيرة : حىّ من كهلان من القحطانية وجعل فى العبر سعد العشيرة بطنا من مذحج ، ومذحج قبيلة من كهلان . وخولان بطن من كهلان من القحطانية ..

وغيرهم فقدم بني هاشم لأن النبوة فيهم ، فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ثم بمن يليهم من أقرب الانساب اليهم حتى استوعب قريشاً ثم بمن يليهم في النسب حتى استوعب جميع عدنان ، والله يختص بفضله من يشاء .

ما يجب للناظر في علم الانساب

لابد للناظر في علم الانساب من أمور منها ما ذكره الجوهري أن القبيلة هي بنو أب واحد . وقال ابن حزم : جميع قبائل العرب راجعة الى أب واحد سوى ثلاث قبائل ، وهي : تَنُوخ ، والعُتْق ، وغسَّان ، فان كل قبيلة منها مجتمعة من عدة بطون [1] نعم الأب الواحد قد يكون أبا لعدة بطون ؛ ثم أبو القبيلة قد يكون له عدة أولاد فيحدث عن بعضهم قبيلة أو قبائل فينسب اليه من هو منهم ويبقى بعضهم بلا ولد أو يولد له ولم يشتهر ولده فينسب الى القبيلة الاولى ومنها اذا اشتمل النسب على طبقة فأكثر كهاشم وقريش ومضر وعدنان جاز لمن في الدرجة الاخيرة من النسب أن ينسب الى الجميع فيجوز لبني هاشم أن ينسبوا الى هاشم والى قريش والى مضر والى عدنان . فيقال في أحدهم الهاشمي والقرشي والمضري والعدناني . بل قد قال الجوهري إن النسبة الى الاعلى تغني عن النسبة الى الأسفل فاذا قلت في النسبة الى كلب بن وبرة الكلبي استغنيت أن تنسبه الى شيء من أصوله . وذكر غيره أنه يجوز الجمع في النسب بين الطبقة العليا والطبقة السفلى ثم بعضهم يرى تقديم العليا على السفلى مثل أن يقال الأموي العثماني وبعضهم يرى تقديم السفلى على العليا فيقال العثماني الاموي ومنها : أن الرجل قد ينضم الى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينسب إليهم فيقال فلان حليف بني فلان أو مولاهم . ومنها : أن الرجل اذا كان من قبيلة ثم دخل في قبيلة أخرى

(١) أقول : وذلك أن تنوخا اسم لعشر قبائل اجتمعوا وأقاموا بالبحرين ، فسموا بتنوخ أخذاً من التنوخ وهو المقام ، والعتق جمع اجتمعوا على النبي صلى الله عليه وسلم فظفر بهم فأعتقهم فسموا بذلك ، وغسان عدة بطون من الازد نزلوا على ماء يسمى غسان فسموا به .

جاز أن ينسب الى قبيلته الاولى وأن ينسب الى القبيلة التى دخل فيها ، وأن ينسب الى القبيلتين جميعاً مثل ان يقال التميمى ثم الوائلى ، أو الوائلى ثم التميمى وما أشبه ذلك . ومنها : أن القبائل فى الغالب تسمى باسم الأب الوالد للقبيلة ، كربيعة ومضر والاوس والخزرج ونحو ذلك ، وقد تسمى القبيلة باسم أم القبيلة : كخندف وبجيلة ونحوهما . وقد تسمى باسم خاصة (خصت أصل تلك القبيلة) ونحو ذلك وربما وقع اللقب على القبيلة بحدوث سبب كغسان ، فانهم نزلوا على ماء يسمى غسان فسموا به . وربما وقع اللقب الواحد عليه فسموا به . وقيل غير ذلك مما هو مذكور فى كتب الانساب . ومنها : اذا كان فى القبيلة اسمان متوافقان كالحرث والحرث مثلا وأحدهما من ولد الآخر وبعده فى الوجود عبروا عن الوالد السابق منهما بالاكبر وعن اللاحق بالاصغر .

مذهب العرب فى أسماء القبائل

أسماء القبائل فى اصطلاح العرب على خمسة أوجه (الأول) أن يطلق على القبيلة لفظ الأب : كعادٍ وثمُودَ ومَدْيَنَ ؛ ومن شاكلهم ، وبذلك ورد القرآن كقوله تعالى (والى عادٍ . والى ثمُودَ . والى مَدْيَنَ) يريد بنى عاد ، وبنى ثمود ، وبنى مدين ، ونحو ذلك ؛ وأكثر مايكون ذلك فى الشعوب والقبائل العظام لاسيما فى الأزمان المتقدمة بخلاف البطون والافخاذ ونحو ذلك (الوجه الثانى) ان يطلق على القبيلة لفظ البنوة فيقال بنو فلان . وأكثر ما يكون ذلك فى البطون والأفخاذ والقبائل الصغار ، لاسيما فى الأزمان المتأخرة (الوجه الثالث) أن ترد القبيلة بلفظ الجمع مع الألف واللام كالطالبيِّين والجعافرة ونحوهما ، وأكثر مايكون ذلك فى المتأخرين دون غيرهم (الوجه الرابع) أن يعبر عنها بآل (١) فلان : كآل ربيعة ، وآل فَضْل ، وآل علىّ وما أشبه ذلك ؛ وأكثر مايكون هذا فى الأزمنة المتأخرة ، لاسيما عرب الشام (الوجه الخامس) أن يعبر عنها

(١) المراد بالآل الاهل .

بأولاد فلان ، ولا يوجد ذلك الا فى المتأخرين من أفخاذ العرب على قلة: (كقولهم أولاد زعازع ، وأولاد قريش ونحو ذلك)

مذهب العرب فى التسمية والكنى

الغالب على العرب تسمية أبنائهم بمكروه الأسماء ككلب وحَنْظلة وضرار وحرب وما أشبه ذلك ، وتسمية عبيدهم بمحبوب الأسماء ، كفلاح ونجاح ونحوها . والسبب فى ذلك ما حُكى أنه قيل لأبى الدقيش[1] الكلابىّ: لِمَ تسمون أبناءكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب ، وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح ؟ فقال : إنما نسمى أبناءنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا (يريد أن الأبناء معدة للأعداء ؛ فاختاروا لهم شر الاسماء والعبيد معدة لانفسهم فاختاروا لهم خير الاسماء) كذا فى كتاب (نهاية الارب) وقال الحافظ ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة : كانت للعرب مذاهب فى تسمية أولادهم ، فمنهم من سمى تفاؤلاً بالظفر على أعدائهم نحو غالب وغلاب ومالك وظالم وغارم ومنازل ومقاتل ومعارك ومسهر ومؤرق ومصبح وطارق . ومنهم من تفاءل بنيل الحظوظ والسعادة كسعد وسعيد وأسعد ومسعود وسعدى وغانم ونحو ذلك . ومنهم من قصد التسمية بما غلظ وخشن من الأجسام تفاؤلاً بالقوة كحجر وصخر وفهر وجندل . ومنهم من كان يخرج من منزله وامرأته تمخض فيسمى ما تلده باسم أول ما يلقاه كائناً ما كان من سبع أو ثعلب أو ضبّ أو ظبى أو كلب أو حشيش أو نحو ذلك وكان القوم على ذلك الى أن جاء الله تعالى بالاسلام انتهى . وغالب أسماء العرب كما فى النهاية منقولة عما يدور فى خِزَانة خَيالهم مما يخالطونه ويجاورونه ؛ إما من الحيوان كأسد ونَمِر ، وإما من النبات كنبت وحنظلة ، وإما من الحشرات كحية وحنش ، وإما من أجزاء الأرض كفهر وصخر ونحو ذلك . ورأيت فى سبب

(١) أهمله فى الاصل وصوابه الاعجام

تسمية الموضع الذى قتل فيه الزبير بن العوام (بوادى السباع) وهو من نواحى الكوفة بين البصرة ومكة : أن أسماء بنت دُرَيْم بن القَيْن بن أهْوَد بن بَهراء كان يقال لها أم الأسْبُع وولدها بنو وَبَرَة بن تغلب بن حُلوان بن عمران بن الحاف بن قضاعة يقال لهم السباع ، وهم : كلب وأسد والذئب والفَهد وثعلب وسرحان ونَزْك[1] (بفتح النون وسكون الزاى وهو الحريش[2] ويقال له الكَرْكَدَّن[3] له قرن واحد يحمل الفيل على قرنه على ماقيل) وخثعم (وهو الضبع) والفِزْر (وهو البير نوع من الضباع دون جرم الفهد الا أنه أشد وأجرأ منه) وعنزة (وهى دابة طويلة الخطم تعَدُّ من رؤوس السباع تأتى الناقة فتدخل خطمها فى حيائها وتأكل مافى بطنها ، وتأتى البعير فتملخ عينيه) وهروضَبَع والسِمْع (بالكسر وهو ولد الذئب من الضبع) ودَيْسَم (وهو الثعلب وقيل ولد الذئب) ونِمس (وهو دويبة فوق ابن عرس يأكل اللحم وهو أسود ملمع ببياض) والعِفْر (جنس من البَبْر) وسِيد[4] والدُّلْدُل[5] والظرِبان[6] (دويبّة منتنة الفساء) ووعْوَع (وهو ابن آوى الضخم) وكانت تنزل مع أولادها بهذا الوادى فسمى (وادى السباع) بأولادها تغليبا ، فان السباع جمع سَبع ، وهو يقال على ماله ناب ويعدو على الناس والدواب فيفترسها مثل الاسد ، والذئب والنمر والفهد فأما الثعلب فانه وان كان له ناب فانه ليس بسبع لانه لا عدوان له وكذلك الضبع قال ابن حبيب : مَرَّ وائل بن قاسط بأسماء هذه أم ولد وبَرَة ، وكانت امرأة جميلة وبنوها يرعون حولها فهمَّ بها ، فقالت له : لعلك أسررت فى نفسك منى شيئاً فقال : أجل ! فقالت : لئن لم تنته لأستصرخنَّ عليك أسبعى ، فقال ما أرى بالوادى أحداً ! فقالت : لو دعوت سباعه لمنعتنى منك ، وأعانتنى عليك ! فقال : أو تفهم السباع عنك ؟ فقالت : نعم : ثم رفعت صوتها : يا كلب ! يا ذئب !

(١) قال المجد : النزك بالكسر ويفتح ذكر الضب والورل (٢) دويبة قدر الاصبع بارجل كثيرة أو هي دخال الاذن . (٣) مشددة الدال والعامة تشدد النون (٤) ذئب (٥) القنفذ أو عظيمه أو شبهه (٦) راجع الجزء الاول من هذا الكتاب ص ١٢٧ .

يا فهد : يا دُبّ ! يا سرحان : يا أسد : فجاؤا يتعادون ويقولون : ما خبرك يا أماه ؟ قالت : ضيفكم هذا أحسنوا قِراه ولم تر أن تفضح نفسها عنـد بنيها فذبحوا له وأطعموه ، فقال وائل : ما هـذا إلاّ وادى السباع : فسمى بذلك انتهى ، وقد ذكرت هذه القصة أيضا فى القاموس مع اختصار . . ومنهم من كان يسمى بعبد العزّى وعبد ودّ وعبد مَناة ونحو ذلك مما فيه اضافة العبودية لأحد أصنامهم ، ومنهم من كان يسمى ببيت شعر ونحوه مما يطول ذكره (وأما الـكنى) فقـد وقعت فى كلامهم قديماً وحـديثا ، وكانت العرب تقصد بها التعظيم فان بعض النفوس تأنف أن تخاطب باسمها ولذلك يجاء بهـا للانسان فى مقام الاكرام والاحترام كما يشير الى ذلك قول الشاعر :

أُكنيه حين أُناديه لأُكرمَهُ ولا أُلقّبهُ والسوْأَةَ اللقبا[1]

وأصل الـكنية من الـكناية . وهو أن تتكلم بالشىء وتريد به غيره . ويقال كنيت وكنوت بكذا وعن كذا كنية وكنية والجمع الـكنى وا كتنى فلان بكذا ويكنى بكذا ، وكنيته أبا كذا وبأبى كذا . وجاء التخفيف والتثقيـل والتخفيف أكثر وفلان كَنِى فلان اذا شاركه فى الـكنية كما يقـال سميّه اذا شاركه فى الاسم (وسبب الـكنى فى العرب) أن ملكاً من ملوكهم الاول ولد له ولد توسم فيـه أمارات النجابة فشغف به ، فلما نشأ وترعرع[2] وصلح لأن يؤدب أدب الملوك أحبّ أن يفرد له موضعاً بعيداً من العمارة يكون فيـه مقيماً يتخلّق بأخلاق مؤدبيه ، ولا يعاشر من يضيع عليه بعض زمانه ، فبنى له فى البرية منزلا ونقله اليه ورتب له من يؤدبه بأنواع الآداب العلمية والملـكية ، وأقام له

(١) نسبه أبو تمام فى مختار أشعار قبائل العرب لبعض الفزاريين ولم يسم قائله ، وأورد بعده هذا البيت :

كذاك أدبت حتى صار من خلقى انى وجدت ملاك الشيمة الأدبا

والسوأة منصوب على أنه مفعول معه ، واللقب منصوب بألقبه . والملاك : اسم لما يملك به الشئ . والشيمة : الغريزة والطبيعة . والأدب : اسم لما يفعله الانسان فيتزين به فى الناس .

(٢) اى تحرك ونشأ .

ما يحتاج اليه من أمر دنياه ، ثم أضاف اليه من هو من أقرانه وأضرابه من أولاد بنى عمه وأمرائه ليؤنسوه ، ويتأدبوا بآدابه ، ويحببوا له التأدب بموافقتهم له عليه وكان الملك فى رأس كل سنة يمضى الى ولده ويستصحب معه من أصحابه من له ولد عند ولده ليبصروا أولادهم ، فكانوا اذا وصلوا اليهم سأل ابن الملك عن اولئك الذين جاؤا مع أبيه ليعرفهم بأعيانهم ، فيقال له : هذا أبو فلان وهـذا أبو فلان ؛ يعنون آباء الصبيان الذين هم عنده ، فكان يعرفهم باضافتهم الى أبنائهم ، فمن هنالك ظهرت الـكنى فى العرب ، ثم انتشرت واتسعت حتى صاروا يكنون كل انسان باسم ابنه ، ثم اتسع الامر فصاروا يكنون من لم يكن له ابن وكان له بنت ببنته كما قيل لمسروق بن الاجدع : أبو عائشة ؛ ومن لم يكن له ابن ولا بنت يكنونه بأقرب الناس اليه ، كما كنى النبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم عبد الله ابن الزبير وهو صبى بأبى بكر وهو جد لامه أسماء ، ثم لما ولد له ولد سماه خبيباً ، وتـكنى به فصار له كنيتان ، وجروا فى كنى النساء بالامهات هذا المجرى فقالوا : أم سلمة ، وأم زينب فى الـكنى بالاولاد ، وأم عبد الله فى كنية عائشة (رضى الله تعالى عنها) يعنون عبد الله بن الزبير وهو ابن أختها أسماء حيث لم يكن لها ولد ثم لما شارك الناس فى الولادة باقى الحيوانات كنوا ما كنوا منها بالآباء والامهات كأبى معاوية لابن آوى ؛ وأم عامر للضبع ، وأجروها فى ذلك مجرى الاناسى ، وكذلك فعلوا فى اضافة الابناء والبنات إكراماً واحتراماً لهم باضافتهم الى آبائهم مع ترك أسمائهم فقالوا : ابن عباس ، وابن عمر ، وكانوا يقولون للحسـين : ابن بنت رسول الله (صلى الله تعالى عليه وسلم) كرامةً له بأمه ، وأجروا غير الاناسى مجراها فى ذلك فقالوا : ابن قترة للحية ، وبنت حذف لضرب من غنم الحجاز ، ولما توسعوا فى اجراء الحيوانات العجم مجرى الناس فى الـكنى والابناء حملوا عليها بعض الجمادات فأجروها مجراها ، فقالوا : أبو جابر للخبز ، وأم قار للداهية ، وابن ذكاء للصبح ، وبنت الارض للحصاة ، ثم انهم لم يجروه على سَنَنٍ واحـد

فكنوا بالآباء مذكراً على الاصل فقالوا للذئب : أبو جعدة ، وللنمر أبو جهل ، وكنوا بها مؤنثاً من الجمادات فقالوا للنار : أبو سريع ، وأبو حباحب ، وكذلك فى الامهات فقالوا للقوس : أم السهام ، وللجبل معروف أم سخل ، وجروا فى البنين والبنات هذا المجرى فقالوا للغراب : ابن دأية ، والطائر معروف بنت الماء ، وقد جروا فى الاسماء والكنى على قسمين : معتاد ، ونادر ، فمن المعتاد الكنية بالاولاد ، والنادر كابى تراب لعلىّ (كرم الله تعالى وجهه) واستعملوهما أيضا فى ذى وذات ، فمن المعتاد ذو الجلال ، وذات البروج ، ومن النادر ذو النون ، وذات النطاقين ، ومن الكنى والابناء ما جعل علماً للمسمى لا لمعنى فيه ، ومنها ما جعل صفة لمعنى فيه . وينقسم ما سموه من هذه الاسماء والكنايات والاضافات الى ثلاثة أقسام : الاول ما يلزم (ألْ) كابى الحرث للاسد ، وأبى الحصين للثعلب ، والثانى مالا تدخله أل كأبى جعدة ، وأم عامر ، وابن دأية ، وبنت طَبَق للحية ، والثالث ما يجوز إدخال أل فيه وإسقاطها : كابى مضاء للفرس ، وأم رئال للنعامة ، وابن ماء لطير الماء ، وقد اتسعوا فى الأم أكثر من اتساعهم فى الاب ، واتسعوا فى الابن والبنت أكثر من اتساعهم فى الأم ، حتى قالوا للقصيدة من الشعر : هى ابنة ليلها وفلان ابن بطنه ، وابن فرجه ، اذا كان همه فيهما ، وابن يومه أى لا يتفكر فى غده وقالوا هؤلاء أبناء فارس والروم ، وأبناء مكة وخراسان ، ولم يستعملوا هذا فى الآباء والأمهات ، ولم يقصروا هذا التوسع فى هذه الأسماء خاصة ، بل أجروه فى غيرها ، فقالوا لمن صاحب شيئاً ، أو عاناه ، أو أكثر من استعماله : هو أخوه وأخته ، ومن ذلك قول الشاعر :

أخا الحرب لبّاساً اليها جِلالَها وليس بولاّجِ الخوالفِ أعقلا(١)

(١) أخو الحرب . المؤاخى والملازم لها ، ولباس : مبالغة فى لابس ، والجلال : بكسر الجيم جمع جل بضمها وهو الدرع . والولاج : الكثير الولوج أى الدخول ، والخوالف : جمع خالفة وهى فى الاصل عماد البيت وأراد بها هنا البيت نفسه ، وأعقلا : بالعين المهملة والقاف مأخوذ من أعقل الرجل اذا اضطربت رجلاه من الفزع والخوف وهو حال من الضمير المستتر فى ولاج

وقول أبى الأسود الدؤلى فى الخمر والنبيذ :

فالا يكنها أو تكنه فانه أخوها غذته أمه بلبانها(١)

ومن الأشخاص من له اسم ولا كنية له وهو الأكثر ، ومن له اسم وكنية وهو دون الأول فى الكثرة ، ومن يكون له علم وكنية واسم جنس : كأسامة ، وأبى الحرث ، والأسد ؛ ومن له كنية وليس له اسم غيرها : كأبى براقش (٢) لحيوان معروف ، وأم رباح بالباء الموحدة لطائر أغبر أحمر الجناحين والظهر يأكل العنب ، ومن له كنيتان فى حالين : كعامر بن الطفيل كان يكنى فى السلم بأبى على وفى الحرب بأبى عقيل ، ومن يكون له كنيتان أو أكثر فى حالة واحدة وهو كثير وقد ألف الامام الثعالبى كتاباً حافلاً فى الكنى ، وما يناسبها ، وهو كتاب جليل والله الموفق

من اشتهر من العرب فى معرفة النسب

كانت العرب لمزيد اعتنائها بحفظ الأنساب أكثر الناس معرفةً بها ولم تخلُ قبيلة من قبائلهم من نسَّابةٍ يلحق الفروع بأصولها ، وينفى عنها من ليس منها ، حتى كادوا يكونون جميعاً على هذه الصفة . واستيعاب ذكرهم فى هذا المقام مما لا يمكن غير أنا نذكر من ضرب به المثل فى هذا الباب . منهم :

دغفل بن حنظلة السدوسى من بنى شيبان

فمن أمثالهم « فلان أنسَبُ من دَغْفَلٍ » وهو رجل من بنى ذُهْل بن ثعلبة ابن عُكابة . كان أعلم أهل زمانه بالانساب . زعموا أن معاوية سأله عن أشياء

أو خبر ثان لليس بناء على جواز تعدد خبرها والالف فيه للاطلاق . والبيت للقلاخ بن حزن يمدح نفسه . (١) قبله : —

دع الخمر يشربها الغواة فاننى رأيت أخاها مغنياً لمكانها

— يعنى بأخيها نبيذ الزبيب . يقول : ان لم يكن الزبيبى الخمر أو يكون الزبيبى فانهما أخوان غذيا بلبن واحد ينوب أحدهما مناب الآخر .

(٢) طائر صغير برى كالقنفذ أعلى ريشه أغبر وأوسطه أحمر وأسفله أسود فاذا هيج انتفش فتغير لونه ألواناً شتى . قال الشاعر : كأبى براقش كل لو ن لونه يتخيل

نخبِّره بها . فقال له : بِمَ علمت ؟ قال : بلسان سَؤول ، وقلب عَقول ، على أن للعلم آفةً وإضاعةً ، ونَكَدًا واستجاعة ، فآفته النسيان ، وإضاعته أن تحدث به من ليس بأهله ، واستجاعته أن صاحبه منهوم لا يشْبَع ، ونكده الكذب فيه . وقيل هو دغفل بن حنظلة السدوسى أدرك النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ولم يسمع منه شيئاً . ووفد على معاوية وعنده قُدامة بن جَراد القُريعى فنسبه دغفل حتى بلغ أباهُ الذى ولده . فقال وولد جَرادٌ رجلين أما أحدهما فشاعر سفيه والآخر ناسك فأيهما أنت ؟ قال : أنا الشاعر السفيه وقد أصبت فى نسبتى وكل أمرى ! فأخبرنى بأبى أنت متى أموت ؟ قال دغفل : أما هذا فليس عندى . وقتلته الأزارقة . قال الميدانىّ عند الكلام على قولهم « إنّ البلاءَ مُوَكَّلٌ بالمَنْطِقِ » روى عن المفضل أن أول من قال ذلك أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه فيما ذكره ابن عباس قال : حدثنى على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لما أمر رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم أن يعرض نفسه على قبائل العرب وأنا معه وأبو بكر فدفعنا الى مجلس من مجالس العرب فتقدم أبو بكر وكان نسَّابةً
٢ فسلم فردوا عليه السلام . فقال : ممن القوم ؟ قالوا : من ربيعة . فقال : أمن هامتها أم من لهازمها ؟ قالوا : من هامتها العظمى . قال فأى هامتها العظمى أنتم ؟ قالوا : ذهل الأكبر . قال : أفمنكم عوف الذى يقال له « لاحر بوادى عوف » ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم بسطام[1] ذو اللواء ومنتهى الاحياء ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم جساس بن مرة[2] حامى الذمار، ومانع الجار؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم الحوفزان[3] قاتل الملوك وسالبها أنفسها ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم المزدلف صاحب العمامة الفردة[4] ؟ قالوا : لا . قال : أفمنكم أخوال الملوك من كندة ؟ قالوا : لا . قال :

(١) هو ابن قيس وقصته فى المفاخرة بحضر من كسرى مشهورة .. راجع الاغانى ١٧ — ١٠٦ ، ونهاية الارب للقلقشندى ص ٣٦٦ ، والجزء الاول من هذا الكتاب . (٢) قاتل كليب وقصته مشهورة راجع الجزء الثانى ص ١٥١ ... (٣) هو الحرث بن شريك — أنظر فهرس الجزء الاول والثانى (٤) هو عمرو بن ابى ربيعة بن ذهل بن شيبان .

فمنكم أصهار الملوك من لخم ؟ قالوا : لا . قال : فلستم ذهلاً الأكبر أنتم ذهل الاصغر . فقام اليه غلام قد بقل وجهه[1] يقال له دغفل . فقال : —

انّ على سائلنا أن نسأله   والعبء لاتعرفه أو تحمله[2]

ياهذا : إنك قد سألتنا فلم نكتمك شيئاً . فمن الرجل ؟ قال : رجل من قريش قال : بَخٍ بَخٍ[3] أهل الشرف والرياسة ! فمن أى قريش أنت ؟ قال : من تيم بن مرة قال : أمكنت والله الرامى من صفا الثُغْرة[4] أفمنكم قصى بن كلاب الذى جمع القبائل من فهر وكان يدعى مجمعاً ؟ قال : لا . قال أفمنكم هاشم[5] الذى هشم الثريد لقومه ورجال مكة مسنتون عجاف ؟ قال : لا . قال : أفمنكم شيبة الحمد[6] مطعم طير السماء الذى كان فى وجهه قمر يضئ فى ليل الظلام الداجى ؟ قال : لا قال أفمن المفيضين بالناس أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الندوة أنت ؟ قال : لا قال : أفمن أهل الرفادة أنت ؟ قال : لا . قال : أفمن أهل الحجابة أنت ؟ قال: لا. قال: أفمن أهل السقاية[7] أنت ؟ قال : لا . قال: فاجتذب أبو بكر زمام ناقته فرجع إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فقال دغفل :

صادف درء السيل درءاً يدفعهْ   يهيضهُ حيناً وحيناً يصدعهْ

أما والله ياأخا قريش لو تثبت لأخبرتك أنك من زمعات[8] قريش ولست من الذوائب[9] أو ما أنا بدغفل ! قال فتبسم رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قال على رضى الله تعالى عنه : قلت لأبى بكر : لقد وقعت من الاعرابى على باقعة[10] قال : أجل ! ان لكل طامةٍ طامةً وإن البلاء موكَّلٌ بالمنطق .. وكما كان هذا الرجل مشاراً اليه بالبنان فى معرفة أنساب العرب كذلك كان فى معرفة الانواء

---

(١) أى خرج شعر وجهه (٢) ورد فى نهاية الارب للقلقشندى « والعبء لا نعرفه أو نحمله » فليحقق . (٣) بخ : كلمة تقال عند الرضى بالشئ وهى مبنية على الكسر والتنوين وتخفف فى الاكثر (٤) الثغرة بالضم نقرة النحر بين الترقوتين (٥) ترجمته فى الجزء الثانى ص ٢٨٣ (٦) عبد المطلب بن هاشم (٧) يطلب تفسير هذه الكلمات فى الجزء الثانى ص ٢٨٣ و ٢٨٥ (٨) الزمع محركة رذال الناس (٩) الرؤساء وأهل العز والشرف (١٠) هو الرجل الداهية والذكى العارف الذى لا يفوته شئ ولا يدهى .

وعلم السماء ، وسائر علوم العرب ، وأحوال القبائل .

روى الهيثم بن عدى عن عوانة قال : سأل زياد دغفلاً عن العرب . فقال الجاهلية ليمن ، والاسلام لمضر ، والفتنة لربيعة . قال : فأخبرنى عن مضر . قال : فاخر بكنانة ، وكابر بتميم ، وحارب بقيس ، ففيها الفرسان والنجوم ، وأما أسد ففيها ذل وكيد . وقيل له : ماتقول فى بنى عامر بن صعصعة ؟ قال : أعناق ظباء وأعجاز نساء ... فما تقول فى بنى أسد ؟ قال : عافة قافة ، فصحاء كافة ... فما تقول فى بنى تميم ؟ قال : حجر أخشن إن صادفته آذاك وإن تركته أعفاك ... فما تقول فى خزاعة ؟ قال : جوع وأحاديث ... فما تقول فى اليمن ؟ قال سيود أنوك . قال نصر بن سيار :

إنا وهذا الحى من يمن ... عند الفخار أعزّةٌ أكفاء
قومٌ لهم فينا دماء جمة ... ولنا لديهم أجنة ودماء
وربيعة الأذناب فيما بيننا ... لاهم لنا سلم ولا أعداء
إن ينصرونا لانعز بنصرهم ... أو يخذلونا فالسماء سماء (١)

وعن ابن الاعرابى قال : بلغنى أن جماعة وقفوا على دغْفَلْ النّسَّابة بعد ما كف فسلموا عليه . فقال : من القوم ؟ فقالوا : سادة اليمن . قال : أمن مجدها القديم ، وشرفها العميم ، كندة ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم الطوال قصبا ، الممخضون نسباً ، بنو عبد المدان . قالوا : لا . قال : فأنتم أقودها للزحوف ، وأخرقها للصفوف ، وأضربها بالسيوف ، رهط عمرو بن معديكرب ؟ قالوا : لا . قال : فأنتم أحضرها قرى وأطيشها قنى ، وأشدها لقى ، رهط حاتم بن عبد الله الطائى؟ قالوا : لا . قال : فأنتم الغارسون للنخل ، والمطعمون فى المحل ، والقائلون بالعدل الأنصار ؟ قالوا : نعم ! فانظر إلى هذه الفطنة والذكاء . ومنهم :

---

(١) العقد الفريد ج ٢ ص ٢١٣ من طبعة الجماليه

ورقاء الاشعر

كان أيضاً ممن يضرب به المثل فى معرفة أنساب العرب فمن أمثالهم (أنْسَب من ابنِ لسان الحمَّرَة) وهو أحد بنى تيم اللات بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه واسمه ورقاء الاشعر ويكنى أبا كلابٍ . قال الميدانى : وكان أنسب العرب وأعظمهم كبرا . وفى القاموس : وابن لسان الحمرة كسكرة خطيب بليغ نسابة اسمه عبدالله ابن حصين أو ورقاء بن الأشعر ، ومنهم :

زيد بن الكيس النمرى

وهو من بنى عوف بن سعد بن تغلب بن وائل . قال فى القاموس : كان نسابة . وقال أبوعبيدة : إن زيد بن الكيس ممن يقارب دَغْفَلاً فى العلم بالانساب من العرب . وفيه وفى دغفَل يقول مسكين بن عامر :

فحكّم دَغْفَلاً وارحل اليه ولاتدع المطىّ من الكلال (١)
أو ابن الكيس النمَرِى زيداً ولو أمسى بمُنْخَرِق الشمال (٢)

ومنهم:

النخار بن أوس بن الحرث بن هذيم القضاعى

كان هذا الرجل أيضاً من المقدمين فى علم النسب . قال أبوعبيدة : إنه أنسب العرب . وفى القاموس وشرحه : وكشداد النخار بن أوس بن أبير القضاعى أنسب العرب وهو من ولد سعد هذيم ودخل على معاوية فازدراه وكان عليه عباءة فقال : ان العباءة لاتكلمك . انتهى .

وروى عن أبى بكر بن دريد قال : حدثنا أبو حاتم عن أبى عبيدة قال : كان أبو زُرارة بَجَّال بن حاحب العلقمى من ولد علقمة بن زرارة خرج يريد

(١) الاعياء (٢) مهب الشمال

بنى شيبان[١] بن علقمة حاجاً فرأى حين شارَفَ البلد شيخاً يحفّه ركب على إبل عِتاق برحال مِيسٍ[٢] مُلْبَسَةٍ أَدَما . قال : فعَدَلْتُ وسلمت عليهم وبدأت به وقلت : من الرجل ومن القوم ؟ فأَرَمَّ القوم[٣] ينظرون الى الشيخ هَيبةً له . فقال الشيخ : رجل من مَهْرة بن حَيدان بن عمرو بن الحاف بن قضاعة . فقلت : حيّاكم الله ! وانصرفت . فقال الشيخ : قفْ أيها الرجل نَسبتنا فانتسبنا لك ثم انصرفت ولم تكلمنا ، قال أبو بكر : وروى السكَن بن سعيد عن محمد بن عباد شامَمْتَنَا مُشَامَّةَ الذئب الغنم ثم انصرفت ؛ قلتُ ما أنكرتُ سوءاً ، ولكننى ظننتكم من عشيرتى فأناسبكم فانتسبتم نسباً لا أعرفه ولا أراه يعرفنى . قال : فأمال الشيخ لثامه ، وحَسَرَ عمامته ، وقال : لَعَمْرِى لئن كنت من جِذْمٍ[٤] من أجذام العرب لأعرفنك فقلت : فانى من أكرم أجذامها . قال : فان العرب بنيت على أربعة أركان : ربيعة ، ومُضَر ، واليمن ، وقضاعة ، فمن أيهم أنت ؟ قلت : من مضر . قال : أفمن الارحاء أنت أم من الفرسان ؟ فعلمت أن الأرحاء خِنْدِف . وأن الفُرسان قيس . قلت : من الارحاء . قال : فأنت اذاً من خِنْدِف . قلت : أجَلْ ! قال : أفمن الأرنبة أم من الجمجمة ؟ فعلمت أن الأرنبةَ مُدْركةُ ، وأن الُجمجمة طابخة ، فقلت : من الجمجمة . قال : فأنت اذاً من طابخة . قلت : أجل ! قال : أفمن الصميم أنت أم من الوشِيظ[٥] ؟ فعلمت أن الصميم تميم ، وأن الوشيظ الرباب . قلت : من الصميم . قال : فأنت اذاً من تميم . قلت : أجل ! قال : أفمن الأحلمين أم من الأكرمين أم من الأقلّين ؟ فعلمت أن الأحلمين عمرو بن تميم ، وأن الأكرمين زيد مناة ، وأن الأقلين الحرث بن تميم . قلت : من الأكرمين . قال : فأنت اذاً من زيد مَناة . قلت : أجل ! قال أفمن الجدود ، أم من البحور ، أم من الثماد[٦] ، فعلمت أن الجدود مالك ، وأن البحور سعد ،

(١) وفى نسخة : خرج يزيد بن شيبان ... الخ :(٢) ضرب من الشجر يعمل منه الرحال
(٣) سكتوا (٤) الجذم بالكسر الأصل ويفتح (٥) الخسيس من الرجال
(٦) هو فى اللغة الماء القليل الذى لامادة له .

وأن الثماد امرؤ القيس بن زيد مناة . فقلت : من الجدود : قال : فأنت اذاً من بنى مالك . قلت : أجل : قال أفمن الذُّرَى أم من الأرداف ؟ فعلمت أن الذرى حنظلة ، وأن الأرداف ربيعة ومعاوية وهما الكُرْدُوسان . قلت : من الذرى . قال : فأنت اذاً من بنى حنظلة . قلت : أجل ! قال : أفمن البدور أنت أم من الفرسان أم من الجرائيم ؟ فعلمت ان البدور مالك ، وأن الفرسان يَربوع ، وأن الجرائيم البراجم . فقلت : من البدور . قال : فأنت اذاً من بنى مالك بن حنظلة. قلت : أجل ! قال : أفمن الأرنبة أم من اللَّحيَيْنِ أم من القفَا ؟ فعلمت أن الارنبة دارم ، وأن اللحيين طُهَيَّة والعَدَوِيّة ، وأن القفا ربيعة بن مالك بن حنظلة. قلت: من الأرنبة . قال : فأنت اذاً من دارم . قلت : أجل ! قال : أفمن اللباب ، أم من الهضاب ، أم من الشهاب ؟ فعلمت أن اللباب عبد الله ، وأن الهضاب مجاشع ، وأن الشهاب نهشَل . قلت : من اللباب . قال : فأنت اذاً من بنى عبد الله ، قلت : أجل ! قال : أفمن البيت أم من الزَّوافر ؟ فعلمت أن البيت بنو زرارة ، وأن الزوافر الأحلافُ . فقلت : من البيت . قال : فأنت اذاً من بنى زرارة . قلت : أجل ! قال : فان زرارة ولد عشرةً : حاجباً . ولقيطاً . وعلقمة . ومعبداً . وخُزَيمة . ولبيداً . وأبا الحرث . وعمراً . وعبدمناة . ومالكا فمن أيهم أنت ؟ قلت من بنى علقمة. قال : فان علقمة ولد شيبان ولم يلد غيره فتزوج شيبان ثلاث نسوة : مَهْدد بنت حُمْران بن بشر بن عمرو بن مرثد فولدت له يزيد ، وتزوج عِكْرِشة بنتَ حاجب بن زرارة بن عُدَس فولدت له المأمور (١) وتزوج عمْرة بنت بشر بن عمرو بن عُدَس فولدت لد المُقْعَد فلأيتهن أنت ؟ قلت : لمهدد . قال يا ابن أخى ما افترقت فرقتان بعد مدركة الا كنتَ فى أفضلها حتى زاحمك أخواك فانهما أن تَلِدَنى أمها أحب إلىَّ من أن تلدنى أمك ! يا ابن أخى أتُرَانى عرَفْتُكَ ؟ قلت : أى وأبيك أىّ معرفة ! فلله تعالى در هذه النسابة وما بلغه

(١) كذا بالأصل وحرره .

من العلم ومعرفة الناس وأحوالهم ولو كان أباً لهم لربما اختلفت عليهم أحوال بعضهم وهم بهذا العدد الكثير ، والجمع الغفير ، ولكن المواهب الالهية . والعنايات الربانية ، إذا توفق لها أحد سهلت عليه صعاب الأمور ، وبلغ مالم يبلغه الساعي وان استوعب بمساه الدهور . ومنهم :

صعصعة بن صوحان

قد كان صعصعة هذا من المشاهير بمعرفة أنساب العرب ، ومن المقدمين بعلم أحوال قومه ، في الجاهلية ، وقد أدرك الاسلام . ففي كتاب الأمالي [١] روى عن أبي بكر بسنده الى الشعبي قال : دخل صعصعة بن صوحان على معاوية رضي الله عنه أول مادخل عليه وقد كان يبلغ معاوية عنه فقال له معاوية : ممن الرجل ؟ قال : رجل من نِزار . قال : وما نزار ؟ قال : إذا غزا انْحَوَش ، واذا انصرف انكَمَشَ ، وإذا لقِيَ افترش . قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من ربيعة قال : وما ربيعة ؟ قال : كان يغزو بالخيل ، ويُغير بالليل ، ويَجود بالنَّيْل . قال فمن أي ولده أنت ؟ قال : من أسد . قال : وما أسد ؟ قال : كان اذا طلب أفضى [٢] واذا أدرك أرضى ، واذا آبَ أنضى [٣] . قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من جَدِيلة . قال : وما جديلة ؟ قال : كان يطيل النِّجاد [٤] ، ويُعِدُّ الجياد ، ويُجيد الجلاد [٥] . قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من دُعْمِيّ . قال : وما دعمي ؟ قال: كان ناراً ساطعاً ، وشراً قاطعاً ، وخيراً نافعا . قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من أقصى . قال : وما أقصى ؟ قال : كان يَنزل القارات [٦] ، ويكثر الغارات ويحمي الجارات . قال : فمن أي ولده أنت ؟ قال : من عبد القيس . قال : وما

---

(١) يريد أمالي القالي ج ٢ ص ٢٣٠ (٢) وصل وبلغ (٣) أنضى بعيره: هزله بالسير وأنضى الثوب أبلاه وأخلقه بكثرة اللبس (٤) بالكسر حمائل السيف وفلان طويل النجاد كناية عن أنه طويل القامة (٥) المضاربة والمقاتلة (٦) جمع قارة وهي الجبيل الصغير

عبد القيس ؟ قال : أبطال ذادة ، [1] جحاجحة [2] قادة ، صناديد [3] سادة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من أقصى . قال : وما أقصى ؟ قال : كان ذا رماح مُشْرَعة [4] ، وقدور مُترَعة [5] ، وجفان [6] مفرغة . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال من لُكَيْز . قال : وما لكيز ؟ قال كان يباشر القتال ، ويعانق الابطال ، ويُبَدّد الأموال ، قال فمن أى ولده أنت ؟ قال : من عجل . قال : وما عِجْل ؟ قال : الليوث الضراغمة [7] ، الملوك القماقمة [8] ، القروم القشاعمة [9] ، قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من كعب . قال : وما كعب ؟ قال : كان يسعر الحرب ، ويجيد الضرب ، ويكشف الكرب . قال : فمن أى ولده أنت ؟ قال : من مالك . قال : وما مالك ؟ قال : الهمام للهمام ، والقَمْقام للقَمْقام . قال معاوية : والله ما تركت لهذا الحى من قريش شيئاً . قال : بل تركت أكثره وأحبه قال : وما هو ؟ قال تركت لهم الوبَرَ والمدَرَ ، والأبيض والأصفر ، والصفا ، والمشعر ، والقبة والمفخر ، والسرير والمِنبر ، والمُلْكَ الى المحشر . فقال : أما والله لقد كان يسوؤنى أن أراك أسيراً . فقال : وأنا والله لقد كان يسوءونى أن أراك أميرا ، ثم خرج فبعث اليه فرده ووصله وأكرمه . ولصعصعة هذا أخبار كثيرة يطول ذكرها . ومنهم :

عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان

وهو النسابة الشهير ، وصاحب الفهم الغزير ، روى عن أبى بكر قال : أخبرنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن العباس بن هشام قال : سأل معاوية بعد الاستقامة عبد الله بن عبد الحجر بن عبد المدان وكان عبد الحجر وفدَ على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم فسماه عبد الله فقال له : كيف علمك بقومك ؟ قال .

(١) من الذود وهو الطرد والدفع (٢) جمع جحجح وهو السيد (٣) جمع صنديد وهو السيد الشجاع أو الحكيم أو الجواد أو الشريف (٤) مسددة (٥) ممتلئة (٦) جمع جفنه وهى اناء (٧) جمع ضرغام وهو الأسد القوي الشديد (٨) جمع قمقام وهو السيد (٩) القروم: السادة ، والقشاعمة جمع قشعم وهو المسن من الرجال .

كعلمى بنفسى ! قال : ما تقول فى مُراد ؟ قال : مُدْرِكو الأوتار[١] ، وحماة الذِّمار[٢] ومحرزو الخِطَار[٣]. قال : فما تقول فى النَّخَع ؟ قال : مانعو السَّرْب ، ومُسْعِرو الحرب[٤] ، وكاشفو الكرب ، قال : فما تقول فى بنى الحرث بن كعب ؟ قال فَرَّاجُو الِّلكاك[٥] ، وفُرسان العراك ، ولزاز الضكاك ، تَرَاكِ تَرَاكِ[٦] . قال : فما تقول فى سعد العشيرة ؟ قال : مانعو الضيم ، وبانو الرَّيم[٧] ، وشافو الغيم[٨] . قال : ما تقول فى جُعْفى ؟ قال : فرسان الصباح ، ومعملو السلاح ، ومبارزو الرياح ، قال: ما تقول فى بنى زَبيد ؟ قال : كماة أنجاد ، سادات أمجاد ، وُقُر عند الذِّياد ، صُبُر عند الطراد ، قال ما تقول فى جَنْب ؟ قال : كُفاة يمنعون عن الحريم ، ويفرجون عن الكظيم[٩] . قال . فما تقول فى صُداء ؟ قال : سمام الأعداء ، ومَساعير الهيجاء ، قال : فما تقول فى رَهاء ؟ قال : ينهنهون عادية الفوارس[١٠] ، ويَرِدُون الموت وِرْد الخوامس[١١] . قال : أنت أعلم بقومك !

ومن امثال العرب قولهم : انسب من كثَيِّر

أنسب هنا من النسيب وهو ذكر الشاعر المرأة بالحسن ، والإخبار عن تصرف هواها به ، وليس هو الغزل . وانما الغزل الاشتهار بمودات النساء ، والصبوة اليهن ، والنسيب ذكر ذلك والخبر عنه ، وقولهم « انسب من كثير » أخذ من قول الشاعر :

وكأنَّ قُسًّا فى عُكاظ يخطُب ... وابن المقفَّع فى اليتيمة يُسْهِب[١٢]

(١) جمع وتر وهو الذحل (٢) كل ماحميته فهو ذمار (٣) الشرف (٤) يقال « فلان مسعر حرب » أى هو آلة فى إيقاد الحرب . (٥) الزحام . (٦) الضكاك : مثل الاكاك سواء (٧) الريم : الدرجة ، قال أبو عمرو بن العلاء : أتيت دار قوم باليمن أسأل عن رجل فقال لى رجل منهم « اسمك فى الريم » أى أعلى فى الدرجة . (٨) العطش (٩) المكظوم وهو الذي قد رد نفسه الي جوفه (١٠) ينهنهون : يكفون . (١١) الخمس بالكسر من أظماء الابل وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهى ابل خوامس . (١٢) قس : هو ابن ساعدة الايادى الخطيب المشهور — ترجمته فى الجزء الثانى ص ٢٤٤ وعكاظ : سوق من أسواق — انظر فهرس الجزءين : ١ و٢ ، وابن المقفع : هو أحد فحول البلاغة الذين عبدوا للناس طريق الترسل ورفعوا لهم معالم صناعة الانشاء . ولد حوالى سنة ١٠٦ ﻫ ونشأ بالبصرة على دين

وكأن ليلى الأَخْيَلِيَّةَ تندبُ   وكُثَيِّرَ عزَّةَ يومَ بَيْنٍ يَنْسِبُ(١)

قال الجمحى : كان لكثير فى النسيب نصيب وافر ، وكان له من فنون الشعر ما ليس لجميل ، واسمه (بضم الكاف وفتح المثلثة وكسر الياء المشددة التحتية) وهو كثير بن عبد الرحمن بن أبي جمعة بن الأسود بن عامر ، وقال اللخمى : هو كثير بن أبي جمعة . وكانت أمه جمعة بنت الأشيم ، وكان الأشيم يكنى بابنته هذه فلذلك قيل كثير بن أبى جمعة ، وهو خزاعى ، وأبو خزاعة الصلت بن النضر بن كنانة . وفى ذلك يقول كثير :

أليس أبى بالنضر أم ليس والدى   لكل نجيب من خزاعة أزهرا ؟

فحقق كثير أنه من قريش . وقيل أنه أزدىّ من قحطان . وهو شاعر حجازى من شعراء الدولة الأموية . ويكنى أبا صخر . واشتهر بكثير عزة وهى محبوبته ، وغالب شعره مشبب بها ، وهى كما قال ابن الكلبى : عزة بنت حُميد (بضم المهملة) بن حفص من بنى حاجب بن غفار ، وكنيتها أم عمرو الضَّمْرِيَّة نسبة الى قبيلة ضمرة ، وكثيراً ما يطلق عليها الحاجبية نسبة الى جدها الأعلى كقوله من قصيدة : —

خليلى ! إنَّ الحاجبيةَ طلَّحتْ   قَلُوصَيْكُما وناقتى قد أكلت(٢)

قال ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : بعثت عائشة بنت طلحة بن عبد الله إلى كثير : يا ابن أبى جمعة ما الذى يدعوك إلى ما تقول من الشعر فى عزة

أبيه (المجوسيه) ثم أسلم على يد عيسى بن على عم الخليفة أبى جعفر المنصور العباسى أيام ولايته على كرمان وتسمى (عبد الله) بدل (روزبة) ، ومات قتلا بالبصرة سنة ١٤٢ قتله سفيان بن معاوية والى البصرة لاتهامه بالزندقه وكيده الاسلام . ترجم ابن المقفع كتباً عدة من الفارسية الى العربية من أشهرها كتاب كليلة ودمنة وله كتاب الأدب الصغير ، والأدب الكبير ، والدرة اليتيمه ، وطبع الأدب الكبير معنونا الدرة اليتيمة خطأ ثم طبع فى مصر مسمى باسمه الحقيقى . . . (١) ليلى الاخيلية : شاعرة مشهورة . كان توبة بن الحمير يهواها وخطبها الى أبيها فأبى أن يزوجه إياها — والبيتان لأبى تمام فى الحسن بن وهب

(٢) طلحت : أتعبت وأجهدت ، والقلوص : الناقة الفتية .

وليست على ما تصف من الجمال ؟ لو شئت صرفت ذلك الى من هو أولى به منها أنا أومثلي . وانما أرادت تجربته بذلك . فقال :

إذا وصلتنا خلة كى تزيلها أبينا وقلنا الحاجبية أولُ

لها مهل لايستطاع دراكه وسابقةمِلْحُبِّ لاتتحول[1]

سَنُوليكعرفاًإنأردتوِصالنا ونحن لتلك الحاجبية أوْصَلُ !

فقالت : والله لقد سميتني لك خلة وما أنا لك وعرضت عليّ وصالك وما أريد ! هلاّ قلت كما قال جميل :

يارب عارضة علينا وصلها بالجدّ تخلطهُ بقول الهازل

فأجبتها بالرفق بعد تستّرٍ حبى بثينةَ عنوصالك شاغلى

لو كان فى قلبى كقدرقُلامةٍ وصلتك كتبى أوأتتك رسائلى[2]

وروى القالى فى أماليه عن العتبى فقال : دخلت عَزَّةُ على عبد الملك بن مروان فقال لها : أنتِ عزة كثير ؟ فقالت : نعم ! قال لها : أتَرْوِين قول كثير :

وقد زَعَمَتْ أنى تغيَّرْتُ بعدَها ومن ذا الذى ياعَزَّ لايتَغَيَّرُ ؟

تغير جسمى والخليقة كالتى عهدتِ ولم يُخبر بسرِّك مخبرُ

قالت : انى لا أروى هذا ولكنى أروى قوله :

كأنى أنادى صخرةً حين أعرضتْ من الصُّمّ لو تمشى بها العُصْمُ زلَّتِ

صَفُوحاً فما تلقاك إلا بخيلةً فمن ملَّ منها ذلك الوصل ملَّتِ[3]

وروى ابن قتيبة فى كتاب الشعراء : أن عائشة بنت طلحة قالت لعزة أرأيت قول كثير :

قضى كل ذى دينٍ فوفَّى غريمه وعَزَّةُ ممطولٌ معنًّى غريمُها

(١) ملحب : من الحب (٢) القلامة بالضم : المقلومة أى المقطوعة من طرف الظفر

(٣) يروى « صفوح » موضع « صفوحاً » والصفوح المعرض

ما كان ذلك الدين ؟ قالت : وعدته قبلة فتحرجت منها ! فقالت : اقضيها وعلى إثمها ! وانما صغر اسمه لشدة قصره وحقارته . قال الوقاصي : رأيت كثيراً يطوف بالبيت فمن حدثك أنه يزيد على ثلاثة أشبار فلا تصدقه . وهجاه الحر بن الكناني بقوله :

قصيرٌ قميصٌ فاحشٌ عند بيته يعضُّ القُراد باسْته وهو قائمُ[1]

وكانت وفاته فى خلافة يزيد بن عبد الملك بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة وأكمل السلام . قال جويرة بن أسماء : مات كثير وعكرمة مولى ابن عباس فى يوم واحد فقال الناس : اليوم مات أفقه الناس وأشعر الناس ! ولم يتخلف رجل ولا امرأة عن جنازتيهما . وذلك فى سنة خمس أو سبع ومائة ، وغلبت النساء على جنازة كثير . وقد أطنب الاصبهانى فى الاغانى فى ترجمته . والمقصود : أن لفظ أنسب فى المثل من النسيب لامن النسب . وكذلك قولهم « أنسب من قطاة » هو من النسبة وذلك انها إذا صوتت فانها تنتسب لأنها تصوت باسم نفسها فتقول قطا قطا . والقطاة طير معلوم ، وهى مشهورة بسرعة الطيران والله أعلم .

علم العرب بالاخبار

من تتبع شعر العرب واستقراه ، ووقف على ماقالوه من مثل واستقصاه ، تبين له ما كان للعرب الاولين ، من اليد الطولى والقدم الراسخة فى معرفة أخبار الامم الماضين ، وأخلاقهم وسيرهم ، ودولهم وسياستهم ، لا سيما شعرهم فهو سجل أخلاقهم ، وخزانة معارفهم ، ومستودع علومهم ، وحافظ آدابهم

(١) رواه أبو تمام فى ديوان الحماسة هكذا :

(أظن خليلى من تقارب شخصه ✿ يعض الخ . . . . .)

ولم يسم قائله . والاست · العجز ويراد به حلقة الدبر ، والقراد جمع قرادة وهى دويبة تعلق بأعجاز الابل والخيل ·

ومَعْدِنُ أخبارهم ، ومرجعهم عند اختلافهم فى الأنساب والحروب ، فلذلك قيل « الشعر ديوان العرب » وعليه قول قائلهم :

الشعر يحفَظُ ما أوْدى الزمان به ⠀⠀ والشعر أفخرُ ما ينبي عن الكرم (١)

لولا مقالُ زُهيرٍ فى قصائده ⠀⠀ ما كنت تَعْرِفُ جوداً كان فى هَرِمِ (٢)

ومن شعرهم دون الناس أيامهم وحروبهم : كأبى عبيدة ، وأبى الفرج الأصبهانى ، وغيرهما ، ومن شعرهم ألف أبو حاتم السجستانى (كتاب المعمرين) ! ومن شعرهم ألف من ألف فى أحوال شعرائهم المتقدمين : ككتاب (الشعر والشعراء) لابن قتيبة ، ومن شعرهم ألف من ألف فى جزيرة العرب ، ووصف ما فيها من البلاد ، والجبال ، والأودية ، والوهاد ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى أخبار ملوكهم وأحوالهم ، ومن شعرهم أخذ ما ألف فى الحيوان والنبات ككتاب (الحيوان) للجاحظ ، وكتاب (النبات) لأبى حنيفة الدينورىّ ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى أحوالهم ، وأديانهم ، وما كانوا عليه أيام جاهليتهم ، ومن شعرهم ترجح القول بأن ذا القرنين كان من العرب ، فقد أكثروا ذكره فى أشعارهم (٣) . قال أعشى بن ثعلبة :

والصعب ذو القرنين أمسى ثاوياً ⠀⠀ بالحِنْوِ فى جدثٍ هُناكَ مقيم (٤)

وقال الربيع بن ضبيع

والصعب ذو القرنين عمّر ملكه ⠀⠀ ألفين أمسى بعدَ ذاكَ رميما (٥)

وقال قُسّ بن ساعدة

والصعب ذو القرنين أصبح ثاوياً ⠀⠀ باللَّحْدِ بين ملاعب الأرياح (٦)

---

(١) أودى به : ذهب به . (٢) أخبار هرم فى الجزء الاول من هذا الكتاب ص ٨٤ و ٨٥ و ٨٦ ، وزهير : هو ابن أبى سلمى الشاعر الشهير وأخباره متفرقة فى هذا الكتاب أنظر الفهارس .
(٣) الشواهد الآتية تقدمت فى الجزء الاول ص ١٧٧ و ١٧٨ (٤) قال السهيلى فى الروض الانف (ج ١ ص ١٩٥) : يريد بالحنو حنو قراقر الذى مات فيه ذوى القرنين بالعراق
(٥) الرميم : العظام البالية (٦) ملاعب الارياح : مدارجها

وقال تبع الحميرى

قد كان ذو القرنين قبلى مسلماً ملكاً تدين له الملوك وتحشد(١)
من بعده بِلْقِيس كانت عمتى ملكتهم حتى أتاها الهُدْهُدُ(٢)

وقال بعض الحارثيين يفتخر بكون ذى القرنين من اليمن يخاطب قوماً من مضر :

سَمُّوا لنا واحداً منكم فنعرفه فى الجاهلية لاسم الملك محتملا
كالتبعين وذى القرنين(٣) يقبله أهل الحجا وأحقّ القول ما قبلا

وقال النعمان بن بشير الأنصارىّ

ومن ذا يعادينا من الناس معشر كرام وذو القرنين منا وحاتم

ووقع ذكر ذى القرنين أيضاً فى شعر امرئ القيس ، وأوس بن حَجر ، وطَرَفَة بن العبد وغيرهم ، ويؤخذ من أكثر هذه الشواهد أن الراجح فى اسمه الصعب ، ومن شعرهم علمنا حال قُس بن ساعدة وما كانت العرب تعتقده فيه حتى عظمته تعظيماً ، وضربت شعراؤها بحكمته الأمثال ، وفى كتاب الاصابة شواهد ذلك ، وهكذا حال لقمان بن عاد الأكبر ، والأصغر ، ولُقَيْم بن لقمان ؛ فقد كانوا يعظمون شأنهم فى النباهة ، وعلو القدر ، والعلم ، والحكم ، واللسان ، والحلم ، وهذان غير لقمان الحكيم المذكور فى القرآن على ما يقول المفسرون ، ولارتفاع قدره ، وعظم شأنه ، قال النمر بن تولب

لُقَيْمُ بنُ لقمانَ من أختهِ فكان ابنَ أختٍ له وابْنَما(٤)
ليالى حُمِّقَ فاستحصنتْ عليه فغرَّ بها مظلما(٥)

(١) أى تطيعه الملوك وتجيبه مسرعة وتخدمه (٢) بلقيس بالكسر ملكة سبأ (٣) فى بعض الروايات — كما تقدم فى الجزء الاول — « وذو القرنين » بالرفع (٤) لقيم : بضم اللام وفتح القاف ، و « أخته » اسمها صحر ، و « ابنم » ابن زيدت عليه الميم .

(٥) حمق : بضم الحاء وتشديد الميم ، أى أسكر حتى ذهب عقله ، ويرويه المفضل حمق بفتحتين وزعم أنه يقال حمق إذا شرب الخمر ، والخمر يقال لها الحمق ، واستحصنت بالبناء للفاعل أى أتته وهى حصان كما تأتى المرأة زوجها ، وقوله « فغربها » غر بضم الغين من الغرة وهى الغفلة ويروى موضعه « فجامعها » وقوله « مظلما » بكسر اللام .

فغر بها رجل محكم ... فجاءت به رجلاً محكما(١)

وذلك أن أخت لقمان قالت لامرأة لقمان : إنى امرأة محمقه ، ولقمان رجل منجب محكم ، وأنا فى ليلة طهرى ، فهبي لى ليلتك ، ففعلت فباتت فى بيت امرأة لقمان ، فوقع عليها ، فأحبلها بلقيم ، فلذلك قال النمر بن تواب ما قال ، والمرأة اذا ولدت الحمقى فهى محمقه ، ولا يعلم ذلك حتى يرى ولد زوجها من غيرها أكياسا ، وقد أطال القول فى لقمان ولقيم الجاحظ فى كتاب البيان ، وأورد شواهد العرب فى أحواله ، ومن شعرهم دونت الكتب المؤلفة فى الاضياف ، والفرسان ، وغير ذلك ، وقد بالغ العلامة الهمدانىّ على ما ذكر في كتاب (الوشى المرقوم) فقال : لم يصل الى أحد خبر من أخبار العرب والعجم إلا من العرب ، وذلك لان من سكن مكة أحاط بعلم العرب العاربة ، وأخبار أهل الكتاب ، وكانوا يدخلون البلاد للتجارات فيعرفون أخبار الناس ، وكذلك من سكن الحيرة ، وجاور الاعاجم ، علم أخبارهم ، وأيام حمير وسيرها فى البلاد ، وكذلك من سكن الشام خبر بأخبار الروم ، وبنى اسرائيل واليونان ، ومن وقع بالبحرين وعمان فعنه أتت أخبار السند وفارس ، ومن سكن اليمن علم أخبار الامم جميعاً لانه كان فى ظل الملوك السيارة — الى أن قال — والعرب أصحاب حفظ ورواية ، والمقصود أن العرب كما لا يخفى على من سبر أقوالهم ، وأشعارهم ، كان لهم حظ وافر من رواية الاخبار ، ومن طالع الكتب المؤلفة فى أمثالهم وقف على كثير من المواد التاريخية التى لا شبهة فيها

(١) قوله « فغربها رجل محكم » يروى فى موضعه « فأحبلها رجل نابه » — ونابه من النباهة وهو ارتفاع الذكر — وهو لقمان فجاءت (أى أخته) به (أى بلقيم) « ومحكما » بفتح الكاف أى حكيما ، وهذه الابيات من قصيدة للنمر عدد أبياتها نحو ٢٣ بيتاً . وقد كانت في الاصل محرفة تحريفا شائناً كما أنها وردت كذلك فى البيان والتبيين للجاحظ (ج ١ ص ١٠٣ — ط : مطبعة الفتوح الادبية بمصر) ومما زاد هناك فى الطين بلة أن المصحح الذى أخذ على عاتقه ضبط الكلمات بالشكل الكامل ، خلط فى الضبط خلطا زاد به التحريف غموضا واشكالا ولا حول ! ومرجعنا فى تصحيح هذه الابيات خزانة الادب وتاج العروس.

التاريخ عند العرب فى الجاهلية

لما بسطنا القول على ما كان للعرب أيام جاهليتهم من السابقة فى رواية الاخبار ومعرفة القرون الخالية ، وأحوال الأمم الماضية ، وسير الاجيال السالفة ، كما دل على ذلك شعرهم وأمثالهم وسائر أقوالهم ، أتبعناه بذكر مذهبهم فى التاريخ ، وكيفية ضبطهم للوقائع ، ومبدإ الحوادث . وقد لخصت ذلك من كتاب (أدب الكتاب) للامام أبى بكر الصُّولىّ وهو كتاب فريد فى فنه ، فأقول ومنه المعونة: تاريخ كل شيء غايته ووقته الذى ينتهى اليه ، ومنه : فلان تاريخ قومه فى الجود ، أى الذى انتهى اليه ذلك ، وسئلَ بعضُ أهل اللغة : ما معنى ذلك ؟ فقال : معناه التأخير . وقال آخر : هو إثبات الشيء . ويقال : ورخت الكتاب توريخا لغة تميم ، وأرخته تأريخا لغة قيس وتاريخ وتاريخان وتواريخ ، وأرخ كتابك هذا وورخه ، ولكل نبوّة ومملكة تاريخ * فأما العرب فكانوا يؤرخون بالنجوم قديماً ، وهو أصل ومنه صار الكتاب يقولون : نجمت على فلان كذا حتى يؤديه فى نجوم وأنجمة جمع نجوم ، والعرب تخص بالنجم الثريا ، ومنه قولهم :

طلع النجم غديه ... فابتغى الراعى كسيه

والنجم بعد هذا سائر النجوم يدل الواحد على جميعها . كما يقال : أهلك الناس الدينار والدرهم يراد الجنس . وعلى هذا قرأ أبو عمرو بن العلاء (وسيعلم الكافر لمن عقبى الدار) والنجم ما نجم من النبات ، ومن الرأى ما ظهر وهو غير هذا ، وكانت العرب تؤرخ بكل عام يكون فيه أمر مشهور متعارف ، فأرخوا بعام الفيل ، وفيه ولد النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان فى السنة الثامنة والثلاثين من ملك كسرى أنو شروان (وقد مرت قصة الفيل أوائل الجزء الأول عند ذكر مكة شرفها الله تعالى) وأرخت العرب بعام الخُنان لانهم تماوتوا فيه ، وعظم عندهم أمره . فقال النابغة الجعدى :

فمن يك سائلاً عنى فانى ... من الشبان أيام الخُنان [1]
مضت مائة لعام ولدت فيه ... وعشر بعد ذاك وحجتان

وأرخت قريش بموت (هِشام بن المُغيرة المخزومىّ) لجلالته فيهم ، ولذلك قال شاعرهم :

وأصبح بطن مكةَ مُقشَعِرًّا ... كأنّ الأرض ليس بها هِشامُ [2]

وروى عن الزهرى والشعبى أن بنى اسمعيل [3] أرخوا من نار ابراهيم عليه السلام الى بنائه البيت حين بناه مع اسمعيل ، وان بنى اسمعيل أرخوا من بنيان البيت الى تفرق معدّ (فكان كلما خرج قوم أرخوا بمخرجهم ، ومن بقى بتهامة من بنى اسمعيل يؤرخون من خروج سعد ونهد وجهينة بنى زيد من تهامة [4]) ثم كانوا يؤرخون بشئ شىء الى موت كعب بن لؤى ، ثم أرخوا بعام الفيل الى أن أرخ عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه من هجرة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان سبب ذلك أن أبا موسى كتب اليه : انه يأتينا من قبل أمير المؤمنين كتب ليس لها تاريخ ، فلا ندرى على أيها نعمل ! وروى أيضاً أنه قرأ صكاً محله شعبان فقال : أى الشعبانين الماضى أم الآتى ، فكان سبب التاريخ من الهجرة بعد أن قالوا : نؤرخ بعام الفيل ، وقالوا من المبعث ، ثم اجتمع الرأى على

(١) الخنان « فى الأصل بالتاء بعد الخاء وهو تصحيف » . وأيام الخنان :— على مايزعم الصولى والمرتضى — أيام كانت للعرب قديمة هاج بهم مرض فى أنوفهم وحلوقهم . والمعروف أن الخنان على وزن غراب زكام يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه ، وزمنه كان فى عهد المنذر بن ماء السماء ! قال الأصمعى : كان الخنان داء يأخذ الابل فى مناخرها وتموت منه فصار ذلك تاريخاً لهم . (٢) هشام : كان من أعاظم بنى مخزوم وكان له وابنيه صيت بمكة وذكر منتشر ، وكان سيد قريش فى دهره ، قيل : لما هلك نادى مناد بمكة أن اشهدوا جنازة ربكم! وهو والد أبى جهل .. يستشهد النحويون بهذا البيت على أن « كأن » تكون للتحقيق عند الكوفيين ، وخرجه ابن مالك على أن الكاف للتعليل ... وفى التصريح : انه لاحجة للكوفيين فى هذا البيت لأنه محمول على التشبيه فان الأرض ليس بها هشام حقيقة بل هو فيها مدفون . (٣) كذا الأصل والظاهر أن يكون « بنى اسحاق » فتدبر .

(٤) هذه الجملة التى بين القوسين سقطت من نسخة (أدب الكتاب) التى اعتمدنا عليها فى نشره .

الهجرة ، وقالوا : ما يكون أول التاريخ ؟ فقال بعضهم : شهر رمضان ، وقال بعضهم : رجب فانه شهر حرام والعرب تعظمه ، ثم أجمعوا على المحرم . فقالوا : شهر حرام وهو منصرف الناس من الحج ، وكان آخر الاشهر الحرم ، فصيروه أولاً لانهـا عندهم ثلاثة سرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم والفرد رجب ، فكانت الأربعة تقع فى سنتين فلما صار المحرم أولاً وقعت فى سنة. «قال الصولى» وسألت أبا ذكوان عن أرخت وورخت فقال : مثله أكدت الامر تأكيـداً ووكدته توكيداً لغة تميم وبها نزل القرآن « ولا تنقضوا الايمان بعد توكيدها » وأما التاريخ بلغة قيس فهو الذى يستعمله الناس ، وأما التوريخ لغة تميم فما استعمله كاتب قط ، وان كانت العرب تتكلم به . وغلبت العرب الليالى على الأيام فى التاريخ لأن ليلة الشهر سبقت يومه ولم يلدها وولدته ، ولأن الأهلة لليالى دون الايام ، وفيها دخول الشهر ، وما ذكرهما الله عز وجل الاقدّم الليالى قال الله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقال (سخَّرها عليهم سبعَ ليال وثمانية أيام حُسُوماً) وقال (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) وقال جل اسمه (سيروا فيها ليالى وأياماً آمنين) والعرب تستعمل الليل فى الاشياء التى يشاركه فيها النهار دون النهار لاستثقالهم الليـل فيقولون : أدركنى الليل بموضع كذا لهيبته ، وقال النابغة :

فانك كالليل الذى هو مدركى وإن خِلتُ أنَّ المُنْتأى عنكَ واسعُ(١)

وقالوا صمنا عشراً من شهر رمضان . وانما الصوم للايام ، ولـكنهم أجازوه اذ كان الليل أول شهر رمضان وأنشد أبو عبيدة .

فصامتْ ثلاثاً من مخافةِ ربها ولو مكثتْ خمساً هناكَ لَصَلَّتِ

وأما الشهور فانها كلها مذكرة إلا جمادى الاولى ، وجمادى الآخرة ؛ ويكتبون من شهر كذا إلا فى ثلاثة أشهر يكتبون فى شهر رمضان لقول الله عز وجل (ان كنتم تعلمون * شهر رمضانَ الذى أنزل فيه القرءآن) ويقولون شهر ربيع

(١) راجع ص ١٠١ و ١٠٢ من هذا الجزء .

الاول ، وشهر ربيع الآخر ، لأن الربيع وقت من السنة فخافوا اذا قالوا من ربيع ولم يذكروا الشهر أن يظن أنه من الوقت قال الراعي :

شَهْرَىْ ربيعٍ ما تذوقُ لبونهُم   إلا حموضاً وخمةً وذويلا

كل ما انكسر واسود من النبت فهو ذويل . فاذا رأوا الهلال أول ليلة كتبوا « وكتب ليلة الجمعة غرة كذا ومستهل كذا ومهل شهر كذا » لأنهم يقولون استهل الهلال وأهل الهلال ولا يقولون هل ولا أهل ولا استهل ومن قال ذلك فقد أخطأ ، والاستهلال الصوت والصياح ، ومنه استهلال الصبي صياحه وبكاؤه اذا ولد . فلما كانوا يكبرون عند رؤية القمر كل أول ليلة من الشهر ، وفي أول سائر الشهور لقربهم بمضي الخارج من وقت الحج وسرورهم بالموسم نسبوا الرؤية الى فعلهم فقالوا استهل وأهل ، وسموا القمر هلالاً لهذا المعنى . وكان أهل مكة يجتمعون ويوقدون النار وتلعب ولدانهم وعبيدهم عندها كل أول ليلة من سائر الشهور لفرحهم بقرب وقت الحج ، ويكتبون ليلة الاهلال لغرة كذا ولا يكتبون لليلة خلت ولا لليلة مضت الا من الغد لأن الليلة قد مضت ، وإن كتبوا يوم الجمعة قالوا أول يوم من شهر كذا . ولا يكتبون مستهل ولا مهل لأن الهلال انما يرى بالليل . ويكتبون في اليوم الثاني لليلتين مضتا فاذا جاز ذلك كتبوا لثلاث خلون وأربع مضين . وكتبوا لثمان خلون فيحذفون الياء ويثبتون الالف في الخط فاذا أضافوا (الى) الليالي أثبتوا الياء للاضافة لأنه لا يكون تنوين مع اضافة ، وإنما سقط الياء للتنوين فيسقطون الالف عند ذلك في الخط فيكتبون لثمي ليال ومنهم من يثبتها ، وإنما أنثوا الى قولهم لعشر خلون لتقدم الليالي على الأيام كما سبق . فاذا جاوزوا العشرة قالوا لاحدى عشرة ليلة خلت ومضت ولاثنتي عشرة ليلة . وإنما قالوا ههنا خلت ومضت لأن الترجمة بليلة فوحدوا الفعل لذلك . ويكتبون لخمس عشرة ليلة (خلت) وان شاؤا كتبوا للنصف من شهر كذا ، ولا يكتبون لخمس عشرة ليلة بقيت كرهوا ذلك لأنه

شبيه الاستثناء ولا يكون الا أقل مما استثنى منه ، ولـكن يكتبون بعد النصف بيوم لأربع عشرة ليلة بقيت . وقد كره أهل الورع ذلك لأنهم لا يدرون كم بقى لنقصان الشهر وتمامه فيكتبون لاحدى وعشرين ليلة خلت ، والكتاب على غير هذا . فاذا كان آخر ليلة من الشهر كتبوا سلخ كذا لأنهم يقولون : إنسلخ الشهر انسلاخاً وسلخت أشهر كذا سلخاً وسلوخاً . ولو كتب كاتب فى ربيع الأول ولم يقل فى شهر أو فى رمضان ولم يقل فى شهر جاز وليس بالمختار . قال الشاعر :

جارية فى رَمَضَانَ الماضى تُقَطِّعُ الحديثَ بالإِيماض (١)

ولا يدخلون فى شهر من الشهور الالف واللام الا فى المحرم لأنه أول السنة فعرفوه لذلك كأنهم قالوا هذا الذى يكون أبداً أول السنة . ولا يكتبون لليلة بقيت وأنت فيها كما لم يكتبوا لليلة خلت وأنت فيها . والعرب تسمى أول ليلة من الشهر ليلة البراء لتبرؤ القمر من الشمس . ويسمونها النحيرة لأن الهلال نحرها أى رؤى فى نحرها وأولها ، قال ابن أحمر :

ثم استمر عليها واكف همعٌ فى ليلةٍ نحرتْ شعبانَ أو رجبا (٢)

نحرت شعبان كانت فى نحره وصدره لأنها أوله كما نحرها الهلال اذا رؤى فى أولها ، ونحيرة فعيلة من نحرت مثل قتلت فهى قتيلة « قال الصولى » قال بعض

---

(١) قال أبو عمرو المطرزى: معناه انهم كانوا يتحدثون فنظرت اليهم فاشتغلوا بحسن نظرها عن الحديث ومضت (اه) وقيل غير ذلك . وفى الروض الانف للسهيلى : فى قوله تعالى « شهر رمضان » أختار الكتاب والموثقون النطق بهذا اللفظ دون أن يقولوا « كتب في رمضان » وترجم البخارى والنووى على جواز اللفظين جميعا ! وأورد الحديث « من صام رمضان » ولم يقل « شهر رمضان » . قال السهيلى : ولـكل مقام مقال ، ولابد من ذكر شهر فى مقام وحذفه فى مقام آخر ، والحكمة فى ذكره إذا ذكر فى القرآن وغيره ، والحكمة أيضا فى حذفه إذا حذف من اللفظ وأين يصلح الحذف ويكون أبلغ من الذكر : كل هذا قد بيناه فى كتاب (نتائج الفكر) غير أنا نشير إلى بعضها فنقول : قال سيبويه — ومما لا يكون العمل الا فيه كله المحرم وصفر ، يريد أن الاسم العلم يتناوله اللفظ كله وكذلك إذا قلت الاحد والاثنين فان قلت يوم الاحد أو شهر المحرم كان ظرفا ولم يجر مجرى المفعولات وزال العموم من اللفظ لانك تريد فى الشهر وفى اليوم ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من صام رمضان » ولم يقل شهر رمضان ليكون العمل فيه كله . انتهى . (٢) الواكف : المطر ، وسحاب همع ككتف : ماطر .

الكتاب : التاريخ عمود اليقين ، ونافى الشك ، وبه تعرف الحقوق ، وتحفظ العهود . قال : ولا يقع التاريخ فى شئ من الكتب السلطانية من رئيس أو مرؤوس إلا فى أعجاز الكتب . وقد يؤرخ النظير والتابع ماخلص من الكتب فى صدورها . وقيل: الكتاب بغير تاريخ نكرة بلا معرفة ، وغفل بغير سمة ؛ قال بعض الشعراء فى تاريخ (شخص) توفى :

وكان يؤرّخ علم القرون   فها هو ذا اليوم قد أُرخا !

فاما الذى يروى المستوغر بن ربيعة فهو قوله وهو عجيب من العمر فى مثل زمانه:

ولقد سَئِمْتُ من الحياة وطولها   وازددت من عدد السنين سنينا

مائة أتت من بعدها مائتان لى   وازددت من عدد الشهور مئينا

هل مابقى إلا كما قد فاتنا   يوم يكرّ وليلة تحدونا

وقد ذكرنا عند الكلام على مجامعهم أسماء الأشهر — أيامَ العرب العرباء — وأسماءَها لدى المستعربة وغير ذلك مما يناسبه . ثم إن الصُّولى — رحمه الله تعالى أطنب فى بيان تثنية الأيام والشهور وجموعهما ، وفى ذكر فوائد أخر تتعلق بغرضه ، وقد أهمل كثيراً مما كان العرب تؤرخ به . فقد كان لهم فى اليمن والحجاز ونجد تواريخ كثيرة يتعارفونها خلفاً عن سلف ، وقد كان كل طائفة منهم تؤرخ بالحادثات المشهودة فيها ، وحيث إن استيعاب ذلك يطول اقتصرت على بيان ما كان شائعاً عند جميعهم وهو (زمن الفِطَحْل) فلا بدَّ من تفصيل القول فيه وبالله التوفيق :

زمن الفطحل

هو زمن كانوا يؤرخون به كل ماقدم عليه العهد ومرت عليه العصور والدهور واختلف أئمة اللغة فى تفسيره فقال الخليل : هو الزمن الذى لم يخلق فيه الناس بعد ، ومنهم من قال : هو زمن نوح عليه السلام ، ومنهم من قال : هو الزمن الذى كانت الحجارة فيه رطابا ، واذ كل شىء ينطق ، وبذلك أجاب رؤبة حين سئل

عنه . وفى الصحاح : قال الجرمىّ سألت أبا عبيدة عنه فقال الأعراب تقول : هو زمن كانت الحجارة فيه رطبة . وهو معنى قول بعضهم زمن الفطحل إذ السلام رطاب . وقال أبو حنيفة الدينورى : تقول أتيتك عام الفطحل والهدملة يعنى زمن الخصب والريف . وأنشد أبو عبيدة لرؤبة بن العجاج وقد نزل ماءً من المياه فاراد أن يتزوج امرأة فقالت له المرأة : ما سنك ما مالك ما كذا ؟ فأنشأ يقول :

لما ازْدَرَتْ نَقْدِى وقلَّتْ إبلى تألَّقَتْ واتصلَتْ بِعُكلِ (١)
تسألنى عن السنين كم لى فقلتُ لو عُمِّرْتُ عمر الحِسْلِ (٢)
أو عُمْرَ نوحٍ زمَنَ الفِطَحْلِ والصخرُ مُبْتَلّ كطين الوحْلِ
أو أننى أوتيتُ عِلمَ الحُكلِ علم سليمان كلامَ النملِ
كنتُ رهينَ هَرَمٍ أو قتل

الحكل بالضم من الحيوان مالا يسمع صوته كالذر والنمل . وبعض أئمة اللغة يقول : هو العجم من الطيور والبهائم . وقال الليث : الحكل فى رجز رؤبة اسم لسليمان عليه السلام ، وهو قوله :

لو أننى أوتيتُ عِلم الحُكل علمت منه مستسرّ الدَّخْلِ (٣)
علم سليمان كلام النمل ماردأرْوى (٤) أبداً عن عذل

قال الامام الثعالبى (٥) نقلاً عن القاضى عبد المحسن (٦) . أما قولهم أيام كانت الحجارة رطبة واذ كل شىء ينطق فهما من الأمور التى يتداولها جهلة الأمم ،

(١) ازدرت نقده . رأته قليلا ، والنقد : الدراهم ، وتألقت : تلونت وتغيرت ، ويجوز أن يريد تنكرت وتخبثت من قولهم « امرأة ألقة — بكسر اللام » للخبيثة الصخابة المنكرة ويجوز أن يكون من قولهم تألق البرق أى لمع : يريد أنه لما ذكر لها ماذكر أنكرته وتعجبت منه فلوحت بثوبها الى من يقرب منها ونادت « يال عكل ! » تستغيث بهم ليحضروا فيسمعوا ماتكلم به ، والاتصال : أن يعتزى الرجل الى قبيلته (٢) الحسل : الضب وهو لا تسقط له سن ، ومن أمثالهم فى التأبيد « لاأفعله سن الحسل » والتقدير دوام سن الحسل أى مدة دوامه . وقد زعموا ان الضب يعيش ثلثمائة سنة وانه والحية والقراد والنسر أطول شىء عمراً ولذلك قالوا أحيا من ضب لطول حياته . (٣) الدخل : العيب الباطن (٤) تيس الجبل البرى .
(٥) المضاف والمنسوب ص ٥١٦ (٦) فى المضاف والمنسوب «أبو الحسن بن عبد العزيز »

وهو الظاهر بين اغفال العرب هذا وأمية بن أبى الصلت وهو من حكماء العرب والمتخصصين منها بالرواية قال :

واذ هم لا لبوسَ لهم عراة ‏ ‏ ‏ ‏ وإذصمّ الصلاب لهم رطابُ
بآية قام ينطِقُ كلّ شيء ‏ ‏ ‏ ‏ وخان أمانةَ الديكِ الغُرابُ

وعن مقاتل بن سليمان أنه كان يقول : إذ الصخور كانت لينـة ، واذ قدم ابراهيم عليه السلام أثرت فى صخرة المقام للين الصخور يومئذ ، قال الثعالبىّ ، وليس مذهب هؤلاء فيما رواه مذهب من جعلهـا أجزاء من الأرض تستصلب وتتكسر وتتحجر ، فزعم أنها تيبس عن ندوة وتصلب بعد رخاوة ، ولوأرادوا ذلك لوجدوا متسعاً فى القول ، لـكن الأوهام التى صورت أن البهائم كانت ناطقة عاقلة ، وفروع السعدان[1] ملساء لينة ، وأغصان العوسج خضرة ناعمة — هى التى أدتهم لذلك ، ولا يبعد أن يكون القوم لمـا رأوا الحكماء قصدوا استعطاف الأوهام [2] الى الحـكمة فوضعوا أمثالا ، ووشحوها ببعض الهزل ، وأدرجوا الجد فى اثناء المزح ليخف عن القلوب احتمالها ، ويسرع اليها التفاتها — ظن من لم يقع من التمييز موقع الـكمال بالبهائم انها تنطق وتفصح ، وتبين عن نفسها وتعرب ؛ فاختلقوا أحاديث أضافوها اليها ، وكان للعرب فى ذلك خصوصاً ما زادت به على سائر الأمم لفضل مافيها من اللهج بالـكلام ، وما أوتيت من القدرة على التصرف فى المنطق ، فنظمت لها قريضاً ، وفصلت أسجاعه كالذى حكت عن الضب أنه قال فى صبره على الماء ، وهو عندهم أصبر ذى نفس عليه : « أصبح قلبى صردا . لا يشتهى أن يَرِدا ، إلا عراداً عردا . وصلياناً بردا ، وعكناً ملتبدا ،[3] » ومنهم

(١) نبت من أفضل مراعى الابل ، ومنه « مرعى ولا كالسعدان » (٢) ن : القلوب
(٣) صرد كفرح يصرد صرداً فهو صرد : وجد البرد سريعاً وقوله « الا عراداً عرداً » قال فى النوادر : عرد الشجر وأعرد إذا غلظ وكبر وعراد عرد على المبالغة ثم أنشد « أصبح قلبى الخ » وقال : وانما أراد عارداً وبارداً فحذف للضرورة « عن أبى الهيثم » وقوله « عكناً » صوابه « عنكثا » وهو شجر يشبهه الضب . والصليان : بكسرتين مشددة اللام والياء خفيفة ، نبت من الطريفة .

من يرويها هكذا : « آليت أن لا أرِدا ، إلا عراداً عردا ، وصليانا صردا ، وعنكثاً ملتبدا » وزعموا أن القطا قال للحجل : « حجل حجل ، تفر فى الجبل من خشية الوجل » فقالت لها الحجل : « قطا قطا ، أرى قفاك أمعطا [1] بيضك ثنتان وبيضى مئطا [2] » هكذا جاءت الرواية والامثال تجرى على ألفاظها .. وهذا الوجه الذى ذكره الثعالبي هو المتعين ، وأشباه ذلك فى كلامهم ومحاوراتهم كثيرة مذكورة فى كتب الادب ؛ ومن ذلك ما حكاه أصحاب اللغة فى وجه تسمية بعض الكواكب وعدوه من أكاذيبها وخرافاتها ، مع أن الوجه ما اختاره الثعالبى من أن ذلك لأغراض مقصودة لهم فقالوا : الشعرى كوكبان إحداهما الشعرى العبور والاخرى الشعرى الغميصاء ، أما العبور فانها من نجوم الجوزآء ويسمى كلب الجبار ، وسميت بالعبور لانها كانت والغميصاء وسهيل مجتمعة فانحدر سهيل فصار يمانياً ، وتبعته العبور فعبرت المجرة ، وأقامت الغميصاء فبكت لفقد سهيل حتى غمصت ، والغمص فى العين نقص وضعف ، وأما الغميصاء فأقل نوراً من العبور وهى من نجوم الذراع المبسوطة ، وبينها وبين العبور المجرة ؛ وأصحاب الصور يعدونها فى صورة الكلب الاكبر ؛ وهى تقطع السماء عرضاً ، وليس غيرها من الكواكب كذلك ؛ وهى التى عناها الله تعالى بقوله « وأنه هو ربّ الشعرى » وإنما خصها بالذكر لأن خزاعة كانت تعبدها ، وأول من سن ذلك لهم أبو كبشة وجزء بن غالب جد وهب بن عبد مناف . وقالوا فى وجه تسمية كوكبى الدبران والعيوق : إن العيوق عاق الدبران لما ساق الى الثريا مهراً وهى نجوم صغار مجتمعة فهو يتبعها أبداً خاطباً لها ، والدبران يعوقه ؛ ولذلك سموا هذه النجوم القلاص ، وعليه قول الشاعر [3] :

أما ابن طوق فقد أوفى بذِمّتهِ كما وفى بقلاص النجم حاديها [4]

---

(١) أى لاشعر عليه (٢) يريد « مائتان » وحذفت النون شذوذا (٣) هو طفيل الغنوى
(٤) يقال : وفى بالعهد وأوفى وقد جمعهما طفيل فى بيته ، وحادى القلاص : هو الدبران . قال ذو الرمة : قلاص حداها راكب متعمم هجائن قد كادت عليه تفرق

ولو تتبعنا أمثال ما ذكر مما قصدوا به المعنى الشعرى ، ولم يريدوا به الحقيقة لطال الكلام ؛ وما أوردناه وافٍ بالمرام .

ما كان للعرب من العلم بالسماء وكائنات الجو

كل ما استقصى شعر العرب الأولين ، وما صح عنهم من الامثال والاقوال عرف أن أوائل العرب كان لهم بحث عن الاجرام العلوية ، والآثار الجوية ، وأنهم اشتغلوا بالرصد ، ومعرفة حركات الكواكب ، وطلوعها وغروبها ؛ لاسيما ما يتعلق بها غرضهم ، وتمس اليها حوائجهم ، وقد ألف السلف من أئمة اللغة فيما كان لهم من ذلك كتباً مفيدة جمعوا فيها ما كان للعرب من العلم بالسماء ، وهى كثيرة . منها (كتاب الانواء) لابى فيد (مؤرخ) بن عمر النحوى(١) وآخر لأبى بكر محمد بن حسن المعروف بابن دُرَيْد اللغوى(٢) وآخر لابى عبد الله محمد ابن زياد المعروف بابن الاعرابي(٣) وآخر لابى الحسن النضر بن شُمَيْل النحوى(٤) وآخر لابى اسحق ابراهيم بن محمد الزجاج النحوى(٥) وكل هذه الكتب مشتملة على مسائل مفيدة من مذاهب العرب واعتقاداتهم ، وأتمها فائدة كتاب أبى حنيفة الدينَوَرِى(٦) ، فانه تضمن ما كان عند العرب من العلم بالسماء والأنواء ومهاب الرياح ، وتفصيل الازمان وغير ذلك . وانى مستعيناً بالله ذاكر فى هذا المقام نبذة من ذلك عازياً كل مبحث ألخصه هنا الى محله مما عثرت عليه من كتب الفن ، لئلا يبقى جيد هذا الكتاب عاطلاً من هاتيك الفرائد الغالية الثمن .

---

(١) ترجمته في بغية الوعاة للسيوطي ص ٤٠٠ من طبعة مصر . (٢) فهرست ابن النديم ص ٦١ و٨٨ ونزهة الالباء لابن الانبارى ص ٣٢٣ والبغية ص ٣٠ و٣١ و٣٢ (٣) الفهرست ص ٨٨ والبغية ص ٤٢ وكتاب عبد الرحمن الصوفى ص ٣٢ . (٤) الفهرست ص ٥٢ ونزهة الالباء ص ١١١ والبغية ص ٤٥ (٥) الآثار الباقية للبيرونى ص ٣٣٦ و ٣٤٤ و ٣٤٥ والفهرست ص ٨٨ (٦١) الفهرست ص ٧٨ و٨٨ وطبقات الحنفية لابن قطلوبغا ص ٩٥ والنزهة ص ٣٠٦ والآثار الباقية ص ٣٣٦ و٣٤٧ الى ٣٤٨ .

السماوات والأفلاك

السماء عند العرب كل ما علاك فأظلك ، ولذلك قيل للسقف والسحاب ولأعلى الفرس سماء ، ومن أسمائها الجرباء لاشتباك كواكبها ، والخلقاء اذا لم تر نجومها كالملساء ، والرقيع ، وجربة النجوم ، قال قائلهم :

وخَوَتْ جِرْبَةُ النّجومِ فما تشـ ـرَبُ أرْوِيّةٌ بمرىَ الجَنوبِ [١]

وأصل الجربة القراح من الارض [٢] وكانوا يعتقدون فيها اعتقاد المليين ، ويثبتون العرش والكرسى ، وكانوا يسمون السماء الدنيا الرقيع . والسماء الثالثة الصاقورة والحاقورة ، والسماء الرابعة الخضراء ، ويقولون لما ولينا منها بطن السماء وظهر السماء لما يخالفه ، والهواء الفتق بين السماء والارض وهو السُّكاك والسُّكاكة واللوح ، وعنان السماء ما عنّ منها اذا نظر اليها ولونها العوهق ، والفلك مدار النجوم الذى يضمها ، ومجرة السماء كاثر المجر فيها يسمونها أم النجوم ، ومن كواكبها « الشمس » لانها فى السماء الرابعة تشبيهاً لها بشمسة القلادة ، ويقال لها ذُكاء والاهة والضّحّ والجونة والغزالة والجارية والسراج والبيضاء وبوح وبراح ومهاة والشرق ، إلا أنه لايقال غاب الشرق ولا غابت الغزالة ، قال قائلهم :

تَرَوَّحْنا من اللعباء قصراً وأعجلنا إلاهَةَ أن تؤوبا [٣]

« وقال آخر »

ثم يجلو الظلامَ ربٌّ رحيمٌ بمَهاةٍ شُعاعُها منشورُ [٤]

ودارتها الطفاوة ، واياتها ضوؤها ولعابها ما تراه فى شدة الحر كنسج

---

(١) يقول : صارت كواكب السماء التى كان الناس يسقون بنوئها خالية من الغيث لم يكن عند سقوطها مطر ولم يكن فى الفلاة يسير ماء تشرب منه الشاة الجبلية من الماء الذى تستدره ريح الجنوب (٢) القراح كسحاب الأرض التى لاماء بها ولا شجر أو المخلصة للزرع والغرس (٣) يقول خرجنا بعد الزوال من هذا المكان قرب العشى وبادرنا الى المقصد قبل أن تغرب الشمس (٤) يقول : ثم يكشف ظلمة الليل رب رحيم نظرا لخلقه ليتصرفوا في معايشهم بشمس نورها ينشر فى البلاد

العنكبوت ينحدر من السماء كاللعاب من الحيوان ، ويقال شرقت الشمس وذرت ذروراً أى طلعت وأشرقت أى انساح ضوؤها ، وكسفت ذهب ضوؤها ، والفىء الظل بعد الزوال ، وظل دوم لا تنسخه الشمس ، وطفلت وجنحت مالت للغروب ودنقت أيضاً ، وأشفت غابت إلا شفاً أى قليلا ، ووجبت غابت ، ودلكت اصفرت للغيوب ، وصامت الشمس ركدت نصف النهار كأن لها وقفةً وإبطاء عن الزوال ، ودومت ، قال ذو الرّمة :

مُعْرَوْرِياً رَمَضَ الرَّضْراض يركضُهُ والشمس حَيْرى لها فى الجو تدويمُ(١)

وقَرْن الشمس وحاجبها أول نواحيها ، والمشرق المطلع ، والمغرب المغيب وهما مشرقان ومغربان : مشرق الصيف وهو مطلع الشمس فى أطول يوم ، ومشرق الشتاء وهو أخفض مطالعها فى أقصر يوم ، والمغربان على ذلك ، ودرارى النجوم كبارها

ومنها القمر

ويقال له أول ما يهل (هلال) الى ثلاث ليال ، ثم هو قمر الى ان يهل ثانياً ، قال قائلهم

ثم استمرّت كشقة القمر البد رِ خفوق الأحشاء والكَبِدِ(٢)

ويقال لكل ثلاث ليال من أول الإهلال الى أن ينسلخ الشهر اسم ، فالاول غُرَر ، وبعدها نُفَل ، ثم تُسَع ، ثم عُشَر ، وثلاث بيض ، وثلاث درع ، وثلاث ظُلَم ، وثلاث حنادس ، وثلاث دَآدِىء واحدتها دأداء ، وثلاث مِحاق ، وقد نظمها بعضهم فقال :

(١) معروريا : راكباً والرمض محركة شدة وقع الشمس على الرمل وغيره . والرضراض : الحصى أو صغارها ، ويروى « رمض الرمضاء » وهى الأرض الشديدة الحرارة . ويركضه : يضربه برجله ، ومعنى قوله والشمس حيرى الخ أن الشمس فى كبد السماء واقفة متحيرة الى أن تنحط وتجنح للغروب وذلك من مبدإ الزوال والبيت فى وصف الجندب (٢) البيت فى وصف بقرة . يقول : ثم استمرت هذه البقرة الوحشية من خوف الصائد وهى فى بياضها كالنصف من البدر لجمة قلقة خوفا من الرامى

ثم ليالى الشهر قدماً عرفوا　　كل ثلاث بصفات تعرفُ
فَغُرَرٌ ونُفَلٌ وتسع　　وعُشَرٌ فالبيض ثم الدرع
وظُلَم حنادس دَآدى　　ثم المِحاق لانمحاقٍ بادى

وليلة السواء ليلة تمام القمر ، وهو وفاء ثلاث عشرة ، وبعدها ليلة البدر ، ومَيْسان ليلة النصف ، تقول : أسوينا ، وأبدرنا ، وأنصفنا ، أى صرنا فى ذلك وهذه الليالى الثلاث بيض ثم يدرع الشهر ، أى تسود أوائل لياليه ، من قولك شاة درعاء اذا اسود مقدمها وابيض سائرها ، ثم ينتقص القمر حتى يمتحق ، وهو أن يطلع مع الشمس فيحترق ، وليلة ثمان وعشرين الدعجاء ، وبعدها الدهماء ، وليلة الثلاثين الليلاء ، وابنا جَميرٍ يومان فى المِحاق يستسر فيهما القمر ، والبرَاء آخر ليلة من الشهر لتبرؤ القمر فيه من الشمس وهو السرار . وقيل : بل هو أول يوم من الشهر ، والناحر والنحير كذلك .. وقيل يقال للهلال ما أنت ابن ليلة: رَضاع سُخَيْلَه[1] ، حلَّ أهلها بِرُمَيْلَه ، ما أنت ابن ليلتين : حديث أمَتَيْن . بكذب ومَيْن[2] ، ما أنت ابن ثلاث : حديث فتيات ، غير مؤتلفات[3] ، ما أنت ابن أربع : عَتَمَةُ أمِّ رُبَعٍ[4] لا جائع ولا مُرْضَعْ ، ما أنت ابن خمس ، عَشاء خَلِفات قُعُس[5] ، ما أنت ابن ست : سروبت[6] ، ما أنت ابن سبع : دلجة الضبع ، ما أنت ابن ثمان : قمر أُضحِيان[7] ، ما أنت ابن تسع : ملتقط الجَزْع[8] ، ما أنت

(١) سخيلة : تصغير سخلة . المعنى : ان الهلال يبقى بقدر ماينزل قوم فتضع شاتهم سخلة ثم ترضعها ويرتحلون ، فبقاؤه فى الافق كمقدار رضاع السخلة (٢) يريد أن بقاءه له قليل كمقدار ماتلقى الأمة الامة فتحدثها فتكذب لها حديثا ثم تفترقان . (٣) يريد أنه يبقى بقاء فتيات أبكار اجتمعن على غير ميعاد فتحدثن ساعة ثم انصرفن غير مؤتلفات . (٤) أم ربع: الناقة . يريد أن بقاءه مقدار ماتحلب ناقة لها ولد ولدته فى أول الربيع وهو أول النتاج ، وعتمت إبله اذا تأخرت ومن هذا سميت العتمة لانها آخر الوقت (٥) الخلفات : هى التى استبان حملها ، والقعس جمع قعساء : وهى الداخلة الظهر الخارجة البطن . (٦) أي سرى وبت ، فانى أبقى بقدر مايبيت انسان ويسير . (٧) مضىء (٨) أراد أنه مضىء أبلج لو انقطعت فيه مخنقة فتاة مفصلة بجزع ماضاع منها شىء لضيائه ونقائه .

ابن عشر . ثلث الشهر ، ويقال إن ما بعدها موضوع ، وهو مذكور فى كثير من كتب الادب .

والدارة حول القمر (الهالة) ويقال حلق القمر . والقمر الليلة فى الهالة وحجر اذا استدار بخط . ويقال للقمر الزبرقان والأزهر والشهر والساهور ، وقيل غلافه الذى يستتر فيه اذا خسف وفى التسع البواقى . وقال أمية بن أبى الصلت :

لا نقص فيه غير أنَّ خبيه قمر وسَاهورٌ يسلّ ويغمد (١)

والشامة : السواد فى القمر ، وبذلك ألغز بعضهم :

وما شامةٌ سوداء فى حُرِّ وجهه مجلّلة لا تنجلى لزمان
ويدرك فى تسع وخمس شبابَهُ ويهرم فى سبع معاً وثمان (٢)

ويقولون أضاءت القمراء ، وليلة قمراء وضَحْياء وضَحْيانة وبيضاء ، والمحمقات الليالى البيض تغيم فيها السماء فترى ضوءاً ولا ترى قمراً فتظن انك مصبح وعليك ليل ، يقال غرنى غرور المحمقات ، وبزغ القمر : طلع ، وأفل : غاب ، والفَخْتَ : ضوء القمر ، ويقال : جلسنا فى الفخت وقيل الدأداء الليلة التى يشك فيها أمن الشهر الماضى هى أم من الداخل ، وليلة غُمّى يحال فيها دون الهلال ، وأنشد شاعرهم

وليلةٍ مشتبهٍ أهوالها ليلةِ غُمّى طامس هلالها (٣)

وقد سمت العرب كواكب كثيرة يطول استقصاؤها ، واقتصرنا على ذكر النيرين الاعظمين .

(١) يقول : القمر وغلافه مختلفان فمرة ينزع من غلافه فيكون بدراً كاملا ومرة يرد الى غلافه حتى يكون مستسراً ثم يبدو هلالا فيتزايد الى ان يعود بدراً . (٢) قوله : ويدرك الخ يروى « ويدرك فى ست وتسع شبابه » . قال أبو محمد فى شرح هذين البيتين : الذى عندى انه أراد وما شئ فى حر وجهه شامة سوداء ، ويكون سؤاله عن القمر الا أنه ألغز ، وان حمل الكلام على ظاهره كان السؤال عن الشامة ما سببها ، والمجللة : التى جللت وجهه . لاتنجلى لزمان : لاتذهب فى وقت من الاوقات ، وقوله « ويدرك فى ست وتسع شبابه » يريد أنه يتناهى تمامه الى خمس عشرة ليلة من الشهر ثم يتناقص من وقت تمامه الى آخر الشهر ، وانما أنث أسماء العدد لانه أراد الليالى (كنز الحفاظ فى تهذيب الالفاظ ص ٤٠١) ، وحر الوجه : مابدا منه . (٣) يقول : ورب ليلة مظلمة داجية اذا نظرت اليها رأيت من وحشة ظلمتها مايهولك ويروعك وهى ليلة لايرى فيها هلالها . وغمى : كحبلى وتمد وتضم الاولى مع القصر .

منازل القمر وأنواؤها

المنازل جمع منزل ، والمراد به المسافة التى يقطعها القمر فى يوم وليلة ، وهى عند أهل الهند سبعة وعشرون لان القمر يقطع فلك البروج فى سبعة وعشرين يوماً وثلث فحذفوا الثلث لانه ناقص عن النصف كما هو مصطلح أهل التنجيم ، وعند العرب وساكني البدو ثمانية وعشرون لالانهم تمموا الثلث واحداً كما قال بعضهم بل لانه لما كانت سنوهم باعتبار الاهلة مختلفة الاوائل لوقوعها فى وسط الصيف تارة وفى وسط الشتاء أخرى ، وكذا أوقات تجارتهم وزمان أعيادهم ، احتاجوا الى ضبط سنة الشمس لمعرفة فصول السنة حتى يشتغلوا فى استقبال كل فصل بمايهمهم فى ذلك الفصل من الانتقال الى المراعى وغيرها ، فاحتالوا فى ضبطها فنظروا أولاً الى القمر . فوجدوه يعود الى وضع له من الشمس فى قريب من ثلاثين يوماً ، ويختفى آخر الشهر لليلتين أو أقل أو أكثر ، فأسقطوا يومين من زمان الشهر فبقى ثمانية وعشرون ، وهو زمان ما بين أول ظهوره بالعشيات مستهلاً أول الشهر وآخر رؤيته بالغدوات مستتراً آخره ، فقسموا دور الفلك عليه، فكان كل قسم اثنتى عشرة درجة واحدى وخمسين دقيقة تقريباً ، وهو ستة أسباع درجة ، فنصيب كل برج منه منزلان وثلث ، ثم لما انضبط الدور بهذه القسمة احتالوا فى ضبط سنة الشمس بكيفية قطعها لهذه المنازل فوجدوها تستتر دائماً ثلاثة منازل : ما هى فيه بشعاعها ، وما قبلها بضياء الفجر ، وما بعدها بضياء الشمس ، ورصدوا ظهور المستتر بضياء الفجر ، ثم بشعاعها ، ثم بضياء الشفق ، فوجدوا الزمان بين كل ظهور منزلتين ثلاثة عشر يوماً تقريبا ، فأيام جميع المنازل تكون ثلاثمائة وأربعة وستين ، لكن الشمس تقطع جميعها فى ثلاثمائة وخمس وستين فزادوا يوماً فى أيام منزل (غَفْر) وزادوه ههنا اصطلاحا منهم ، أو لشرفه على ما تسمعه ان شاء الله . وقد يحتاج الى زيادة يومين ليكون انقضاء الثمانية والعشرين مع انقضاء السنة ، ويرجع الامر الى النجم الاول ، واعلم أن العرب

جعلت علامات الأقسام الثمانية والعشرين من الكواكب الظاهرة القريبة من المنطقة مما يقارب طريقة القمر فى ممره أو يحاذيه فيرى القمر كل ليلة نازلاً بقرب أحدها . وأحوال كواكب المنازل مع المنازل كأحوال كواكب البروج مع البروج عند أهل الهيئة من أنها مسامتة للمنازل ، وهى فى فلك الافلاك . واذا أسرع القمر فى سيره فقد يخلى منزلاً فى الوسط ، وإن أبطأ فقد يبقى ليلتين فى منزل أول الليلتين فى أوله وآخرهما فى آخره ، وقد يرى فى بعض الليالى بين منزلتين ، وما يقال فى الشهور ان الظاهر من المنازل فى كل ليلة يكون أربعة عشر وكذا الخفى ، وانه اذا طلع منزل غاب رقيبه وهو الخامس عشر من الطالع سمى به تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط فى المغرب اذا ظهر ذلك فى المشرق — ظاهر الفساد ، لانها ليست على نفس المنطقة ولا أبعاد ما بينها متساوية ، ولهذا قد يكون الظاهر ستة عشر وسبعة عشر ، وقد يكون الخفى ثلاثة عشر

***

وللمنازل أنواء اختلف علماؤها فيها ، ولنذكر ملخص ما أورده أبو القاسم عبد الرحمن بن اسحق الزجاجى فى كتابه المؤلف في الانواء . قال : السنة أربعة أجزاء ، لكل جزء منها سبعة أنواء ، لكل نَوْءٌ ثلاثة عشر يوماً الا نوء الجبهة فانه أربعة عشر يوما (زيد فيه يوم لتكمل السنة ثلثمائة وخمسة وستين يوما) وهو المقدار الذى تقطع فيه الشمس بروج الفلك الاثنى عشر ، لكل برج منزلتان وثلث منزلة ، وكلما نزلت منزلة من هذه المنازل سترته لانها تستر ثلاثين درجة : خمس عشرة درجة من خلفها ، ومثلها من أمامها ، فاذا انتقلت عنها ظهرت ، هكذا قال الزجاجى ، فاذا اتفق أن تطلع منزلة من هذه المنازل مع الغداة ويغرب رقيبه فهو (النوء) ولا يتفق ذلك لكل منزلة منها الا مرة واحدة في السنة ، وهو مأخوذ من ناء ينوء اذا نهض متثاقلا ، والعرب تجعل النَّوْءَ للغارب لانه ينهض للغروب متثاقلاً ، وعلى ذلك أكثر أشعارها ، وتفسير بعض العلماء فى قوله تعالى

(ما إنَّ مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة) أى تميل بهم الى الأرض ، وهـذا التفسير أوجه من قول من يجعل الكلمة من المقلوب . قال : وبعضهم يجعله للطالع وهذا مذهب المنجمين لأن الطالع له التأثير والقوة ، والغارب ساقط لا قوة له ولا تأثير . قال المبرد : النوء على الحقيقـة للطالع من الكوكبين لا الغارب ، وهذه المنازل كلها يطلع بها الفلك من المشرق ويغرب فى المغرب كل يوم وليلة ، وتلك دورة من دوراته

الربع الاول من السنة : الربيع

ابتداؤه فى تاسع عشر يوماً[1] من آذار ، وبعضهم يجعـله فى عشرين يوما منه ، فيستوى حينئذ الليل والنهار ، ويطلع مع الغداة فرغ الدلو الأسفل وهو المؤخر ، وتسقط العوّاء واليها ينسب النوء ، وهى تمد وتقصر وصورته[2] خمسة كواكب كأنها ألف معطوفة الذنب الى اليسار وبذلك سميت . تقول العرب عويت الشىء (اذا) عطفته ، وقال آخرون : بل هى كأنها خمسة أكاب تعوى خلف الأسد . وقال ابن دريد : بل دبر الأسد والعواء فى كلامهم الدبر . النوء الثانى (السّماك) وهما سماكان : أحدهما الاعزل وهو نجم وقاد شبهوه بالاعزل من الرجال وهو الذى لا سلاح معه وهو منزل القمر . والآخر كوكب تقدمه آخر شبهوه بالرمح ، وهما ساقا الاسد وسمى سماكاً لعلوه ولا يقال لغيره اذا عـلا « سماك » هكذا قال سيبويه فيما حكى الزجاجىّ عن أبى اسحق الزجاج غير أنه قال فى الاعزل : وقيل انما سمى الاعزل لان القمر لا ينزل فيه ، وهذا مخالف لما عليه جميع الناس ، النوء الثالث (الغَفْر) وهو ثلاثة كواكب غير زهر ، وبذلك سميت من قولك غفرت الشىء أذا غطيته ومنه سميت الغفارة التى تلبس وقيل انما سمى غفراً من الغفرة وهى الشعر الذى فى طرف ذنب الاسد ، وقال

---

(١) فى العمدة (ج ٢ ص ١٩٧) : « ابتداؤه من سبعة عشر يوماً من آذار » فليتدبر
(٢) فى العمدة « وصفتها »

أبو عبيدة : الغفر كل شعر صغر دون الـكبير وكذلك هو في الريش ، وقال قوم : هو من النكس في المرض يقال أغفر المريض اذا نكس كأن النكس غطى العافية ، النوء الرابع (الزُّبانان) وهما كوكبان متفرقان وهما قرنا العقرب ، وقيل يداها ، وسميا زبانين لبعد كل واحد منهما عن صاحبه من قولهم زبنت كذا اذا دفعته لتبعده ، ومنه اشتقاق الزبانية لانهم يدفعون أهل النار إليها ، النوء الخامس (الاكليل) وهو ثلاثة كواكب على رأس العقرب ولذلك سميت إكليلا ، النوء السادس (القلب) وهو كوكب أحمر وقاد جعلوه للعقرب قلباً على معنى التشبيه ، النوء السابع (الشَوْلة) وهو كوكبان أحدهما أخفى من الآخر ، وهما ذنب العقرب وذنب العقرب شائل أبداً فشبه به ، هذا قول بعضهم ، وبعضهم يجعل الشولة الابرة التي في ذنب العقرب وهم أهل الحجاز فهو أصح على مذهب من زعم أنهما كوكبان فقط

الربع الثاني : الصيف

أول أنوائه (النَعَائم) وهي ثمانية كواكب نيرة : أربعة منها في المجرة تسمى الواردة ، وأربعة خارجة منها تسمى الصادرة ، وشبهت بالخشبات التي تكون على البئر تعلق بها البكرة والدلاء ، الثاني من الصيف (البَلْدة) وهي فرجة لطيفة لاشيء فيها لـكن في جوارها كواكب تسمى القلادة ، وانما قيل لتلك الفرجة بلدة تشبيهاً بالفرجة التي بين الحاجبين اذا لم يكونا مقرونين ، يقال منه رجل أبلد ، ويقال بل شبهت بالبلدة وهي باطن الراحة ، وقيل باطن ما بين السبابة والابهام ، الثالث منه (سعدُ الذابحُ) وهما نجمان صغيران أحدهما مرتفع في الشمال معه كوكب آخر يقال له شاتُه التي تذبح[1] ، والآخر هابط في الجنوب ، الرابع منه (سعد بُلَعَ) وهو كوكبان صغيران مستويان في المجرة شبها بفم مفتوح يريد أن

(١) قلت : ولذلك جعلوا الذابح صفة لسعد بخلاف سائر السعود فانها يضاف اليها مابعدها كما قاله الزجاج في مقدمة أدب الـكاتب .

يبتلع شيئا ، وقيل انما قيل له بُلَع لأنه كان قد بلع شاته وبلع غير مصروف لأنه معدول عن بالع مثل زُفَر وقُثَم وسعد مضاف اليه . الخامس منه (سعدالسعود) وهو كوكبان أحدهما أنور من الآخر سمى بذلك لان وقت طلوعه ابتداء كمال الزرع وما يعيش به الحيوان من النبات . السادس منه (سعد الأخبيـة) وهو كوكبان عن شمال الخباء ، والأخبية أربعة كواكب واحد منها فى وسطها يسمى الخباء لانه على صورة الخباء ، وزعم ابن قتيبة أنه انما سمى بذلك لطلوعه وقت انتشار الحيات والهوام وخروج ما كان مختبئاً منها . السابع منه (فرغ الدلو الاعلى) وهو المقـدم وبعضهم يسميه العرقوة العليا تشبيهاً بعرقوة الدلو ، وهو كوكبان متفرقان نيران ، وقيل له « الفرغ[1] » لانه تأتى فيه الامطار العظيمة ، ويقال بل سميا بذلك لانهما مثل صليب الدلو الذى يفرغ منه الماء

الربع الثالث : الخريف

أول أنوائه (فرغ الدلو الاسفل) وصورته كوكبان مضيئان بينهما بعد صالح يتبعان العرقوة العليا . ثم (الحوت) وهو كوكب أزهر نير فى وسط السمكة مما يلى رأسها ويسمى قلب السمكة . ثم (الشَرَطان) وهو كوكبان مفترقان مع الشمالى منهما كوكب دونه فى القدر ، وسميا شرطين لان سقوطهما علامة ابتداء المطر واتصاله ، وكل من جعل لنفسه علامة فقد أشرطها ، ومنه سمى الشرط لان لهم علامات يعرفون بها . ثم (البُطَيْن) وهو ثلاثة كواكب طمس خفيات وهو بطن الحمل الا أنه قد صغر . ثم (الثريا) وهى النجم ، وصورتها ستة كواكب متقاربة حتى تكاد تتلاصق ، وأكثر الناس يجعلها سبعة ، وقد جاء الشعر بالقولين جميعا ، سميت بذلك لان مطرها عنه تكون الثروة ، وكثرة العدد والغنى ، وهى تصغير ثروى ، ولم ينطق بها الا مصغرة . ثم (الدبَرَان) وهو كوكب وقاد على أثر نجوم

---

(١) لعله (الدلو) كما فى العمدة

تسمى (القِلاص) وقيل له دبران لانه دبر الثريا أى جاء خلفها ، ويقال له أيضا الراعى والتالى والتابع والحادى على التشبيه . ثم (الهَقْعه) سميت بهذا تشبيها بالدارة التى تكون عند عقب الفارس فى جنب الفرس[1] ، وصورتها ثلاثة أنجم صغار متقاربة كآثار رؤوس أصابع ثلاثة فى ثرى اذا جمعت الوسطى والسبابة والابهام وهى رأس الجوزاء .

الربع الرابع : الشتاء

وهو آخر أرباع السنة . أول أنوائه (الهَنْعة) سميت بذلك لانها كوكبان مقترنان كل واحد منهما منعطف على صاحبه من قولك هنعته اذا عطفت بعضه على بعض ، واقترانهما فى المجرة بين الجوزاء والذراع المقبوضة . الثانى (ذراع الأسد المقبوضة) وقيل لها مقبوضة لانقباضها عن سمت الذراع المبسوطة والمقبوضة كوكبان نيران[2] بينهما كواكب صغار تسمى الاظفار ، وانواء الاسد أحمد الأنواء ، ولذلك كثر ذكرها فى الشعر بين العرب . قال الشاعر[3] :

يا مَنْ رأى عارضاً أُسرّ به   بينَ ذراعَىْ وجَبْهَةِ الاسدِ[4]

والذراعان والجبهة من المنازل ، فالذراعان أربعة كواكب كل كوكبين منها ذراع . قال أبو اسحق : ذراع الأسد المقبوضة كوكبان نيران بينهما كواكب صغار يقال لها الأظفار كأنها فى موضع مخالب الاسد فلذلك قيل لها الاظفار ، وانما قيل لها الذراع المقبوضة لانها ليست على سمت الذراع الاخرى وهى مقبوضة عنها ، ونوؤها يكون لليلتين تمضيان من كانون الثانى يسقط الذراع فى المغرب غدوة ، وتطلع البلدة والنسر الطائر فى المشرق غدوة ، وفيه يجمد الماء ، ويشتد

(١) أقول : وقال القلقشندى في صبح الاعشى ج٢ص١٥٧ : سميت بذلك تشبيها بدائرة تكون فى عنق الفرس . (٢) وقال القلقشندى ج٢ص١٥٨ : الذراع — كوكبان أحدهما نير والآخر مظلم بينهما قدر سوط فى رأى العين ... الخ (٣) هو الفرزدق (٤) العارض السحاب الذي يعترض الافق ، وأسر : أفرح ويروى أكفكفه أي أمسحه مرة بعد أخرى ، ويروى أرقت له أى سهرت من أجله . والبيت من شواهد النحو — أنظر المفصل ص ١٠٠

البرد ، والجبهة أربعة كواكب فيها عوج أحدها براق وهو اليماني منها ، وانما سميت الجبهة لانها جبهة الاسد ونوؤها يكون لعشر تمضي من شباط ، تسقط الجبهة في المغرب غدوة ، ويطلع سعد السعود من المشرق غدوة ، وفيه تقع الجمرة الثالثة ، ويتحرك أول العشب ، ويصوت الطير ، ويورق الشجر ، ويكون مطر جود ، ويسمى نوء الأسد لأنه يتصل بها كواكب في جبهة الأسد ؛ وخص الشاعر هاتين المنزلتين لأن السحاب الذي ينشأ بِنَوْءٍ من منازل الأسد يكون مطره غزيراً فلذلك يسر به . قال الأعلم : وصف عارض سحاب اعترض بين نوء الذراع ونوء الجبهة ، وهما من أنواء الأسد ، وانواؤه أحمد الانواء ، وذكر الذراعين والنوء انما هو للذراع المقبوضة منهما لاشتراكهما في أعصاب الأسد ، ونظير هذا قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) يريد من البحرين الملح والعذب ، وانما يخرج اللؤلؤ من الملح لا منهما . وقال شاعر من بني سعد :

وخيفاء ألقى الليثُ فيها ذِراعَهُ فسرَّت وساءتْ كلَّ ماشٍ ومُصْرِمِ
تمشي بها الدرماء تسحب قُصْبَهَا كأنْ بطن حُبْلَى ذات أونين متئمِ

الخيفاء : روضة فيها رطب ويبيس وهما لونان أخضر وأصفر ، وكل لونين خيف ، وبه تسمى الفرس اذا كانت احدى عينيها كحلاء والاخرى زرقاء ، وسمي الخيف خيفاً لأن فيه حجارةً سوداً وبيضا . وقوله : « ألقى الليث فيها ذراعه » يقول : مطرت بنوء الذراع وهي ذراع الأسد فسرت الماشي أي صاحب الماشية ، وساءت المصرم الذي لا مال له لان الماشي يرعيها ماشيته ، والمصرم يتلهف على ما يرى من حسنها وليس له ما يرعيها . وقوله « تمشي بها الدرماء » يعني الأرنب وانما سميت الدرماء لتقارب خطوها ، وذلك لأن الأرانب تدرم درماً تقارب خطوها وتخفيه لئلا يقص أثرها فيقال درماء وكان ينبغي أن يقول دارمة . وقوله « تسحب قصبها » وهذا مثل ، والقُصْب المِعى مقصور والجمع أقصاب ، وانما أراد بالقصب البطن بعينه واستعاره . يقول : فالأرنب قد عظم

بطنهامن أكل الكلأ وسمنت فكأنها حبلى ، والأونان العدلان ، يقول : كان عليها عدلين لخروج جنبيها وانتفاخهما ، ويقال أون الحمار وغيره اذا شرب حتى ينتفخ جنباه ومتئم اسم فاعل من أتأمت المرأة اذا وضعت اثنين في بطن فهي متئم ، والشعر في هذا الباب كثير، الثالث من أنواء الشتاء (النَّثْرة) وهي لطخة ضعيفة بين كوكبين ، وهي ما بين فم الاسد وأنفه ومن الانسان فرجة ما بين الشاربين حيال وترة الانف ، وقيل انما سميت نثرة لانها كقطعة سحاب نثرت الرابع (الطَّرْف) وهو عينا الاسد وهما كوكبان صغيران بينهما نحو قامة في مرأى العين . الخامسة (الجبهة) وهو كما سبق أربعة كواكب معوجة في اليماني لها بريق وهي جبهة الاسد عندهم . السادس (الزُّبْرة) وهو كوكبان نيران في زبرة الاسد وهي موضع الشعر في كتفيه ، ويقال لها الخراتان كأنهما نفذا الى جوف الاسد مشتق من الخرت وهو الثقب . وزعم قوم أنهما عجز الاسد ، والعيان يبطل ذلك كما قاله الزجاجي . السابع (الصَّرْفة) وهو كوكب وقادعنده كواكب طُمْس سمي بذلك لانصراف البرد بسقوطه والحر بطلوعه . فهذه عدة المنازل وصفاتها وانما أضيفت الى القمر دون الشمس وحظهما فيها واحد لظهورها معه . وتسمى (نجوم الاخذ) لان الارض تأخذعنها بركات المطر ، وقيل لأخذ الشمس والقمر سمتها في سيرها .

أقسام الأنواء وأيامها لدى العرب

إعلم أن العرب قسمت المنازل بالنسبة الى أنوائها الى سبعة أقسام على غير الوجه الذي نقلناه عن أبي اسحق الزجاجي فيما سبق (القسم الاول من الانواء البدري) وهو تسعة وثلاثون يوماً من ثمانية أيام خلون من أيلول الى سبعة عشر يوماً خلت من تشرين الاول ونوؤه على قول من يجعل النوء سقوط الكوكب في الغرب مع الغداة سقوط فرغ الدلو المقدم والفرغ المؤخر والحوت (القسم

الثانى الوسمىّ) وهو اثنان وخمسون يوماً ومبدؤه من سبعة عشر يوماً خلت من تشرين الاول الى تسعة أيام تمضى من كانون الاول ونوؤه سقوط الشرطين والبُطَين والثريا والدَبَران (القسم الثالث الولى) وهو مائة وثلاثون يوما ، ومبدؤه من تسعة أيام تمضى من كانون الاول الى ثمانية عشر يوماً تمضى من نيسان ونوؤه سقوط الهقْعه والهَنْعه والذراع والنثرة والطَّرْف والجبهة والزُّبْرة والصَّرْفة والعوّاء والسِّماك (القسم الرابع الغمير والمد) وهما متداخلان وهما اثنان وخمسون يوماً ، ومبدؤه من ثمانية عشر يوما من نيسان الى تسعة أيام تمضى من حزيران ونوؤه سقوط الغَفْر والزُّبانى والاكليل والقلب (القسم الخامس البسرى) وهو ستة وعشرون يوماً ، ومبدؤه تسعة أيام تمضي من حزيران الى خمسة أيام تمضى من تموز وتسميه العامة النفاخ لانه يكبر فيه البلح فيصير بسراً ، وكذلك الفواكه ، والسماك ونوؤه سقوط الشولة والنعائم (القسم السادس بارح القيظ) ويسمى أيضا رياح القيظ الشديدة وهى السموم وتسميه العامة الطباخ لانه يطبخ البسر الذى ينفخه البسرى فيصير رطباً ، وهو تسعة وثلاثون يوما ، ومبدؤه من خمسة أيام مضين من تموز الى ثلاثة عشر يوماً خلت من آب ، ونوؤه سقوط البلدة وسعد بُلَع وسعد الذابح (القسم السابع إحراق الهوى) وهو ستة وعشرون يوما من ثلاثة عشر يوماً من آب الى ثمانية أيام من أيلول ، ونوؤه سقوط سعد السعود وسعد الأخبية .

البعد بين المنازل

إعلم أن البعد من الشَرَطين الى البُطَين اثنتا عشرة درجة ، ومن البطين الى الثريا ثلاث عشرة درجة ، ومن الثريا الى الدَّبران خمس عشرة درجة ، ومن الدبران الى الهقعة أربع عشرة درجة ، ومن الهَقْعة الى الهَنْعة ست عشرة درجة ، ومن الهنعة الى الذراع كذلك ، ومن الذراع الى النثرة ثلاث عشرة درجة ،

ومن الطرف الى الجبهة عشر درجات ، ومن الجبهة الى الزبرة أربع عشرة درجة ، ومن الزبرة الى الصّرفة ثلاث عشرة درجة ، ومن الصّرفة الى العوّاء ست عشرة درجة ، ومن العواء الى السّماك اثنتا عشرة درجة ، ومن السماك الى الغفر مثل ذلك ، ومن الغفْر الى الزّبانى مثل ذلك أيضاً ، وتسمى هذه (متساوية الابعاد) ومن الزباني الى الاكليل أربع عشرة درجة ، ومن الاكليل الى القلب خمس عشرة درجة ، ومن القلب الى الشّوْلة ست عشرة درجة ، ومن الشولة الى النعائم عشرون درجة ، ومن النعائم الى البلدة تسع درجات (وهن أوسط الابعاد) ، ومن البلدة الى سعد الذابح إحدى عشرة درجة ، ومن سعد الذابح الى سعد بلع عشر درجات ، ومن سعد بُلَعْ الى سعد السعود مثل ذلك ، ومنه الى سعد الأخبية مثل ذلك ، ومنه الى الفرغ المقدم مثل ذلك (وهذه الاربعة متساوية الابعاد) ومنه الى الفرغ المؤخر تسع عشرة درجة .

ما تقوله العرب فى طلوع المنازل والكواكب

قال ابن قتيبة فى (كتاب الانواء) يقول ساجع العرب (اذا طلع الشَّرَطان) استوى الزمان ، وحضرت الأوطان ، وتهادى الجيران [١] (اذا طلع البُطَيْن) اقتضى الدين [٢] ، وظهر الزين [٣] ، واقتنى بالعطار والقين [٤] (اذا طلع النجم) يعنى الثريا فالحر فى حذم [٥] ، والعُشْب فى حطم ، والعانات فى كدم [٦] (اذا طلع الدبران) توقّدت الحُزّان [٧] ، وكرهت النيران ، واستعرت الذبان ،

(١) يريد أنهم يرجعون عن البوادى الى أوطانهم ومياههم لان الغدران بالبوادى حينئذ قد قلت والحر قد رق وكاد النبات يهيج باقبال أوائل الحر ، وتهادى الجيران يكون حينئذ لانهم كانوا متفرقين فى النجع ، واذا رجعوا الى مياههم التقوا وتقاربوا فأهدى بعضهم الى بعض . (٢) اقتضاؤهم الدين عند طلوع البطين ، لانهم يرجعون عن البوادى الي أوطانهم — واذا طلع الشرطان — فيتهادون ويتلاقون ولا يزالون كذلك (١٣) يوماً حتى يطلع البطين فيطمئنوا ويقتضى بعضهم بعضا ماله عليه من الدين .
(٣) يريد أنهم عند التلاقي يتجملون باحسن مايقدرون عليه (٤) القين : الحداد . واقتناؤهم بالعطار والقين برهم بهما لحاجتهم الى ابتياع الطيب من العطار ، واصلاح الحداد مارث من آلاتهم وأمتعتهم . (٥) يريد أنه حينئذ يهيج وينكسر (٦) أى تتعاض (٧) الارضون الصلبة واحدها

ويبست الغدران ، ورمت بأنفسها حيث شاءت الصبيان[١] (اذا طلعت الهقعه) تقوض الناس للقلعة ، ورجعوا عن النجعة[٢] ،وأردفتها الهنعه[٣] (اذا طلعت الجوزاء) توقدت المَعْزَاء[٤] ، وكَنَسَتِ الظباء[٥] ، وعرقت العلباء[٦] ، وطاب الخباء[٧] (اذا طلعت العذرة) لم يبق بعُمان بسرة[٨] ، الا رطبة أو تمرة (اذا طلع الذراع) حسرت الشمس القناع[٩] ، وأشعلت فى الأفق الشعاع ، وترقرق السَّرَاب بكل قاع[١٠] ، (اذا طلعت الشعرى) نشف الثرى ، وأجن الصَّرى ، وجعل صاحب النخل يرى[١١] (اذا طلعت النثرة) قَنَأت البسرة ، وجنى النخل بكرة[١٢] ، وأوت المواشى حَجْرَة[١٣] ، ولم تترك فى ذات درّ قطرة (اذا طلعت الطَّرفة) بكرت الخُرفة ، وكَثرت الطّرفة ، وهانت للضيف الكلفة[١٤] (اذا طلعت الجبهة) تحانت الولهة ، وتنازت السفهة ، وقلّت فى الأرض الرفهة[١٥] ، (اذا طلعت الصَّرْفة) احتال كل ذى حرفة[١٦] ، وجفر كل ذى نطفة[١٧] ،

حزبز وانما تتوقد اشدة وقع الشمس (١) ذلك لانهم لا يخافون بردا ولامطرا (٢) قال المجد النجعة بالضم طلب الكلأ فى موضعه (٣) أى مع طلوعها يرجع الناس الى مياههم

(٤) الارض الصلبة تتوقد بحر الشمس (٥) يريد أنها تدخل الكنس فى شدة الحر ، واحدها كناس وهو مستترها فى الشجر (٦) يريد العلباوين فى العنق (٧) لانه يكن فى الحر (٨) عمان كغراب بلدة باليمن شديدة الحر ، فاذا بسر النخل بالبصرة صرم بعمان (٩) أى كشفت القناع ، يريد اشتداد حرارتها (١٠) ترقرق : تحرك ، والسراب : ماتراه نصف النهار كانه ماء ، والقاع : أرض سهلة مطمئنة قد انفرجت عنها الجبال والآكام (١١) يريد تغير الماء المجتمع فى الغدران والمناقع لشدة الحرارة وانقطاع المر ارعنه و تبين لصاحب النخل ثمرة نخله لانه حينئذ يكثر (١٢) يريد اشتدت حمرة البسرة حتى كادت تسود وذلك أول وقت الصرام فيجنون النخل بكرة لانه فى ذلك الوقت بارد ببرد الليل (١٣) أى ناحية منهم لحاجتهم الى ألبانها وإنما يحلبونها فى هذا الوقت ويستقصون ما فى ضروعها لانهم همو افيه بفصال الاولاد فلا يبقون فى الضروع لها شيئاً لتنال من الرعي وتسلو عن الامهات (١٤) يريد أن خرفة التمر تبكر فى وقت طلوعه ، وتكثر الطرفة عندهم ، وتهون الكلفة للضيف لكثرة التمر فى ذلك الوقت وكثرة اللبن الذى يستقصونه من الضروع لفصال الاولاد عن الامهات (١٥) وانما تحانت الولهة لان اولادها قد ميزت عنها وفصلت ، فتسمع حنين الامهات ، ويكثر أيضا عند الفصال الموت فى الاولاد والامهات تحنّ ، وتتناز السفهة لانهم فى خصب من اللبن والتمر فيبطرون ، واذا تنازت السفهة قلت الرفهة أى الرحمة واحتاجوا الى حفظ أموالهم وجمع مواشيهم ونعمهم خوف الغارة (١٦) يريد أن الشتاء قد أقبل وكل ذى حيلة يضطرب ويحتال للشتاء ما يصلحه فيه ، وكانت العرب تقول « من غلى دماغه فى الصيف غلت قدره فى الشتاء » . (١٧) يريد عدل عن الضراب فى هذا الوقت لان

وامتيز عن المياه زلفة[١] (اذا طلع العوّاء) ضرب الخباء ، وطاب الهواء ، وكره العراء[٢] ، وشنن السقاء[٣] (اذا طلع السّماك) ذَهَبَ العِكاك[٤] ، وقلّ عن الماء اللكاك[٥] (اذا طلع الغَفْر) اقشع السفر[٦] ، وتزيل النضر[٧] ، وحسن فى العين الجمر (اذا طلع الزُّبانى) أحدثت لكل ذى عيال شانا ، ولكل ذى ماشيةٍ هوانا وقالوا كان وكانا ، فاجمع لأهلك ولا توانَى[٨] (إذا طلع الاكليل) هاجت الفحول ، وشمرت الذيول ، وتخوفت السيول (اذا طلع القلب) جاء الشتاء كالكلب ، وصار أهل البوادى فى كرب ، ولم تمكن الفحل إلا ذات ثرب[٩] (اذا طلعت الشولة)أعجلت الشيخ البولة ،واشتدت على العائل العولة[١٠]وقيل شتوة زولة[١١] (اذا طلعت العقرب) جَمَسَ المذنب[١٢] وقرب الأشيب ، ومات الجُنْدَب[١٣] ولم يصِرَّ الأخطب[١٤] (اذا طلعت النعائم) توسقت البهائم[١٥] وخلص البرد الى كل نائم ، وتلاقت الرعاء بالنمائم[١٦] (اذا طلعت البلدة) حممت الجعدة[١٧] وأكلت القشْدَة[١٨] وقيل للبرد : إهده[١٩] (اذا طلع سعد الذابح) حمى أهله النابح[٢٠] ونفع أهله الرائح[٢١] وتصبح السارح[٢٢]

المخاض فيه وهى الحوامل من الابل قد ظهر بها الحمل وعظمت بطونها فليس يدنو منها الفحل .

(١) يريد أنهم يخرجون متبدين ويفارقون المياه التى كانوا عليها لطلب الكلأ والانتجاع (٢) لان البرد حينئذ بالليل يؤذى ويكره العراء يريد النوم فى الصحارى الباردة (٣) أى ييبس لانهم قد أقلوا استقاء الماء فيه (٤) العكاك : الحر يريد أنه لا يبقى منه شئ عند طلوعه (٥) يريد الازدحام عليه لقلة شرب الابل فى ذلك الوقت . (٦) المسافرون (٧) يريد ذهاب النضارة عن الارض والشجر بتغيير الكلأ والورق (٨) يريد أن البرد قد هجم فشغل صاحب العيال وابتذل صاحب الماشية نفسه فى تتبع مصالحها ، وانهم أكثروا الحديث والقول . (٩) يريد ذات سمن وشحم لانها أحمل للبرد من الهزيلة فهى تتقدمها (١٠) الحاجة (١١) عجيبة (١٢) جد الماء فى مذانب الاوديه (١٣) الجراد (١٤) الشقراق أو الصرد ، والصر : الصياح (١٥) أى تشمت وتغيرت (١٦) لانهم حينئذ يفرغون ولا يشغلهم رعى فيتلاقون ويدس بعضهم الى بعض أخبار الناس (١٧) الجعدة : نبت ، يريد طلعت فاخضرت الارض لها ، وحمم وجه الغلام اذا بقل ، وحمم الرأس اذا اسود بعد الحلق من غير أن يطول (١٨) هى الزبدة الرقيقة ، وتعرف عندنا بالعراق باسم (الكشوة) بالكاف الفارسية ، ولاشك أنها محرفة عن القشدة يريد ان الزبد عندهم فى ذلك الوقت يكثر (١٩) أى يقال « اهد أهنا » لشدة ما يقاسون منه (٢٠) يريد : الكلب يلزم حينئذ أهله فلا يفارقهم لشدة البرد وكثرة اللبن فهو يحميهم وينبح دونهم (٢١) أى أنهم يأتيهم بالحطب اذا راح فينفعهم بذلك (٢٢) أى لم يبكر بماشيته لشدة البرد

وظهر فى الحى الأنافح [١] (اذا طلع سعد بلع) اقتحم الرُّبَع [٢] ولحق الهبع [٣] وصيد المُرَع [٤] وصار فى الارض لمع [٥] (اذا طلع سعد السعود) نضر العود [٦] ولانت الجلود [٧] وكره فى الشمس القعود (اذا طلع سعد الأخبية) دهنت الأسقية [٨] ونزلت الأحوية [٩] وتجاورت الأبنية (اذا طلع الدلو [١٠]) هيب الجذو [١١] وأنسل العفو [١٢] وطلب اللهو الخلو [١٣] (اذا طلعت السمكة) أمكنت الحركة — وتعلقت بالثوب الحسكة [١٤] ونصبت الشبكة [١٥] وطاب الزمان للنسكة [١٦] ولهم غير ذلك من الأسجاع فى سائر الكواكب وأنوائها ؛ واستيعابها فيما أعد لها من الكتب .

الطالع والغارب من المنازل والرقيب منها

إعلم أن المنازل كما كانت ثمانية وعشرين كانت ثلاثة عشر منها ظاهرة

(١) جمع انفحة بكسر الهمزة وهى شئ يستخرج من بطن الجدى الرضيع أصفر فيعصر فى صوفة مبتلة فى اللبن فيغلظ كالجبن (٢) الربع كصرد : الفصيل ينتج فى الربيع وهو أول النتاج ، يريد أنه يقوى فى مشيه ويسرع فلا يضبط (٣) أى ان الهبع أيضا قد قوى شيئاً فهو يلحقه ، وهو : ما نتج فى أول النتاج وهو ضعيف ، وانما سمي هبعاً لانه اذا مشى خالف أمه هبع أي مد عنقه فيستعين بعنقه لضعفه (٤) جمع مرعة كهمزة وغرفة وهو طائر يشبه الدراج ، كأنه فى هذا الوقت يقطع (٥) أى قطع من الكلأ (٦) يريد أن الماء قد جرى فيه قبل ذلك فصار ناضراً غضاً (٧) وانما لانت بذهاب يبس الشتاء وقحله (٨) وإنما تدهن الاسقية لانها فى الشتاء قد يبست وشننت لتركهم الاستقاء فيها فتدهن فى هذا الوقت عند الحاجة اليها (٩) جمع حواء وهى جماعات بيوت الناس ، والحلال مثلها ، وهى تكون من وبر وشعر كانهم فى هذا الوقت ينتقلون من مشتاهم ويتجاورون (١٠) جمع الساجع فى سجعه القول للفرغين جميعاً بذكره «الدلو»

(١١) يريد أن الرطب جف وخيف أن لا تكتفي به الابل من الماء (١٢) أى سقط نسله أو حان أن يسقط وهو وبره الذى يستجد مكانه كل سنة ، والعفو : ولد الحمار (١٣) يريد طلب التزويج ، واللهو : المرأة . وهو النكاح . قال الله تعالى (لو أردنا أن نتخذ لهواً لاتخذناه من لدنا) أى لو أردنا صاحبة لاتخذنا ذلك عندنا ولم نتخذه عندكم لو كنا فاعلين ، وانما يطلب الخلو التزويج فى هذا الوقت لانه قد خرج من ضيق الشتاء وشدته ، وأمكنه التصرف وابتغاء الرزق فطلب التزوج (١٤) يريد شوكة السعدان . يعنى أن النبت قد اشتد وقوي فتعلقت الحسكة بالثوب وغيره (١٥) لان الطيور حينئذ تسقط فى الرياض وتصوت

(١٦) يعنى للنساك المتقللين الذين يسيحون فى الارض ولا يبالون كيف أخذوا ولا يتأذون بحر ولا برد

فى الافق الأعلى ، وثلاثة عشر فى الافق الاسفل ، والطالع فى حكم الطلوع ، والغارب فى حكم الغروب ، فاذا عرفت الطالع كان رقيبه الخامس عشر . وإنما سمى الغارب رقيباً تشبيهاً له برقيب يرصده ليسقط من المغرب اذا ظهر ذلك من المشرق ، والطالع والغارب كما يعدان لاهل الأفق الأعلى كذلك يعدان لاهل الافق الاسفل ، وبقية الثلاثة عشر الظاهرة واحد منها متوسط فى وسط السماء ، وستة منها الى جهة المشرق ، وستة الى المغرب ، وكذلك الثلاثة عشر السفلية ، فاذا غربت منزلة طلعت من المشرق أخرى فيتوسط ما بعد المتوسط فى العدد ، ومهما كان الطالع فالخامس عشر منه الغارب ، والثامن منه متوسط .

بروج الفلك الاثنا عشر

قسم العرب الفلك الى اثنى عشر قسماً وسموا كل قسم برجاً ، وهى : الحَمَلُ والثَّوْر والجَوْزاء (ويسمى التوأمين) والسَّرَطان والاسد والسنبلة (وتسمى العذراء أيضا) وهذه البروج الست شمالية ، والميزان والعقرب والقوس (ويسمى الرامى أيضا) والجَدْى والدلو (ويسمى ساكب الماء والدالى أيضا) والحوت (ويسمى السمكتين أيضا) وهذه الست جنوبية ، وجعلوا كل ثلاثة منها لفصل من فصول السنة الاربعة . ونظم بعضهم هذه البروج على الترتيب المعتبر عندهم فقال :

حَمَلَ الثورُ جوزةَ السرَطَان ورعى الليث سُنْبل الميزان
ورمى عقرب بقوس جديا نزحت دلوها بركة الحيتان (١)

وهذه الأسامى المذكورة مأخوذة من صور توهمت على المنطقة من كواكب ثابتة تنظمها خطوط موهومة وقت وقت التسمية فى تلك الأقسام (فللحَمَل) ثلاثة عشر كوكباً على صورة كبش ذى قرنين مقدَّمه الى المغرب ومؤخره الى

(١) كذا والرواية الصحيحة :
وزنوا عقرباً وقوساً بجدى * ومن الدلو مشرب الحيتان

المشرق وظهره الى الشمال ورجلاه فى الجنوب وقد التفت الى خلفه (وللثور) اثنان وثلاثون كوكباً على صورة مقدم ثور مقطوع من سرته وقد نكس رأسه ، مقدمه الى المشرق ومؤخره الى المغرب ، ومن كواكبه الثريا والدَّبَران (وللتوأمين) ثمانية عشر على صورة صبيين عريانين معتنقين فى جوز السماء (أى وسطها) رأساهما فى الشمال والمشرق أى فيما بينهما ، وأرجلهما الى المغرب والجنوب (وللسَّرَطان) تسعة كواكب على صورته مقدمه الى المشرق والشمال ومؤخره الى المغرب والجنوب (وللأسد) سبعة وعشرون على صورته وجهه الى المغرب وظهره الى الشمال والنيّر الذى هو فيها هو قلب الأسد ، ومنها الهلبة وهى كواكب مجتمعة متكاثفة من جملتها الضفيرة (وللعذراء) ستة وعشرون كوكباً على صورة جارية ذات جناحين أرسلت ذيلها ، رأسها الى المغرب والشمال ، وقدماها الى المشرق والجنوب ، ويدها اليسرى مسبلة مع جنبها ، واليمنى مرفوعة حذو منكبها وقد قبضت بها سنبلة والنيّر الذى على كفها اليسرى هو السِّماك الأعزل (وللميزان) ثمانية على صورة ميزان كفتاه نحو المغرب ، وعموده نحو المشرق (وللعقرب) أحد وعشرون على صورتها ، رأسها الى الشمال ، وحُمَتُها [١] نحو الجنوب والمشرق ، والأحمر الذى فيه هو قلب العقرب (وللرامى) أحد وثلاثون كوكباً على صورة كأنها جسد دابة الى العنق وهو فى المشرق ثم يخرج من مغرز العنق نصف رجل من عند الحِقْو [٢] عليه عمامة ذات ذوائب ، وقد وضع السهم فى قوسه ، وأغرق فى النزع نحو المغرب (وللجَدْى) ثمانية وعشرون كوكباً على صورة النصف المقدم من جَدْى ذى قَرْنين رأسه ويداه نحو المغرب وظهره الى الشمال والباقى كمؤخر سمكة الى ذنبها (ولساكب الماء) اثنان وأربعون كوكبا على صورة رجل قائم ، رأسه فى الشمال ورجلاه فى الجنوب متوجه الى المشرق مادّ

(١) الحمة على وزن ثبة : الابرة التى تضرب بها العقرب (٢) بالفتح ويكسر : الكشح أو الازار أو معقده .

اليدين باحداهما كوز قد قلبه وانصب الماء الى مقام رجليه وجرى من تحتهما الى فم الحوت (وللسمكتين) أربعة وثلاثون على صورة سمكتين قد وصل ذنب إحداهما بذنب الأخرى بخيط طويل من كواكب على تعريج يسمى خيط الكتان إحداهما وهى المتقدمة رأسها الى المغرب وذنبها الى المشرق ، ورأس الأخرى الى الشمال وذنبها الى الجنوب ، ولا يذهب عليك أن هذه الكواكب عند البروج متحركة بحركة الفلك الثامن فلا محالة تنتقل هذه الصور عن مواضعها فى تلك الأقسام ، والله تعالى أعلم

فصول السنة على مذهب العرب ، وما لهم فيها من الاختلاف

إعلم أن العرب قسموا السنة الى أربعة أجزاء (فجعلوا الجزء الأول الصَّفَرِيّة) وسموا مطره الوسمى ، وأوله عندهم سقوط عرقوة الدلو السفلى ، وآخره سقوط الهَنْعه (وجعلوا الجزء الثانى الشتاء) وأوله عندهم سقوط الهَنْعه ، وآخره سقوط الصَّرفه (وجعلوا الجزء الثالثَ الصيف) وأوله عندهم سقوط العواء ، وآخره سقوط الشولة (وجعلوا الجزء الرابع القيظ) وسمّوا مطره الخريف ، وأوله عندهم سقوط النعائم ، وآخره سقوط عرقوة الدلو العليا ، كذا فى كتاب (در اللآلى) وقال ابن قتيبة فى باب ما يضعه الناس فى غير موضعه وهو أول كتابه (أدب الكاتب) : ومن ذلك الربيع يذهب الناس الى أنه الفصل الذى يتبع الشتاء ويأتى فيه الورد والنَّوْر ، ولا يعرفون الربيع غيره ، والعرب تختلف فى ذلك ، فمنهم من يجعل الربيع الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف وفصل الشتاء بعده ، ثم فصل الصيف بعد الشتاء وهو الوقت الذى تدعوه العامة الربيع ، ثم فصل القيظ بعده وهو الذى تدعوه العامة الصيف ، ومن العرب من يسمى الفصل الذى تدرك فيه الثمار وهو الخريف الربيع الأول ، ويسمى الفصل الذى يتلو الشتاء ويأتى فيه الكمأة والنور الربيع الثانى ؛ وكلهم مجمعون على أن الخريف هو الربيع

قال شارحه ابن السيد : مذهب العامة فى الربيع هو مذهب المتقدمين ، لأنهم كانوا يجعلون حلول الشمس برأس الحمل أول الزمان وشبابه ، وأما العرب فانهم جعلوا حلول الشمس برأس الميزان أول فصول السنة الأربعة ، وسموه الربيع . وأما حلول الشمس برأس الحمل فكان منهم من يجعله ربيعاً ثانياً فيكون فى السنة على مذهبهم ربيعان ، وكان منهم من لا يجعله ربيعاً ثانياً فيكون فى السنة على مذهبهم ربيع واحد ، وأما الربيعان من الشهور فلا خلاف بينهم أنهما اثنان ربيع الأول وربيع الآخر

وقال المرزبانى فى كتاب صنفه فى الانواء أتى فيه بفوائد كثيرة مقداره مائة وعشرون كراسة : ومن العرب من يقسم السنة نصفين ويبدأ بالشتاء لأنه ذكر ، والصيف أنثى ، قال : وانما جعلوه أنثى لأن النبات يظهر فيه ، ثم يقسم الشتاء نصفين ، فيجعل الشتاء أوله ، والربيع آخره ، ويقسم الصيف نصفين فيجعل الصيف أوله ، والخريف آخره ، وفى بعض التعاليق أن من العرب من يجعل السنة ستة أزمنة (الاول الوسمى) وحصته من السنة شهران ، ومن النجوم أربعة أنجم ، أولها العواء (الزمن الثانى الشتاء) وحصته من السنة شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الزمن الثالث الربيع) وحصته شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الزمن الرابع الصيف) وحصته شهران ، ومن النجوم أربعة وثلثا نجم (الخامس الحميم) وحصته شهران ، وأربعة أنجم وثلثا نجم (السادس الخريف) وحصته شهران وأربعة أنجم وثلثا نجم . والذى عليه الغالب من العرب أن الفصول أربعة وهى المشهورة بين الناس وأن لكل فصل من فصول السنة سبعة منازل فللربيع من الشَّرَطين الى الذراع ، وللصيف من النثرة الى السماك ، وللخريف من الغَفْر الى البلدة ، وللشتاء من سعد الذابح الى الرشا ، والأوائل من الأطباء وان كانوا يقسمون السنة على أربعة أقسام إلا أنهم يجعلون الصيف والشتاء أطول زماناً من الربيع والخريف ، فيجعلون للشتاء أربعة أشهر ، وللصيف كذلك ، وللربيع

والخريف أربعة أشهر لكل شهران ، لكونهما متوسطين بين الحر والبرد فكأنهما وصلتان بين الشتاء والصيف ، وقد أعرضنا عما يستشهد به من الشعر لكل مذهب لئلا يطول الكلام .

الجمرات وسقوطها ، وهل هي كواكب أم لا ؟

قال بعض من تكلم في الأنواء : إن بعض الأعراب كانوا اذا اشتد عليهم البرد دخلوا مغارات في الجبال واسعة ، وأدخلوا معهم أغنامهم ومواشيهم من الابل والبقر والغنم ونحو ذلك ، وخصوا لهم موضعاً ، وللأغنام موضعاً ، ولنحو البقر موضعاً ، وأوقدوا لكل ناراً دفعاً لسَوْرَةِ البرد[1] ، فاذا أحسوا بتصرمه أطفأوا ناراً فناراً الى أن يطفئوا الثلاث ، فعبروا عن ذلك بسقوط الجمرات ، وعن إطفاء كل نار بسقوط جمرة ، ونحوه ما قيل ان ملوك المغل ونحوهم من سكان البلاد كانوا اذا اشتد البرد أوقدوا في مجالسهم ثلاث مجامر ، فاذا أحسوا بتصرمه رفعوها واحدة فواحدة ، فعبروا عن ذلك بما ذكر ، وشاع استعماله فيما بين الناس غير أولئك الفريقين كناية عن انكسار سَوْرَةِ البرد في الماء والهواء والتراب ، وعندي أن هذا الوجه في غاية البعد فان اللفظ من اللغة العربية وعوائد المغل لم تكن معهودة للعرب يومئذ ! ورأيت لبعض المحققين في ذلك وهو الحرى بالاصغاء اليه أن الجمرات عبارة عن كواكب ثلاثة : رأس الحية وهو كوكب من كواكب الطرف ، والذراع الشامي وهو كوكب من كواكب الهَنْعه ، وقلب الاسد وهو كوكب من كواكب الجبهة ، وسميت بالجمرات لتوقدها وضربها الى الحمرة ، وسقوطها ميلها للغروب ، وقد جرت عادة الله تعالى بظهور أثر الحرارة في الماء عند سقوط رأس الحية في الغداة سابع شباط وميله للغروب في ذلك الوقت ، وبظهور أثرها في الهواء عند سقوط الذراع الشامي في الغداة أيضا في رابع عشره ،

(١) أي شدته

وبظهوره فى التراب عند سقوط قلب الأسد فى ذلك الوقت فى الواحد والعشرين منه ، ولهذه المناسبة قالوا للأولى : جمرة الماء ، وللثانية : جمرة الهواء ، وللثالثة : جمرة التراب ، وربما وقع فى التقاويم فى الترتيب سقوط جمرة الماء ، ثم سقوط جمرة التراب ، ثم سقوط جمرة الهواء ، وفى بعضها سقوط جمرة الهواء ، ثم سقوط جمرة الماء ، ثم سقوط جمرة التراب ، فلعل ذلك بناء على الاختلاف فى ترتيب ظهور الآثار ، وفى تقييد السقوط بقوله بالغداة اندفع إشكال لا يخفى على من يعرف الطالع والغارب ، وذلك اذا أريد بالغداة ما يعم وقت طلوع الشمس وما بعده الى الزوال ، وقد يقال الأمر أيضاً سهل اذا أريد بها وقت الطلوع بناء على أن قلب الأسد مثلاً فى الدرجة الرابعة والعشرين من برجه ، وأنهم يبنون الأمر على الترتيب كما لا يخفى على من راجع كتب الأحكام ، من ذوى الأفهام ، وفى كتب الأنواء زيادة تفصيل لمثل هذه المطالب

مخايل العرب فى الانواء

لما كانت العرب أيام جاهليتهم فى ضنك من العيش ، وكاف من الحاجة ، وشدة من العوز ، ألحوا فى تتبع مواقع القطر وأوغلوا فى بطون الاودية ، وجابوا منابت الشجر ، سداً لفم حوائجهم ، وارتياداً لما يقوم بمؤنهم ، ويصلح لعلف دوابهم ، ومراعى إبلهم ، وسائر مواشيهم ، وكانت دارهم كثيرة القحط ، قليلة الأنهار والعيون ، فامتدت أعناقهم نحو السماء لمطالعة علائم الظفر بمقصودهم ومطلوبهم ، فكانت لهم مخايل لصوادق الانواء لاتكذب ، فعرفوا السحاب الممطر من غيره وميزوا البرق الخلب (١) عما سواه ، ووصفوا الغيث والمطر بأقسامه ، ووقفوا على الرياح وخواصها ، وأدركوا ما يعقبها من الحوادث من غير استناد الى آلة حدثت بعدهم بعدة قرون ، بل فهموا ذلك من علائم ظهرت لهم ، وقد استوى فى معرفتها صغيرهم وكبيرهم ، وذكرهم وأنثاهم ، ولذلك شواهد فى

(١) المطمع المخلف

منظوم كلامهم ومنثوره توقف الناظرين اليها فى موقف الحيرة ، لما كان عليه القوم من فصاحة المنطق ، وذرب اللسان وحلاوة التعبير ، وسعة نطاق البيان ، بيد أنى أورد من ذلك غالب ماذكره الامام أبى بكر محمد بن الحسن الشهير بابن دريد الازدى فى كتاب (المطر والسحاب) محيلاً شرح الالفاظ الى ذلك الكتاب روماً للاختصار ، وهو كتاب جليل جمع فيه ما ذكرته العرب فى جاهليتها وإسلامها من وصف المطر والسحاب ، وما نعتتـه العرب الروّاد من البقاع مع الشرح المبسوط لألفاظه (روى أبو بكر بن دريد بسنده) قال : بَيْنا رسولُ الله صلى الله تعالى عليه وسلم ذاتَ يوم جالس مع أصحابه إذ نشأت سَحابة ، فقالوا يارسول الله : هذه سحابة ! قال : كيف ترون قواعدها (١) ؟ قالوا : ما أحْسَنَهـا وأشَدَّ تمكنها ! قال : وكيف ترون رَحاها (٢) ؟ قالوا ما أحسنها وأشدَّ استدارتها . قال: وكيف ترون بواسقها (٣) ؟ قالوا : ما أحسنها وأشدَّ استقامتها ! قال : وكيف ترون بَرْقَها أوَمِيضاً ، أم خفْياً (٤) ، أم يَشُقُّ شقاً ؟ قالوا : بل يَشُقُّ شقاً . قال : وكيف ترون جَوْنَها (٥) ؟ قالوا : ما أحسنه وأشـدَّ سوادَهُ ! فقال : الحَيَا (٦) . فقالوا : يا رسول الله ما رأينا الذى هو منك أفصح ! قال : وما يمنعنى من ذلك فانما أنزل القرآن بلسانى بلسان عربىّ مُبين .

وروى بسنده عن الأصمعى . قال : خرج معقر بن حماد البارقى ذات يوم وقد كفّ بصره وابنته تقوده فسمع رعداً ، فقال لابنته : ما ترين ؟ قالت: أراها حماء عقاقة (٧) ، كأنها حولاء ناقة (٨) ، لها سيرٌوانٍ وصدرٌدان . فقال : مرّى فلا بأس عليك ! ثم سمع رعداً آخر فقال : ماترين ؟ فقالت : أراها كأنها الحمُّ نثِت :

(١) أسافلها واحدتها قاعدة (٢) وسطها ومعظمها وكذلك رحى الحرب ومعظمها حيث استدار القوم (٣) ماعلا منها وارتفع وكل شئ ارتفع وطال فقد بسق (٤) الوميض: اللمع الخفي ، والخفو : البرق الضعيف ، وقال أبوعمرو : خفى البرق يخفي خفياً اذا برق برقاً ضعيفا (٥) أسودها ، والجون من الاضداد يكون الاسود ويكون الابيض (٦) الغيث والخصب (٧) الحماء : السوداء تضرب الي الحمرة ، والعقاقة : التي تمق بالبرق ، تريد أن البرق ينشق عقائق (٨) الحولاء : جلدة رقيقة تقع مع سليل الناقة كأنها مرآة

منه مسيك ومنه منهرت (١) . فقال : وائلى (٢) الجئ بى الى جانب قَفْلةٍ (٣) فانها لا تنبت الا بمنجاة من السيل

وروى بسنده الى عم الأصمعى . قال : سئل اعرابىّ عن مطر فقال : استقل سَدٌّ مع انتشار الطَّفَل (٤) ، فشصا واحزأل (٥) ، ثم اكفهرّت أرجاؤه (٦) ، واحمومت أرحاؤه (٧) ، وابذعرّت فوارقه (٨) ، وتضاحكت بوارقه (٩) واستطار وادقه (١٠) ، وارتتقت جوبه (١١) ، وارتعن هيدبه (١٢) ، وحشكت أخلافه (١٣) واستقلّت أردافه (١٤) ، وانتشرت أكنافه (١٥) ، فالرعد مرتجس (١٦) ، والبرق مختلس (١٧) ، والماء منبجس (١٨) ، فأترع الغدر (١٩) ، وانتبث الوجر (٢٠) ، وخلط الأوعال بالآجال (٢١) ، وقرن الصيران بالرئال (٢٢) ، فللأودية هدير (٢٣) ، وللشراج خرير (٢٤) ، وللتلاع زفير (٢٥) ، وحطّ النبع والعتم (٢٦) ، من القلل

(١) تريد : لحم مسترخ قد انتن فبعضه متماسك وبعضه متساقط (٢) بادرى (٣) ضرب من الشجر (٤) استقل : ارتفع فى الهواء ، والسد : السحاب الذى يسد الافق ، والطفل : اختلاط الظلام بعد غروب الشمس (٥) شصا : ارتفع يعنى السحاب ، واحزأل : انتصب (٦) أكفهر : تراكم وغلظ ، وأرجاؤه : نواحيه واحدها رجا مقصور (٧) احمومت : اسودت ، وأرحاؤه : أوساطه (٨) ابذعرت : تفرقت ، والفوارق جمع فارق وهو السحاب الذى ينقطع من معظم السحاب ، وهذا مثل وأصله فى الابل ، يقال : ناقة فارق وهى التى تند عن الابل عند نتاجها حيث لا ترى فتنتج (٩) شبه لمعان البرق بالضحك (١٠) استطار انتشر ، والوادق : الذى يكون فيه الودق وهو المطر العظيم القطر (١١) أى التأمت فرجه (١٢) ارتعن : استرخى ، والهيدب : الذى يتدلى ويدنو من الارض مثل هدب القطيفة .

(١٣) هذا مثل ، يقال : حشك ضرع الناقة اذا امتلأ لبناً ، والاخلاف جمع خلف وهو الضرع للناقة خاصة (١٤) مآخيره (١٥) نواحيه (١٦) مصوت (١٧) كأنه يختلس البصر لشدة لمعانه (١٨) منصب (١٩) أى ملأها والغدر جمع غدير وهو القطعة من الماء يغادرها السيل (٢٠) أى أخرج نبيثها وهو تراب البئر والقبر . يريد أن هذا المطر لشدته هدم الوجر (وهى جمع وجار وهو سرب الثعلب والضبع) حتى أخرج ماداخلها من التراب (٢١) الأوعال : التيوس الجبلية ، والآجال : جمع إجل وهو القطيع من البقر . يريد أنه لشدته حمل الوعول وهى تسكن الجبال ، والبقر وهى تسكن القيعان والرمال فجمع بينهما (٢٢) الصيران : جمع صوار وصيار أيضاً وهو القطيع من البقر ، والرئال : فراخ النعام واحدها رأل مهموز (٢٣) صوت كهدير الابل لكثرة السيل (٢٤) الشراج : مجارى الماء من الحرار الى السهولة ، والخرير : صوت الماء (٢٥) التلاع : مجارى ما ارتفع من الأرض الى بطن الوادى و « لها زفير » أى تزفر بالماء لفرط امتلائها (٢٦) النبع : شجر يتخذ منه القسى ينبت فى الجبال ، والعتم : الزيتون الجبلى

الشم [١] ، الى القيعان الصُّحْم [٢] ، فلم يبق فى القلل إلا مُعْصَم مُجْرَنْثم [٣] ، أو داحص مُجَرْجَم [٤] ، وذلك من فضل ربِّ العالمين ، على عباده المجرمين .

(وروى بسنده عن الأصمعى) قال : سألت اعرابياً من بنى عامر بن صعصعة عن مطر صاب [٥] بلادهم ، فقال : نشأ عارضا [٦] ، فطلع [٧] ناهضا ، ثم ابتسم وامضا [٨] . فأعس فى الأقطار فأسحاها [٩] ، وامتدَّ فى الآفاق فغطاها ، ثم ارتجز فهمهم [١٠] ثم دوى فاظلم ، فأرك ودثّ [١١] ، وبغش وطشّ [١٢] ، ثم قطقط [١٣] فأفرط . ثم ديم فأغمط [١٤] ، ثم ركد فأثجم [١٥] ، ثم وبل فسجم [١٦] وجاد فأنْعَم [١٧] . فقمس الرّبى [١٨] ، وأفرط الزّبى [١٩] ، سبعاً تباعا ، مايريد انقشاعا ، حتى إذا ارتوت [٢٠] الحزون [٢١] ، وتضحضحت المتون [٢٢] ، ساقه ربك الى حيث شاء كما جلبه من حيث شاء .

(وروى بسنده عن عبد الرحمن عن عمه) قال : سئل رجل من العرب عن مطر كان بعد جدب ، فقال . نشأ حملاً سدّاً [٢٣] . متقاذف الأحضان [٢٤] .

(١) القلل : أعالى الجبال ، والشم : المرتفعة (٢) القيعان : جمع قاع وهى الأرض الطيبة الطين الحرة ، والصحم : التى تعلوها حمرة واحدها أصحم (٣) المعصم : الذى قد تمسك بالجبال وامتنع فيها ، والمجرنثم : المنقبض (٤) الداحص : الذى يفحص برجليه عند الموت ، والمجرجم : المصروع (٥) أى جاد والصوب المطر الجود (٦) العارض : السحاب يعرض فى أفق السماء (٧) أى ارتفع (٨) أى لامعاً لماناً خفياً كالتبسم (٩) قوله « فأعس » لعل صوابه « فسمس » أى دنا من الأرض في الاقطار ، « فأسحاها » أى فملأها (١٠) ارتجز الرعد : صات ، والسحاب تحرك بطيئاً لكثرة مائه ، وهمهم الرعد : إذا سمع له صوت كهمهمة الأسد (١١) أرك : جاء بالرك وهو المطر القليل أو هو فوق الدث (١٢) البغش : المطر الضعيف ، والطش : فوق البغش (١٣) أى تتابع قطره (١٤) ديم : مطر ديمة والديمة مطر يبق أياماً لا يقلع ، واغمط : دام (١٥) ركد : دام ، واثجم : أقام (١٦) السجم : الصب (١٧) أى فبالغ (١٨) أى غوصها فى الماء والربى جمع ربوة (١٩) أى ملأها والزبى جمع زبية وهي حفير تحفر للاسد والذئب ليصاد بها وهى لا تحفر الا فى موضع مرتفع فاذا بلغ السيل الى موضع الزبية فقد بلغ الغاية (٢٠) افتعلت من الرى (٢١) جمع حزن وهو الغليظ من الارض (٢٢) المتون جمع متن وهي صلابة من الارض فيها ارتفاع ، وتضحضحت : صار فوقها ضحضاح من الماء وهو الماء يجري على وجه الارض رقيقاً (٢٣) الحمل : السحاب الكثير الماء ، والسد : الذى قد سد الافق (٢٤) يريد النواحى

محمومي الأركان[١] . لماع الأقراب[٢] ، مكفهرّ الرَّبَاب[٣] ، تحنّ رعوده حنين اضطراب ، وتزمجر زمجرة الليوث الغضاب[٤] لبوارقه التهاب ، ولرواعده اضطراب . فجاحَفَتْ صدوره الشماف[٥] ، وركبت أعجازه القِفاف[٦] ، ثم ألقى أعباءه[٧] وحطّ أثقاله ، فتألّق وأصعق . وانبجس وانبعق[٨] ، ثم أنجم[٩] فانطلق فغادر النهاء مترعة[١٠] ، والغيطان ممرعة[١١] ، حباءً للبلاد ، ورزقاً للعباد

(وروى بسنده عن الاصمعي) قال : سمعت اعرابياً من غنيٍّ يذكر مطراً صاب[١٢] بلادهم في غِبّ جدْب[١٣] فقال تدارك ربُّك خَلْقه وقد كَلِبَتْ الامحال[١٤] وتقاصرت الآمال وعكف[١٥] الياس ، وكُظِمَتِ الانفاس[١٦] وأصبح الماشي مصْرِما[١٧] ، والمُتْرِب مُعْدِماً[١٨] ، وجُفِيَت الحلائل[١٩] ، وامتُهِنت العقائل[٢٠] فأنشأ الله سَحابا نشأ رُكاما[٢١] ، كَنَهْوَرًا سَجَّاماً[٢٢] ، بروقُهُ متألّقة ، ورعوده مُتَقَعْقِعَة[٢٣] ، فسحّ ساجيا راكداً ثلاثاً غير ذي فُوَاق[٢٤] ، ثم أمر ربك الشَّمال فَطَحَرَتْ رُكامَهُ[٢٥] ، وفرّقت جهامه[٢٦] ، فانقشع محموداً ، وقد أحيا فأغنى ،

(١) هو مفعول من الحمأ وهو سواد تخالطه حمرة يسيرة وهو من قولهم فرس أحم (٢) الخصور (٣) المكفهر : المتراكب ، والرباب سحاب تراه كانه متعلق بالسحاب الواحدة ربابة
(٤) زجر الليث (وهو السبع) : ردد الزئير (٥) جاحفت : زاحمت ودانت ، والشماف : رؤوس الجبال (٦) جمع قف وهو الغلظ من الارض لايبلغ أن يكون جبلا . يريد أن أعالي هذا السحاب مطل على الجبال ومآخيره على القفاف دان من الارض (٧) أي اثقاله يريد الماء
(٨) الانبجاس : الانفجار بالماء . والانبعاق : الصب الكثير في سعة (٩) أقلع (١٠) غادر : ترك ، والنهاء : جمع نهي وهو الغدير أو شبهه . ومترعة : ملأى . (١١) الغيطان : جمع غائط وهو البطن المطمئن من الارض ، وممرعة : مخصبة (١٢) من الصوب وهو المطر الجود
(١٣) الغب بالكسر : عاقبة الشئ . والجدب : المحل أي القحط (١٤) أي اشتد القحط .
(١٥) أقام وثبت (١٦) أي ردت الى الاجواف (١٧) الماشي صاحب الماشية ، والعرب تقول أمشى الرجل اذا كثرت ماشيته ، والمصرم . الذي لامال له (١٨) المترب هنا الغني المثري ، والمعدم : الفقير (١٩) جمع حليلة وهي الزوجة (٢٠) أي استخدمت الكرائم (٢١) متراكما
(٢٢) كنهوراً : قطعا مثل الجبال ، سجاماً : كثير الصب (٢٣) مصوتة (٢٤) سح : صبّ ، وساجيا : راكداً ثابتاً ؛ و « غير ذي فواق » أي لايصب صبه ثم يسكن ثم يصب أخرى ثم يسكن مثل فواق الناقة (٢٥) طحرت : ساقت وأبعدت ، والركام : المتراكم (٢٦) هو السحاب الذي قد هراق ماءه .

وجاد فأروى ، فالحمد لله الذى لا تُـكَتُ نعمه[١] ، ولا تَنفَدُ قسمه ، ولا يَخيب سائلُهُ ، ولا يَنزُر نائله[٢]

وروى بسنده عن الأصمعى قال: كان شيخٌ من الأعراب فى خِبائه وابنة له بالفناء[٣] إذ سمع رعداً ، فقال : ما ترين يا بنية ؟ فقالت : أراها حواءقرحاء[٤] كأنها أقراب أتان قمراء[٥] ، ثم سمعَ راعدةً أخرى فقال : كيف ترينها ؟ قالت: أراها جمّة الترجاف[٦] ، متساقطة الأكناف[٧] ، تتألقُ بالبرق الولاف[٨] . قال : هلمى المغرفة انتئ نُؤيا[٩] .

وعن الأصمعى أيضـا قال : وقف اعرابىّ على أبى المـكنون النحوىّ ، وهو فى حلقته فسأله ، فقال له : مكانَكَ حتى أفرغ لك ، فدعا واستسقى ،ثم قال: اللهم ربناوآلهنا ومولاناصلّ على نبينا محمد ومن أرادنا بسوء فأحط ذلك السوء به إحاطة القلائد ، بترائب الولائد[١٠] ثم أرسخه[١١] كرسوخ السجيل[١٢] ، على أصحاب الفيل[١٣] اللهم اسقنا غيثاً مزناً طبقاً[١٤] مريعا[١٥] تاماً مجلجلا[١٦] مسحنفراً[١٧] هزجاً[١٨] سحاً سفوحاً غدقاً مثعنجراً[١٩] . قال : فولى الاعرابى

(١) أى لاتحصى نعمه (٢) أي لايقل عطاؤه (٣) الفناء بالكسر مااتسع من أمام الدار (٤) حواء : سوداء الى الحمرة كلون الفرس الاحوى ، قرحاء : يريد ان البرق فى أعاليها فكأنها قرحاء مثل الفرس الاقرح . (٥) الاقراب : الخصور . شبهها ببطن الاتان القمراء والقمرة بالضم لون الى الخضرة . أو بياض فيه كدرة (٦) أى كثيرة الاضطراب (٧) الاكناف : النواحى . يريد قد استرخت نواحيها لكثرة مائها (٨) هو الذى يبرق ببرقتين متوالفتين . وهو لا يكاد يخلف . (٩) المغرفة المسحاة . والنؤى . الحفير الذى حول الخباء أو الخيمة يمنع السيل . ونأيته وأنأيته وانتأيته : عملته (١٠) الترائب : موضع القلادة (١١) أى أثبته (١٢) هو الطين المتحجر (١٣) أصحاب الفيل : ورد ذكرهم في التنزيل ، على سبيل العظة والاعتبار وقصتهم معروفة متواترة الرواية حتى إنهم جعلوها مبدأ تاريخ يحددون به أوقات الحوادث فيقولون ولد عام الفيل وحدث كذا لسنتين بعد عام الفيل ونحو ذلك ، وقد أوردها الاستاذ المؤلف في الجزء الاول ص ٢٥١ ، وذكرنا (فى شرح الضرائر المطبوع بمصر سنة ١٣٤١) مااتفقت عليه الروايات ، ويصح الاعتقاد به من أمرها ، كما فعل الامام الشيخ محمد عبده فى تفسير جزء عم (١٤) الطبق من المطر الذى يطبق الأرض (١٥) هو الذى يمرع أى يخصب (١٦) هو الذى تسمع لرعده جلجلة أى صوتاً وهدة (١٧) اسحنفر المطر : كثر (١٨) مصوتاً (١٩) السح : الصب ، والسفوح : المنسفح ، والغدق : الكثير الماء ، والمثعنجر : الجارى حتى يملأ الأرض

مدبراً . فقال له : مكانك حتى أقضى حاجتك : قال الطوفان ورب الكعبة حتى آوى عيالى الى جبل يعصمهم من الماء .

(وروى بسنده عن الاصمعى) قال : مررت بغلمة من الاعراب يتماقلون (١) فى غدير ، فقلت لهم : أيكم يصفُ لى الغيثَ وأعطيه درهماً ، نخرجوا الىَّ فقالوا: كلنا ، وهم ثلاثة ، فقلت لهم صفوا فأيكم ارتضيت وصفه أعطيته الدرهم، فقال أحدهم : عنَّ لنا عارض قصْراً (٢) تسوقه الصبا ، وتحدوه الجنوب ، يحبو حبو المعتنك (٣) حتى اذا ازلأمت (٤) صدوره ، وانتحلت خصوره ، ورجع هديره واصعق زئيره ، واستقلّ نشَاصُه (٥) وتلام خصاصه (٦) وارتعج ارتعاصه (٧) وأوفدت سقابه (٨) وامتدت أطنابه (٩) — تدارك وَدْقه (١٠) وتألق برقه ، وحفزت تواليه (١١) وانسفحت عزاليه (١٢) فغادر الثرى عمداً (١٣) والعَزاز ثئدا (١٤) والحث عقدا (١٥) والضحاضح متواصية (١٦) والشعاب متداعية ، وقال الآخر : تراءت المخايل (١٧) من الاقطار ، تحنُّ حنين العشار ، وتترامى بشهب النار ، قواعدها متلاحكة (١٨) وبواسقها متضاحكة (١٩) وأرجاؤها متقاذفة (٢٠) وأعجازها مترادفة وأرحاؤها متراصفة (٢١) فواصلت الغرب بالشرق (٢٢) والوبل بالوَدْق . سحًّا

(١) أى يتغاطون في الماء ، وامتقل : غاص مراراً (٢) عن : عرض، والعارض : السحاب الذى يعترض فى الافق وأكثر مايكون ذلك عند اقبال الليل . والقصر : العشى (٣) الحبو : دنو الصدر من الأرض ومن ذلك حبا الصبي اذا زحف وصدره دان من الارض . والمعتنك : البعير الذى يصعد فى العانك من الرمل وهو الكثيب المتداخل الرمل يشق على الصاعد الصعود فيه والبعير اذا كلف صعوده زحف فشبه نهوض السحاب لثقله بما فيه من الماء به قال رؤبة «أوديت ان لم تحب وحبوا المعتنك» . (٤) انتصب (٥) بالكسر والفتح ما انتصب من السحاب (٦) الخصاص : الفرج (٧) الارتعاج : تدارك الحركات . والارتعاص : الاضطرب (٨) هذا مثل والسقاب أعمدة الخباء فشبهه بالخباء قد رفع . والايفاد : الرفع . (٩) هى حبال الخباء التى تشد بالاوتاد (١٠) أى تتابع (١١) أى أعجلت ماآخيره (١٢) العزالى : عزالى المزاد وهو مخارج الماء من أسافلها (١٣) أى رطبا يجتمع واليدوغادر : ترك . (١٤) العزاز : الغلظ من الارض . ومكان ثئد : ند (١٥) الحث : الرمل اليابس (١٦) الضحاضح : ماتضحضح على الارض من الماء . ومتواصية : متواصلة . (١٧) السحب التى تحسبها ماطرة (١٨) أى أسافلها متداخل بعضها فى بعض (١٩) أى أعاليها متضاحكة بالبرق (٢٠) أى نواحيها متباعدة (٢١) أي أوساطها متراكمة قد انضم بعضها الى بعض (٢٢) أي امتدت من المشرق الى المغرب

دراكا(١) متتابعاً لكاكا(٢) فضحضحت الجفاجف(٣) وأنهرت الصفاصف(٤) وحوضت الأصالف(٥) ثم أقلعت محمودة الآثار، مومومقة الخيار. فقال الثالث: والله ما خِلْتُهُ بلغ خمسا(٦): فقال: هلم الدرهم أصفك؟ فقلت لا، أو تقول كما قالا، قال: لأبذنهما وصفا، ولأوقفنهما رصفا، فقلت: هات لله أبوك! فقال: بينا الحاضر بين الباس والابلاس(٧) قد غمرهم الإشفاق(٨) رَهْبَةَ الاملاق(٩) وقد جفت الأنواء(١٠)، ورَفْرَفَ البلاء، واستولى القُنُوطُ على القُلُوب، وكثر الاستغفار من الذنوب، — ارتاح ربك لعباده، فأنشأ سحاباً مستجهرا كَنَهْوَراً(١١) معنونكاً محلولكاً(١٢)، ثم استقلّ واحزألّ(١٣)، فصار كالسماء دون السماء(١٤) وكالأرض المدحوّة(١٥) في لوح(١٦) الهواء، فأحْسَبَ السُّهول(١٧)، وأتأق الهجول(١٨)، وأحيا الرجاء، وأماتَ الضراء، وذلك من فضل رب العالمين.
قال: فملأ (والله) اليَفَع(١٩) صدري، فأعطيتُ كلَّ واحدٍ درهماً، وكتبت كلامهم.

وروى عن أبي حاتم عن الأصمعي قال: سألت اعرابياً عن مطر صابهم بعد جَدْب. فقال: ارتاح لنا ربك بعد ما استولى على الظنون، وخامَرَ القلبَ القنُوط فأنشأ بنوء الجبهة(٢٠) قزعةً كالفَرْضِ من قبل العين(٢١)، فاحزألّتْ عند ترجّل

(١) أي صبا متتابعاً. (٢) متلاصقاً بعضه ببعض (٣) جمع جفجف وهو الغليظ من الارض، وضحضحها جعلت فيها ضحاضح جمع ضحضاح وهو الماء السائح على وجه الأرض ليس بالكبير (٤) جمع صفصف وهو المستوى من الأرض (٥) جمع الصلفاء وهي ما صلب من الأرض. وحوضتها: جعلت فيها حياضاً (٦) الظاهر أن العبارة ينبغي أن تكون هكذا: (.. فقال الثالث — ووالله ماخلته بلغ خمساً — : هلم ..) (٧) الابلاس: اليأس والتحير (٨) الجزع (٩) الافتقار (١٠) أي أمسكت الامطار (١١) المستجهر: الابيض، والكنهور: الذي مثل قطع السحاب (١٢) المعنونك: الذي قد تراكم حتى صار كالعانك، والعانك: مر تفسيره قريباً، والمحلولك: الشديد السواد (١٣) أي انتصب وارتفع (١٤) أي من كثافته (١٥) المبسوطة وانما قال «كالارض» لغبرته وسواده (١٦) اللوح: الهواء نفسه (١٧) أي كفاها (١٨) أتأق: ملأ، والهجول جمع هجل، وهو المطمئن من الارض (١٩) الشاب (٢٠) الجبهة: نجم من نجوم الاسد ونوؤها محمود عندهم (٢١) القزعة: القطعة من السحاب صغيرة، والفرض: الترس الصغير: والعين: القبلة

النهار (١) ، لإِزْمِيم السّرار (٢) ، حتى اذا نهضت فى الأفق طائعة أمر مسخرها الجنوب ، فتنسمت لها ، فانتشرت أحضانُها (٣) ، واحمومت (٤) أركانُها ، وبَسَقَ عَنَانُها (٥) . واكفهرَّتْ رحاها (٦) ، وانبعجت كلاها (٧) ، وذمرت أخراها أولاها (٨) ، ثم استطارت عقائقها (٩) . وارتعجت (١٠) بوارقُها ، وتَقَعْقَعَتْ صواعقها ، ثم ارْثَعَنَّتْ جوانبها (١١) ، وتداعت سواكبها (١٢) ، ودَرَّتْ حوالبها، فكانت الأرض طبقا ، سح فهضب ، وعم فأحسب (١٣) ، فَعَلَّ القيعان (١٤) ، وضحضح الغِيطان (١٥) ، وخوخ الأضواج (١٦) ، وأترع الشِراج (١٧) ، فالحمد لله الذى جَعَلَ كفاء إساءتنا إحسانا ، وجزاء ظلمنا غُفْرانا

(وروى عن عبد الرحمن عن عمه) قال : سمعت اعرابياً من بنى عامر بن لؤى بن صعصعة يَصِفُ مطراً ، فقال : نشأ عند القَصْر (١٨) ، بنوء الغَفْر (١٩) ، حَبِياً عارضا (٢٠) ، ضاحكاً وامضا ، فكلا ولا (٢١) ما كان ، حتى شجيتْ به (٢٢) أقطار الهواء ، واحتجبت به السماء ، ثم أطرقَ فا كفهرّ (٢٣) ، وتراكم فادلهمّ (٢٤) . وبَسَقَ فازْلأمّ (٢٥) ، ثم حدت به (٢٦) الريح فحنّ ، فالبرق مرتعج (٢٧) ، والرعد

(١) أى عند انبساط الشمس (٢) الازميم بالكسر إحدى ليالي السرار وهى ثلاث ليال من آخر الشهر (٣) أى فانبسطت نواحيها (٤) اسودت (٥) أى ارتفع سحابها (٦) اكفهرت: كثفت ، ورحاها : وسطها (٧) هذا مثل والكليه من المزادة رقعة مستديرة تخرز عليها تحت العروة ، وانبعجت : انشقت شبهه بثنى السقاء والقربة اذا رق ورشح منه الماء فأراد أن مخارج المطر من السحاب مثل ذلك (٨) هذا مثل أيضاً كأنه حض بعضها بعضاً على المطر (٩) استطارت: انتشرت ، والعقائق جمع عقيقة وهى البرقة المستطيلة فى عرض السحاب . (١٠) أى تدارك بعضها فى اثر بعض (١١) أى استرخت لكثرة مافيها من الماء (١٢) كأنه دعا بعضها بعضاً بالماء
(١٣) أي عم الأرض ولم يخص موضعاً دون موضع ، وأحسبها أي كفاها وأعطاها ماهو حسبها (١٤) العل : السقية الثانية (١٥) ضحضح : مر تفسيره قريباً ، والغيطان جمع غائط وهو البطن المطمئن من الارض وقد مر أيضاً قريباً (١٦) أى هد الاجراف (١٧) أى ملأ مسايل الماء (١٨) العشى (١٩) من نجوم الاسد (٢٠) الحبى الدانى من الارض ، والعارض : المعترض فى الافق (٢١) أى كقولك كلاولا فى السرعة (٢٢) أى تضايقت به كما يشجى الغاص
(٢٣) أطرق : تكاثف بعضه على بعض ، واكفهر : تراكم وغلظ (٢٤) اسود (٢٥) أي ارتفع فانتصب (٢٦) ساقته (٢٧) متدارك

متبوّج[1]، والخَرْج متبعج[2]، فأتجم[3] ثلاثاً، متحيراً هثهاثاً[4]، أخلافه حاشكه[5]، ودفعه متواشكة[6]، وسَوَامه متعاركة[7]، ثم ودع منجماً[8]، وأقلع متهماً[9]، محمود البلاء، مُترع النِّهاء[10]، مشكور النعماء، بِطَوْل[11] ذى الكبرياء

(وروى بسنده عن أشياخ من بنى الحرث بن كعب) قالوا : أجْدَبَتْ بلاد مَذْحِجْ، فأرسلوا رُوّاداً[12] من كل بطن رجلاً، فبعث بنو زَبيد رائداً، وبعثت جُعْفِيٌّ رائداً، وبعثت النَّخَعُ رائداً، فلما رجع الرُّوّاد قيل لرائد بنى زَبيد : ماوراءك ؟ قال : رأيت أرضاً مُوشمةَ البِقاع[13]، نَاَحة النِّقاع[14]، مُسْتحلسة الغيطان[15]، ضاحكةَ القُرْيان[16]، واعدة وأحْرِ بوفائها[17]، راضيةً أرضُها عن سمائها، وقيل لرائد جُعْفِيّ ماوراءك ؟ فقال : رأيت أرضاً جمعت السماء أقطارها[18]، فأمرعتْ أصبارها[19]، ودَيّثَتْ أوعارَها[20]، فَبُطنانُها غَمِقَة[21]، وظُهْرانها غَدِقَة[22]، ورياضها مُسْتَوْسقه[23]، ورَقاقُها رائخ[24]، وواطِئُها سائخ[25]،

(١) مرتفع الصوت (٢) الخرج : السحاب أول ماينشأ . ومتبعج : متشقق (٣) أى دام وأقام متحيراً كأنه قد تحير له وجه يقصده (٤) متداخلا بعضه فى بعض . وقال أبو بكر : الهثهثة — اختلاط الصوت (٥) هذا مثل . أخلاف الناقة : ضروعها، وحاشكة : ممتلئة (٦) مسرعة (٧) هذا مثل . السوام الابل السائمة أى الراعية . يشبه السحاب بالابل التى يعارك بعضها بعضاً أى يزاحم (٨) أى منقشعاً (٩) أى نحو تهامه . يقال : أتهم الرجل إذا أتى تهامة . وأنجد إذا أتى نجداً . وأعمن إذا أتى عمان وأعرق إذا أتى العراق (١٠) جمع نهى وهو الغدير (١١) بفضل (١٢) جمع رائد وهو المرسل فى طلب الكلأ (١٣) أوشمت الارض إذا بدا فيها نبت (١٤) ناحة : راشحة (١٥) المستحلسة : التى قد جللت الارض بنباتها، وقال الاصمعي : استحلس النبت اذا غطى الارض أو كاد يغطيها والمعنى واحد (١٦) مجارى الماء الى الرياض مفردها قرِىّ (١٧) واعدة : تعد تمام نباتها وخيرها . وأحر : أخلق . (١٨) السماء : المطر ههنا، يريد أن المطر جاد بها فطال النبت فصار النبت كأنه قد جمع أكنافه . وأنشد ابن قتيبة :

اذا سقط السماء بأرض قوم رعيناه وان كانوا غضابا

(١٩) أمرعت : أعشبت وطال نباتها، والاصبار نواحى الوادى (٢٠) ديثت : لينت، والاوعار جمع وعر وهو الغلظ والخشونة (٢١) البطنان : جمع بطن وهو ماغمض من الارض، وغمقة : ندية (٢٢) الظهران : جمع ظهر وهو ماارتفع يسيراً، وغدقة : كثيرة البلل والماء (٢٣) منتظمه (٢٤) الرقاق : الارض اللينة من غير رمل . رائخ : مفرط اللين (٢٥) أى تسوخ رجلاه فى الارض من لينها

وماشيها مسرور ، ومُصْرِمها محسور [١] ، وقيل للنخعيّ : ماوراءك ؟ فقال : مَدَاحِي سَيْلٍ [٢] ، وزُهَاء ليل [٣] ، وغَيْلٌ يُواصي غَيْلَ [٤] ، قدارتوتْ أَجْرازها [٥] ، ودَمِّثَ عَزَازُها [٦] ، والتبدت أَقوازُها [٧] ، فرائدها أنِق [٨] ، وراعيهاسَنِق [٩] ، فلا قَضَضٌ ، ولا رَمَض [١٠] ، عازبُهـا لا يُفْزَعُ [١١] ، وواردها لا يُنكَع [١٢] ، فاختاروا مَرَاد النخعيّ .

وروى عن عمه عن ابن الكلبيّ قال : خطب ابنةَ الخُسّ الإيادية [١٣] ثلاثة نفر من قومها ، وارتضت أنسابهم وجمالهم ، وأرادت أن تَسْبُرَ عقولهم ، فقالت لهم : إني أُريد أن ترتادوا لى مرعى ، فلما أتوها قالت لأحدهم : مارأيت ؟ قال : رأيت بقلاً وبقيلا [١٤] ، وماء غدقا سيلا ، يحسبه الجاهـل ليلا [١٥] ، قالت : أمرعت . قال الآخر : رأيت ديمةً بعد ديمه [١٦] ، على عهاد غـير قديمه [١٧] ، فالنّاب تَشْبَعُ قبـل الفطيمه [١٨] . قال الثالث : رأيتُ غيثاً ثَمَدًا معَداً [١٩] ، متراكِباً جعداً [٢٠] ، كأفخاذ نساء بنى سعد [٢١] ، تشبع منه الناب وهى تعد [٢٢]

(١) الماشي : صاحب الماشية ، والمصرم : المقل المقارب المال (٢) يقول : قد جرى فيها السيل ودحاها أي بسطها حتى استوى ولان وجهها . (٣) الزهاء : الشخص وأراد جعل نباتها زهاء ليل لشدة خضرته (٤) الغيل : الماء الجارى على وجه الارض . ويواصى : يواصل (٥) جمع جرز وهي التى لم يصبها المطر ، ويقال : التى قد أكل نباتها (٦) دمث : لين . ودمث لان ، والعزاز : الارض الصلبة الغليظة (٧) جمع قوز وهى رمال تستدير وتنعطف نحو الاحقاف (٨) الرائد : المرسل فى طلب الكلأ ، وأنق : معجب بالمرعى (٩) راعيها : الذى يرعاها ، والسنق : البشم من كثرة الرعى (١٠) القضض : الحصى الصغار ، يريد أن النبات قد غطى الارض فلا ترى هناك قضضاً ، والرمض : أن يحمى الحصى والحجارة من شدة الحر ، يقول فليس هناك رمض لان الارض مجللة بالنبت فلا يرمض واطئها (١١) الذى يعزب بإبله أى يبعد بها فى المرعى (١٢) أى لا يمنع (١٣) أخبارها فى الجزء الاول ص ٣٣٩ و ٣٤٠ (١٤) يقول : بقل قد طال ، وتحته غمير قد نشأ (١٥) أى كثير يحسبه الجاهل ليلا من كثافته وشدة خضرته (١٦) الديمة : المطر يدوم أياما فى سكون ولين (١٧) العهاد : أول مايصيب الارض من المطر (١٨) الناب : الناقة المسنة ، يريد أن العشب قد اكتهل وطال وتم . تشبع منه الناب قبل الصغيرة لانها تتناول الكلأ وهى قائمة لاتطلبه ولا تبرح من موقفها والفطيمة تتبع ماصغر من النبات (١٩) الثمد : الغض من البقل ، ومعد : اتباع . ويقال : « ماله ثمد ولا معد » أى قليل ولا كثير . (٢٠) الثرى الجعد : الذى قد كثر نداه فاذا ضممته بيدك اجتمع ودخل بعضه فى بعض كالشعر الجعد (٢١) أراد فى غلظ أفخاذ بنى سعد . (٢٢) هذا نحو الكلام الاول . يقول : النبت قدارتفع وطال والناب وهى

(وروى عن أبي حاتم عن أبي عبيدة) قال : خرج النعمان في بعض أيامه في عقب سماء ، فلقى اعرابياً على ناقة فأمر فأتى به ، فقال : كيف تركت الأرض وراءك ؟ فقال : فيح رحاب[١] ، منها السيول ومنها الصعاب ، منشوطة بجبالها ، حاملة لأثقالها[٢] : قال : إنما سألتك عن السماء ، قال : مُطلة مستقلة[٣] على غير سقاب ، ولا أطناب[٤] ، يختلفُ عصراها[٥] ، ويتعاقبُ سراجاها[٦] ، قال : ليس عن هذا أسألك ، قال : فسل مابدا لك ! قال : هل صاب الأرضَ غيث ؟ قال : نعم ! أغمطت السماء[٧] ، في أرضنا ثلاثاً رهوا[٨] ، فثرت وأرْزَغَتْ ورسغت[٩] ، ثم خرجت من أرض قومى أقروها[١٠] ، فاذا هى مُتواصية[١١] لا خطيطة[١٢] بينها حتى هبطت بعشار[١٣] ، فتداعى السَّحاب من الأقطار[١٤] ، فجاءنا بالسيل الخرار ، فعفا الآثار[١٥] ، وملأ الجفار[١٦] ، وقوَّر[١٧] عالى الأشجار ، فأحجر الحضار[١٨] ، ومنع السفّار ، ثم أقلع عن نفع واضرار[١٩] ، فلما اتلأبَّتْ[٢٠] لى القيعان ، ووضحت السبّل فى الغيطان[٢١] ، وفات العَنان[٢٢] ، من أقطار الأعنان[٢٣] ، فلم أجد وَزَراً الا الغيران[٢٤] ، ففات جارّ الضبع[٢٥] ، فغادرت السهول كالبحار ، تتلاطم بالتيّار[٢٦] ، والحزون متلفعة بالغُثاء[٢٧] ، والوحوش

الناقة المسنة تعدو وهى تأكل ولا تطأطئ رأسها (١) فيح : واسعة (٢) أى مثبتة لا تزول ، حاملة لاثقالها : لمن عليها من الناس وغيرهم (٣) مطلة : مرتفعة ، وكذلك « مستقلة » (٤) السقاب أعمدة الخباء ، والاطناب : الحبال المشدودة الى الاوتاد ، وهذا مثل (٥) أى الليل والنهار (٦) أى الليل والنهار (٧) أي دام مطرها (٨) الرهو : السكون (٩) ثرت : تركت الارض ثرية ، وأرزغت : تركت الارض رزغة ، والرزغة : الوحل ، ورسغت : بلغ الماء الى الرسغ (١٠) أى أتتبعها (١١) متصل بعضها ببعض (١٢) الخطيطة : الارض التى لم تمطر بين ممطورتين أو التى مطر بعضها (١٣) اسم موضع (١٤) النواحى (١٥) أى طمس الطرق (١٦) جمع جفر كسهم وهو البئر التى لم تطو (١٧) أى قطع أو اجتاح (١٨) أى ألزمهم بيوتهم ، و « منع السفار » عن الحركة (١٩) يقول : نفعت عواقبه وضرت لكثرته (٢٠) وضحت (٢١) جمع غائط وهو المطمئن من الارض (٢٢) السحاب (٢٣) أى من نواحى السماء (٢٤) الوزر : الملجأ ، والغيران جمع غار وهو الكهف فى الجبل (٢٥) أى فات من ألتى وهذا غاية مايوصف به المطر فى الكثرة ، والمعنى أنه يجر الضبع من وجارها (٢٦) الموج (٢٧) الحزون : جمع حزن وهو ماغلظ من الارض ، والغثاء : حميل السيل

مقذوفة على الأرجاء [١] ، فما زلت أطأ السماء [٢] ، وأخوض الماء ، حتى وطئت أرضكم .

(وروى عن أبي حاتم عن أبي عبيدة)قال : وقف اعرابيّ على قوم من الحاج فقال : ياقومى بدا شأنى والذى ألفجنى [٣] الى مسألتكم ، إن الغيث كان قد قَوِيَ [٤] عنا ، ثم تكَرْفأ السحاب [٥] ، وشَصَا الرَّباب [٦] ، وادلهمّ سَيِّقه [٧] ، فارتجس رَيِّقه [٨] ، وقلنا هذا عام باكر الوسمى [٩] ، محمود السمى [١٠] ، ثم هبت له الشمال ، فاحزألّتْ طَخَاريره [١١] ، وتقزع كرفئه [١٢] متباشرا ؛ ثم تتابع لمعان البرق ، حيث تَشيمه الأبصار [١٣] ، وتحده النظار ، ومَرَت [١٤] الجنوب ماءه ، فقوّض الحى مُزْلَئِمّين [١٥] نحوه ، فسرحنا المال [١٦] فيه ، وكان وخماً وخبا ، فأساف المال [١٧] ، وأضف الحال [١٨] ، فرحم الله أمرأ جاد بِمَيْر [١٩] ، أودل على خير.

وروى أبو حاتم عن العتبي قال : حدثني أبي قال : خرج الحجاج الى ظهر هذا ، فلقى أعراباً قد انحدروا للميرة ، فقال : كيف تركتم السماء وراء كم ؟ فقال متكلمهم : أصابتنا سماؤنا بالمثل مثل القوائم [٢٠] حيث انقطع الرمث بضرب فيه

(١) يقول : قد غرقت الوحوش فهى مطروحة على أرجاء الارض أى نواحيها (٢) أى أطأ المطر فالعرب تسمى آثار المطر فى الارض السماء (٣) أى أحوجنى (٤) أى احتبس (٥) أى كثر وتراكم (٦) شصا : ارتفع ، والرباب : السحاب الابيض (٧) ادلهم اسود ، والسيق ككيس : السحاب الذى لاماء فيه (٨) تمخض ماؤه (٩) الوسمى : أول المطر يقع على الارض وذلك عند إقبال الشتاء قبل الربيع سمى بذلك لانه يسم الارض . قال الاصمعى : أول المطر الخريف وهو الذى يأتى عند صرام النخل ، ثم الوسمى يلى ذلك وهو اقبال الشتاء ، ثم يليه الربيع ، ثم الصيف ثم الحميم (١٠) جمع سماء وهو المطر ، قال العجاج : « تلفه الارواح والسمي » . (١١) احزألت ارتفعت ، والطخارير : جمع طخرور — وهو بالخاء والحاء اللطخ من السحاب القليل . قال الازهرى : وهى الطحارير والطخارير لقزع السحاب (١٢) تقزع : تقشع ، والكرفئ : قطع من السحاب متراكبة واحدتها كرفئة (١٣) شمت البرق : رقبته تنظر أين يصوب (١٤) استخرجت (١٥) مسرعين (١٦) أى الابل (١٧) أى ذهب به وأهلكه (١٨) أى ضعضعها ، والضفف : الفقر والحاجة الى الناس (١٩) المير بالفتح كالميرة وهى الطعام يمتاره الانسان . ويطلق ويراد به القوت (٢٠) المثل : بكسر أوله وسكون ثانيه — موضع بفلج يقال له رحى المثل ، وقوله « مثل القوائم » أراد أن هذا الموضع قطره كمثل مواقع القوائم

نقير [١] ، وهو على ذلك يَعضِدُ ويرسغ [٢] ، ثم أصابتنا سماء « أميثل » منها تسيل الدمات والتلعة الزهيدة [٣] ، فلما كنا حذاء (الحفر) أصابنا ضرس جَوْد ملأ الآخاد [٤] . فأقبل الحجاج على زياد بن عمرو العتكى فقال : ما يقولُ هذا الأعرابى ؟ قال : وما أنا وما يقول : إنما أنا صاحب سيف ورمح ! قال : بل أنت صاحب مجذاف وقَلْس [٥] ، إسبح ! فجعل يفحص الثَّرَى ويقول : لقدرأيتنى وأن المصعب ليعطينى المائة ألف وها أنا أسبح بين يدى الحجاج !

وروى عن عبد الرحمن عن عمه . قل قال أبو مجيب وكان اعرابياً من بنى ربيعة بن مالك : لقد رأيتنا فى أرض عجفاء [٦] ، وزمان أعجف ، وشجر أعسم [٧] فى قُفٍّ [٨] غليظ ، فبينما نحن كذلك إذ نشأ الله تعالى من السماء غيثاً مستكفاً نشؤه [٩] ، مسبلة عزاليه [١٠] ، ضخاماً قطره ، جَوْداً صوبه [١١] ، زا كيا أنزله الله تعالى رزقاً لنا ، فتعيش به أموالنا [١٢] ، ووصل به طرقنا ، وأصابنا وإنا لَبِنَوْطَةٍ بعيدة الأرجاء [١٣] ، فاهْرَمَّعَ [١٤] مطرها حتى رأيتنا وما نرى غير السماء والماء ، وضهوات [١٥] الطلح ؛ وضرب السيل النجاف [١٦] ، وملأ الأودية فزعبها [١٧]

(١) قال الاصمعى : الرمث — من شجر السهل اه فمعنى قوله « حيث انقطع الرمث » حيث أفضى من السهولة الى الحزونة ، والضرب من المطر الضعيف الدائم ، والنقير فى الاصل النكتة فى ظهر النواة (٢) قوله « يعضد » أى يكسر ويصرم والمعنى أن هذا المطر مع ضعفه عظيم القطر فعظم قطره يعضد الشجر يدلك على ذلك قوله « بالمثل مثل القوائم » ولولا ذلك لما جاز أن يعضد الشجر مع ضعفه ، و « يرسغ » يبلغ طينه وماؤه الرسغ (٣) الدمات : الاماكن اللينة السهلة ، والتلعة : ماارتفع من الارض وماانهبط منها ضد ، والتلعة : مسيل الماء وما اتسع من فوهة الوادى ، والزهيدة : الحقيرة (٤) الضرس : القطعة من الامطار المتفرقة ، والجود المطر الغزير ، والآخاد : الاماكن التى تحبس الماء كالنقر فى الحجارة والجوب من الارضين (٥) القلس . حبل ضخم من ليف أو خوص أو غيرهما من قلوس سفن البحر (٦) أى لا نبات بها (٧) يابس (٨) هو ماغلظ من الارض وارتفع (٩) المستكف : المستدير والنشء : السحاب المرتفع أو أول ماينشأ منه (١٠) مسبلة . ممطرة . والعزالى : أفواه السحاب وأصل ذلك فى المزادة والقربة (١١) الصوب المطر (١٢) اى ابلنا (١٣) النوطة : المكان المرتفع عن الماء ، والنوطة : مكان فى وسطه شجر وطرفاه لاشجر فيهما وهو مرتفع عن السيل والارجاء : النواحى (١٤) اى در واسرع (١٥) الضهوة : كالغار يجمع فيها ماء المطر (١٦) جمع نجفة وهو ماأشرف من الارض (١٧) أى فلأها ، وكرر المعنى لما اختلف اللفظ توكيدا

فما لبثنا الا عشراً حتى رأيتها روضةً تندى .

وعن عبد الرحمن عن عمه قال شامَ (١) أعرابيٌّ برقاً فقال لابنته : انظرى أين ترينه ، فقالت :

أناخ بذى بَقَرٍ بركه كأن على عَضُدَيْهِ كِتافا (٢)

ثم قال : عودى فشيمى ، فقالت :

نحته الصَّبا ومَرَتْه الجنوب وانتجفته السماء انتجافا (٣)

وروى بسنده عن الأصمعى قال : كان اعرابىٌّ ضرير تقوده ابنته وهى ترعى غنيمات لها ، فرأت سحاباً ، فقالت : يا أبت جاءتك السماء ، فقال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها فرس دهماء تجر جلالها ، قال : إرعىْ غنيماتك ، فرعت مليًّا ، ثم قالت : يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : كأنها عين جمل طريف (٤) ، قال : ارعى غنيماتك ، فرعت مليا ؛ ثم قالت يا أبت جاءتك السماء ، قال : كيف ترينها ؟ قالت : سطحت وابيضت . قال : أدخلى غنيماتك ، قال : فجاءت السماء بشىْ شطأ (٥) له الزرع وأينع (٦) ، وخضر ونضر (٧)

وروى أبو الفرج الأصبهانى فى الأغانى (٨) بسنده قال : كان من حديث زهير بن جناب الكلبىّ أنه كان قد بلغ عمراً طويلاً حتى ذهب عقله ، وكان يخرج تائها لا يدرى أين يذهب فتلحقه المرأة من أهله والصبى فيرده ، ويقول له : إنى أخاف عليك الذئب أن يأكلك ! فأين تذهب ؟ فذهب يوماً من أيامه ، ولحقته ابنة له فردته فرجع معها يهدج (٩) كأنه رأل (١٠) ، وراحت عليهم سماء (١١) فى الصيف فعلتهم منها بغشة (١٢) ، ثم أردفها غيث منكر ؛ وسمع له زجلا (١٣)

---

(١) أبصر (٢) ذو بقر : موضع . والبرك : الصدر . والكتاف ما كتف به الشىْ
(٣) نحته : صرفته . ومرته: استخرجت ماءه وكذلك « انتجفته » (٤) أى مطروف وهو الذى يستطرف الكلأ لا يرعى فى مكان واحد كالمرأة المطروفة وهى التى تطرف الرجال لاتثبت على واحد (٥) أى أخرج نباته (٦) أينع النبت يونع ايناعا اذا اخضر وينع الثمر ينعاً وينيعاً وينوعا اذا ادرك ونضج (٧) أى حسن (٨) — ج ٢١ ص ٦٥ (٩) أى يمشى فى ارتعاش (١٠) ولد النعام أو حوليه (١١) مطر (١٢) مطرة ضعيفة (١٣) صوتا

منكرا . فقال : ما هـذا يا بنية ؟ فقالت عارض هائل[١] إن أصابنا دون أهلنا هلكنا . فقال : انعتيه لى ! فقالت : أراه منبطحاً مسلنطحاً[٢]، قدضاق ذرعا[٣] وركب ردعا ، ذا هيدب[٤] يطير ، وهماهم[٥] وزفير ؛ ينهض نهض الكسير ، عليه مثل شباريق الساج[٦] ، فى ظلمة الليل الداج[٧]؛ يتضاحك مثل شمل النيران، يهرب منه الطير ، ويوائل[٨] منه الحشرة . قال : أى بنية وائلى منه الى عصر[٩] قبل أن لا عين ولا أثر . وفى هذا الفن كثير من المنظوم وقد ذكرت منه نبذة غير يسيرة فى كتاب جزيرة العرب للهمدانى ، والله ولى التوفيق .

ومن علومهم :

علم القيافة والعيافة

إعلم أن القيافة على قسمين : قيافة الأثر ويقال لها العيافة ، وقيافة البشر ، أما العيافة فهو علم باحث عن تتبع آثار الأقدام والأخفاف والحوافر فى المقابلة للأثر ، وهى التى تكون فى تربة حرة يتشكل بشكل القدم ؛ ونفع هذا العلم بين اذ القائف يجد بهذا العلم الفارّ من الناس ، والضالّ من الحيوان بتتبع آثارها وقوائمها بقوة الباصرة ، وقوة الخيال والحافظة ، حتى يحكى أن بعضهم يفرق بين أثر قدم الشاب والشيخ ، وقدم الرجل والمرأة ، والبكر والثيب . وأما قيافة البشر فهى الاستدلال بهيئات أعضاء الشخصين على المشاركة والاتحاد بينهما فى النسب والولادة وفى سائر أحوالهما وأخلاقهما . وقد فسرها أبو القاسم الأصفهانى فى كتاب الذريعة بتفسير أوجز فقال : والقيافة ضربان : أحدهما بتتبع أثر الأقدام ، والاستدلال به على السالكين ؛ والثانى الاستدلال بهيئة الانسان وشكله على

(١) العارض : السحاب المعترض فى الافق . (٢) واسعاً عريضا (٣) يقال : ضاق فلان بالامر ذرعا أى ضعفت طاقته ولم يجد من المكروه فيه مخلصا . وركب ردعا : خر لوجهه على دمه (٤) هو السحاب المتدلى أوذيله (٥) اصوات (٦) قطع الطيلسان الاخضر أوالاسود (٧) المظلم (٨) وآءل : طلب النجاة والى المكان بادر (٩) هو اللجأ والمنجاة

نسبته . وخص الاستدلال بالقيافة البشرية من العرب بنومُدْلِج[١]، وبنولهب[٢] وذلك لمناسبة طبيعية حاصلة فيهم لا بتعلم . قال الأصفهانى : خص الله تعالى بذلك العرب ليكون سبباً لارتداع نسائهم عما يورث ثلب نسبهم ، وخبث حسبهم ، وفساد بذورهم ، وزروعهم ، صيانةً للنسبة ؛ ولأجل حفظه تعالى نسبهم بذلك قال تعالى (وجعلناكم شعوباً وقبائلَ لِتعَارَفُوا) أى ليعرف بعضكم بعضا بمعرفة أصله انتهى ، وبمثل ذلك قال بعض الحكماء ، وحصول هذا العلم بالحدس والتخمين لا بالاستدلال واليقين ، ولا يحصل بالمدارسة والتعليم ، فلذا لم يصنف فيه مصنف لا حادث ولا قديم ، والقيافة اليوم موجودة فى بعض قبائل عرب نجد ، ويقال انهم بنو مرة ، وهم أعلم الناس بها ، وقد نقل الثقات ممن سافر الى بلاد نجد أن كثيراً منهم يرى الأثر فيقول : هذا أثر فلان وفلان ، وهـذا أثر بعير فلان وفلان ، وهذا أثر أناس لم يطأوا الارض الفلانية ، وهؤلاء أناس قدموا من كذا وكذا ، فلم يخلّوا بشىء منها . وسمعت أن اعرابياً اتبع أثر حمارٍ له سرقته اللصوص حتى دخـل (الحلة[٣]) وهو ينشده حتى أوقفه أثره عليه من بين آثار حمير لا تحصى ، واذا نظروا الى عدة أشخاص ألحقوا الابن بأبيـه ، والأخ بأخيه ، والقريب بقريبه ، وميزوا الاجنبى اذا كان بينهم ، وأهل مكة فيهم من يقارب هؤلاء ، فترى كثيراً منهم يميز بين العراقى والشامى ، والمصرى والمدنى ، والعربى والعجمى ، ولو لم يكن بزيه وهيئته ، وفى هذا الباب حكايات لولا تواترها لحكم عليها بما يقرب من الاستحالة ، والقيافة محكوم بها فى الشرع وهى احدى الطرق الحـكيمة ، ففى الصحيح من حديث مجزز الأسلمى[٤] أنه دخـل فرأى أسامة

(١) قبيلة من كنانة (٢) بطن من الازد . (٣) الحلة . علم لعدة مواضع . ويريد المؤلف حلة بنى مزيد مدينة من مدن العراق . كان أول من عمرها ونزلها سيف الدولة صدقة ابن منصور بن دبيس بن على بن مزيد الاسدى ، وهى لاتزال عامرة آهلة بالسكان ، واغلب اهلها اليوم شيعة ، وفيها جامع لاهل السنة عامر لانظير له فيها يعرف بالجامع الكبير . وهى طيبة الهواء ، عذبة الماء ، ذات بساتين غناء ، ومروج خضراء ، تسر الناظرين ، وتعجب الرائين ...

(٤) ترجمته فى الاصابة للحافظ العسقلانى ج ٦ ص ٤٥ — ط : المطبعة الشرفية .

ابن زيد وزيداً وعليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وبدت أقدامهما ، فنظر اليهما مجزز الأسلمي وقال : إن هذه الاقدام بعضها من بعض ، فسرّ بذلك النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وهي ناشئة من كمال الفطنة والذكاء ، ومن توابع غزارة العقل . ومن علومهم :

علم الفراسة

وهو الاستدلال بهيئة الانسان ، وأشكاله ، وألوانه ، وأقواله ، على أخلاقه ، وفضائله ، ورذائله ، وربما يقال : هي صناعة صيادة لمعرفة أخلاق الانسان وأحواله وقد نبه الله تعالى على صدقها بقوله (إن في ذلك لآيات للمتوسمين) وقوله : (تعرفهم بسيماهم) وقوله (ولتعرفنّهم في لحن القول[1]) ولفظها من قولهم فرس السبع الشاة فكأن الفراسة اختلاس المعارف ، وذلك ضربان : ضرب يحصل للانسان عن خاطر لا يعرف سببه ، وذلك ضرب من الالهام ، بل ضرب من الوحي ، وإياه عنى النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقوله « المؤمن ينظر بنور الله » وهو الذي يسمى صاحبه المروع والمحدث . وقال عليه الصلاة والسلام « ان يكن في هذه الأمة محدث فهو عُمَرُ » وقيل في قوله تعالى (وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا) انما كان وحياً بالقائه في الروع ، وذلك للأنبياء كما قال عز وجل (نزل به الروح الامين على قلبك) وقد يكون بالهام في حال اليقظة ، وقد يكون في حال المنام ولاجل ذلك قال عليه الصلاة والسلام « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة »

(والضرب الثاني من الفراسة) يكون بصناعة متعلمة ، وهي معرفة ما بين الألوان والأشكال ، وما بين الأمزجة ، والاخلاق ، والافعال الطبيعية ، ومن عرف ذلك كان ذا فهم ثاقب بالفراسة ، وقد عمل في ذلك كتب كثيرة من تتبع الصحيح منها اطلع على صدق ما ضمنوه ، والفراسة ضرب من الظن ، وهي من توابع

(١) اي في معنى القول . وفي مذهب القول .

العقل ، وكلما كان العقل أكمل كانت الفراسة أقوى ، ولهذا كانت العرب فيها أوفر نصيباً من غيرهم . وما روى عنهم من عجائب هذا الباب شيء كثير . من ذلك ماذكره الإمام الماوردى فى كتاب (أعلام النبوة (١)) قال : إن أول من أسس لعدنان مجداً ، وشيد لهم ذكراً ، معدّ بن عدنان حين اصطفاه بختنصر وقد ملك أقاليم الأرض ، وكان قد همّ بقتله حين غزا بلاد العرب ، فأنذره نبى كان فى وقته بأن النبوة فى ولده ، فاستبقاه ، وأكرمه ، ومكنه ، واستولى على تهامة بيد عالية ، وأمر مطاع ، وفيه يقول مهلهل الشاعر :

غنيت دارنا تهامة بالامس (م) وفيها بنو معدٍّ حلولا

ثم ازداد العز بولده نِزار ، وانبسطت به اليد ، وتقدم عند ملوك الفرس واجتباه (تستشف) ملك الفرس ، وكان اسمه خلدان ، وكان مهزول البدن ، فقال الملك : مالك يانزار ، وتفسيره فى لغتهم يامهزول ؟ فغلب عليه هذا الاسم فسمى نزاراً ، وفيه يقول قمعة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان :

جدِيسا خلفناه وطَسْمًا بأرضه ... فأكرمْ بنا عند الفخار فخارا
فنحن بَنُو عَدْنان خلدانُ جدُّنا ... فسماه (تستشف) الهُمَامُ نِزارا
فسمى نِزاراً بعد ما كان اسمه ... لدى العرب (خلدان) بنوه خيارا

وكان لِنزار أربعة أولاد : مُضر ، وربيعة ، وإياد ، وأنمار ، فلما حضرته الوفاة وصاهم . فقال : يابنىّ هذه القبة الحمراء وما أشبهها لمضر ، وهذا الخباء الأسود وما أشبهه لربيعة ، وهذه الخادمة وما أشبهها لإياد ، وهذه الندوة والمجلس وما أشبهه لأنمار ، فان أشكل عليكم واختلفتم ، فعليكم بالأفعى الجرهمى بنجران فاختلفوا فى القسمة ، فتوجهوا اليه ، فبينماهم يسيرون إذ رأى مضر كلأً قد رعى فقال : ان البعير الذى رعى هذا الكلأ لأعور ! وقال ربيعة : هو أزور (٢) وقال إياد : هو أبتر (٣) وقال انمار هو شرود (٤) ؛ فلم يسيروا قليلاً حتى لقيهم

(١) ص ١١٨ (٢) أى به زور وهو عوج الزور أو اشراف احد جانبيه على الآخر
(٣) مقطوع الذنب (٤) نفور

رجل يوضع[1] على راحلته[2] ، فسألهم عن البعير . فقال مضر : هو أعور ! قال : نعم ! وقال ربيعة : هو أزور ! قال : نعم ! وقال اياد : هو أبتر ! قال : نعم وقال أنمار : هو شرود ! قال : نعم ! وهذه والله صفة بعيري فدلوني عليه ، فقالوا والله ما رأيناه ، قال : قد وصفتموه بصفته فكيف لم تروه ؟ وسار معهم إلى نجران حتى نزلوا بالأفعى الجرهمي ، فناداه صاحب البعير : هؤلاء أصحاب بعيري وصفوه لي بصفته ، وقالوا لم نره ! فقال لهم الأفعى الجرهمي : كيف وصفتموه ولم تروه ؟ فقال مضر : رأيته يرعى جانباً فعرفت أنه أعور ! وقال ربيعة : رأيت إحدى يديه ثابتة الأثر والأخرى فاسدة الأثر ، فعرفت أنه أزور ! وقال إياد : رأيت بعره مجتمعاً فعرفت أنه أبتر ! وقال انمار : رأيته يرعى المكان الملتف ثم يجوز الى غيره فعرفت أنه شرود ! فقال الجرهمي لصاحب البعير : ليسوا أصحاب بعيرك فاطلبه من غيرهم ! ثم سألهم : مَنْ هم ؟ فأخبروه أنهم بنو نزار بن معد ، فقال : أتحتاجون الىّ وأنتم كما أرى ؟ فدعا لهم بطعام ، فأكلوا أكل ، وبشراب فشربوا وشرب ، فقال مضر : لم أر كاليوم خمراً أجود لولا أنها نبتت على قبر ! وقال ربيعة : لم أر كاليوم لحماً أطيب لولا أنه ربي بلبن كلب ! وقال إياد : لم أر كاليوم رجلاً أسرى لولا أنه يدعى لغير أبيه ! وقال أنمار : لم أر كاليوم كلاماً أنفع في حاجتنا ! وسمع الجرهمي الكلام فتعجب لقولهم وأتى أمه فسألها ، فاخبرته أنها كانت تحت ملك لا ولد له فكرهت أن يذهب الملك فأمكنت رجلاً من نفسها كان نزل به فوطئها فحملت منه به ! وسأل القهرمان عن الخمر ، فقال : من كرمة غرستها على قبر أبيك ! وسأل الراعي عن اللحم ، فقال : شاة أرضعتها بلبن كلبة ، لأن الشاة حين ولدت ماتت ، ولم يكن ولد في الغنم شاة غيرها . فقيل لمضر : من أين عرفت الخمر ونباتها على قبر ، قال : لأنه أصابني عليها عطش

(١) اوضع : اسرع في سيره (٢) الراحلة : المركب من الابل ذكراً كان اوانثى وبعضهم يقول — الراحلة . الناقة التي تصلح ان ترحل

شديد ! وقيل لربيعة : من أين عرفت أن الشاة ارتضعت على ابن كلبة ؟ قال : لأنى شممت منه رائحة الكلب ! وقيل لإياد : من أين عرفت أن الرجل يدعى لغير أبيه ؟ قال : لانى رأيته يتكلف ما يعمله . ثم أتاهم الجرهمى وقال : صفوا لى صفتكم ، فقصوا عليه ما أوصاهم به أبوهم نزار ، فقضى لمضر بالقبة الحمراء والدنانير والابل وهى حمر فسمى مضر الحمراء ، وقضى لربيعة بالخباء الاسود والخيل الدهم فسمى ربيعة الفرس ، وقضى لإياد بالخادمة الشمطاء والماشية البلق (١) ، وقضى لأنمار بالارض والدراهم ، وهذا الذى ظهر فى أولاد نزار من قوة الذكاء وحدة الفطنة تأسيسا لتميزهم بالفضل . واختصاصهم بوفور العقل ، مقدمة لما يراد بهم انتهى . فانظر الى هـذه الفراسة التى كادت تصل الى حد الاعجاز ، وكانت فى الوصول الى مكنون الحقائق أقوم مجاز ، فلله تعالى در العرب ، فهم مظهر كل عجب

وقد ازدادت فيهم الفراسة بعد أن أشرقت أنوار الاسلام على قلوبهم ، فنظروا بنور الله تعالى المودع فى أعين بصائرهم ما خفى من غيوبهم ، فقد ذكر ابن القيم فى كتابه (مفتاح دار السـعادة) أن الامام الشافعى القرشى كان له النصيب الاوفى منها ، فقد حكى أنه ومحمد بن الحسن رأيا رجلاً فقال محمد انه نجار ، وقال الشافعىّ انه حداد ، فسألاه عن صنعته ، فقال : كنت حداداً والآن نجاراً . بل إن كثيراً من أعراب البادية اليوم من له حظ منهـا ، وسمعت أن كثيرا منهم اذا نظر الى السحاب المهراق قال : أمطرت أرض كذا وكذا وسال وادى كذا وكذا ، ولم تمطر أرض كذا ، وابتدىء أرض كذا ، فيكون كما قال ؛ وعرب اليمن أوفر حظاً من غيرهم فى الضرب الثانى من الفراسة ، والامام الشافعى أخذ ذلك عنهم ، وله فى هذا الفن طرائف ، ففى (مفتاح دار السعادة) ان الامام الشافعى قال : خرجت الى اليمن فى طلب كتب الفراسة حتى كتبتها وجمعتها ،

(١) جمع ابلق وهو المرتفع التحجيل الى الفخذين

ثم لما كان انصرافي مررت في الطريق برجل ، وهو مُحْتَبٍ (١) بفناء داره ، أزرق العين ناتيء الجبهة ، فقلت له : هل من منزل ؟ قال نعم ! قال الشافعي : وهذا النعت أخبث مايكون في الفراسة ، فأنزلني فرأيته أكرم رجل : بعث الىَّ بعشاء وطيب وعلف للدواب وفراش ولحاف ، وجعلت أتقلب الليل أجمع ماذا أصنع بهذه الكتب فلما أصبحت قلت للغلام اسرج ، فأسرج ، فركبت ومررت عليه ، وقلت له اذا قدمت مكة ومررت بذى طوى ، فسل عن منزل محمد بن ادريس الشافعي . فقال لى الرجل أمولى لأبيك كنت أنا ؟ قلت : لا ! قال: فهل كانت لك عندى نعمة ؟ قلت :لا ؛ قال: فأين ماتكلفت لك البارحة ، قلت : وماهو؟ قال : اشتريت لك طعاما بدرهمين وأدماً بكذا .وعطراً بثلاثة دراهم، وعلفاً لدوابك بدرهمين . وكرى الفراش واللحاف درهمان ! قلت : فهل بقي شيء ؟ قال كرى المنزل فانى وسعت عليك وضيقت على نفسى ! فغبطت نفسى حينئذ بتلك الكتب ! فقلت له بعد أن أعطيته ماطلب : هل بقى شيء ؟ قال: امض أخزاك الله فمارأيت شراً منك ! وفى الكتاب المذكور أيضاً عن الربيع أنه قال اشتريت للشافعي طيباً بدينار فقال لى: ممن اشتريته ؟ فقلت : من ذلك الاشقر الازرق ، فقال ، أشقر أزرق ، اذهب فردّه . وعن حرملة قال : سمعت الشافعي يقول : احذروا من كل ذى عاهة فى بدنه فانه شيطان ، قال حرملة قلت — من أولئك ، قال الاعرج والاحول ونحوهما انتهى

قال الاصفهاني : فى الذريعة : ومن الفراسة علم الرؤيا وقد عظم الله تعالى امرها فى جميع الكتب المنزلة ، وقال لنبيه صلى الله تعالى عليه وسلم (وما جعلنا الرؤيا التى أريناك الا فتنةً للناس والشجرة الملعونة فى القرءآن) وقال (إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) الآية . وقال فى قصة ابراهيم (يا بنى انى أرى فى المنام انى أذبحك) وقوله (يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكباً) والرؤيا : هى فعل النفس الناطقة

(١) اى مشتمل بثوب او جامع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها

ولو لم يكن لها حقيقة لم يكن لأيجاد هذه القوة فى الانسان فائدة ، والله يتعالى عن الباطل . وهى ضربان ضرب — وهو الاكثر — أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس بالخواطر الرديئة لكون النفس فى تلك الحال كالماء المتموج لا يقبل صورة وضرب — وهو الاقل — صحيح ، وذلك قسمان : قسم لا يحتاج الى تأويل ، ولذلك يحتاج المعبر الى مهارة يفرق بين الاضغاث وبين غيرها ، وليميز بين الكلمات الروحانية والجسمانية ويفرق بين طبقات الناس ، اذ كان فيهم من لا تصح له رؤيا . وفيهم من تصح رؤياه ثم من صح له ذلك منهم من يرشح ان تلقى اليه فى المنام الاشياء العظيمة الخطيرة ، ومنهم من لا يرشح له ذلك ، ولهذا قال اليونانيون : يجب أن يشتغل المعبر بعبارة رؤيا الحكماء والملوك دون الطغام ، وذلك لأن له حظاً من النبوة . وقد قال عليه الصلاة والسلام « الرؤيا الصادقة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » وهذا العلم لا يحتاج الى مناسبة بين متحريه وبينه ، فربَّ حكيم لا يرزق حذقاً فيه ، وربَّ نزر الحظ من الحكمة وسائر العلوم توجد له فيه قوة عجيبة

ويحكى عن العرب فى التعبير حكايات عجيبة حتى عن المولدين منهم . قال ابن القيم فى (مفتاح دار السعادة) حكى عن المهدى أنه رأى رؤيا ونسيها ، فأصبح مغتماً بها ، فدل على رجل كان يعرف الزجر والفال والتعبير ، وكان حاذقاً ، واسمه خويلد ، فلما دخل عليه أخبره بالذى أراده له ، قال له : يا أمير المؤمنين صاحب الزجر والفأل الى الحركة ، فغضب المهدى وقال : سبحان الله أحدكم يذكر بعلم ولا يدرى ماهو ! ومسح يده ووجهه ، وضرب بها على فخذه ، فقال له : أخبرك برؤياك يا أمير المؤمنين ! قال : هات ! قال : رأيت كأنك صعدت جبلاً ، فقال المهدى : لله أبوك يا سحار صدقت ! قال : ما أنا بسحار يا أمير المؤمنين غير أنك مسحت بيدك على رأسك فزجرت لك ، وعلمت أن الرأس ليس فوقه شئ الا السماء فأولته بالجبل ، ثم نزلت بيدك الى جبهتك ، فزجرت لك بنزولك الى أرض ملساء فيها عينان مالحتان ثم انحدرت الى سفح الجبل فلقيت رجلاً

من نخذك قريش ، لأن أمير المؤمنين مسح بعد ذلك بيده على نخذه فعلمت أن الرجل الذى لقيته من قرابتك ! قال : صدقت ، وأمر له بمال وأمر أن لا يحجب عنه ، ومثل هذه الحكاية كثير . قال الاصفهانى : والزكانة ضرب من الفراسة أيضاً ، وهى معرفة فعل باطن بفعل ظاهر بضرب من التوهم ؛ والقيافة ضرب من الزكانة لكنها أدق ، وقد ذكرناها سابقاً بقسميها ، والله ولى الهداية والتوفيق.

ومن علومهم :

علم الكهانة والعرافة

كان هذا العلم فى العرب أيام الجاهلية شائعاً فيهم ، وعليه مدار فصل خصوماتهم ومنازعاتهم ؛ وقد تكلم فى الكهانة كثير من أهل العلم ، وبسطوا الكلام فيها وأوجزوا ، ونحن نلخص هنا ماوقفنا عليه فنقول : الكهانة بفتح الكاف ويجوز كسرها ، قيل : هى ادعاء علم الغيب كالاخبار بما سيقع فى الارض مع الاستناد الى سبب ، والاصل فيها استراق الجنىّ السمع من كلام الملائكة فيلقيه فى أذن الكاهن ؛ والكاهن لفظ تطلق على العراف ، والذى يضرب بالحصى والمنجم ، ويطلق على من يقوم بأمر آخر ، ويسعى فى قضاء حوائجه ، وقال فى المحكم : الكاهن القاضى بالغيب ، وقال فى الجامع : العرب تسمى كل من أذن بشئ قبل وقوعه كاهناً ، وقال الخطابى : الكهنة قوم لهم أذهان حادة ، ونفوس شريرة ، وطباع نارية ، فألفتهم الشياطين لما بينهم من التناسب فى هذه الأمور ، وساعدتهم بكل ما تصل قدرتهم اليه ، قال بعض الأفاضل : وكانت الكهانة فى الجاهلية فاشية خصوصاً فى العرب لانقطاع النبوة فيهم ، وهى على أصناف : منها مايتلقونه من الجن ، فان الجن كانوا يصعدون الى جهة السماء فيركب بعضهم بعضاً الى أن يدنو الأعلى بحيث يسمع الكلام فيلقيه الى الذى يليه الى أن يتلقاه من يلقيه فى أذن الكاهن فيزيد فيه ، فلما جاء الاسلام ونزل القرءان ، حرست السماء من الشياطين ، وأرسلت عليهم الشهب ، فبقى من استراقهم ما يتخطفه

الأعلى فيلقيه الى الأسفل قبل أن يصيبه الشهاب ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى (الا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب) وكانت إصابة الكهان قبل الاسلام كثيرة جداً كما سنبين ذلك فى أخبار شق وسطيح ونحوهما ، وأما فى الاسلام فقد ندر ذلك جداً حتى كاد يضمحل ؛ ثانيها ما يخبر به الجنى من يواليه بما غاب عن غيره مما لا يطلع عليه الانسان غالباً ، أو يطلع عليه من قرب منه لامن بعد ؛ ثالثها ما يستند الى ظن وتخمين وحدس ، وهذا قد يجعل الله تعالى فيه لبعض الناس قوة مع كثرة الكذب فيه ؛ رابعها ما يستند الى التجربة والعادة فيستدل على الحادث بما وقع قبل ذلك ؛ ومن هذا القسم الأخير ما يضاهى السحر ، وقد يعتضد بعضهم فى ذلك بالزجر والطرق والنجوم

وقال الامام النووىُّ فى شرح صحيح مسلم : الكهانة فى العرب ثلاثة أضرب أحدها أن يكون للانسان رَئِيٌّ (١) من الجن يخبره بما يسترقه من السمع من السماء وهذا القسم بطل من حين بعث النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؛ الثانى أن يخبره بما يطرأ ويكون فى أقطار الارض ، وماخفى عنه مما قرب أو بعد ، وهذا لا يبعد وجوده . ونفت المعتزلة وبعض المتكلمين هذين الضربين وأحالوهما ، ولا استحالة فى ذلك ولا بعد فى وجوده ، لكنهم يصدقون ويكذبون ، والنهى عن تصديقهم والسماع منهم عام ؛ الثالث المنجمون ، وهذا الضرب يخلق الله تعالى فى بعض الناس قوة مَّا لكن الكذب فيه أغلب ، ومن هذا الفن العرافة فصاحبها عراف ، وهو الذى يستدل على الأمور باسباب ومقدمات يدعى معرفتها بها : كالزجر والطرق بالحصى ؛ وهذه الأضراب كلها تسمى كهانة ، وقد أكذبهم الشرع ، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم انتهى. يريد بالنهى حديث « من أتى كاهناً أوعرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد » ولعل الحكمة فى النهى عن ذلك لغلبة الكذب فى كلامهم ولأن فى تصديقهم فَتْحَ بابٍ يوصل الى لظى ، إذ قد

(١) قال ابن الاثير : يقال للتابع من الجن رئِيٌ ككمى وهو فعيل او فعول . سمى به لانه يترا آى لمتبوعة اوهو من الرأى من قولهم فلان رئِى قومهم اذا كان صاحب رأيهم .

يجر الى تعطيل الشريعة والطعن فيها ، لاسيما من العوام ؛ واستثناء ماهو من جنس الكسوف لندرة خطئهم فيه ، بل لعدمه اذا أمكنوا الحساب ؛ ولا كذلك مايخبرون به من الحوادث إذ قد بنوا ذلك على أوضاع السيارات بعضهامع بعض أو مع بعض الثوابت ، ولاشك أن ذلك لايكفى فى الغرض والوقوف على جميع الاوضاع ، وما تقتضيه مما يتعذر الوقوف عليه لغير علام الغيوب

وقد أطال الكلام ابن خلدون فى مقدمته على المدركات الغيبية ، ومنها الكهانة ، ومن كلامه فيها أنه قال[1] وأما الكهانة فهى أيضا من خواص النفس الانسانيةوذلك أن للنفس الانسانيةاستعداداً للانسلاخ من البشرية الى الروحانية التى فوقها وانه يحصل من ذلك لمحة للبشر فى صنف الانبياء بما فطروا عليه من ذلك وتقرر أنه يحصل لهم من غير اكتساب ولا استعانة بشىء من المدارك . ولا من التصورات ولا من الافعال البدنية كلاماً أو حركة ، ولا بأمر من الأمور إنما هو انسلاخ من البشرية الى الملكية بالفطرة فى لحظة أقرب من لمح البصر ، واذا كان كذلك وكان ذلك الاستعدادموجوداً فى الطبيعةالبشرية فيعطى التقسيم العقلى أن هنا صنفاً آخر من البشر ناقصا عن رتبة الصنف الأول نقصان الضد عن ضده الكامل ، لأن عدم الاستعانة فى ذلك الادراك ضد الاستعانة فيه ، وشتان مابينهما ! فاذا أعطى تقسيم الوجود أن هنا صنفاً آخر من البشر مفطوراً على أن تتحرك قوته العقلية حركتها الفكرية بالارادة عند مايبعثها النزوع لذلك وهى ناقصة عنه بالجبلة فيكون لها بالجبلة عند مايعوقها العجز عن ذلك تشبث بأمور جزئية محسوسة أو متخيلة كالأجسام الشفافة ، وعظام الحيوانات وسجع الكلام ، وما سنح من طير أو حيوان ، فيستديم ذلك الاحساس أو التخيل مستعيناً به فى ذلك الانسلاخ الذى يقصده ، ويكون كالمشيع له ، وهذه القوة التى فيهم مبدأ لذلك الادراك هى الكهانة ، ولكون هذه النفوس مفطورة على النقص

(١) المقدمة ص ٨٤ — ط بولاق

والقصور عن الكمال كان ادراكها فى الجزئيات أكثر من الكليات ، ولذلك تكون المخيلة فيهم فى غاية القوة ، لأنها آلة الجزئيات فتنفذ فيها نفوذاً تاماً فى نوم أو يقظة ، وتكون عندها حاضرة عتيدة تحضرها المخيلة . وتكون لها كالمرآة تنظر فيها دائماً ، ولا يقوى الكاهن على الكمال فى ادراك المعقولات ، لان وحيه من وحى الشيطان ، وأرفع أحوال هذا الصنف أن يستعين بالكلام الذى فيه السجع والموازنة ليشتغل به عن الحواس ، ويقوى بعض الشئ على ذلك الاتصال الناقص فيهجس فى قلبه فى تلك الحركة ، والذى يشيعها من ذلك الاجنبى مايقذفه عن لسانه فربما صدق ووافق ، وربما كذب لأنه يتمم نقصه بأمر أجنبى عن ذاته المدركة ، ومباين لها غير ملائم ، فيعرض له الصدق والكذب جميعاً ولا يكون موثوقاً به ، وربما يفزع الى الظنون والتخمينات ، حرصاً على الظفر بالادراك بزعمه ، وتمويهاً على السائلين ، وأصحاب هذا السجع هم المخصوصون باسم الكهان لأنهم أرفع سائر أصنافهم ، وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم فى مثله (هذا من سجع الكهان) فجعل السجع مختصاً بهم بمقتضى الاضافة ، وقد قال لابن صياد [١] حين سأله كاشفاً عن حاله بالاختبار : كيف يأتيك هذا الامر ؟ قال : يأتينى صادق وكاذب ، فقال : خلط عليك الامر يعنى أن النبوة خاصتها الصدق فلا يعتريها الكذب بحال لأنها اتصال من ذات النبى بالملأ الاعلى من غير مشيع ولا استعانة بأجنبى ، والكهانة لما احتاج صاحبها بسبب عجزه الى الاستعانة بالتصورات الأجنبية كانت داخلة فى ادراكه ، والتبست بالادراك الذى توجه اليه ، فصار مختلطاً بها ، وطرقه الكذب من هذه الجهة فامتنع أن تكون نبوة ، وانما قلنا إن أرفع مراتب الكهانة حالة السجع لان معنى السجع أخف من سائر المغيبات من المرئيات والمسموعات ، وتدل خفة المعنى على قرب ذلك الاتصال والادراك والبعد فيه عن العجز [٢] بعض الشئ

---

(١) سنذكر عنه شيئاً قريباً . (٢) كذا . ولعله سقط من قلم الناسخ لفظ « عن » .

وقد زعم بعض الناس أن هذه الكهانة قد انقطعت منذ زمن النبوة بما وقع من شان رجم الشياطين بالشهب بين يدى البعثة ، وأن ذلك كان لمنعهم من خبر السماء كما وقع فى القرآن ، والكهان انما يتعرفون أخبار السماء من الشياطين فبطلت الكهانة من يومئذ ، ولا يقوم من ذلك دليل ، لأن علوم الكهان كما تكون من الشياطين تكون من نفوسهم أيضاً كما قررناه ، وأيضا فالآية إنما دلت على منع الشياطين من نوع واحد من أخبار السماء ، وهو ما يتعلق بخبر البعثة ، ولم يمنعوا مما سوى ذلك ، وأيضا فانما كان ذلك الانقطاع بين يدى النبوة فقط ، ولعلها عادت بعد ذلك الى ما كانت عليه ، وهذا هو الظاهر لأن هذه المدارك كلها تخمد فى زمن النبوة كما تخمد الكواكب والسرج عند وجود الشمس لأن النبوة هى النور الاعظم الذى يخفى معه كل نور ويذهب ، وقد زعم بعض الحكماء أنها إنما توجد بين يدى النبوة ثم تنقطع ، وهكذا مع كل نبوة وقعت لأن وجود النبوة لابد له من وضع فلكى يقتضيه ، وفى تمام ذلك الوضع تمام تلك النبوة التى دل عليها ، ونقص ذلك الوضع عن التمام يقتضى وجود طبيعة من ذلك النوع الذى يقتضيه ناقصة ، وهو معنى الكاهن على ما قررناه ، فقبل أن يتم ذلك الوضع الكامل يقع الوضع الناقص ويقتضى وجود الكاهن إما واحداً أومتعدداً ، فاذا تم ذلك الوضع تم وجود النبى بكماله ، وانقضت الاوضاع الدالة على مثل تلك الطبيعة فلا يوجد منها شئ بعد ، وهذا بناء على أن بعض الوضع الفلكى يقتضى بعض أثره ، وهو غير مسلم ، فلعل الوضع إنما يقتضى ذلك الأثر بهيئته الخاصة ، ولو نقص بعض أجزائها فلا يقتضى شيئاً لا أنه يقتضى ذلك الاثر ناقصاً كما قالوه ، ثم ان هؤلاء الكهان اذا عاصروا زمن النبوة فانهم عارفون بصدق النبى ، ودلالة معجزته ، لأن لهم بعض الوجدان من أمر النبوة كما لكل انسان من أمر النوم ، ومعقولية تلك النسبة موجودة للكاهن بأشد مما

للنائم ، ولا يصدهم عن ذلك ويوقعهم فى التكذيب إلا قوة المطامع فى أنها نبوة لهم فيقعون فى العناد كما وقع لأمية بن أبى الصلت فانه كان يطمع أن يكون نبياً ، وكذا وقع لابن الصياد [1] ، ولمسيلمة [2] وغيرهم ؛ فاذا غلب الايمان ، وانقطعت تلك الامانى آمنوا أحسن إيمان كما وجب لطليحة الاسدى [3] وسواد بن قارب [4] وكان لهما فى الفتوحات الاسلامية من الآثار الشاهدة بحسن الايمان . انتهى المقصود من نقله .

كلام فى العرافة

والعرافة قسيمة للكهانة حسبما يفهم من كلام كثير من أهل العلم . قال الاصفهانى فى كتاب الذريعة : الكهانة مختصة بالامور المستقبلة ، والعرافة بالامور الماضية . وعرفها بعضهم بقوله : العرافة الاستدلال ببعض الحوادث الخالية على الحوادث الآتية بالمناسبة ، أو المشابهة الخفية ، التى تكون بينهما ، أو الاختلاط ، أو الارتباط على أن يكونا معلولى أمر واحد ، أو يكون ما فى الحال علة لما فى الاستقبال ؛ وشرط كون الارتباط المذكور خفياً لا يطلع عليه إلا الافراد ، وذلك إما بالتجارب ، أو بالحالة المودعة فى أنفسهم عند الفطرة ؛ وهى كثيرة فى العرب جاهلية وإسلاماً . يحكى أنه كان فى زمن هرون الرشيد رجل أعمى من أهل العرافة ، وكان يستدل على المسؤول عنه بكلام صدر عن الحاضرين عقب السؤال ، فسرق يوماً من خزانة الرشيد بعض من الاشياء ، فطلب الرجل ، وأمر أن لا يتكلم أحد بعد السؤال أصلا ، ففعلوا كما أمر ، والاعمى ألقى سمعه ولم يسمع شيئاً فأمرَّ يده على البساط

(١) قال الزبيدى : هو رجل من اليهود أو دخيل فيهم واسمه « صاف » فيما قيل . وكان عنده شيء من الكهانة او السحر . وجملة امره انه كان فتنة امتحن الله بها عباده المؤمنين ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حى عن بينة . ثم انه مات بالمدينة فى الاكثر . وقيل انه فقد يوم الحرة فلم يجدوه انتهى « التاج مادة صيد » (٢) انظر ص ١٩٦ من الجزء الاول (٣) هو طليحة بن خويلد بن نوفل بن نضلة الاسدى الفقعسى كان يعد بألف فارس ثم تنبأ ثم اسلم وحسن اسلامه
(٤) سيأتى ذكره قريبا

فوجد فيه نواة تمرة ، فقال : إن المسئول عنه در وزبرجد وياقوت! فقال الرشيد أين هو ؟ قال: فى بئر . فوجدوه كما ذكر الاعمى ، فتحير الرشيد فيه فسئل عن سبب معرفته ، فقال : وجدت نواة تمرة وطلع النخل أبيض ، وهو كالدر ، ثم يكون بسراً وهو أخضر ولون الزمرد كذلك ، ثم يكون رطباً وهو أحمر ولون الياقوت كذلك ، ثم لما سألتم عن مكان المسروق سمعت صوت دلو فعرفت أنه فى بئر! فاستحسن الرشيد استخراجه وفراسته ، فأعطاه مالاً جزيلا . وحكى أن أبا معشر وصاحبه ذهبا الى عراف فسألاه عن شيء فقال إنكما سألتما عن مسجون! فقالا انه يخلص ؟ قال : نعم يخلص ! فسألاه عن سبب معرفته ، فقال : انكما لما سألتمانى وقع نظرى على قربة ماء فعرفت أن السؤال عن مسجون ولما سألتمانى عن خلاصه نظرت فاذا هو قد فرغ قربته ، ولابن خلدون كلام فى حقيقة العرافة ونحوها يستحسنه أهل النظر ؛ ولعلنا نذكره فى علم الزجر

نبذة من اخبار بعض من اشتهر من الكهان والعرافين

قد كان العرب على ما ذكرنا سابقا يفزعون الى الكهان والعرافين فى تعرف الحوادث ، ويتنافرون اليهم فى الخصومات ، ليعرفوهم بالحق فيها من إدراك غيبهم وفى كتب أهل الأدب كثير من ذلك ، واشتهر منهم فى الجاهلية جماعة معدودون ، منهم :

عزى سلمة الكاهن

روى هشام بن محمد الكلبي عن أبيه عن أبى صالح عن عقيل بن أبى طالب قال : كان عبد المطلب بن هاشم نديما للحرث بن أمية حتى تنافرا الى نفيل بن عبد العزى ، فما نفر عبد المطلب فتفرقا ، ومات عبد المطلب وهو ابن عشرين ومائة سنة ، ومات قبل الفجار فى الحرب التى بين هوازن ، ويقال بل تنافرا الى عزى

سلمة الكاهن ، قالوا : كان لعبد المطلب ماء بالطائف يقال له (ذو الهَرْم[١]) فجاء الثقفيون فاحتفروه فخاصمهم عبد المطلب الى عزى أو إلى نفيل ، فخرج عبد المطلب مع ابنه الحرث ، وليس له يومئذ غيره ، وخرج الثقفيون مع صاحبهم وحرب بن أمية معهم على عبد المطلب ، فنفد ماء عبد المطلب فطلب اليهم أن يسقوه ، فأبوا ، فبلغ العطش منهم كل مبلغ ، وأشفوا[٢] على الهلاك ، فبينا عبد المطلب يثير بعيره ليركب اذ فجر الله له عيناً من تحت جِرانه[٣] ، فحمد الله وعلم أن ذلك منه فشرب وشرب أصحابه ريهم ، وتزودوا منه حاجتهم ، ونفد ماء الثقفيين ، فطلبوا الى عبد المطلب أن يسقيهم ، فأنعم لهم ، فقال له ابنه الحرث : لأنتحين على سيفي حتى يخرج من ظهري ! فقال عبد المطلب : لأسقينهم فلا تفعل ذلك بنفسك ، فسقاهم ثم أطلقوا حتى أتوا الكاهن ، وقد خبأوا له رأس جرادة فى خرزة مزادة ، وجعلوه فى قلادة كلب لهم يقال له (سوّار) فلما أتوا الكاهن إذا هم ببقرتين تسوقان بينهما بَخْرَجاً[٤] كلتاهما تزعم أنه ولدها ، ولدتا فى ليلة واحدة فأكل النمر أحد البخرجين فهما توأمان الباقى ، فلما وقفا بين يديه قال الكاهن : هل تدرون من تريد هاتان البقرتان ؟ قالوا لا : قال الكاهن: ذهب به ذو جسد أربد[٥] وشِدْق مرمع[٦] وناب معلق ، ما للصغرى فى ولد الكبرى حق ، فقضى به للكبرى ، ثم قال : حاجتكم ، قالوا : قد خبأنا لك خبيئاً فأنبئنا عنه ، ثم نخبرك بحاجتنا ، قال : خبأتم لى شيئاً طار فسطع فتصوب فوقع ، فى الارض منه بقع ، فقالوا : لاده أى بينه ، قال : هو شىء طار فاستطار ، ذو ذنب جرار ، وساق كالمنشار ، ورأس كالمسمار : فقالوا لاده ، قال :

(١) بفتح فسكون . وضبطه بعضهم بكسر الراء . قال ياقوت : هكذا ضبطناه عن اهل العلم والصحيح عندى انه ذو الهرم بالتحريك وله فيه قصة جاء فيها سجع يدل على ذلك ... ومن ضبط الهرم بالفتح والسكون قال انه «مال» كان لعبد المطلب او لابى سفيان بالطائف (٢) اشرفوا
(٣) بالكسر مقدم عنقه من مذبحه الى منحره .
(٤) البخرج : ولد البقرة (٥) اى اسود مختلط . (٦) الشدق : جانب الفم . ومرمع :— مصفر متغير

إن لاده فلاده ، هو رأس جراده ، فى خرز مزاده ، فى عنق (سوار) ذى القلاده ، قالوا : صدقت ، فاخبرنا فيما اختصمنا اليك فأخبرهم فانتسبوا له فقضى بينهم ورجعوا الى منازلهم على حكمه . وقد أورد هذه القصة الميدانى أيضا عند الكلام على قولهم (إلاَّ دَهٍ فلاَ دَهٍ) قال : وروى ابن الاعرابى الاده فلاده ، ويروى أيضا الاده فلاده أى إن لم تُعط الاثنين لاتعطى العشرة ، قال أبو عبيد : يضربه الرجل يقول أريد كذا وكذا . فان قيل له ليس يمكن ذا قال فكذا وكذا ، وقال الاصمعى : معناه إن لم يكن هذا الآن فلا يكون بعد الآن ، وقال : لا أدرى ما أصله . قال رؤبة « وقُوَّلٌ إلادهٍ فلاده » قال المنذرى : قالوا معناه إلا هذه فلا هذه يعنى أن الاصل الاذه فلاذه بالذال المعجمة فعرب بالدال غير المعجمة ، كما قالوا يهوذ . ثم عرب فقيل يهود ، وقيل أصله الادهى أى إن لم تضرب فأدخل التنوين فسقط الياء وقبله

فاليوم قد نَهْنَهَنى تنهنهى ... وأوَّلُ حلمٍ ليس بالمُسَفَّهِ
وقُوَّلٌ إلاَّ دَهٍ فلادَهِ ... وحَقَّةٌ ليستْ بقوْلِ التُرَّهِ

يقول : زجرنى زواجر العقل ، ورجوع حلم ليس ينسب الى السفه ، وقُوَّل أى ورجوع قول أى نساء قُوَّل يقلن إن لم يتب الآن مع هذه الدواعى لا يتب أبداً . وقوله « وحقة » أى وقالة حقة يقال حق وحقة كما يقال أهل وأهلة يريد الموت وقربه انتهى . وقال عبد القادر البغدادى فى كتاب خزانة الأدب بعد أن أورد هذه الابيات : وصف رؤبة قبل هذه الابيات شبابه ، وما كان فيه من مغازلة الغوانى ، ومواصلة الامانى — الى أن قال — فاليوم قد زجرنى عما كنت فيه أربعة أشياء : الاول التنهنه ، وهو مطاوع نهنهته عن كذا فتنهنه . أى كففته وزجرته عنه فكف ، أى زجرنى زواجر العقل ، الثانى أول حلم أى رجوع عقل لا ينسب الى السفه ، الثالث عذل القائلين إن لم تتب الآن مع هذه الدواعى الى التوبة فلا تتوب ابداً فقوله « وقوّل » على حذف مضاف ، والرابع حقة اى خطة حقة ، فالموصوف محذوف ، واراد بها الموت وقربه ، يقال حق وحقة كما يقال

اهل واهلة ، والتره اسم مفرد بمعنى الباطل ، يقال تره وترهة وجمع الأول تراريه ، وجمع الثانى ترهات . وقول الرضى (دَهْ) بفتح الدال وسكون الهاء الى آخر ماذكره هذا كلام شارح اللباب اسمعيل القالى من غير زيادة ولا نقص ، ولا يخفى أنه اذا كان ده بمعنى إضرب فهو اسم فعل لاصوت ، والحق أنها فى لغة الفرس زجر لذى الحافر ليسرع ، أو ليذهب وليست بمعنى اضرب ، وهذا أمر ظاهر من استعمالهم الى الآن ، ولكنهم أجمعوا على أنها بمعنى الضرب وحينئذ فيرد عليهم أنها تكون اسم فعل لا صوتاً . قال صاحب اللباب : ذكر جار الله أن ده زجر للابل مثل هيد وهاد ، وذكر فى أمثاله أن ده بفتح الدال وكسرها فارسية معناها الضرب قد استعملها العرب فى كلامهم ؛ وأصله أن الموتور يلقى واتره فلا يتعرض له ، فيقال له « الا ده فلا ده » أى إنك إن لم تضربه الآن فانك لا تضربه أبداً ، وتقديره إن لم يكن ده فلا يكون ده أى إن لم يوجد ضرب الساعة فلا يوجد ضرب أبداً ، ثم اتسعوا فيه فضربوه مثلاً فى كل شئ لا يقدم عليه الرجل وقد حان حينه من قضاء دين قد حل ، أو حاجة طلبت ، أو ما أشبه ذلك من الاحوال التى لا يسوغ تأخيرها ؛ والحاصل أن قولهم الا ده فلا ده قد اختلف فى ضبط لفظه وشرح معناه ، وجميع الأقوال على أنها كلمة فارسية معربة ؛ وقد أبى أبو محمد عبد الله الشهير بابن برى المقدسى أن تكون هذه الكلمة فى هذا المثل غير عربية ، وذهب الى أنها صفة مشبهة من الدهاء وهو الفطنة ، ورد على ملك النحاة فى زعمه أنها أعجمية فى الاصل بمعنى اسم الفعل ؛ ولقد أجاد ، فيما أفاد ، وحقق مدعاه فوق المراد ، وهو مذكور فى كتاب الخزانة ، ومنهم :

شق بن أنمار بن نزار

كان شق هذا شق إنسان له يد واحدة ورجل واحدة وعين واحدة ، ذكر الحافظ ابن الجوزى : أن خالد بن عبد الله الفهرى كان من ولد شق هذا ؛ وهذا

الاسم فى الاصل اسم لحيوان وهو بكسر الشين ؛ قال القزوينى : الشق من المتشيطنة صورته صورة نصف آدمى ! ويزعمون أن النسناس مركب من الشق ومن الآدمى ، ويظهر للانسان فى أسفاره ، وذكروا أن علقمة بن صفوان بن أمية خرج فى بعض الليالى فانتهى الى موضع فعرض له شق ، فقال علقمة : ياشق ! مالى ولك ، اغمد عنى مُنصُلك [1] أتقتل من لا يقتلك ؟ فقال شق : هَيْتَ لك [2] ، واصبِرْ لما قد حُمَّ لك [3] فضرب كل واحد منهما صاحبه فوقع ميتاً ؛ وفى سيرة ابن هشام عن ابن اسحق : ان مالك بن نصر اللخمى رأى رؤيا هالته ، فبعث الى جميع الكهان والسحرة والمنجمين من رعيته فاجتمعوا اليه فقال : إنى رأيت رؤيا هالتنى وفظعت بها ، فقالوا : قصها علينا نخبرك بتأويلها ! فقال لهم إنْ أخبرتكم بها لم أطمئن الى خبركم فى تأويلها ، ولست أصدق فى تأويلها الاَّ من عرفها قبل أن أخبره بها ، فقال بعضهم لبعض : إن هذا الذى يرومه الملك لا يجده إلى عند شق وسطيح ، فلما أخبروه بذلك أرسل الملك من أتاه بهما ، فسأل سطيحاً فقال : أيها الملك انك رأيت حممة [4] خرجت من ظلمة فوقعت بارض تهمة [5] وأكلت منها كل ذات جمجمة [6] ! فقال الملك : ما أخطأت شيئاً ، فما عندك فى تأويلها ؟ فقال سطيح : أحلف بما بين الحرتين من حنش ، ليهبطن أرضكم الحبش ، وليملكن ما بين أبين الى جرش ! فقال الملك : وأبيك ياسطيح ان هذا لنا لغائظ موجع ، فمتى يكون ذلك أفى زمانى أم بعده ؟ فقال : بل بعده بحين ، أكثر من ستين ، أو سبعين ، يمضين من السنين ، ثم يقتلون ويخرجون منها هاربين ! قال الملك : ومن الذى يلى ذلك من قتلهم واخراجهم ؟ قال : يليه ابن ذى يزن [7] يخرج عليهم من عدن ، فلا يترك أحداً منهم باليمن ! قال : أفيدوم ذلك من

---

(١) سيفك (٢) اى هلم (٣) أى قضى لك وقدر (٤) قطعة من نار (٥) منخفضة (٦) انما قال كل ذات جمجمة ولم يقل كل ذى جمجمة لأن القصد الى النفس والنسمة فهو أعم ويدخل فيه جميع ذوات الأرواح ولو جاء بالتذكير لكان اما خاصاً بالانسان أو عاما فى كل شئ حى أو جماد (٧) كذا والصواب « يليه ارم ذى يزن »

سلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع ، قال : وممن يقطعه ؟ قال : نبي زكيّ ، يأتيه الوحي من ربه العليّ ، قال : وممن هـذا النبي ؟ قال : من ولد غالب بن فهر بن مالك بن النضر ، يكون الملك في قومه الى آخر الدهر ، فقال الملك : وهل للدهر من آخر ياسطيح ؟ قال : نعم ! يوم يجمع فيه الأولون والآخرون ، ويسعد فيه المحسنون ، ويشقى فيه المسيؤون ، فقال الملك : أحق ماتقول ياسطيح ؟ قال : نعم! والشفق [1] والغسق [2] ، والفلق اذا اتّسق [3] ، إن ما أخبرتكم به لحق (ثم إن الملك) دعا شقاً فسأله كما سأل سطيحاً ، فقال له شق : انك رأيت حممة ، خرجت من ظلمة ، فوقعت بين روضة وأكمة [4] . فأكلت كل ذات نسمة [5] فلما سمع الملك مقالة شق قال له : ماأخطات شيئاً فما عندك في تأويلها ؟ فقال شق : أحلف بما بين الحرتين من انسان ، لينزلن أرضكم السودان ، فليغلبن على كلّ طَفْلة البنان [6] ، وليملكن ما بين أبين الى نجران ، فقال الملك : وأبيك ياشق ان ذلك لنا لغائظ مؤلم فمتى يكون ذلك أفي زماني أم بعـده ؟ فقال : بل بعده بزمان ، ثم يستنقذكم منه عظيم الشان ، ويذيقهم أشد الهوان ، فقال الملك : من هو العظيم الشان ؟ قال : غلام ليس بدني ولا مدن[7] يخرج عليهم من بيت ذي يزن ، فقال الملك : أفيدوم ذلك من سـلطانه أم ينقطع ؟ قال : بل ينقطع برسول مرسل ، يأتي بالحق والعـدل ، بين أهل الدين والفضل ، يكون الملك في قومه الى يوم الفصل ، فقال الملك : وما يوم الفصل ؟ فقال شق : يوم يجزى فيه الولاة ، يدعى فيه من السماء بدعوات ، يسمعها الاحياء والاموات ، ويجمع فيه بين الناس للميقات ، يكون فيه لمن اتقى الفوز والخيرات ، فقال الملك : أحق

(١) الحمرة في الافق من الغروب الى قريب العتمة (٢) ظلمة أول الليل
(٣) اى انتظم (٤) شرفة كالرابية (٥) النسمة في الاصل نفس الريح ثم سميت بها النفس بالسكون .
(٦) اى رخصة الاصابع ناعمتها (٧) الدني : معروف والمدني كمحدث الضعيف الخسيس الذى لاغناء عنده المقصر في كل ماأخذ فيه نقله الازهرى وأنشد : —

فلا وأبيك ماخاق بوعر ✿ ولا انا بالدني ولا المدني

ماتقول ياشق ؟ قال : إى وربِّ السماء والارض ، وما بينهما من رفع وخفض ، ان ما أنبأتكم به لحق مافيه امض [1] ، فوقع ذلك فى نفس الملك لما رأى من تطابق شق وسطيح على ماذكراه ، فجهز أهل بيته الى الحيرة فَرَقاً من سلطان الحبشة . ومنهم :

سطيح بن مازن بن غسان

كان سطيح يدرج كما يدرج الثوب ، ولا عظم فيه الا الجمجمة ، ويقال انه كان وجهه فى صدره ، ولم يكن له رأس ولا عنق ، وكان فى عصره من أشهر الكهان ، وأخباره فى التواريخ والسير كثيرة ؟ وكان هو وشق ولدا فى يوم واحد ، وكانا من المعمَّرين . قال كثير من أهل السير وبعضهم يروى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما أنه قال : لما كانت الليلة التى ولد فيها النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ارتجس [2] إيوان كسرى فسقطت منه أربع عشرة شرافة ، فعظم ذلك على أهل مملكته ، فما كان أوشك أن كتب اليه صاحب اليمن يخبره أن بحيرة ساوة غاضت تلك الليلة ، وكتب اليه صاحب السماوة يخبره أن وادى السماوة انقطع تلك الليلة ، وكتب اليه صاحب طبرية أن الماء لم يجر تلك الليلة فى بحيرة طبرية ، وكتب اليه صاحب فارس يخبره أن بيوت النيران خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف سنة ، فلما تواترت الكتب أبرز سريره ، وظهر لأهل مملكته ، فأخبرهم الخبر ، فقال المُؤْبَذان [3] : أيها الملك انى رأيت تلك الليلة رؤيا هالتنى ، قال له : وما رأيت ؟ قال رأيت إبلاً صعاباً [4] ، تقود خيلاً عراباً [5] قد اقتحمت دجلة وانتشرت فى بلادنا ، قال : رأيت عظيماً فما عندك فى تأويلها؟ قال : ما عندى فيها ولا فى تأويلها شئ ، ولكن أرسل الى عاملك بالحيرة يوجه

(١) اى مافيه شك ولا مستراب (٢) رجف (٣) بضم الميم وفتح الباء فقيه الفرس وحاكم المجوس (٤) جمع صعب وهو من الدواب نقيض الذلول (٥) اي عربية منسوبة الى العرب

اليك رجلاً من علمائهم ، فانهم أصحاب علم بالحدثان ، فبعث اليه عبد المسيح ابن بُقَيْلَةَ الغسّانىّ ، فلما قدم عليه أخبره كسرى الخبر ، فقال له : أيها الملك : واللهِ ما عندى فيها ولا فى تأويلها شئ ، ولكن جهزنى إلى خال لى بالشام يقال له (سطيح) قال : جهزوه ، فلما قدم على سطيح وجده قد احتضر ، فناداه فلم يجبه وكلّمه فلم يرد عليه ، فقال عبد المسيح :

أصمّ أم يسمع غِطْرِيف اليمن ... يافاصلَ الخطّة أعيتْ مَنْ ومَنْ [1]

أتاك شيخُ الحىّ من آل سنن ... أبيض فضفاض الرداء والبدن [2]

رسول قَيْل العجم يهوى للوثن ... لا يَرْهَب الرعد ولا رَيْبَ الزمن [3]

فرفع اليه رأسه ، وقال : عبد المسيح ، على جمل مشيح [4] ، جاء الى سطيح . وقد أوفى على الضريح ، بعثك ملك بنى ساسان ، لارتجاس الايوان ، وخمود النيران ، ورؤيا المُوْبَذَان ، رأى إبلاً صعابا ، تقود خيلاً عرابا ، قد اقتحمت فى الواد ، وانتشرت فى البلاد . ثم قال : ياعبد المسيح اذا ظهرت التلاوة ، وفاض وادى السماوة ، وظهر صاحب الهراوة [5] فليست الشام لسطيح بشام ، يملك منهم ملوك وملكات ، عدد سقوط الشرفات ، وكلّ ماهو آتٍ آت ، ثم قال :

إن كان ملك بنى ساسان أفرطهم ... فان ذا الدهر أطواراً دهاريرُ [6]

منهم بنو الصرح بهرام واخوته ... والهرمزان وسابور وسابور

فربما أصبحوا يوماً بمنزلة ... تهاب صولهم الاسد المهاصير

حثوا المطى وجدوا فى رحالهم ... فما يقوم لهم سرج ولا كُور [7]

والناس أوْلادُ عَلاَّتٍ فمن علموا ... ان قد أقل فمحقور ومهجور [8]

---

(١) الغطريف بالكسر السيد الشريف والسخى السرى (٢) الفضفاض الواسع
(٣) القيل الملك او هو دون الملك الاعلى . (٤) جادمسرع (٥) الهراوة : العصا ، وصاحب الهراوة : هو سيدنا ونبينا محمد صلى الله عليه وسلم . (٦) الدهارير : تصاريف الدهر ونوائبه مشتق من لفظ الدهر ليس له واحد من لفظه كعباديد ويقال دهر دهارير اى شديد
(٧) الكور بالضم : رحل البعير (٨) اولاد العلات : اولاد امهات شتى من رجل واحد .

والخير والشر مقرونان في قرن[1] فالخير متبع والشرّ محذور

فلما قدم عبد المسيح على كسرى واخبره ، قال كسرى : الى ان يملك منا اربعة عشر ملكا تكون امور ، ويدور الزمان ، فهلكوا كلهم فى اربعين سنة ، والموابذة عند الفرس هم القضاة ، والهرابذة هم كالخلفاء للموابذة ، والأصبهبد حافظ الجيوش وامير الأمراء ، والمدار هو الوزير الأعلى ، والمرازبة حفظة الثغور وولاة المملكة ، كذا فى كتب السير . وأخبار شق وسطيح كثيرة . قال ابن خلدون فى مقدمته : ومن مشهور الحكايات عنهما تأويل رؤيا ربيعة بن مضر وما أخبرا به: من ملك الحبشة لليمن ، وملك مضر من بعدهم ، وظهور النبوة المحمدية فى قريش ، ورؤيا الموبذان التى أولها سطيح لما بعث اليه بها كسرى عبد المسيح فأخبره بشأن النبوة ، وخراب ملك فارس ، وهذه كلها مشهورة ، ومنهم :

طريفة[2] الكاهنة

كانت طريفة هذه من أشهر كهان عصرها ، وهى التى أنذرت عمرو بن عامر أحد ملوك اليمن بزوال ملكه ، وأخبرته بخراب سد مأرب ، واتيان سيل العرم وإفساده الجنتين ، بمقتضى ما ظهر لها من الكهانة ، قال عبد الملك فى شرح قصيدة ابن عبدون : إن ارض سبأ من اليمن كانت العمارة فيها أزيد من مسيرة شهرين للراكب المجد ، وكان اهلها يقتبسون النار بعضهم من بعض مسيرة اربعة اشهر ، فمزقوا كل ممزق ، وكان اول من خرج من اليمن فى اول الأمر عمرو بن عامر مزيقياء ، وكان سبب خروجه انه كانت له زوجة كاهنة يقال لها طريفة الخير ، وكانت رأت فى منامها ان سحابة غشيت ارضهم فأرعدت وأبرقت ، ثم صعقت فأحرقت كل ما وقعت عليه ، ففزعت طريفة لذلك فزعاً شديداً ، واتت الملك عمراً

(١) اى مجموعان فى حبل (٢) هكذا ضبطت فى معجم البلدان « طبعة مصر » وضبطها بعضهم بفتح الطاء وكسر الراء

وهى تقول : مارأيت كاليوم ، ازال عنى النوم ، رايت غيماً ارعد وابرق ، وزمجر واصعق ، فما وقع على شيء الا احرق ، فلما رأى مادخلها من الفزع سكنها ، ثم ان عمراً دخل على حديقة له ومعه جاريتان من جواريه ، فبلغ طريفة ، فخرجت اليه وخرج معها وصيف لها اسمه سنان ، فلما برزت من بيتها عرض لها ثلاث مناجد منتصبات على أرجلهن واضعات ايديهن على اعينهن (وهى دواب تشبه اليرابيع) فقعدت الى الارض واضعة يديها على عينيها ، وقالت لوصيفها : اذا ذهبت هذه المناجد فاخبرنى ، فلما ذهبت اخبرها ، فانطلقت مسرعة ، فلما عارضها الخليج الذى فى حديقة عمرو وثبت من المـاء سلحفاة ، فوقعت على الطريق على ظهرها ، وجعلت تروم الانقلاب فلا تستطيع ، وتستعين بذنبها فتحثو التراب على بطنها من جنباته وتقذف بالبول على بطنها قذفاً ، فلما رأتها طريفة جلست الى الارض ، فلما عادت السلحفاة الى الماء مضت طريفة الى ان دخلت على عمرو وذلك حين انتصف النهار فى ساعة شديد حرها فاذا الشجر يتكافأ من غير ريح ، فلما رآها استحيا منها وامر الجاريتين بالانصراف الى ناحية ، ثم قال لها : ياطريفة ، فكهنت وقالت : والنور والظلماء ، والارض والسماء ، إن الشجر لهالك ، وليعودن الماء كما كان فى الزمن السالك ، قال عمرو : من اخبرك بهذا ؟ قالت : اخبرتنى المناجد ، بسنين شدائد ، يقطع فيها الولد الوالد ، قال ماتقولين ؟ قالت اقول قول الندمان لهفا ، اقد رأيت سلحفا ، تجرف التراب جرفا ، وتقذف بالبول قذفا ، فدخلت الحديقة فاذا الشجر من غير ريح يتكفأ ! قال : ما ترين فى ذلك ؟ قالت : هى داهية دهياء من أمور جسيمة ، ومصائب عظيمة ، قال : وماهو ويلك ؟ قالت : أجل وإنّ فيه الويل ، ومالك فيه من نيل ، وان الويل فيما يجىء به السيل ، فألقى عمرو عن فراشه وقال : ما هذا ياطريفة ؟ قالت : خطب جليل ، وحزن طويل ، وخلف قليل ، قال : وما علامة ما تذكرين ؟ قالت : إذهب الى السد فاذا رأيت جرذاً يكثر بيديه فى السدّ الحفر ويقلب برجليه من أجل الصخر ، فاعلم أن الغمر غمر ، وأنه قد وقع الأمر ، قال

وما الذى تذكرين ؟ قالت : وعد من الله تعالى نزل ، وباطل بطل ، ونكال بنا نكل فبغيرك ياعمرو يكون الشكل ، فانطلق عمرو فاذا الجرذ يقلب برجليه صخرة مايقلها خمسون رجلاً ، فرجع وهو يقول :

أبصرتُ أَمْراً عادنى منه أَلَمْ ... وهَاجَ لى من هَوْله بَرْح السقم (١)
من جرذٍ كفحل خنزير الأُجُمْ ... أو كبش صرم من أفاويق الغنم (٢)
يسحب قطراً من جلاميد العرم ... له مخاليبُ وأنياب قضم (٣)
مافاته سحلاً من الصَّخْر قصم (٤)

فقالت طريفة : وإن من علامة ذلك الذى ذكرته لك أن تجلِسَ فتأمر بزجاجة فتوضع بين يديك ، فان الريح يملؤها من تراب البطحاء من سهل الوادى وحَزْنِهِ ، وقد علمت أن الجنان مظللة لا يدخلها شمس ولا ريح ؛ فأمر عمرو بزجاجة فوضعت بين يديه ، ولم تمكث إلا قليلا حتى امتلأت من التراب فأخبرها بذلك ، وقال لها : متى يكون ذلك الخراب الذى يحدث فى السد ؟ قالت : فيما بينى وبينك سبع سنين ! قال : ففى أيها يكون ؟ قالت : لا يعلم بذلك الا الله تعالى ، ولو علمه أحد لعلمته ، وانه لا تأتى علىَّ ليلة فيما بينى وبين السبع سنين الا ظننت هلاكه فى غدها أوفى مسائها ؛ ثم رأى عمرو فى منامه سيل العَرِم ، وقيل له : إن آية ذلك أن ترى الحصباء قد ظهرت فى سعف النخل ، فنظر اليها ، فوجد الحصباء قد ظهرت فيها ، فعلم أنه واقع ، وأن بلادهم ستخرب ، فكتم ذلك وأجمع على بيع كل شئ له بأرض مأرب ، وأن يخرج منها هو وولده ؛ ثم خشى أن تنكر الناس عليه ذلك ، فأمر أحد أولاده إذا دعاه لما يدعوه اليه أن يتأبى عليه ، وأن يفعل ذلك به فى الملأ من الناس ، واذا لطمه يرفع هو يده

---

(١) البرح : الشدة (٢) الاجم : جمع أجمة وهى الشجر الكثير الملتف . والصرم : جمع صريمة وهى القطعة من الابل (٣) قضم قضما أكل باطراف أسنانه (٤) سحله : قشره ونحته . وقصمه : كسره

ويلطمه ، ثم صنع عمرو طعاماً ، وبعث الى أهل مَأرب : ان عمراً قد صنع طعاماً يوم مجد وذكر فاحضروا طعامه ، فلما جلس الناس للطعام جلس عنده ابنه الذى أمره بما قد امره ، فجعل يأمره فيتأبى عليه ، فرفع عمرو يده فلطمه ، فلطمه ابنه وكان اسمه مالكاً ، فصاح عمرو واذلاه يوم فخر عمرو وبهجته : صبي يضرب وجهه ! وحلف ليقتلنه ، فلم يزالوا يرغبون اليه حتى ترك ، وقال : والله لا اقيم بموضع صنع فيه بى هذا ، ولأ بيعن اموالى حتى لا يرث بعدى منها شيئاً ! فقال الناس بعضهم لبعض : اغتنموا غيض عمرو واشتروا منه امواله قبل ان يرضى ، فابتاع الناس منه كل ماله بأرض مأرب وفشا بعض حديثه فما بلغه من شأن سيل العرم ، فقام ناس من الأزد فباعوا اموالهم ، فلما اكثروا البيع استنكر الناس ذلك فامسكوا عن الشراء . فلما اجتمعت الى عمرو أمواله أخبر الناس بشأن السيل وخرج ، فخرج لخروجه منها بشر كثير ، فنزلوا أرض (عك) فحاربتهم عك ، فارتحلوا عن بلادهم ، ثم اصطلحوا وبقوا بها حتى مات عمرو ، وتفرقوا فى البلاد : فمنهم من سار الى الشام وهم أولاد جفنة عمرو بن عامر ، ومنهم من سار الى يثرب وهم أبناء قبيلة الأوس والخزرج وأبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو بن عامر ، وسارت أزد السراة الى السراة ، وأزد عمان الى عمان ، وسار مالك بن فهم الى العراق ، ثم خرجت بعد عمرو بيسير من أرض اليمن طيء فنزلت أجأ وسلمى ، ونزلت أبناء ربيعة بن حارثة بن عامر بن عمرو تهامة وسموا خزاعة لانخزاعهم من اخوانهم ، ثم أرسل الله تعالى على السد السيل فهدمه ، وفى ذلك يقول ميمون بن قيس الاعشى :

وفى ذلك للمؤتسى أسوة ... ومأرب عفّى عليها العَرِمْ
رُخام بَنَتْهُ لهم حِمْيَرٌ ... اذا جاءَ موّاره لم يَرِم
فأروى الزروعَ وأعنابها ... على ساعة ماؤهم اذْ قسم
فصاروا أيادى مايقدرو ... نَ منه على شرب طفل فطم

وذكر الميدانى عند قول العرب فى المثل « تفرقوا أيادى سبأ » عن فروة ابن مسيك ، قال أتيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقلت : يارسول الله أخبرنى عن سبأ أرجل هوأم امرأة ، فقال : هو رجل من العرب ولد عشرةً : تيامن منهم ستة ، وتشاءم أربعة ، فاما الذين تيامنوا فالأزد والكندة والمذحج والاشعرون وأنمار منهم بجيلة . وأما الذين تشاءموا فعاملة وغسان ولخم وجذام، وهم الذين أرسل عليهم سيل العرم ، وذلك ان الماء كان يأتى ارض سبأ من الشحر واودية اليمن ، فردموا ردماً بين جبلين ، وحبسوا الماء ، وجعلوا فى ذلك الردم ثلاثة ابواب بعضها فوق بعض ، فكانوا يسقون من الباب الأعلى ثم من الثانى ثم من الثالث ، فأخصبوا وكثرت اموالهم ، فلما كذبوا رسلهم بعث الله جرذاً نقبت ذلك الردم حتى انتقض ، فدخل الماء جنتيهم ، فغرقهما ودفن السيل بيوتهم، فذلك قوله تعالى (فأرسلنا عليهم سَيْلَ العَرِم) والعرم : جمع عرمة وهى السكر الذى يحبس الماء . وقال ابن الاعرابي : العرم السيل الذى لايطاق . وقال قتادة ومقاتل : العرم اسم وادى سبأ ، ثم ذكر الميدانىّ عن الكلبى عن أبى صالح أن طريفة الكاهنة قد رأت فى كهانتها أن سد مأرب سيخرب ، وأنه سيأتى العرم فيخرب الجنتين ، فباع عمرو بن عامر أمواله ، وسار هو وقومه ، حتى انتهوا الى مكة فأقاموا بها وبما حولها ، فأصابتهم الحمى ، وكانوا ببلد لايدرون فيه ما الحمى ، فدعوا طريفة فشكوا اليها الذى أصابهم ، فقالت لهم : قد أصابنى الذى تشكون وهو مفرق بيننا . قالوا فماذا تأمرين ؟ قالت : من كان منكم ذا هم بعيد ، وجمل شديد ، ومزاد جديد فليلحق بقصر عمان المشيد ، فكانت ازد عمان. ثم قالت : من كان منكم ذا جلد وقسر، وصبر على أزمات الدهر ، فعليه بالأراك من بطن مر ، فكانت خزاعة ثم قالت : من كان منكم يريد الراسيات فى الوحل ، المطعمات فى المحل ، فليلحق بيثرب ذات النخل ، فكانت الأوس والخزرج . ثم قالت : من كان منكم يريد الخمر والخمير ، والملك والتأسير ، ويلبس الديباج ، والحرير ، فليلحق ببُصْرَى وغوير ، وهما من أرض

الشام ، فكان الذين سكنوها آل جَفنة ، من غَسَّان . ثم قالت : من كان منكم يريد الثياب الرقاق ، والخيل العتاق ، وكنوز الارزاق ، والدم المهراق ، فليلحق بأرض العراق ، فكان الذين سكنوها آل جَذيمةَ الأبرش ، ومن كان بالحيرة وآل محرّق ... والمقصود أن طريفة كانت من مشاهير الكهان فى زمنها ، ولها أخبار كثيرة ونوادر شهيرة . ومنهم :

زبراء الكاهنة

كانت من الكهنة المذكورين عند العرب ، وكلامها له وقع فى نفوسهم ، ولها فى ذلك نوادر معجبة . روى القالى فى أماليه[1] عن أبى بكر قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن أبى مِخْنَف عن أشياخ من علماء قضاعة قال : كان ثلاثة أبطُن من قضاعة مُجْتَورين بين الشِّحْر وحضرَمَوْت : بنو ناعب وبنو داهنٍ ، وبنو رِئام ، وكانت بنو رئام ، أقلهم عدداً ، وأشجعهم لقاء ، وكانت لبنى رئام عجوز تسمى خُوَيْلة ، وكانت لها أمةٌ من مولَّدات العرب تسمى (زبْراء) وكان يدخل على خويلة أربعون رجلاً كلهم لها مَحْرَمٌ بنو إخوة وبنو أخوَات ، وكانت خويلة عقيماً ؛ وكانت بنو ناعب وبنو داهن متظاهرين على بنى رئام ، فاجتمع بنو رئام ذاتَ يوم فى عُرْس لهم وهم سبعون رجلاً كلهم شجاعٌ بئيس ، فطَعِمُوا وأقبلوا على شرابهم ، وكانت زبراء كاهنة ، فقالت لخويلة انطلقى بنا الى قومك أُنْذِرهم ، فأقبلت خويلة تتوكأ على زَبْرَاء ، فلما أبصرها القوم قاموا إجلالاً لها ، فقالت يا ثمر الاكباد ، وأنْدَاد الأولاد ، وشجا الحسادِ[2] هذه زبراء ، تخبركم عن أنباء . قبل انحسار الظلماء ، بالمؤيد[3] الشنعاء ، فاسمعوا ماتقول ؛ قالوا : ماتقولين يازبراء ؟ فقالت : والليل الغاسق[4] ، واللوح[5] الخافق ،

(١) ج ١ ص ١٢٦ (٢) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه (٣) أى الداهية والامر العظيم (٤) أى الشديد الظلمة (٥) بالضم : الهواء بين السماء والأرض ، وبالفتح العطش

والصباح الشارق ، والنجم الطارق[١] . والمزن الوادق ، ان شجر الوادي لَيَأدُو خَتْلا[٢] ، ويحرق أنيابا عُصلا[٣] . وان صخر الطود لينذر ثُكلا ، لاتجدون عنه مَعْلا[٤] ، فوافقت قوماً أشارَى سُكارَى[٥] فقالوا : ريح خَجُوج[٦] ، بعيدة مابين الفروج ، أتت زبراء بالأبلق النَّتُوج[٧] ، فقالت زبراء : مهلاً يابني الأعزة ! والله إني لأشمُّ ذَفَرَ[٨] الرجال تحت الحديد ! فقال لها فتى منهم يقال له هُذَيْل بن مُنْقِذ : يا خَذاق[٩] ، والله مانشمين إلاَّ دفرَ إبْطَيْك ! فانصرفت عنهم : فارتاب قوم من ذوي أسنانهم ، فانصرف منهم أربعون ، وبقي ثلاثون ، فرقدوا في مَشرَبهم ، وطرقتهم بنو داهن وبنو ناعب فقتلوهم أجمعين ، وأقبلت خُوَيْلة مع الصباح فوقفت على مصارعهم ، ثم عَمَدَتْ الى خناصرهم فقطعتها ، وانتظمت منها قلادة ، وألقتها في عنقها ، وخرجت حتى لحقت بمَرْضاوي بن سَعْوة المهري وهو ابن اختها ، فأناخت بفنائه وأنشأت تقول :

ياخيرَ مُعتَمَدٍ ، وأمنع ملجـأ وأعزَّ منتقم وأدركَ طالب
جاءتك وافدةُ الثَّكالَى تَغْتَلي بسوادها فوق الفَضَاء الناضِبِ[١٠]

---

(١) الطارق : النجم سمي بذلك لأنه يطرق أي يطلع ليلا (٢) أدوت له آدو أدواً إذا ختلته — والختل : الخدع — قال الشاعر :

أدوت له لآختـله فهيهات الفتى حذرا

(٣) حرق أنيابه : حك بعضها ببعض ، والعرب تقول عند الغضب يغضبه الرجل على صاحبه « هو يحرق الارَّم » أي الاسنان . والعصل : المعوجة (٤) المعل : المنجى (٥) أشارى : جمع أشِر كَرِح (٦) سريعة المرّ (٧) الأبلق لا يكون نتوجاً ، والعرب تضرب هذا للشيء الذي لا ينال فتقول « طلب الأبلق العقوق ، فلما فاته أراد بيض الأنوق » والانوق : الذكر من الرخم ولا بيض له . هذا قول بعض اللغويين وعامتهم يقولون : الانوق : الرخمة وهي تبيض في مكان لا يوصل فيه الى بيضها الا بعد عناء . فيراد على هذا القول أنه طلب مالا يقدر عليه فلما لم ينله طلب مايجوز أن يناله . وعلى الاول أنه طلب مالا يمكن فلما لم يجد طلب أيضاً مالا يكون ولا يوجد ، والعقوق : الحامل (٨) الذفر : يكون في النتن والطيب وهو حدة الريح . والدفر لا يكون الا في النتن (٩) خذاق : كناية عما يخرج من الانسان (١٠) المغالاة : المباعدة في الرمي . والناضب : البعيد ، ومنه نضب الماء أي بعد عن أن ينال

عَيْرانة سُرُح اليَدَيْنِ شِمِلَّة ‌ ‌ ‌ عُبْر الهَوَاجِر كالهِزَفِّ الخاضِبِ (١)
هذى خناصرُ أُسْرَتى مَسْرُودةً ‌ ‌ ‌ فى الجيدِ منى مثل سِمْطِ الكاعِبِ (٢)
عشرون مُقْتَبلاً وشطرُ عَدِيدِهم ‌ ‌ ‌ صُيَّابة مِلقَوْمِ غير أشايِبِ (٣)
طَرَقَتْهُمُ أُمُّ اللُّهَيْم فأصبحوا ‌ ‌ ‌ تَسْتَنُّ فوقَهُمُ ذُيولُ حواصِبِ (٤)
جَزَراً لعافية الخَوَامِعِ بعد ما ‌ ‌ ‌ كانوا الغياثَ من الزمان اللاَّحِبِ (٥)
قَسَمَتْ رجالُ بنى أبيهم بينهم ‌ ‌ ‌ جُرَعَ الرَّدى بمَخَارِصٍ وقَوَاضِبِ (٦)
فابْرُدْ غَليلَ خُوَيْلَة الثَّكْلَى التى ‌ ‌ ‌ رُمِيَتْ بأثْقَلَ من صخور الصاَّقِبِ (٧)
وتَلاَفَ قَبْلَ المَوْتِ ثارى إنّه ‌ ‌ ‌ عَلِقٌ بِثَوْبَىْ داهنٍ أو ناعِبِ

فقال: حجْرٌ (٨) على مَرْضَاوى الاعذبانِ والأحمرانِ (٩) أوْ يَقْتُلَ بعددِ رئام من داهنٍ وناعب! ثم قال:

أخالَتَنَا سِرُّ النساء مُحَرَّمٌ ‌ ‌ ‌ علىَّ وتَشْهادُ النَّدامَى على الخَمْرِ (١٠)
كذاك وأفلاذُ الفَئيدِ وما ارْتَمَتْ ‌ ‌ ‌ به بنى جاليْها الوَئيَّةُ مِلْوَذْرِ (١١)
لئن لم أُصَبِّحْ داهِناً ولَفِيفَهَا ‌ ‌ ‌ وناعِبَهَا جَهْراً براغية البَكْرِ (١٢)

(١) عيرانة: تشبه العير لصلابتها. والسرح: السهلة رجع اليدين. والشملة: السريعة الخفيفة. ويقال «ناقة عبر أسفار» اذا كانت قوية على السفر، و«عبر الهواجر» اذا كانت قوية على الحر وأصل هذا كأنه يعبر بها الهواجر والاسفار. والهزف: الظليم الجافي. والخاضب: الذى قد أكل الربيع فاحمرت ظنبوباه وأطراف ريشه. والظنبوب مقدم عظم الساق (٢) مسرودة: مشكوكة. والسمط: بالكسر قلادة أطول من المخنقة. والكاعب: التى نهد ثدياها (٣) مقتبل: مستأنف الشباب، والصيابة: صميم القوم وخالصهم. وملقوم: من القوم. وأشايب: أخلاط من الناس (٤) أم اللهيم: الداهية. وتستن: تسير. والحواصب: الرياح التى تسفى الحصباء (٥) الخوامع: الضباع. واللاحب: القاشر (٦) المخارص: جمع مخرص وهو سكين كبير مثل المنجل يقطع به الشجر (٧) الصاقب: جبل معروف (٨) حرام
(٩) الاعذبان: النكاح والاكل. والاحمران: اللحم والخمر (١٠) السر: النكاح
(١١) الأفلاذ: جمع فلذ وهو ما قطع طولا من اللحم. والفئيد: الشواء وهو فعيل بمعنى مفعول يقال فأدت اللحم اذا شويته. والجالان: الناحيتان من أعلاها الى أسفلها. والوئية: القدر العظيمة. والوذر: من اللحم القطع الصغيرة التى لا عظم فيها (١٢) فى الاساس: كانت عليهم كراغية البكر أى اشتدت عليهم كرغاء ثقب ناقة صالح؛ قال الأخطل:

لعمرى لقد لاقت سليم وعامر ‌ ‌ ‌ على جانب الثرثار راغية البكر

فوَارى بنَانَ القوم فى غامض الثَّرَى   وصُورى اليكِ من قناعٍ ومن سِتْرِ (١)

فانى زعيمٌ أن أُرَوِّيَ هامَهُمْ   وأُظْمِىءَ هاماً ما اسَرَى الليلُ بالفجر (٢)

ثم خرج فى مَنْسرٍ (٣) من قومه فطرق داهناً وناعباً فأوجع فيهم. ومنهم :

خنافر بن التوأم الحميرى

ذكر القالى فى أماليه (٤) عن أبى بكر قال : حدثنى عمى عن أبيه عن ابن الكلبيّ عن أبيه قال : كان خُنَافر بن التوأم الحميريّ كاهناً ، وكان قد أُوتى بَسْطةً فى الجسم ، وسعَةً فى المال ، وكان عاتياً ، فلما وفدت وفود اليمن على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وظهر الاسلام أغار على إبل لمراد فاكتَسَحها (٥) ، وخرج بأهله وماله ، ولحق بالشِّحْرِ ، فحالف جَوْدان بن يحيى الفِرْضِميّ وكان سيداً منيعاً ، ونزل بواد من أودية الشِّحْرِ مُخْصِباً كثير الشجر من الأَيك والعَرين (٦) (قال خنافر) وكان رئيّ (٧) فى الجاهلية لايكاد يتغيب عنى ، فلما شاع الاسلام فقدته مدة طويلة وساءنى ذلك ، فبينا أنا ليلة فى ذلك الوادى نائماً إذ هوى هويّ العُقَاب ! فقال : خنافر ! فقلت : شِصار ! فقال : إسمع أقلْ فقلت : قل أسمع . فقال : عه تَغْنَمْ ، لكل مدة نهاية ، وكل ذى أمد الى غاية . قلت : أجل ! فقال : كل دولةٍ الى أجل ، ثم يُتَاح لها حِوَل (٨) ، انْتسِخت النِّحَلُ ، ورَجَعتْ الى حقائقها الملل ، إنك سجيرٌ موصول (٩) ، والنصح لك مبذول ، وإنى

أى الشؤم والشدة . (١) صورى : ميلى (٢) زعيم : ضامن وكذلك قبيل وحميل وكفيل وضمين واحد . وقوله (أروى هاماً) كانت العرب تقول اذا قتل الرجل فلم يدرك بثأره خرج من هامته طائر يسمى (الهامة) فلا يزال يقول . (اسقونى ! اسقونى !) حتى يقتل قاتله فيسكن . (انظر الجزء الثانى ص ٣١١و٣١٢و٣١٣) (٣) المنسر : من الخيل ما بين الثلاثة الى العشرة وقيل ما بين الثلاثين الى الاربعين أو من الاربعين الى الخمسين أو الى الستين أو من المائة الى المائتين ، والمنسر أيضاً قطعة من الجيش تمر قدام الجيش الكبير (٤) أمالى القالى ج ١ ص ١٣٣ (٥) كنسها (٦) الأيك : الشجر الملتف الكثير والغيضة تنبت السدر والاراك ، والعرين : جماعة الشجر (٧) الرئى : ما يتراءى للانسان من الجن (٨) تحول (٩) السجير : الصديق ، والشجير بالشين معجمة الغريب . وقد قال بعض اللغويين يقال السجير والشجير للصديق

آنَسْتُ [1] بأرض الشام ، نفراً من آل العُذَام [2] ، حُكَّاماً على الحكام ، يَذْبُرون [3] ، ذا رونق من الكلام ؛ ليس بالشعر المؤلَّف ، ولا بالسجع المتكلَّف ، فأصغيت فَزُجِرت ، فعاودت فَظُلِفْت [4] ، فقلت : بم تُهَيْنِمُون [5] ، وإلام تعتزون [6] قالوا خطابٌ كُبَّار [7] ، جاء من عند الملك الجبار ، فاسمع يا شصار ، عن أصدق الاخبار ، واسلك أوضح الآثار ، تَنْجُ من أُوار [8] النار ! قلت : وما هذا الكلام ؟ قالوا : فرقان بين الكفر والايمان ، رسول من مُضَر ، من أهل المدر ، ابتُعث فظهر ، فجاء بقول قد بَهرَ ، وأوضح نهجاً قد دَثرَ ، فيه مواعظ لمن اعتبر ، ومعاذٌ لمن ازدجر ، أُلِّف بالآى الكُبَر . قلت : ومن هذا المبعوث من مُضَر ؟ قال : أحمد خير البشر ، فان آمنت أعطيت الشَّبَرَ [9] ، وان خالفت أُصليتَ سَقَر ، فآمنت ياخُنَافر ، وأقبلت اليك أبادر ، فجانب كل كافر ، وشايع كل مؤمن طاهر ، والا فهو الفراق لاعن تلاق . قلت : من أين أبغى هذا الدين ؟ قال : من ذات الإحرّين [10] ، والنفر اليمانين ، أهل الماء والطين ، قلت : أوضح . قال : الْحَقْ بِيثْرِبَ ذات النخل ، والحرة ذات النعل ، [11] فهناك أهل الطَّوْل والفضل ، والمواساة والبذل ، ثم املّس عنى فبتُّ مذعوراً أراعى الصباح ، فلما برق لى النور امتطيت راحلتى ، وآذنت [12] أعبدى ، واحتملت بأهلى ، حتى وردت الجَوْف ، فرددت الإبل على أربابها ، بِحُولها وسِقابها [13] ، وأقبلت اريد صنعاء ، فأصبت بها معاذ بن جبل أمير الرسول صلى الله تعالى عليه وسلم فبايعته على الاسلام ، وعلمنى سوراً من القرءآن فمنَّ الله علىَّ بالهدى بعد الضلالة ، والعلم بعد الجهالة ، وقلت فى ذلك :

(١) أى أبصرت (٢) قبيلة من الجن . كذا قال ابو بكر (٣) يقرأون (٤) منعت . قال الشاعر :

ألم أظلف عن الشعراء عرضى كما ظلف الوسيقة بالكراع

(٥) الهينمة : الصوت الخفى (٦) تنتسبون (٧) كبير (٨) الاوار : شدة الحر .
(٩) الشبر : الخير وحرك للسجع (١٠) قال الاصمعى : جمع الحرة حرار وحرون وإحرون
(١١) النعل : المكان الغليظ من الحرة (١٢) أعلمت (١٣) الحول: جمع حائل وهى الانثى من أولاد الابل . والسقاب : جمع سقب وهو الذكر

ألم ترَ أن الله عاد بفضله ... وأنقذَ من لفح الزَّخيخ خُنافرا(١)
وكَشَّفَ لى عن جَحْمَتَيَّ عماهما ... وأوضح لى نَهْجى وقد كان داثرا(٢)
دعانى شِصارٌ للتى لو رفضتها ... لأُصْليت جمراً من لظى الهوب واهرا(٣)
فأصبحتُ والإسلام حَشْوُ جوانحى ... وجانبتُ من أمسى عن الحق نائرا(٤)
وكان مُضِلّى مَنْ هُدِيتُ بِرُشْده ... فلله مُغْوٍ عادَ بالرُّشْدِ آمرا
نَجَوْتُ (بحمد الله) من كلِّ قُحْمَةٍ ... تُؤرِّثُ هُلْكاً يومَ شايعتُ شاصِرا(٥)
وقد أمِنَتْنِي بعد ذاك يُحابرٌ ... بما كنتُ أغشى المُنْدِيات يُحابرا(٦)
فمن مُبْلِغٌ فتيانَ قومى أُلوكَةً ... بأنِّيَ من أقتال من كان كافرا(٧)
عليكم سواءَ القصد لافُلَّ حدُّكم ... فقد أصبح الإسلام للكفر قاهرا

ومنهم :

صواحبات مصاد بن مذعور القينى

روى عن أبى بكر بن دريد قال : حدثنا السكن بن سعيد عن العباس بن هشام عن أبيه . قال : كان مُصَادُ بن مذعور القينيّ رئيساً قد أخذ مِرْباع قومه دهراً (وهو ربع الغنيمة) وكان ذا مال فندَّ ذَوْدٌ من أذواد له (٨) ، فخرج فى بغائها (٩) قال فانى لفى طلبها إذ هبطت وادياً شجيراً (١٠) كثيف الظلال ، وقد تفسخت أيناً (١١) ، فأنخت راحلتى فى ظل شجرة ، وحططت رحلى ، ورسَنْتُ بعيرى (١٢) ، واضطجعتُ فى بُرْدى ، فاذا أربع جَوَارٍ كأنهن اللآلى يرعين

(١) الزخيخ بلغة أهل اليمن النار (٢) الجحمتان : العينان بلغتهم والنهج : الطريق الواضح (٣) الهوب : النار بلغتهم . والواهر : الساكن مع شدة الحر . وكل هذه الأحرف من لغتهم (٤) أى نافراً (٥) القحمة : الشدة (٦) يحابر « كيقاتل مضارع قاتل » ابن مالك بن أدد أبو مراد القبيلة المشهورة ثم سميت القبيلة يحابر ، والمنديات : المخزيات
(٧) الالوكة : الرسالة ، والاقتال : الاعداء (٨) ند: شرد ، والذود : ما بين الثلاثة الى العشرة ، والعرب تقول : « الذود الى الذود إبل » يعنى اذا اجتمع القليل الى القليل صار كثيراً (٩) أى طلبها (١٠) كثير الشجر (١١) كلالا وتعباً (١٢) شددت رسنه

بِهِمّاً لهنَّ ، فلما خالطَتْ عيني السِنَةُ أقبلن حتى جلسن قريباً مني ، وفى كف كل واحدة حصيات تقلّبهن ، فخطّت إحداهن ثم طرقت فقالت : قلن يابنات عرّاف فى صاحب الجمل النّيّاف[١] والبُرْد الكُثّاف[٢] والجِرْم الخفاف[٣] ثم طرقت الثانية فقالت : مُضِلُّ أذوادٍ علاكد[٤]، كوم صلاخد[٥]، منهن ثلاث مقاحد[٦] وأربع جدائد[٧] شُسُفٌ صَمارد[٨] ، ثم طرقت الثالثة فقالت : رَعَيْنَ الفَرْع[٩] ثم هبطن الكَرَع[١٠] ، بين العقِدات والجَرَع[١١]، فقالت الرابعة : ليهبط الغائط الأفيح[١٢] ، ثم ليظهرْ فى الملأ الصَّحْصَح[١٣] ، بين سَدير وأملح[١٤] ، فهناك الذَّوْدُ رِتاع ، بمُنْعَرَج الأجْراع . قال : فقمت إلى جملى ، فشددت عليه رحله ، وركبت . ووالله ما سألتهن مَنْ هُنَّ ولا ممن هن ؟ فلما أدبرت قالت احداهن أبرح[١٥] فتى انْ جدَّ فى طلب . فماله غيرهن نشَبَ[١٦] ، وسيثوب عن كَثَب[١٧] ، ففزّع قلبي ــ والله ــ قولُها ! فقلت : وكيف هذا وقد خلّفتُ بوادي عَرْجاً عُكامِساً ؟[١٨] فركبت السمت الذى وصفن لى حتى انتهيت الى الموضع ، فاذا ذَوْدى رواتع ، فضربت أعجازهن حتى أشرفت على الوادى الذى فيه ابلى فاذا الرعاء تدعو بالويل ، فقلت : ماشأنكم ؟ قالوا : أغارت بهراء على ابلك فأسْحَفَتْها[١٩]، فأمسيت

(١) العالى (٢) أى الكثيف (٣) الجرم : الجسد . والخفاف : الخفيف (٤) صلاب والواحد علكد (٥) الكوم : العظام الاسنمة ، والصلاخد : العظام الشداد واحدها صلاخد بالضم وفيه لغات يقال بعير صلاخد وصلخد وصلخدى وناقة صلخداة (٦) جمع مقحاد وهى الغليظة السنام والقحدة السنام ويقال أصل السنام (٧) جمع جدود وهي التى انقطع لبنها (٨) شسف : جمع شاسف وهو اليابس ضمراً وهزالا . والصمارد جمع صمرد ، والصمرد والبكيئة والدهين القليلة اللبن (٩) جمع فرعة وهى أعلى الجبل (١٠) هو ماء السماء ينزل فيستنقع وسمى كرعاً لأن الماشية تكرع فيه (١١) العقدة : ما تعقد من الرمل . والجرع : جمع جرعة وهي الرملة الطيبة المنبت لا وعوثة فيها ، أو الارض ذات الحزونة تشاكل الرمل ، أو الدعص لا ينبت كالاجرع (١٢) الغائط : المطمئن من الارض ، والافيح : الواسع (١٣) الملأ : الفضاء والصحصح : الصحراء (١٤) موضعان (١٥) أشد (١٦) هو المال الاصيل من الناطق والصامت (١٧) أى قرب (١٨) العرج : نحو خمسمائة من الابل ، والعكابس والعكامس جميعاً الكثير (١٩) استأصلتها

والله مالي غير الذود ، فرمى الله في نواصيهن بالرَّغْس(١) ، وإني اليوم لأكثر بني القَين مالاً ، وفي ذلك أقول :

هو الدهر آسٍ تارةً ، ثم جارحُ ... سوانحهُ ميشومة والبوارحُ(٢)
فبينا الفتى في ظلّ نعماء غضةٍ ... تُباكرُهُ أفياؤه وتراوح(٣)
إلى أن رمته الحادثاتُ بنكبة ... تضيق به منها الرحابُ الفسائحُ(٤)
فأصبح نضواً لا ينوء كأنما ... بأعظُمه مما عراه القوادح(٥)
فما خلّتْني من بعد عزٍّ عكامسٍ ... أُقَسّسُ أذواداً وهنَّ روازحُ(٦)
حدابيرُ ماينهضنَ الا تحاملاً ... شواسفُ عوجٌ أسأرتها الجوائحُ(٧)
فياواثقاً بالدهر كُنْ غيرَ آمنٍ ... لما تنتضيه الباهضات الفوادح(٨)
فلست على أيامه بمُحَكَّمٍ ... اذا فغرتْ فاها الخطوب الكوالحُ(٩)
مُجيرك منه الصبر ان كنت صابراً ... والاّ كما يهوى العدُوُّ المكاشحُ(١٠)

ومنهم :

سلمى الهمدانية الحميرية

روى أبو علي القالي في أماليه(١١) عن أبي بكر . قال : حدثنا السكن بن سعيد عن محمد بن عباد عن ابن الكلبي قال : أغار رجل من مراد يقال له حريم على ابل عمرو بن برّاقة الهمْدَاني وخيل له ، فذهب بها ، فأتى عمرو سلمى وكانت

(١) البركة والنماء . قال رؤبة :

دعوت رب العزة القدوسا ... دعاء من لا يقرع الناقوسا
حتى أرانا وجهك المرغوسا

(٢) آس : مداو ، والسانح والبارح : المبارك والشؤم (٣) غضة : طرية ناعمة (٤) الفسائح : الواسعات (٥) نضواً : مهزولا . وينوء : ينهض بجهد ومشقة ، والقوادح جمع قادحة وهي العيب في العود والسن (٦) أقسس : أتبع . والروازح : التي قد سقطت من الهزال (٧) الحدابير : التي قد تقوست من الهزال واحدها حدبار . والشواسف : مر معناها قريباً ، والجوائح : الشدائد (٨) فوادح الدهر : خطوبه . وبهضه الامر : فدحه (٩) فغرت : فتحت . والكوالح : الشدائد . وكلح كلوحاً وكلاحاً : تكشر في عبوس (١٠) كشح له بالعداوة وكاشحه : عاداه (١١) ج ٢ ص ١٢٢ و ١٢٣

بنت سيدهم وعن رأيها كانوا يَصْدُرون ، فأخبرها أن حريماً المرادى أغار على إبله وخيله ، فقالت : والخفوِ[1] والوميض[2]، والشفق كالاحْرِيض[3] ، والقُلَّةِ والحضيض[4] ، ان حريماً لمنيع الحيز[5] ، سيد مزيز[6] ، ذو معْقِل حريز ، غير أن الحمّة ستظفر منه بعثرة[7] ، بطيئة الجبره ، فأغِرْ ولا تُنْكَعَ[8] ، فأغار عمرو فاستاق كل شئ له ، فأتى حريمٌ بعد ذلك يطلب إلى عمرو أن يرد عليه بعض ما أخذ منه ، فامتنع ورجع ، فقال عمرو قصيدةً منها :

تقول سُلَيْمى لاتَعَرَّضْ لتلفَةٍ ... وليلُكَ عن ليل الصَّعَاليك نائم[9]

ومنهم :

عفيراء الكاهنة الحميرية

ذكر رواة أخبار العرب نوادر طريفة لعفيراء هذه . من ذلك ما أورده محمد بن ظفر فى كتابه (خبر البشر بخير البشر) . قال : روى أن مرثد بن عبد كلال قفل من غزاة غزاها بغنائم عظيمة : فوفدعليه زعماءالعرب وشعراؤها وخطباؤها يهنؤنه ، فرفع الحجاب عن الوافدين ، وأوسعهم عطاء ، واشتدسروره بهم ، فبينما هو كذلك إذ نام يوماً فرأى رؤيا فى المنام أخافته وأذعرته ، وأهالته فى حال منامه ، فلما انتبه أنسيها حتى لم يذكر منها شيئاً وثبت ارتياعه فى نفسه بها ، فانقلب سروره حزناً ، واحتجب عن الوفود حتى أساء به الوفود الظن ، ثم انه حشر الكهان ، فجعل يخلو بكاهنٍ كاهن ثم يقول له : أخبرنى عما أريد أن أسألك عنه ! فيجيبه الكاهن بأن لاعلم عندى حتى لم يدع كاهناً علمه إلا كان اليه منه ذلك ، فتضاعف قلقه ، وطال أرقه[10] ، وكانت أمه ، قد تكهنت

---

(١) اللمعان الضعيف (٢) هو أشد من الخفو (٣) حجارة النورة (٤) القلة بالضم أعلى كل شىء . والحضيض : القرار فى الارض (٥) الناحية (٦) فاضل من قولهم هذا أمز من هذا أى أفضل منه (٧) الحمة : القدر وقيل هى واحد الحمام (٨) تنكع : تردع
(٩) الصعاليك : الفقراء (١٠) الارق السهر بالليل

فقالت له : أبيْتَ اللّعن[1] أيها الملك ! ان الكواهن أهدى الى ما تسأل عنه لان اتباعَ الكواهن من الجان ، ألطف وأظرفُ من اتباع الكهان ، فأمر بحشر الكواهن اليه وسألهن كما سأل الكهان فلم يجد عند واحدة منهن علماً مما أراد علمه ، ولما يئس من طلبته سلا عنها ، ثم انه بعد ذلك ذهب يتصيد فأوغل*[2] ، فى طلب الصيد ، وانفرد عن أصحابه ، فرفعت له أبيات من ذَرى* جبل ، وكان قد لفحه الهجير [3] ، فعدل الى الابيات وقصد بيتاً منها كان منفرداً عنها فبرزت اليه منه عجوز فقالت له : انزل بالرحب والسعة ، والأمن والدعة ، والجَفْنَة [4] المُدَعدَعة* ، والعُلبة* المترعة ، فنزل عن جواده ودخل البيت ، فلما احتجب عن الشمس وخفقت عليه الأرواح* نام فلم يستيقظ حتى تصرم الهجير ، فجلس يمسح عينيه ، فاذا بين يديه فتاة لم يرَ مثلها قواماً ولا جمالاً ، فقالت: أبيتَ اللعن أيها الملك الهُمام ، هل لك فى الطعام ؟ فاشتد إشفاقه وخاف على نفسه لما رأى أنها عرفته وتصامم عن كلمها ، فقالت له : لاحذر ، فداك البشر فجدّك الأكبر ، وحظنا بك الأوفر ، ثم قربت اليه ثريداً وقديداً وَحيْساً [5] ، وقامت تذب عنه حتى انتهى أكله ، ثم سقته لبناً صريفاً* وضريباً* فشرب ماشاء ، وجعل يتأملها مقبلة ومدبرة فملأت عينيه حسناً وقلبه هوى ، فقال لها : ما اسمك ياجارية ؟ قالت : اسمى (عفيراء) فقال لها : ياعفيراء من الذى دعوته بالملك الهمام ؟ قالت : مرثد العظيم الشان ، حاشر الكواهن والكهان ، لمُعضِلةٍ[6] بعد عنها الجان* ! فقال ياعفيراء : أتعلمين تلك المعضلة ؟ قالت : أجل أيها الملك إنها رؤيا منام ، ليست بأضغاث أحلام ، قال الملك : أصبت ياعفيراء ! فما تلك

(١) انظر ص ١٩٣ من الجزء الثانى (٢) كل ما وضعنا ازاءه هذه النجمة وأضربنا عن تفسيره فهو مشروح فى الاصل (٣) لفحه : أحرقه والهجير : نصف النهار عند زوال الشمس مع الظهر أو من عند زوالها الى العصر لأن الناس يستكنون فى بيوتهم كأنهم قد تهاجروا . والهجير : شدة الحر (٤) الجفنة : القصعة (٥) القديد : اللحم المشرر المقطع . والحيس : تمر وأقط وسمن . انظر الجزء الاول ص ٣٨٤ (٦) المعضلة : الشديدة

الرؤيا ؟ قالت : رأيت أعاصير زوابع* ، بعضها لبعض تابع ، فيها لهب لامع ، ولها دخان ساطع* : يقفوها نهر متدافع ، وسمعت فيما أنت سامع ، دعاء ذي جَرْس* صادع ، هلموا الى المشارع* فروى جارع* ، وغرق كارع* ، فقال الملك : أجل هذه رؤياي فما تأويلها ياعفيراء ؟ قالت : الاعاصير الزوابع : ملوك تبابع *والنهر : علم واسع ، والداعي : نبي شافع ، والجارع : ولي تابع ، والكارع : عدو منازع ، فقال الملك : ياعفيراء أسلم هـذا النبيّ أمحرب ؟ فقالت : أقسم برافع السماء ومنزل الماء من العماء* ، إنه لُطِلّ الدماء ، ومنطق العقائل نطقَ الإماء* ، فقال الملك : إلامَ يدعو ياعفيراء ؟ قالت : الى صلاة وصيام ، وصلة أرحام ، وكسر أصنام ، وتعطيل أزلام ، واجتناب آثام ، فقال الملك : ياعفيراء اذا ذبح قومه فمن أعضاده* ؟ قالت : أعضاده غطاريف* يمانون ، طائرهم به ميمون ، يغزيهم فيغزون ، ويدمث* بهم الحزون ، والى نصره يعتزون ، فأطرق الملك يؤامر* نفسه في خطبتها ، فقالت : أبيت اللعن أيها الملك ان تابعي غَيُور ، ولأمري صَبُور . وناكحي مثبور ، والكلف بي ثبور ، فنهض الملك وجال* في صهوة جواده وانطلق ، فبعث اليها بمائة ناقة كوماء* !

***

« قال محمد بن ظفر » أوغل في طلب الصيد : أي بالغ في ذلك وأمعن ، والوغول الدخول في الشيء بقوة . وذرى جبل : بفتح الذال المعجمة الكنّ ، والمدعدعة : هي التي ملئت بقوة ثم حركت حتى تراص مافيها ثم ملئت بعدذلك والعلبة : بضم العين المهملة واسكان اللام اناء من جلد . والأرواح : هي الرياح وصريفاً : اللبن المحض يحدث آن الحلاب يصرف عن الضرع الى الشارب . وضريباً : اللبن الرائب . وبعد عنها الجان : أي جنبوا عنها ولم يطيقوها . وأعاصير زوابع : هي من الرياح مايثير التراب فيعليه في الجو ويديره . وساطع

أى مرتفع . ودعاء ذى جَرْس صادع : الجرس الصوت . والمشارع : الداخل الى النهر وجارع : أى من شرب جرعا أمن . وكارع : أى من أمعن غرق . وتبابع جمع تبَّع ، وهذا لقب لملوك اليمن وهو من الاتباع لأن بعضهم كان يتبع فى الملك بعضاً . والعماء : هو الغيم والغمام . ومنطق العقائل : هن الكرائم من النساء أى يسبيهن فيشددن النطق على أوساطهن كالإماء للمهنة والخدمة . والأعضاد : الأنصار . والغطاريف : السادة . والتغطرف التكبر . ويدمث : أى يسهل . ويؤامر نفسه : يراد به تعاضد الرأيين المتضادّين فى النفس . وجال فى صهوة جواده : جال أى وثب ، والصهوة : مقعد الفارس من ظهر فرسه ، والكوماء : الناقة العظيمة السنام . ومنهم :

سواد بن قارب الدوسى

روى أبو بكر بن دريد قال : حدثنى عمى الحسين عن أبيه ابن الكلبى عن الذَّيَّال بن نَفْر عن الطِرِمَّاح بن حَكيم قال : خرج خمسة نفر من طيّ من ذوى الحجا والرأى منهم بُرْج بن مُسْهِر وهو أحد المعمَّرين ، وأُنَيْف بن حارثة ابن لأم ، وعبد الله بن سعد بن الحشْرَج أبو حاتم طيّ ، وعارق الشاعر ، ومُرَّة ابن عبد رضى ، يريدون (سَواد بن قارب الدَّوْسىّ) ليختبروا علمه ، فلما قربوا من السَّرَاة قالوا : ليخبأ كل واحد منا خبيئاً ولا يخبر به صاحبه لنسأله عنه ، فان أصاب عرفنا علمه ، وان اخطأ ارتحلنا عنه ، فخبأ كل واحد منهم خبيئاً ، ثم صاروا إليه فأهدوا إليه إبلاً وطُرفاً من طرَف (الحيرة) فضرب عليهم قبة ونحر لهم ، فلما مضت ثلاث دعابهم فدخلوا عليه ، فتكلم بُرْج ، وكان أسنَّهم ، فقال : جادك السحاب ؛ وأمْرَعَ لك الجَنَاب[١] ، وضَفَتْ عليك النعم الرِّغاب[٢] ،

(١) أمرع : أخصب ، والجناب : ما حول الدار (٢) الضافى : السابغ الكثير . يقال : خير فلان ضاف على قومه أى سابغ عليهم . والرغاب : الواسعة الكثيرة

نحن أولو الآكال[١] ، والحدائق والأغيال[٢] ، والنَّعَم الجُفال[٣] ، ونحن أصهار الأملاك ، وفُرْسان العِراك ، يُوَرّى عنهم أنهم من بكر بن وائل ، فقال سَوَادٌ : والسماء والأرض ، والغَمْر والبَرْض[٤] ، والقَرْض والفرض[٥] ، انكم لأهْلُ الهضاب الشُّمّ[٦] ، والنخيل العُمّ[٧] ، والصخور الصمّ ، من أجأ العَيْطاء ، وسلمى ذات الرَّقبة السَّطْعاء[٨] ، قالوا انا كذلك وقد خبأنا لك كل رجل منا خبيئاً لتخبرنا باسمه وخبيئه فقال لبرج : أقسم بالضياء والحَلَك[٩] ، والنجوم والفلَك ، والشروق والدَّلَك[١٠] ، لقد خبأت بُرْثُنَ فَرْخ[١١] في اعليط مَرْخ[١٢] تحت آسرة الشَّرْخ[١٣] ! فقال : ما أخطأت شيئاً ، فمن أنا ؟ قال : برج بن مُسْهِر عُصْرَة المُمْعِر[١٤] وثِمال المُحَجَّر[١٥] ، ثم قام أُنَيْف بن حارثة فقال : ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال : والسحاب والتراب ، والأصباب والأحداب[١٦] ، والنعم الكُثاب[١٧] ، لقد خبأت قُطَامَةَ فَسِيط[١٨] ، وقُذَّة مَرِيط[١٩] ، فى مدَرَةٍ من مَدِيّ مَطِيط[٢٠] ، قال ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أُنيف ، قارى الضيف

---

(١) يقال : فلان ذو أكل (بضم الهمزة وسكون الكاف) أى ذو حظ ورزق في الدنيا والجمع آكال (٢) جمع غيل وهو الماء الجارى على وجه الارض (٣) الكثيرة وهذا الجمع قليل جداً لم يأت منه الا أحرف مثل رباب جمع ربى وهى الحديثة النتاج ، وفرار جمع فرير وهو ولد البقرة ، ونعم كثاب وهى الكثيرة ، وبراء جمع برىء (٤) الغمر : الماء الكثير ، والبرض : الماء القليل وجمعه براض (٥) القرض : الدين ، والفرض : الهبة (٦) الهضاب : جمع هضبة وهى الجبل المنبسط على وجه الأرض ، والشم : الطوال (٧) الطوال أيضاً

(٨) أجأ وسلمى : جبلا طيئ ، والعيطاء : الطويلة وكذلك السطعاء (٩) الظلام

(١٠) هو اصفرار الشمس عند المغيب . وفى اللسان : الدلك : وقت الدلوك الذي هو اصفرار الشمس

(١١) البرثن : ظفر كل ما لا يصيد من السباع والطير مثل الحمام والضب والفأرة فاذا كان مما يصيد قيل لظفره مخلب (١٢) المرخ : شجر تقدح منه النار ، والاعليط : وعاء ثمر المرخ والعرب تشبه به آذان الخيل (١٣) الآسرة : القد الذى يشد به خشب الرحل ، وشرخا الرحل : جانباه (١٤) العصرة : المنجاة ، والممعر : الذى ذهب ماله (١٥) الثمال : الغياث الذى يقوم بأمر قومه ، والمحجر : الملجأ المضيق عليه (١٦) الأصباب جمع صبب وهو ما انخفض من الارض ، والأحداب : جمع حدب وهو ما علا (١٧) الكثيرة (١٨) القطامة : ما قطمته بفيك ، والفسيط : قلامة الظفر (١٩) القذة : الريشة . والمريط : من السهام الذى قد تمرط ريشه أى نتف (٢٠) المدرة : قطعة طين يابسة . والمدىّ : جدول يجرى منه ماسال

ومُعْمِل السيف ، وخالط الشتاء بالصيف » ثم قام عبد الله بن سعد فقال : ماخبيءُ وما اسمى ؟ فقال سواد : أُقسِمُ بالسَّوَام العازب[١] ، والوقير الـكارب[٢] ، والُمجدِّ الراكب ، والمشيح الحارب[٣] ، لقد خبأت نُفَاثَةَ فنن[٤] ، فى قطيع قد مَرَن[٥] ، أو أديم قد جرَن ، قال : ما أخطأت حرفاً فمن أنا ؟ قال : أنت ابن سعد النوال ، عطاؤك سِجال[٦] ، وشرك عُضال[٧] ، وعمدك طِوال ، وبيتك لاينال ، ثم قام عارق . فقال : ماخبيئى وما اسمى ؟ فقال سواد : أُقسم بنفنف اللُّوح[٨] ، والماء المَسْفوح[٩] ، والفضاء المندوح[١٠] ، لقد خبأت رقعة طَلاً أعفْرَ[١١] ، فى زِعنفةِ أديم أحمر[١٢] ، تحت حِلْس نضْوٍ أدبر[١٣] ، قال : ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أنت عارق ذو اللسان العضْب[١٤] ، والقلب النَّدْب[١٥] ، والمضَّاء الغَرْب[١٦] ، منّاع السَّرْب[١٧] ، ومبيح النَّهْب . ثم قام مرة بن عبد رُضى فقال : ماخبيئى ، وما اسمى ؟ فقال : سَوَاد : أُقسم بالأرض والسماء ، والبرُوج والأنواء ، والظلمة والضياء ، لقد خبأت دِمّةً فى رِمّة[١٨] ، تحت مُشيط لِمَّه[١٩] ، قال : ما أخطأت شيئاً فمن أنا ؟ قال : أنت مره ، السريع الـكرّه ، البطىء الفرّه ، الشديد المِرّه[٢٠] ، قالوا : فأخبرنا بما رأينا فى طريقنا اليك ، قال : والناظر

مما هرق من الحوض . كذا قال الأصمعى وأنشد « ومن مطيطات المدىّ المدعوق » ، والمطيط : الماء الخاثر فى أسفل الحوض والمدعوق : الذى قد أكثر فيه الوطء (١) السوام : المال الراعى من الابل . والعازب : البعيد (٢) الوقير : الغنم التى بالسواد ، والـكارب : القريب

(٣) المشيح : الجاد فى لغة هذيل . وفى غيرها الحاذر (٤) النفاثة : ماتنفثه من فيك . والفنن : واحد أفنان الاشجار وهى أغصانها (٥) القطيع : الطائفة من الغنم والنعم ، ومرن وجرن : لان فى صلابة (٦) كثير ، يقال أسجله أى أكثر له من العطاء وأعطاه سجله من كذا أى نصيبه (٧) شديد (٨) النفنف واللوح واحد وهما الهواء وانما أضاف لما اختلف اللفظان فكأنه أضاف الشيء الى غيره (٩) المصبوب (١٠) الواسع (١١) الطلا : ولد الظبى ساعة يولد ، والاعفر : الذى تعلو بياضه حمرة (١٢) الزعنفة : القطعة من الثوب ، وطرف الاديم

(١٣) الحلس للبعير بمنزلة القرطاط للحافر وهو البرذعة . والنضو : المهزول من الابل وغيرها

(١٤) أى الحديد الكلام (١٥) الذكى (١٦) الحد (١٧) بالفتح الماشية كلها وبالكسر القطيع من الظباء والنساء وغيرها (١٨) الدمة : القملة . والرمة : العظام البالية

(١٩) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن (٢٠) القوة

من حيث لا يُرَى ، والسامع قبل أن يُناجى ، والعالم بما لا يُدْرى ، لقد عنَّتْ لكم عُقاب عَجزاء(١) ، فى شغَانيب دَوْحَةٍ جرداء(٢) ، تحمل جَدْلا(٣) ، فماريتم(٤) إمّا يداً وإما رجلاً ، فقالوا : كذلك ، ثم مَهْ؟ قال سنح(٥) لكم قبل طلوع الشرق(٦) ، سِيدٌ أمَقّ(٧) ، على ماء طَرَق(٨) ، قالوا : ثم ماذا ؟ قال: تَيْسٌ أفْرَق(٩) ، سنَدَفى أبْرَق(١٠) ، فرماه الغلام الازرق ، فأصاب بين الوابلة(١١) والمِرفَق ، قالوا : صدقت وأنت أعلم من تحمل الأرض ! ثم ارتحلوا عنه ، فقال عارق :

ألا للهِ عِلْمٌ لا يجارى ... إلى الغـايات فى جَنَبَيْ سَوَاد
أتيناه نُسائله امتحانا ... ونحسب أن سيعمه بالعناد
فأبدى عن خفىٍّ مخبآتٍ ... فأضحى سِرُّها للنـاس بادى
حُسَام لا يليقُ ولا يثأنى ... عن القَصْدِ الميمم والسَّداد(١٢)
كأن خبيئنا لمـا انتجينا ... بعينَيْهِ يصرِّح أو ينادى
فأقسم بالعتائر حيث فَلْسٌ ... ومن نسك الاقيصر مِلْعباد(١٣)
لقد حزْتَ الكهانة عن (سطيحٍ) ... و (شِقّ) و (المُرَفَّلِ) من إياد

سبب اسلام سواد بن قارب ، وقصته البديعة

كان سواد بن قارب من أعلم أهل وقته ، وأشهرهم فى الكهانة والشعر ، وأطولهم باعاً فى جميع المكارم . وقد وفد الى النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وأسلم

---

(١) هى التى ابيض ذنبها وقيل : التى كبرت عجيزتها (٢) الشغانيب : ما تداخل من الاغصان . والدوحة : الشجرة العظيمة (٣) عضواً (٤) تجادلتم (٥) عرض (٦) الشمس
(٧) السيد : الذئب . والامق : الطويل (٨) بولت فيه الابل (٩) هو البعيد ما بين قرنيه (١٠) سند : صعد ، والابرق : غلظ من الارض فيه حجارة ورمل وجبل ابرق اذا كان فيه لونان (١١) رأس العضد الذى يلى المنكب (١٢) يليق : يمسك . قال الاصمعى للرشيد : ما ألاقتنى أرض حتى خرجت اليك يا أمير المؤمنين . أى ما أمسكتنى . ويثأنى: يحبس . والميمم : المقصود (١٣) العتائر : جمع عتيرة وهو ذبح كان يذبح للاصنام فى الجاهلية . وفلس : صنم . والاقيصر : صنم أيضاً . وملعباد : من العباد

وكان رئيّه قد أتاه ثلاث ليال فى حال سِنَته يضرب به برجله ، ويقول : قم ياسواد ابن قارب ، وأعقل ان كنت تعقل انه قد بعث نبى من لؤى بن غالب . وقد أورد قصته هذه مفصلة جمع من الثقات منهم الامام الماوردى فى كتابه (أعلام النبوة) قال بسنده : بينما عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ذات يوم جالساً اذ مرَّ به رجل فقيل له : أتعرف هذا المار يا أمير المؤمنين ؟ قال : ومَنْ هو ؟ قالوا : هذا سواد ابن قارب رجل من أهل اليمن ، وكان له رئىّ من الجن ، فأرسل اليه عمر فقال : أنت سواد بن قارب ؟ قال نعم يا أمير المؤمنين ، فقال : أنت الذى أتاك رئيك بظهور النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ؟ قال : نعم يا أمير المؤمنين بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان إذْ أتانى رئيى من الجن فضربنى برجله ، وقال : قم ياسواد ابن قارب فاسمع مقالى ، واعقل ان كنت تعقل ، انه قد بعث رسول من لؤىّ ابن غالب يدعو الى الله تعالى والى عبادته ، وأنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتطلابها ... وشدّها العيس[1] بأقتابها
تهوى الى مكةَ تبغى الهدى ... ماصادقُ الجنّ ككذّابها
فارحلْ الى الصفوة من هاشمٍ ... ليس قُداماها كأذنابها

فقلت له : دعنى فانى أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ؛ فلما كانت الليلة الثانية أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالى واعقل إن كنت تعقل ، إنه قد بعث رسول من لؤىّ بن غالب يدعو الى الله تعالى والى عبادته ، وأنشأ يقول :

عجبت للجنّ وتخبارها ... وشدّها العيس بأكوارها
تهوى الى مكةَ تبغى الهدَى ... ما مؤمنو الجنّ ككفارها
فارحل الى الصفوة من هاشم ... بين روابيها وأحجارها

فقلت : دعنى فقد أمسيت ناعساً ، ولم أرفع بما قال رأساً ؛ فلما كانت الليلة

(١) العيس : الابل البيض

الثالثة أتانى فضربنى برجله ، وقال : قم يا سواد بن قارب فاسمع مقالتى ، واعقل إن كنت تعقل ، قد بعث رسولٌ من لؤى بن غالب يدعو الى الله تعالى والى عبادته وأنشأ يقول :

عجبتُ للجنّ وتجساسها وشدها العيس بأحلاسها(1)

تهوى الى مكةَ تبغى الهُدَى ما خيّرو الجن كأنجاسها

فارحل الى الصَّفوة من هاشمٍ واسْمُ بعَينَيْك الى راسها

قال : فأصبحت وقد امتحن الله قلبى للاسلام ، فرحلت ناقتى ، وأتيت المدينة ، فاذا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه ، فقلت : اسمع مقالتى يا رسول الله ! قال : هات ! فأنشأت :

أتانى رئيّى بعد هَدْءٍ ورقدةٍ ولم أكُ فيما قد بلوت بكاذب

ثلاث ليالٍ قوله كلّ ليلة أتاك رسولٌ من لؤىّ بن غالب

فشمّرت عن ذيلى الإزار ووسّطت بى الذِّعْلِب الوجناء بين السَّباسب

فأشهد أن الله لا شئ غيره وأنكَ مأمون على كل غائب

وأنك أدنى المرْسلين وسيلةً الى الله يا ابنَ الأكرمين الأطايب

فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل وان كان فيما جئت شيب الذوائب

وكنْ لى شفيعاً يومَ لا ذو شفاعةٍ بمُغْنٍ فتيلاً عن سَوَاد بن قارب

(الرئى : الخادم من الجن ، والهدء : السكون ، والذعلب بكسر الذال وسكون العين وكسر اللام : الناقة السريعة ، والوجناء : الشديدة ، والسباسب : جمع سبسبٍ ، المفازة) ففرح رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأصحابه بمقالتى فرحاً شديداً حتى رؤى الفرح فى وجوههم ، قال : فوثب اليه عمر فالتزمه ، وقال : قد كنت أحب أن أسمع منك هذا الحديث ، فهل يأتيك رئيك اليوم ؟ فقال مذ قرأت القرآن فلا ، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن . وتمام الكلام على أخباره فى الاستيعاب والاصابة . ومنهم :

(1) جمع حلس وهو كساء على ظهر البعير

فاطمة بنت مر الخثعمية

وهي كاهنة كانت بمكة ، ويحكى عنها أمور فى باب الكهانة عجيبة ؛ ومن الأمثال الشائعة بين العرب « قد كانَ ذلكَ مَرَّةً فالْيَوْمَ لاَ » قال الميدانى : أول من قال ذلك فاطمة بنت مر الخثعمية ، قال : وكانت قد قرأت الكتب ، فأقبل عبد المطلب ومعه ابنه عبد الله يريد أن يزوجه آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب ، فمرَّ على فاطمة ، وهى بمكة ، فرأت نور النبوة فى وجه عبد الله فقالت له : من أنت يافتى ؟ قال : أنا عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم ، فقالت : هل لك أن تقع علىَّ وأعطيك مائة من الابل ؟ فقال :

أما الحرام فالمات دونه   والحل لا حل فاستبينه
فكيف بالأمر الذى تنوينه ؟

ومضى مع أبيه فزوجه آمنة ، وظل عندها يومه وليلته ، فاشتملت بالنبىّ صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم انصرف ، وقد دعته نفسه إلى الإبل فأتاها ، فلم ير منها حرصاً ، فقال لها : هل لك فيما قلت لى؟ فقالت « قد كان ذلك مرةً فاليوم لا » فأرسلتها مثلاً يضرب فى الندم والإنابة بعد الاجترام ، ثم قالت له : أى شىء صنعت بعدى ؟ قال : زوجنى أبى آمنة بنت وهب ، فكنت عندها . فقالت : رأيت فى وجهك نور النبوة ، فأردت أن يكون ذلك فىَّ فأبى الله تعالى إلا أن يضعه حيث أحبه ، وقالت :

بنى هاشم قد غادرت من أخيكم   أمينة إذ للباه يعتلجان
كما غادرَ المصباح بعد خبوِّهِ   فتائل قد ميثت له بدهانِ
وما كلُّ ما نالَ الفتى من نصيبه   بحزمٍ ، ولا مافاته بتوَانِ
فأجملْ اذا طالبت أمراً فإنَّه   سيكفيكه جدَّانِ يَصْطَرِعانِ

وقالت أيضاً :

إنى رأيتُ مخيلةً نشأتْ   فتلألأتْ بحناتم القطر

لله ما زهرية سلبتْ منك الذي استلبت وماتدرى

وقد أورد هذه القصة الإمام الماورديّ أيضاً فى كتاب (اعلام النبوة) مع بعض الزيادة . قولها « بعد خبوه » أى طفئه . والمخيلة : السحابة التى هى مظنة المطر . قال فى الصحاح : وقد خالت السحاب واخيلت وخايلت اذا كانت ترجى المطر وقد أخلت السحابة وأخيلتها اذا رأيتها مخيلة . والحناتم : سحائب سود لأن السواد عندهم خضرة ، والحنتم : الجرة الخضراء . وزهرية : منسوبة الى زهرة حى من قريش ، وهو اسم امرأة كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر نسب ولده اليها ، وهم أخوال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم . . والكهان كثيرون يحتاج استيعابهم ، وما روى عنهم من الأخبار ، وما نطقوا به من السجع والرجز الى سفر كبير[1]؛ قال الأصفهانى عند الكلام على الكهانة : كان ذلك فى العرب كثيراً ، وآخر من وجد وروى عنه الأخبار العجيبة سَطيح وسَوَاد بن قارب ، قال : وكان وجود ذلك فى العرب أحد أسباب معجزات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم لما كان يخبر به ، ويحث على اتباعه .

العرافون

قال ابن خلدون فى مقدمته : العرافون — كان فى العرب منهم كثير ، وذكروهم فى أشعارهم ، قال قائلهم :

فقلتُ لعرَّاف اليمامة داونى فإنَّك إنْ داويتنى لَطَبيبُ

وقال الآخر :

جعلتُ لعرَّافِ اليمامة حكمه وعرَّاف نجدٍ إنْ هما شفيانى
فقالا : شفاك الله ! والله ما لنا بما حملت منك الضلوع يدانِ[2]

---

(١) قلت : وقد ألف الخرائطى كتاباً فى هـذا الباب حافلا ، ومنه — على ما بلغنى — نسخة فى مكتبة الظاهر فى دمشق . (٢) انظر ص ٤

وعراف اليمامة : هو رباح بن عجلة ، وعراف نجد : الأبلق الأسدى انتهى .
وبعض العرب يسمى الكاهن عرافاً أيضاً ، وبعضهم يطلق هذا اللفظ على الطبيب أيضاً ، قال الخطابى فى شرح سنن أبى داود : الكاهن هو الذى يدعى مطالعة علم الغيب ، ويخبر الناس عن الكوائن ، وكان فى العرب كهنة يدعون أنهم يعرفون كثيراً من الأمور : فمنهم من كان يزعم أن له رئيًّا من الجن وتابعة يلقى اليه الأخبار ، ومنهم من كان يدعى أنه يستدرك الأمور بفهم أعطيه ، قال : وكان منهم من يسمى عرافاً ، وهو الذى يزعم أنه يعرف الأمور بمقدمات أسباب يستدل بها على مواقعها : كالشيء يسرق فيعرف المظنون به السرقة ، وتتهم المرأة بالريبة فيعرف من صاحبها ، ونحو ذلك من الامور. ومنهم من كان يسمى المنجم كاهناً ، والحديث قد يشتمل على النهى عن اتيان هؤلاء كلهم ، والرجوع الى قولهم ، وتصديقهم على ما يدعونه من هذه الأمور . ومنهم من كان يدعو الطبيب كاهناً ، وربما دعوه عرافاً . قال أبو ذؤيب :

يقولون لى : لو كان بالرمل لم يمتْ ... نشيبة ، والكهان يكذب قيلها

وقال آخر : جعلت لعراف اليمامة البيت . وهذا غير داخل فى جملة النهى وإنما هو مغالطة فى الأسماء . وقد أثبت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم الطب ، وأباح العلاج والتداوى . ومن علومهم :

علم الزجر والعيافة

وهو الاستدلال بأصوات الحيوانات ، وحركاتها ، وسائر أحوالها ، على الحوادث ، واستعلام ما غاب عنهم . وقال ابن خلدون : وأما الزجر فهو ما يحدث من بعض الناس من التكلم بالغيب عند سنوح طائر أو حيوان ، والفكر فيه بعد مغيبه ، وهى قوة فى النفس تبعث على الحرص والفكر فيما زجر فيه من مرئى أو مسموع ، وتكون قوته المخيلة قوية فيبعثها فى البحث ، مستعيناً بما رآه أو سمعه

فيؤديه ذلك الى إدراكٍ مّا كما تفعله القوة المتخيلة فى النوم ، وعند ركود الحواس تتوسط بين المحسوس والمرئى فى يقظة فتجمعه مع ماعقلته فيكون عنها الرؤيا انتهى وقد كان العرب أعلم الناس بهذا العلم، وهو مدار أفعالهم، وقانون حركاتهم وسكناتهم؛ وقد روى عنهم فى هذا الباب، روايات تحير ذوى الألباب ، قال ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة[1]: يروى فى حرب بنى تغلب أن تيم اللات أرسل بنيه فى طلب مال له ، فلما أمسى سمع صوت الريح فقال لامرأته : انظرى من أين نشأت السحاب، ومن أين نشأت الريح ؟ فأخبرته بالواقع ، فقال : والله إنى لأرى ريحاً تدهده الصخر ، وتمحق الأثر ، فلما دخل عليه بنوه قال لهم : ما لقيتم ؟ قالوا : سرنا من عندك فلما بلغن دعص الشعثمين اذا بعفر جاثمات على دعص من رمل ، فقال : فما ريحكم ناطح أم دابر أم بارح أم سانح ؟ قالوا : ناطح ، فقال يخاطب نفسه : ياتيم اللات دعص الشعثمين والشعثم الشيخ الكبير وأنت شعثم بنى بكر وجواثم بدعص وريح نطحت فبرحت ، قال: ثم ماذا ؟ قالوا : ثم رأينا ذئباً قد دلع لسانه من فيه وهو يحرن وشعره عليه . فقال : ذلك حران ثائر ذو لسان عذول حامى الظهر همه سفك الدماء وهو أرقم الأراقم يعنى مهلهلا ، قال : ثم ماذا ؟ قالوا : ثم رأينا ريحاً وسحابا ، قال : فهل مطرتم ؟ قالوا : بلى ! قال : ببرق؟ قالوا : قد كان ذلك ، فقال : أماء سائل ؟ فقالوا : نعم ، فقال : ذلك دم سائل ومرهفات . قال : ثم مه ؟ قالوا : ثم طلعنا قلعة صنعاء ثم تصوبنا من تل فاران ، قال : فكنتم سواء أو مترادفين ؟ قالوا : بل سواء ، قال : فما سماؤكم ؟ قالوا: جناء . قال : فما ريحكم؟ قالوا : ناطح ، قال : فما فعل الجيش الذين لقيتموهم ؟ قالوا : نجونا منه هربا وجدّ القوم فى أثرنا قال : ثم مه ؟ قالوا : ثم رأينا عقابا منقضة على عقاب فتشابكا وهويا الى الأرض ، قال : ذاك جمع رام جمعاً فهو لاقيه . قال : ثم مه ؟ قالوا : رأينا سبعاً على سبع ينهشه وبه بقيـة لم يمت . فقال : ذرونى أما والله إنها لقبيلة مصروعة

(١) — ج ٢ ص ٢٥١

مأ كولة مقتولة من بنى وائل بعد عز وامتناع

وذكروا أن تيم اللات ، هذا مر يوماً بجمل أجرب ، وعليه ثلاث غرابيب فقال لبنيه : ستقفون على مقتول ! فكان كما قال وقتل عن قريب . وكذلك قول علقمة فى مسيره مع أصحابه ، وقد مروا فى الليل بشيخ ، فقال : لقيتم شيخاً كبيراً فانياً يغالب الدهر والدهر يغالبه يخبركم أنكم ستلقون قوماً فيهم ضعف ووهن ، ثم لقى سبعاً فقال : دلاج لا يغلب ؛ ثم رأى غراباً ينفض بجؤجؤه فقال : ابشروا ألا ترون أنه يخبركم أنْ قد اطمأنت بكم الدار ؟ فكان الأمر كذلك . وذكر المدائنى قال : خرج رجل من لِهْب ، ولهم عيافة ، فى حاجة له ومعه سقاء من لبن فسار صدر يومه ثم عطش فأناخ بعيره ليشرب فاذا الغراب ينعب فأثار راحلته ومضى ، فلما أجهده العطش أناخ ليشرب فنعب الغراب فأثار راحلته ، ثم فى الثالثة نعب الغراب وتمرغ بالتراب فضرب الرجل السقاء بسيفه فاذا فيه أسود ضخم ، ثم مضى فاذا غراب على سدرة فصاح به فوقع على سلمة فصاح به فوقع على صخرة فانتهى اليه فاذا تحت الشجرة كنز ! فلما رجع الى أبيه قال له : ماصنعت ؟ قال : سرت صدر يومى ثم أنخت لأشرب فاذا الغراب ينعب ، قال : أثِرْهُ والا فلست بابنى ! قال : أثرته ، ثم أنخته لأشرب فاذا الغراب ينعب ، قال . أثره والا فلست بابنى ، قال : أثرته ، ثم أنخته لاشرب فنعب الغراب وتمرغ فى التراب ، قال : اضرب السقاء والا فلست بابنى قال : فعلت فاذا أسود ضخم ، قال : ثم مه ؟ قال : ثم رأيت غراباً واقعاً على سدرة ، قال : أطره والا فلست بابنى ، قال : أطرته ثم وقع على سلمه ، قال : أطره وإلا فلست بابنى ، قال : أطرته فوقع على صخرة ، قال : أخبرنى بما وجدت فأخبره .. وذكر أيضا ان اعرابياً أضل ذوداً له وخادماً فخرج فى طلبهما حتى اذا اشتدت عليه الشمس وحمى النهار مرَّ برجل يحلب ناقة قال : أظنه من بنى أسد فسأله عن ضالته ، قال : ادنُ فاشرب من اللبن وأدلك على ضالتك ، قال : فشرب ، ثم قال : ما سمعت حين خرجت ؟ قال : بكاء الصبيان ،

ونباح الكلاب ، وصراخ الديكة ، وثغاء الشاء ، قال : ينهاك عن الغُدُوّ ، ثم مه ؟ قال : ثم ارتفع النهار فعرض له ذئب ، قال : كسوب ذو ظفر ، ثم مه ؟ قال : ثم عرضت لى نعامة ، قال : ذات ريش واسمها حسن ، هل تركت فى أهلك مريضاً يعاد ؟ قال : نعم ! قال : ارجِعْ الى أهلك فذودك وخادمك عندهم فرجع فوجدهم .. وذكر أبو خالد التيمى قال : كنت آخذ الابل بضمان فأرعاها فى ظهر البصرة فطردت فخرجت أقفو أثرها حتى انتهيت الى القادسية ، فاختلطت علىّ الآثار ، فقلت : لو دخلت الكوفة فتحسست منها ، فأتيت الكناسة فاذا الناس مجتمعون على عراف اليمامة فوقفت ، ثم قلت له : حاجتى ! فقال :

بعيدة أشطان الهوى جمعُ مثلِها   على العاجز الباغى الغنى ذو تكائف

ولترجعن ! قال : فوجدتها فى الشام مع ابن عم لى فصالحت أصحابها عنها ..

وقال المدائنى : كان بالسواد زاجر يقال له مهر فأخبر به بعض العمال فجعل يكذب زجره ، ثم أرسل اليه ، فلما أتاه قال : إنّى قد بعثت بغنم الى مكان كذا وكذا فانظر هل وصلت أم لم تصل ؟ وقد عرف العامل قبل ذلك أن بينها وبين الكلأ مرحلةً ، فقال لغلامه : اخرج فانظر أى شىء تسمع ؟ قال : وكان العامل قد أمر غلامه أن يكمن فى ناحية الدار ويصيح صياح ابن آوى ، فخرج غلام الزاجر ليسمع فصاح غلام العامل فرجع الى الزاجر غلامه وأخبره بما سمع ، فقال للعامل : قد ذهبت عنك وقطع عليها الطريق فاستيقت . قال : فضحك العامل ! وقال : قد جاءنى خبرها أنها وصلت والصائح الذى صاح غلامى ! قال : إنْ كان الصائح الذى صاح ابن آوى فقد ذهبت الغنم ، وان كان غلامك فقد ذهب الراعى أيضاً ! قال : فبلغه بعد ذلك ذهاب الغنم وقتل الراعى .. وذكر العكلى أنه خرج فى تسعة نفر هو عاشرهم ليصيبوا الطريق فرأى غراباً واقعاً فوق بانة . فقال : يا قوم إنكم تصابون فى سفركم هذا فازدجروا وأطيعونى وارجعوا ! فأبوا عليه فأخذ قوسه وانصرف ، وقتلت التسعة ، وأنشأ يقول :

رأيتُ غُرَاباً واقعاً فوقَ بانةٍ ينشنش أعلى ريشهِ ويطايره
فقلت:غُراب فاغتراب من النَّوَى وبان فبين من حبيبٍ يجاوره
فما أعيفَ العكليَّ لا دَرَّ دَرُّه ! وأزْجَرَهُ للطير لا عزَّ ناصره !

وذكر عن كُثَيِّر عزة أنه خرج يريد مصر ، وكانت عزَّة بها ، فلقيه أعرابي من نهد فقال : أين تريد ؟ قال : أريد عزة بمصر ، قال : ما رأيت فى وجهك ؛ قال : رأيت غراباً ساقطاً فوق بانة ينتف ريشه ، فقال : ماتت عزة ! فانتهى ومضى فوافى مصر والناس منصرفون من جنازتها ، فأنشأ يقول :

فأما غراب فاغتراب وغربة وبان فبين من حبيبٍ تعاشِرُهْ

وذكر عنه أيضاً أنه هوى امرأة من قومه بعد عزة يقال لها (أم الحويرث) وكانت فائقة الجمال ، كثيرة المال ، فقالت له : اخرج فأصب مالاً فأتزوجك ! فخرج الى اليمن وكان عليها رجل من بنى مخزوم ، فلما كان ببعض الطريق عرض له قَوْط (وهو الجماعة من الظباء) فمضى ، ثم عرض له غراب ينعب ويفحص التراب على رأسه ، فأتى كثير حياً من الأزد ، ثم من بنى لِهبٍ ، وهو من أزجر العرب ، وفيهم شيخ قد سقط حاجباه على عينيه ، فقص عليه ما عرض له فقال : إن كنت صادقاً لقد ماتت هذه المرأة أو تزوجت رجلاً من بنى كعب ! فاغتم كثير لذلك وسقى بطنه ! فكان ذلك سبب موته ، وقال فى ذلك :

تَيَمَّمْتُ لِهباً أبتغى العلمَ عندهم وقد ردّ علم العائفينَ الى لِهْبِ(1)
فيممتُ شيخاً منهمُ ذو أمانةٍ بصيراً بزجر الطير منحنىَ الصلب
فقلت له : ماذا ترَى فى سوانح وصوت غراب يفحص الأرض بالترب؟
فقال : جرى الطيرُ السنيحُ ببَيْنِها ونادى غرابٌ بالفراق وبالسلب !
فان لا تكنْ ماتت فقد حالَ دونها سواك حليلٌ باطن من بنى كَعْبْ !

وقال رجل من بنى أسد : تزوجت ابنة عم لى فخرجت أريدها ، فلقيني شيء

(1) تيممت : قصدت . ولهب : قبيلة من الأزد فى اليمن وهم أعيف العرب

كالكلب مندلع لسانه فى شق ، فقلت : أخفت وربِّ الكعبة ! فأتيت القوم فلم أصل اليها ، وناقرنى أهلها ، فخرجت عنهم ، فمكثت ثلاثة أيام ، ثم بدا لى فخرجت نحوهم ، فلقيت كلبة تنطف أطباؤها لبناً ، فقلت : أدركت وربِّ الكعبة ، فدخلت بأهلى وحملت منى بغلام ، ثم بآخر حتى ولدت أولاداً كثيرين وما رواه الثقات من الحكايات فى هذا الباب لا يقوم بها مثل هذا الكتاب من المختصرات

كيفية الزجر عند العرب

قال ابن القيم فى كتاب مفتاح دار السعادة عند الكلام على أصحاب الطير السانح والبارح والقعيد والناطح : وأصل هذا أن العرب كانوا يزجرون الطير والوحش ، ويثيرونها ، فما تيامن منها وأخذ ذات اليمين سموه سانحاً ، وما تياسر منها سموه بارحاً ، وما استقبلهم منها فهو الناطح ، وما جاءهم من خلفهم فهو القعيد فمن العرب من يتشاءم بالبارح لأنه لا يمكن رميه الا بأن ينحرف اليه ، ويتبرك بالسانح ؛ ومنهم من يرى خلاف ذلك . قال المدائنى : سألت رؤبة بن العجاج ، ما السانح ؟ قال : ماولاك ميامنه ، قال : قلت . فما البارح ؟ قال : ماولاّك مياسره قال : والذى يجئ من قدامك فهو الناطح والنطيح ، والذى يجىء من خلفك فهو القاعد والقعيد ، ونقل عن المفضل الضبى أن البارح ما يأتيك من اليمين يريد يسارك ، والسانح ما يأتيك عن اليسار فيمر على اليمين ، وإنما اختلفوا فى مراتبها ومذاهبها ، لأنها خواطر وحدوس وتخمينات لا أصل لها ، فمن تبرك بشىء مدحه ، ومن تشاءم به ذمه[1] .. وقد ذكرنا سابقاً عند الكلام على تشاؤم العرب بالطيور أن أهل نجد تتيمن بالسانح وتتشاءم بالبارح ، وأهل العالية على عكس هذا ، وفى النهاية لابن الاثير : الزجر للطير هو التيمن والتشاؤم بها والتفاؤل بطيرانها كالسانح والبارح ، وهو نوع من الكهانة والعيافة . وأقول :

---

(١) مفتاح دار السعادة ج ١ ص ٢٤٢

إنه قسيم للكهانة لا نوع منها ، وظاهر كلامه يوهم أنها والعيافة مترادفان ، وهو أيضاً لا يسلم له ، وليس شيء من الطير إلا وهو يزجر الا الرخم . قال الكميت يهجو رجلا :

أنشأتَ تنطقُ فى الامو ر كواغد الرَخَم الدوائر
إذ قيل : يا رَخَم انطقى فى الطير إنك شرُّ طائر
فأتت بما هى أهله والعى من شلل المجاور

وفى المثل « إنطقى يارَخَم إنك من طير الله » يقال : إن أصله أن الطير صاحت فصاحت الرخم ، فقيل لها يهزأ بها : إنك من طير الله فانطقى ، يضرب للرجل لا يلتفت اليه ولا يسمع منه . والرخمة : طائر أبقع يشبه النسر فى الخلقة يقال له الأنوق والجمع رخم وهو للجنس .

من اشتهر من العرب بالزجر والعيافة

قد كان فى العرب جماعة يعرفون بذلك كعراف اليمامة ، والأبلق الأسدى والأجلح ، وعروة بن يزيد ، وغيرهم ممن لا يحصى عدداً ، فكانوا يحكمون بذلك ويعملون به ويتقدمون ويتأخرون فى جميع ما ينقلبون فيه ، ويتصرفون فى حال الأمن والخوف والسعة والضيق والحرب والسلم ، فان نجحوا فيما يتفاءلون به مدحوه وداوموا عليه ، وان عطبوا فيه تركوه وذموه ، ومن اشتهر باحسان الزجر عندهم ووجوهه حتى قصده الناس بالسؤال عن حوادثهم ، وما أملوه من أعمالهم سموه عائفاً وعرّافاً كما سموه زاجراً ، وانى ذاكر بحول الله تعالى فى هذا المقام شيئاً من أخبار بعض من وقفت على ترجمته منهم على طريق الاختصار . منهم :

حسل بن عامر (١) بن عميرة الهمدانى

ومن حديثه أن عامراً بعث ابنيه الحسل وعاجنة الى تجارة ، فلقى الحسل قوم من بنى أسد فأخذوا ماله وأسروه ، وسار عاجنة أياماً ثم وقع على مال فى

(١) فرائد اللآل : « حاتم بن عميرة ... » .

طريقه من قبل أن يبلغ موضع متجره فأخذه ورجع . وقال فى ذلك :

كفانى اللهُ بعد السير، انى رأيتُ الخير فى السفر القريبِ
رأيتُ البعد فيه شقى ونأىٌ ووحشة كلِّ منفرد غريب
فأسرعت الأيابَ بخير حالٍ الى حَوْرَاءَ خرعبة لَعُوب
وانى ليس يثنينى اذا ما رحلتُ سنوحُ سحَّاجٍ نَعُوب

(قال فى الصحاح : الحور شدة بياض العين فى شدة سوادها ، وامرأة حوراء بينة الحور ، وجارية خرعبة وخرعوبة : أى دقيقة العظام ناعمة ، وبعير سحاج: يسحج الارض بخفه أى يقشر)

فلما رجع تباشر به أهله، وانتظروا الحسل ، فلما جاء إبانه الذى كان يجىء فيه ولم يرجع رابهم أمره ، وبعث أبوه أخاً له لم يكن من أمه يقال له شاكر فى طلبه والبحث عنه ، فلما دنا شاكر من الارض التى بها الحسل وكان الحسل عائفاً يزجر الطير فقال :

تخبرنى بالنجاة القطاة وقول الغراب بها شاهد
يقول : ألا قد دَنَا نازحٌ فدآء له الطِرْفُ والتالِدُ[1]
أخ لم تكن أمنا أمه ولكنْ أبونا أبٌ واحِدُ
تداركنى رأفة حاتم فَنِعمَ المربُ والوالدُ

ثم إن شاكراً سأل عنه فأخبر بمكانه فاشتراه ممن أسره بأربعين بعيراً فلما رجع به قال له أبوه « إسْعَ بجَدّكِ لا بكدّك » فذهبت مثلاً . ومنهم :

أبو ذؤيب الهذلى الشاعر

ومن خبره ما حكى عنه أنه قال : بلغنا أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم عليلٌ فاستشعرت حزناً ، وبت بأطول ليلة لا ينجاب ديجورها ، ولا يطلع

---

(١) الطرف : المال المستحدث والتالد : القديم

نورها ، فبت أقاسى طولها ، حتى اذا كان وقت السحر أغفيت فهتف بى هاتف وهو يقول :

خطبٌ أجلّ أناخ بالاسلام بين النّخيل ومقعد الآطام

قبض النبىّ (محمد) فعيوننا تذرى الدموع عليه بالاسجام

قال أبو ذؤيب : فوثبت من منامى فزعاً ، فنظَرت الى السماء ، فلم أر إلا سعد الذابح فأولته ذبحاً يقع فى العرب ، وعلمت أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم قد قبض أو هو ميت من علته ، فركبت ناقتى وسرت ، فلما أصبحت طلبت شيئا أزجر به فعرض لى شيهم « وهو ذكر القنافذ » قد قبض على صلّ (يعنى حية) فهى تلتوى عليه ، والشيهم يقضمها حتى أكلها فزجرت ذلك وقلت شيهم شئ هم ، والتوآء الصل تلوى الناس عن الحق على القائم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، ثم أولت أكل الشيهم إياها غلبة القائم بعد رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم على الأمر ، فحثثت ناقتى حتى اذا كنت بالغابة زجرت الطائر فأخبرنى بوفاته صلى الله تعالى عليه وسلم ، ونعب غراب سانح فنطق بمثل ذلك ، فتعوذت بالله من شر ماعنّ لى فى طريقى ، فقدمت المدينة ولها ضجيج بالبكاء كضجيج الحجيج إذا أهلوا بالاحرام فقلت : ما الخبر ؟ قالوا : قبض رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ، فجئت الى المسجد فوجدته خالياً فأتيت بيت رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فوجدت بابه مرتجاً أى مغلقاً ، وقيل : هو مسجى وقد خلا به أهله ، فقلت أين الناس ؟ فقيل : فى سقيفة بنى ساعدة صاروا إلى الانصار ، فجئت إلى السقيفة فأصبت أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح وجماعة من قريش ، ورأيت الانصار فيهم سعد بن عبادة وفيهم شعراؤهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك ، فآويت إلى قريش ، وتكلمت الانصار فأطالوا الخطاب ، وأطالوا الجواب ، وتكلم أبو بكر فلله دره من رجل لا يطيل الكلام ويعلم مواضع فصل الخطاب ، والله لقد تكلم بكلام لا يسمعه سامع الا انقاد له ومال اليه ، ثم

تكلم عمر رضى الله تعالى عنه بدون كلامه ، ثم قال لابى بكر : مدَّ يدك أبايعك ، فمد يده فبايعه وبايعه الناس ، ورجع أبو بكر رضى الله تعالى عنه ورجعت معه . قال أبو ذؤيب : فشهدت الصلاة على النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وشهدت دفنه . ومنهم :

جابر بن عمرو المازنى

ومن حديثه أنه كان يسير يوماً فى طريق إذ رأى أثر رجلين ، وكان عائفاً قائفاً ، فقال أرى أثر رجلين شديداً كلبهما ، غزيراً سَلَبَهما ، و(الفِرار بِقِرابٍ أكيسُ) ثم مضى أى الذى يفر ومعه قِرابُ سيفه إذا فاته السيف أكيسُ ممن أيفيت القراب أيضا (١) . قال الشاعر :

أقاتل حتى لا أرى لى مُقاتلاً ... وأنجو إذا لم ينجُ الا المكيس

ومنهم :

جندب بن العنبر بن عمرو بن تميم

قال المفضل الضبى : إن جندباً هذا كان رجلا دميماً (٢) فاحشاً ، وكان شجاعاً ، وانه جلس هو وسعد بن زيد مناة يشربان ، فلما أخذ الشراب فيهما قال جندب لسعد وهو يمازحه : ياسعد لشرب لبن اللقاح (٣) ، وطول النكاح ، وحسن المزاح (٤) أحبُّ اليك من الكفاح (٥) ، ودعس الرماح (٦) ، وركض الوقاح (٧) ، فقال سعد : كذبتَ والله إنى لأعمل العامل ، وأنحر البازل (٨) ، وأسكت القائل ، فقال جندب : إنك لتَعْلَمُ أنك لو فزعت دعوتنى عجلا ، وما ابتغيت لى بدلا ، ولرأيتنى

(١) وقيل فى معناه : إن فرارنا ونحن قراب من السلامة أكيس من أن نتورط فى المكروه بثباتنا (٢) أى قبيح المنظر صغير الجسم وكأنه مأخوذ من الدمة بالكسر وهى القملة أو النملة الصغيرة (٣) جمع لقحة وهى الناقة ذات اللبن (٤) المداعبة (٥) المقاتلة والمضاربة
(٦) طعن الرماح (٧) الفرس الصلب القوى (٨) البعير الذى فطر نابه بدخوله فى السنة التاسعة ويستوى فيه الذكر والأنثى

بطلاً : أركب العظيمة ، وأمنع الكريمة ، واحمي الحريمة ، فغضب سعد وأنشأ يقول :

هل يسود الفتى اذا قبح الوجـــه وأمسى قراه غير عتيد [١]
واذا الناس فى الندىّ رأوه ناطقاً قال قول غير سديد [٢]

فاجابه جندب

ليس زين الفتى الجمال ولكنْ زينُه الضربُ بالحسام التليد [٣]
إن ينلك الفتى فزينٌ وإلاَّ ربما ضنَّ باليسير العتيد

قال سعد وكان عائفاً أيضاً : أما والذى أحلف به لتأسرنَّك طعنة ، بين العَرِينة والدهينة ، ولقد أخبرنى طيرى ، أنه لايغيثك غيرى ! فقال جندب : كلا إنك لجبان ، تكره الطعان ، وتحبُّ القيان [٤] ، فتفرقا على ذلك ، فغبرا حيناً ؛ ثم إن جندباً خرج على فرس له يطلب القنص فأتى على أمَة لبنى تميم يقال إن أصلها من جرهم فقال : لتمكننى مسرورة ، أو لتقهرن مجبورة ! قالت :مهلاً ! فان المرء من نوكه [٥] ، يشرب من سقاء لم يوكه [٦] ، فنزل اليها عن فرسه مدلا ، فلما دنا منها قبضت على يديه بيد واحدة فما زالت تعصرها حتى تركته لايستطيع أن يحركهما ، ثم كتفته بعنان فرسه ، وراحت به مع غنمها وهى تحدو به وتقول :

لاتأمننَّ بعدها الولائدا فسوف تلقى باسلاً مواردا [٧]
وحية تضحى لحى راصدا

قال : فمر بسعد فى إبله فقال : ياسعد أغثنى ! قال سعد « إن الجبان لايغيث » فقال جندب :

---

(١) أى غير مهيأ (٢) الندى : المجلس . وغير سديد : غير مصيب بقوله
(٣) الحسام : السيف القاطع . والتليد : كل مال قديم يورث عن الآباء .
(٤) جمع قينة وهى الأمة البيضاء هكذا قيده ابن السكيت مغنية كانت أو غير مغنية وقيل تختص بالمغنية . (٥) حمقه (٦) لم يشد وأسه (٧) الولائد : الاماء . والباسل : الشجاع

يا أيها المرء الكريمُ المشكومْ أنصرْ أخاكَ ظالماً أو مظلومْ

فاقبل اليه سعد فاطلقه . ثم قال : لولا أن يقال قتل امرأة لقتلتك ! قالت : كلا لم يكن ليكذب طيرك ، ويصدق غيرك ، قال : صدقت . . قوله : أنصر أخاك الخ هو من الأمثال يعنى أنصره ظالماً إن كنت خصمه ، ومظلوماً من جهة خصمه . أى لا تسلمه فى أى حال كنت . ومنهم :

مرة الاسدى

ومن خبره أنه كانت له امرأة من أجمل النساء فى زمانها ، وأنه غاب عنها أعواماً فهويت عبداً لها حامياً كان يرعى لها ماشيتها ، فلما همت به أقبلت على نفسها فقالت : يانفس ! لاخير فى الشِرة[1] ، فانها تفضح الحرة ، وتحدث العرَّة ثم أعرضت عنه حيناً ، ثم همت به فقالت : يانفس موتة مريحة ، خير من الفضيحة وركوب القبيحة ، واياكِ والعار ، ولبوسَ الشَّنار[2] ، وسوء الشعار ، ولؤم الدثار[3] ثم همت به وقالت : ان كانت مرة واحدةً ، فقد تصلح الفاسدة ، وتكرم العائدة ؛ ثم جسرت على أمرها ، وقالت للعبد : احضر مبيتى الليلةَ ! فأتاها فواقعها ، وكان زوجها عائفاً مارداً ، وكان قد غاب دهراً ، ثم أقبل آيباً ، فبيناهو يطعم إذْ نعب غراب فأخبره أن امرأته لم تفجر قط ولا تفجر الا تلك الليلة ! فركب مرة فرسه وسار مسرعاً رجاءَ ان هو أحسها أمنها أبداً ، فانتهى اليها ، وقد قام العبد عنها ، وقد ندِمَتْ وهى تقول « خيرٌ قليلٌ وفضحت نفسى » فسمعها مرة فدخل عليها ، وهو يرعد لما به من الغيظ ، فقالت له : ما يرعدك ؟ قال مرة : ليعلم أنه قد علم خير قليل المثل ! فشهقت شهقة وماتت ! فقال مرة :

لحى اللهُ ربُّ الناس (فاقِرَ) ميتةً وأهونْ بها مفقودة حين تُفْقَدُ

---

(١) شرة الشباب بالكسر نشاطه وانما تفضح الحرة لأنها تهيج عليها شهوتها فلا تلبث أن تصبر حتى يكون منها مايكون فتحدث العرة وهى الخلة القبيحة (٢) العار (٣) الشعار : ماتحت الدثار من اللباس وهو يلى شعر الجسد . والدثار : ما فوق الشعار من الثياب .

لَعَمْرُكِ ما تعتادُنى منكِ لوعةٌ ... ولا أنا من وجد عليكِ مُسَهَّد

ثم قام الى العبد فقتله..والفاقرة : الداهية (١) ، ولحاه الله : قبحه ولعنه . والمارد العاتى .

من أنكر الزجر والطيرة من العرب

ومن العرب من أنكر الزجر ونحوه بعقله ، وأبطل تأثيره بنظره ، وذم من اغترَّ به ، واعتمد فى أمره عليه وتوهم تأثيره « منهم ضابئ بن الحرث » وقد قال فى ذلك :

وماعاجلات الطير تدنى من الفتى ... نجاحاً ولا عن رَيْثِهِنَّ بخيب

وربَّ أمورٍ لاتضيرُكَ ضيرة ... وللقلب من مخشاتهن وجيب (٢)

ولا خيرَ فيمن لا يوطِّنُ نفسَهُ ... على نائبات الدهر حين تنوب

قوله : وماعاجلات الطير الخ قال المبرد فى الكامل يقول : اذا لم تعجل له طير سانحة فليس ذلك بمبعد خيراً عنه ، ولا اذا أبطأت خاب فعاجلها لا يأتيه بخير وآجلها لا يدفع عنه انما له ما قدر له ، والعرب تزجر على السانح ، وتتبرك به ، وتكره البارح ، وتتشاءم به ، والسانح ما أتاك مياسرة فأمكن الصائد ، والبارح ما أتاك ميامنة فلم يمكن الصائد إلا أن ينحرف له .قال الشاعر :

لا يعلمُ المرء ليلاً ما يصبّحه ... الا كواذب مما يخبر الفالُ

والفال والزجر والكهان كلهم ... مضلّون ودونَ الغيب أقفال

وقال ابن خلف .اذا خرج الانسان من منزله فأراد أن يزجر الطير فما مرَّ به فى أول ما يبصر فهو عاجلات الطير ، وان أبطأت عنه وانتظرها فقد رائت أى أبطأت ، والأول عندهم محمود ، والثانى مذموم . يقول : ليس النجح بأن يعجل

---

(١) أقول : « فاقرة » هنا اسم امرأة مرّة ، ورخمها فى البيت .

(٢) ضاره الأمر : ضره وخشية خشياً وخشيه وخشاة ومخشاة : خافه . والوجيب: الخفقان

الطائر الطيران كما يقول الذين يزجرون الطير ، ولا الخيبة فى إبطائها .
وهذا رد على مذهب الأعراب .

« ومنهم المرقش » وهو شاعر قديم ، ومن شعره :

ولقد غَدَوْتُ وكنت لا　　أغدو على واقٍ وحاتم[1]
فاذا الأشـائمُ كالأيا　　منِ والأيامن كالأشائم
وكذاك لا خيرٌ ولا　　شرٌّ على أحـدٍ بدائم
لا يمنعنَّك من بغـاءِ الـ　　خير تعقادُ التمـائم[2]
قد خطّ ذلك فى السُّطُو　　ر الأوَّليات القدائم

« ومنهم : جهم الهذلى » وفى ذلك يقول من أبيات يرد بها على العائفين فى زجر الطير :

يظنّانِ ظَنّاً مرَّةً يُخطأنه　　وأخرى على بعض الذي يصفان
قضى الله أن لا يعلم الغيبَ غيرهُ　　ففى أىّ أمرِ الله يمتريانِ[3]

« ومنهم : ضابىء من حارث البرجمى » حيث يقول فى شعره :

وما أنا ممن يزجر الطير همه　　اصاح غرابٌ أم تعرَّضَ ثعلب ؟
ولا السانحات البارحات عشيةً　　أمرَّ سليم القرن أم مرَّ أعضب

وقال آخر وهو لبيد

لَعَمْرُكَ ماتدرى الطوارقُ بالحصى　　ولا زاجراتُ الطيرِ ما الله صانع

« ومنهم : الرقاص الـكلبى » وكان على إنكار الزجر واعتقاد بطلانه ، وهو الذى يقول ، وقيل لخثيم بن عدى :

وجدت أباك الخير (بحراً) بنجدة　　بَناها له مجداً أشمُّ قُماقِمُ[4]

(١) الواق : طائر ضخم الرأس يصطاد العصافير . والحاتم : الغراب الأسود وغراب البين وهو أحمر المنقار والرجلين وسمى حاتماً لأنه يحتم بالفراق (٢) التمائم : جمع تميمة وهى خرزة رقطاء تنظم فى السير ثم يعقد فى عنق الصبى ، تعوذه من العين فاذا كبر قطعت عنه .
(٣) امترى فيه : شك (٤) بحر : اسم رجل والمخاطب ابنه مسعود . والأشم : السيد ذو الأنفة . القماقم السيد

وليس بهيّابٍ اذا شدّ رحله . يقولُ عدانى اليوم واقٍ وحاتمُ
ولكنه يمضى على ذاك مُقْدِماً اذا صدّ عن تلك الهَناة الخثارم

والخثارم كعلابط : الرجل المتطير « ومنهم : النابغة » فقد روى أنه خرج هو وزياد بن سيار يريدان الغزو فرأى زياد جرادة فقال : حرب ذات الوان فرجع ومضى النابغة ، ولما رجع غانماً قال :

يلاحظُ طيرةً أبداً (زيادٌ) لتخبِرَهُ وما فيها خبير
أقام كأنّ لقمانَ بن عادٍ أشار له بحكمته مشير
تعلّم أنه لا طيرَ إلا على متطيّرٍ وهو الثبور
بلى شىءٌ يوافقُ بعضَ شىءٍ أحايينًا وباطلُهُ كثير

وقد شفت الشريعة المحمدية الأمة فى الطيرة ، وقال النبى صلى الله تعالى عليه وسلم وقد سئل عنها : « ذاك شىء يجده أحدكم فلا يصدنه » . وذكر شراح الحديث أن ليس فى سنوح الطير وبروحها ما يقتضى ما اعتقدوه ، وإنما هو تكلف بتعاطى مالا أصل له ، إذْ لا نطق للطير ولا تمييز فيستدل بفعله على مضمون معنى فيه ، وطلب العلم من غير مظانّه جهل من فاعله ؛ وقد كان بعض عقلاء الجاهلية ينكر التطير ويتمدح بتركه كما سبق ، وكان أكثرهم يتطيرون ويعتمدون على ذلك ، ويصح معهم غالباً لتزيين الشيطان ذلك ، وبقيت من ذلك بقايا فى كثير من المسلمين . وبقى كلام فى الطيرة ، والفأل والفرق بينهما ، وسبب تحريم أحدهما دون الآخر ، مذكور فى شروح كتب الحديث . ومن عجيب أمر بعض قبائل العرب فى الجاهلية أنهم لا يزوجون بناتهم إلا من اتصف بصفات : منها معرفته للزجر والعيافة حيث إن هذه المعرفة عندهم من الصفات العلية ، ففى كتاب مجمع الأمثال للميدانى عن المفضل الضبى : أن ابن أروى الكلاعى خرج تاجراً من اليمن الى الشام فسار أياماً ، ثم حاد عن أصحابه فبقى مفرداً فى تيهٍ من الأرض حتى

سقط الى قوم لا يدرى من هم ، فسأل عنهم فأخبر أنهم همدان ، فنزل بهم . وكان طريراً [١] ظريفاً ، وان امرأة منهم يقال لها (عمرة بنت سبيع) هويته وهويها ، فخطبها ابن أروى ، وكان اسمه (الضبّ) ، الى أهل بيتها ، وكانوا لا يزوجون الا شاعراً أو عائفاً أو عالماً بعيون الماء ، فسألوه عن ذلك ، فلم يعرف منها شيئاً ، فأبوا تزويجه ، فلم يزل بهم حتى أجابوه فتزوجها ؛ ثم إن حياً من أحياء العرب أرادوا الغارة عليهم فتطيروا بالضب فأخرجوه وامرأته ، وهى طامث [٢] ، فانطلقا ومع الضب سقاء من ماء ، فسارا يوماً وليلته وأمامها عين يظنان أنهما يصبحانها ، فقالت له : ادفع اليَّ هذا السقاء حتى أغتسل فقد قاربنا العين ، فدفع اليها السقاءَ فاغتسلت بما فيه ولم يكفها ، ثم صبحا العين فوجداها ناضبة وأدركهما العطش ! فقال الضب (لا ماءَكِ أبْقَيْتِ ولا حِرَكِ أنْقَيْتِ) [٣] ثم استظلا بشجرة حيال العين ، فأنشأ الضبّ يقول :

نالله ما طلّة أصاب بها بعلاً سوى قوارع العَطَب [٤]
وأى مهر يكون أثقل مما طلبوه اذن من الضب
ان يعرف الماء تحت صم الصفا ويخبر الناس منطق الخطب [٥]
أخرجنى قومها بأن الرحى دارت بشؤم لهم على القطب

فلما سمعت امرأته ذلك فرحت وقالت : ارجع الى القوم فانك شاعر ! فانطلقا راجعين ، فلما وصلا خرج القوم اليهما ، وقصدوا ضربهما وردها ، فقال لهم الضب : اسمعوا شعرى ثم اقتلوني ! فأنشدهم شعره فنجا ، وصار فيهم آثر من بعضهم . قال الفرزدق :

وكنت كذاتِ الحيض لم تُبْقِ ماءَها ولا هيَ من ماءِ العَذابةِ طاهرُ [٦]

(١) أى ذا منظر ورواء (٢) حائض (٣) الحر : بالكسر فرج المرأة (٤) الطلة : الزوجة . والبعل : الزوج . (٥) الصفا : جمع صفاة وهى الحجر الصلد الضخم الذى لا ينبت . والصم : الصلب (٦) العذابة : بالدال والذال الرحم . وهذا البيت أورده الجوهرى
* ولا هى مما بالعذابة طاهر * قال ابن مكرم : وكذلك وجدته فى عدة نسخ . ويقال : امرأة طاهرة من الأدناس وطاهر من الحيض بغير هاء .

الطرق بالحصى والخط ونحو ذلك

كانت عند العرب أمور كثيرة يتوصلون بها الى معرفة المغيبات بزعمهم كالطرق بالحصى والخط والحبوب وغير ذلك ، وهذه كلها من الكهانة على ما حققه أهل العلم ، والطرق له صورة مخصوصة فان الكاهن اذا سئل عن حادثة أخرج حصيات قد أعدَّها عنده فيطرق بعضها ببعض فيلوح له حينئذ ما يعلم به جواب السؤال ، وصورة الخط ما نقله ابن الاعرابي قال : يقعد الحازى [١] ويأمر غلاماً له بين يديه فيخط خطوطاً على رمل أو تراب ، ويكون ذلك منه فى خفة وعجلة كى لا يدركها العدّ والاحصاء ، ثم يأمره فيمحوها خطين خطين وهو يقول : « ابنى عيان . أسرعا البيان ! » فان كان آخر ما يبقى منها خطين فهو آية النجاح ، وان كان قد بقى خط واحد فهو علامة الخيبة والحرمان ، ورأيت فى بعض كتب الأدب أن راجزاً قال يصف جندبا [٢] وهو ضرب من الجراد :

يحجل فيها مقلز الحجول * بغياً على شقيه كالمشكول [٣]

يخطّ لام ألف موصول * والزاى والرا أيما تهليل

خط يد المستطرق المسؤول

أى يخط لام ألف كخط يد الكاهن المسؤول منه التكهن ، والمستطرق : الذى يتكهن فاذا سئل عن الشيء خط فى التراب ونظر ، وقيل : المستطرق الكاهن الذى يطرق الحصى بعضه ببعض ، وفى سنن أبى داود عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم السلمى قال : قلت يارسول الله ومنا رجال يخطون ! قال كان نبى من الأنبياء يخط فمن وافق خطه فذاك ، وهذا يحتمل أن يكون معناه الزجر

(١) الكاهن . وانظر ص ١٥٩ من هذا الجزء . (٢) وقيل يصف غراباً (٣) حجل الغراب : نزا فى مشيه كما يحجل البعير العقير على ثلاث وقوله « فيها » أى فى الدار . ويقال : إنه لمقلز كمنبر أي وثاب عن ابن الأعرابى وأنشد :

وقلز الغراب والعصفور وثب * وكل ما لا يمشى مشياً فقد قلز

وبغى فى مشيته اختال وأسرع . والمشكول : الذى شدت قوائمه بخيط

عنه اذ كان من بعده لا يوافق خطه ، ولا ينال حظه من الصواب ، لأن ذلك إنما كان آية لذلك النبي ومعجزة له ، فليس لمن بعده أن يتعاطاه طمعاً فى نيله ، وقد ذكر بعض المفسرين فى قوله تعالى (أو أثارة من علم) أن المراد به هذا العلم وهو المشهور اليوم بعلم الرمل ، وكل ذلك من قبيل الكهانة . قال « ابن خلدون فى مقدمته » إنا نجد فى النوع الانسانى أشخاصاً يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ، ولا يرجعون فى ذلك الى صناعة ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا غيرها ، إنما نجد مداركهم فى ذلك بمقتضى فطرتهم التى فطروا عليها ، وذلك مثل العرافين والناظرين فى الأجسام الشفافة كالمرايا وطساس الماء ، والناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها ، وأهل الزجر فى الطير والسباع ، وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى ، وهذه كلها موجودة فى عالم الانسان لا يسع أحداً جحدها ولا إنكارها وكذلك المجانين يلقى على ألسنتهم كلمات من الغيب فيخبرون بها ، وكذلك النائم والميت لاول موته أو نومه يتكلم بالغيب ، وكذلك أهل الرياضات من المتصوفة لهم مدارك فى الغيب على سبيل الكرامة معروفة . قال : ونحن نتكلم على هذه الادراكات كلها ، ونبتدئ منها بالكهانة ، ثم نأتى عليها واحدة واحدة الى آخرها ونقدم على ذلك مقدمة فى النفس الانسانية كيف تستعد لادراك الغيب فى جميع الأصناف التى ذكرناها ؛ وذلك أنها ذات روحانية موجودة بالقوة من بين سائر الروحانيات ، وإنما تخرج من القوة الى الفعل بالبدن وأحواله ، وهذا أمر مدرك لكل أحد ، وكل ما بالقوة فله مادة وصورة ، وصورة هذه النفس التى بها يتم وجودها هو عين الادراك والتعقل ، فهى توجد أولاً بالقوة مستعدة للادراك وقبول الصور الكلية والجزئية ، ثم يتم نشؤها ووجودها بالفعل بمصاحبة البدن ، وما يعودها بوجود مدركاتها المحسوسة عليها ، وما تنتزع من تلك الادراكات من المعانى الكلية فتتعقل الصور مرة بعد أخرى حتى يحصل لها الادراك والتعقل طوراً

بالفعل فتتم ذاتها وتبقى النفس كالهيولى [1] والصور متعاقبة عليها بالادراك واحدة بعد واحـدة ؛ ولذلك نجد الصبي في أول نشأته لا يقدر على الادراك الذى لها من ذاتها لا بنوم ولا بكشف ولا بغيرهما ، وذلك لأن صورتها التى هى عين ذاتها وهى الادراك والتعقل لم يتم بعد ، بل لم يتم لها انتزاع الـكليات ، ثم اذا تمت ذاتها بالفعل حصـل لها مادامت مع البدن نوعان من الادراك : إدراك بآلات الجسم تؤديه اليها المدارك البدنية ، وإدراك بذاتها من غير واسطة ، وهى محجوبة عنه بالانغماس فى البدن والحواس وبشواغلها لأن الحواس أبداً جاذبة لها الى الظاهر بما فطرت عليه أولاً من الادراك الجسمانى ، وربما تنغمس من الظاهر الى الباطن فيرتفع حجاب البدن لحظة إما بالخاصية التى للانسان على الاطلاق مثل النوم أو بالخاصية الموجودة لبعض البشر مثل الـكهانة والطرق ، أو بالرياضة مثل الصوفية ، فتلتفت حينئذ الى الذوات التى فوقها من الملأ الأعلى لـمـا بين أفقها وأفقهم من الاتصال فى الوجود ، وتلك الذوات روحانية وهى إدراك محض وعقول بالفعل وفيها صور الموجودات وحقائقها فيتجلى فيها شىء من تلك الصور وتقتبس منها علوماً ، وربما رفعت تلك الصور المدركة الى الخيال فيصرفه فى القوالب المعتادة ؛ ثم يراجع الحس بما أدركت إما مجرداً أو فى قوالبه فتخبر به . هذا هو شرح استعداد النفس لهذا الادراك الغيبى . قال : ولنرجع الى ما وعدنا به من بيان أصنافه فأما الناظرون فى الأجسام الشفافة من المرايا وطساس المياه وقلوب الحيوان وأكبادها وعظامها وأهل الطرق بالحصى والنوى فكلهم من قبيل الـكهان إلا أنهم أضعف رتبة فيه فى أصل خلقهم لأن الـكاهن لا يحتاج فى رفع حجاب الحس الى كثير معاناة ، وهؤلاء يعانونه بانحصار المدارك الحسية كلها فى نوع واحد منها ، وأشرفها البصر ، فيعكف على المرئى البسيط حتى يبدو له مدركه الذى يخبر به عنه ، وربما يظن أن مشاهدة هؤلاء لما يرونه

---

(١) تقدم تفسيرها فى ج ٢ ص ٢٣١

هو فى سطح المرآة ، وليس كذلك بل لا يزالون ينظرون فى سطح المرآة الى أن يغيب عن البصر ، ويبدو فيما بينهم وبين سطح المرآة حجاب كأنه غمام يتمثل فيه صور هى مداركهم ، فيشيرون اليهم بالمقصود لما يتوجهون الى معرفته من نفى أو إثبات فيخبرون بذلك على نحو ما أدركوه ؛ وأما المرآة وما يدرك فيها من الصور فلا يدركونه فى تلك الحال . وإنما ينشأ لهم بها من هذا النوع الآخر من الادراك ، وهو نفسانى ليس من ادراك البصر بل يتشكل به المدرك النفسانى للحس كما هو معروف ، ومثل ذلك ما يعرض للناظرين فى قلوب الحيوانات وأكبادها وللناظرين فى المـاء والطساس وأمثال ذلك . قال وقد شاهدنا من هؤلاء من يشغل الحس بالبخور فقط ، ثم بالعزائم للاستعداد ، ثم يخبر كما أدرك ويزعمون أنهم يرون الصور متشخصة فى الهواء تحكى لهم أحوال ما يتوجهون الى إدراكه بالمثال والاشارة ، وغيبة هؤلاء عن الحس أخف من الاولين ، والعالم أبو الغرائب ، ثم ذكر الزجر وسبب تكلم المجانين بأخبار الغيب ، ثم قال : وأما العرافون منهم المتعلقون بهذا الادراك ، وليس لهم ذلك الاتصال ، فيسلطون الفكر على الأمر الذى يتوجهون اليه ، ويأخذون فيه بالظن والتخمين بناء على ما يتوهمونه من مبادئ ذلك الاتصال والادراك ، ويدعون بذلك معرفة الغيب وليس منه على الحقيقة ، هذا تحصيل هذه الأمور . قال : وقد تكلم عليها المسعودى فى مروج الذهب فما صادف تحقيقاً ولا إصابة ، ويظهر من كلام الرجل أنه كان بعيداً عن الرسوخ فى المعارف فينقل ما سمع من أهله ومن غـير أهله ؛ ثم ذكر ما للعرب فى ذلك من الاعتناء والاعتبار ، والمشاهير منهم فى معرفة هذه الأمور ، وحقيقة ما يصدر من المتصوفة مما يطول ذكره . ومن علومهم :

علم الطب

كان للعرب حظ وافر من معرفة الطب المبنى فى غالب الأمر على تجربة قاصرة على بعض الأشخاص متوارثاً عن مشايخ الحىّ وعجائزه ، وربما يصح منه البعض إلا أنه ليس على قانون طبيعى ، ولا على موافقة المزاج بعقاقير (١) وأدوية من نباتات وأغذية يحصل لغالبهم البرء العاجل باستعمالها ؛ وفى عرب البوادى اليوم كثير من ذلك ، وقد سمعنا عنهم فى هذا الباب عجائب نقلها من شاهدها منهم من الثقات ، وكذلك فى معالجة الجروح والعاهات ، وقسم منهم يعالجون أدواءهم بالكى فيحصل لهم البرء مما يشكون بأقل زمان وأيسر وقت ؛ وكذلك لهم العلم التام فى معالجة الدواب من الخيل والبغال والحمير والابل ونحو ذلك ، ومعرفة تربيتها على أحسن وجه مما لا يبلغهم به غيرهم ، كل ذلك مشهور عنهم مسلم لهم ، وقد دون المتقدمون كل مابلغهم عنهم من هذه الفنون بكتب كثيرة . وقد كان فى الجاهلية من العرب أطباء موسومون بالحذاقة ، موصوفون بالرئاسة فى الفن ، غير من كان منهم فى اليمن وعند التبابعة ، فان هؤلاء لا يمكن حصرهم ، وشأن لقمان وما بلغه من الحذاقة أمر مشهور ؛ وكلامنا فيمن كان قبيل الإسلام بين مُضَر ومن جاورهم ؛ ونحن نذكر إنْ شاء الله نبذةً منهم ، ومن أخبارهم ، وجملاً من كلامهم فى هذا الفن ، مما يكون أنموذجاً ، ودليلاً واضحا ، على من تردد فى ذلك واستبعده ، وفضل الله تعالى ليس مقصوراً على أحد .

(١) قال الجوهري : العقاقير أصول الادوية . وقال صاحب اللسان : مايتداوى به من النبات والشجر . وقال الازهري : الأدوية التى يستمشى بها . قال أبوالهيثم : العقار والعقاقير كل نبت ينبت مما فيه شفاء .

مشاهير أطباء العرب

منهم :

الحرث بن كلدة الثقفى

قال ابن أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء ، فى طبقات الأطباء : كان الحرث هذا من الطائف ، وسافر الى البلاد ، وتعلم الطب وعرف الداء والدواء ، وكان يضرب بالعود ، تعلم ذلك بفارس واليمن ، وبقى أيام رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم وأيام أبى بكر وعمر وعثمان وعلى بن أبى طالب ومعاوية ، وقال له معاوية : ما الطب ياحارث ؟ فقال : الأزم . يعنى الجوع ذكر ذلك ابن جلجل . وقال الجوهرىّ فى الصحاح : الأَزم المسك يقال أزم الرجل عن الشىء أمسك عنه ، وقال أبو زيد : الأزم الذى ضم شفتيه فى الحديث ، وقد سأل عمر رضى الله تعالى عنه الحرث بن كلدة عن الداء ، فقال : الأزم يعنى الحمية . قال : وكان طبيب العرب ، ويروى عن سعد بن أبى وقاص رضى الله تعالى عنه أنه مرض بمكة مرضاً فعاده رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فقال : ادعوا له الحرث بن كلدة فانه رجل يتطبب ، فلما عاده الحرث نظر اليه وقال : ليس عليه بأس اتخذوا له فَرِيقةً (١) بشىء من تمر عجوة (٢) وحلبة يطبخان ، فتحسَّاها (٣) فبرئ ؛ وكانت للحرث معالجات كثيرة ، ومعرفة بما كانت العرب تعتاده وتحتاج اليه من المداواة ؛ وله كلام مستحسن فيما يتعلق بالطب وغيره

من ذلك أنه لما وفد على كسرى أنو شروان أذن له بالدخول عليه ، فلما وقف بين يديه منتصباً قال له : من أنت ؟ قال : أنا الحرث بن كلدة الثقفى .

(١) تمر يطبخ بحلبة للنفساء أو حلبة تطبخ مع الحبوب لها . (٢) العجوة بالحجاز التمر المحشى وهى أم التمر الذى اليه المرجع كالشهريز بالبصرة والتبي بالبحرين والجدامى باليمامة وأيضاً تمر بالمدينة يقال هو مما غرسه النبي (ص) بيده قال ابن الأثير : هي أكبر من الصيحانى يضرب الى السواد (٣) أى شربها شيئاً بعد شئ

قال : فما صناعتك ؟ قال : الطب . قال : اعرابي أنت ؟ قال : نعم من صميمها ، وبُحبوحة[١] دارها ، قال : فما تصنع العرب بطبيب مع جهلها ، وضعف عقولها ، وسوء أغذيتها ؟ قال : أيها الملك اذا كانت هذه صفتها كانت أحوج الى من يصلح جهلها ، ويقيم عوجها ، ويسوس أبدانها ، ويعدل أمشاجها[٢] ؛ فان العاقل يعرف ذلك من نفسه ! قال كسرى : فكيف تعرف ما تورده عليها ولو عرفت الحلم لم تنسب الى الجهل ؟ قال : الطفل يناغي[٣] فيداوى ، والحية ترقى فتحاوى[٤] ، ثم قال : أيها الملك العقل من قسم الله تعالى قسمه بين عباده كقسمة الرزق فيهم فكل من قسمته أصاب ، وخص بها قوم وزاد ، فمنهم مثرٍ ومعدم ، وجاهل وعالم ، وعاجز وحازم ، وذلك تقدير العزيز العليم ! فأعجب كسرى من كلامه ثم قال : فما الذى تَحْمَدُ من أخلاقها ، ويعجبك من مذاهبها وسجاياها ؟ قال الحرث : أيها الملك لها أنفس سخية ، وقلوب جرية ، ولغة فصيحة ، وألسن بليغة ، وأنساب صحيحة ، وأحساب شريفة ، يمرق[٥] من أفواههم الكلام ، مروق السهم من نبعة الرَّام ، أعذب من هواء الربيع ، وألين من سلسبيل المعين[٦] مُطْعمو الطعام فى الجَدْب[٧] ، وضاربو الهام فى الحرب ، لا يرام عزّهم ، ولا يُضام جارهم ، ولا يستباح حَرِيمهم ، ولا يذل كريمهم ، ولا يقرون بفضل للأنام ، إلا للملك الهُمام ، الذى لا يقاس به أحد . ولا يوازيه سُوقة[٨] ولا ملك !

قال : فاستوى كسرى جالساً ، وجرى ماء رياضة الحلم فى وجهه لما سمع من محكم كلامه ، وقال لجلسائه : انى وجدته راجحاً ، ولقومه مادحاً ، وبفضيلتهم ناطقاً ، وبما يورده من لفظه صادقاً ، وكذا العاقل من أحكمته التجارب ! ثم أمره بالجلوس فجلس ، فقال :

---

(١) وسط (٢) الامشاج : الاخلاط . قال تعالى : إنا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه . قال ابن السكيت : يريد النطفة لأنها ممتزجة من أنواع ولذلك يولد الانسان ذا طبائع مختلفة (٣) أى يكلم بما يجذله . (٤) التحوية : القبض (٥) يخرج (٦) السلسبيل : اللين الذى لاخشونة فيه . والمعين : الماء الجارى (٧) القحط (٨) السوقة عند العرب خلاف الملك وليس المراد من قولهم (رجل سوقة) أنه من أهل الاسواق كما يتوهم عامة الكتاب والادباء

كيف بصرك بالطب ؟ قال : ناهيك : قال : فما أصل الطب ؟ قال : الازم، قال : فما الازم ؟ قال : ضبط الشفتين ، والرفق باليدين ، قال : أصبت ، فما الداء الدوىّ ؟ قال : ادخال الطعام على الطعام هو الذى يفنى البرية ، ويهلك السباع فى جوف البرية ، قال : فما الجمرة التى تصطلم منها الأدواء ؟ قال : هى التخمة إن بقيت فى الجوف قتلت، وان تحللت أسقمت ، قال: صدقت، فما تقول فى الحجامة؟ قال فى نقصان الهلال ، فى يوم صحو لا غيم فيـه ، والنفس طيبة ، والعروق ساكنة ، لسرور يفاجؤك ، وهمّ يباعدك ، قال : فما تقول فى دخول الحمام ؟ قال : لا تدخله شبعاناً ، ولا تغش أهلك سكراناً ، ولا تقم بالليل عرياناً ، ولا تقعد على الطعام غضباناً ، وارفق بنفسك يكن أرخى لبالك ، وقلل من طعامك يكن أهنأ لنومك ، قال : فما تقول فى الدواء ؟ قال : مالزمتك الصحة فاجتنبه ، فان هاج داء فاحسمه بما يردعه قبل استحكامه ، فان البدن بمنزلة الارض إن أصلحتها عمرت ، وإن تركتها خربت ، قال : فما تقول فى الشراب ؟ قال : أطيبه أهناه ، وأرقه أمراه ، وأعذبه أشهاه ، لا تشربه صرفاً فيورثك صداعا ، ويثير عليك من الأدواء أنواعا، قال: فأى اللُّحْمان أفضل؟ قال: الضأن الفتى ، والقديد المالح مهلك للآكل ، واجتنب لحم الجزور والبقر ، قال : فما تقول فى الفواكه ؟ قال : كلها فى إقبالها وحين أوانها ، واتركها اذا أدبرت وولت وانقضى زمانها ، وأفضل الفواكه الرمان والأُتْرُجُّ ، وأفضل الرياحين الورد والبنفسج ، وأفضل البقول الهندباء والخس ، قال : فما تقول فى شرب الماء ؟ قال : هو حياة البدن ، وبه قوامه ينفع ما شرب منه بقدر الحاجة ، وشربه بعد النوم ضرر أفضله أمراه ، وأرقه أصفاه ، ومن عظام أنهار (١) البارد الزلال لم يختلط بماء الآجام والآكام (٢) ينزل من صرادح (٣) المسطان ويتسلسل عن الرضراض (٤) ، وعظام الحصى فى الأيفاع (٥) قال: فما طعمه ، قال لا يوهم له طعم إلا أنه مشتق من الحياة ،

(١) كذا (٢) الآجام : الحصون . والآكام : التلول (٣) الصرادح : جمع صرداح وهو المكان المستوى (٤) الحصى (٥) جمع يفع وهو المحل المرتفع

قال : فما لونه قال : اشتبه عن الابصار لونه، لأنه يحكى لون كل شىء يكون فيه، قال : اخبرنى عن أصل الانسان ما هو؟ قال : أصله من حيث شرب الماء يعني رأسه ، قال : فما هذا النور الذى فى العينين؟ قال : مركب من ثلاثة أشياء : فالبياض شحم ، والسواد ماء، والناظر ريح : قال فعلى كم جبل وطبع هذا البدن؟ قال : على أربع طبائع : المرة السوداء وهى باردة يابسة ، والمرة الصفراء وهى حارة يابسة والدم وهو حار رطب ، والبلغم وهو بارد رطب ؛ قال : فلم لم يكن من طبع واحد؟ قال : لو خلق من طبع واحد لم يأكل ولم يشرب ولم يمرض ولم يهلك ! قال : فمن طبيعتين لو كان اقتصر عليهما ؟ قال : لم يجز لأنهما ضدان يقتتلان ! قال : فمن ثلاث ؟ قال : لم يصلح موافقان ومخالف ! فالأربع هو الاعتدال والقيام ، قال : فاجمل لى الحار والبارد فى أحرف جامعة ؟ قال: كل حلو حار وكل حامض بارد وكل حريف حار وكل مرّ معتدل وفى المرّ حار وبارد ، قال: فأفضل ما عولج به المرة الصفراء ؟ قال : كل بارد لين ، قال : فالمرة السوداء ؟ قال : كل حار لين ، قال: فالبلغم ؟ قال: كل حار يابس ، قال : فالدم ؟ قال : اخراجه اذا زاد ، وتطفئته اذا سخن بالأشياء الباردة اليابسة، قال : فالرياح ؟ قال بالحقن اللينة ، والادهان الحارة اللينة ؟ قال : أفتأمر بالحقنة ؟ قال : نعم ! قرأت فى بعض كتب الحكماء أن الحقنة تنقى الجوف ، وتكسح الأدواء عنه ، والعجب لمن احتقن كيف يهرم أو يعدم الولد ! وان الجهل كل الجهل من أكل ما قد عرف مضرته ، ويؤثر شهوته على راحة بدنه ، قال : فما الحِمْيَةُ ؟ قال : الاقتصاد فى كل شىء ، فان الاكل فوق المقدار يضيق على الروح ساحتها ، ويسدّ مسامّها ، قال : فما تقول فى النساء واتيانهن ؟ قال : كثرة غشيانهنّ ردىء ، واياك واتيان المرأة المسنة ، فانها كالشنّ[1] البالى تجذب قوتك ، وتسقم بدنك ، ماؤها سم قاتل ، ونفسها موت عاجل ، تأخذ منك الكلّ ، ولا تعطيك البعض ، والشابة ماؤها عذب

---

(١) القربة الخلق الصغيرة

زلال ، وعناقها غنج ودلال ، فوها بارد ، وريقها عذب ، وريحها طيب ، وهَنُها (١) ضيق . تزيدك قوة الى قوتك ، ونشاطاً الى نشاطك ، قال : فأيهن القلب اليها أميل ، والعين برؤيتها أسر ، قال : اذا أصبتها المديدة القامة ، العظيمة الهامة (٢) واسعة الجبين ، قنوآء العِرْنين (٣) ، كحلاء (٤) لعساء (٥) صافية الخد ، عريضة الصدر ، مليحة النحر (٦) فى خدها رقة ، وفى شفتيها لعس ، مقرونة الحاجبين ناهدة الثديين ، لطيفة الخصر (٧) والقدمين ، بيضاء ، فرعاء (٨) جعدة (٩) غضة بضة (١٠) تخالها فى الظلمة بدراً زاهراً ، تبسم عن أقحوان (١١) وعن مبسم كالأرجوان (١٢) كأنها بيضة مكنونة ، ألين من الزُّبْد ، وأحلى من الشهد ، وأنزه من الفردوس والخُلْد ، وأزكى ريحاً من الياسمين والورد ، تفرح بقربها ، وتسرك الخلوة معها ، قال : فاستضحك كسرى حتى اختلجت (١٣) كتفاه ! قال : ففى أى الاوقات إتيانهن أفضل ؟ قال : عند إدبار الليل يكون الجوف أخلى ، والنفس أهدأ ، والقلب أشهى ، والرحم أدفى ، فان أردت الاستمتاع بها نهاراً تسرّح عينك فى جمال وجهها ، ويجتنى فوك من ثمرات حسنها ، ويعى سمعك من حلاوة لفظها ، وتسكن الجوارح كلها إليها ! قال كسرى لله درك من أعرابى ! لقد أعطيت علماً ، وخصصت فطنة وفهما ! وأحسن صلته وأمر بتدوين ما نطق به .

وقال (الواثق بالله) فى كتابه المسمى (بالبستان) أن الحرث بن كلدة مر بقوم وهم فى الشمس ، فقال : عليكم بالظل فان الشمس تنهج الثوب (١٤) وتنقل الريح وتشحب (١٥) اللون ، وتهيج الداء الدفين ، ومن كلام الحرث : البطنة بيت الداء

(١) فرجها (٢) الرأس (٣) قنواء : بينة القنا وهو ارتفاع أعلى الانف واحديداب وسطه وسبوغ طرفه . والعرنين : الانف كله أو ماصلب من عظمه . (٤) شديدة سواد العين أو التى كأنها مكحولة وان لم تكحل (٥) فى شفتها ولثتها سواد (٦) أعلى الصدر أو موضع القلادة (٧) بفتح فسكون وسط الانسان (٨) تامة الشعر ومن سجعات الاساس : لابد للقرعاء ، من حسد للفرعاء . (٩) أى غير سبطة الشعر (١٠) ناعمة رخصة الجسد رقيقة الجلد ممتلئة (١١) نبت من نبات الربيع مفرّض الورق رقيق العيدان له نور أبيض كأنه ثغر جارية حديثة السن (١٢) صبغ أحمر (١٣) اضطربت وتحركت (١٤) أى تخلقه . (١٥) تغير

والحمية رأس الدواء ، وعوّدوا كل بدن ما اعتاد . وقيل : هو من كلام عبد الملك ابن أبجر ، وقد نسب قوم هذا الكلام الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأوله « المعدة بيت الداء » وهو أبلغ من لفظ البطنة . وروى عن أمير المؤمنين على ابن أبى طالب كرم الله تعالى وجهه أنه قال : من أراد البقاء ، ولا بقاء ، فليجوّد الغذاء ، وليتمش بعد العشاء ، ولا يبت حتى يعرض نفسه على الخلاء ، ودخول الحمام على البطنة من شر الداء ، ودخلة الى الحمام فى الصيف خير من عشر فى الشتاء ، وأكل القديد اليابس فى الليل معين على الفناء ، ومجامعة العجوز تهدم أعمار الاحياء . وروى بعض هذه الكلمات عن الحرث بن كلدة وفيها : من سره النساء ولا نساء ، فليكر العشاء ، وليباكر الغذاء ، وليخفف الرداء ، وليقل غشيان النساء . ومعنى « فليكر » فليؤخر ، والمراد بالرداء الدين ، وسمى الدين رداء لقولهم : هو فى عنقى وفى ذمتى فلما كانت العنق موضع الرداء سمى الدين رداء . وقد روى من طريق آخر وفيه « تعجيل العشاء » وهو أصح . وروى أبو عوانة : وليعجل العشاء وليخفف الرداء وليقل الجماع . وروى حرب بن محمد قال : حدثنا أبى قال قال الحرث بن كلدة : أربعة أشياء تهدم البدن : الغشيان على البطنة ، ودخول الحمام على الامتلاء ، وأكل القديد ، ومجامعة العجوز . وروى داود بن رشيد عن عمرو بن عوف قال : لما احتضر الحرث بن كلدة اجتمع اليه الناس فقالوا : مرنا بأمر ننتهى اليه من بعدك ، قال : لا تتزوجوا من النساء إلا شابة ولا تأكلوا الفاكهة الا فى أوان نضجها ، ولا يتعالجنّ أحد منكم ما احتمل بدنه الداء ؛ وعليكم بالنورة فى كل شهر فانها مذيبة للبلغم مهلكة للمرة منبتة للحم ؛ واذا تغدى أحدكم فلينمْ على أثر غدائه ، واذا تعشى فليتخط أربعين خُطوة . ومن كلام الحرث أيضاً قال : دافع بالدواء ما وجدت مدفعاً ، ولا تشربه الا من ضرورة ، فانه لا يصلح شيئاً الا أفسد مثله .. وقال سليمان بن جلجل : أخبرنا الحسن بن الحسين ، قال : أخبرنا سعيد بن الأموى قال : أخبرنا عمى محمد بن سعيد بن عبد الملك بن عمير ،

قال : كان اخوان من ثقيف من بنى كُنَّة يتحابان لم ير قط أحسن ألفةً منهما ، فخرج الأكبر الى سفر فأوصى الأصغر بامرأته ، فوقعت عينه عليها يوماً غير معتمد لذلك ، فهواها وضَنِيَ (١) ، وقدم أخوه فجاءه بالأطباء ، فلم يعرفوا ما به الى أن جاءه بالحرث بن كلدة ، فقال : أرى عينين محتجبتين وما أدرى ما هذا الوجع ، وسأجرب ، فاسقوه نبيذاً ، فلما عمل النبيذ فيه قال :

ألا رفقاً ألا رفقاً — قليلاً ما أكونه
ألمَّا بى على الأبيا — تِ بالخيف أزُرْهُنَّه (٢)
غزالاً ما رأيت الـ — يوم فى دور بنى كُنَّه
أسيل الخد مربوب — وفى منطقه غُنَّه (٣)

فقالوا له : أنت أطب العرب ! ثم قال : ردوا النبيذ عليه فلما عمل فيه قال :

أيها الجيرة اسلموا — وقفوا كَيْ تكلّموا
وتقضوا لُبَانةً — وتحيوا وتنعموا (٤)
خرجتْ مُزْنة من الـ — بحر ريًّا تجمجم (٥)
هى ما كَنَّتِى وتز — عُمُ أنِّى لها حَمُو (٦)

فطلقها أخوه . ثم قال : تزوج بها يا أخى ! فقال : والله ما تزوجتها ! فمات وما تزوجها . وللحرث بن كلدة الثقفى من الكتب (كتاب المحاورة) فى الطب بينه وبين كسرى أنو شروان . ومنهم :

(١) أى مرض مرضاً مخامراً كلما ظن برؤه نكس .

(٢) الالمام : الزيارة غباً وقد ألم به وألم عليه . والخيف : الناحية وما انحدر من غلظ الجبل وارتفع عن مسيل الماء . وهو اسم لمواضع كثيرة . (٣) الاسيل من الخدود الطويل اللين الخلق المسترسل . ورب الصبي : أحسن القيام عليه ووليه حتى فارق الطفولية . وهو مربوب وربيب . والغنة : صوت يخرج من الخيشوم والاغن الذى يتكلم من قبل خياشيمه (٤) اللبانة بالضم الحاجة (٥) قال المجد : الجمجمة أن لايبين كلامه كالتجمجم . (٦) الكنة : بالفتح امرأة الاخ أو الابن والمراد هنا الاول . وحمو المرأة : أبو زوجها ومن كان من قبله كالاخ وغيره ، وحمو الرجل أبو امرأته أو أخوها أو عمها . أو الاحماء من قبلها خاصة وحمو من الاسماء التى لاتكون الا مضافة وقد جاء فى هذا الشعر مفرداً

النضر بن الحرث بن كلدة الثقفي

كان النضر ابن خالة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، وكان قد سافر البلاد أيضاً كأبيه ، واجتمع مع الأفاضل والعلماء بمكة وغيرها ، وعاشر الأحبار والكهنة ، واشتغل وحصل من العلوم القديمة أشياء جليلة القدر ، واطلع على علوم الفلاسفة وأجزاء الحكمة ، وتعلم من أبيه أيضاً ما كان يعلمه من الطب وغيره . وكان النضر يواتي (١) أبا سفيان في عداوة النبي صلى الله تعالى عليه وسلم لكونه كان ثقفياً كما قال رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم « قريش والانصار حليفان ، وبنو أمية وثقيف حليفان » وكان النضر كثير الأذى والحسد للنبي صلى الله تعالى عليه وسلم ، ويتكلم فيه بأشياء كثيرة كيما يحط من قدره عند أهل مكة ، ويبطل ما أتى به بزعمه ، ولم يعلم بشقاوته أن النبوة أعظم ، والسعادة أقدر ، والعناية الآلهية أجل ، والأمور المقدرة أثبت ، وانما النضر اعتقد أنه بمعلوماته وفضائله وحكمته يقاوم النبوة ، وأين الثرى من الثريا ؟ والحضيض من الأوج ؟ والشقي من السعيد ؟

ولما كان يوم بدر والتقى فيه المسلمون ومشركو قريش كان المقدم على المشركين أبا سفيان ، وعدتهم ما بين التسعمائة والألف . والمسلمون يومئذ ثلاثمائة وثلاثة عشر ، وأيد الله تعالى الاسلام ، ونصر نبيه عليه الصلاة والسلام ، ووقعت الكسرة على المشركين ، وقتلت في جملتهم صناديد قريش ، وأسر جماعة من المشركين ، فبعضهم استفكوا أنفسهم ، وبعضهم أمر النبي صلى الله تعالى عليه وسلم بقتلهم ، وكان من جملة المأسورين عقبة بن أبي معيط ، والنضر بن الحرث ابن كلدة ، فقتلهما عليه الصلاة والسلام بعد منصرفه من بدر . قيل : قتل عقبة ابن أبي معيط صبراً ، أمر عاصم بن ثابت بن أبي الأفلح الانصاري فضرب عنقه ، ثم أقبل من بدر حتى اذا كان بالصفراء قتل النضر بن الحرث بن كلدة

(١) يوافق

الثقفي أحد بني عبد الدار ، أمر علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن يضرب عنقه . فقالت أخته قتيلة بنت الحرث .

أيا راكباً إنَّ الأُثَيْلَ مَظِنَّةٌ ... من صُبحِ خامسةٍ وأنت مُوَفَّقُ (١)
بَلِّغْ بهِ مَيْتاً فانَّ تحيـةً ... ما إنْ تزَالُ بها الركائبُ تَخْفُقُ
مني اليه ، وعبرةً مسفوحةً ... جادت لمـائحها وأخرى تخنقُ (٢)
فَلْيَسْمَعَنَّ النضرُ إن ناديتَهُ ... إنْ كان يَسمع ميِّتٌ أو ينطقُ (٣)
ظلَّتْ سيوفُ بني أبيه تَنُوشُهُ ... لِلّهِ أرحامٌ هناك تمزَّقُ (٤)
صبراً يقاد إلى المنية متعباً ... رسف المقيَّد وهو عانٍ مُوثَقُ (٥)
أمُحَمَّدٌ ولأنتَ نَسْلُ نجيبـةٍ ... في قَوْمِها والفحلُ فحلٌ مُعْرِقُ (٦)
ما كانَ ضَرَّكَ لو منَنْتَ وربما ... مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحْنَقُ (٧)
والنضْرُ أقرب من أخذت بزلةٍ ... وأحقُّهـم إن كان عتقٌ يعتقُ
لو كنتَ قابلَ فديةٍ لفديتـه ... بأعزِّ ما يفـدى به من ينفقُ

قال أبو الفرج الاصبهاني : فبلغنا أن النبي صلى الله تعالى عليه وسلم قال : « لو سمعت هذا قبل أن أقتله ما قتلته » فيقال إن شعرها أكرم شعر وأعفه ، وأكفه وأحلمه ، وكأنه عليه الصلاة والسلام إنما أخر قتل النضر بن الحرث الى أن وصل الصفراء ليتروَّى فيه ، ثم إنه رأى الصواب قتله فقتله . ومنهم :

(١) الاثيل : موضع فيه قبر النضر . والمظنة : موضع الظن . تريد أن الاثيل مظنة أن تصل اليه في صبح الليلة الخامسة إن وفقت الى الطريق ولم تحد عنه .

(٢) ان بعد «ما» زائدة، وتخفق : تتحرك . ومسفوحة : مصبوبة . والمائح : النازل في البئر ليملأ الدلو . ومعنى البيتين : اذا وصلت هذا المكان فبلغ ساكنه تحية لاتزال الركائب تتحرك بها مني اليه ، وبلغه عبرة مصبوبة استنزفها من العين فقده وأخرى آخذة بالحلق . (٣) تقول : ان كان الميت يسمع أو ينطق وهو محال فعلى النضر أن يسمع نداءك (٤) تنوشه : تتناوله . واللام في (لله) للتعجب . والمعنى: لم يقتله أحد غير بني أبيه فعجباً من أرحام تتقطع هناك (٥) المنية : الموت . ورسف المقيد : مشي المقيد اذا جاء يتحامل برجله مع القيد . (٦) النجيبة : الكريمة . والمعرق : من له عرق في الكرم . ويروى « ضنء » موضع « نسل » وهو الولد .

(٧) الحنق : الغيظ أو أشده — ومعنى هذه الابيات ظاهر .

ابن حذيم [1]

كان ابن حذيم له قدم راسخة فى علم الطب ، وله فيه أطول باع . قال الزمخشرى فى المستقصى : ابن حذيم رجل كان من أطباء العرب . وقال أبو الندى ابن حذيم رجل من تيم الرباب ، كان أطب العرب ، وكان أطب من الحرث ابن كلدة . وقال ابن الاثير فى المرصع : ان حذيم شاعر فى قديم الدهر يقال انه كان طبيباً حاذقاً يضرب به المثل فى الطب ، فيقال : أطب فى الكيّ من ابن حذيم . وقال الميدانى عند قولهم أطب من حذيم : هذا رجل كان معروفاً بالحذق فى الطب ، ونقل ما ذكره أبو الندى من تفضيله على ابن كلدة وتقدمه ، وأهل اللغة على ذلك ؛ وقد ذكره الشعراء فى شعرهم ونوهوا بشأنه ، ومنهم : الاوس ابن حجر فانه ذكره فى أبيات قالها لبنى الحرث بن سَدُوس بن شيبان ، وهم أهل (القرية) باليمامة حيث اقتسموا مِعْزاه ، وقيل اقتسمها بنو حنيفة وبنو سحيم ، وكان أوس بن حجر أغرى عليهم عمرو بن المنذر بن ماء السماء ، ثم جاور فيهم فاقتسموا معزاه . ومن الابيات قوله :

فهل لكمُ فيها إلىّ فاننى   طبيبٌ بما أعيا النطاسىّ حِذْيما [2]

(١) سماه جرجى زيدان فى تاريخ آداب اللغة العربية (م١ص١٧٧) : ابن حزيم بالزاى وهو خطأ فاضح ولولا أنه كرره لكنا نحمله على أنه خطأ مطبعي !

(٢) أورده المحقق الرضى فى شرح الكافية على أن فيه حذف مضاف أى ابن حذيم فحذف المضاف وأقيم المضاف اليه مقامه لانه علم أنه العالم بالطب والمشهور لاحذيم فانه ورد فى الامثال « أطب من ابن حذيم » ... قال العلامة البغدادى فى الخزانة : وأورد صاحب الكشاف هذا البيت عند قوله تعالى « شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن » على أن التسمية واقعة على المضاف والمضاف اليه جميعاً وأما مايرد من نحو قوله عليه الصلاة والسلام « من صام رمضان ايماناً واحتسابا غفر له ماتقدم من ذنبه » فهو من باب الحذف لأمن الالباس كما حذف الشاعر « ابن » من ابن حذيم . قال : وقد خالف كلامه هنا فى (المفصل) فانه قال اذا أمنوا الالباس حذفوا المضاف وقد جاء اللبس فى الشعر . قال ذو الرمة :

عشية فرّ الحارثيون بعد ما   قضى نحبه فى ملتقى القوم هوبر

وقال « بما أعيا النطاسى حذيما » أى ابن هوبر وابن حذيم . وهو فى قول هذا تابع لابى على

فأخرجكم من ثوبِ شمطاءَ عاركٍ   مشهَّرةٍ بلَّت أسافِلَهُ دَمَا
ولو كانَ جارٌ منكم فى عَشيرتى   إذًا لَرَأَوْا للجارِ حقًّا ومحرما
ولو كانَ حَوْلى من تميمٍ عصابة   لما كانَ مالى فيكم متقسما
ألا تتقونَ اللهَ إذ تعلفونها   رضيخَ النوَى والعُضَّ حولاً مجرما
وأعجبكم فيها أغرّ مشهّر   تلاد إذا نام الربيض تغمغما

قوله : فهل لكم فيها الخ قال المفضل بن سلمة فى الفاخر وابن الانبارىّ فى الزاهر : الطب الفطنة والحذق ومنه سمى الطبيب لعلمه وحذقه وأنشد هذا البيت ، وأعياه الشئ اذا لم يهتدلوجهه ، والنطاسى بكسر النون قال ابن السكيت : العالم الشديد النظر فى الأمور . قال أبو عبيد : ويروى النَطاسى بفتح النون . قال الجوهرى : التنطس المبالغة فى التطهر . وكل من أدق النظر فى الأمور ، واستقصى علمها فهو متنطس ، ومنه قيل المتطبب نطيس كفسيق ونطاسى بكسر النون وفتحها . أى انى طبيب حاذق بالداء الذى أعجز الأطباء فى مداواته وعلاجه ، وضمير فيها المعزى ، وفيه حذف مضاف أى فهل لكم ميل فى رد المعزى إلىّ . وقوله : فهل لكم فى ثوب شمطاء(1) الخ . الشمطاء المرأة التى فى رأسها شمط بالتحريك ، وهو بياض شعر الرأس يخالطه سواد والرجل أشمط . والعارك : الحائض ، والشهرة : وضوح الأمر . يقول : هل لكم فى رد معزاى فأخرجكم من سبة شنعاء تلطخ أعراضكم وتدنسها كما تدنس الحائض ثوبها بالدم فأغسله عنكم ، وهذا مثل ضربه . وقوله : الا تتقون الله الخ . يقول : لولا أنك سرقتها لأى

فى ايضاح الشعر — الى ان قال — وقد قال يعقوب ابن السكيت فى شرح هذا البيت من ديوان أوس بن حجر : حذيم رجل من تيم الرباب وكان متطبباً عالماً . هذا كلامه فعنده أن الطبيب هو حذيم لا ابن حذيم . وتبعه على هذا صاحب القاموس فلا حذف فيه ولا شاهد على ماذكر . . وقوله « طبيب » روى ابن السكيت بدله « بصير » والبصير العالم ، والنطاسى مفعول أعيا وحذيم بدل من النطاسى وفاعل أعيا ضمير ما الموصولة الواقعة على الداء . أى انى طبيب حاذق بالداء الذى أعجز الاطباء فى مداواته وعلاجه . (1) قوله « شمطاء » ورد فى كتاب تهذيب الالفاظ ص ٥٤١ طبعة اليسوعيين — — « شحطاء » وهو تحريف فاحذره !

شئ تعلفها يقول فردها ولا تعلفها . والرضيخ : بالضاد والخاء المعجمتين المدقوق ، يقال رضخت الحصى والنوى كسرته . والعُضّ بضم العين المهملة وتشديد الضاد المعجمة . قال ابن السكيت : هو القت . وقال الجوهرى : علف أهل الأمصار مثل الكسب والنوى المرضوخ ، والمجرم بالجيم على وزن اسم المفعول التام والكامل . وقوله : وأعجبكم فيها أغر الخ . قال ابن السكيت : الأغر الأبيض ، والتلاد : القديم من المال . والربيض : ههنا الغنم . وقوله : تغمغما يعنى هذا الأغر ، والغمغمة : هبابه أى لا ينام وإنما يعرض بهم ويفترى عليهم ، وقد ذكر ابن أصيبعة كثيراً من أطباء العرب فى كتابه الطبقات .

نبذة من أسماء العلل التى وصفتها العرب

من تصفح كتب اللغة وجد فيها كثيراً من العلل التى وصفها قدماء العرب ووضعوا لها الأسماء الكثيرة ، ونحن نذكر هنا نبذة يسيرة من ذلك استدلالاً بها على ما كان للقوم من المعرفة بهذا الفن . « الحمى » وتكنى بأم مِلْدَم ، وهى الحرارة التى توجد من تعفن الاخلاط ، تقول حم حُمَّى واحدة ، فلا تنون حمى ، وهو محموم وحم حميين وثلاثاً . والحمى أنواع كثيرة يقال : فلان يُحَمُّ الغِبُّ إذا أخذته يوماً وتركته يوماً ، والربع أن تأخذه يوماً وتدعه يومين يقال رُبعَ فهو مربوع وقد يقال أُرْبِعَ حوّل الى الربع ، ومنهم من قال : حمى الربع هى التى تقطع النَّوْبة الثانية بعد النوبة الاولى بيومين فتكون فى اليوم الرابع ، ومن عدَّ النَوْبة ويوم الراحة دوراً مستقلاً سماها المثلثة ؛ ويحم الصالب للتى معها الصُّداع ، والنافض والراجف التى معها رِعدة وقد نَفَضته الحمى . ويحم حمى مغبطة ومردمة أى دائمة عليه لاتقلع ، وتسمى الحمى المطبقة أيضاً ، ومن أنواعها حمى الروح وحمى الدق « السبات » أن يغمى عليه فى الحمى وهو مغمى عليه ومغشى عليه ، فان كان مع الحمى بِرْسام فهو مُوم ، والوَعْك: الحمى . وقد وُعك

فهو موعوك ، وورد فهو موروود ، والوِرْد يومها . والقِلْد يوم يأتيه الرِبْعُ وقد غبت الحمى ، وفلان شاكٍ وبه شكاة ، وموصَّم يجد تكسيراً فى عظامه ، ووصب: وجع ؛ ومنهوك : براه المرض ، ومُثْبَت : لايبرحُ الفراش ، ونصب أسهره المرض ، والمُستَهاض : الذى يُنكَس بعد ما يبرأ ، وأول مايحس بالحمى فهو مسّها ورسّها ، فان كانت هناك قرّة فهى العُرَوَاء ، والعرق فيها الرُحضاء ، ووجد رمضة ومَليلة للحرقة والتكسير

ومن العلل : اليرقان وهو دآء يصفر الانسان « والصداع » وجع الرأس و « الشقيقة » وجع فى شقه « والسُّعال » وجع فى الصدر « والزكام » وهو اندفاع فضلات تحلبا من الزائدتين فهو أخص من النزلة لكونها تقال على ما اندفع مطلقاً « الزَّحير » وهو من أمراض المِعَى وهو حركة من المستقيم تدعو الى دفع البراز اضطراراً « الحصر » احتباس البطن « الأسْر » احتباس البول « الحصى » يقال به حصاة وهى كالحجر فى مجرى البول « الحكة » تغير سطح الجلد فى اللمس مع لذع مستلذ اذا حك . ومنهم من لم يفرق بينها وبين الجرب « الحَصَف » بثور شوكية مختلفة الأوضاع « الحَصْبَة » دآء كالجُدَرِى يحمر منه الجلد « الحمرة » ورم حار شفاف براق يسهل غمزه ويبيض به ثم يعود الجُدَرى وهو من الامراض العامة الوبائية وصورته نتوء يستدير غالباً ثم يطفو ومنه مايتصل وما ينفصل (الشرى) بَثْر بين الجلد واللحم يقال شرى شرىً (الحُماق) شئ كالجدرى يصيب الرجل وحمق اصابته الحميْقاء (القُوَباء) بثرة يتقوّب عنها الجلد أى ينقطع من أصله (والثؤلول) مايخرج فوق الجلد ولا يبرأ بسرعة وجمعه ثآليل (والجرَب) وهو من الامراض العامة الظاهرة فى سطح الجلد (والعَر)(١) الجرب الابيض « والجذام » دآء معلوم وهو من الجذم وهو القطع سمى بذلك لأنه يقطع الاعضاء أو النسل أو العمر ، ويسمى أيضا دآء الاسد لجعله سخنة

(١) أنظر الفرق بين العرّ بالفتح ، والعرّ بالضم ، فى (ص ٣٠٥) من الجزء الثانى .

الانسان كسخنة الاسد ، أولأنه يعتريه، أو يفترس البدن كافتراسه « وداء الثعلب » وهو نقص الشعر ، أو ذهابه وفساد منابته ، ويسمى أيضاً داء الحية ، وسمى بذلك لأنه يعترى هذين الحيوانين، أولأن الثعلب يفسد الزرع بتمرغه كما يفسد هذا الداء الشعر الذى هو زرع البـــدن . « داء الفيل » هو داء يعترى الرجلين فترمان من الركبة الى النهاية ، وسمى بذلك لأنه يعترى الفيل ، أو لشبه الرجل فيه برجله « الدُّوَار » وهو أن يتخيل الشخص أنه دائر بجملة أجزائه ، أوْ أن المكان دائر عليـــه « الوباء » وهو تغير يعرض للهواء يخرج به عن اعتدال الصحة الى إيجاب المرض « الهَيْضَة » وتسمى الفَضْجة وهي من أدواء البطن وهو مايستوجب القيء والإسهال . قال الجوهرى : يقال هاضنى الشيء إذا ردك فى مرضك ، ويقال بالرجل هَيضَة أى به قُيَاء وقيام جميعاً « النملة » وهى بثور صغار مع ورم يسير ثم تتقرح فتسعى وتتسع ، ويسميها الأطباء الذباب ؛ وتقول المجوس : إن ولد الرجل إذا كان من أخته ثم خط على النملة شفى صاحبها . وقال :

ولا عَيْبَ فيناغيرُ عرقٍ لِمَعْشَرٍ كرامٍ وانا لانخطّ على النمل[1]

والنملة أيضاً عيب من عيوب الخيل وهو شق فى الحافر من الأشـــعر الى المقطّ ، وفرس نمل القوائم إذا كان لايستقر « الجنون » داء يستوجب زوال العقل ، أو استتاره بحيث ينقص ، أو يعدم التمييز أو الشعور ، وهو إما مطبق

(١) قال ابن السيد : هذا البيت لا أعلم قائله ، وفيه روايتان : نخط بالخاء معجمة ، ونحط بالحاء غير معجمه ؟ فمن رواه بالخاء معجمة أراد بالنمل القروح التى تخرج في الجنب . يعرض برجل كان أخواله مجوساً . كذا قال ابن قتيبة فى كتاب المعانى وأنشد :

* ولا عيب الا نزع عرق لمعشر * . ومن روى نحطّ بالحاء غير معجمة فله معنيان : أحدهما أن يكون الحط الدلك من قولهم حططت الجلد اذا دلكته فيكون معناه كالمعنى فى رواية من رواه بالخاء معجمة . والثانى أن يريد بالنمل الحيوان المعروف ولايريد القروح فيكون تأويله انا لانحفر بيوت النمل نستخرج مافيها مهانة وخساسة . فيكون على هذا قد عرض بقوم كانوا يفعلون ذلك . والتفسير الصحيح هو الأول ، وهذا التفسير الثانى ليس بشيء ، وقد أنكره ابن قتيبة انتهى وقال أبو أحمد العسكرى إن الحاء المهملة تصحيف من ابن الأعرابى ذكره في كتاب التصحيف من كتابه . وبقى فى البيت كلام يطلب من الاقتضاب ص ٢٩٠

أو منقطع إما بأدوار معلومة أو لا « البيضة » من أنواع الصُّدَاع وهى ما عم فى قول أو خصَّ وسط الرأس « الخدر والفالج والافلاج » وهى متقاربة معلومة « البثور » واحدها بثرة وهى عبارة عن تأكل الجلد أو نتوؤه على أوضاع مخصوصة « الحَزَاز » من أمراض الرأس الظاهرة وهى خشونة منفصلة تنسلخ قشوراً كالنخالة . وقد يطلق هذا الاسم على القوابى « الحدبة » خروج بعض فقرات الظهر عن السمت الطبيعى بخلط ونحوه فتبرز « الطرش » وهو نقص السمع أو زواله وكذلك الصمم « الطلق » هو تغير المزاج عند إرادة الوضع « الجُشَاء » وهو من أمراض المعدة عند فساد حالة من حالاتها « الباسور » زيادات غير طبيعية جذبتها القوى الضعيفة على غير وجه طبيعى نحو الأغوار الباطنة كبطن الأنف والرحم والمقعدة وكثيراً مايطلق فيراد به باسور المقعدة ويقيد غيره « والناسور » عرق يتفتق منه قرح دائم « البهق » وهو داء كالبرص ويسمى الأسود منه عند كثير القوابى والحزازة والتعطيش ويسمى الأبيض منه الوضح . وفى المبادىء : وبه بهق بياض كالنكتة غير ناصع « والبرص » اذا تقشرت جلدته ونَصَعَ بياضه فاذا كان هناك وضح كالبرص قيل به برش ، وفسر البرص بأنه تغير اللون الى بياض أو سواد غير طبيعيين « الكلف » كدرة تعلو الوجه « والمغس والمَغَص » وجع فى الامعاء وتقطيع « والذُّبَحَة » الخناق وهى من تبيّغ الدم أى هيجانه وغلبته « الاستسقاء » وهو من أمراض الكَبِد أو الطحال ، وهو اسم لما خبث من الخلط « الاغماء » وهو من أمراض الباطن ويكون عاماً وخاصاً ، وحقيقته عجز البدن أو العضو عن فعل ما من شأنه فعله ككلالة بواسطة ما انصبّ اليه « الاختلاج » وهو حركة العضو والبدن غير ارادية تكون عن فاعل هو البخار ، ومادىّ هو الغذاء المبخر ، وصورى هو الاجتماع ، وغاذى هو الاندفاع « البَخَر » هو تغير رائحة الفم أو البدن بسبب تعفن الخلط « والفُوَاق » هو الذى يأخذ الانسان عند النزع ،

وكذلك الريح التى تشخص من صدره « والثُّؤَباء » نفس تفتح له فك مع تمطٍّ وفترة «والجشاءة» نفس من الصدر على شبع أورىّ «والقَلس» دسعة تخرج من الحلق عند الامتلاء . الى غير ذلك مما يطول استقصاؤه ، وكانوا يعالجون هذه الأدواء ونحوها بعقاقير جربوها أو بكيّ أو رقية ، وفى كتاب (زاد المعاد)و (الداء والدواء) تفصيل ذلك . والمقصود مما نقلناه أن القوم لم يكونوا غافلين عن هذا العلم الجليل غير أنهم لم يكونوا متقنين له كل الاتقان ، وذلك شأن كل من لم يتوغل فى الحضارة وما تقتضيه ؛ وفى مقدمة ابن خلدون كلام مفيد على هذا الموضوع ، والله الموفق لما يرضيه . ومن علومهم :

علم الريافة

وهو معرفة استنباط المـاء من الأرض بواسطة بعض الأمارات الدالة على وجوده فيعرف بعده وقربه بشم التراب ، أو برائحة بعض النباتات فيه ، أو بحركة حيوان مخصوص ، وهو من فروع الفراسة ، وهى موجودة فى بعض أعراب نجد ؛ وقد أخبرنى بعض الثقات أنه شاهد بعض هؤلاء قال : يضع أذنه على الأرض فيخبر بما يتبين له من وجود المـاء وعدمه وقربه وبعده ، فاذا حفروا وجدوا الأمر كما وصف ؛ ويسمى من له هذه المعرفة بين العرب اليوم (بالنصّات) ولا ينبغى لمن لا استعداد له لهذه القوة أن ينكرها فان كلَّ أمة من الأمم ، وكلَّ قبيلة من القبائل ، وكل فرد من الأفراد ، مختصٌّ بأشياء وهبت له ، ومنَّ بها عليه من العلوم والصنائع والمعرفة والأخلاق والسير والمحاسن والقبائح . ونحن نرى ألوفاً من الناس يتعاطون صنعة واحدة ، ويتدارسون علماً واحداً ، فلا يبرع منهم إلا الواحد بعد الواحد ، وكل يفاض عليه على حسب استعداده . ومن علومهم :

علم الاهتداء فى البرارى

وهو علم يتعرف به أحوال الأمكنة من غير دلالة عليه بالأمارات المحسوسة دلالة ظاهرة أو خفية بقوة الشامة فقط لا يعرفها الا من تدرب فيها كالاستدلال برائحة التراب ، ومسامتة الكواكب الثابتة ، ومنازل القمر ، إذ لكل بقعة رائحة مخصوصة ، ولكل كوكب سمت يهتدى به كما قال الله تعالى (وهو الذى جَعَلَ لكم النجومَ لتهتدوا بها فى ظُلُمات البرّ والبحر) ونفع هذا العلم عظيم بيّن والا لهلك القوافل ، وضلت الجيوش ، فضاعت فى البرارى والقفار . والعرب لوقوفهم على معرفة الكواكب والأنواء ومهب الرياح وصفاتها ، ولوجانهم فى البرارى والقفار ، كانوا أعرف الناس بهذا العلم ؛ ولا بد من إيراد مثال لذلك ليعلم من وقف على هذا المقام كيفية اهتدائهم واستدلالهم . فمن أراد منهم أن يسافر الى (مكة) نظر الى أثبت النجوم دلالة وأقواها وهو القطب الشمالى لأنه لا يزول عن مكانه ، ويمكن لكل أحد معرفته لكن تختلف دلالته باختلاف الأقاليم ، فبالعراق وما وراء النهر يجعله من قصد مكة من المسافرين خلف أذنه اليمنى ، وبمصر خلف أذنه اليسرى ، وباليمن قبالته مما يلى جانبه الأيسر ، وبالشام وراءه ، وقيل ينحرف بدمشق وما قاربها الى الشرق قليلاً ، ثم بعد ذلك الجدى والفرقدان ، والقطب نجم شمالى خفى حوله أنجم دائرة كفراشة رحى أو كسمكة فى أحد طرفيها الفرقدان ، وفى الطرف الآخر الجدى ، والقطب فى وسط الفراشة لا يبرح من مكانه دائماً ، ولا يراه إلا حديد البصر فى الليلة الظلماء ، ويستدل عليه بالجدى والفرقدين فانه بينهما ، والجدى هو الذى على طرف بنات نعش الصغرى ، فكواكب بنات نعش الصغرى سبعة : أربعة منها على شكل منحرف يسمى نعشاً ، والنيران منهما يسميان الفرقدين ، وثلاثة على خط معوج تسمى بناتاً ، وطرف الثلاثة النيّر يسمى الجدى ، فالقطب فيما بين الجدى والفرقدين كما ذكرنا

ومما يستدل به من قصد (الـكعبة) من العرب المجرة فانها تكون فى الشتاء أول الليل فى ناحية السماء ممتدة شرقاً وغربا على الـكتف الأيسر من الانسان اذا كان متوجهاً الى المشرق ثم تصير فى آخره ممتدة شرقاً وغربا أيضاً على كتفه الأيمن ، وأما فى الصيف فانها تتوسط السماء لـكن دلالتها أضعف من دلالة ما تقدم ، والمجرة كواكب صغار متقاربة متشابكة كثيرة جداً لا تمايز حساً بل هى لشدة تكاثفها وصغرها صارت كأنها لطخات سحابية ، وقيل غير ذلك ، ومما يستدل به على (الـكعبة) أيضاً الشمس والقمر ومنازلها الثمانية والعشرون وكذلك يستدل بما تقترن بهذه المنازل أو يقاربها فانها كلها تطلع من مشرق وتغيب بمغرب ، فالهلال يكون فى أول الشهر الى ثلاثة عن يمين قاصد الـكعبة عند غروب الشمس ، وفى ثالث ليلة يكون عند غروب الشمس أمامه ، وفى عاشر ليلة يكون على سمت الـكعبة وقت العشاء بعد مغيب الشفق الاحمر ، وفى الليلة الثانية والعشرين يكون على سمتها وقت طلوع الفجر ، وهذا كله على سبيل التقريب . ومما يستدل به الرياح ، ويعسر الاستدلال بها فى الصحراء ، وأما بين الجبال والبنيان فتدور وتختلف فتبطل دلالتها ، ومما يستدل به على الـكعبة الجبال الـكبار فكلها ممتدة عن ميمنة قاصدها الى ميسرته ، ودلالتها قوية تدرك بالحس لـكنها تضعف من حيث اشتباهها على ذلك القاصد هل يجعل ممتدها خلفه أو قدامه فتحصل الدلالة على جهتين والاشتباه على جهتين ، هذا اذا لم يعرف وجه الجبل فان عرفه استدبره لأن وجوهها للـكعبة ووجه الجبل ما فيه مصعده ، الى غير ذلك من الدلائل على كل جهة يقصدونها ؛ وكان من لم يعرف الطرق من العرب معيباً بينهم مذموماً عندهم : كل ذلك تحرزاً عن غلبة خصومهم وتطاول الاعداء عليهم ، والله الهادى الى سواء السبيل .

علم العرب بأدواء الخيل ودوائها وعيوبها ومحاسنها

قد سبق منا كلام موجز فى ذلك أواخر الجزء الثانى من هذا الكتاب وحيث انا بصدد تعداد معارفهم ، وذكر علومهم الفطرية ، أقتضى إعادة الكلام بأبسط مما ذكرناه أولاً . إعلم أن العرب كانوا فى معرفة شؤون الخيل وأحوالها بمنزلة لم يصل اليها غيرهم وربما بقيت هذه المعرفة فى أفراد منهم الى اليوم جائلين فى الفيافى والفلوات فيعرفون أدواءها ودواءها معرفةَ حاذق متقن ، ولهم فى ذلك قدم راسخة ، وباع طويل ، وروت عنهم ثقات الرواة أخباراً طريفة تستلذها الاسماع ؛ وقد جمع ما ورد عنهم فى هذا العلم ، وما شخصوه من أدواء الخيل ، وسائر ذوات الاربع مع وصف دوائها على أتم وجه وأبينه .

وقد وجدت منه نسخة سقيمة الخط ، غير مأمونة من الغلط ، فى خزانة كتب (المدرسة الاحمدية) إحدى مدارس بغداد المحمية ، فأمعنت النظر فيها ، والتقطت منها بعض الفرائد وغرر الفوائد ؛ وفى هذا العلم كثير من التصانيف القديمة والحديثة ؛ ومن أحسنها وضعاً ، وأتمها جمعا ، (كتاب الخيل) لابى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافىّ رحمه الله تعالى فانه لم يهمل فى كتابه هذا شيأ مما يتعلق بالخيل وغيرها من الدواب ، وقد ذكر طرفاً من عيوبها ، وما يستحب منها فى بابين من ذلك الكتاب ، ولعظم ما يترتب على هذين البابين من النفع للقارئين لخصتهما فى هذا المقام رجاء المثوبة والفوز بالمغفرة

عيوب الخيل

العيوب فى الخيل لا تحصى بعدّ ، ولا تعرف بحد ، فان كل عضو من أعضائها من الممكن أن يعرض له ما يعيبه أو يحسنه ، غير أن الذى ثبت عن العرب تسميته مائة عيب : فى جريها أربعة وعشرون ، وفى خلقتها ستة وخمسون وعشرون حادثة ، فأما التى فى جريها « فالطموح » وهو السامى ببصره صُعُداً فلا

يبالى أين وقعت قوائمه « والمنكس » وهو الذى اذا جرى طأطأ رأسه من ضعف خلقته «والجموح» الصلب الرأس الذى يعتز فارسه على رأسه حتى يغلبه «والمعتزم» وهو الذى يجمح أحياناً ويَدَعُ الجماح أحياناً « والغرب » وهو المدّاد المترامى الذى لا يُوَرِّعه الكف حتى يبعد بفارسه « والشموس » هو الذى يمنع السرج والمس « والحرون » هو الذى اذا درّ جريه قام لا عن كلال « والباخ » اذا انقطع جريه ضعفاً « والضغن » وهو الذى يَتَلَكَّأُ(١) ويتوقف فى الحُضْر ويقصر عن الحران « والخَفَّاش » وهو المستتب حضراً ثم يرجع القهقرى « والرَّوَّاغ » وهو الذى يجدّ فى حُضْره غير مستتب يميناً وشمالاً « والفَيُوش » وهو الذى يظن به جرىٌ وليس عنده شئ « والحيوص » وهو الذى يعدل يمينا وشمالاً فى استقامة حضر « والمشتق » وهو الذى يدع طريقه ويعدل ثم يمضى على عدوله لا يروغ ولا يحيص « والشبوب » وهو الذى يقوم على رجليه ويرفع يديه « والعاجِر والمُعاجر » وهو الذى يعجر برجليه كقُماص الحمار وهو أن يرفع برجليه ثم يضعهما معاً « والعَذُوم والعضوض » وهو الذى يعض ما سايره « والشادخ » وهو الذى يعدل عن طريقه ولا يبالى ما ركب « والجرور » وهو البطىء إعياء وقطافا فيُجَرُّ بالحبل « والمُنعَثِل » وهو الذى يفرّق بين قوائمه فاذا رفعها كأنما يَنزِعها من وَحَلٍ يخفق برأسه ولا تتبعه رجلاه « والمجربذ » وهو الذى يقارب الخطو يقرب سنابكه من الارض ولا يرفعها رفعاً شديداً . قال الشاعر :

جربذتْ دونها يداكَ وأزرى بك لؤم الآباء والأجداد(٢)

« والمشاغر » وهو أن تطمح قوائمه جميعاً متفرقة ويكون بعيد القدْر ولا ضَبْرَ له(٣) « والمتراد » هو أن ينقص حضره من ابتداء ما يجرى «والفاتر» هو الذى عجز عن نفسه وفتر فى حضره ولم تساعده قوائمه على ما يطالب به

(١) تلكأ عليه اعتل . وعنه أبطأ (٢) يقول : ضعف جريك لما سابقت وتقارب خطوك فعل الفرس المجربذ الذى لا يقوى على رفع قوائمه من الارض شديداً ولحقك ضعف بآبائك واجدادك ولؤمهم . (٣) الضبر: الوثب

نفسه « والمواكل » وهو الذى لا يسير الا بسير غيره وفيه وكال « والخروط » وهو الذى يخرط رسنه عن رأسه « والرَّموح » وهو الذى يرمح بإحدى رجليه « والضروح » وهو الذى يرمح بكلتيهما . وهذه الأربعة ليست من الباب ، وإنما بعضها من سوء العادة وفساد الرياضة .

العيوب التى تكون خلقة فى الخيل

وهى ستة وخمسون عيباً « الأخذَى » وهوالمسترخى أصول الأذنين على الخدين « والأمعَر » وهو الذى ذهب شعر ناصيته حتى لم يبق منه شىء « والأسفى » وهو الخفيف الناصية وهو محمود فى البغال « والأغم » وهو الذى تغطى الناصية عينيه « والأسعف » وهوالذى فى ناصيته بياض « والأحول » وهو الذي ابيض مؤخر عينيه وغار السواد من قبل مآقيه « والأزرق » الذى فى إحدى عينيه بياض أو فيهما « والأقنى » وهو الذى فى أنفه احديداب « والمغرب » وهو الذى تبيض أشفار عينيه مع زرقها « والأدنّ » وهو الذى اطمأن عنقه من أصله « والأهنع » وهوالذى اطمأن عنقه من وسطها « والأقصر » وهو الذى فى عنقه قصر ويُبْس معطف « والأكتف » وهو الذى فى أعالى كتفيه انفراج وانكشاف « والأزور » وهو أن تدخل إحدى فَهْدَتَيْ[1] صدره وتخرج الاخرى « والأقعس » وهو المطمئن الصُّلب من الصهوة[2] المرتفع القطاة والحارك « والابزخ » وهو المطمئن الصُّلب والقَطاة « والمخطف » وهو الذى لحق ما خلف مَحْزِمه من بطنه « والاهضم » وهوالمستقيم الضلوع الذى دخل أعاليه « والصقِل » وهوالطويل الصُّقْلَة « والانجل » وهو الذى خرجت خاصرته ورقّ صِفاقه وهو جلد البطن « والافرق » وهو الذى أشرفت إحدى وركيه على الأخرى « والارسح » وهو القليل لحم الصَّلا وهو ما أسهل من جانب

(١) فهدتا الفرس : لحمتان ناتئتان فى زوره . (٢) مقعد الفارس

الورك « والاعصل » وهو الملتوى عسيب الذنب حتى يبرز بعض باطنه الذى لاشعر عليه « والاكشف » وهو الذى التوى عسيب ذنبه حتى يصير على إحدى كاذتيه وهما لحم أعالى الوركين « والاصبغ » وهو المبيض الذنب « والاشعل » وهو الذى فى عرض ذنبه بياض « والاشرج » وهو ذو بيضة واحدة « والافحج » وهو الذى تباعد كعباه « والابد » وهو الذى تباعدت يداه « والاصك » وهو الذى يصطك كعباه اذا مشي «والاحلّ» المنمسح النّسا الرخو الكعب « والاقفد »وهو المنتصب الرُّسْغ المقبل على الحافر وهو فى الرجل خاصة «والاصدف» وهو الذى تدانى ذراعاه وتباعد حافراه فى التواء الرسغين « المُوَجَّه » وهو الذى به قليل صدَف قدر ما يشك فيه « والاقدر » وهو الملتوى الرسغ من عرضه الوحشىّ [1] « والأقسط » وهو الذى رجلاه منتصبتان غير منحنيتين « والأمدش » وهو المصطكّ بواطن الرُّسْغَيْن من شدة الفدع « والأحنف » وهو الملتوى الحافرين يقبل كل واحد منهما على صاحبه فى التواء الرسغين « والمتلقف » وهو الذى يخبط بيده فى استقامة لا يقبلها نحو بطنه « والأرجز » وهو المضطرب الرجل والكفل فاذا قام اضطربت فخذه « والشّخْت » القليل اللحم الحمش العظام [2] « والرّطل » وهو الضعيف الخفيف « والمكبون » وهو القصير الدوارج أى القوائم القريب من الأرض الرحيب الجوف « والعَشّ » وهو الضاحى العظام أى ظاهرها لقلة لحمه « والسَّغِلُ » وهو الصغير الجسم . قال سلامة يصف فرساً :

ليس بأسفى ولا أقنى ولا سَغِلٍ يُعطى دِوَاءَ قفىّ السَّكْنِ مربوبِ [3]

« والجأب » وهو القصير الغليظ . قال أبو دُؤاد :

أسيـل سلجم المُقْـ ـبِل لا شَخْتٍ ولا جأبِ [4]

(١) الايسر (٢) أى الدقيق العظام (٣) يقول : ليس هذا الفرس بخفيف الناصية ولا صغير الجرم ولا من الخيل التى فى أنوفها احديداب ، وهو يؤثر بما يعد لمن يكرم من أهل البيت ويربى بمختار الطعام . (٤) يقول : رقيق الخدّ مستطيله مصدر غليظ المقدم لا رقيق العظام ولا غليظها .

« والملواح » وهو الصغير السريع العطش « والصَّلُود » وهو البطئ العرق « والضاوى »وهو الذى أضواه [1] أبواه« والمقرف»وهو الذى أمه عتيقة وأبوه غير عتيق « والهجين » وهو الذى أبوه عتيق وأمه ليست كذلك« والمحمق » وهو الذى لا ينتج منـه إلا أحمق « والكوسِىّ » وهو الذى اذا جرى نكس فى إقراف كالحمار « والجاسِىّ » وهو الذى ترى معاقده وفَقَار ظهره [2] وعنقه فى تمعكه [3] وتمرغه جاسية غير لينة .

العيوب الحادثة فى الخيل

وهى على ما سبق عشرون « الانتشار » وهو انتفاخ العَصَب للاتعاب حتى حتى تنفتق وشائجه « والشَّظَى » وهو تحرك العظم اللاصق بالركبة « والفتوق » وتسميه العامة البيض وهو انفتاق من العصب على الأوظفة ويشدها كالمسامير عليها « والدخس » وهو ورم فى أطْرة الحافر « والزوائد » أطراف عصب تفرق عند العجاية«والعرن »جُسُوء ويبس فى رسغ الرجل خاصة لشقاق أو مشقة فيرم « والشقاق»تبزل يصيبه فىأرساغه وربما ارتفع الى أوظفته ويسمى (الحلاوة) . « والجَرَذ » ما حدث فى عرض عُرْقوبيه ظاهراً وباطناً من تزيد وانتفاخ عصب ويكون مع المفصل طولاً كالموزة « والملح » انفتاق من العصب أسفل العرقوب لمادة تنصب اليه كالبلوطة « والقمع » عظم قمعة العرقوب « والمشش » وهو كل ما شخص فى الوظيف وله حجم وليست له صلابة العظم « والارتهاش » وهو أن يصك بعرض حافره عرض عجايته من اليد الاخرى وربما أدماها وذلك لضعف يصيب يده « والرهصة » وهو ماء يصير فى الحافر « والوجى » وهو مايصيب الحافر من الخشونة والحجارة تأكله « والرَّقَق » وهو ضعف ورقة فى الحافر « والنملة » وهو شق فى الحافر من الأشعر الى طرف السُّنْبك « والسّرطان »

(١) الضوى : دقة العظم وقلة الجسم خلقة أو الهزال(٢)الفقار : ماانتضدمن عظام الصلب ، من لدن الكاهل الى العجب (٣) التمعك : التمرغ وهو التقلب والتلوى من وجع يجده .

وهو داء يأخذ فى الرسغ فيبيس عروقه حتى يقلب حافره « والعزل » وهو أن يعزل ذنبه فى شق عادة « والخِباق » صوت من ظبية الأنثى « والبَجَر » وهوأن تكون الرَّهَابة غير ملتئمة فيعظم ماوالاها من جلد السرّة « والرَّهَابة » عظم مشرف على البطن .

محاسن الخيل وما يستحب فيها من الخلق

ممـا يستحب فيها الأذن المؤلّلة [1] والناصية المعتدلة ، التى ليست بسفواء ولا غماء [2] ، والجبهة الواسعة ، والعين الطامحة السامية ، والخد الأسيل ، ورحب المنخُرَيْنَ ، وهَرت الشِدْقَيْن [3] ، وقَوَد العنق [4] ولينها حتى لا تكون جاسية ، ورقَّة الجحفَلتين [5] ، وارتفاع الكتفين ، والحارك والكاهل ؛ ويستحب أن يشتد مركب عنقه فى كاهله لأنه يتساند اليه اذا أحضر ، وعرَض الصدر ، وضيق الزَّوْر [6] ، وارتفاع اللَّبان [7] وأن يشتد حَقْوه [8] لأنه معلق وركبه ورجليه فى صلبه ، وعظم جوفه وجنبيه ، وانطواء كشحه ، وإشراف القَطَاة وقصر العسيب ، وطول الذنَب ، وشنج النَّسا (وهو التقبض فى الجلد وغيره واستواء الكفل حتى لا يكون أفرق) وملاسة الكفل ، وقصر الساقين ، وطول الفخذين ، وتوتير الرجلين حتى لا يكون أقسط [9] وتأنيف العُرقوب [10] حتى لا يكون أقع ، وغلظ الرُّسغ ، وقصر الرُّسغ ، وأن تكون الحوافر صلاباً سوداً أو خضراً . والشواهد على ذلك من كلام العرب مفصلة فى محلها .

---

(١) المحددة (٢) السفواء : الخفيفه ، والغماء : الكثيرة الشعر حتى تضيق الجبهة والقفا منه . (٣) الهرت : السعة . والشدق : جانب الفم (٤) القود : طول العنق (٥) الجحفلة بمنزلة الشفة للخيل والبغال والحمير . (٦) ملتقى أطراف عظام الصدر حيث اجتمعت (٧) الصدر (٨) كشحه (٩) هو الذى فى رجليه انتصاب (١٠) العرقوب : من الدابة فى رجلها بمنزلة الركبة فى يدها . وتأنيفه : تحديد طرفه .

ما كان للعرب من العلم بخلق الانسان

قد مرت على العرب شؤون وأطوار مختلفة، وأدوار متباينة، فى الترقى والانحطاط، فلا يمكن أن يستدل على أحوالهم بدور من أدوارهم بل أن لغتهم وشعرهم وأمثالهم تخبر عما كانوا عليه. فمن نظر الى الكتب المؤلفة فى بيان خلق الانسان، وما ورد عنهم فيما اشتمل عليه بدن كل حيوان، علم أن العرب فى سابق قرونهم كانوا ممن له إلمام ومعرفة بكيفية تركب أجزاء البدن وترتيبها، وما فيه من العروق والاعصاب والغضاريف والعظام واللحم، وغير ذلك من أحوال كل عضو، وما تركب منه، وما أعد له من الوظائف والمنافع، وهو العلم المسمى لدى المتأخرين (بعلم التشريح) فلا ينبغى أن نسلب عنهم هذا العلم بما حدث له من الاسم! والكتب المؤلفة فى خلق الانسان كثيرة ومن أحسن ما رأيت منها (كتاب خلق الانسان) للامام اللغوى أبى عبد الله محمد بن عبد الله الخطيب الإسكافى، فان كتابه جمع فأوعى حيث اشتمل على ترتيب سن الانسان من حين ولادته الى آخر عمره، وأسماء جملة خلق الانسان، والرأس وما تركب منه وماله من الصفات والشعر وأقسامه وألوانه، والاذن وما تركبت منه وأقسامها، والوجه وما تركب منه، والحاجب وأنواعه وما يحمد منه وما يذم، والعين وأصنافها وطبقاتها ومجارى دمعها وغير ذلك مما اشتملت عليه، والأنف وماتركب منه وبيان أقسامه، والفم وما تركب منه، والأسنان وعددها وأسماء أصنافها وأجزائها ومنابتها، واللسان وما اشتمل عليه من الأجزاء والعظام التى فى أسفله، والحلق وبيان ما فيه من اللغاديد، واللغانين [1] والحنجرة [2] والغلصمة [3] والباموم، والحلقوم واللحيان وبيان محلهما وأسماء ما تركبا منه، واللحية وأسماء أجزائها وأقسامها وألوانها وسائر

(١) جمع لغدود ولغنون وهما لحمة فى الحلق (٢) الحلقوم (٣) اللحم بين الرأس والعنق، أو المجرة على ملتقى اللهاة والمرئ أو أصل اللسان.

أوصافها ، والعنق وما تركبت منه ، والمنكب والكتف وما اشتملا عليه ، واليد وما تركبت منه من العظام والاعصاب والعضلات والعروق وما وضع لذلك من الاسماء ، والاصابع وأسمائها وأجزائها ، والظفر وأقسامه وأسمائه ، والصدر وما تركب منه ، والثديان وما فيهما ، والجنبان وعدد أضلاعهما وأسمائها وما يلحق ذلك ، والبطن وماحوى ، والجوف وما اشتمل عليه من القلب والكبد والطحال والرئة والكليتان والمصارين والأمعاء والأعفاج[1] والحشى والحَوَايا[2] والكرش والمبعر وما فى هذه الجوارح من الاجزاء وأسمائها وأدواء البطن وما لها من الأسماء ، والظهر وما تركب منه من العظام والعصب والعروق وغير ذلك ، والركب وما تكونت منه ، والذكر وما تركب منه ومغرزه وما وضع لذلك من الاسماء ، والأنثيين وأسماء ما فيهما من الأجزاء ، وبيان ما يعرض لذلك من الأدواء والعلل ، والفرج وما تركب منه وأسمائه ، وما انفردت به المرأة دون الرجل ، والرحم وموضعه وما تركب منه ، والوركين وما فيهما ، والدبر وما فيه ، والفخذين وما فيهما من الأجزاء وأسمائها ، والساق وما فيه ، والقدم وما اشتملت عليه ، والحمل والولادة وما يتعلق بذلك ، وقد أطنب المؤلف فى بيان كل واحد مما ذكر ، وبين موضعه ، وما اشتمل عليه ، وما وضع له من لغة العرب ، واستشهد على ما ادعاه بالشعر الجاهلى . وذلك مما لا يشك الواقف عليه أن للقوم الباع الطويل فى هذا العلم إذ لولاه لم يمكنهم الوقوف على مثل هذه الدقائق ، ووضع الاسماء لها ، لا سيما القلب وما فيه من العجائب ، ولغات الأمم شهود عدول على أحوال أربابها . ومن علومهم :

---

(١) جمع عفج بفتح فسكون وهو مايصير الطعام اليه بعد المعدة (٢) الامعاء

علم الرمي بالسهام

وهو علم يتعرف منه رمى النبال بالمزاولة ليكون عملها على وجه الاصابة وكان للعرب مزيد اعتناء بتعلم هذا العلم بالتلقى والعمل ، فان القسىّ والرمى بالسهم كانت من أنكى أسلحتهم ، ولم تزل كذلك الى أن ظهر ما ظهر من الأسلحة وقد ألف أهل الفضل قديماً وحديثاً فى علم الرمى بالقوس رسائلَ كثيرةً نظماً ونثراً ، وبينوا فيها كيف يقف الرامى ، وكيف يمسكها ، وحال الرمى قرباً وبعداً ارتفاعا وانخفاضاً ، وبيان أحوال السهام ، وبرى النبال ، وغير ذلك مما هو مفصل فى هاتيك الرسائل ؛ وهذا العلم فى الشريعة معتنى بشأنه ، وقد وردت نصوص فى الحث على تعلمه ؛ والمقصود من ذلك تعلم كل ما يعين فى الحرب ، ويكون من عدده وفنونه ، وكان العرب يتسابقون فى أشياء كثيرة ، ولهم لعب شهيرة مشحون منها كتب اللغة ، وقد أبطل الشرع السَّبَق (بفتح الباء) وهو المال الذى يؤخذ على المسابقة فى جميعها الا ما استثناه الحديث وهو قوله عليه السلام (لا سَبَق الا فى خف أو حافر أو نصل) أراد بالخف المسابقة على الابل ، وأراد بالحافر المسابقة على الخيل ، وأراد بالنصل المراماة بالسهم ، كل ذلك أباح فيه الخطر الذى كان عليه العرب أيام جاهليتهم لما فى ذلك من المصالح والفوائد التى تعين فى الحرب ، وتستوجب الفروسية ، ويجترئ بها الانسان على المناضلة والنزال ، والسبق فى غير الأخير قد مرَّ بيانه أثناء الكلام على الخيل ، وأما السبق بالنصل وهو المراماة بالسهم فهذا ملخص الكلام عليه من كتاب (عيون الفنون) وبالله نستعين :

المراماة بالسهم والسبق بالنصل

إعلم أن الاصابات على سبعة أوصاف . ذكر الإمام الشافعى رحمه الله منها أربعاً ، وذكر أصحابه ثلاثاً ؛ أما ما ذكره الشافعى فالخاصل والخازق والخاسق

والخابى : فالخاصل الذى يقرع الشنّ [1] ولا يخدشه ، والخازق الذى يخدشه ولا يثقبه ، والخاسق الذى يثقبه ويثبت فيه ، والخابى أن يدنى الرامى يده من الأرض فيرميه فيمر على وجه الأرض فيصيب الغَرَض [2] ؛ وأما ماذكره الأصحاب فالمارق والخارم والمزدلف : فالمارق الذى يمرق الشن أى يثقبه وينفذ فيه ، والخارم الذى يخرم طرف الشن أى يقطعه ، والمزدلف الذى يسقط بقرب الغرض ثم يشتن فيصيب الغرض .

النضال وأنواعه

النضال يتنوع ثلاثة أنواع : مبادرة ، ومحاطة ، ومناضلة ، فالمبادرة أن يشترطا أصابة عشرة من عشرين فيبتدر أحدهما الى العشرة فينضل صاحبه ، والمحاطة أن يقولا نرمى عشرين رشقاً على أن من فضل صاحبه بخمس إصابات فقد نضله ، فاذا اشترطا ذلك ، ورمى كل واحد منهما عشرين رشقاً وأصابا إصابات نظر إن استويا فى الإصابة لم يحصل النضل ، وإن تفاوتا فى الإصابة حط الأقل عن الأكثر ، فان بقى لصاحب الأكثر الخمس المشروطة فقد نضل صاحبه ، وإن بقى له أقل من الخمس المشروطة لم يحصل النضل ؛ والمناضلة أن يشترطا عشرة من عشرين على أن يستوفيا جميعاً فيرميان معاً جميع ذلك ، فان أصاب كل واحد منهما عشرة أو فوقها أو دونها لم يحصل النضل ، وإنْ أصاب واحد منهما دون العشرة والآخر عشرة فما فوقها فقد نضل صاحبه

القوس وما وضع لها ولأجزائها من الأسماء

كانت العرب تتخذ القسىّ من شجر الضّال والنبع والشَّوْحط والسدر والشِّرْيان والسراء والتين والأشكل والحماط والتَّألب والنَّشَم . وحيث كانت القوس لدى العرب بما ذكرناه من المنزلة وضعوا لها ولأجزائها أسماء كثيرة ،

(١) القربة الخلق الصغيرة (٢) الهدف يرمى فيه

ذلك شأن كل ما كان لهم به اعتناء ، ولحظوه بعين العناية ، فقالوا : القوس وكبدها مابين طَرَفَى العِلاقَة ، والكُلية تلى ذلك ، ثم الأبهر يلى الكلية ، ثم الطائف وهما طائفان الأعلى والأسفل ، والسِّيَة ما عُطِف من طَرَفيها ويدها أعلاها ورجلها أسفلها والعَجْس والمِعْجَس مقبضها ، وإنسيها ما أقبل على الرامى ، ووحشيّها ما الى الصيد ، والفرض والفرضة الحزة التى يقع فيها طرف الوتر المعقود ، ومافوق الفرضة الظفر ، والكُظْرة والنعل العقبة التى تلبس ظهر السية ، والجلائز العقب على طائفيها وأصول سِئَتَيْها ، والخِلَلُ الجلود التى على ظهر السئتين ، والمذروان ماعن يمين المقبض وشماله ، والرصائع السيور المضفورة تشد اليها العلاقة وهى التى علقت به ، والغِفارَةُ رقعة على الفرضة والسِّيَة ليلف فوقها إطْنابة الوتر ، وهى سير يوصل بطرف الوتر ، قال الشاعر :

لها إطْنابَةٌ ولها فضولٌ ... ثلاثٌ على الغفارةِ من مُعالِ (١)

أى من فوق . والشِّرْعة الوتر ، والدُّرْكة حلقة الوتر التى تقع فى الفرضة ، والعَتَل القسىّ الفارسيَّة ، وقوس فِلْق وشريجة اذا كانت من شقة لا غصن صحيح والقضيب التى من غصن صحيح ، وقوس فَجَّاء وفَجْوَاء ومُنْفَجَّة ، وفارج وفُرُج بانَ وتَرُها عن كبدها ، ويفعل ذلك بالتى للقتال لا الصيد يحتبس صاحبها بالتفويق ، والكَتُوم التى ليس فيها شق ، والعاتكة التى احمرت قدماً ، والجَشْء الخفيفة ، والمجْدلة التى فيها ميل ، وزاغت انقلبت عن عطفها الذى عطفت عليه ، وقوس عاطل ومعطلة بلا وتر وقد وترتها وحططت وترها ، وحط قوسك وانبضت عنها قرعتها للوتر ، ويقال أطَرْت القوس أى عطفتها وحنوتها وهى حنية . ويقال للقواس الماسخىّ وأصله لرجل من أزد السَّراة ، ثم اتسع فيه كما قيل لكل حداد هالكى قال الجعدىّ :

---

(١) يقول : لهذه القوس موصول مطرف الوتر ولها جلود تلف على الرقعة الجامعة لفرضتها وسيتها .

بعيسٍ تَعَطَّفُ أعناقُها كما عَطَّفَ الماسخيُّ القياسا(١)

وتقول نزعت في القوس ورميت عنها وعليها وبها ، وعروتا الوتر عقداه ،

السهم وما وضع له من الأسماء وما يتعلق بذلك

السهم والنَّشَّاب والمنزع والنبل سواء إلا أن النبل جمع لا واحد له من لفظه ، ويجمع على نبال . والمِرْماة سهم الهدف ، والمِرِّيخ سهم طويل له أربع آذان يُغالى به . قال الجعدي :

يَمُرُّ كمِرِّيخِ المغالي انتحتْ بهِ شمالُ عباديٍّ علا الريح أعسرا

(يقول : يمر هذا الفرس مر هذا السهم اذا أعمله في رميه يد رجل من هذه القبيلة أعسر ترمي شماله فتعين الريح على رفعه) والمِعْبَلة والمِشْقَص سهم عريض النصل ، وخشبه قبل أن يعمل نَضِيٌّ وجمعه أنضاء فاذا خرق موضع نصله فهو قِدْح . والمَخْشوب الذي لم يتم عمله ، وفوق السهم برد طرفه وجعل له فُوق وهو موضع الوتر ، وانفاق السهم انكسر فُوقه ، وشرخا الفوق جانباه ، والأُطْرَة العَقَب الذي على الفُوق ، والحَقْو موضع الريش ومستدقّه ، والزافرة مستغلظه والمتن وسطه ، والرُّعْظُ الخرق الذي يدخل فيه سِنْخُ النَّصْلِ ، والعَقَب الذي فوقه الرِّصاف والواحدة رَصَفَة ، ويقال برى القوس والسهم برياً ، والطريدة قصبة يوضع فيها السكين فتبرى بها القداح والمغازل ، والقُذذ ريش السهم ، والأقذّ السهم الذي لاريش له . والمَريش ذو الريش ، وراش سهمه بظهار لؤام اذا صير بطن قذة وهو الشق الأطول الى ظهر أخرى وهو الأقصر فيلتئم ، فان التقى بطنان أو ظهران فهو ريش لغب ولُغاب ، قال بشر :

وانَّ الوائليَّ أصاب قلبي بسَهْمٍ لم يَكُنْ يكسى لُغَابا(٢)

(١) يقول بابل بيض تنحني في السير أعناقها كانحناء هذه القسي التي يحنوها هذا القواس

(٢) ويروى :

فان الوائلي أصاب قوى بسهم ريش لم يكس اللغابا

والمعراض سهم لا ريش عليه يذهب عرضاً ، والنكس الذى انكسر فوقه فجعل أسفله أعلاه فلا يزال ضعيفاً ، ويشبه به الرذل من الناس ، والمحشور والحشر اللطيف القذذ ، ونبل قران وصيغة مستوية ، والمريط الذى تمرط ريشه وجمعه مراط ، وسهم طائش لا يقصد ، ومعظمط مضطرب ، وزالج يمر على وجه الأرض ، وصارد نافذ ، وحابض يقع بين يَدَى الرامى لخروج الفُوق من الوتر ، والدابر سهم يدبر الهدف دبراً أى يقع وراءه ، وصائف عادل عن الهدف ، وطالع يتجاوزه وقاصره لا يبلغه ، قال الشاعر :

فما بُقْيَا علىَّ تركتمانى ولكنْ خفتما صَرَدَ النِّبال(١)

والخاسق والخازق المقرطس جميعاً ، ويسمى الغَرَض قرطاساً يقال رمى فقرطس اذا أصابه ، والأهزع سهم يبقى فى الكنانة ، ونصل السهم حديدته وله العير كالجدَيِّر وسطه . وفى الصحاح : عير النصل الناتئُ منه فى وسطه ، وظُبَتُهُ وقُرْنته وحدّه وشَفْرتاه وغِراره حداه ، والكليتان ماعن يمينه وشماله ، والقطبة نصل الهدف ، وكذلك القترة والسِّرْوة ، ونصل مُدَمْلَكٌ ليس له عَرْض ، والقِطْعَ : القصير العريض الحديدة ، وما يحفظ فيها السهام تسمى الجعبة والوفضة والكنانة . والقرن والجفير جعبة مشقوقة فى جنبها ، وإنما يفعل ذلك لكى تدخل الريح على السهام فلا يأتكل ريشها . والله ولىُّ التوفيق . ومن علومهم :

علم نزول الغيث

هو علم باحث عن كيفية الاستدلال بأحوال الرياح والسَّحَاب والبرق على نزول المطر ، والعرب لهم مزيد اختصاص بهذا العلم لأنهم أحوج الناس الى الغيث إذْ به حصول معايشهم من السقى والرعى ، وقد حصل لهم هذا العلم بكثرة التجارب ، ودليله الدوران بين أحوال السحب والأمطار ؛ وقد ذكرنا عند الكلام على مخايل العرب فى الأنواء من كلامهم ما يوضح المقصود ويثبته ،

---

(٢) يقول : لم تتركانى وتتركا قتالى طلباً للابقاء علىّ ولكن خفتما سهامي التى تنفذ فيكما .

ومالم يذكر من منظوم كلامهم ومنثوره فى هذا الباب شئ كثير ! وفى الأغانى (١) لأبى الفرج الأصبهانى بسنده قال : خرج أعرابىّ مكفوف البصر ، ومعه ابنة عم له ، لرعى غنم لهما فقال الشيخ : أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى فقالت : أراها كأنها ربرب (٢) معزى هزلى ، قال : ارعى واحذرى ، ثم قال لها بعد ساعة : إنى أجد ريح النسيم قد دنا فارفعى رأسك فانظرى ، قالت : أراها كأنها بغال دهم تجر جلالها ، قال : ارعى واحذرى ، ثم مكث ساعة ثم قال : إنى لأَجِد ريح النسيم قد دنا فانظرى ، قالت : اراها كأنها بطن حمار أصحر ، فقال : ارعى واحذرى ، ثم مكث ساعة فقال : إنى لأجد ريح النسيم فما ترين ؟ قالت : أراها كما قال الشاعر :

دانٍ مسفٌّ فويقَ الأرض هَيْدَبُهُ ... يكاد يَدْفَعُهُ مَنْ قامَ بالرَّاح (٣)

كأنما بين أعلاه وأسفله ... رَيْطٌ منشَّرة أو ضَوْء مصباح (٤)

فمن بمحفله كمن بنجوته ... والمستكنّ كمن يمشى بِقِرْواح

فقال : انجى لا أبالك ! فما انقضى كلامه حتى هطلت السماء عليهما . ثم أخذ أبو الفرج يشرح تلك الألفاظ ، وملخص ذلك : أن الأصحر : الأبيض وفيه حمرة ، ومعنى فمن بمحفله كمن بنجوته : فمن هو بمحفله أى مجرى معظم السيل كمن بنجوته أى ناحية عنه سواء لكثرة المطر ، والقرواح الفضاء ، ومن تتبع كتاب الأغانى يجد كثيراً من ذلك ، وحيث إن الرياح وأوصافها ، والسحب وأنواعها ، والرعد والبرق ، من جملة ما يستدلون به على هذا العلم ، ويتوصلون به الى معرفة نزول الغيث ، لابد من التعرض لذكر نبذة ممـا ورد عنهم فى هذه الأمور مما رواه ثقات الرواة :

---

(١) ج ١٠ ص ٦ — طبعة مطبعة التقدم بمصر (٢) الربرب : القطيع من بقر الوحش

(٣) المسفّ : الدانى من الارض . والهيدب : السحاب الذى يتدلى ويدنو مثل هدب القطيفة .

(٤) الريط : جمع ريطة وهى كل ثوب لين رقيق .

الرياح وأوصافها

أمهات الرياح أربع : الشمال ، والجنوب ، والصبَا ، والدبور ؛ وبذلك نطقت أشعارهم « فالشمال » مهبها من كرسى بنات نعش الى مغرب الشمس صيفاً ، وكانت العرب تكرهها لبردها وذهابها بالغيم والحيا والخِصْب بزعمهم ، وهى عندهم الشامية ، ولم تزل العرب تتمادح بالانفاق والكرم اذا هبت هذه الريح «والجنوب» مهبها من مطلع سهيل الى مطلع الشمس شتاء « والصَّبَا » مهبها من مطلع الشمس الى مطلع العيوق وهو كوكب نيّر أحمر شمال مطلع الثريّا قدر ثلاث قامات رمح أو أرجح نظراً للرائى ويسمى رقيب الثريّا ، وكانت العرب تحب الصبا من بين الرياح لرقتها ولأنها تجىء بالسحاب والمطر ، وفيها الرىّ والخِصْب وهى عندهم اليمانية . قيل : إنما سميت صبا لأن النفوس تصبو اليها لطيب نسيمها وروحها والصبوة الميل . يقال : صبا الى كذا اذا مال اليه ، وفى الأثر ما بعث نبىّ الا والصّبا معه « وأما الدبور » فمهبها من مغرب الشمس الى مطلع سهيل . وما بين كل واحدة من هذه الرياح الاربع نكباء وسميت بذلك لتنكبها طريق الرياح المعروفة . ولكل من هذه الرياح صفات وخواص يعرفها ذوو الخبرة منهم ، وتفصيل ذلك فى كتب الأنواء . وقال الشيخ أبو عبد الله الاسكافىّ فى كتاب المبادى عند الكلام على الرياح : الشمال عن يمين المصلى ، وبازائها الجنوب ، والصبا من وراء المصلى ، والدبور تجاهه ؛ ولعل ذلك باعتبار بعض الأقطار ، وإلا فالأصل ما ذكرناه . ثم قال : وكل ريح عدلت عن مهابّ هذه الأربع فهى نكباء ، ونسمت الريح تنسم نسماً ونَسَماناً ضعفت فى استقامة من غير أن تحرك شجراً أو تعفو أثراً . ويقال للشمال الجِرْبياء ونَحْوة ونِسع ومِسع ، وفى الصحاح : الجربياء على فعلياء بالكسر والمد النكباء التى تجرى بين الشمال والدَّبُور وهى ريح تقشع السحاب . قال ابن أحمر :

بهَجْل من قساً ذفر الخُزَامى تهادى الجِرْبياء به الحنينا (١)

وَللجنوب النُّعامى والخزرج والأزيب والهيف ، وللصبا القبول وإيرٌ وهيرٌ ، وأيرٌ وهَيِّرٌ ، وقيل للدبور مَحْوَة ، ومن أوصافها الغالبة عليها : الديدانةُ اللينة كالنسيم ، والذاريات والمعصرات تجئ بالمطر ، وقيل الساطعة بالسماء مستديرة ، واللواقح والبوارح والرُّخاء والجفول المسرعة . والجافلة والمُجْفِلُ والنائجة والهُوج والسوافى والخَرُوق والنَّوُّوج والمتذابة التى تجىء من هنا وثَمَّةَ ، والمُسفْسِفة تجرى على وجه الأرض ، والدَّروج هى التى يرى لها مثل ذيل الرَّسَن فى الرمل ، والخَجُوج والسَّيْهوج والسَّهوج والسَّهوك والهَفْهافة والهَبْوة والمُدَعْذِعة وهدوج والهجوم والعاتية والعاصفة والمعصفة والقاصفة : التى تكسر كل شىء ، والزعازع والإعصار والَحنون والزفزافة والروامس والنافجة : أول كل ريح بشدة (الرياح الباردة) الحرجف والصرصر والعَرِيَّة وخازم ، والبَليل فيها برد وندى ، والشّفان والهلاّب والنضيضة وهى التى تنضُّ بالماء فيسيل (الرياح الحارة) السُّهام والهيف والبارح والسموم بالنهار وقد تكون بالليل ، والحرور بالليل وقد تكون بالنهار والمعمعان

السحب وأنواعها

قد ذكر الثعالبى نبذة من أنواعه وأسمائها فى القسم الأول من كتاب لباب الآداب ، وكذا الشيخ أبو اسحق الطرابلسى فى الكفاية ، والاسكافىّ فى المبادىء وغيرهم من أئمة اللغة . فمن السحاب « العَمَاء » وهو الغيم الرقيق وكذلك الطخاء والطهاء « والصبر » السحاب الأبيض « والَحبىُّ » السحاب الذى يعترض اعتراض الجبل قبل أن يطبق السماء . قال امرؤ القيس :

---

(١) الهجل : المطمئن من الارض ، وقساً : موضع بعينه . والخزامى : نبت طيب الريح . والذفر : الطيب الريح . وتهادى الجربياء : كثر حنينها ويروى « تداعى الجربياء » والبيت من أبيات لخالف فى وصف ظليم . راجع تهذيب المنطق للتبريزى ج ١ ص ٧٣ من الطبعة المصرية .

أصاح ترى برقاً أريك وميضه ... كلمع اليدين فى حَبِىٍّ مكلّل

والحبا كعصا مثـله . ويقال سمى به لدنوه من الأرض « والنِّشَاص » السحاب المرتفع بعضـه فوق بعض « والمكفهِرّ » السحاب الغليظ المتراكب والكَنَهْوَر نحوه « والجهام » وهو السحاب الذى قد أراق ماءه « والهف » الذى لا ماء فيه والزبرج نحوه « والصُّرَّاد » سحاب بارد ندى وليس فيـه ماء « والغمام والمزن » السحاب الأبيض « والرَّباب » السحاب الأبيض والأسود . وفى الكفاية : الرَّباب السحاب المتعلق دون السحاب « والسَّيِّقُ » وهو السحاب الذى طردته الريح « والخَلَقُ » السحاب الذى يرجى منه المطر « والنجاء » السحاب الذى يسرع « والهَيْدَب » ما يتدلى من السحاب كأنه هدب القطيفة « والجِلْبُ[1] » السحاب الرقيق الذى ليس فيه ماء . قال تأبط شراً :

ولست بِجِلْبٍ جلب ريح وقرّةٍ ... ولا بصفاصلد عن الخير معزل[2]

وبعضهم يقول : هو السحاب الذى يعترض كأنه جبل وليس فيـه ماء « والدجن » السحاب المطل على الأرض . قال أبو زيد : والدُجُنَّة من الغيم المطبق تطبيقاً الريَّان المظلم الذى ليس فيه مطر ، يقال يوم دجن ويوم دجنة ، وكذلك الليلة على الوجهين بالوصف والاضافة . قال : والداجنة المـاطرة المطبقة نحو الديمة ، قال : والدجن المطر الكثير وسحابة داجنة ومدجنة وأدجنت السماء دام مطرها قال لبيد :

من كلِّ سارية وغادٍ مُدْجنٍ ... وعَشيةٍ متجاوبٍ إرْزامُها[3]

« والمرزم » السحاب المصوت بالرعد والارزام صوت الرعـد ، وكذلك الهزيم والمرتجس والأجش . وبعضهم يقول : هزيم الرعد صوته ، يقال تهزم الرعد تهزماً وغيث هزم متبعق لا يستمسك ، قال يزيد بن مفرغ :

(١) بالضم ويكسر (٢) يقول : لست برجل لانفع فيه ومع ذلك فيه أذى كذلك السحاب الذى فيه ريح وقر (أى برد) ولا مطر فيه . (٣) السارية : السحابة الماطرة ليلا . والمدجن الملبس آفاق السماء بظلامه لفرط كثافته . والارزام : التصويت .

سقى هَزِمُ الارعاد منبجسُ العُرى ... منازلَها من مَسْرُقانَ فَسُرَّقا(١)

« والقاصب » السحاب الشديد صوت الرعد « والبارق » السحاب الذى فيه برق ، والقَلَعَةُ القطعة العظيمة من السحاب والجمع قلع قال ابن أحمر :

تفقأ فوقَهُ القَلَعُ السوارى ... وجُنَّ الخازباز به جُنُونا(٢)

والقَزَعُ قطع من السحاب رقيقة الواحدة قزعة . قال ذو الرُّمّة يصف ماء فى فلاة :

ترى عُصَبَ القَطَا هملاً عليها ... كأنَّ رِعالَهُ قزع الجهام(٣)

وفى الحديث : « كأنهم قَزَعُ الخريف » والضبابة سحابة تغشى الأرض كالدخان والجمع الضباب .

الرعد والبرق

من جملة ما يستدلون به على نزول الغيث الرعد والبرق ، فان الرعد اذا أرزم أى صوَّت صوتاً غير شديد استدلوا به على بعد المطر ، واذا تهزَّم أى صوَّت أشدَّ صوت استدلوا به على قرب المطر ، والقعقعة تتابع صوته فى شدة وله دلالة أخرى على حال الغيث ، والرَّجسان وهو صوته الثقيل فاذا رَجَسَ علموا أن المطر يكون بشدة ، واذا أصعق أى رمى بالصاعقة وهى نار تسقط فى رعد شديد ، واذا أزّ ورزّ أى صوت الرعد من بعيد ، قال الراجز :

جارتنا من وائلٍ الا اسلمى ... الا اسلمى أُسقيتِ صوب الدِّيَمِ

صوبَ ربيعٍ باكرٍ لم ينمِ ... يرزُّ رَزًّا من وراءِ الأكمِ

---

(١) مسرقان : نهر بخورستان عليه عدة قرى وبلدان يسقى ذلك كله ومبدؤه من تستر ، وسرق : كورة بالاهواز ومدينتها (دورق) . وموضع بظاهر مدينة سنجار . (٢) تفقأت السحابة عن مائها : تشققت وتبعجت . والسواري : جمع سارية وهى السحابة الماطرة ليلا والخازباز : صوت الذباب سمى الذباب نفسه به . والهاء فى (فوقه) و (به) عائدة الى (مجلل) فى البيت قبله وقد مر فى ص ٣٦١ . (٣) العصب : جمع عصبة وهى الجماعة من الناس والخيل والطير . وقوله « هملا عليها » أى سدى ترعى بغير راع . والرعال : الجماعات . والجهام : السحاب الذى لا ماء فيه أو الذى قد هراق ماءه .

رز الرَّوَايا بالمزَاد المُعصَم (١)

« وأما البرق » فمنه المستطير وهو المتفرق ، ومنه السلسلة وهي برقة دقيقة بالنهار ، ومنه الوميض وهو الضعيف من البرق ، ومنه الخافق وهو المضطرب ، والخفو لأخفى ما يرى منه ، ومنه المتكلح ، وهو المستديم المتتابع ، ومنه الرامح والماصع وهو السريع الخفيف ، ومنه الخُلَّب وهو الذى ليس فيه مطر كانه يخلب من تشيمه (٢) أى يخدعه ، ومنه البرق المنعقق ، والانعقاق تشقق البرق ومثله التبوج ، وقد سبق فى الحديث وكثير من منثور العرب ، فى مخايل العرب فى الأنواء كيف استدلوا بذلك على الغيث ونزوله ، وما ذكرناه نبذة يسيرة ملخصة من كلام الأئمة فى بيان مقصدنا ، ومن أراد استيعاب ذلك فعليه بمفصلات كتب اللغة والأدب

ما كان للعرب من المعرفة بعلم الملاحة

إعلم أن من العرب من كان يسكن جزيرتهم سواحل بحر القُلْزُم ، ومن جهة الجنوب بحر الهند المتصل به بحر القُلْزُم ، ومن جهة الشرق بحر فارس الخارج من بحر الهند إلى جهة الشمال إلى بلاد البحرين ، وهنالك بلاد كثيرة من اليمن والحجاز وعمان والبحرين ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، وكان سكنة هذه الأقطار والبلاد كلهم من العرب ، ولهم متاجر فى الهند والحبشة والروم وغيرهم ، فكانوا ممن تمس حوائجهم الى ركوب البحر ، ومعاناة سيره ، والقيام بما يعين على ذلك وهو (علم الملاحة) الذى أطنب المؤلفون الكلام عليه ؛ وفى عدة آيات من الكتاب الكريم دلالة على ركوبهم البحر ، وجرى الفلك بهم ، واهتدائهم

(١) يقول : يا أيتها المرأة المجاورة لنا من هذه القبيلة كونى فى سلامة وسقاك الله تعالى حيث حللت الحيا حتى تجنى إبلك ويسمن مالك مطراً لاينقطع ولا يغفل عن سقى محلك بصوت من وراء الجبال الصغار لشدة وطئه كصوت الروايا المملوءة ماء اذا اضطرب الماء فيها فسمعت له طبطبة كطبطبة السيل (٢) شام البرق : نظر اليه أين يقصد وأين يمطر .

فى سيرها اذا اشتد الظلام بنجوم السماء وكوا كبه المعلومة لديهم ؛ وكذلك فى الأحاديث ما يفيد ذلك ، وفى شعرهم أيضاً ما يستدل به على ما ذكرناه . قال عمرو بن كلثوم التغلبى فى معلقته :

ملأنا البَرَّ حتى ضاق عنا وماء البحر نملؤه سفينا
اذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ تخرُّ له الجبابرُ ساجدينا

يقول : عممنا الدنيا براً وبحراً فضاق البر عن بيوتنا والبحر عن سفيننا ، واذا بلغ صبينا وقت الفطام سجدت له الجبابر من غيرنا ؛ وقال طَرَفَةُ بن العبد البكرى :

كأنَّ حُدوجَ المالكيةِ غُدْوَةً خلايا سَفينٍ بالنواصفِ من دَدِ (١)
عَدَوْليةٌ أو من سَفينِ ابن يامنٍ يجورُ بها المَلّاحُ طَوْراً ويهتدى
يَشُقُّ حُبابَ الماءِ حَيزُومُها بها كما قَسَمَ التُّرْبَ المفايلُ باليدِ (٢)

العدولية : سفينة منسوبة الى قرية فى البحرين يقال لها عَدَوْلَى ، وبعضهم يقول عدولى قبيلة من قبائل العرب والعدولى الملاح ، وابن يامن : رجل من أهل تلك القرية ، وروى أبو عبيدة (ابن نبتل) وهو رجل آخر منهم ، والشعر فى هذا الباب كثير ، وفى لغتهم أيضاً ما يستدل به على ما ذكرناه : فالمركب اسم لما يركب فى البر والبحر ، والسفينة وهى الجارية من سفنه يسفنه قشره ، وسميت بذلك لقشرها وجه الماء جمعها سفائن وسفن وسفين ، وصانعها سفان ، وحرفته السفانة ، والدسار واحد الدسر وهى خيوط تشد بها ألواح السفينة ، ويقال هى

---

(١) الحدوج : جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء . والمالكية منسوبة الى بنى مالك قبيلة من كلب . والخلايا : جمع خلية وهى السفينة العظيمة . والسفين : جمع سفينة والنواصف : جمع ناصفة وهى أماكن تتسع من نواحى الاودية مثال السكك وغيرها . ودد : قيل اسم واد فى هذا البيت . وقيل : دد مثل يد اللهو واللعب . (٢) حباب الماء : أمواجه الواحدة حبابة : والحيزوم : الصدر . والفيال : ضرب من اللعب وهو أن يجمع التراب فيدفن فيه شئ ثم يقسم نصفين ويسأل عن الدفين فى أيهما هو ؟ فمن أصاب قمر ومن اخطأ قمر . شبه الشاعر شق السفن الماء بشق المفايل التراب المجموع بيده .

المسامير . وفى التنزيل (وحملناه على ذات ألواح ودُسُر) ودسْر أيضاً مثل عُسُر وعُسْر . قال بشر :

مُعَبَّدَة السقائف ذات دُسْرٍ   مُضبَّرة جوانبها رداح (١)

والمجداف ما تجدف به السفينة ، قال ابن دريد : مجداف السفينة بالدال والذال جميعاً لغتان فصيحتان ، وهو مأخوذ من جدف الطائر يجدف جدوفاً اذا كان مقصوصاً فرأيته اذا طار كأنه يردّ جناحيه الى خلفه و القِلْع بالكسر الشِّراع والجمع قلاع ، قال قائلهم :

يكبّ الخلية ذات القلاع   وقد كاد جُؤجُؤُها ينحطم (٢)

وسفن مقلعات اذا كان لها قلاع ، وأقلعت السفينة رفعت شراعها ، والشراعة كالملاءة الواسعة فوق خشبة تصفقه الريح فتمضى بالسفينة ، جمعه أشرعة وشرع ، والدَّقَل سهم السفينة وأصله الأول . والقلس حبلها ويسمى الجمل وهو حبل ضخم من ليف أو خوص من قلوس السفن والجؤجؤ صدرها ، والكَوْثَلُ ذنبها . والمردى والقيقلان خشبة يدفع بها السفينة ورأسها فى الأرض ، قال شاعرهم :

وجاريةٍ قعدتُ على صلَاها   أدارىءصَدْرَها بالقيقلان (٣)

والمِرساة آلة ترسى بها السفينة وتسميها الفرس (لنكر) وهى حديدة تلقى فى الماء متصلة بالسفينة فتقف ، والمَرْساة بفتح الميم البقعة التى رست فيها السفينة . والرُّبَّان بالضم رئيس الملاحين كالربانى ،والنُّوتى الملاح والجمع النَّواتى ، والعَرَكىّ الملاّح أيضاً ، والملاح الذى يلى الشراع ، والمِلاح ككتاب ريح تجرى بها السفينة ، والنُّوْلُ جُعْلُ السفينة ، الى غير ذلك مما هو معلوم للمتتبع ؛ ومن أسماء السفينة : الفلك ، والقُرْقُور ، والجارية ، والخلية ، أسماء للسفينة الكبيرة . ومن أسماء الصغيرة

(١) المعبدة : السفينة المقيرة ، والرداح : الواسعة (٢) الخلية : السفينة العظيمة ، والجؤجؤ : الصدر ، وينحطم : ينكسر (٣) يقول : ورب سفينة قعدت على مدفرها أقوم مقدمها بالمجداف .

الزورق والبوص وقال الجوهرى : والبُوصىُّ ضرب من سفن البحر وهو معرب ، قال الأعشى :

مثل الفراتىّ اذا ماطمى　　يقذفُ بالبُوصىّ والماهر (١)

والقارب سفينة صغيرة تكون مع أصحاب السفن البحرية تستخف لحوائجهم .

وعلم الملاحة علم واسع موقوف على معارف كثيرة : منها معرفة سموت الأبحر ، ومعرفة مهاب الرياح وعواصفها ورخائها وممطرها وغير ممطرها وسائر الأنواء ، ومعرفة مافى البحر من الجبال والجزر ، ومعرفة صناعة النجارة . فقد قال ابن خلدون : قد يحتاج الى صناعة النجارة فى إنشاء المراكب البحرية ذات الألواح والدسر ، وهى أجرام هندسية صنعت على قالب الحوت ، واعتبار سبحه فى الماء بقوادمه وكلكله ، ليكون ذلك الشكل أعون لها فى مصادمة الماء ، وجعل لها عوض الحركة الحيوانية التى للسمك تحريك الرياح ؛ وربما أعينت بحركة المقاذيف كما فى الأساطيل الى آخر ما قال . وأنت تعلم أن السفن فى قديم الزمان ، لم تكن صناعتها متقنة كل الاتقان ، فماء ولا كصدّاء (٢) ، ومرعى ولا كالسعدان (٣) .

كتابة العرب فى الجاهلية

كتابة العرب فى الجاهلية مما دل عليه شعرهم ولغتهم ، قال لبيد بن ربيعة :

وجلا السّيولُ عن الطلُول كأنها　　زُبُرٌ تُجِدُّ مُتُونَها أقلامُها

يقول : وكشفت السيول عن أطلال الديار فأظهرتها بعد ستر التراب إياها ، فكأن الديار كتب تجدد الأقلام كتابتها ؛ شبه كشف السيول عن الأطلال

(١) الفراتى : الماء المنسوب الى الفرات . وطمى : ارتفع . والبوصى : يطلق على الزورق وعلى الملاح . والماهر : السابح المجيد . (٢) مثل يضرب لما يحمد بعض الحمد ويفضل عليه غيره . أى هذا مما لا بأس به ولكن ليس كماء صداء وهى بئر أو ركية لم يكن عند العرب ماء أعذب من مائها . (٣) يضرب للشئ يفضل على أقرانه وأشكاله . والسعدان : نبت أخثر العشب لبناً واذا خثر لبن الراعية كان أفضل مايكون وأطيب وأدسم . ومنابت السعدان السهول وهو من أنجع المراعى فى المال ولا تحسن على نبت حسنها عليه .

التي غطاها التراب بتجديد الكتاب الدارس ، وظهور الاطلال بعد دروسها بظهور السطور بعد دروسها ؛ وقال رجل كندى من دومة الجندل يمن على قريش:

(و) لا تجحدُوا نعماء بشرٍ عليكم فقد كان مَيْمُونَ النقيبةِ أَزْهَرَا [1]
أتاكم بخطِّ الجزم حتى حَفِظتمُ من المال ما قد كان شتّى مُبعثَرا
وأنفيتم ما كان بالمال مهملاً وطامنتم ما كان منـه مبقرا
فأجريتم الأقلامَ عوداً وبدأةً وضاهيتُمُ كتَّابَ كسْرَى وقَيْصَرَا
وأغنيتمُ عن مسند الحيّ حِمْيراً وما زبرتْ في الصحف أقلام حميرا

فان أول من كتب بخطنا هذا (وهو الجزم) مرامرُ بن مرة وأسلم بن سدرة وعامر بن جدرة كما فى القاموس ، وهم من طيّ تعلموه من كاتب الوحي لهود عليه السلام ، ثم علموه أهل الأنبار ، ومنهم انتشرت الكتابة فى العراق الحيرة وغيرها ، فتعلمها بشر بن عبد الملك أخو أكيدر بن عبد الملك صاحب دومة الجندل ، وكان له صحبة بحرب بن أمية لتجارته عندهم فى بلاد العراق فتعلم حرب منه الكتابة ، ثم سافر معه بشر الى مكة ، فتزوج (الصهباء بنت حرب أخت أبي سفيان) فتعلم منه جماعة من أهل مكة ،فلهذا كثر الكتاب فى قريش يومئذ فامتن الكندى على قريش بذلك . وسمى خط العرب بخط الجزم لأن الخط الكوفى كان أولاً يسمى الجزم قبل وجود الكوفة لأنه جزم أى اقتطع وولد من المسند الحميرى ، ومرامر هو الذى اقتطعه . . وقد تكلم الصُّولى فى (أدب الكتاب) على هذه المسألة ، وأتى بباب مفيد لخص فيه ما ثبت لديه من الاقوال ، وكذا السيوطى فى المزهر ، وجماعة من أهل الادب ؛ وكتب ابن خلدون فى مقدمته فصلاً مفيداً يتعلق بغرضنا ، وبين أن الكتابة فى العرب كانت أعز من بيض الأنوق وأن أكثرهم كانوا أميين ولا سيما أهل البدو ، ومن قرأ منهم أو كتب كان خطه قاصراً وقراءته غير نافذة ، لأن هذه الصناعة من الصنائع

---

(1) ميمون النقيبة . مبارك النفس مظفر بما يحاول

التابعة للعمران ، ولهذا قد كان الخط العربى بالغاً مبالغه من الإحكام والاتقان والجودة فى دولة التبابعة لما بلغت من الحضارة والترف وهو الخط المسمى بالحميرى وانتقل منها الى الحيرة لما كان بها من دولة آل المنذر نسباء التبابعة فى العصبية والمجددين لملك العرب بالعراق ، ولم يكن الخط عندهم من الإجادة كما كان عند التبابعة لقصور ما بين الدولتين ، وكانت الحضارة وتوابعها من الصنائع وغيرها قاصرة عن ذلك . قال : ومن الحيرة لقنه أهل الطائف وقريش . ويقال : إن الذى تعلم الكتابة من الحيرة هو سفيان بن أمية أو حرب بن أمية ، وأخذها من أسلم بن سدرة ؛ وهو قول ممكن وأقرب ممن ذهب الى أنهم تعلموها من إياد أهل العراق لقول شاعرهم وهو أمية بن أبى الصلت الثقفى :

قومى إياد لو أنهم أمم أو لو أقاموا فتهزل النعم
قوم لهم ساحة العراق اذا ساروا جميعاً والخط والقلم

وهو قول بعيد لأن إياداً وان نزلوا ساحة العراق فلم يزالوا على شأنهم من البداوة والخط من الصنائع الحضرية ، وانما معنى قول الشاعر : انهم أقرب الى الخط والقلم من غيرهم من العرب لقربهم من ساحة الأمصار وضواحيها ، فالقول بأن أهل الحجاز إنما لقنوها من الحيرة ، ولقنها أهل الحيرة من التبابعة وحمير هو الأليق من الأقوال ؛ وكان لحمير كتابة تسمى المسند حروفها متصلة ، وكانوا يمنعون من تعلمها الا باذنهم ، ومن حمير تعلمت مضر الكتابة العربية إلا أنهم لم يكونوا مجيدين لها شأن الصنائع اذا وقعت بالبدو فلا تكون محكمة المذاهب ، ولا مائلة الى الاتقان والتنميق لبون ما بين البدو والصناعة ، واستغناء البدو عنها فى الأكثر ؛ وكانت كتابة العرب بدوية . وأما مضر فكانوا أعرق فى البدو ، وأبعد عن الحضر من أهل اليمن وأهل العراق وأهل الشام ومصر ، فكان الخط العربى لأول الاسلام غير بالغ الى الغاية من الإحكام والاتقان والاجادة ، ولا الى التوسط ، لمكان العرب من البداوة ، وبعدهم عن الصنائع ،

ثم قال : واعلم أن الخط ليس بكمال فى حقهم اذ الخط من جملة الصنائع المدنية المعاشية ، والكمال فى الصنائع إضافى ، وليس بكمال مطلق إذ لا يعود نقصه على الذات فى الدين ولا فى الخلال ، وانما يعود على أسباب المعاش ، وبحسب العمران والتعاون علية لأجل دلالته على مافى النفوس ؛ وقد كان صلى الله تعالى عليه وسلم أمياً وكان ذلك كمالاً فى حقه وبالنسبة الى مقامه لشرفه وتنزهه عن الصنائع العملية التى هى أسباب المعاش والعمران كلها ، وليست الأمية كمالاً فى حقنا نحن إذ هو منقطع الى ربه ، ونحن متعاونون على الحياة الدنيا شأن الصنائع كلها حتى العلوم الاصطلاحية ، فان الكمال فى حقه هو تنزهه عنها جملة بخلافنا

فوائد لغوية تتعلق بالكتابة وآلاتها

من أدلة وجود الكتابة فى العرب مافى لغتهم من الألفاظ الموضوعة لآلات الكتابة والكتاب ، ولو لم يعرفوها لم يضعوا تلك الألفاظ لمعانيها ؛ فمن ذلك الدَّوَاةُ وجمعها دَوًى ودَوَيات ودُوِىّ ، وقولهم لموضع المَليق مَلْقَة خطأ والصواب ملاقَةٌ لأن المليق ميمه زائدة وهو من لِقْتُ الدواة أليقها وألقتها ، والمليق اسم القطن أو الصوف الذى يلصق به المداد ، وهو من قولك لاقَ به الشئُ يليق اذا لصق به فلا تدخل ميم زائدة على ميم أخرى مزيدةٍ . وسمى المداد مداداً لأنه يمد الكاتب ، ومددت الدواة صببت فيها ماء ومدها ، وتقول : مُدَّنى أى أعطنى مَدَّةً من الدواة . وقد خَثُرَت الدواة خُثُورة وخثارة اذا ثَخُنَ نِقْسُها وهو المداد يقال نِقْس وأنقاس لقطع منه ، والقلم قبل أن تبريه أنبوبة فاذا بريته فهو قلم ، وما يسقط منه عند البرْىِ البُرَاية ، وبطَّنت القلم رقَّقْت بطنه وأنفته حدَّدت طرَفه ، وشَباته حدّه ، ولَيَّطته اذا وضعت فى شقه ليطة توسع بها ضيقه ، والليطة قشر القصب ؛ وقططته قطًّا ، والمِقَطُّ ما يُقَطّ عليه ، والقَطُّ القطع عرْضاً ، والقدّ أن يُقْطَع الشئ طولاً ، ويقولون قلم رشَّاش ، وذلك اذا حاف الشقّ على أحد جانبيه

فدقّ وتعثّر بِشَظَايا الـكتاب ، ورشّش المداد ، وتقول كتبت كتابا وهو مصدر ، ثم يسمّى المـكتوب على السَّعَة كتاباً ، والـكتابة صِناعـة الكاتب ، والطِّرْس الـكتاب الممحوّ الذى يستطاع أن تعاد فيه الـكتابة ، والتطريس فعلك به ، وطَرَّس الباب سوّده ، والطِّلْس باللام كتاب لم ينعم محوه فيصـير طِرْساً ، والمَجْمَجَةُ تخليط الـكتْب وإفساده بالقلم كالجَمْجَمَة باللسان ، وهو أن لا يُبـيّن الكلام من غير عىّ ، والصُّحُف ما كان من جلود ، والقِطّ الـكتاب ، والمجلة صحيفة كانوا يكتبون فيها الحـكمة . قال النابغة :

مَجَلَّتُهُمْ ذاتُ الالهِ ودينهـم قويمٌ بهِ يرجون خير العواقب (١)

والعُهْدة كتاب الشراء ، وكتب له منشوراً وهو مالا يُشَدّ ، ورُجْعـة الـكتاب ورُجْعانه جوابه ، ويقال أجابه فى هامشة كتابه اذا كتب بين السطرين وهو من قولك تهامش القوم اذا دخل بعضهم فى بعض ، وهَمَشَ الجراد اذا تحرك ليثور ؛ وتقول نَقَطْتُ الـكتاب وأعجمته وشكَلْته وقيّدته فالنقط لما كان مدوَّراً والنُّقطة الاسم ، وهذا كتاب غُفْل كقولك دابة غُفْل اذا لم يكن موسوماً ، والسجلّ كتاب العهد ، وتقول : أمليت الـكتاب وأمللته واستَمْلى اذا سأل أن يملى ، وكذلك استملّ ؛ والزَّبور والرَّقيم الـكتاب ، وزَبَرْت ورَقَمْت كتبت ، وقَرْمَطْت قاربت بين الحروف ، وطويت الـكتاب وأدرجته وسحيته أسحاه سَحْياً اذا قلعت منه سِحاةً وهى القِشْرة تأخذها عن القرطاس ، وخزمته ثقبته وحزمته شددته ، ويقال تَرَّبْت الـكتاب وأتربته وتربّته وطِنْتُهُ أطينه طَيْناً ، وختمته والاسم الختام ، وعنونته أعنونه وأرّخت الـكتاب تاريخاً ، وهذه إضْبارة من كتب وإضْمامة ، والكُرَّاسة ما تكَرَّسَتْ أوراقه وتلبّدت ، والمصحف سمى مصحفاً لأنه أُصْحِفَ أى جمل جامعاً للصحف المـكتوبة بين الدفتين ، وهما اللوحان اللذان يكتنفانه ، وله الوعاء والغلاف وفيه العروتان ، والمِعْلاق ما يعلق

---

(١) يقول : صحيفتهم التى فيها وصاياهم مثبتة على طاعة الله ، ودينهم مستقيم يرجون به ثواب الله تعالى .

به ، وفيه الفكوك والواحد فَكّ وهو ما يستر الأوراق من جانبيه ، والعِلاوة من أعلاه والحلق واحدتها حلقة . وفي الحلق الذوائب وهي السيور التي في أطرافها ، والأشراج والواحد شَرَج وهو السير المرسَّع أسفل الحلق والترسيع ضفر السير على نحو معروف ، وفي المصحف المخارز وهي المواضع التي تُخْرَز منه ، وله الآذان ، وفي الدفتين المسامير والكراكِبُ ؛ فأما المِحبرَةُ والمَحبْرِيَة فالتي فيها الحبر وهو الزاج ، ولها المِعْلاق وهو خيط أو سير يشد الى عراها ، والرَّشْقُ صوت القلم . والقشفة كقطنة في جوف القصبة ، وحَضْرَمَ القلم براه ، والمِرْقَم القلم ؛ ومثل ذلك كثير في كتب اللغة والأدب لاسيما كتاب (أدب الكتاب للصولي) فقد ذكر فيه كل ما يتعلق بهذه الصناعة

مكاتبات العرب ومراسلاتهم ومالهم في ذلك من العوائد

خير الكلام لدى العرب ما أدى المقصود بكماله بلفظ وجيز ، وعبارة مختصرة ؛ ومدار البلاغة عندهم على ذلك ؛ والكتب والمراسلات من ضروريات الأمم التي لا يمكن الاستغناء عنها ، وحيث أن الكتابة لم تكن في جميع العرب لقربهم يومئذ من البداوة قل الترسل فيما بينهم تحريراً قبل شيوع الكتابة فيهم ، وكانوا يستغنون عن ذلك بإرسال الرسل يبلغون عنهم مقاصدهم الى من يرومون وربما ألغزوا عنها إخفاء لها إذا كانت مما يجب إخفاؤها وإسرارها

وربما كتبوا أبياتاً من الشعر تؤدي مقاصدهم إذ الشعر كان يومئذ ديوان العرب ، وقد صادفت من ذلك مالا يستقل ، ففي كتاب (مروج الذهب) عند ذكر سابور ذي الأكتاف وغلبة العرب على سواد العراق قال : وكانت جمرة العرب ممن غلب على العراق ولد إياد بن نزار ، وكان يقال لها طبق لإطباقها على البلاد ، وملكها يومئذ الحرث بن الأغر الأيادي ، فلما بلغ سابور من السن ست عشرة سنة أعد أساورته بالخروج اليهم والايقاع بهم ، وكانت إياد تصيف

بالجزيرة وتشتو بالعراق ، وكان فى حبس سابور رجل منهم يقال له لقيط فكتب الى إياد شعراً ينذرهم به ، ويعلمهم خبر من يقصدهم ، وهو :

سلامٌ فى الصحيفة من لقيطٍ   على من فى الجزيرة من إياد
بأنَّ الليثَ يأتيكم دلاقاً   فلا يحسبكم شوكَ القتَاد (١)
أتاكم منهم سبعون ألفاً   يجرّون الكتائبَ كالجراد (٢)
على خيلٍ ستأتيكم ، فهذا   أوانُ هلاككم كهلاك عاد

فلم يعبأوا بكتابه ، وسراياه تكرّ نحو العراق وتغير على السواد ، فلما تجهز القوم نحوهم أعاد اليهم كتاباً يخبرهم أن القوم قد عسكروا وتحشدوا لهم ، وأنهم سائرون اليهم ، وكتب اليهم شعراً أوله :

يادارَ عبلةَ من تذكارها الجزعا   هيّجتِ لى الهمَّ والأحزانَ والوجعا
أبلغ إياداً وحلل فى سَراتهم   إنى أرى الرأى إن لم أعص قد نصعا (٣)
أن لا تخافون قوماً (لا أبالكم)   مشوا اليكم كأمثال الدَّبَى سرعا (٤)
لو أن جَمعَهُمُ راموا بهدّهم   شمّ الشماريخ من ثَهْلان لانصدعا (٥)
فقلِّدوا أمركُم لله دَرُّكُمُ   رحْبَ الذراع بأمر الحرب مضْطلعا (٦)

فأوقع بهم فعمهم القتل ، فما أفلت منهم الا نفر لحقوا بأرض الروم ، وخلع بعد ذلك أكتاف العرب فسمى بعد ذلك سابور ذا الأكتاف ، وصحيفة المتلمس مشهورة ، وفى كتب الأدب مذكورة ، وكانت على ذلك الأسلوب أيضاً ، ولابد من ذكر خبرها وقصتها المستطرفة .

---

(١) قوله « يأتيكم دلاقا » أى مسرعا مندفعاً . والقتاد : شجر صلب له شوكة كالابر . ويضرب به المثل فى الخشونة والشدة كما قال أبو تمام : نباخبر كأن القلب أمسى * يجر به على شوك القتاد
(٢) الكتائب جمع كتيبة وهى الطائفة من الجيش مجتمعة . (٣) السراة : جمع سرى وهو الرئيس . ونصع الامر : اذا وضح (٤) الدبى : أصغر الجراد والنمل (٥) الشماريخ : رؤوس الجبال . وثهلان : جبل (٦) أنظر ص ١١٤ من هذا الجزء

صحيفة المتلمس

إن المتلمس (وهو شاعر مشهور اسمه جرير بن عبد المسيح) وفد هو وابن أخته طرفة بن العبد على عمرو المذكور ، فنزلا منه فى خاصته ، وكانا يركبان معه للصيد فيركضان طول النهار فيتعبان ، وكان يشرب فيقفان على بابه النهار كله ولم يصلا اليه فضجر طرفة ، فقال فيه :

فَلَيْتَ لنا مكانَ المَلْكِ عمروٍ ... رَغُوثاً حَوْلَ قبتنا تخور (١)
لعمرُكَ إن قابوسَ بنَ هندٍ ... ليَخلِطُ ملكه نُوْكٌ كثير (٢)

وقال أيضاً

ولا خيرَ فيه غيرَ أن له غنى ... وأنَّ له كَشْحاً إذا قام أهْضَمَا (٣)
تظلُّ نساء الحى يعكفْنَ حوله ... يَقُلْنَ عسيبٌ من سَرَارةِ مَلْهَمَا (٤)

فى أبيات مشهورة ؛ فبلغ ذلك عمرو بن هند فهمَّ بقتل طرفة ، وخاف من هجاء المتلمس له لأنهما كانا خليلين ، فقال لهما : لعلكما اشتقتما لأهليكما ! فقالا : نعم ! فكتب لهما بصحيفتين وختمها ، وقال لهما : اذهبا الى عاملى بالبحرين ، فقد أمرته أن يصلكما بجوائز ! فذهبا فمرّا فى طريقهما بشيخ يحدث ويأكل تمراً ويقصع قملاً ، فقال المتلمس : مارأيت شيخاً كاليوم أحمق من هذا ! فقال الشيخ : مارأيتَ من حمقى ؟ أُخرِجُ خبيثاً وأدخل طيباً وأقتل عدواً ! وإنَّ أحمقَ منى من يحمل حتفه بيده وهو لا يدرى ! فاستراب المتلمس بقوله وطلع عليهما غلام من أهل الحيرة فقال له المتلمس : أتقرأ ياغلام ؟ قال : نعم ! ففض الصحيفة وقرأها فاذا فيها : إذا أتاك المتلمس فاقطع يديه ورجليه وادفنه حياً !

(١) الرغوث : كل مرضعة . وتخور : تصيح (٢) النوك : الحمق . (٣) الكشح : الخصر . والاهضم . الدقيق (٤) العسيب : جريدة من النخل مستقيمة دقيقة يكشط خوصها والسرارة : خيار الشئ وصفوته . وملهم : موضع كثير النخل . شبه كشحه الاهضم بجريدة نخل من خيار نخل هذا المكان

فقال لطرفة : ادفع اليه صحيفتك فان فيها مثلَ هذا ! فقال : كلا ! لم يكن ليجترئَ عليّ ! فقذف المتلمس بصحيفته فى نهر الحيرة وقال :

قذفت بها فى اليم من جَنْبِ كافرٍ ... كذلك أقْنُو كلَّ قِطٍّ مُضلّلِ (١)

رضيت لهـا بالماء لمـا رأيتها ... يَجُولُ بها التيّار فى كلّ جدْوَلِ (٢)

ثم مضى المتلمس الى هشام ، وذهب طَرَفة الى عامل البحرين فأعطاه صحيفته ، ففصده من أكحليه (٣) فنزف حتى مات ، وقيل فى قتله غير ذلك (٤) . ومن قوله فى السجن يخاطب عمرو بن هند :

أبا منذرٍ كانت غروراً صحيفتى ... ولم أعطِكم بالطوع مالى ولا عرضى

أبا منذرٍ أفنيت فاستبق بعضنا ... حنانيكَ بعضُ الشر أهونُ من بعضِ (٥)

تغير أسلوبهم

ثم تغيرت عوائدهم فى ذلك فكانوا يبتدؤن فى كتبهم بأسماء آلهتهم كاللات والعزى ثم يذكرون مقاصدهم وفى (أدب الكتاب للصُّولى) بسنده : أن قريشاً كانت تكتب فى جاهليتها باسمك اللهم ، وكان النبى صلى الله تعالى عليه وسلم كذلك ، ثم نزلت سورة هود وفيها « بسم الله مجراها ومرساها » فأمر النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أن يكتب فى صدر كتبه : بسم الله ، ثم نزل فى سورة بنى اسرائيل « قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيما تدعوا فله الأسماء الحسنى » فكتب : بسم الله الرحمن ، ثم نزل فى سورة النمل « إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم » فجعل ذلك فى صدر الكتب الى الساعة ؛ وغير الصُّولى ذكر مثل ذلك أيضاً ؛ ونقل المسعودى فى المروج عن جماعة منهم ابن السائب الكلبى

(١) أقنو : اتخذ ، والقط : الصك تكتب فيه الجائزة (٢) التيار : الموج ، والجدول : النهر الصغير . (٣) الاكحل : عرق فى الذراع يفصد . ونزف دمه : سال حتى أفرط

(٤) لهذه الحكاية مثال فى تاريخ قدماء اليونان تعزى الى بليروفون : Bellérophon

(٥) راجع ص ١١١ من هذا الجزء .

أن أول من كتب من قريش (باسمك اللهم) أمية بن أبى الصلت الثقفى ، وذكر فى سبب ذلك قصة طويلة لا غرض لنا فى نقلها ؛ ومنهم من كان يكتب بعد البسملة : من فلان الى فلان ، ثم التحية ، ثم يأتى (بأما بعد) ثم يذكر مقصده بأوجز عبارة ؛ وقد اختلف فى أول من ابتدأ ذلك على أقوال ذكرها الصُّولى ، وعقد لذلك فى كتابه باباً أطال الكلام فيه ؛ وعن أبى حاتم السجستانى فى كتاب المعمَّرين عند ذكر قُسّ بن ساعدة : انه أول من آمن بالبعث من أهل الجاهلية ، وأول من توكأ على عصا ، وأول من قال : أما بعد ، وهو أول من كتب : الى فلان ابن فلان ؛ ورجح الصولىّ أن أول من قال « أما بعد » كعب بن لؤى وكان أول من سمى « الجمعة » وكانت تسمى « العروبة » قال : وهى فصل الخطاب ، ومعناه على هذا أنه إنما يكون بعد حمد الله ، أو بعد الدعاء ، أو بعد قولهم من فلان ابن فلان الى فلان ، فيفصل بها بين الخطاب المتقدم وبين الخطاب الذى يجىء بعد ، ولا تقع الا بعد ما ذكرناه ، ألا ترى قول سابق البربرى لعمر بن عبد العزيز :

باسم الذى أنزلت من عنده السور ... الحمد لله أما بعد يا عُمَرُ !
فان رضيت بما تأتى وما تذر ... فكن على حذرٍ ، قد ينفع الحَذَرُ !

قال : والمعنى فى أنها لا تقع مبتدأة أن المراد بها أما بعد هذا الكلام (يعنى الذى تقدم) فان الخبر كذا وكذا . ثم أطال الكلام فى وجوب ذكر الفاء بعد أما بعد ، وبيان معناها ؛ وكان من عوائد العرب فى كتبهم أيام جاهليتهم اذا كتبوها نثراً لم يلتزموا فيها السجع بل أرسلوه إرسالا ؛ والسجع لم يلتزمه منهم إلا الكهان ، واستعمالهم له فى الخطب والوصايا قليل ، وذلك لأنهم جبلوا على الميل الى السهل من كل شئ والنفرة من كل متكلف فى افعالهم وأقوالهم وغير ذلك ، والسجع لكونه متكلف الألفاظ مما تنفر عنه الطباع ، وتمجُّه الأسماع ، والمستحب منه هو مقدار يجرى من الكلام مجرى الطّراز من الثوب ، والعلم

من المطرف [١] ، والخال [٢] من الوجه ، والعين من الانسان ، والسّواد من الحدقة ، والاشارة من الحركة ؛ وقد علمت أنه متى كثرت الخيلان من الوجه وغمرته كان ترادف أجزاء السواد ذاهباً ببهجة تمام الحسن .

وقد أخرج ابن أبي حاتم عن يزيد بن رومان أنه قال : كتب سليمان عليه السلام (بسم الله الرحمن الرحيم من سليمان بن داود الى بِلْقيس ابنة ذى شرح وقومها : أن لا تعلوا عليَّ وأتوني مسلمين) وقد حكى ذلك الكتاب الكريم ، فلما وصل الكتاب الى بلقيس ، واطلعت عليه ، وصفته بالكرم لكونه مختوماً . وفي الحديث « كرم الكتاب ختمه » وعن ابن المقفع « من كتب الى أخيه كتاباً ولم يختمه فقد استخف به » . وهكذا كان أسلوب العرب فى ترسلهم ، ومكاتبات النبى صلى الله تعالى عليه وسلم الى الملوك وغيرهم أيضاً على هذا الاسلوب ، وهكذا كان أسلوب أهل الصدر الأول والثانى ، وهكذا الى أن تغير ذلك الوضع بما هو مذكور فى كتب الانشاء من الألفاظ المتكلفة ، والأساليب التى ينفر عنها الطبع ، وما أحسنَ ما كان عليه العرب ، وما أسهله ، وما أعذبه وألطفه ! وعرب نجد الى اليوم على طريقة أسلافهم فى ذلك الأسلوب . وقد ذكر الصُّولى فى (أدب الكتاب) عوائد المتأخرين فى سائر فنون مكاتباتهم ومراسلاتهم ، وكيف يخاطب الناس ملوكهم ، والملوك أمراءهم ورعاياهم ، وكيف يخاطب الناس بعضهم بعضاً ، وكيف المنشورات والتقاليد وغير ذلك من كتب العهد والتولية والقضاء ؛ وأفرد باباً فى بيان ما يتكاتب به الناس فى عصره ، وبقيت للعرب سنن وعوائد التزموها فى كتبهم ، منها : الابتداء بالبسملة من حاشية القرطاس، ثم التحية من تحتها ، ويستقبحون أن يخرج الكلام عن البسملة فاضلاً بقليل ، ولا يكتبونها وسطاً ويكون الدعاء فاضلاً ؛ وكان من الكتاب الاسلاميين من يرى أن يجعله وسطاً فى أسفل الكتاب بعد انقضاء الدعاء الثانى ، والتاريخ اذا

(١) ثوب من خز له أعلام (٢) الشامة ، والجمع خيلان

احتاج الى تبيين نسخة كتاب متقدم أو حساب ليفرق بين منزلته من صدر الكتاب و بين عجزه ؛ وقد ذهب اليه قوم ، ولا يفسح ما بين البسملة و بين السطر الذى يتلوها من الدعاء ، ولكن يفسح ما بين الدعاء اذا استتم و بين سائر المخاطبة ولا يتجاوز بالدعاء ثلاثة أسطر ، ولا يستتم السطر الثالث على المشهور من مذاهب أجلاّء الكتاب الإسلاميين ؛ ومنها تتريب الكتاب وتطيينه ، وإعادة النظر عليه بعد الكتابة ، والخاتم وآدابه ، والعنوان ، وغير ذلك مما كانوا عليه ؛ وقد بسط الصُّولىُّ الكلامَ على هذه الأمور فى (أدب الكتاب) .

ما كان يكتب فيه العرب

لم يكن للعرب قبل الإسلام القرطاس المعهود اليوم ، وإنما ظهر هذا عند العرب سنة العشرين بعد المائة من الهجرة النبوية ، وهم الذين اخترعوه على قول بل كان القرطاس عندهم يومئذ كل ما يمكن أن يكتب عليه كالرق (بفتح الراء وهو جلد رقيق تحسن الكتابة عليه) وهو أغلب قراطيسهم ، وكذلك فى صدر الاسلام ، ومنه قوله سبحانه (والطُّور ، وكتاب مسطور ، فى رق منشور) وربما كانوا يكتبون على العسب والجريد وما شا كل ذلك ؛ وكما كانوا يسمون ما يكتب عليه بالقرطاس يسمونه (مُهْرَقاً) و (صحيفة) و (سفراً) وقد ورد ذكر القرطاس فى التنزيل وكذلك الصحف والأسفار ، وهو مما يدل على معرفتهم به وشيوعه بينهم ؛ وكانت العرب تشبه المنزل اذا خلا ودرجت عليه الريح وصار أرضاً بالمُهْرَق ، قال الأعشى :

سلا دارَ ليلى هل تبين فتنطق وأنَّى تردّ القولَ بيضاء سَمْلَقُ ؟ (١)
وأنَّى تردّ القولَ دارٌ كأنها لطول بلاها والتقادم مُهْرَقُ ؟

وشبه أبو نواس الناقة البيضاء بالقرطاس فقال من أبيات :

« يَقِقٍ كقرطاس الوليد هجان (٢) »

(١) السملق : القاع الصفصف (٢) أبيض يقق : شديد البياض

خصّ قرطاس الوليد لأنه معه كالرسم لم يكتب فيه بعد ، والهجان : الكرام من الإبل وغيرها ، وقد استوفى جعفر بن حمدان الكاتب وصف القرطاس بقوله :

في يديه من القراطيس كالمُزْ نة جادت بواكفٍ مدرار (١)
كالملاء الرَّحيض كالبيض بيض الهند، كالبيض، كالمياه الجوارى (٢)
كالسراب الرقراق في عنفوان الصيف نصف النهار في أيّار (٣)
ما تبالى أجلت عينك فيه حين يطوى، أم في خصور العذارى؟
يسبح الخط فيه عفواً فما يكبو بوعْثٍ فيه ولا بجَبَار (٤)

والكلام في هذا الباب يطول ، وما ذكرناه فيه الكفاية ، وبالله التوفيق ٠

حساب العرب أيام جاهليتهم

كان للعرب حساب غير ما هو المعهود اليوم ، فانه مما يحتاج الى آلة فاجتنبوه ورأوا أن ماقلت آلته وانفرد الانسان فيه بآلة من جسمه ، كان أسهل وأفيد وأنسب لغرضهم ، وهو حساب عقود الأصابع ؛ وقد وضعوا كلاًّ منها بأزاء عدد مخصوص ، ثم رتبوا لأوضاع الأصابع آحاداً وعشرات ومئات وألوفاً ، ووضعوا قواعد يتعرف بها حساب الألوف فما فوقها بيد واحدة ؛ وقد ألف فيما ورد عنهم من ذلك عدة رسائل ، منها : رسالة شرف الدين اليزدى وهى من أحسن ماألف في هذا العلم ، ونظم فيه أراجيز كثيرة ، منها : أرجوزة لطيفة لابن حرب أورد فيها ما يحتاج اليه من هذا العلم ، ومنها أرجوزة أبى الحسن علىّ الشهير بابن المغربى

(١) الواكف : المطر ، والمدرار : الكثير الدرّ ، أى السيلان (٢) الملاء جمع ملاءة وهى الريطة ذات لفقين ، والرحيض : المغسول (٣) السراب : ماتراه نصف النهار كأنه ماء ، والرقراق : المتحرك ، وعنفوان الشئ بالضم أوله أو أول بهجته ٠ (٤) كبا يكبو : انكب على وجهه ، والوعث : الطريق العسر ، والجبار : الاثر ٠

وقد شرحها عبد القادر بن على بن شعبان العوفى ، وأورد فى شرحه فوائد كثيرة تتعلق بهذا العلم[1] ، وماروى عن العرب من الشعر المشتمل على هذا الحساب ، ولشمس الدين محمد بن أحمد الموصلى الحنبلى رحمه الله منظومة موجزة فى بيان قواعد هـذا الحساب مشتملة على اب لبابه ، وهى هذه بعد البسملة :

بِحَمْدِكَ يا ربَّاه أبدأ أولا ... فمازلتَ أهلاً للمحامد مفضلا
وأتبع حمدى بالصلاة على الرضا ... أبى القاسم المهدىّ خير من ارسلا
ومن بعد هذا أيها السائل استمع ... حساب اليد إذ عنه سلْتَ مفصلا
فنى عدد الآحاد ياصاح أفرِدَنْ ... ليمنى يديك اعلم وإياك تجهلا
فللواحد اقبضْ خِنصِراً ثم بِنصِراً ... للاثنين والوُسطى كذاك التكملا
بعــدّ ثلاثٍ ثم للخِنصِر ارفعنْ ... بأربعة والبِنصِر الخمسة اكملا
وفى الستة اقبضْ بِنصِراً دونَ كلها ... على طرف للراحة اسمه وانقلا
وفى السبعة اقبض تحت الابهام خنصراً ... وفى طرف للراحة القبض فاجملا
وللبنصر ارفع ثم فى الثامن اضممنْ ... الى خنصر فى القبض للبنصر اعقلا
وفى التسعة الوسطى اضممن معهما وفى ... جميع الآحاد افعلنْ ذا وإن علا
وفى عشرة مع عقد الابهام فاستمع ... تحلق رأساً للمسبحة افعلا
وللظفر من ابهامك اجعله بين إصـ ... بعيك هى العشرون فاعلمه واعملا
وما بين رأس للمسبحة اجعنْ ... ورأس للابهام الثلاثون حصلا
وان تركب الابهام ياصاح فاحتفظ ... لسبّابة للأربعـين مكملا
وابهامك اجعل تحت سبّابةٍ اذا ... تعمدت للخمسين فاحفظْه تكملا
وتركيب الابهام المسبحة استمع ... كقابض سهمٍ وهى ستون احملا
وعـدّك للسبعين فى بطن ثالث ... لسبابة ابهامك اعقـده تجملا

---

(١) نشرتها (أنا) مع شرحها « لوح الحفظ » فى الجزء الثانى من المجلد الخامس من مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق .

والابهام من تحت المسبحة اجعلنْ بنانا على ظفر ثمانين اكملا
وفى عدّ تسعين المسبحة اقبضنْ لما بين إبهام وما بينها اجتلى
وابهامك اجعل فوقها مثل حيّةٍ تروم وثوباً والمئين الا اجعلا
بيسراك كالآحاد ياذا العلوم مِنْ يمينك فاحفظْهُ واياك تعولا
كذا العشرات من يمينك انها بيسراك يا هذا الوف على الولا
وعشرة آلاف لابهامك اجمعن وذلك مع سبابة ياأخا العلا
بيسراك وامهده كحلقة استمع اذا طُوِيَتْ والرأس فاجعله أسفلا
وقد نجزت والحمد لله وحده ميسرة تبغى أخا متفضِّلا
يسامحها فيما يرى من عيوبها فما أحد عن ذاك ياصاحِ قد خلا
فخذها عروساً قد سمت شمس ضحوة وبدر دياجٍ قد بدا متهلّلا
فان تمتنع كالبكر عند امتناعها على بَعلها عند الزّفاف تدللا
فصفْ لها ذهناً غزيراً مجوّداً وغُصْ فى بحار الفكر ثم تأملا
ترى لمعانيها بُزُوغاً ككوكب ويأتيك منها العلم والفضل مقبلا

— وبعض أهل الفضل ذكر فى بيان مراتب الأعداد فى العقد ما نصه : عند العشرة تجعل السبابة حلقة ، والعشرين تجعل الإبهام بين السبابة والوسطى ، والثلاثين تجعل رأس السبابة على رأس الابهام ، والأربعين تجعل رأس الابهام خلف السبابة ، والخمسين تجعل الابهام جالساً ، والستين تجعل ظهر رأس الأبهام على الفصل الأعلى من باطن السبابة ، والسبعين تجعل رأس الابهام على الفصل الأسفل من باطن السبابة ، والثمانين تجعل رأس السبابة على ظفر الأبهام ، والتسعين تجعل السبابة حلقة غير مجوفة ؛ المائة تجعل رأس السبابة اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرة ؛ المائتين تجعل الابهام اليسرى كما جعلت اليمنى فى العشرين ، وعلى هذا القياس الى الألف فى كل مائة كما فى العشرات لكن اليد اليسرى ؛ ثم تأخذ الألف كما تأخذ الآحاد الى العشرة من اليد اليسرى ، ثم تأخذ العشرة

الآلاف . وهو أن تجعل جنب رأس الابهام على جنب رأس السبابة انتهى . وبقى كلام كثير يطلب من محله ؛ وقد ورد حساب اليد فى عدة أحاديث ، وفى كلام كثير من رجال الصدر الأول وأجلة السلف ، وبه ينحل كثير من أبيات المعانى التى حيرت الأفهام . (ومن العرب) من كان يحسب بالحصى ويضبط عدده به كما دل عليه شعرهم . قال الأعشى ميمون من أبيات فضل فيها عامر بن الطفيل على علقمة بن علاثة :

إنْ ترجع الحقَّ إلى أهله … فلستَ بالمسدى ولا النائر [1]

ولستَ فى السِّلم بذى نائلٍ … ولستَ فى الهيجاء بالجاسر [2]

ولستَ بالأكثر منهم حصًى … وإنما العزَّةُ للكاثر

ولستَ فى الأثرين من مالكٍ … ولا أبى بكر أولى الناصر [3]

هُمْ هامةُ الحى اذا ما دعوا … ومالك فى السؤدد القاهر

الحصى : العدد والمراد به هنا عدد الأعوان والأنصار . قال بعض شارحى هذه الأبيات : وانما أطلق الحصى على العدد لأن العرب أميون لا يعرفون الحساب بالقلم ، وانما كانوا يعدون بالحصى وبه يحسبون المعدود ، واشتقوا منه فعلاً فقالوا : أحصيت ، ومن العرب من كان لا يحسن الحساب أصلاً حتى نقل الصولى فى كتاب (أدب الكتاب) أن بعض العرب باع جوهراً نفيساً بألف درهم فقيل له : كان يساوى أكثر من هذا ، فقال : ما ظننت أن عدداً أكثر من ألف !

(١) المسدى : من السدى وهو مامد من الثوب . والنائر : اسم فاعل من نرت الثوب نيراً بالفتح جعلت له نيراً بالكسر وهو علم الثوب وهدبه ولحمته . وهذا مثل يضرب فى التبرى من الشئ كقولهم « لافى العير ولا فى النفير » وهذا خطاب مع علقمة (٢) النائل : بمعنى النوال وهو العطاء . . الهيجاء : الحرب . والجاسر : من الجسارة وهى الجراءة والشجاعة .

(٣) الاثرين : جمع أثرى جمع تصحيح بمعنى ذى ثروة . ومالك : هو جد عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وأبو بكر : عم جده واسمه عبيد (بالتصغير) ابن كلاب بن ربيعة المذكور بأبو بكر أخو جعفر بن كلاب …

فلذلك كانوا يمدحون من يحسن الحساب والعدد ، ويصفونه بالحذق ، وينسبونه الى حكمة وعدل، قال النابغة للنعمان فى اعتذاره :

واحكم كحكم فتاة الحى إذ نَظَرَتْ ... الى حمام سِراعٍ واردِ الثَمَدِ[1]

قالت : ألا ليتما هذا الحمامُ لنا ... الى حمامتنا أو نصفه فَقَدِ[2]

فحسَّبوه فألفَوْهُ كما زَعَمَتْ ... تسعاً وتسعين لم ينقص ولم يَزِدِ[3]

فكملت مائة فيها حمامتها ... وأسرعَتْ حِسْبةً فى ذلك العددِ[4]

يريد : كُنْ حكيماً فى إنصافى كما حكمت جارية كانت لها حمامة فرأت قطاً فحزرته ستاً وستين فقالت : ليت الحمام ليه ، الى حمامتيه ، أو نصفه قديه ، ثم الحمام مايه ! قالوا : وكانت لها قطاة ، وجعلت القطا حماماً . وهذا قول الأصمعى ، وبعضهم قال : أراد النابغة أحكم علىَّ بعدل كما حكمت هـذه الفتاة فى العدد فأصابت ! والأول أجود . أفلا ترى إلى النابغة كيف حكى هـذا ، ونسب تلك الفتاة الى حكمة وعدل حـين أحسنت العدد ؟ قال أبو عبيدة : وكان يقال للجارية (الزرقاء) واسمها (عنز) وكانت من جديس . وقال غيره : القائلة لهذا هند بنت الخس ، وقد مر الخلاف عنـد الكلام على حكيمات العرب من الجزء الأول[5] . وكان حساب اليد مرجحاً على غيره بين الكتاب فى الدولة العباسية على ما ذكره الصُّولىّ فإنه قال : أجمع الحساب من كل جنس وملة بكل خط ولغة على أن تراكيب الحساب لا تعدو أربعة : عدد يضرب فى عدد ، أو قسمة عدد على عدد ، أو إلقاء عددٍ من عدد ، أو زيادة عدد على عدد . وتكلموا فى أوائل العدد ونهاياتها بكلام كثير أحسنه

---

(١) الثمد : الماء القليل : (٢) يستشهد النحويون بهذا على أن (ما) اذا اتصلت بليت فالاكثر اهمالها لعدم اختصاصها حينئذ بالاسماء ، ويجوز اعمالها كما وردت الرواية فى (الحمام) وقوله فقد أى فحسب

(٣) قوله : « فحسبوه » بعضهم يشدد السين لئلا تتوالى أربع متحركات . وبعضهم يخففها ويقول بجوازها فى (البسيط) وألفوه : وجدوه (٤) أنظر تعليقنا على هذه القصة فى ص ٣٤١ من الجزء الاول . (٥) ص ٣٤٠ و ٣٤١ و ٣٤٢

ما قال الهند إن الأعداد تبتدئ من واحدة وتنتهي الى تسعة ثم تكون العشرة راجعة الى حال الواحد على الرتبة ، وعلى هذا وضعوا حروفهم التسعة ، وقالوا : الحساب الهندى أخرج لكثير العدد إلا أن الكتاب اجتنبوه لأن له آلةً ، ورأوا أن ما قلت آلته وانفرد الانسان فيه بآلة من جسمه كان أذهب فى السر والبق بشأن الرئاسة ، وهو ما اقتصروا عليه من العقد بالبنان وإخراج رؤوس (الجمل) فى أواخر السطور ، وحط التفضيلات عنها واحداً دون آخر وفرعاً دون أصل . قال : وَعُنِىَ بعض الكتاب بذلك حتى خف عقده ، وصار يلحق ببنانه مثل ما يلحق ببصره ولا يستبين الناظر مواقع أنامله ، قال : وقد شبه عبد الله بن أيوب أبو محمد التيمى وميض البرق بخفة يد الحاسب فقال :

أعنى على بارق ماطر خفى كوحيك بالحاجب
كأنَّ تألقَهُ فى السما يداكاتب أو يدا حاسب

وقال بعض الكتاب :

وناطق تخبر ألفاظه عن نَغَمات العود بالزمر
بينا تراه عاقداً خمسةً وستة صار الى عشر
وصار من بعد الى واحد كحاسب أخطأ فى كسر

ومن أحسن ما قيل فى تشبيه يد الحاسب بوميض البرق بعد قول التيمى قول عنترة من أبيات :

وفرضتَ للناس الكتابة فاحتذَوْا فيها مثالك والعلوم فرائضُ
واذا خططْتَ فأنت غيثٌ معشب واذا حسبت فأنت برقٌ وامِضُ
واذا نهضتَ فأنت نجم ثاقب واذا جلست فأنت ليث رابِضُ
فبك التمثل حين ينعت فاضلٌ واليك يُرْجَعُ حين يشكل غامِضُ

معايش العرب وأسبابها أيام جاهليتهم

كل أمة من الأمم لا بد لها ما يقوم بضرورياتها ، وسد فم حوائجها ، بأسباب متفاوتة ، وأعمال مختلفة ، يهديهم اليها خالقهم ، ويجعلها سبب أرزاقهم ؛ والعرب من الأمم القديمة التى مضى عليها أعصر متطاولة ربما كانت السبب فى خفاء كثير من أحوالهم على من بعدهم غير أنَّ اللغةَ والشِّعْرَ يقيِّدان كل شارد ، وينطقان بشؤون كل ما أسدل عليه حجاب الخفاء ؛ ومن المعلوم أن أسباب المعايش والكسب وأصولها منحصرة فى أمور ، منها :

التجارة

وهى من أشرف الأسباب وأعلاها قدراً ، ولهذا ورد فى الحديث (التاجر الصدوق مع الكرام البررة) ويدخل فيها كل بيع وشراء ، وكانت من أهم أسباب معايشهم لاسيما سكنة الحجاز ونجد وما شابههما من الأقطار المقحطة والبلاد القليلة الخِصْب ؛ وكانت العرب على ماذكر فى فتح البارى شرح صحيح البخارى تمادح بكسب المال ولاسيما قريش ، وكان النبىُّ صلى الله تعالى عليه وسلم محظوظاً فى التجارة ، وكان لقريش فى السنة رحل أربع على ماذكره بعض المفسرين فى تفسير سورة قريش ، فان أصحاب الإيلاف كانوا أربعة إخوة وهم بنو عبد مناف : أحدهما هاشم وكان يؤالف ملك الشام حيث أخذ منه خيلاً فأمن به فى تجارته الى الشام . الثانى : عبد شمس وكان يؤالف الى الحبشة . والثالث : المطلب وكان يرحل الى اليمن . والرابع : نوفل وكان يرحل الى فارس . وكان هؤلاء يسمون المتجرين ، فيختلف تجر قريش بخيل هؤلاء الأخوة فلا يتعرض لهم أحد . وفى هؤلاء الأخوة يقول الشاعر (١) :

(١) ج ٢ ص ٢٨٤

يا أيها الرجلُ المحوِّلُ رحله   هلَّا نزلتَ بآل عبد منافِ
الآخذونَ العهدَ من آفاقها   والراحلونَ لرحلة الايلافِ
والرائشون وليس يوجد رائشٌ   والقائلونَ هَلُمَّ للأضيافِ
والخالطونَ غنيَّهم بفقيرهم   حتى يصيرَ غنيهم كالكافى

« وقال مساور بن هند يهجو بنى أسد »

زعمتم أنّ أخوتكم قريشٌ   لهم إلف وليس لكم الافُ
أولئك أومنوا جوعاً وخوفاً   وقد جاعَتْ بنو أسدٍ وخافوا

ومن المفسرين من قال: كان لقريش رحلتان رحلة فى الشتاء الى اليمن، ورحلة فى الصيف الى بصرى من أرض الشام، كما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما؛ وكانوا فى رحلتهم آمنين لأنهم أهل حرم الله تعالى، وولاة بيته العزيز، فلا يتعرض لهم، والناس بين مختطف ومنهوب؛ وعلى ذلك نزلت السورة الكريمة. وذكر عطاء عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما: أن السبب فى هاتين الرحلتين هو أن قريشاً اذ أصاب واحداً منهم مخمصة خرج هو وعياله الى موضع وضربوا على أنفسهم خباء حتى يموتوا [1] الى أن جاء هاشم بن عبد مناف، وكان سيد قومه، وكان له ابن يقال له أسد، وكان له تِربٌ [2] من بنى

(١) هذا من أوابدهم فى الجاهلية ويسمى (الاعتفاد) : قال الزمخشرى فى الاساس : « اعتفد الرجل اذا أغلق الباب على نفسه ليموت جوعا ولا يسأل . ولقي رجل جارية تبكي فقال : مالك ؟ قالت : نريد أن نعتفد . وأنشد ابن الاعرابي :

وقائلة ذا زمان اعتفاد   ومن ذاك يبقى على الاعتفاد »

وفى التاج وغيره عن محمد بن أنس « أنهم كانوا اذا اشتد بهم الجوع أغلقوا عليهم باباً وجعلوا حظيرة من شجرة يدخلون فيها ليموتوا جوعاً ، وقال النظار بن هاشم الاسدي

صاح بهم على اعتفاد زمان   معتفد قطاع بين الاقران

قال شمر : وجدته فى كتاب ابن بزرج : اعتقد الرجل بالقاف وذلك أن يغلق عليه باباً اذا احتاج حتى يموت » .

وقد كانوا يفعلون ذلك ترفعاً عن ذلة السؤال وخساسة الاجتداء . وقوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم » وما ورد من مثله فى الصحيح مبطل لهذه الفعلة الشنيعة ، والعادة الجاهلية الفظيعة .

(٢) أى لدة ، وهما مترادفان الذكر والانثى فى ذلك سواء ، يقال : هذه ترب هذه أي لدتها ، وقيل : الترب من ولد معك

مخزوم يحبه ويلعب معه ، فشكا اليه الضرّ والمجاعة ، فدخل أسد على أمه يبكى ، فأرسلت الى أولئك بدقيق وشحم فعاشوا فيه أياماً ، ثم أتى ترب أسد اليه مرة أخرى وشكا اليه من الجوع ، فقام هاشم خطيباً فى قريش فقال : إنكم أجدبتم جدباً تقلون فيه وتذلون ، وأنتم أهل حرم الله وأشراف ولد آدم والناس لكم تبع ، قالوا : نحن تبع لك فليس عليك منا خلاف ، فجمع كل بنى أب على الرحلتين فى الشتاء الى اليمن ، وفى الصيف الى الشام للتجارات ، فما ربح الغنىّ قسمه بينه وبين الفقير حتى كان فقيرهم كغنيهم ، فجاء الاسلام وهم على ذلك ، فلم يكن فى العرب بنو أب أكثر مالاً ولا أعزّ من قريش . وهذا معنى قول شاعرهم فيهم :

والخالطون فقيرهم بغنيهم حتى يكون فقيرهم كالكافى

هذا ما كان من أمر قريش ، وسائر أهل الحجاز . وأما أهل اليمن وعمان والبحرين وهجر فكانت تجاراتهم كثيرة ، ومعايشهم وافرة ، لما فى بلادهم من من الخِصْب والرخاء ، والذخائر المتنوعة ، والمعادن الجيدة ، وغير ذلك من أسباب الثروة والغنى . وأما أهل نجد فكانوا دون غيرهم فى الثروة والتجارة لما أن الغالب على أرضهم الرمال فكانت بلادهم دون بلاد سائر العرب فى رفاهية العيش ، ورواج التجارة ، وكانوا يجتمعون فى الأسواق (كل سوق له موسم من السنة على ما أسلفناه فى الجزء الاول) فيجتمعون فيها للتجارات وغيرها . ولهم أسواق أخر غير ماذكرناه لأجل ذلك . ويسمون السوق أيضاً القسيمة ، ويقولون : نفقت السوق أى راجت ، وانحمقت : كسدت ، والسوم : عرض السلعة على البيع ، وبعته ناجزاً بناجزٍ [1] ويداً بيـد ، والناجش الذى يزيد فى ثمن السلعة ، وليست من حاجته لينفقها على صاحبها . وقد ورد فى الحديث النهى عن ذلك . ويقولون للذى يبيع البز : البزاز ، وللذى يبيع الثياب : السمسار وللذى يبيع الأكسية : الكساء ، وللذى يبيع الفرا : الفراء . وللذى يبيع الرق :

(١) أى تعجيلا بتعجيل ، وهو منصوب بأبيعك ونحوه . ويروى بالرفع .

الرقاق ، وللذى يبيع الخل : الخلال ، وللذى يبيع البقول : البقال . وللذى يبيع الدهن : الدهان ، وللذى يبيع الرؤوس الرَّآس ، ولا يقال له رواس ؛ وللذى يبيع الطير الجدال ، والزجال الذى يرسلها من مكان الى مكان ، وللذى يبيع العطر العطار، وللذى يبيع الأدوية الصيدلانى والصيدنان ، وللذى يبيع اللؤلؤ اللآل ، وللذى يبيع الالية اللاء . ومنها :

الصنائع

وهى أيضاً من أسباب المعايش المحمودة ، وورد فيها « الحرفة أمان من الفقر » وكان فى العرب صنائع تقوم بما تَمَسُّ اليه حوائجهم ، وتقتضيه ضرورياتهم ، ولا بد لهم منها ، لاسيما البلاد التى قدم عليها عهد الحضارة . وقد تكلم ابن خلدون فى مقدمته على هذا الموضوع ، وذكر أن العرب أبعد الناس عن الصنائع ، وعلَّل ذلك بأنهم أعرق فى البدو ، وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعو اليه من الصنائع وغيرها ، وقد أطنب فى بيان ذلك الى أن قال : وأما اليمن والبحرين وعمان والجزيرة وإن ملكه العرب إلا أنهم تداولوا ملكه آلافاً من السنين فى أمم كثيرين منهم ، واختطوا أمصاره ومدنه ، وبلغوا الغاية من الحضارة والترف مثل عاد وثمود والعمالقة وحمير من بعدهم والتبابعة والأذواء ، فطال أمد الملك والحضارة ، واستحكمت صبغتها ، وتوفرت الصنائع ورسخت ، فلم تبل ببلى الدولة ، فبقيت مستجدة حتى الآن ، واختصت بذلك الوطن كصناعة الوشى والعصب وما يستجاد من حوك الثياب والحرير فيها . وذكر رحمه الله فصولاً مهمة فى هذا الباب لها من الحقيقة أوفر نصيب ؛ بَيْدَ أنى أذكر ما كان للعرب من أمهات الصنائع التى زاولوها للقيام بحاجاتهم ، وإن قلت فيهم ، ولم تصل الى نهاية الاتقان ، ولم تبلغ نصاب الكمال فانى بصدد بيان أسباب معايشهم على أن الكثير منهم كان بمعزل عن ذلك لما جبلوا عليه من الميل الى المعالى ، والتفاخر بالشجاعة والفروسية ، والتفاضل بالإقدام والجراءة ، والوفاء بالعهود ،

والقيام بواجب الاضياف ، وحفظ الذمار والذمام والكرم ، وغير ذلك من الشيم وعلو الهمم ؛ والقائم بأمر الصناعة لديهم دون غيره فى المكانة والشرف ، فَدُونَكَ ما كان لديهم من الصنائع التى مست اليها حوائجهم ، وهدتنا اليها لغتهم : — فمنها :

صناعة البناء

هذه الصناعة كانت منحصرة لأهل الحضر من العرب لأنهم الذين تمس اليها حوائجهم . وهى معرفة العمل فى اتخاذ البيوت والمنازل للسكنّ والمأوى للأبدان فى المدن . وعلل ذلك ابن خلدون فى مقدمته : بأن الانسان لما جبل عليه من الفكر فى عواقب أحواله لابد أن يفكر فيما يدفع عنه الأذى من الحر والبرد كاتخاذ البيوت المكتنفة بالسقف والحيطان من سائر جهاتها ، ثم ذكر كلاماً مفيداً يتعلق بهذه الصناعة ليس من غرضنا ، والقائمون بهذه الصناعة من العرب متفاوتون فيها فمنهم البصير الماهر ، ومنهم القاصر ؛ وكانت فى اليمن أبنية عظيمة ، وقصور مشيدة ، وكذلك فى غيرها كما ذكره الأصبهانىّ فى كتاب (جزيرة العرب) وأبنيتهم كانت متفاوتة . فمنها البناء بالحجارة ، ومنها البناء باللبن ، ومنها البناء بالآجرّ ، ومنها البناء بالطين والتراب ؛ وهى على أوضاع مختلفة ، وأشكال متفاوتة ، وتفصيل ذلك لا يليق بهذا المختصر . فمن أبنيتهم الدار ، ويقال لها : الدارة والمنزل والمنزلة والمباءة والمعان والوطن والمغنى والمثْوَى والمَرْبع ، ويقال لصحن الدار : حُرُّ الدار وقاعتها وباحتها وساحتها وصرحتها وبُحْبُوحتها ؛ وفى الدار البيت وجمعه أبيات والكثير البيوت ، والمخدع البيت فى البيت ، والنَّفَق والسَّرَب البيت تحت البيت ، والغرفة فوقه وهى العلّية وجمعها علالى ، والخِزانة وهى التى يحفظ فيها الشئ . قال امرؤ القيس :

اذا المرء لم يخزنْ عليه لسانه   فليس على شئ سواه بخزّانِ (١)

---

(١) راجع ص ١٠١

والمرقد المضجع . والحائط والجدار ما أطاف من البناء بالشيء ، والأُسُّ أصل الحائط ، والرِّهص البناء من الطين الموطوء يُنضَّدُ بعضه فوق بعض طريقةً طريقةً ويقال لكل عرق من الحائط رِهص ما خلا العرق الأسفل فانه رهص ، والخط الواحد منه ساف والجمع اسؤف وسؤف . ويقال للصف الواحد من اللبن أيضاً ساف فاذا أقيم الآجرّ بعضه فوق بعض فهو السميط ، ويقولون : ارتفع الحائط اذا بلغ أن يوضع عليه عقد الأزَج أو أن يُغَمَّى أو أن يقبب أو أن يسنم ، وبيت مغمى اذا سقف بالخشب ، والغماء ما يغمى به ، وبيت مقبّب ومسنَّم على هيئة السنام فى تضايق أعلاه واتساع أسفله ، والبرزخ الفُرْجَةُ بين الأزجين فى صَهْوَةِ البيت ، والهدَف تُرْس الأزج .

وفى الدار الصُّفة وجمعها صِفاف ، ومنها الشرقية التى تقابل المشرق ، والغربية التى تقابل المغرب ، والفراتية التى لا تقع الشمس فيها رأساً ، والمقنوءة مكان ظله دوم كالأماكن التى يجمد فيها الماء ، وبحذائها المشرقة ، والزاوية ، ملتقى الحائطين فى البيت ، والكُوَّة الثقب فى أعالى البيت ينفذ ، ويقال لها : الشاروق ، والمشكاة التى فى الحائط يقال لها الأوْقة ويقال بيت مُأوَّق . قال امرؤ القيس :

وبيت يفوح المسك فى حُجَرَاته   بعيدٍ من الآفات غير مُأوَّق

ويقال للسطح : الإجَّار والصَّهْوة ، وسقف البيت أعلاه الداخل ، وسمكه ما بين قراره الى سقفه . والطَّاية السطح ومربد التمر . والدَّرَج ما يُرتقى فيه الى السطح فان كان من خشب فهو السُّلَّم ، والعَتَب الدرج وكل مِرقاة منها عتبة والجمع عتب وعتبات ، والفَرْغ الخلاء بين المِرقاتين ، والتفاريج والطُّنُف آجرٌّ أو نحوه يجنح به أعلى الحائط ليقيه المطر أن يسيل عليه ، وهو الكُنَّة والإفريز وأفرز حائطه وطنَّفه ، وفى نحوه قال الهذلى :

وماضَرَبٌ بيضاء يأوى مليكها   الى طُنُف أعيا براقٍ ونازلِ (١)

---

(١) الضرب : العسل الابيض

والعِلاوة أعلى الحائط الذى لا يغمَّى ، وقد يكون الطنف قراميـد ، ويقال واحدها قرمد وهو الآجر الطويل . قال :

أوْ دُمْيَة فى مَرْمَرٍ مرفوعة   بُنِيَتْ بآجرٍ يشادُ بقَرْمَدِ (١)

ويقال : الهَرَادة من الخشب لأعالى الحيطان ، والنَّجيرة سقيفة بخشب لا يخالطها غيره ، والعَرْس حائط أو أسطوانة يقام فى البيت يوضع عليها طرف الجائز وهو العارضة ، والروافد خشب فوق العارضة ، واللَّبِن واحـدته لَبِنة ، واللَّبَّان الذى يضربه ، والملبن الذى يُضرب به ؛ والسابَلُ الذى ينقل عليـه ، والسَّميقان والأسمقة خشبات يدخلن فى السابل ، والطُّوب الآجرّ والطَّوَّاب الذى يطبخ أُتُونه ، والأطيمة أتّون الجرار والقِصاع ونحوها ، والبَلاط الحجارة تُفْرش بها الأرض ، يقال : دهليز مُبَلَّط ودار مفروشة بالآجرّ والبلاطِ ، ويقال للبنّاء : الهاجرىّ . قال لبيد :

كَعَقْرِ الهاجرى إذا بناه   بأشباهٍ حُذِينَ على مثالِ (٢)

والهاجرى : نسبة الى قبيلة ، وأول من بنى كان من هذه القبيلة ، وقال الجوهرى : وهاجرى نسبة الى هجر ومنـه قيل للبناء هاجرى ، والطَّيَّان الذى يطين الحائط والسطح ونحوها ، والمَلاَط ما رقّ من الطين ونحوه السَّياع ، ويقال للمالج الذى يمسح به وجه الحائط المِسْيَعَةُ والمِسَجَّةُ ، والمِطْمَرُ الخيط الذى يقدر به البناء ، والشِّيدوالقِصُّ الجصُّ ، والجصَّاصة موضع الجص ، والمَلاَّحة مَجْمَدُ الملح . والثلاَّجة مكبس الثلج ، والجيَّار والكلْس الصَّاروج . قال الجوهرى : الصاروج النورة وأخلاطهافارسىّ معرب ، وكذلك كل كلمة فيها صاد وجيم لأنهما لايجتمعان فى كلمة واحدة من كلام العرب

وفى الدار الكنيف وأصله الحظيرة ، ويقال له الُحشُّ والُمستراح والمخرَج ، فأما الكِرْياس فالكنيف على السطح بقناة الى الأرض وربما كان ناتئاً مكشوفا

(١) الدمية : الصورة المنقشة من الرخام . ويشاد : يبنى (٢) العقر : القصر

والمِرْحاض المغتسَل . والمِرْزاب والميزاب جميعاً المِثْعَب ، ويكون من خشب وغيره ؛ والبالوعة ثقب فى وسط الدار وكذلك البلوعة والجمع البلاليع ، ويقال للأسطوانة الآسية والسارية . قال جرير :

وجدنا بيتَ ضَبَّةَ فى مَعَدٍّ كبيت الضَّبِّ ليس له سوار (١)

وطَوَار الدار فِناؤها ، ومثله الجَناب والعَذِرة ، وجُعِلت اسماً لما يقوم عنه الانسان اذا كان يُلقى بها ، والنُّؤْيُ حاجز حول الخيمة يُحْفَرُ للمطر ، والدِّمَن آثار الدار ، والكِرْس ما تلبد من الأبوال والأبعار ، والطَّلَلُ ما شَخَص من الآثار ، والرَّوْسَم الرَّشْم وهو كل أثر لا شخص له

وفى الدار المطبخُ وهو موضع الطبخ ، والمخبِز موضع التنور ، والمِسْعَرُ والوطيس والتنور والهيلَمُ واحد ، والكرامة طبق التنور ، والمناقة حُجْرُه ، والساعور تنور فى الأرض صغير .

ومما يتصل بالدار الإِصْطَبْلُ ويجمع على إصطبلات وأساطب ، وفيه المَرْبط وهو الموضع الذى تربط فيه الدواب ، والمِرْبطُ بكسر الميم الحبل الذى تربط به الدابة ، وفيه المعلف وهو موضع العلف ، والآرِىّ والآخِيّة محبِس الدابة ، يقال تأرى أى تحبّس .

وفى الدار القصر ويقال له الجِدْل والفَدَن والعَقْر والصرح وهو كل بناء مرتفع . والأُطُمُ والأُجُمُ الحصن وجمعها آطام وآجام . قال قيس بن الخطيم :

فلولا ذُرَى الآطام قد تعلمونه وترك الفلا شُور كنتم فى الكواعب (٢)

والسُّور حائط الحصن ، والرَّبَض حائط حول السور ، والشُّرَفُ ما أشرف فوق الحائط واستشرف الناس من ورائه أى رفعوا رؤوسهم ، والبلد ، ثم المدينة

(١) يقول : وجدنا شرف هذه القبيلة شرفاً غريباً ضعيفاً واهياً فيما بين العرب كبيت الضب الذى هو جحر فى الارض لا دعامة له فاذا ضرب بأصغر معول تهدم عليه فكذلك بيت شرف هذه القبيلة .

(٢) يقول : لولا أعالى الحصون التى عرفتم التجاءكم اليها وهربكم من الصحراء لسبينا نساءكم وشركناكم فى النواهد منهن

وهى أصغر من البلد ، ثم القرية وهى أصغر من المدينـة ؛ ومن أبنيتهم البُرْأة والقُتْرَة والناموس والدُّجية والقُرْموص وهى مواضع يستتر فيها من الصـيد ، والمَرْقَب : موضع الطليعـة وهو الدَّيْدَبان(١) . والحِواء مكان الحىّ الحِلال ، والموسم مكان السُّوق . والمَحْفِل مجمع الرجال ، والمأتم مجمع النساء ، والنَّدِيّ مجمعهم للسَّمَر والحـديث . والمصطبة مجتمعهم لعظام الأمور ، والخان مكان مبيت المسافرين ، والحانوت مكان الشراء والبيع ، والسُّدَّة مابنى أمام الحانوت ، والعِضادة حانوت صغير قدام الحانوت الـكبير ، والحانة مكان التسوّق فى الخمر ، والماخور مكان الشرب فى منازل الخمارين ، والديماس الحمام ، والآتون موقد ناره ، هذا كله مما يدلك على أن القوم ممن كان له فى هذه الصناعة اليد الطولى ، والقدم الراسخة كيف لا وفى أرضهم المبانى القديمة ، والقصور المشـيدة ! وقد بقيت الى اليوم أطلالها ، ولم يمح من وجه البسيطة رسمها ولا مثالها !

بيوت أهل البادية من العرب

بيوت العرب على عشرة أنحاء : خِباء من صوف ، وبِجاد من وَبَر ، وفُسْطاط من شعر ، وسُرَادِق من قطن ، وقال الجوهرى السرادق واحد السردقات التى تمد فوق صحن الدار ، وكل بيت من كرسف القطن فهو سرادق ، قال رُؤْبة :

يا حكم بن المنذر بن الجارود سرادق المجد عليك ممدود

ويقال بيت مسردق ، قال الشاعر يذكر ابرويز وقتله النعمان بن المنذر تحت أرجل الفيلة :

هو المدخل النعمان بيتاً سماؤه صدور الفيول بعد بيت مُسَرْدَقِ

ومن بيوتهم القَشْع وكانوا يتخذونه من الجلود ، والقَشْع : الجلد اليابس ، قال متمم بن نُوَيْرة يرثى أخاه مالكاً :

(١) العراقيون اليوم يبدلون الياء زايا فيقولون : « الدزدبان »

ولا بَرَماً تهدى النساء لعرسه * إذا القَشْع من برد الشتاء تقعقعا [١]

والطِّراف بيت كان الأغنياء منهم يتخذونه من الأديم ، قال قائلهم :

رأيت بنى الغبرآء لاينكروننى * ولا أهل هذاك الطِّراف الممدّد

وبنو الغبرآء : هم الفقرآء ، يريد أن الممدوح يعرفه الفقرآء والأغنياء . والحظيرة بيت كانوا يتخذونه من شَذَب وهو جمع شذبة بالتحريك وهو مايقطع مما تفرق من أغصان الشجر ولم يكن فى لبه ، قال الجوهرى : والحظار الحظيرة تعمل للإبل من شجر لتقيها الريح والبرد ، والمحتضر الذى يعمل الحظيرة ، والخيمة بيت تبنيه العرب من عيدان الشجر ، والجمع خيمات وخيم مثل بدرة وبدر ، والخيم مثل الخيمة والجمع خيام مثل فرخ وفراخ ، وتخيم بمكان كذا ضرب خيمته به والأقْنة بيت يبنى من حجر والجمع أُقَن مثل ركبة وركب . قال الطِّرِمّاح :

فى شَنَاظِى أُقَنٍ بينها * عُرّة الطير كصوم النعام [٢]

والكُبَّةُ بيت يبنى من لبن . وهذه البيوت العشرة لم يتفق عليها أهل اللغة بل اختلفوا فى بعضها ، وهذه البيوت لأهل البوادى أحب لديهم من القصور المشيدة والبيوت المزخرفة ، وفى ذلك يقول قائلهم :

لَبَيْتٌ تخفق الأرواح فيـه * أحبُّ الىَّ من قصرٍ مُنيفِ [٣]

« وقال آخر »

الحسن يظهر فى شيئين رَوْنَقُهُ * بيت من الشِّعْر أو بيت من الشَّعَر

وسبحان من تصرف فى قلوب عباده كما شاء واختار ، ومنها :

---

(١) ج ١ ص ٧١ (٢) شناظ كثمان جمع شنظوة وهى أعلى الجبل . و « بينها » يروى فى موضعه « دونها » وعرة الطير : ذرقه . وعر الطير يعر : سلح . والصوم : سلح النعام

(٣) البيت لميسون امرأة معاوية رضى الله عنه . وسيأتى عند الكلام على (سكنة البوادى من العرب وما امتازوا به عن الحضريين)

صناعة النجارة

هذه الصناعة من ضروريات كل أمة من الأمم لاسيما أهل العمران ، وقد بينا أن العرب منهم أهل حضر وحاجتهم الى هذه الصناعة من الضرورى ، فانه لابد لهم من السقف لبيوتهم ، والأغلاق لابوابهم ، والكراسىّ لجلوسهم ؛ ومنهم سكنة البوادى وهم الأعراب ، ولابد لهم من العمد والأوتاد لخيامهم ، والحدوج لظعائنهم ، والرماح والقسىّ والسهام لسلاحهم الى غير ذلك . وكل واحدة من هذه الأمور فالخشب مادة لها ، ولا تصير الى الصورة الخاصة بها الا بالصناعة ، والصناعة المتكفلة بذلك المحصلة لكل واحد من صورها هى النجارة على اختلاف رتبها . قال ابن خلدون : فيحتاج صاحبها الى تفصيل الخشب أولاً إما بخشب أصغر منه أو ألواح ، ثم تركيب تلك الفصائل بحسب الصور المطلوبة ، وهو فى كل ذلك يحاول بصنعته اعداد تلك الفصائل بالانتظام الى أن تصير أعضاء لذلك الشكل المخصوص ؛ والقائم على هذه الصناعة هو النجار ، وهو ضرورى فى العمران ، ثم اذا عظمت الحضارة ، وجاء الترف ، وتأنق الناس فيما يتخذونه من كل صنف : من سقف أو باب أو كرسى أو ماعون ، حدث التأنق فى صناعة ذلك ، واستجادته بغرائب من الصناعة كمالية ليست من الضرورى فى شىء مثل التخطيط فى الأبواب والكراسى ، ومثل تهيئة القطع من الخشب بصناعة الخرط يحكم بريها وتشكيلها ، ثم تؤلف على نسب مقدرة ، وتلحم بالدساتر فتبدو لرأى العين ملتحمة ، وقد أخذ منها اختلاف الاشكال على تناسب يصنع هذا فى كل شىء يتخذ من الخشب فيجىء آنق ما يكون ، وكذلك فى جميع ما يحتاج اليه من الآلات المتخذة من الخشب من أى نوع كان ، ثم بيّن الأمور التى تحتاج الى هذه الصناعة ، وما تتوقف هى عليه من المعارف ، ومَنْ تعاطى هذه الصناعة من الأوائل والأقدمين ، والمقصود من نقل كلامه بيان حقيقة هذه الصناعة

وتعريفها ، فإنه لم يعرج على بيانها غيره ، وأن العرب كان منهم من زاول هذه الصناعة ومارسها وتقدم فيها على حسب استعداده وقابليته ؛ وقد رأيت فى كلام الأئمة من أهل اللغة فى ذكر أسماء أوصال الصور والأشكال المخصوصة ما يفيد كمال وقوفهم على هذه الصناعة ، وكذلك ما ورد عنهم من أسماء آلات النجارة ما لو لم يمارسوها لما عرجوا عليها ، ولنورد مما ذكروه شيئاً من القسمين لازدياد البصيرة : —

أوصال الباب ، وأسماء أجزائها

الباب من ضروريات الدار ، ومن الأمور التى لا بد منها ؛ وهى إنما تتكون بصناعة النجارة ، والعرب قد وضعوا لكل جزء مما تركب منه إسماً كما وضعوا لجملتها أسماء ، فمن أسمائها : الباب والرتاج ، قال امرؤ القيس :

له كَفَل كالدِّعْص لبَّدَهُ النَّدَى الى ثَبَجٍ مثل الرتاج المضبَّب (١)

ويقال له اذا كان واحداً فرد ، فان كان زوجاً فهما مصراعان ، وهى أبواب أفراد وأبواب مصاريع ، ومن أسماء الأوصال : ففى الباب ألواحه والواحد لوح وفيه المنكبان وهما جانباه ، والمِرْدم والمِرْدَى ما يضم أسفل المنكبين ، والمِقْعَمُ ما يضم أعلاهما وهو اللوح المعروض بينهما ويقال له المِلْحَام ، والصفائح الألواح العراض بينهما والواحدة صفيحة ، والزافر الذى يقال له أنف الباب ، ويد الباب أعلاه الذى يدور فى الحُقّ الأعلى ، ورِجْله الذى يدور فى الحُقّ الأسفل ، فان كان من حديد فهو قطب ، ويقال للحق الأسفل الجَيْزُور والنَّجْران . قال الشاعر :

صببتُ الماءَ فى النَّجْران صبًّا تركت الباب ليس له صَرِيرُ

وصريره صريفه وهو صوته ، والفائز الخشبة المثقوبة التى تدور فيها يد الباب ، ويروى فى الألغاز :

(١) أى لهذا الفرس كفل كالرمل المتراكب . لبده الندى : أى ركب المطر بعضه على بعض . الى ثبج : أى مع ثبج وهو مفرز الكاهل . والمضبب : الذى عليه ضبات الحديد .

وماعَزِيزٌ سُرَّ يوماً فَعَطِب ... وفائزٌ والنّارُ فيه تَلْتَهِب[1] ؟

وللباب العِضادتان وهما خشبتان تكتنفانه ، والأُسكُفّةُ الخشبة التى تضم العِضادتين من أسفل ، والعَتَبة التى تضمها من فوق ؛ وهذه الأربع اذا أدخل بعضها فى بعض فصارت مربعة فهى إطارُ الباب كما يقال إطار المنخل . والسَّقيفة ما فوق العتبة من الخشبة التى توصل بها ، وإياد الباب وسَنَده ومَلاذته خشبة تركب على ظهره تنفذُ اليها أذناب المسامير ، وتوثَّق بها ألواح الباب ؛ والمسامير ما كان من حديد والواحد مسمار ، والوَدّ الوَتِدُ من خشب وجمعه أوتاد ، والبِوان خالفة الباب ، وفى المجمل : البوان عمود البيت ، وقال الجوهرى : البِوان بكسر الباء وضمها عمود من أعمدة الخباء والجمع بُون بالضم ؛ وللباب حَلْقته ومِقْرَعته وهى التى يقرع بها الباب ، قال الشاعر :

من قَرَعَ البابَ ولَمْ ... يعجز عن القرع دَخَلْ[2]

فاذا كان مكانها سَيْرٌ فهو وَذَم ، والرزة الحلقة التى يقع فيها الزِّرْفين اذا اغلق ، وكتائف الباب وضَبّاته ما يركب عليه من الحديد والواحدة ضَبَّة ، والكَتيفة الورد ، واللَّوْأَب حديدتان متركبتان ذكر وأنثى ، والمِغْلَق موضع المِغلاق والمِغْلاق ما يفتح بالمفتاح ، والمِعْلاق بالعين غير معجمة مالا يحتاج الى مفتاح ، والقَفْوجحر الغَلَق ؛ وفى الغلق البلاطيط والواحد بلطاط ، وهى الخشبات التى تقع فى الثُّقَب التى ينغلق الباب بها ، ويقال : قَلْقِلِ الغَلَق حتى تقع البلاطيط فى أقماعها ، والمِقْلاد المفتاح وجمعه مقاليد ، وأسنان المفتاح هى التى ترفع البلاطيط عن الأقماع للفتح ، والخَرْق فى الباب يسمى الصير وهو الشّقّ ، وفى الحديث « من نظر فى صير

---

(١) يقول : ماولد كريم على والديه قطعت سرته فكان سبب هلاكه ؟ وهذا ما ألغزت به الشعراء لانه يتوهم أن « سرّ » من السرور ، وانما يراد به قطع السرة ، والسرور لا يكون سبباً للعطب كما يكون قطع السرة سبباً له . وقوله « فائز » يقول : وما فائز تحرقه النار ؟ والفائز الذى ينال الفوز فكيف يفوز من التهبت فيه النار ؟ وانما المراد بالفائز الخشبة التى فى الباب .

(٢) يريد أن من دام على طلب أمر ولم يفتر عنه وصل الى مراده منه .

باب ففقئت عينه فهو هَدَر » فان كانت فى الباب خروق فهو مخرّق ، فاذا لم تكن ألواحه متضامةً ، وكانت بينها فرج ، قيل : باب مُضلَّع ومُخلَّل ، ويقال لما كان كذلك من خشب غير ألواح مشبَّك ، وباب مصفَّح اذا كان من صفائح عراض خشبُ ، وتقول : أصفقت الباب وسفقته اذا ألصقته بالعتَبة ، وأجفته اذا تركت فيه فرجة ؛ وقد رددت الباب فهو مردود غير مصفق ، وبلقت الباب فتحته وانبلق انفتح ، والبلق الباب المفتوح ، وأغلقته فهو مغلق ، والمِحْصَن القفل وقد أقفلته فهو مقفل ، وللقفل عُمودة وهو حديدته الطويلة ، والفراشة التى تغيب فى مغلق القفل منشب ، ونُعام الفراشة الحدائد المستطيلة المركبة عليها ، وأعيار الفراشة مانتأ منها والواحد عير . ويقال للقفل : الجلازة ، وفشّ القفل اذا عالجه بشئ يحشوه به فيفتحه من غير مفتاح .

أدوات النجارين وآلاتهم

لا يخفى أن لهذه الصناعة أدوات كثيرة لا يمكننا استيعابها فى مثل هذا المقام ، وإنما نذكر بعضاً منها استدلالاً على مقصدنا . فمن آلاتهم (الفأس) وهى مؤنثة وجمعها أفؤُس وفُؤوس (والخِصِينُ) بالخاء معجمةً والصاد غير معجمة : فأس ذات خلف واحد (والحَدْأة) ذات رأسين والجمع حدَأ ، قال الشماخ :

يُباكِرْنَ العِضاهَ بمقْنَعاتٍ نواجِذُهنَّ كالحَدَإ الوقيعِ (١)

أى المحدود المضروب بالمطارق (والصّاقور) الفأس العظيمة التى لها رأس واحد دقيق تكسر به الحجارة وهو المِعْوَلُ ايضاً ، وقد صقرت الحجارة صقراً اذا كسرتها بالصاقور (والكرزن) والكِرْزين بالكسر فأس عظيمة يقطع بها الشجر ومثله الكَرْزَم والكرزيم والكرزوم ، قال جرير :

وأورثك القين العَلاةَ ومرجلاً وأصلاح أخرات الفؤوس الكرازما (٢)

(١) يقول : تغدو هذه الابل الى العضاه — وهو شجر له شوك — فتنفض أغصانها كأنما أسنانها التى تعمل فيها فؤوس قد حددت وضربت بالمطارق . (٢) القين : الحداد . والعلاة : السندان . والمرجل : القدر

(والقَدُوم) الفأس الصغيرة ، وهى مخففة ، قال الشاعر :

تُنيفُ برأسٍ فى الزمام كأنه قَدُومُ فُؤُوسٍ ماجَ فيها نِصابُها[1]

وقال الجوهرى : والقدوم التى ينحت بها مخففة ، والجمع قدم ، قال الأعشى :

أقام به شاهبور الجنو د حولين تضرب فيه القدم

وجمع القدم قدائم مثل قلص وقلائص ؛ والخُرْت نقب الفأس ، ونصابها خشبتها ، ويسمى الفعال . وأنشد ابن الاعرابىّ :

أتته وهى جانحة يداها جنوح الهبْرقىّ على الفعال[2]

وغُرابها حدُّها ، والوَشيظة والنِّخاسة عويد يجعل فى خُرْتها أو فى فتق نصابها ليضيق ، وذلك اذا ضمر النصاب ولم يتماسك ، يقال وشظته ونخسته ؛ وقلقت الفأس ، وماجت اذا اتسع خُرْتها واضطربت فى نصابها ، فانْ خرجت منه قيل نَصَلت تنصل نصولاً . قال الراعىّ :

فى مَهْمَهٍ قلقت به هاماتها قَلَقَ الفُؤُوس اذا أرَدْنَ نصولا[3]

ومنها (المِنْشار) وهو ما ينشر به الخشب أى يقطع ويقال نشرته وأشرته ووشرته ، ولذلك يقال أيضاً مِئْشار ، والنّشارة ما سقط منه ؛ ومنها (المِحْفَرَةُ) وهى آلة يحفر بها الخشب ، ومثلها المنقار ونقرت الشىء اذا ثقبته بالمنشار ومنها (المسْحَلُ) وهو مِبْرَدٌ أخشن من مبرد الحديد ، وهو الذى يسحل به الخشب أى ينحت ، والصغير من ذلك مِسْرَد ، ومنها (المِثْقَب) وهى آلة يثقب بها الخشب ، ومنها (الكلبتان) وهى آلة يجذب بها النجار المسمار من الخشب ، ويأخذ بها الحداد الحديد المحمى ؛ ومنها (العتلة) وهى آلة من حديد كأنها رأس فأس (وبيرم النجار) وتطلق أيضاً على العصا الضخمة من الحديد لها رأس

---

(١) يقول : ترفع مع الزمام رأساً يشبه فى رقته وإيصاله بعنق كأنها حديدة فأس مع نصالها وهى تضطرب فيه . (٢) يقول : جاءته وهى معتمدة يديها كاعتماد الهبرق (أى الحداد) على النصاب اذا أراد أن يعمل بحديده فيه . (٣) يقول : اضطربت رؤوس هذه الابل فى هذه الصحراء كما تضطرب الفؤوس اذا أرادت الخروج

مفلطح يهدم بها الحائط . الى غير ذلك من الآلات والأدوات المفصلة فى كتب اللغة ، ولولا معرفتهم بهذه الصناعة لم يستعملوا تلك الأسماء لهذه الأدوات، ومنها:

الحدادة

وهذه الصناعة أيضاً من ضروريات الأمم ، ولا يمكنهم الاستغناء عنها بوجه ومنافع الحديد للناس فى معايشهم ومصالحهم ليست بخفية على أحد ، إذ ما من صنعة من الصنائع ولا عمل من الاعمال إلا والحديد أوما يعمل به آلتها ، وفى التنزيل (وأنزلنا الحديدَ فيه بأسٌ شديدٌ ومنافعُ للناس وليعلم الله من ينصره ورسله إن الله قوىٌّ عزيز) وهذه الصناعة من الصنائع القديمة فى العالم ، وعن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما نزل مع آدم عليه السلام الميقعة والسندان والكلبتان . وروى انه نزل ومعه المر والمسحاة . وفى خبر نزل ومعه خمسة أشياء من الحديد السندان والكلبتان والأبرة والمطرقة والميقعة وفسرت بالمسن وتجىء بمعنى المطرقة أو العظيمة منها أو ما تحد به الرحى وفى حديث ابن عباس نزل آدم عليه السلام من الجنة بالباسنة وهى آلات الصناع أو سكة الحرث وليس بعربى محض . وكانت العرب تسمى صاحب هذه الصنعة القين : قال الجوهرى : القين الحداد والجمع القَيون . وعن ابن السكيت يقال للحداد ما كان قين ولقد قان يقين قينا . يقال قن اناءك هذا عند القين . وقنت الشىء اقينه قينا لممته وأصلحته ، وأنشد :

ولى كَبِدٌ مجروحةٌ قد بدا بها   صدوع الهوى لو كان قينٌ يقينُها

وفى المثل « اذا سمعت بسرى القين فانه مصبح » وهو سعد القين . صار مثلاً فى الكذب والباطل . يقال دهدرين . سعد القين . ويقال لبنى القين من بنى أسد بلقين كما قالوا بلحرث وبلهجيم وهو من شواذ التخفيف . وكان القيون مختلفين فى الأعمال فمنهم من كان يعمل اللجم والازمة لدوابهم وهى مشتملة على أجزاء كثيرة وأوصال مختلفة ، قال أبو عبد الله الاسكافى فى كتاب المبادىء :

فى اللجام الشكيمة وهى الحديدة المعترضة فى الفم ، والفأس الحديدة المنتصبة من الشكيمة ، والفَرَاشتان جانبا الشكيمة ، واليهما يربط العِذَاران والخُطَّافان والشاكلتان حديدتان مُعَقَّفَتان للعِنان والكَلُّوبان خُرْتان يدخل فيهما طرفا العنان ، والحَكَمَة الحديدة التى تستدير حول الأنف والحنك الأسفل وهما حكمتان ، والمِسْحَلان حديدتان تكتنفان الشِّدْقين ، والحديدة الواقعة على الصُّدْغ صُدْغ ، والطَّرف مافى أطراف السيور وقد يكون من فضة والنِّكْلُ لُجُمُ البغال . وقد أطنب فى الكلام عن اللجام وما اشتمل عليه . والمقصود بيان أن هذه الصناعة كانت راسخة فيهم حتى تمكنوا من صنعة دقائقها ، ومنهم من كان يعمل لهم السيوف . وقد اشتهر بهذا العمل رجل اسمه سريج كان ماهراً فى صنعتها متقناً لها . والسيوف السريجيات نسبة اليه ، وكانوا يسمون الذى يطبعها أى يعملها الطباع والصيقل هو الذى يصقلها . وفى ذكر أسماء ما اشتمل عليه السيف يعلم دقة صنعته وما يحتاج اليه من زيادة المعرفة فى هذه الصناعة . فحديدته هى النَّصل والسيلان سِنْخه فى القائم ، ومتن السيف ظهر النصل يقال سخَّن متنه أى أحماه ، وصدر السيف مقدمه ، وعرضاه وصفحاه وصفحتاه وألْلَاه بطنه وظهره ؛ فأما حداه فهما الذلقان والذبابان والغراران والشَّفْرتان ، ومَضْرِبه ما تُضْرَب به الضريبة وظُبَتُهُ طرف المضربة ، وشباته طرف الظبة ، وصَبِيًّا السيف ناحيتا الشباة ، وعَيْراه حرفان مرتفعان وسط متنه يقال سيف مُعَيَّر . والعُرْصان ما بين العَير الى الحدَّين ، وورنقه ماؤه وفِرِنْدُهُ ، وأُثْرُهُ كدبيب النمل فى متنه وهو مأثور ، وسيف مشطَّب ومشطوب فى متنه شطبة وهى طريقة فيه مرتفعة عنه ، وتسمى سِفْسِقَة السيف ، أو السفْسِقة ما بين الشُّطْبَتين على صفحة السيف طولاً ، وللسيف القائم وهو مقبضه ، وفى القائم القبيعة وهى الفضة أو الحديدة فى طرفه كالكُرَة ، ويسمى أعلى القبيعة القُلَة ، يقال : سيف مقلَّلٌ . قال الهذلىّ :

ولقد شهدتُ الحيَّ بعد رقادهم　　تُفْلَى جماجمهم بكلّ مقلَّل

والمسمار الذى فى طرَفى القبيعة وفى القائم الكلب والحِرْباء ، والشعيرتان طرَفا الحرباء ، وفى أحداهما حَلَقة فيها السير الذى يسمى القَلس والنَّعفَة والذؤابة والعِلاقة ، والمسمار الذى فى وسط القائم أيضاً حرباء وكلب وفى كل قائم كلبان ، والسَّفَن الجلد الأحرش المحبَّب الخشن يلبس القائم . والربأس من فضة أو حديد يجمع بين طرفى السَّفَن ، وقد يسمى القائم رئاساً . قال مُعَقّر بن حمار البارقىّ .

هما بَطَلانِ يعثرانِ كلاهما　　يُريدُ رئاسَ السيفِ والسيفُ نادِرُ (١)

وغاشية القائم فضة أو حديد تُوارى رأس الجَفْن اذا أغمد ، وشارباه طرفا الغاشية ، وماتحت الغاشية من الجفن الزافر ، والأسائن جمع أَسينَةٍ وهى سيور أدخل بعضها فى بعض وضُفِرتْ على القائم ، والجَفْن الغِمْدُ والقِراب ، وإزاره الجلد الذى يلبس ظاهراً ، وخِلَّتُهُ جلد يبطن به ، والنعل حديدة أسفل الجفن . والمِحْمَل والحمالة النِجّاد وهو السير الذى يركب العاتق ويحمل به . قال الشاعر :

الى مَلِكٍ لاتَنْصُفُ النعلُ ساقَهُ　　اجَلْ لاوإن كانت طوالا محامِلُهْ (٢)

أى لاتبلغ نعل سيفه نصفَ ساقه لطول قامته ، قال الشاعر :

كأنَّ عليها خِلَّةً فارِسيَّةً　　يُقَطِّعُها بين الجفون الصياقلُ (٣)

لأنَّ الخِلَّةَ كانت جلوداً منقوشة ، والرصائع جمع رصيعة وهى سيور تُضفَرُ بين الجفن والنجاد . قال الشَّنْفَرَى :

هَتُوف من المُلْسِ المتون يزينها　　رصائِعُ قدنيطت اليها ومِحْمَلُ (٤)

والبكرات الحلق التى فى النجاد كفُتُوخ النساء وهى مُدَوَّرات فى أطراف

---

(١) يقول : هما شجاعان يسقط كل واحد منهما صاحبه ويريد أن يعتمد على الرئاس والنصل قد خرج قائمه . (٢) أى الى ملك تام القامة فاذا تقلد السيف لم تبلغ نعل سيفه نصف ساقه وان كانت حمائله طويلة (٣) يقول : لم يبق من آثار هذه الدار الا آثاركأنها جلودمنقوشة يقطعها الصياقل ليغشوا جفون السيوف . (٤) يقول : قوس ترن اذا جذب وترها من القسى اللينة الليط ويزينها ما رصع به جعبتها ومحمل سيف مقرون بها . والرصائع : سيور تضفر بين الجفون والنجاد .

الحمائل تُمْسِك القيود ، والقيود حلق فى أحد جانبى الجَفْن ، والزوائد أطراف القيود ، وقد يشد فيها السيور ، فاذا سهل خروجه من غمده قيل سَلِسَ ودَلَقَ ، وإن تعسر قيل نَصِبَ ولَحِجَ ، فان ارتدّ عن الضريبة قيل نَبَا ، فان انكسر قيل انقصف ، وقيل صابيته أملت طرفه نحو الأرض كمُصابَاة الرماح ، وهززته فاهتزّ أى اضطرب .. «ومنهم» من كان يصنع لهم النبال والمسامير والسكاكين والأوانى وسائر الأدوات والآلات ، والكلام فى بسط ذلك يطول ، وقد أطنب فى بيان ذلك أبو عبد الله الاسكافى فى كتاب المبادىء ، وكذا غيره من أئمة اللغة .

أدوات الحدادين وآلاتهم

من جملة آلاتهم وأدواتهم (القُرْزُم والعَلَاة) وهى السندانة ، وعن ابن دريد أنّ القرزم بالقاف مضمومة لوح الاسكاف المدور ، (والمِطْرَقة) وهى آلة يضرب بها الحديد ، و (الفطيس) أكبر منها وهى الميقعة أيضاً ، يقال: وقعت الحديدة اقعُها وقعاً (والمِبْرد) الذى يبرد به الحديد . والبرادة ماسقط منه ، وفسالة الحديد ماتناثر منه عند الضرب اذا طبع (والمِشْحَذُ) مبرد للحديد أعظمها وأخشنها. وقال الجوهرى : المشحذ المسنّ (والمِفْراص) للحديد كالمقراض للثوب. وقال الجوهرى : والمفرص والمفراص الذى يقطع به الفضة ، قال الأعشى :

وأدفع عن اعراضكم وأعيركم   لساناً كمفراص الخَفَاجىّ ملحبا

(والخفاجى) نسبة الى خفاجة بالفتح حى من بنى عامر مشهورين بهذه الصنعة (والمنفاخة) ما ينفخ به الكير . والكير الذى ينفخ فيه . وفى الصحاح : كير الحداد زقّ أوجلد غليظ ذو حافات ، وأما المبنىّ من الطين فهو الكور (والمُشَرْجَعُ) مِطْرَق لا حروف لنواحيه ، ومطرقة مشرجعة أى مطولة لا حروف لنواحيها ، واذا كان الشىء مربّعاً فأمرت بنحت حروفه قلت شَرْجِعْهُ (والمَسْقَلَان) آلة

للصائغ وهو أصغر مطرقاته . والغُدَاف الحديدة التي يدخل في أحد طرفيها الخاتم ويركزُها على الجبأة وهي الخشبة التي بين يديه ؛ قال الشاعر :

* كَوَقْعِ المِسْقَلَانِ على الغُدَاف * والحِلْاج : منفاخه وهو حديدة مجوفة ينفخ فيها الصائغ اذا أراد النفخ في كيره وله الكلبتان والمثقب . ومنها :

الحياكة والنسج

هذه الصناعة من الصناعات التي كانت من مكاسب العرب ، وهي أيضاً من ضروريات الأمم ، فان كل أمة ولا سيما أهل الحاضرة محتاجون لهذه الصناعة لأجل لبوسهم وفرشهم وحمل أثقالهم ونحو ذلك ؛ وقد أمتن الله تعالى عليهم بقوله (ومن الأنعام حمولةً وفرشاً) الآية . وبهذه الصناعة يعرف كيفية نسج الغزل من الصوف والكتان والقطن سداً في الطول والحاماً في العرض لذلك النسج بالالتحام الشديد فيتم منها قطع مقدرة ، فمنها الأكسية من الصوف للاشتمال ، ومنها الثياب من القطن والكتان للباس . وبلاد العرب من العمران المعتدل فالدفء ضروري لهم ولا بد لهم من سرابيل تقيهم الحر والبرد ، وربما استغنى عن هذه الصناعة أهل البلاد المنحرفة الى الحر كما ينقل عن كثير من السودان أنهم عراة في الغالب . وسيجيء إن شاء الله ذكر ما كان ينسجه العرب ، وكان من المستجاد لديهم نسج اليمن .

أدوات الحياكة والنسج

كل حرفة من الحرف ، وصناعة من الصناعات ، لا بدَّ لها من آلات تخصها ، وأدوات تتوقف عليها ، فمن آلات هذه الصناعة عند العرب : (الحَفُّ) وهو الذي تُلْمَظُ به اللحمة أي تلقم ويُصفَقُ ليلتقمها السدى ، والجمع الحِفَفَةُ . وقال الجوهري نقلاً عن الأصمعي : الحفة المنوال ، وهو الخشبة التي يلف عليها الحائك الثوب . قال والذي يقال له الحفُّ هو المِنْسَجُ ، ونقل عن أبي سعيد : الحفة

المنوال ، ولا يقال له حف وإنما الحف المنسج ؛ ومن أدواتها (الوشيعة) وهى المِنْسَج وهى قصبة فى طرفها قرن يُدْخل الغزل فى جوفها وتسمى السهم ، وقال الجوهرى : الوشيعة لفيفة من غزل وتسمى القصبة التى تجعل النساج فيها لحمة الثوب للنسج وشيعة ، قال ذو الرُّمَّة :

به ملعبٌ من معصفات نَسَجْنَهُ   كنسج اليمانى برده بالوشائع

(والمِشْيَعَةُ) ما يلف عليه الغزل (والثناية) التى يثنى عليها الثوب (والعَدْل) خشبة لها أسنان كأسنان المِنْشار يقسم بها السدى ليعتدل (والصِّيصة) عود من طرفاء كلما رمى بالسهم فألحمه أقبل بالصيصة وأدبر بها . وفى الصحاح : الصيصة شَوْكة الحائك التى يسوّى بها السداة واللحمه . قال دُرَيْدُ بن الصِّمة :

فجئت اليه والرماحُ تَنُوشُه (١)   كَوَقْعِ الصَّياصى فى النسيج الممدّد

ومنه صيصة الديك التى فى رجليه (والنِير) الخشبة المعترضة التى فيها الغزل وثوب منيَّر ذو نيرين مضاعف النسج ، ومن اللغويين من يقول : النير لحمة الثوب فاذا نسج على نيرين كان أصفق وأبقى (والمداد) عصاً فى طرفيها صِنَّارتان يمدد بها الثوب (والصنَّارة) رأس المغزل (والكُفَّة) الخشبة المعترضة فى أسفل السدى (والجماران) يوضعان تحتها ليرفع السدى من الأرض ، والمُهْرَةَ والرَّفيد بالفارسية تلهْ (والمِثْلَث) قصبات ثلاث تسمى بالفارسية سِكَّانَهْ (والمبرم والبريم) الحبل الذى جمع بين مفتولين ففتلا حبلاً واحداً ، والمبرم من الثياب المفتول الغزل طاقين ومنه سمى المبرم وهو جنس من الثياب . وسدَّى الثوب تسدِيةً إذا مدَّ الغزل ليسقيه الخزيرة وهى كالحساء من دقيق (والشَّنْشَقَة) والشفاشق قصب يُشَقُّ ويوضع فى السدى عَرْضاً ليتمكن به من السقى (والدعائم) خشبات تنصب ويمد عليها السدى ، والسدى والستى واحد وسَدَيٌ مبرم وسدى سحيل

(١) أى تناوشه وتأخذه

والألحمة بالفتح ما يُلحَم به ، وأداة الحائك المنصوبة تسمى (المنوال) وهو النول أيضاً قال قائلهم :

حوكت على نَوْلين إذ تحاك وتخبط الشوك ولا تشاك (١)

ومنها :

الخياطة

وهذه الصناعة أيضاً من ضروريات العمران ؛ وكانت من مكاسب العرب وأحد أسباب معايشهم ، وعرفها (ابن خلدون) بأنها تقدير المنسوجات على اختلاف الاشكال والعوائد تفصل قطعاً مناسبة للأعضاء البدنية ، ثم تلحم تلك القطع بالخياطة المحكمة وصلاً أو تنبيتاً أو تفسحاً على حسب نوع الصناعة . قال : وهذه الصناعة مختصة بالعمران الحضرى لما أن أهل البدو يستغنون عنها ، وإنما يشتملون الأثواب اشتمالاً ، وإنما تفصيل الثياب وتقديرها وإلحامها بالخياطة للباس من مذاهب الحضارة وفنونها . ثم بين سر تحريم المخيط فى الحج ، وقدم هذه الصنعة ، والتى قبلها ومن ابتدأ بها ، ومن وقف على كسوة العرب وما كانت تلبسه وتفترشه وما ورد عنهم فيها من الأسماء تبين له كمال وقوفهم على هذه الصناعة ، وهذه نبذة منها : —

كسوة العرب

الكسوة هى الثياب التى تلبس ، وقد ذكرنا أوائل الجزء الأول من هذا الكتاب أن أهل البادية من العرب (وهم الرحل الذين لا يقيمون بمحل ، كان شعارهم لبس المخيط فى الغالب ، ولبس العمائم تيجاناً على رؤوسهم ، وربما ألقوا رداءاً على ظهورهم واتزروا بإزار ، وأما أهل الحضر وسكنة المدر منهم فكانوا

---

(١) يصف رداءة نسجت على نيرين فهى فى غاية من القوة والمتانة حتى انها تضرب الشوك ضرباً شديداً ولا يخرقها ولا يؤثر فيها لصفاقتها

يتفننون فى لبوسهم ، ويختلفون فى كسوتهم ، فكان الكاهن لا يلبس المصبغ والعرّاف لا يدع تذييل قميصه وسحب ردائه ، والحكم لا يفارق الوبر ؛ والشاعر منهم كان اذا أراد الهجاء دهن إحدى شقى رأسه ، وأرخى إزاره ، وانتعل نعلاً واحدة ، وكان لحرائر النساء زىّ ، ولكل مملوك زى ، ولذوات الرايات زى (١) وكانت سيماء أهل الحرم اذا خرجوا من الحرم أن يتقلدوا القلائد ، ويعلقوا عليهم العلائق ، واذا أوذم (٢) أحدهم الحج تزيّا بزى الحاج ، واذا ساق بدنة أشعرها (٣) حتى إنهم خالفوا بين سمات الإبل والغنم ، وأعلموا البحيرة بغير علم السائبة وأعلموا الحامى بغير علم الفحول ، وكذلك الفرَع والرجبية (٤) والوصيلة والعتيرة من الغنم ، وكذلك سائر الأغنام السائمة ، واذا كانت الإبل من حباء ملك غرزوا فى اسنمتها الريش والخرق ، ولذلك قال الشاعر :

يَهَبُ الهِجانَ بريشها ورعائها كالليْلِ قبل صباحه المُتَبَلّجِ

وإذا بلغت الإبل ألفاً فقأوا عين الفحل ، فان زادت فقأوا العين الأخرى فذلك هو المفقأ والمعمى ، وقال شاعرهم :

فقأتُ لها عينَ الفحيل تَعيُّفاً وفيهنّ رَعلاء المسامع والحام (٥)

وقال الآخر :

وهَبْ لنا وأنت ذو امتنان تفقأ فيها أعينُ البعْران

وقال الآخر :

فكانَ شكر القوم عند المنن كىّ الصحيحات وفقْء الأعين

والمقصود أنهم مختلفون فى اللباس والزى والسيماء ، حتى انهم اعتبروا

(١) مر ذكرهن فى الجزء الثانى ص ٤و٥ (٢) أوذم الحج : أوجبه على نفسه (٣) البدنة : ناقة أو بقرة تنحر بمكة ، وأشعرها : أعلمها أى جعل لها علامة وهو أن يشق جلدها أو يطعنها فى سنامها حتى يظهر الدم ويعرف أنها هدي . (٤) الرجبية : شاة كانوا يذبحونها فى رجب لآلهتهم . وشرح الكلمات الباقية : فى أوائل هذا الجزء . (٥) التعييف : التكهن وزجر الطير . والرعلاء : الطويلة الاذن ، والناقة تشق جلدة من أذنها فتعلق فى مؤخرها .

ذلك فى غيرهم مما يخصهم ، ولو بسطنا الكلام على ملابسهم ، وما قالوا فيها من الشعر ، وما ورد عنهم من الأسماء ، لأدى ذلك الى سفر كبير ؛ وكذلك الكلام على فرشهم ، وأرائكهم ، وما يتصل بذلك ، فانه يطول جداً ، ونخص الكلام على ما ورد عنهم فى العمائم والنعال ، وكان ذلك من زيهم العام : —

العمائم وما ورد عنهم فيها من الشعر

كانت العمائم تيجانهم وبها عزهم ، وفى الحديث « كانت عمائم العرب محنكة » أى طرف منها تحت الحنك ، ومن أسماء العمامة : العِصابة ، والمِقْطَعَة ، والمِعْجر ، والمِشْوَذ ، والكوارة ، وفى الحديث : أن رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم بعث سَرِيَّةً فأمرهم أن يمسحوا على المشاوذ والتساخين . وهى العمائم والخفاف ، وفلان حسن الشيذة : أى حسن العمة ؛ وفى (كتاب لباب الآداب) : وكانت السادة من العرب تلبس العمائم المهراة وهى الصفرة ، قال الشاعر :

رأيتك هربت العمائم بعد ما عمرت زماناً حاسراً لم تعمّم

فزعم الأزهرى أن تلك العمائم المهراة كانت تحمل الى بلاد العرب من هراة فاشتقوا لها وصفاً من اسمها ، وأحسبه اخترع هذا الاشتقاق تعصباً لبلده هراة كما زعم حمزة الأصبهانى أن السام الفضة وهو معرب عن سيم ؛ وانما تقول هذا التعريب وأمثاله تكثيراً لسواد المعربات من لغات الفرس وتعصباً لهم . وكان الزبرقان يصبغ عمامته بصفرة ، وذكره الشاعر [1] فقال :

وأشهدُ من عوف حُلولاً كثيرةً يحجُّونَ سِبَّ الزِّبرِقان المُعصفَرا [2]

وكان أبو أُحيحة سعيد بن العاصى [3] اذا اعتم بمكة لم يعتم معه أحدٌ هكذا

---

(١) هو المخبل السعدى (٢) السب : الخمار والعمامة ، ويروى « المزعفرا » بدل « المعصفرا »
(٣) كذا والصواب « العاص » وقد رأيت كثيراً من المؤلفين والطابعين يغلطون فيقولون « العاصى » بالياء فى هذا الرجل (أنظر البيان والتبيين : ج ٣ ص ٥١) وفى عمرو بن العاص وغيرهما من أبناء هذا البيت . والحقيقة أنه من « العوص » لا من « العصيان » ولذلك يقال لهم الاعياص

فى الشعر . ولعل ذلك أن يكون مقصوراً فى بنى عبد شمس . وقال أبو قيس ابن الأسلت :

وكان أبو أُحَيْحَةَ ، قد علمتم   بمكةَ غيرَ مهتضم ذميم
اذا شدَّ العِصابة ذاتَ يومٍ   وقام الى المجالس والخصوم
فقد حَرُمَتْ على من كان يمشى   بمكةَ غير مُدَّخلٍ سقيم (١)
وكان البَخْتَرِىَّ غداةَ جمعٍ   يدافعهمْ بلُقْمانَ الحكيم (٢)
بأزهرَ من سَرَاة بنى لؤَىٍّ   كبدر الليل راقَ على النجوم (٣)
هو البيت الذى بُنِيَتْ عليه   قريشُ السرُّ فى الزمن القديم
وَسَطْتَ ذوائبَ الفَرعيْن منهم   فأنت لُباب سرِّهم الصَّميم ! (٤)

وقال غيلان بن خرشة للأحنف : يا أبا بحر ! ما بقاء ما فيه العرب ؟ قال : اذا تقلدوا السيوف ، وشدوا العمائم ، واستجادوا النعال ، ولم تأخذهم حمية الأوغاد! قال : وما حمية الاوغاد ؟ قال : أن يعدوا التواهب ذلا ! قال الجاحظ (٥) : واذا قالوا سيد معمم فإنما يريدون أن كل جناية يجتنيها الجانى فى تلك العشيرة فهى معصوبة برأسه . قال دُرَيْد بن الصِّمَّة :

أبلغ نُعَيْماً وأوفى إنْ لَقِيتَهُما   إن لم يكن كان فى سَمْعَيْهما صَمَمُ
فلا يزالُ شهاباً يستضاء بهِ   يَهدى المقَانبَ مالم تهلك الصِّمَمُ (٦)
عارى الأشاجع معصوبٌ بلِمَّتِهِ   أمرُ الزَّعامة فى عرنينه شَمَمُ (٧)

وقال الكنانى

(١) وفي هذا المعنى يقول الآخر : —
أبو احيحة من يعتم عمته   يضرب وان كان ذا مال وذا عدد
وزعم الزبيريون أن هذا البيت باطل موضوع (الكامل للمبرد ج١ ص ١٦٥ طبع مطبعة التقدم بمصر . (٢) البختري : الحسن المشى والجسم (٣) سراة : جمع سرى وهو الشريف (٤) أي توسطت فكنت أنت الواسطة بين الفرعين . (٥) البيان والتبيين ج ٣ ص ٥٢ (٦) المقانب : جمع مقنب وهو الجيش ، والصمم : جمع صمة وهو الشجاع . (٧) الاشاجع : جمع الاشجع وهى عروق ظاهر الكف . واللمة : الشعر المجاوز شحمة الاذن . والعرنين : الانف ، والشمم : الارتفاع

تَنَخَّبَتْهَا للنسل وَهْىَ غريبة فجاءت به كالبدر خِرْقاً معمَّما [١]

فلو شاتم الفتيانَ فى الحى ظالماً لَمَا وجدوا غيرَ التكذّب مَشْتَما

ولذلك قيل لسعيد بن العاصى « ذو العصابة » وقد قال القائل [٢] :

كَعَاب أبوها ذُو العِصابة وابنُهُ وعثمانُ ماأ كفاؤها بكثير

وقيل لأعرابى : إنك لتكثر لبس العمامة ! قال : إن شيئاً فيه السمع والبصر لجدير أنْ يوقى من القر . وذكرت العمامة عنـد أبى الأسود الدؤلى . فقال : جُنَّةٌ فى الحرب ، ومكنة من الحر ، ومدفأة من القرّ ، ووقار فى النَّدِى [٣] ، وواقية من الأحداث ، وزيادة فى القامة . وهى تعد عادة من عادات العرب . قال عمرو بن امرئ القيس .

يامالِ والسيد المعمَّمُ قد يبطره بعدَ رأيه الشَّرَفُ [٤]

نحن بما عندنا وأنت بما عندك راضٍ والرأى مُختلِفُ

وكان من عادة فرسان العرب فى المواسم والجموع ، وفى أسواق العرب كأيام عُكاظ وذى المجاز ، وما أشبه ذلك التقنُّعُ إلا ما كان من أبى سليط طريف بن تميم أحد بَنى عمرو بن جُندب فانه كان لا يتقنع ، ولا يبالى أن يثبت عينه جميع فرسان العرب [٥] ؛ وكانوا يكرهون أن يعرفوا فلا يكون لفرسان عدوهم همّ غيرهم ، فكان هذا من شأنهم ، وربما مع ذلك أعلم الفارس منهم نفسه بسيماء : كان حمزة يوم بدر معلماً بريشة نعامة حمراء ، وكان الزبير معلماً بعمامة صفراء ، ولذلك قال درهم بن زيد :

---

(١) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة (٢) هو خالد بن يزيد بن معاوية . والبيت من بيتين قالهما فى زوجته آمنة بنت سعيد بن العاص بن أمية حينما طلقها وتزوجها الوليد بن عبد الملك . والبيت الثانى :

فان تفتلتها والخلافة تنقلب بأكرم علق منبر وسرير

— ومعنى تفتلتها : تأخذها فجاءة . (٣) المجلس (٤) يامال : ترخيم « يامالك » . (٥) أنظر الشرح فى ص ١٨٥ من الجزء الثانى

إنك لاقٍ غداً غُوَاة بنى المَلْـ ... ـكاءِ فانظرْ ما أنت مُزْدَهِفُ (١)
يمشون فى البَيْض والدروع كما ... تمشى جمال مصاعبٌ قُطُفُ (٢)
فأبْدِ سيماك يَعْرِفوك كما ... يبدونَ سيماهُمُ فتَعْترِف

وقال آخر

اذا المرء أثرى ثم قال لقومه : ... أنا السيد المُفْضَى اليه المعمَّمُ
ولم يُعْطِهم شيئاً أبَوْا أنْ يَسُودَهُمْ ... وهانَ عليهم رَغْمُهُ وهو ألْوَمُ (٣)

وقال آخر

اذا كَشَفَ اليومُ العَماسُ من اسْتِهِ ... فلا يرتدى مثلى ولا يتعمَّم ! (٤)

قالوا : وكان مصعب بن الزبير يتعمم العقداء وهو أن يعقد العمامة فى القفاء ، وكان منهم من يعتم الميلاء ، قال الفرزدق فى محمد بن سعد بن أبى وقاص :

ولو شَهِدَ الخيلَ ابنُ سَعْدٍ لقنَّعوا ... عمامته المَيْلاءَ عَضْباً مُهَنَّدا (٥)

وقال شمعلة بن أخضر الضّبىّ

جَلَبْنا الخيلَ من أطرافِ فَلْجٍ ... ترى فيها من الغَزْوِ اقْوِرارا (٦)
بكلّ طِمِرَّةٍ وبكلّ طِرْفٍ ... يَزِينُ سوادُ مُقْلَتِهِ العِذارا (٧)
حوالىَ عاصبٍ بالتاج منّا ... جبينَ أغرَّ يستلبُ الدُّوَارا (٨)
رئيسٌ ما ينازِعُهُ رئيسٌ ... سوى ضربِ القِداحِ إذا استشارا

وأنشد

اذا لَبِسوا عمائمهم طَوَوْها ... على كَرَمٍ ، وإنْ سَفَرُوا أناروا

---

(١) الازدهاف : الدنو والتقحم فى الشر والعداوة والاهلاك . (٢) البيض : جمع بيضة وهى هنا بيضة الحديد . ومصاعب : جمع مصعب وهو الفحل الذى تركته فلم تركبه ولم يمسسه حبل حتى صار صعباً . والقطف : جمع قطوف وهى الدابة التى تسئ السير . (٣) أى وهو حقيق بأن يلام (٤) يوم عماس : أى شديد . وكشف من أسته : كناية عن الشدة والمكروه

(٥) قنعوا : ضربوا والعضب المهند : السيف المعمول فى الهند . (٦) فلج : اسم بلد . والاقورار : الضمور والتغير (٧) الطمرة : الفرس الجواد المستعد للوثوب والعدو . والطرف : الكريم الطرفين من الآباء والامهات . والمقلة : الحدقة . والعذار من اللجام ما سال على خد الفرس (٨) الدوار : شبه الدوران يأخذ فى الرأس فيخيل لصاحبه أن المنظورات تدور عليه .

يَبيعُ ويشتري لهمُ سواهُمْ ولكنْ بالطِّعان هُمُ تجارُ
اذا ما كنتَ جاربني لؤيٍّ فأنت لأكرم الثقلين جارُ

وربما جعلوا العمامة لواء ، ألا ترى أن الأحنف بن قيس يوم مسعود ابن عمرو حين عقد لعبس بن طلق اللواء إنما نزع عمامته من رأسه فعقدها له ، وعلى ذلك قول زيد بن كثوة العنبريّ :

منعتَ من العُهَّار أطهارَ أُمِّهِ وبعضُ الرجال المدّعين زَنَاءُ(١)
فجاءتْ به عَبْلَ القَوام كأنما عمامته فوقَ الرجال لواء (٢)

وربما شدوا بالعمائم أوساطهم عند المجهدة ، واذا طالت العقبة ، ولذلك قال شاعرهم :

فسيروا فقد جَنَّ الظَّلامُ عليكم فباسْتِ الذى يرجو القرى عنا عاصم
دفعنا اليه وهو كالذّيخ حاظياً نشدّ على أكبادنا بالعمائم (٣)

وقال الفرزدق

بني عاصم إن تَلْحبوها فإنكم ملاحي للسوءات دُسْمُ العمائمِ (٤)

وقال آخر

خليليّ شُدَّا لي بفضل عمامتي على كَبِدٍ لم يبقَ إلاّ صميمُها

وقد ورد في العمامة شعر كثير . وفي العمامة الكور والجمع أكوار وهي الطرائق التي يعصب بها الرأس ؛ ولاثها : أدارها حول رأسه . والصوقعة مدخل الرأس في العمامة . والذؤابة ما أرسل منها على الظهر ، والقفدة أعلى العمامة ، واعتم القفداء كفها على رأسه ولم يسدلها ، واعتم عمة عجراء أي ضخمة ، وتلحاها أدار دوراً منها تحت الذقن وهو المأمور به ، واقتطعها لأنها على رأسه ولم يدرها تحت

---

(١) العهار : الفجار . والزناء : الضيق . (٢) عبل : ضخم
(٣) الذيخ : الذئب الجرئ وذكر الضباع وخطا يخطو : مشى الخطيا وهو مشى رويد
(٤) لحب الطريق : سلكه ، والمرأة جامعها . ودسم العمائم : سود العمائم .

الحنك وهو المنهى عنه ، فاذا أدارها على بعض فمه فذلك اللثام ، واذا أدارها على فمه فهو اللفام ، فان بلغ بها أصل فمه فذلك النقاب ، فاذا لم يظهر منه الا العينان فهو الاحتجار والتوصيص .

ما ورد عنهم من الشعر فى النعال

العرب لم تزل تلهج بذكر النعال ، والفرس تلهج بذكر الخفاف ، وفى الحديث المأثور : ان أصحاب رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم كانوا ينهون نساءهم عن لبس الخفاف الحمر والصفر ، ويقولون : هو من زينة نساء آل فرعون . وأما قول شاعرهم :

اذا اخضرَّتْ نعالُ بنى غُراب　　بَغَوْا ووجدتَهمْ أسرى لئاما

فلم يرد صفة النعل ، وانما أراد بأنهم إذا اخضرَّت الأرض وأخصبوا ، طغوا وبغوا ، كما قال الآخر :

وأطول فى دار الحفاظ إقامةً　　وأوزنُ أحلاماً اذا النعل أخضلَا

ومثله قوله

يا ابنَ هشام أهلكَ الناسَ اللَّبَنْ　　فكلهم يسعى بسيفٍ وقَرَنْ (١)

وأما قول الآخر

وكيف أرَجّى أنْ أسود عشيرتى　　وأُمّىَ من سلمى أبوها وخالُها

رأيتكمُ سُوداً جِعاداً ومالكٌ　　مُخصَّرَةٌ بيضٌ سِباطٌ نِعالُها

فلم يذهب الى مديح النعال فى أنفسها ، وانما ذهب الى سباطة أرجلهم وأقدامهم ، ونفى الجعودة والقصر عنهم . وقال النابغة :

رقاق النّعال طيّبٌ حُجُزاتهمْ　　يحيّونَ بالرَّيْحان يوم السَّباسِبِ (٢)

---

(١) القرن: حد السيف والنصل (٢) قوله « طيب حجزاتهم » أى اعفاء ، والحجزة : معقد الازار . والسباسب : أيام السعانين أو الشعانين من أعياد النصارى . أنظر ص ٣٤٨ من الجزء الاول .

يَصُونون أجساداً قديم نَعيمُها   بخالصة الأردان خُضْر المناكب

وبنو الحرث بن سدوس لم ترتبط حماراً قط ، ولم تلبس نعلاً قط اذا نقبت وقد قال قائلهم :

ونُلقى النعال اذا نقبت   ولا نَستعينُ بأخلاقِها
ونحنُ الذُّؤابة من وائلٍ   إلينا تمدُّ بأعماقِها (١)

وهم رهط خالد بن معمر الذى يقول فيه شاعرهم :

مُعاوِىَ أمِّرْ خالد بن مُعَمَّر   فانك لولا خالدٌ لم تُؤَمَّرِ

وقائلهم يقول :

أغاضبةٌ عمرو بن شيبان ان رأت   عديدين من جرْثومةٍ ودَخِيس (٢)
فلو شاءَ ربى كان أيرُ أبيكمُ   طويلا كأير الحرث بن سَدُوس (٣)

وأما قول الآخر

ياليت لى نعلَيْنِ من جلد الضَّبُعْ   وشَرَكاً من أستِها لا تنقطعْ
كلُّ الحِذاء يحتذِى الحافى الوَقِعْ (٤)

فهذا كلام محتاج ، والمحتاج يتجوز ، وقال النَّجاشىُّ لهند بن عاصم :

إذا الله حيًّا صالحاً من عباده   كريماً فحيًّا الله هندَ بنَ عاصم
وكلُّ سلولىٍّ اذا ما لقيته   سريعٌ الى دار النَّدَى والمكارم
ولا يأكل الكلب السَّروقُ نعالهم   ولا تنتقى المخَّ الذى فى الجماجم (٥)

(١) الذؤابة : من العز والشرف وكل شئ أعلاه (٢) الجرثومة : الاصل . والدخيس : العدد الكثير (٣) أير الحرث : يضرب به المثل فى كثرة الاولاد وكان له أحد وعشرون ذكراً . والعرب تقول « فلان طويل الاير » اذا كان كثير الاولاد . ومما ينسب الى على رضى الله عنه « من يطل أير أبيه ينتطق به » أى من كثرت اخوته استظهر بهم وضرب المنطقة اذ كانت تشد الظهر مثلا لذلك . (٤) هذا الرجز ينسب الى أبى المقدام جساس بن قطيب . . والشرك : جمع شرك وهو سير النعل . والاست : الدبر . وقوله : كل الحذاء الخ مثل يضرب عند الحاجة تحمل على التعلق بما يقدر عليه . ووقع الرجل يوقع وقعاً اذا حفى من مره على الحجارة (٥) انتقى العظم : استخرج مخه .

قال يونس « كانوا لا يأكلون الأدمغة ولا ينتعلون إلا بالسِّبْتِ[1] »

وقال كثير :

اذا نُبِذَتْ لم تُطِبِ الكلبَ ريحُها — وإن وُضِعَتْ فى مجلسِ القوم شُمَّتِ

وقال قتيبة بن الحرث

الى مَعْشَرٍ لا يخصِفُونَ نِعالَهُمْ — ولا يَلْبَسونَ السِّبْتَ مالم يُخَصَّرِ

وقال الأحنف « استجيدوا النعال، فانها خلال الرجال » واذامدح الشاعر النعل بالجودة فقد بدأ بمدح لابسها قبل أن يمدحها . ومعنى قول قائلهم :

(و) قام بناتى بالنعال حواسراً — وألصقْنَ وقعَ السِّبْتِ تحتَ القلائدِ

أن النساء ذوات المصائب إذا قمن فى المناحات كنَّ يضربن صدورهن بالنعال ، وقال خلف الأحمر :

سقى حجَّاجنا نوْءُ الثُّريَّا — على ما كان من مَطْلٍ وبُخلِ

هُمُ جمعوا النعالَ فأحرزوها — وسدُّوا دونها باباً بقُفْلِ

اذا أَهدَيْتُ فاكهةً وشاةً — وعَشْرَ دجائجٍ بعثوا بنَعْلِ

ومِسْواكين طولهما ذِراعٌ — وعشرٍ من ردى المُقْلِ خَشْلِ[2]

فان أهديت ذاك لتحملونى — على نعلٍ فدَقَّ اللهُ رِجلى

وقال كثيّر

كأنَّ ابنَ ليلى حين يبدو فتنجلى — سجوفُ الخباءِ عن مَهيبٍ مشمّتِ[3]

مقاربُ خَطْوٍ لا يغيِّرُ نعلَهُ — رهيفُ الشِّراك سهلة المتسمّتِ[4]

اذا طُرِحت لم تطب الكلبَ ريحُها — وان وُضِعتْ فى مجلسِ القومِ شُمَّتِ

---

(١) جلود البقر وكل جلد مدبوغ (٢) المقل : ثمر شجر الدوم . والدوم : شجرة تشبه النخلة فى حالاتها . ويقال للمقل خشل اذا كان يابساً (٣) السجوف : جمع سجف وهو الستر . ومليك مشمت . أى محيي من معنى حياه اذا دعا له بالتحية (٤) رهيف الشراك : رقيق سير النعل ومسمت النعل : أسفل من مخصرها الى طرفها

وقال بشار

اذا وُضعتْ فى مجلس القوم نعلُها　　تضوَّعَ مِسْكاً ما أصابتْ وعنبرا

ولما قال على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنه لصعصعة بن صوحان فى المنذر الجارود ما قال، قال صعصعة « يا أمير المؤمنين ! لئن قلت ذاك انه لنَظَّار فى عطفيه ، تفال فى شراكيه ، تعجبه حمرة بُرْدَيْه » وذمّ رجل ابن التوأم فقال: رأيته مشحم النعل ، دَرِنَ الجورب (١) ، مغضَّن (٢) الخف ، دقيق الجربان (٣) »

وقال الهيثم « يمين لا يحلف بها الا الأعرابى أبداً أن يقول: لا أورد الله لك صادراً ، ولا أصدر لك وارداً ، ولا حططت رحلك ، ولا خلعت نعلك »

وقال آخر :

عَلِقَ الفؤاد بِرَيِّقِ الجهلِ (٤)　　وأبَرَّ واستعصى على الأهْلِ

وصبا وقد شابَتْ مفارقهُ　　سَفهاً وكيف إصابة الكَهْلِ (٥)

أدركت مُعْتَصَرِى وأدركنى　　حلمى ويَسَّرَ قائدى نَعْلى (٦)

وقال آخر

كم أرى من مُسْتعجب من نعال　　ورضائى منها بلبس البَوالى

كلُّ جَرْداءَ قد تحيَّفها الخصـــفُ بأقطارها بسرْو النّعال (٧)

لا تُدَانى وليس تشبه فى الخِلـــقة إنْ أبْرزَتْ نعال المَوالى

لا ولا عن تقادُمِ العهد منها　　بَلِيَتْ لا ولا لِـسَمَرِّ الليالى

ولقد قلت حينَ أوثرُ ذا الودِّ　　عليهـا بِثَرْوَتى وبمـالى

منْ يُغالى من الرجال بنعلٍ ؟　　فسوائى إِذَنْ بهنَّ يغالى

أوْ بَغَاهُنَّ لِلْجمال فإنى　　فى سِواهُنَّ زينتى وجَمالى

(١) وسخ (٢) مجعد (٣) جربان القميص : طوقه الذى فيه الازرار مخيطة فاذا أريد ضمه أدخلت الازرار فى العرا فضم الصدر الى النحر (٤) ريق كل شئ : أوله وأصله

(٥) المفارق : جمع مفرق وهو وسط الرأس الذى يفرق فيه الشعر . والكهل : من وخطه الشيب

(٦) المعتصر : الهرم والعمر

(٧) الجرداء : المجردة من الشعر . وتحيفها : تنقصها من أطرافها

فى إخائى وفى وفائى ورأيى وعَفَافى ومَنْطق وفَعَالى
ما وقانى الحفا وبلّغنى الحا جَةَ منهـا فاننى لا أبالى

وشعر العرب المشعر بلبسهم للنعال، وإيثارهم لها على غيرها مما يلبس بالأرجل لا يمكن استيعابه فى مثل هذا المقام، وما ذكرناه وافٍ بالمقصود . ومنها :

الفلاحة

وهى من أسباب معايش العرب العامة، لاسيما سكنة اليمن والبحرين وعمان وهجر وغالب بلاد نجد، فسكنة هذه البلاد كلها غالب معايشهم من الحرث والغرس، ولهم فى غرس النخيل اهتمام وأى اهتمام! وما ورد عنهم فى شأنه كلام طويل، ومعرفتهم بشؤونه كمعرفتهم بالخيل؛ وحيث أن أرضهم وبلادهم صالحة لإنبات أكثر نبات العالم، وشجر الدنيا، اتسع نطاق معارفهم فى هذه الصناعة ومن تتبع الكتب المؤلفة فى النبات والشجر لاسيما كتاب (أبى حنيفة الدينورى) اعترف بما ذكرناه مع ما فى لغتهم من الشهود العدول عليه؛ وغالب من تعاطى هذه الصناعة سكنة البوادى منهم؛ ويبين السبب فى ذلك ابن خلدون فقال : اعلم أنّ اختلاف الأجيال فى أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش. فان اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله، والابتداء بما هو ضرورى منه، ونشيط قبل الحاجى والكمالىّ، فمنهم من يستعمل الفلح من الغراسة والزراعة، ومنهم من ينتحل القيام على الحيوان من الغنم والبقر والمعز والنحل والدود لنتاجها، واستخراج فضلاتها، وهؤلاء القائمون على الفلح والحيوان تدعوهم الضرورة ولابد الى البدو، لأنه متسع لما لا يتسع له الحواضر من المزارع والفدن والمسارح للحيوان وغير ذلك، فكان اختصاص هؤلاء بالبدو أمراً ضروريا لهم، وكان حينئذ اجتماعهم وتعاونهم فى حاجاتهم ومعاشهم وعمرانهم من القوت والكنّ والدفء انما هو بالمقدار الذى يَحْفَظُ الحياة، ويحصل بُلْغَة العيش من غير مزيد عليه ،

للعجز عما وراء ذلك ؛ ثم أخذ يذكر أسباب الحضارة وموجباتها ، والحاصل أن ما ذكرناه غالب مدار معايش العرب ، وما يقوم بدفع ضروريّاتهم ، وما تمس اليه حوائجهم ؛ ولهم أسباب أخر كالغوص على اللؤلؤ ؛ والى اليوم سكنة البحرين وهجر وغير ذلك من سكنة السواحل يعيشون عليه ، والبحث على اللؤلؤ والأصداف ، وكيفية صيده ، وما ورد عن العرب فى ذلك مما لا يسعه المقام ، ومنهم من كان يعيش على صيد البر والبحر ، ولهم فيه مذاهب وعوائد مفصلة فى كتب الحديث ، ومنهم من كان يعتاش بالمواشى والأنعام ، كالغنم والبقر والابل ، ولهم فى القيام عليها وتربيتها قدم راسخة ، وعلم واسع .

ما أوجب تقدم العرب

من وقف على أحوال العرب ، وتصفح كتب أخبارهم ، وعرف شؤونهم على اختلاف طبقاتهم وأزمانهم ، تبين له أن العرب أمة قديمة مضى عليها أمد طويل ، وأتى عليها حين من الدهر لا يعلم له مبدأ معين ؛ وهم فى كل ذلك ما بين ارتفاع وانحطاط ، وترقٍ وهبوط ، وائتلاف واختلاف ، وسعادة وشقاء ، وعزّ وذل ، وعسر ويسر ، ومن استقرآء أحوالهم تبين أن مدار تقدمهم وارتقائهم على مِنَصَّة السؤدد ، وذروة العز ، أمور (منها : بالعلم) فانَّ العلم على اختلاف فنونه ، وتشعب غصونه ، من أعظم أسباب سعادة الانسان ، وهو نور محض به يهتدى أولو البصائر والعرفان ، ولا نعنى به إلا العلم النافع الدافع لحاجات النوع الانسانى وضرورياته ، فدخل فيه جميع العلوم العقلية والنقلية ، الفرعية منها والأصلية . وأما الجهل فهو أساس كل بلاء ، وأصل كل جهد وعناء ، فلذا ترى كل أمة استنارت عقولها بالعلم ، وتحلت بحلى الفضل ، لم تزل تتدرج فى مدارج الارتقاء ، وتتلألأ منها أنوار الهداية لسلوك سواء السبيل ، وكل أمة امتد عليها رواق ظلام

الجهل ، واستحكم فيها داء الغباوة ، انسدّتْ عيون بصائرها ، وفسدت نتائج أفكارها ، فضلّت عن سلوك الجادة ، وحُرمت اجتناء ثمار السعادة ، واتصفت بالصفات الذميمة ، وتخلقت بالأخلاق الغير المستقيمة ، وتاهت فى بيداء الحرمان وجاءها موج البلاء من كل مكان ، فبالعلم النافع تكون الثروة ، وبالعلم تتهذب الأخلاق ، وبالعلم يسود الذليل ، وبالعلم ينتصر على العدو ، وبالعلم يقهر الخصم الألد ، وبالعلم تفك أغلال الأعناق من أسر التقليد ، وبالعلم تدرك الامانى ، وينال كل مقصد بعيد ؛ ومن باد من العرب وهلك إنما كان من الجهل بعد العلم ، والغى بعد الهدى » ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد (١) وثمود الذين جابوا الصخر بالواد (٢) وفرعون ذى الأوتاد (٣)

---

(١) عاد : جيل من العرب العاربة أو البائدة ، يقول النسابون انه من ولد عوص بن ارم بن سام بن نوح عليه السلام . قال الشيخ محمد عبده : وسواء صح النسب أم لم يصح فقد كان ذلك الجيل معروفا باسم عاد ويلقب أيضاً بارم وبقى مشهوراً عند العرب بذلك ، قال : وذات العماد وصف لارم التى هى قبيلة عاد نفسها ، ومعنى ذات العماد سكان الخيام حلاً ، ارتحالا أو ذات العماد الرفيعة والقوة المنيعة . عبر بالعماد عن العلو والشرف والقوة . وكانت منازلهم بالرمال والاحقاف الى حضر موت ، وقد بلغت عاد من الشدة والقوة مبلغاً لم يصل اليه سواها فى عهدها ولذلك قال التى لم يخلق مثلها فى البلاد . والاستفهام فى « ألم تر كيف فعل ربك بعاد » للتذكير والتقرير انتهى . وهذا هو التحقيق الذى يقطع به العقل السليم . ولضعفة المفسرين الذين أصيب الاسلام منهم بداهية دهياء وفاقرة عظمى ورزية كبرى ، حكايات خرافية وأقاصيص منحولة وأساطير مفتعلة فى تصوير ارم ذات العماد يسود من ذكرها وجه القرطاس وتتلكأ اليراعة فى الجرى بها واللسان فى تلاوتها . وكان يجب أن ينزه عنها كتاب الله الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولكن أنى لتلكم العقول السخيفة والادمغة المعصبة الجافة أن تتحرر من أغلال التقليد الاعمى فتتمتع فى نعمة العقل تحت ظلال الحق..؟

فاذا وقع اليك أيها الاخ اللبيب شئ من كتب أولئك « المخلوقين » فانبذه وراءك ظهريا واياك وان تغرك الكنى والالقاب ! (٢) ثمود : قبيلة من العرب البائدة . وجابوا الصخر : قطعوه ونحتوه كما قال تعالى « وتنحتون من الجبال بيوتا فارهين » فقد أنعم الله عليهم بالقوة والعقل حتى صنعوا لانفسهم بيوتا من الصخر بذلك الوادى الذى كانوا يقيمون فيه . وقد يصح ماقال بعضهم ان معنى جابوا الصخر بالواد انهم قطعوا الصخر واتخذوا منه واديا يخزنون فيه الماء لمنافعهم . ولا يفعل ذلك الا أهل القوة والفهم من الامم . (٣) فرعون : حاكم مصر فى عهد موسى عليه السلام . والاوتاد : المبانى العظيمة . وللشيخ منزع غريب فى اختيار تفسير الاوتاد بالمبانى العظيمة لم أره لغيره .

الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب [١] إن ربك لبالمرصاد [٢] ». وهكذا من بقى منهم إنما تفرق جمعهم ، وتشتت شملهم وأدركهم الذل والهوان ، والفقر والخسران ، بعد أن ضاقت عنهم الحزون والسهول ، ودوخوا البلاد والأقطار ، بسيوف لم يصبها فلول ، لما خيم عليهم غمام الجهل ، وعصفت عليهم عواصف الغواية ، واتباع الأهواء كما هو مفصل فى كتب التفسير والحديث . هؤلاء أولاد اسماعيل عليه السلام ، ولا سيما قريش منهم إنما كانوا من العز بمكان مكين ، ومن السؤدد بحصن حصين ، بسبب ما كان لهم من العلم أوفر نصيب ، فائزين منه بالقدح المعلى والرقيب فدانت لهم يومئذ القبائل ، ودانت لهم البلاد ، فلم يكن دونها حائل ، وبذلك سموا قريشاً كما قال الشاعر :

وقريشٌ هى التى تسكنُ البحـ ... ـرَ بها سُمِّيَتْ قُرَيْشٌ قُرَيْشا
تأكُلُ الغثَّ والسَّمين ولا تتـ ... ـرك فيه لذى جَنَاحَيْن ريشا
هكذا فى البلادِ حىُّ قريشٍ ... يأكلونَ البلادَ أكلاً كميشا [٣]

ولم يزالوا على عزهم ومجدهم ، وإقبالهم وشرفهم ، الى أن تناقص منهم العلم وتقلص عنهم ظل المعارف والفضائل ، وذلك قبيل الإسلام بنحو ثلثمائة سنة ، وهو المعنى بزمن الجاهلية على قول منصور ؛ فحينئذ شاع فيهم الجهل ، واختلت منهم الأحوال ، وفسد منهم أكثر الخلق المحمود ، وارتفعت منهم البركات ، وفشى فيهم المنكر ، وتقاعدت منهم الهمم ، وفترت منهم العزائم ، وتفرق منهم الشمل ، وكثرت فيهم البدع والأهواء ، الى أن أشرقت عليهم أنوار بدر

(١) السوط : لفظ شاع استعماله فى الجلد المضفور الذى يضرب به وان كان فى الاصل اسماً للخلط والمزج . وصب السوط انزاله بشدة مع توالى ضرباته بلا انقطاع (٢) هو المكان الذى يقوم به الرصد وهو القوم الذين يرصدون أى يرقبون بالخير أو الشر . والكلام على التمثيل أى ان ربك القائم بتدبير أمرك رقيب على عباده لا يفوته من شؤونهم شئ ، ثم هو مجاز كل عامل بعمله فلا يفاته أحد فلا يظن أهل الطغيان الذين يكثرون فى الارض الفساد أن يتفلتوا من الله وعقابه .
(٣) سريعاً

الإسلام . وبعث الله تعالى من أنفسهم رسولاً مؤيّداً بالآيات الباهرة ، والمعجزات الظاهرة ، مكرماً بطهارة الأعراق ، مشرفاً بما جبل عليه من مكارم الأخلاق ، التى نقض بها عوائد الفطر ، وباين لها جميع البشر : من فروسيته وشجاعته وبأسه ونجدته ، وعزمه وهمته ، وعلمه وحلمه ، وزهده وعبادته ، ورضاه وصبره ، وحمده وشكره ، وذكره وفكره ، واعتباره وتبصره ، وخوفه وخشوعه ، وتواضعه وخضوعه ، وكرم آبائه وجدوده ، وسخائه وجوده ، وفصاحته وصدق لهجته ، ورعايته للعهد ، ووفائه بالوعد ، وأمانته وشفقته ، وحسن خَلقه وخُلقه ، وحيائه ولينه ، وثقته ويقينه ، وعفوه ورحمته ، وصفحه ورأفته ، الى غير ذلك من الصفات الحميدة ، والشمائل السديدة ؛ فوجدهم إذ ذاك ما بين عابد أوثان ، ومستمرٍّ على إيقاد النيران ، وجاهد فى تخريب البلاد ، وتعذيب العباد ؛ وجاثمٍ على السجود للشجر ، والخضوع للحجر ، الى غير ذلك من الضلال والمنكر ، هذا مع ما كانوا عليه من الاستعداد والقابلية لقبول الخير ، ورجاحة الاحلام ، وصحة العقول ؛ فجد حينئذ بدعائهم الى مافيه سعادتهم ، وكابد ما كابد فى تغيير عوائدهم ، لاسيما قومه وعشيرته ، فقد نال منهم ماتشيب منه النواصى ، وتنهد له الصياصى ، فان العرب ولا سيما قريشاً — كما وصفهم الكتاب الكريم — كانوا من الدهاء واللدد عند الخصومة ، وخلابة الألسنة ، وبلاغة المنطق ، والتمسك بما ألفوه من العوائد ، على جانب عظيم — الى أن جمعهم على كلمة الإيمان ، وعلمهم من المعارف والكمالات ما فيه سعادتهم دنياً وأخرى ، ومرّنهم على محاسن الاخلاق ، وحثهم على السعى والتكسب ، وأصلح لهم ما أفسدوه ، وجدد لهم مابدلوه وغيروه ، حتى نبعت من قلوبهم ينابيع الحكم الجمة ، والمعارف النورانية ، وفاضت على الصدور والالسنة ، وامتلأ منها الكتب والدفاتر ؛ وأصبحوا أعلم من فى الارض ، فما من دابةٍ فى الارض ولا طائرٍ يطير بجناحيه إلا وكان لهم به علم ومعرفة ! وبذلك تقدموا

يومئذ ذلك التقدم الذى بهر العقول ؛ واستولوا على غالب أقطار المعمورة ، وجلوا عن القلوب ظلماتها ، وأشادوا الدين الحق على أمتن أساس ، وأنقذوا العالم من لجج الفساد

ومن أسباب تقدمهم اتفاق كلمتهم

من المعلوم الذى لايستراب فيه أن القوم متى اتفقت آراؤهم ، واجتمعت كلمتهم ، صاروا يداً واحدة على من سواهم ، وانتصروا على عدوهم ، وتشيد بنيان مجدهم ، وهابهم من سواهم ؛ وكان العرب أيام جاهليتهم لاتجمعهم كلمة ، ولا ينظمهم سلك نظام ، وعادى بعضهم بعضاً ، وانتشرت بينهم الحروب والمنازعات ، كما أخبرت بذلك كتب أيامهم [1] فلذلك فشى فيهم يومئذ الذل والصغار ، وعمَّهم الهوان ، الى أن أخذت العناية الالهية بايديهم من ذلك العناء ، وجمع شملهم بكلمة الحق ، وأوجب عليهم الدين المبين الاعتصام بحبل الله ، وأن لايتفرقوا ، وأمرهم أن يكونوا كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، وكالجسد الواحد اذا شكا عضو منه شكا جميعه ؛ وكان بين الأوس والخزرج حروب أيام الجاهلية تطاولت نحو مائة وعشرين سنة حتى قارب أن يفنى الحيان ؛ فلما جاءهم الاسلام ، وتشرفوا به ، ارتفعت الشحناء من بينهم ، وأصبحوا يداً واحدة على من سواهم ، وذلك قوله عز اسمه (ياأيها الذين آمنوا اتقوا الله حقَّ تُقاته ولا تموتُنَّ إلا وأنتم مسلمون . واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمةَ اللهِ عليكم إذ كنتم أعداء فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً وكنتم على شفا حُفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّنُ الله آياته للناس لعلهم يتقون) فلما ألف الله تعالى كلمة العرب على الاسلام ، وتوجهوا لطلب ما فى أيدى الأمم من الملك ، لم يكن دونه حمى ولا وَزَر ، فكان لهم من الملك الواسع ما هو معلوم لمتتبعى كتب الأخبار ؛ فلذلك كان خطباؤهم وحكماؤهم ينادون عليهم بالالفة ،

---

(١) أى حروبهم

ويحذرونهم من التفرق واختلاف الكلمة ، وينذرونهم بما يستتبع ذلك من العواقب الوخيمة والنتائج الفاسدة ؛ وقد ذكرنا فيما تقدم من هذا الكتاب مادل على ذلك من شعرهم وخطبهم ووصاياهم مافيه الكفاية . ومنها :

العدل

العدل اذا كان شاملاً فهو أحد قواعد الدنيا التى لاانتظام لها الا به ، ولا صلاح فيها الامعه ؛ وهو الداعى الى الالفة ، والباعث على الطاعة ، وبه تتعمر البلاد ، وبه تنمى الأموال ، ومعه يكثر النسل ، وبه يأمن السلطان ، وليس شىء أسرع فى خراب الأرض ، ولا أفسد لضمائر الخلق من الجور ، لأنه ليس يقف على حد ، ولا ينتهى الى غاية ، ولكل جزء منه قسط من الفساد حتى يستكمل ؛ والعرب لما استناروا بنور الدين المبين ، وجمعت متبدد شملهم كلمة الحق ، ودان لهم من دان من الأمم ، شملوا الناس بالعدل فى أحكامهم إذْ كان من أهم مقاصد الشريعة الغراء ، وأعظم مطالبها ، وأجلّ قضاياها ؛ وبذلك نطقت آيات التنزيل. منها : (إِنَّ اللهَ يأمُرُكم أنْ تؤدُّوا الأماناتِ إلى أهلها واذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل إن الله نِعِمَّا يَعِظُكُمْ به إن الله كان سميعاً بصيراً) وفى الحديث « بئس الزاد الى المعاد ، العدوان على العباد » الى غير ذلك من النصوص التى يضيق عنها المجال ، ومن وقف على سير الخلفاء الراشدين وغيرهم من أمراء العدل من العرب ، تبين له أن ما كان من استقامة ملكهم واتساعه إنما هو بالعدل الشامل ، ووضع الأمور فى مواضعها ؛ والعدل باب واسع يجرى فى أمور كثيرة ومرجعه الى عدل الانسان فى نفسه ، ثم عدله فى غيره ، فأما عدله فى نفسه فيكون بحملها على المصالح ، وكفها عن القبائح ؛ ثم بالوقوف فى أحوالها على أعدل الأمرين من تجاوز أو تقصير ، فان التجاوز فيها جور ، والتقصير فيها ظلم ومن ظلم نفسه فهو لغيره أظلم ، ومن جار عليها فهو على غيره أجور ؛ وأما عدله فى غيره فهو على أقسام :

منها عدل الانسان فيمن دونه : كالسلطان فى رعيته ، والرئيس مع صحابته ، ويدخل فيه الرجل مع أهل بيته ، والاستاذ مع تلامذته ، والسيد مع خدامه وأرقائه ، ففى الحديث « كلكم راعٍ وكلكم مسؤول عن رعيته » والعدل ههنا يكون باتباع الميسور ، وحذف المعسور ، وترك التسلط بالقوة وابتغاء الحق فى الميسور ، فان اتباع الميسور أدوم ، وحذف المعسور أسلم ، وترك التسلط أعطف على المحبة ، وابتغاء الحق أبعث على النصرة ؛ وهذه أمور إن لم تسلم للزعيم المدبر كان الفساد بنظره أكثر ، والاختلاف بتدبيره أظهر ، وفى الحديث « أشد الناس عذاباً يوم القيامة من أشركه الله فى سلطانه فجار فى حكمه » وعن بعضهم « ليس للجائر جار ، ولا تعمر له دار » وعن آخر « أقرب الاشياء صرعة الظلوم ، وأنفذ السهام دعوة المظلوم » ومنها : عدل الانسان مع من فوقة كالرعية مع سلطانها ، والصحابة مع رئيسها ، وعائلة الرجل معه وغير ذلك ، فقد يكون بإخلاص الطاعة ، وبذل النصرة ، وصدق الولاء ، فان إخلاص الطاعة أجمع للشمل ، وبذل النصرة أدفع للوهن ، وصدق الولاء أنفى لسوء الظن وهذه أمور إن لم تجتمع فى المرء تسلط عليه من كان يدفع عنه ، واضطر الى اتقاء من يتقى به ، قال البحترى :

متى أحْوَجْتَ ذا كرمٍ تخطَّى   اليكَ ببعض أخلاق اللئام

وفى استمرار هذا حل نظام جامع ، وفساد صلاح شامل ، قال بعض الأكابر « أطع من فوقك يطعك من دونك » ومنها : عدل الانسان مع أكفائه ، وذلك بترك الاستطالة ، ومجانبة الادلال ، وكف الأذى ، لأن ترك الاستطالة آلف ومجانبة الادلال أعطف ، وكف الأذى انصف ؛ وهذه أمور إن لم تخلص فى الأكفاء أسرع فيهم تقاطع الاعداء ففسدوا وأفسدوا ؛ وهذا كلام إجمالى على العدل وأقسامه ، والمتكفل بتفصيله ، واستيعاب جزئياته كتب الشريعة ؛ والمقصود هنا بيان أن من جملة ما أوجب تقدم العرب بعد انحطاطهم

لزومهم جادة العدالة ، والانحياد عن مسالك الظلم ، والبغي والعدوان ، وقد تنبه بعض أكابرهم أيام الجاهلية لما يترتب على العدل من المصالح فتعاهدوا بينهم على مجانبة الظلم ، والمباعدة عن الجور ، وترك البغي على الناس ، فعقدوا حلف الفضول وغيره في مكة على ما سبق بيانه أوائل الكتاب ، وقد أعرضت عن ذكر أمور أخر أوجبت تقدمهم فانها تترتب على ما ذكر من الأصول الثلاثة التي هي منشأ كل خير ، وبالله التوفيق .

سكنة البوادي من العرب ، وما امتازوا به عن الحضريين

البادية هي الأرض التي ليس فيها بناء من دور وقصور وغير ذلك ، وهي البدو أيضاً والنسبة اليه بدوي ، وفي الحديث « من بدا جفا » أي من نزل البادية صار فيه جفاء الأعراب . والبداوة الإقامة بالبادية وهو خلاف الحضارة ، والمبدى خلاف المحضر ؛ ولما كان سكنى البادية تقتضي صيانة العز والشرف رجحها غالب العرب على الحضر ، وكثر حنينهم اليها ، وذكر وحشها وطيرها ورياضها ونبتها وشجرها وأغوارها وأنجادها ورياحها ومياهها ، ولازالوا يفخرون في شعرهم بسكناها ، قال القَطَامي (١) :

ومَنْ تكُنِ الحَضَارة أعْجَبَتْهُ ... فأيُّ رجال باديةٍ تَرَانا (٢)

---

(١) بفتح القاف وضمها كما نص عليه ابن الشجري في أماليه ، والمجد في قاموسه ، وعبد الرحيم العباسي في معاهده ، وقول ابراهيم اليازجي في مجلة الضياء : ان الصواب الضم ، وهم من أوهامه الناشئة من غروره وهوسه ، وقلة تتبعه ودرسه ! والقطامي لقب غلب عليه واسمه عمير بن شييم ، وهو شاعر اسلامي مقل ، رقيق الحواشي ، كثير الامثال ، حسن التشبيب ... وهو صاحب هذا البيت —

أنا محيوك فاسلم أيها الطلل ... وان بليت وان طال بك الطيل

الذي انتحل صدره جميل الزهاوي المتفلسف فقال في مدح أمير عربي :

إنا محيوك فاسلم أيها الملك ... ومصطفوك لعرش شاده الفلك !!

(٢) يقول : ان كل ما أعجبك من رجال الحضر فهو أكثر بيننا منهم وان كنا أهل بادية .

ومَنْ رَبَطَ الجحاشَ فانَّ فينا   قَناً سُلُباً وأفراساً حِساناً (١)
وكُنَّ إذا أغرْنَ على جَنَابٍ   وأعْوَزَهُنَّ نَهبٌ حيثُ كانا (٢)
أغرْنَ من الضِّباب على حلول   وضَبَّةَ إنهُ مَنْ حانَ حانا (٣)
وأحيـاناً على بكر أخينا   إذا ما لم نجدْ إلاَّ أخانا (٤)

وقال آخر من قصيدة يمدح بها قوماً من سكنة البادية :

الموقدونَ بنجـدٍ نارَ باديةٍ   لايحضرون وفقد العز فى الحضر

وقال آخر :

هذا أبو الصقْرِ فرداً فى محاسنِهِ   من نَسْل شيبانَ بين الضَّال والسَّلَم (٥)

— وروى أن ميسون بنت بَحْدَلٍ لما اتصلت بمعاوية ، ونقلها من البدو الى الشام ، وكانت تكثر الحنين الى أناسها ، والتذكر لمسقط رأسها ، فاستمع عليها ذات يوم وهى تنشد هذه الأبيات : —

لَبَيْتٌ تخفق الأرواحُ فيـه   أحبُّ الىَّ من قصرٍ مُنيفِ (٦)
ولبس عباءةٍ وتَقَرَّ عيـنى   أحبُّ الىَّ من لبس الشفوف (٧)

---

(١) يقول : واذا رضي أهل الحضر باقتناء الحمير وربطها فانا لانرضى الا بما عندنا من الرماح التى تسلب النفوس والخيل الحسان التى تعين على دفع الاعداء . (٢) وكن : أى الخيل أنزلها منزلة أربابها وهم المغيرون ، وجواب اذا أول البيت بعده والجملة خبر كن . (٣) معنى البيتين ذاك وهذا : أن أرباب الخيل منا كانوا اذا أغاروا على ناحية ، وتعسر عليهم السلب والنهب من الاباعد عطفوا على الاقارب : الضباب وبكر وغيرهم . والحلول . الذين يكونون فى مكان واحد . وقوله « انه من حان حانا » هذا التفات كانه التفت الى انسان وقال له : إنه من هلك بغزونا فقد هلك

(٤) « على بكر » متعلق بفعل مضمر دلّ عليه ماقبله كانه قال : وأحياناً أغرن على بكر .

(٥) شيبان : بن ذهل وشيبان بن ثعلبة قبيلتان . والضال والسلم : شجرتان من شجر البادية . وفرداً : منصوب على المدح أو الحال . والمعنى : هذا المشار اليه صاحب الاسم المشهور اذا ذكر رجلاً فرداً في محاسنه وفضائله من نسل شيبان وأولاد هذه القبيلة المقيمين بالبادية والاقامة بها مما تتمدح به العرب لان فقد العز فى الحضر ! والبيت من شواهد المعانى . وقائله ابن الرومي الشاعر المشهور صاحب النظم العجيب ، والتوليد الغريب ، (٦) قوله « لبيت » اللام لام الابتداء وتخفق : تضطرب . والارواح والارياح : جمع ريح . والمنيف العالى

(٧) تقر : منصوب بأن مضمرة بعد الواو ، و « أن تقر » فى تأويل مصدر معطوف على مصدر وهو « ولبس عباءة » . والشفوف جمع شف وهو الثوب الرقيق سمى بذلك لانه يرق فيحكى ما تحته

وأكلُ كُسَيْرَةٍ في كِسْرِ بيتي ... أحبُّ اليَّ من أكل الرغيف (١)
وأصوات الرياح بكلّ فجٍّ ... أحبُّ اليَّ من نقر الدُّفوفِ
وكلب ينبح الطُّرَّاقَ دوني ... أحبُّ إليَّ من قطٍ ألوف (٢)
وبَكْرٍ يتبع الأظعان صعب ... أحبُّ اليَّ من بغل زفوف (٣)
وخرْق من بني عمي نحيف ... أحبُّ إليَّ من عِلْجٍ عليفِ (٤)

فلما سمع معاوية الأبيات قال لها : ما رضيت ابنة بَحْدَل حتى جعلتني علجاً عنيفاً ؟ وهذا من حنين أهل البادية اليها ، والتبرية من الحضر ، وذكر الراغب أن امرأة ضبية تسمى حسانة قعدت على بركة في روضة بين الرياحين والأزهار في ألطف وقت وأبهجه — وكانت قد احتملت من البادية الى الحضر — فقيل لها : كيف حالك هنا ؟ أليس هذا أطيب مما كنت فيه بالبادية ؟ فأطرقت ساعة ، ثم تنفست وقالت : —

أقولُ لأدنى صاحبيَّ أسِرُّهُ ... وللعين دمع يُحْدِرُ الكحل ساكِبُهْ :
لَعَمْرِي لَنَهْرٌ باللِّوى نازح القَذَى ... بعيد النواحي غير طَرْقٍ مشاربه (٥)
أَحَبُّ الينا من صهاريج مُلِّئَتْ ... للعب ولم تَمْلُحْ لدى ملاعبه (٦)
فياحَبَّذا نجدٌ وطيبُ ترابه ... اذا هضبته بالعشيّ هواضبه (٧)

(١) الكسيرة (بالتصغير) القطعة من الخبز · والكسر : طرف الخباء من الارض
(٢) الطراق : جمع طارق وهو الذي يأتي ليلا · (٣) البكر : (بفتح الموحدة) الفتيّ من الابل · والاظعان : جمع ظعينة وهي المرأة مادامت في الهودج وقيل غير ذلك (أنظر ج ٢ ص ١٣٤) وصعب : صفة لبكر · وروى سقب وهو الذكر من ولد الناقة . والزفوف : المسرع
(٤) الخرق : الفتى الحسن الكريم الخليقة والعلج : الرجل الضخم ، ويحتمل أن تريد أن الامرد أحب اليها من ذى اللحية · قال أبو زيد : يقال لكل ذى لحية علج ولا يقال للغلام اذا كان أمرد علج · والاول أنسب لقولها (عليف) أى مسمن بالعلف · قال الأعلم : تعني به معاوية لقوته وشدته ، مع سمنه ونعمته ، (٥) اللوى : ماالتوى من الرمال · والنازح : القذى الصافي الذى لا يشوبه كدر والطرق : الماء الذى خاضته الابل وبالت فيه (٦) الصهاريج جمع صهريج وهو حوض يجتمع فيه الماء وبركة مصهرجة معمولة بالصاروج وهو شئ يخلط بالنورة ويطلى به الحياض ونحوها وهو معرب (٧) هضبت السماء : فاضت ، والهاضبة : السحابة ·

وريح صَبًا نجدٍ اذا ماتَنَسَّمت ضحىً أوسرت جنحَ الظلام جَنَائبه (١)
وأُقسِمُ لاأنساه مادمت حيةً وما دام ليل من نهار يعاقبه
ولازال هذا القَطْرُ يُسفِرُ لوعة بذا كراه حتى يترك الماءَ شاربه

وقال آخر (٢) وقد تذكر بعض أودية البوادى فصبا اليه : —

وحَبَّذا حين تُمسى الريحُ باردةً وادى أُشَيٍّ وفِتْيانٌ به هُضُمُ (٣)
ياليتَ شعرى عن جَنْبَى مُكَشَّحَةٍ وحيثُ تُبْنَى من الحِنَّاءة الأُطُمُ (٤)
عن الإِشاءة هل زالَتْ مخارِمُها وهل تغيَّر من آرامها إِرَمُ (٥)
وجنة مايذمّ الدهرَ حاضِرُها جبَّارُها بالنَّدَى والحمل مُحْتَزِمُ (٦)

وقال أعرابى انتقل من البداوة الى الحضارة فرأى المكاء (وهو طائر برىّ) فى الحضر ، وكان قد عهده يفرخ على شجر الألاء والأرطى (٧) ، فقال لهذا الطائر : فارق هذا المكان فانه ليس لك فيه الشجر الذى تعشش عليه ، وأشفق من أن تمرض كما مرضت ؛ وذلك معنى قوله :

ألا أيها المُكَّاء مالَكَ ههُنا ألاءٌ ولا أَرْطَى ، فأين تبيض ؟

(١) الجنائب : ريح تهب من مطلع سهيل فى الجنوب الى مطلع الثريا (٢) هو زياد بن حمل بن سعد بن عميرة بن حريث ، ويقال له زياد بن منقذ أحد بنى عدى من بنى تميم ، وكان قد نزل (صنعاء) فاستوبأها ، وكان منزله بنجد فى (وادى أشىّ) فنظم قصيدة مطربة مشجية يتشوق فيها الى بلاده ، ومنها هذه الابيات ، وقد أوردها أبو تمام فى باب النسيب من ديوان الحماسة ... (٣) برد الريح يدل على القحط لوقوعه شتاء ، ووادى أشى : موضع بالوشم ، والوشم : واد باليمامة فيه نخل . وهضم ، جمع هضوم وهو الذى يصرف ماله ويبذله كيفما شاء فى الضيافة (٤) مكشحة : موضع باليمامة يشتمل على خمس قرى عليها سور واحد من لبن وفيه نخيل وزروع ، وقال الحفصى : هو نخل فى جزع الوادى قريباً من اشى ، والحناءة : رمل من رمال عالج ، والاطم : الحصن ، (٥) عن الاشاءة : بدل من « جنبى مكشحة » وهو موضع أيضاً والمخارم : الطرق فى الجبال ، والارم : الطريق — ومعنى البيتين : ياليت علمى بأحوال هذه المواضع هل هى باقية على ماعهدتها أم تغيرت (٦) الجبار : النخلة الطويلة ، والندى : الرطوبة ، والحمل : الطلع ، والاحتزام : الالتفاف والمراد فيها الخصب ، يقول : واستخبر أيضاً عن أحوال جنة تحمل أبداً وتدوم مخضرة معمورة بالنخل التى يجتنى منها التمر (٧) الألاء : كسحاب شجر مر دائم الخضرة ، والأرطى : شجر نوره كنور الخلاف وثمره كالعناب مرة تأكلها الابل غضة وعروقه حمر .

فاصعد الى أرض المكاكىّ واجتنبْ قرى المصر، لاتُصْبِح وأنت مريض

وقال عبد لبنى قريط يقال له (مطير) اشتاق الى أرضه :

الا لَيْتَ شعرى هل أبيتنَّ ليلةً و(صدّ آء) منى و (البَيَاضُ) بعيد (١)

بوادٍ من اللعباء أعلاه عوسجٌ وأسفله رِمْثٌ عليه جهيد (٢)

وهل أسمعنَّ الدهر أصواتَ فتيةٍ بذى الهوزوى من ناشئٍ ووليد

وقال آخر

أيا جَبَلَىْ غورىْ تِهامةَ كلَّما تطاللت نجداً أشرقت لى ذراكما

عدمتكما لا يونس الناظر الذى به الشوق شيئاً دونه قلتاكما

أصابكما من حبِّ نجدٍ حرارة وغلّ فلا يروى بماء صداكما

وقال قائد بن حكيم متشوقاً الى أرضه

متى العيسُ من مصر بنا رافعاتنا الى نجد أو باد لعينى قلالها (٣)

ومزج اليها الطّرْف حتى يردّه قموس القرى فى البعد يخفق آلها (٤)

على متن عادىّ كأن اماره رجال تنادى أفلتتها جمالها

وقال :

خليلىَّ إنْ حانَتْ بمصر منيَّتى وأزْمعتما أن تحفرا لى بها قَبْرا

فلا تنسيا أن تقرآ لى على الغَضَى ونجدٍ سلاماً لا قليلاً ولا نَزْرا

وان سرت ياسبحان ربى بالغضَى أو المَرْت من نجد مُخَيَّسة صعرا (٥)

وقال آخر :

ألا ليت شعرى هل أبيتنَّ ليلةً بصحراء ما بين الجثوم الى شعر ؟

(١) صداء : ماء معروف (بالبياض) وهو بلد بين سعد بن زيد مناة وكعب بن ربيعة بن كلاب — عن نصر (٢) الرمث : مرعى للابل من الحمض وشجر يشبه الغضى . ومرعى جهيد : جهده المال . وهذا كلأ يجهده المال اذا كان يلح على رعيته (٣) العيس : الابل البيض يخالط بياضها شقرة (٤) يقال : قست الآكام فى السراب (وهو الآل) اذا ارتفعت فرأيتها كانها تطفو (٥) المرت : المفازة بلا نبات أو الارض لايجف ثراها ولا ينبت مرعاها . والمخيسة : الابل التى لم تسرح ولكنها حبست للنحر أو القسم

وهل أرِدَنَّ العينَ والشملُ جامعٌ مقيم النَّوَى قد حان ذاك على قدرِ؟
وهل أرينَّ الرمل يا أمَّ خالدٍ رميث اللوى من قصده مطلع الفجر؟
فكيفَ ولم أصبح أحدث فتية كرام المساعي من ربيعة أو وبر؟
حمى سِرْبهم فى كل يوم كريهةٍ مصاعيب أمثال المعبَّدة الزُّهر (١)

وقال آخر

ألا يا ديارَ الحىِّ والحى جيرة بحيث تهنت فى العروق جبوبها
سقتك نِجاءٌ من ربيع تتابعت عليك وهبت غير نحس جَنوبها (٢)
ألا ليت شعرى هل يَعُودنَّ ما مضى لنا فيك، أم هل تغفرنَّ ذنوبها؟

وقال آخر

لقد كان بالدهنا حياة لذيذةٌ ومحتطب لا يشترى بالدراهم

وقال صدقة بن نافع العقيلى متشوقاً الى دياره وكان بالجزيرة:

أرقت بحران الجزيرة مَوْهِناً لبرق بدا لى ناضب متعال (٣)
بدا مثلَ تلماع الفتاة بكفّها ومن دونه نأىٌ وغبر قلال
فَبِتُّ كأن العين تكحل فلفلاً وبى عس حمى بين وملال
فهل يَرْجِعنْ عيش مضى لسبيله وأظلال سدر يانع وسَيَال؟
وهل ترجعنْ أيامنا بِمُتالعٍ وشرب بأوشال لهن ظلال؟
وبيض كأمثال المَها يستبيننا بقيل، وما مع قيلهن فعال؟

الى غير ذلك من الشعر المشتمل على الحنين الى البادية وما فيها، والشعراء الاسلاميون سبقوا الجاهليين إذ سلكوا مسلكهم ومنهاجهم، والأمويّ فى نجدياته وعراقياته أتى بما لم يسبق إليه. من ذلك قوله:

وأسرى بعيس كالأهلة فوقها وجوهٌ من الاقمار أبهى وأنورُ

---

(١) السرب: القطع من الظباء والنساء وغيرها (٢) النجاء ككتاب جمع النجو للسحاب
(٣) الموهن: نحو من نصف الليل أو بعد ساعة منه

ويعجبني نفحُ العَرَار ورُبما ... شممتُ بعرنيني وقد فاح عنبر (١)
ويخدش عمدي بالحمى صفحة الثرى ... اذا جرَّ من أذيانه المتحضّرُ
فما العيشُ الى الضبّ يحرشه الفتى ... وورد بمستنّ اليرابيع أكدر (٢)
بحيث يلفُّ المرءُ أطناب بيته ... على العز والكوم المراسيل تنحر (٣)
ويغشى ثراه حين يستعتم القرى ... ويسمو اليه الطارق المتنوّر (٤)

وقوله :

خليليّ هذا ربعُ ليلى بذي الغضَى ... سقَى اللهُ ليلى والغضَى وسقَاكما !
وقد كنتما لي مُسْعِدَيْنِ على البكا ... فما لكما لا تُسْعِدان أخاكما ؟
أظلّ وحيداً لا أرى من أحبُّه ... فهلْ بالحمى لي من خليلٍ سواكما
ولو غاب عني واحدٌ منكما وَهَتْ ... قوَى الصبر لا أوهي الزمانُ قواكما
فكيف أذودُ الهمَّ عني تجلُّداً ... وقد غبتما عن أرض نجدٍ كلاكما

وقوله :

بمنشط الشِيح من نجد لنا وطنٌ ... لم يجرِ ذكراه الاحنَّ مُغترِبُ (٥)
اذا رأى الأفق بالظلماء مختمراً ... أمسى وناظرُه بالدمع مُنتقِبُ
ونشقة من عرَار هزَّ لمته ... رويحة في سراها مسَّها لَغَبُ
تشفي غليلاً بصدري لا يزحزحه ... دمعٌ نهيب به الأشواق منسكب (٦)

وقوله :

ونفحة من رُبَى ذي الأثل قابلني ... بها نسيم يزيد القلب أحزانا
ولم يطب تربها من روضةٍ أُنُفٍ ... فهاجَ رياه أطرابا وأشجانا (٧)
لكنَّ ذا الأثل طاب الواديانِ به ... حيث الرَّباب تجرُّ الذيلَ أحيانا

---

(١) العرار : بها رالبر والعرنين : الانف (٢) حرش الضب يحرشه : : صاده
(٣) الكوم : القطعة من الابل . وناقة كوماء : عظيمة السنام طويلته . والمراسيل : الخفاف التي تعطيك ما عندها عفواً (٤) الطارق : الزائر ليلا (٥) منشط مفعل من نشط اذا خرج . والشيح : نبت (٦) أهاب به : زجره (٧) روضة انف : لم ترع .

ولم يكن لى أكناف الحمى وطناً ولا الفوارسُ من نبهان جيرانا

الى غير ذلك مما يطول ذكره ، وقد أطنب المسعودى فى اختيار العرب سكنى البوادى وسببه « وهذا ملخص ما ذكره » قال : ورأت العرب أن جولان الأرض وتخير بقاعها على الأيام أشبه بالعز ، وأليق بذى الأنفة ، وقالوا نكون محكمين فى الأرض نسكن حيث نشاء أصلح من غيره . قال : وذكر آخرون أن القدماء من العرب لما ركبهم الله من سمو الأخطار ، ونيل الهمم والاقدار ، وشدة الأنفة والحمية من المعرة والهرب من العار ، بدأت التفكر فى المنازل ، والتقدير للمواطن فتأملوا شأن المدن والأبنية فوجدوا فيها معرةً ونقصاً ، ومنهم من قال : إن الأرضين تمرض كما تمرض الأجسام ، وتلحقها الآفات ، والواجب تخير المواضع بحسب أحوالها من الصلاح إذ الهواء ربما قوى فأضر بأجسام سكانه ، وأحال أمزجة قطانه ، ومنهم من قال إن الأبنية والتحويط حصر عن التصرف فى الأرض ، ومقطعة عن الجولان ، وتقييد للهمم ، وحبس لما فى الغرائز من المسابقة الى الشرف ، ولا خير فى اللبث على هذه الحالة ، وقالوا ان الأبنية والأطلال تحصر الغذاء ، وتمنع اتساع الهواء ، وتسد سروحه على المرور ، وقذاه عن السلوك ، فسكنوا البر الأفيح الذى لايخافون فيه من حصر ، ولا من منازلة ضر ، هذا مع ارتفاع الأقذاء ، وسماحة الأهواء ، واعتزال الوباء ، وتهذيب الأحلام فى هذه المواطن ، ونقاء القرائح فى التنقل فى المساكن ، وصحة الأمزجة وقوة الفطنة ، وصفاء الألوان ، وصيانة الأجسام ، فان العقول والآراء ، تتولد من حيث تولد الهواء . وطبع الهواء الفضاء ، وفى هذا أمن من العاهات والاسقام والعلل والآلام ؛ فآثرت العرب سكنى البوادى والحلول فى البيداء ، فهم أقوى الناس هما ، وأشدهم أحلاما ، وأصحهم أجساما ، وأعزهم جارا ، وأحماهم ذمارا ، وأفضلهم جوارا ، وأجودهم فطنا ، لما أكسبهم إياه صفاء الجوّ ، ونقاء الفضاء ، لأن الأبدان تحتوى أجزاؤها على متكاثف الأكدار ، وعناء

الأقذار ، بما يرتفع اليه ، ويتلاطم فى عرصاته ، واقفة من جميع المستحيلات والمستنقعات من المياه ، ففى أكنافه جميع ما يتصعد اليه ، وكذلك ترا كيب الأقذاء والادواء والعاهات فى أهل المدن ، وتركبت فى اجسامهم ، وتضاعفت فى اشعارهم وأنثارهم ، ففضلت العرب على سائر ما عداها من بوادى الأمم المعترضة ، لما ذكر من تخيرها الأماكن ، وارتياد المواطن ، قال المسعودى : وكذلك جانبوا فضاضة الأكراد ، وسكان الجبال ، من الأجيال الجافية ، وغيرهم الذين سكنوا اخروت الأرض ودهاسها ، وذلك لأن هذه الأمم الساكنة هذه الجبال والأودية تناسب أخلاقها مساكنها فى انخفاضها وارتفاعها لعدم استقامة الاعتدال فى أرضها ، فلذلك كانت أخلاق قطانها على ماهى عليه من الغلظ !

وقد وفد على كسرى أنوشروان بعض خطباء العرب فسأله كسرى عن شأن العرب وسكناها واختيارها البدو ؟ فقال : أيها الملك ملكوا الأرض ولم تملكهم ، وأمنوا من التحصين بالأسوار ، واعتمدوا على المرهفات الباترة ، والرماح السامرة ، فمن ملك قطعة من الارض فكأنها كلها له يردون منهاخيارها ويقصدون ألطافها ، قال : فأين حظوظهم من الفلك ؟ قال : من تحت الفرقدين ورأس المجرة وسعد الجدى مشرفين على الأرض بحسب ذلك ! قال: فما رياحها ؟ قال : أكثرها النكباء بالليل والصبا عند انقلاب الشمس ، قال: فكم الرياح ؟ قال : أربع فاذا انحرفت واحدة منهن قيل نكباء ، وما بين سهيل الى طرف بياض الفجر جنوب ، وما بازائهما مما يستقبلها من المغرب شمال ، وما جاء من وراء الكعبة فهى دَبور ، وما جاء من قبل ذلك فهى صبا ، قال : فما أكثر غذائهم؟ قال : اللحم واللبن والنبيذ والتمر ، قال : فما خلائقهم ؟ قال: العز والشرف والمكارم وقرى الضيف واذمار الجار وإجارة الخائف وأداء الحمالات [1] وبذل المهج

(١) الحمالة : الدية والغرامة

فى المكرمات ، وهم سراة الليل ، وليوث القيل ، وعمار البر ، وأنس القفر ، ألفوا القناعة ، وسبقوا الضراعة ، لهم الأخذ بالثار ، والأنفة من العار ، والحماية للذمار ؛ قال كسرى : لقد وصفت هذا الجيل كرماً ونبلاً ، وما أولانا بانجاح ذلك فيهم ! فتخيرت العرب البرارى والمهامه والمصاف ، فمنهم المنجد والمتهم ممن سكن أغوار الارض كغور بيسان وغور غزة من أرض الشام من بلاد فلسطين والأردن ومن سكنه من لخم وجذام ؛ ولجميع العرب مياه يجتمعون عليها وقطع من الارض يعرجون عليها كالرّها والسماوة والتهائم وأنجاد الأرض والبقاع والقيعان والوهاد ، ولست ترى قبيلاً من العرب توغل عن الأماكن المعروفة لهم ، والمياه المشهورة بهم ، كماء ضارج وماء العقيق والسباط وما أشبه ذلك من المياه وقد استوفاها الزمخشرى وأبو لغدة الاصفهانى وغيرهما من الأئمة فى كتبهم المشهورة .

ما امتاز به عرب البوادى عن أهل الحضر

الفرق بين سكنة البوادى وبين سكان البلاد والقرى مما يظهر لكل أحد وذلك فى الأجسام والحواس الظاهرة والباطنة والصور والأخلاق والقوة والضعف ولهجة اللسان وسماحة اليد والجرأة والشجاعة وغير ذلك مما يطول ذكره حتى إن من وازن بين نبات البادية ونبات البلد وجد بينهما فرقاً من وجوه مختلفة ، وكذلك وحشه ودوارجه وطيره وسائر ما يكون فى البر فانه ممتاز عما يتكون فى البلد فى الخواص والأوصاف ، وقد ذكر ابن خلدون فى مقدمته عدة فصول مشتملة على فروق بين الفريقين

« منها » أن البدو أقدم من الحضر وسابق عليه ، وأن البادية أصل العمران والأمصار مدد لها لأن البدو هم المقتصرون على الضرورى فى أحوالهم العاجزون عما فوقه ، وأن الحضر المعتنون بحاجات الترف والكمال فى أحوالهم وعوائدهم ولاشك أن الضرورى أقدم من الحاجى والكمالى وسابق عليه ، ولأن الضرورى

أصل والـكمالىّ فرع ناشىء عنه ، فالبدو أصل للمدن والحضر وسابق عليهما لأن أول مطالب الانسان الضرورى ، ولا ينتهى الى الـكمال والترف الا اذا كان الضرورى حاصلًا نخشونة البداوة قبل رقة الحضارة ، وأطال الـكلام فى بيان ذلك .

«ومنها» أن أهل البدو أقرب الى الخير من أهل الحضر ، وذلك لأن النفس اذا كانت على الفطرة الأولى كانت متهيئة لقبول ما يرد عليها وينطبع فيها من خير أو شر ، وبقدر ما سبق اليها من أحد الخلقين تبعد عن الآخر ، ويصعب عليها اكتسابه ، فصاحب الخير اذا سبقت الى نفسه عوائد الخير ، وحصلت له ملـكته ، بعد عن الشر وصعب عليه طريقه ؛ وكذا صاحب الشر اذا سبقت اليه أيضاً عوائده .

« ومنها » أن أهل البدو أقرب للشجاعة من أهل الحضر ، وذلك لأن أهل الحضر ألقوا جنوبهم على مهاد الراحة والدعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم الى واليهم ، والحاكم الذى يسوسهم والحامية التى تولت حراستهم ، واستناموا الى الأسوار التى تحوطهم والحرز الذى يحول دونهم ، فلا تهيجهم هيعة ، ولا ينفر لهم صيد ، فهم غارّون آمنون قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الاجيال ، وتنزلوا منزلة النساء والولدان الذين هم عيال على أبى مثواهم ، حتى صار ذلك خلقاً يتنزل منزلة الطبيعة ، وأهل البدو لتفردهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، وبعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب ، قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها الى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائماً يحملون السلاح ، ويتلفتون عن كل جانب فى الطرق ، ويتجافون عن الهجوع إلا غِراراً فى المجالس وعلى الرحال وفوق الاقتاب ، ويتوجسون للنبآت والهيعات ، ويتفردون فى القفر والبيداء ، مدلين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم الباس خلقاً ،

والشجاعة سجية ، يرجعون اليها متى دعاهم داعٍ أو استنفرهم صارخ ، وأهل الحضر متى خالطوهم فى البادية أو صاحبوهم فى السفر فهم عيال عليهم لا يملكون عليهم شيئاً من أمر أنفسهم ، وذلك مشاهد بالعيان حتى فى معرفة النواحى والجهات وموارد المياه ومشارع السبل .

«ومنها» أن معاناة أهل الحضر للأحكام مفسدة للبأس فيهم ، ذاهبة بالمنعة منهم ، وأن الحضر لا يمكنه سكنى البدو بل لا يمكن أن يسكنه الا القبائل ، وأن الصريح من النسب إنما يوجد لأهل البادية من العرب لا لأهل الحضر منهم ، وأن أهل البادية أقدر على التغلب ممن سواهم ، وأن الأمة اذا كانت بدوية وحشية كان ملكها أوسع ، وأن أهل البادية من العرب لا يتغلبون الا على البسائط ، وأن البدويين اذا تغلبوا على الأوطان أسرع اليها الخراب بخلاف أهل الحضر ، وأن أهل البادية من العرب أبعد الأمم عن سياسة الملك ، وأن أهل البادية من القبائل والعصائب مغلوبون لأهل الأمصار ، وأن أهل البادية قاصرون عن سكنى المصر الكثير العمران . وقد أطنب فى الكلام على بيان أسباب هذه الفروق مما لا حاجة الى نقله ، ومن أمعن النظر ، ودقق فى أحوال الفريقين ، ظهرت له فروق أخر ، وسبحان من ميز كل قوم بخصائص لا توجد فى غيرهم ، وصفات لا تتعداهم الى من سواهم (ومن آياته خلق السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآياتٍ للعالمين)

خاتمة الكتاب

هذا آخر ما يسّره ولى التوفيق والانعام ، من بيان ما كان عليه العرب قبل الاسلام ؛ وقد جاء بحمد الله تعالى بهْجةً للناظرين ، ونزهةً للقارئين ، بَيْدَ أنّ ما أوردته فى كل باب ، درّةٌ من عِقْد نحر وقطرة من بحر عُباب ، فانّ أحوال طبقة واحدة من طبقات أولئك الأخيار ، لا يقوم باستيعابها عدة أسفار ، ولو

سلك القلم سبيل الاختصار ، وعسى الله تعالى أن يقيض لانجاز هـذا المرام ، بعضَ ذوى الهمم العلية من أئمة الأدب الأعلام ، فقد سهل الطريق ، على من ساعـده التوفيق ، فالعربّ ممن ينبغى الاعتناء بذكرهم ، ويفحص عن طيب خبرهم ، فهم أهل المآثر ، وأصل الفضائل والمفاخر ، بمزاياهم تزينت صفحات الطُّرُوس ، وبحميد سجاياهم تبسم وجه الدهر العبوس ؛ وسنفرد ان شاء الله تعالى أحسن كتاب ، يستوعب أحوال من بقى اليوم من أولئك القوم الأنجاب ، وقد انتشروا فى البلاد ، وملأوا الاغوار والأنجاد ، وفيهم ممـا كان عليه أسلافهم بقايا ، وفيهم من هاتيك المكارم والسجايا ، ولست أعنى بهم كل من تكلّم بلغتهم أو سكن فى خطتهم ، واتسم بسمتهم :

فما كلّ مخضوب البنان بثينة ولا كل مصقول الحديد يمانى

واسأل الله تعالى الأجر الجزيل ، والذكر الجميل ، اذا فنى الجسم ، ونسى منى الاسم ، والحمد لله ذى الانعام ، فى البدء والختام ، وهو الأول بلا عدد ، والآخر بلا أمد ، الحكيم بغير توقيف من أحد ، الذى أحسن لما أدب ، وأجزل لمـا وهب ، حمداً متصل المدد ، جارياً على الأبد ، وصلى الله على النبىّ الامىّ ، ذى الاصـل الزكىّ ، والقلب الذكىّ ، والكف الندىّ ، والزند الورىّ ، ذى الرسالة الصادعة ، والمقالة الناصعة ، والعترة الصالحة ، والأسرة الناصحة ، صلاة جامعة بينه وبين آله الطاهرين الابرار ، الطيبين الأخيار

وكان الفراغ من تسويده غرة جمادى الآخرة من السنة الرابعة بعد الثلاثمائة والالف من الهجرة ١٣٠٤ ، وآخر دعوانا أن الحمد لله ربّ العالمين ؟

انظر الفهارس.

ثلاثة فهارس

الفهرس الأول — فى موضوعات الكتاب

الفهرس الثانى — فى أسماء الرجال والنساء

الفهرس الثالث — فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

عنى بجمعها وترتيبها

محمد جمال

صاحب المكتبة الأهلية — فى مصر

الفهرس الاول

فى موضوعات الكتاب

انظر الفهرس الثانى

الفهرس الثانى

فى أسماء الرجال والنساء

د

ذ

ر

ز

س

انظر الفهرس الثالث

الفهرس الثالث

فى أسماء البلدان والقبائل وغيرها

ت

ث

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

ملحق

يشتمل على الشروح والفوائد — بقلم الشارح

الجزء الأول

صفحة سطر

١١ — ١٣ (الأنداس) فى ضبط هذه الكلمة اختلاف ، ولعل ضبطنا الذى اعتمدنا به على التاج أصح من غيره .

٣٩ — ١٢ (دردى وزير المعارف الخ) كذا فى الأصل ، والصواب : دوروئ Victor Durwy كما جاء فى محاضرة (الجامعة السورية) لصديقنا الاستاذ الشيخ محمد بهجة البيطار الدمشقى .

١٣٧ — ٠٥ (إذ سامه الخ) سامه الأمر : كلفه إياه وأكثر مايستعمل فى الشر والعذاب . والخطة بالضم : الأمر والطريقة . والخسف : الذل والقهر وتحميل الانسان ما يكره . وجار : صوابه : حار ، أى يا حارث فهو منادى مرخم بحذف آخره .

١٧٤ — ١٤ (لفضلنا النساء . . .) المشهور : لفضلت النساء . . .

« — ١٦ (سيما) كذا بسقوط أداة النفى (لا) . وقد نصوا على وجوبها واستشهدوا بقول امرئ القيس « ولا سيما يوم بدارة جلجل » وقال أئمة اللغة : إن من أهملها فقد أخطأ . انظر مادة (س و ى) فى تاج العروس . وخاتمة الأشمونى فى باب الاستثناء .

٢١٨ — ٩ (الجد) هو الكاتب البليغ ، والأديب الضليع ، واللغوى المفسر الشهير السيد محمود شهاب الدين بن السيد عبد الله الألوسى : صاحب تفسير (روح المعانى) وغيره من المؤلفات الجليلة .

صفحة سطر

وترجمته مفصلة فى كتابينا (ذكرى الامام الألوسى) و (مشاهير العراق فى القرن الثالث عشر والرابع عشر) .

٢٤٣ — ١٤ (أيا جارتا . . .) انظر الجزء الثانى ص ٥٤٩

٢٤٤ — ٩ (اليوم يبدو . . .) انظر الجزء الثانى ص ٢٩١

٢٤٦ — ٦ (الناسة) وردت فى معجم البلدان (٨ : ١٤٠ — مصر) : « النسناسة » خطأ . فليتنبه !

٢٤٨ — ٥ (أشرق نبير) توجيه معناه فى (نبير) من معجم البلدان .

٢٦٨ — ٣ (حولى أسيد . . .) هكذا هى الرواية المشهورة . ورواية ابن برى :

حولى فوارس من أسيّد شجعة   واذا نزلت فحول بيتى خَضَّمُ

وقد فسرنا (خضما) بالجمع الكثير من الناس كما هو المشهور . وقيل : بل خضم هنا لقب للعنبر بن عمرو بن تميم وغلب على القبيلة وانما سموا بذلك لكثرة أكلهم ومضغهم بالأضراس ، وأسيِّد : قبيلة من قبائل عمرو بن تميم .

٢٧٦ — ١٤ (تيم بن مرة . . .) البيتين . هكذا هما فى الأصل . ووردا فى كتاب الأحكام السلطانية (ص ٦٦) لأبى الحسن الماوردى كذلك وعلق المصحح عليهما هذه العبارة : « هكذا فى الأصل ولم نقف على تصحيح ذلك فليحرر » .

٢٨١ — ٢ (لعمرى . . . الابيات) الشجا : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . والندَى : الجود . والجدا : العطية .

« — ٦ (روى بن الكلبى) انظر صبح الاعشى (١ : ٣٧٨) .

٢٨٣ — ٨ (وانا ليوث . البيت) قوله (والكلا) هكذا ورد فى (نهاية

صفحة سطر

الأرب للقلقشندى ، وغيرها ، والصواب « الطلى » وهى الأعناق أو أصولها .

٣٣٩ — ٥ (جمعة) وردت هذه الكلمة فى الطبعة الاولى (خمعة) بالخاء المعجمة ولما رجعنا الى الأصول المعتمدة : كالقاموس ، وتاج العروس ، واللسان ، والبيان والتبيين ، والأغانى ، و (تذييل فى نساء العرب) للمستشرق برون Perron وغيرها — وجدناها كلها تقول جمعة بالجيم فأذعنا لها وحملنا مافى الكتاب على الخطأ المطبعى ثم بعد طبع الكتاب اطلعنا فى مجلة لغة العرب البغدادية على تحقيق هذه الكلمة للاستاذ رحمه الله فاذا به يثبت أنها (خمعة) كما أوردها فى بلوغ الأرب . وهذا نص عبارته « اليوم وجدت فرصة لنقل ماذكرت لكم فذهبت الى خزانة كتب مدرسة السليمانية وراجعت شرح حديث أم زرع للقاضى عياض ، وذكر فى هذا الشرح على سبيل الاستطراد نبذة يسيرة من كلام من اشتهرن بالفصاحة من نساء الجاهلية فقال : ومنهن خُمَعة بضم الخاء وفتح الميم والعين المهملة كما ضبطه صاحب العباب والمحكم وابن الشجرى فى كتابه ما اتفق لفظه واختلف معناه . يقال خمع فى مشيته أى ظلع وبه خماع أى ظلع والخامعة الضبع — الى أن قال : واختلف فى نسبها والمشهور انها ابنة الخس ، أخت هند وقيل غير ذلك » انتهى

٣٥٥ — ١ (أزدشير) هكذا بالزاى وهو خطأ مشهور ، والصواب «أردشير» و٣٦٣ ، ٩ ، ١١ ، ١٤ بالراء

٣٥٩ — ٦ (كنيسة القيامة) كنيسة للنصارى بالبيت المقدس . قال ياقوت وغيره واللفظ له : وصفها لاينضبط حسناً وكثرة مال وتنميق عمارة وهى وسط البلد والسور يحيط بها ولهم فيها مقبرة يسمونها

صفحة سطر

(القيامة) لاعتقادهم أن المسيح قامت قيامته فيها . والصحيح أن
اسمها (قمامة) لأنها كانت مزبلة أهل البلد . وكان فى ظاهر المدينة
يقطع بها أيدى المفسدين ويصلب بها اللصوص فلما صلب المسيح
فى هذا الموضع عظموه كما ترى . . . الخ .

٣٥٩ — ١٩ (الأحد الجديد) : وورد فى صبح الاعشى (ج ٢ ص ٤١٨) :
«حدّ الحدود» . ولعل الأول أصح ، وذلك لأنهم — كما قالوا —
يجددون فيه الآلات وأثاث البيوت واللباس . . .

٣٦١ — ١٩ (عيد المظال) ويقال عيد المظَلّة . وقد ذكر الاستاذ المصنف أنه
ثمانية أيام . وفى صبح الأعشى (٢ : ٤٢٦) هو سبعة أيام .

٣٦٣ — ٦ (عيد الفور) ورد فى الصبح «٢ : ٤٢٧» : عيد الفوز بالزاى !

٣٨٧ — ١٣ (وقد نقدت الخنساء . . . الخ) تقدم لنا فى ص ٢٥ نقد هذه
الرواية فأغنى عن اعادته .

الجزء الثانى

صفحة سطر

١٣ — ١٥ (ولن تصادف . . البيت) ضبطنا كلمة «المنتجع» فيه بالفتح
وهى المنزل فى طلب الكلأ . ولعل الأولى «منتجِع» بكسر
الجيم اسم فاعل . يقال : انتجع فلان أى طلب الكلأ فى موضعه ،

٥٣ — ١٤ (الاعياص) هم أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر بن عبدمناف
وهم : العاص ، وأبو العاص ، والعيص ، وأبو العيص ؛ وهم إخوة
حرب وأبى حرب وسفيان وأبى سفيان ويقال لهؤلاء (العنابس)
قال أبو النجم العجلى :

صفحة سطر

لـكنْ أخلاّئي بنو الأعياص   هم النواصي وبنو النواصي

منهم سعيد وأبوه العاصي ؟

وقال الليث : أعياص قريش كرامهم ينتمون الى عيص وعيص في آبائهم .

١٢٢ — ١١ (ولأنت أشجع من أسامة الخ) نسبة هذا البيت الى الأعشى لاتصح وانما هو للمسيب بن علس وبعضهم يرويه هكذا :

ولأنت أشجع من أسامة إذ   دُعِيَتْ نَزَالِ ولُجَّ في الذعر

ويعزوه لزهير بن أبي سلمى وهو وهم قديم لصاحب الصحاح وغيره والصواب الذي عليه المحققون أنه مركب من بيتين أحدهما لزهير والثاني للمسيب بن علس . قال الشيخ عبد القادر البغدادي « هو مركب من بيتين فان البيت الذي فيه دعيت نزال وهو لزهير صدره كذا :

ولنعم حشو الدرع أنت اذا   دعيت نزال ولج في الذعر

وقوله « ولأنت أشجع من أسامة اذ » انما هو صدر بيت للمسيب ابن علس ، وعجزه « يقع الصراخ ولج في الذعر » وهذا ليس فيه دعيت نزال . والبيت الشاهد كما ذكرناه هو رواية سيبويه وسائر النحويين . وبيت المسيب بن علس على ما رتبناه هو رواية الجاحظ في كتاب البيان والتبيين . وقد رأيت البيتين في ديوانيهما كذلك انتهى . وفي تصحيح لسان العرب للعلامة أحمد تيمور باشا زيادة تفصيل لذلك . . .

١٤٦ — ١٠ (لاتقبروني . . البيت) قبره ، دفنه وواراه في التراب . وأقبره : جعل له قبراً . قال الفراء : وقوله تعالى « ثم أماته فأقبره » أي

صفحة سطر

جعله مقبوراً ممن يقبر ولم يجعله ممن يلقى للطير والسباع كأن القبر مما أكرم به بنو آدم ، ولم يقل فقبره لأن القابر هو الدافن بيده ، والمقبر هو الله لأنه صيره ذا قبر وليس فعله كفعل الآدمى .
ويقال : أقبر القوم أى أعطاهم قتيلهم ليقبروه .

١٥٧ — ١٤ (من مبلغ الحيين . الخ) أنظر الجزء الأول ص ٣٢ .

٢١٢ — ٢ (القليس) انظر الشرح فى ص ٢٥١ من الجزء الأول .

٢٣٦ — ٩ (يا أقرع بن حابس . البيت) مرّ فى الجزء الأول ص ٣٠١ وغيرها ولم نتعرض له بشىء ، وقد كتبنا فى هذا المقام ما فيه الكفاية .

٣٠١ — ٥ (سنة أزمة . الأبيات) هذه الأبيات — الا الأخير منها — مدمجة مداخلة ، وقد أساء المنضد ترتيبها على الوجه الصحيح ، فلينتبه !

٣١٩ — ٢١ (بخسته لا ينفع التبخيس) لعل الأولى : نجسته لو ينفع التنجيس .

تصحيح

(وقفنا بعد انتهاء الطبع على أغلاط مطبعية لا يكاد يسلم من مثلها كتاب)
(فرأينا أن ننبه عليها (وهذا صوابها) فنرجو من مقتنى الكتاب أن يصلحها بعناية قبل المطالعة :)

صفحة	سطر	
٢	٧	يَعِدُهم
٨	١٥	اختص
١٢	٢٠	البادية

صفحة	سطر	
١٥	٢	فضلها
٢٠	١	(ح) دارم
٢٧	٦	المنتبهة

صفحة	سطر	
٢٣	١٢	(ح) ذكر بنى نمير
٢٣	٢٢	(ح) وكم طير
٢٤	١٢	عليها صوتها
٢٦	٨	يتعصب
٣٢	١٥	اذا كانَ
٣٧	١٥	الثقات
٣٩	٨	(ح) المباطنة
٤٣	٥	(ح) بطلان هذا القول
٤٤	٩	لها من غبوقه
٤٨	٧	(ح) مرتجل
٥٠	٣	(ح) القرة : البرد بعينه
٥٦	١	(ح) بالفتح خرز فيه
٦١	٨	(ح) برب مقدرة
٦٢	٤	(ح) نشا
٦٢	٧	(ح) غير مهانة
٦٤	١	(ح) وذلك لطول
٦٩	٦	لا يُخْلِدُ
٧٢	٣	(ح) والجمع : البلايا
٧٦	١٦	مُغَيَّبة
٨٠	١٢	مِخْذَما
٨٠	٤	(ح) مُهَبَّجاً
٩٠	١	(ح) الهشامية
٩٣	١٢	سِمانِها
١٠٠	١٣	قومِهِمْ

صفحة	سطر	
١٠٢	١٩	اروا
١٠٥	٣	(ح) الليل
١٠٦	١٢	(ح) لا يجاب
١٠٩	٥	(ح) وكلباً بدلٌ من
١١٠	١٥	(ح) فعز بعزك
١١١	٩	لخِنْدِف
١١٢	١١	أَكَرَّ
١١٣	٩	(ح) أثلاث
١١٥	١٣	(ح) بِكسر القاف
١١٨	٣	حَيِّي
١١٩	١	(ح) يأخذ
١٢٠	٨	حَذْفة
١٢٢	٨	معايِش
١٢٤	٣	(ح) أبو نُوَاس
١٢٧	٢	(ح) قاله نصر
١٣٠	٥	فُلَّ
١٣٤	٨	المُرِّيّ
١٣٤	١٠	فنادِى
١٣٨	٣و٤	(ح) الظباة
١٤٣	٣و٤	(ح) بدل (جعد شيظمى) : يعقلهن جعدة من سليم
١٤٤	١٦	بأن نبيشه
١٤٤	٢١	مرزّاً
١٥٣	١٠	أنفذُ

صفحة	سطر	
١٥٥	١٠	أنكأْ
١٥٧	١١	يسلس لك
١٥٨	١٨	القحذميِ
١٦٠	١٣	لا يشك
١٦١	١٧	فرع — الحجُولِ
١٦٨	٢٢	المات
١٦٩	١٦	ذوى الهيئآت
١٧٠	٦	(ح) كأسنان المشط
١٧٤	٤	(ح) خبب
١٧٩	٥	(ح) قالوا وانما
١٨٠	٥	(ح) المراماة فقال القارى:
١٩٨	١٢	وُدِ
٢٠٢	٨و١٣	يألف — فلو
٢٠٤	١٧	أسَّسَهُ
٢٠٦	١	صهلةُ
٢٠٩	٦	وملأُوا
٢١٤	٣	رصِّهِ
٢١٧	١٧	مختلفوا
٢١٨	٢	(ح) شرشظاظ
٢١٩	١١	جذِيمةَ
٢٢٣	٥	(ح) راجعت جزءاً
٢٢٨	٨	وتأمنَ
٢٣٣	١٧	العدويّ
٢٤٣	١٤و١٥	غادٍ — وموموقة

صفحة	سطر	
٢٤٦	٦	الناسة
٢٤٦	١	(ح) الباسة
٢٤٨	١	موَاليه
٢٤٨	٩	(ح) وتشاورهم
٢٥١	٣و٦	(ح) يضل — أسماء البحر
٢٥٨	٥	أميرَ الحبش
٢٦١	٦	أبيه
٢٦٨	١١و١٢	أتغيَّبِ — أتجنَّبِ
٢٧٥	١٧	مالُ
٢٨٠	٢٠	بادى
٢٨١	٣	والندى
٢٨٣	٣و٤و١١	مقادم ـ لا ننكل ـ من سعى
٢٩٦	٦	ياهرمُ
٢٩٦	٢	(ح) علاثة
٣٠١	٤	نقصٌ
٣٠٤	١٣	ونضمن
٣٠٧	١٨	وأعيا
٣١١	٢	قولهِ
٣١٢	١١	لم تأكلهم
٣١٤	٥	لاقت بى أبا دلفٍ
٣١٤	١٢	لم يحارب
٣١٤	٨	(ح) تلاقى طالبا
٣١٧	١	(ح) البطء
٣٣٤	١٥	ونزعَ سِنانَ

صفحة	سطر	
٣٤١	١ (ح)	وإني أرى
٣٤١	٧ (ح)	تنظر
٣٥٠	٢ (ح)	الأمواه
٣٥٦	٢٢	وانعم بآذرماه عيشاً وخُذْ * من لذة العيش بمفتاح
٣٦١	٢٠	عرايا
٣٦٣	٦	الفوريم
٣٦٤	١٦	انجرّ
٣٧٤	١٧	وتحريك
٣٧٥	١٣	استئذان
٣٨٤	١٩	الخزيرة
٣٨٦	٢٣	فينا ينتقر

ج : ٢

صفحة	سطر	
٣	٥ (ح)	حِباء
٨	٩	مروءة
١٣	١٣	وإياك والجمالَ
١٤	٤ (ح)	واحدها نيزك
١٥	١٥	مُحلَوْلِكة
١٩	١	بُنَيّة
٢٣	٢ (ح)	ممدود
٢٤	٥	جريئة ـ بديئة
٢٥	١٢ (ح)	أمعن

صفحة	سطر	
٣٢	٧	ذوي عدي
٣٣	١ (ح)	والفره جمع فاره
٣٦	١٩	معايبه
٤١	١٨ و٢١	لا تُطْفَأُ ـ فجلسوا
٤٤	٣	عكومها
٤٨	٢	مخض اللبن
٦٣	٢٠	القُطار (بالقاف مضمومة)
٦٤	١٣	الشرعبيّة
٦٤	٢ (ح)	الصدئ
٧٠	١٣ (ح)	بني السوداء
٧٦	٢	كَمِيناً
٧٨	٢ (ح)	ثلم
٨١	٤	الغضا
٨٨	١٧ و١٨	الجحافل ـ جحفلة
٩٠	١١	نَهْد
٩٨	١١	أعلى الرأس
١٠٣	٥	إذا شِئْتُمُ
١٢٧	١٨	وقيل حارث
١٢٩	١١	عمرو
١٣٣	٧ (ح)	وقولي مصدر
١٣٧	١٣	جزاءَه
١٣٨	٦	ولَوْا
١٤١	٣ (ح)	تسمية
١٤٧	١ و١٩	المُصوِّتِ ـ قتلته

صفحة	سطر	
١٦١	١	حدُّ
١٦١	٤و٦	(ح) ما ارتفع ـ لأنَّ
١٦٦	٣	(ح) وظبون
١٧٤	٣	(ح) ذكر قرطَيْها
١٧٦	٣	امرئ القيس
١٧٧	١	(ح) يوماً
١٨١	٢	(ح) الأبنية
١٨١	٤	(ح) ومدّ الهمزة
١٨٤	٨	مِضَرَ
١٨٨	٣و٤	عَرَابة
٢٠٢	١	(ح) عنده
٢٠٨	٤	(ح) خرؤهم
٢١٤	٥	(ح) فضارعتم
٢١٩	٣	وعيوباً ـ بها هو
٢٢٥	٣	صابئاً
٢٥٢	٩	رحمةُ
٢٥٧	٢٠	وقولا له آأنت سويت هذه
٢٥٨	١٠	بجيرا
٢٦١	٣	إياداً
٢٦٥	١٠	وطُرَفاً
٢٦٦	٢٠	غُمْدان

صفحة	سطر	
٢٧٠	٣	(ح) الروض
٢٨٥	٢	(ح) المسؤول عن
٢٨٧	١٦	طهارات
٢٨٨	١٧	ومخايل
٢٩٠	٩	للحمس
٢٩١	١٠	قريشاً
٢٩١	٩	(ح) فاختة
٢٩٥	١٦	أشربها
٣٠٠	٥	السوءآء
٣٠٣	٢	(ح) للمرء
٣٠٤	١	لم يَعَفْ
٣١٤	٧	(ح) هذا ويجوز أن
٣١٥	١٧	خيفة
٣١٩	١	المُدام
٣٢٢	٥	(ح) أهل العبد
٣٣١	٢٠	فعم
٣٤١	١١	فلأياً ما أسال
٣٥٥	٢	(ح) النظم
٣٥٩	١	ولم أكن
٣٦٠	٢٢	قسطاً
٣٦٣	١٢	ترحةً

هذا وخفاء بعض النقط أو سقوطها أو زيادتها . ووضع بعض الهمزات فى غير موضعها لا يخفى على قارئ . وقد أهملنا تصحيح بعض الكلمات لوجود مثيل لها أشرنا اليه فى هذا الجدول

دروس التاريخ الإسلامي

تأليف : محي الدين الخياط

الجزء الخامس

يظهر قريباً — الجزء الخامس — من هذا الكتاب النافع الغني بشهرته وشهرة مؤلفه عن كل تعريف وتحبيذ

وقد اشتمل هذا الجزء على — تاريخ الدول الاسلامية في الاندلس ، وعلى اجمال تاريخي لبقية الدول الاسلامية الصغرى —

فنحول انظار حضرات أساتذة المدارس والمعجبين بآثار المؤلف اليه — وهو يطلب من مكان طبعه ونشره — ادارة المكتبة الأهلية — بشارع غيط العدة نمرة ٣٠ — بمصر

المكتبة العربية - في بغداد

لصاحبها نعمان افندي الاعظمي